دراسة

مكتبة

بافل با سينسكي

ليف تولستوي ـ الابن في ظل أبيه

قصة الحب والكراهية

ترجمة: د. نزار عيون السود

انضم لـ مكتبة .. امسح الكود

انقر هنا .. اتبع الرابط

telegram @soramnqraa

ليف تولستوي-

الابن في ظل أبيه

قصة الحب والكراهية

رواية

اسم المؤلف: بافل باسينسكي

Author: **Павел Басинский**

عنوان الكتاب: ليف تولستوي - الابن في ظل أبيه... قصة الحب والكراهية

Title: **Лев в тени льва История... любви и ненависти**

ترجمة: د. نزار عيون السود

Translated by: Dr. **Nizar Oyoun Elsoud**

الناشر: دار المدى

P.C.: **Al-Mada**

الطبعة الأولى: **2023**

First Edition: **2023**

جميع الحقوق محفوظة: دار المدى

Copyright © Pavel Basinskiy, 2013

للإعلام والثقافة والفنون

Al-mada for media, culture and arts

بغداد: حي أبو نواس - محلة 102 - شارع 13 - بناية 141

Iraq/ Baghdad- Abu Nawas-neigh. 102 - 13 Street - Building 141

+964 (0) 770 2799 999   +964 (0) 780 808 0800

+964 (0) 790 1919 290

بيروت: بشامون - شارع المدارس

Beirut: Bchamoun - Schools Street

+961 175 2617   +961 706 15017

+961 175 2616

دمشق: شارع كرجية حداد- متفرع من شارع 29 أيار

Damascus: Karjieh Haddad Street - from 29 Ayar Street

+963 11 232 2276   +963 11 232 2275

+963 11 232 2289   ص.ب: 8272

مكتبة

t.me/soramnqraa

بافل باسينسكي

مكتبة
t.me/soramnqraa

ليف تولستوي - الابن في ظل أبيه

قصة الحب والكراهية

ترجمة: د. نزار عيون السود

أعبر عن شكري القلبي
لكل من ساعدني
في إعداد هذا الكتاب:

ف. ي تولستوي مستشار الرئيس لشؤون الثقافة، ن. آ. كالينينا مديرة متحف تولستوي، ل. ف. كاليوجنايا نائبة مديرة المتحف للشؤون العلمية، ت. غ. نيكيفوروفا أمينة قسم مخطوطات مؤسسة ل. ن. تولستوي، جميع العاملين في متحف - عزبة ل. ن. تولستوي في ياسنايا بوليانا.

إن كل من يفهم تولستوي

لا يجري وراءه، وكل من

يجري وراءه لا يفهمه.

ف. آ. ماكلاكوف

احذرْ! إنه تولستوي!

في خريف عام 1916، حلت مصيبة بفالنتين فيودوروفيتش بولغاكوف، السكرتير الأخير لليف تولستوي. جاءته إلى موسكو من سيبيريا والدته المريضة، التي أكد الأطباء أنها مصابة بالسرطان. وعندما فحصها الطبيب النسائي المعروف كوزلوفسكي في موسكو أكد هذا المرض، ونصحها بالتوجه إلى الطبيب النسائي اللامع فلاديمير فيودوروفيتش سنيغيريف.

بيد أنه لم يكن من السهل قط مقابلته.

قال الخادم «المحترم» الذي فتح باب قصر سنيغيريف الأمامي في منطقة ديفيتشي بولي:

- يجب دفع مبلغ خمسة وعشرين روبلاً للزيارة!

- سندفع هذا المبلغ، يهمنا أن نعرف متى سيستقبل المريضة.

- بعد أسبوع ونصف، حسب ترتيب أسماء المرضى المسجلين.

- ألا يمكن قبل ذلك؟

- إطلاقاً.

يكتب بولغاكوف في ذكرياته: «ابتعدنا عن الباب حزانى، وأمي بادئ ذي بدء، التي لم تفرح بالإقامة في موسكو بالفندق، والأهم أنها كانت خائفة ومضطربة من المرض الرهيب، الذي أهملت علاجه، وكان تأجيل القرار بإجراء العملية الجراحية كل يوم إضافي يكاد يرقى إلى الحكم بالموت».

وعندها قرر بولغاكوف اللجوء، طلباً للمساعدة، إلى صوفيا أندرييفنا تولستايا، التي كان يعتبرها «أمه الثانية». فأمام عيني سكرتير تولستوي

الأخير حدث النزاع العائلي القاسي الرهيب الذي سبق هروب تولستوي من ياسنايا بوليانا. وقد عاش في منزل ياسنايا بوليانا بعد وفاة الكاتب أيضاً، من كانون الأول / ديسمبر عام 1912 إلى شهر/ أغسطس عام 1916، حيث كان يمارس وصف وتنظيم مكتبة ليف تولستوي الشخصية. وفي هذه الفترة أصبح قريباً جداً من صوفيا أندرييفنا التي ارتبط معها بعلاقات البنوّة. فعندما سكن بولغاكوف لأول مرة في ياسنايا بوليانا في كانون الثاني/ يناير عام 1910، قبل فترة قصيرة من هروب تولستوي وموته، لم يكن قد أكمل عامه الرابع والعشرين. وكان أبناء صوفيا أندرييفنا وليف نيقولايفتش الحقيقيون سيرغي، إيليا، ليف، أندريه، ميخائيل يقيمون منفصلين عن أسرتهم، في عقاراتهم، وفي موسكو، وبطرسبورغ، وخارج روسيا، ولا يحضرون إلى ياسنايا بوليانا إلّا في زيارات قصيرة مع زوجاتهم وأولادهم.

وهكذا حصل أن «بولغاشا» (بولغاكوف)، الحسّاس دوماً والمتعاطف دائماً مع صوفيا أندرييفنا أصبح بمنزلة ابنها.

كان البروفيسور سنيغيريف قريباً من أسرة تولستوي. ففي خريف عام 1906، وفي منزلها بياسنايا بوليانا، وعلى مسؤوليته الخاصة، أجرى لصوفيا أندرييفنا عملية جراحية عاجلة ومعقدة باستئصال كيس صديدي لم يكن يقدم عليها أي جراح عادي في تلك الظروف. وقد أنقذ بذلك حياة زوجة الكاتب. أرسل بولغاكوف برقية لصوفيا أندرييفنا كي تخاطب سنيغيريف بشأن والدته. يقول بولغاكوف: «في اليوم التالي، وصلني جواب ببرقية من صوفيا أندرييفنا الغالية، أن رغبتي قد تم تنفيذها».

في هذه المرة، تمّ تنبيه الخادم «المحترم»، ولم ينبس بكلمة واحدة بخصوص الـ 25 روبلاً، وقال:

– تفضلوا!

بعد فحص والدته، شخّص أيضاً المرض بأنه سرطان، وبعد بضعة أيام أجرى للمريضة عملية في مستشفى مساعده الدكتور بوليلوف، الذي كان قد ساعده قبل عشر سنوات في إجراء عملية لصوفيا أندرييفنا. وقد تمت العملية بنجاح، ولحسن الحظ تبين أن الورم غير سرطاني.

يقول بولغاكوف: «ذهبت أنا ووالدتي إلى القصر - العيادة: لنشكر البروفيسور. وهنا، ترك مريضته السابقة في قاعة الانتظار، واقتادني إلى مكتبه، وبدأ الحديث عن تولستوي. قال سنيغيريف:

- أَتَذكُر، أن تولستوي يمتص الناس ويتشرّبهم. الجميع، كل من يقترب منه يمتصه ويستوعبه دون أثر، ومهما كان موهوباً، هذا الشخص أو ذاك، المغرم بتولستوي، يسلِّمه كل شيء، ولا يبقى أي شيء منه...».

جاءت غرابة هذا القول من أنها وردت على لسان رجل كان يكنّ دوماً الاحترام العميق لتولستوي. والأهم من ذلك، قيلت هذه الكلمات بعد مضي ست سنوات على موت حكيم ياسنايا بوليانا، وكانت تُروى وكأن تولستوي لا يزال حياً، وخطر «الاقتراب» منه يعادل خطراً جسدياً.

«احذر! إنه تولستوي!».

إن بولغاكوف، الذي لم يكن يحب تولستوي فحسب، بل كان يقدّسه، مثله مثل كل من كان على علاقات حميمة معه، قد حفظ كلمات سنيغيريف هذه مدى الحياة. «هذه الكلمات كنت أتذكرها كثيراً فيما بعد، عندما كان يبدو لي أنني أنا نفسي على حدود «امتصاصي» الكامل من قبل حكيم ياسنايا بوليانا الإنسان العبقري. كنت أرغب بالاحتفاظ ببقايا «ذاتي»...» - هذه الكلمات كتبها بولغاكوف الذي انقضت حياته بالقرب من تولستوي بصورة مباشرة، في الأشهر الأخيرة من حياة العبقري.

ولكن تصوروا شخصاً، ليس مرتبطاً ارتباطاً وثيقاً بتولستوي فحسب، بل كان ابنه، من لحمه ودمه، وحاول خلال ذلك مشاركة قناعات أبيه، وأن يصبح «تولستَوياً» بالمعنى الحرفي للكلمة، واجتياز طريق أبيه كله، مكرراً إياه في كل شيء، باستثناء شيء واحد لا يمكن تكراره - وهو عبقريته. لا يمكن تصور مصير أكثر بؤساً! لكن الظرف القدري الأشد في هذا المصير هو أن اسم الابن كان **ليف تولستوي**. لقد كان هذا خطأ الوالدين لحظة اختارا له هذا الاسم، وكان ثمنه تحطيم حياة الابن.

الفصل الأول

ياشا بوليانوف

مكتبة
t.me/soramnqraa

ابن واحد –ليس ابناً، ابنان– ابن ونصف، ثلاثة أبناء – ابن

• مثل شعبي

الرواية الأولى، الابن الثالث

ليف لفوفيتش تولستوي، أو ليوفا، ليوفوشكا، ليولا، كما كانوا يدعونه في الأسرة، كان الطفل الرابع والابن الثالث لصوفيا أندرييفنا وليف نيقولايفتش تولستوي. ولد في 20 أيار/ مايو عام 1869 في ياسنايا بوليانا، على الأريكة الجلدية نفسها التي ولد عليها ليف نيقولايفتش، وأخوته وأخواته، وابناه الأكبران سيرغي وإيليا، وابنته تاتيانا...

كانت الولادة صعبة وطويلة الأمد. لأنه بالإضافة إلى القابلة المعتادة في مثل هذه الحالة، استُدعي من تولا الدكتور كنيرتسر. لكن الرجلين، تولستوي والدكتور، تعبا من الانتظار، لدرجة أنهما ذهبا للنزهة في غابة تشبيج. وبعد أن بقيت وحدها مع القابلة، وضعت صوفيا أندرييفنا بأمان صبياً قوياً بشعر طويل أسود اللون. و«ركل بقدميه بقوة، وصرخ بأعلى صوته معلناً قدومه إلى عالم بدا له معادياً، بعد الراحة السعيدة تحت قلب أمه» – هكذا يتخيل ولادة ليف مؤلف كتاب «أبناء تولستوي» حفيد الكاتب سيرغي ميخائيلوفيتش تولستوي.

يؤيد ليف لفوفيتش رواية ولادته هذه، حيث يقول: «وُلدت في مجتمع نسائي...» (كتاب ذكرياته «تجربة حياتي»). وفي مذكرات صوفيا أندرييفنا «حياتي» يرد أيضاً ذكر الطبيب كنيرتسر، الذي كان «قلقاً للغاية»،: ولم يتوقف على العشاء عن تناول السرطان البحري»، ولم يرد أي ذكر عن مشاركته في التوليد. ولم يكن باستطاعة زوجة تولستوي أن تستبعد زوجها من هذا الحدث. وحدث على هذا النحو، بأن الدكتور لم يكن موجوداً، لكن ليف نيقولايفتش ظهر في اللحظة الحاسمة على الباب. «أخيراً، في الساعة الحادية عشرة ليلاً سُمع صراخ الطفل، وسُمعت، كالعادة إثره، تنهدات ليف نيقولايفتش». إن هذه «التنهدات» تخترعها صوفيا أندرييفنا من رأسها، ولا سيما أنها كتبت مذكراتها بعد مرور فترة طويلة. ويبدو أنهم في الأسرة، كانوا يعرفون أن ليف نيقولايفتش لم يكن موجوداً أثناء الولادة: فقد كان يتنزه في الغابة مع الدكتور. ومن هنا جاءت التقاليد العائلية. لكن صوفيا أندرييفنا كان لديها موقف خاص من ولادة ليف. ولا عجب أن يرد ذكره في مذكراتها أكثر من غيره من الأولاد. لم يكن الطفل البكر، لكنه كان الطفل المنتظر، بشكل مقلق، فترة طويلة. فبعد ولادة سيرغي وتاتيانا وإيليا، حدث إجهاضان على التوالي لدى زوجة تولستوي. هذا في حين أن الزوج كان يحلم بتكاثر الأسرة، وكانت هي تعبد زوجها. ففي عام 1869 أنجز «الحرب والسلام» وأصبح كاتباً عظيماً. كانت تساعده في تأليف الرواية، وتعيد كتابة أجزاءها عدة مرات، وتقترح بعض التفاصيل بخصوص الشخصيات النسائية، حتى إنها كانت تصحح، سراً، بعض الجمل غير المناسبة، حسب رأيها. وأخيراً، كانت تعرف أنه في شخصية ناتاشا روستوفا المتزوجة وضع ملامحها وطباعها، خالقاً بذلك نموذجاً للمرأة المتزوجة السعيدة. إن ولادة ليوفا في عيد ميلاد «الحرب والسلام» قد وحدت مجالين في كل واحد، الحقيقة والرواية الأدبية، في كل متناغم منسجم. ويبدو أن عام 1869 كان أسعد عام في حياة هذه الأسرة.

لا نعرف الأسباب التي دعت إلى تسمية الابن الثالث في الأسرة باسم ليف (الأسد)، كما لا نعرف لماذا سمي الأب ليف تولستوي. لم يتميز تولستوي بالغرور العائلي، وحتى فترة متأخرة، لم يعرف أبناؤه أن أباهم

كاتب عظيم. ولم يكن من المتعارف عليه الحديث عن ذلك في الأسرة. ولكن يمكننا فهم مزاج المرأة التي أهدت زوجها المحبوب الابن الثالث المنتظر، وخاصة في عام انتصاره الأدبي الأكبر. ومن ناحية أخرى، في عام 1869، كانت أسرة تولستوي لا تزال أسرة نبيلة عادية. وفي تلك الفترة، لم يكن باستطاعة أحد، ولا حتى تولستوي، أن يفكر، أنه بعد حوالي خمسة عشر عاماً، سيغدو اسم ليف عقوبة قاسية للصبي، وذريعة للسخرية («ما اسمك؟ أنت ليف تولستوي؟!») وسبباً لتفكير ممض لا يشفى بهذا الخصوص. وماذا في الأمر، في النهاية، هو ليس شخصاً آخر، بل ليف تولستوي ذاته؟!

هذا ما سيحدث فيما بعد، عندما يدوّي اسم ليف تولستوي في العالم كله، وعندما تشارك نصف البشرية أفكاره، والنصف الثاني يعرف أفكاره على الأقل. أما في عام 1869، فقد كان تولستوي كاتباً، كتب رواية تاريخية-عائلية ضخمة، أسعدت جمهور القرّاء، ولكن ليس غالبية النقّاد. ولعل نيقولاي نيقولايفتش ستراخوف هو وحده الذي كتب بحقها كلمات من ذهب: «يا لها من رواية هائلة ويا له من انسجام رائع! آلاف الوجوه، آلاف المشاهد، جميع أنواع مجالات حياة الدولة والحياة الخاصة، التاريخ، الحرب، جميع الأهوال الموجودة على الأرض، جميع العواطف والأهواء، جميع لحظات الحياة الإنسانية من صرخات الطفل المولود إلى النفَس الأخير من عاطفة العجوز المحتضر، جميع الأفراح والأحزان التي يمكن أن يعانيها الإنسان، جميع أنواع الحالات المزاجية النفسية، من شعور اللص الذي سرق من رفيقه عشرة روبلات إلى أعلى مراتب البطولة وأفكار الاستنارة الداخلية، - كل هذا في لوحة... «الحرب والسلام» إنه عمل عبقري».

ولكن، في الوقت نفسه، لاحظوا بسخرية في صحيفة «صفحة بطرسبورغ» (بيتربورغسكي ليستوك) أن «ستراخوف وحده يعترف بعبقرية الكونت تولستوي». أما في صحيفة «صحيفة بطرسبورغ» (بيتربورغسكايا غازييتا) فقد كتبوا بأنه على مثل هؤلاء النقاد «يمكن الضحك أحياناً عندما يختلقون شيئاً غريباً للغاية، مثل الإعلان عن الأهمية العالمية لروايات الكونت ليف تولستوي». أما في صحيفة «الشرارة» (إيسكرا) فقد نشر الكاتب الساخر الشهير دميتري مينايف القصيدة الشعرية التالية:

الناقد المنحرف يهذي
نعم، إنه عبقري!...
انتظر، انتظر!...
من هو – بينديكتوف؟
الناقد:
ليف تولستوي!...
شخص:
أرى أنك خجلت... يا لها من صفقة.!
لا يصح الحديث بدون طلاء، عبثاً.!

في الانطباع الأول من قراءته «الحرب والسلام» دعاها دوستويفسكي بـ «الأدب الإقطاعي»، وبعد ذلك بفترة طويلة أعطى دوستويفسكي رواية ليف تولستوي العظيمة هذه حقها من التقدير والاعتبار.

حتى الكاتب سالتيكوف – شدرين قال إن هذه الرواية «ثرثرة المربيات والأمهات»، وأن جميع المشاهد الحربية فيها «كذب وبهرجة»، وأن الجنرالين باغراتيون وكوتوزوف «دميتان».

كذلك تورغينيف، الأديب الروسي الكبير، لم يفهم على الفور قيمة رواية «الحرب والسلام»، فقد قال عنها: «... كم هذا تافه وماكر، أَوَلم يشعر تولستوي من الملل من هذه الأحكام الأبدية، حول ما إذا كنت أنا جباناً أم لا؟ – هل كل هذا مرض المعركة؟ أين هنا ملامح العصر؟ أين اللوحات التاريخية؟» وفيما بعد فقط سيقول: «كم من لوحات الجمال الرائعة من الدرجة الأولى في هذه الرواية! كم من الحيوية! حقيقة، كم من الطلاوة، بحيث لا يصح عدم الموافقة على أنه مع ظهور رواية «الحرب والسلام» أصبح تولستوي في المركز الأول بين جميع كتّابنا المعاصرين...».

في عام 1869 لم يكن ما ينبئ بأن تولستوي سيغدو معلِّم الإنسانية، وخالق حركة دينية جديدة. ومع ذلك، في صيف هذا العام، وفي طريقه إلى مقاطعة بينزا، أصابه رعب «أرزاماس» الشهير (مدينة توقف فيها تولستوي وشعر

برعب الموت، واضطرابات شديدة، وحالة نفسية كارثية -*المترجم*)، وكان نذير الانقلاب الروحي الذي أصابه فيما بعد. طيلة الصيف بعد ولادة ليوفا، كان تولستوي يقرأ شوبنهاور وهيغل، لكنه كان لا يزال بعيداً عن اكتشافاته الفلسفية - الدينية، دون الأخذ في الحسبان تأملاته وأفكاره التاريخية في «الحرب والسلام» التي لم يهتم بها القراء وأثارت سخرية النقّاد.

أن تكون ابن كاتب، وحتى ابن كاتب معروف، وأن تحمل كنيته واسمه فهذا أمر عادي. وهو لا ينفي أن تكون كاتباً. وثمة سابقة، ألكسندر دوماس - الابن، ولماذا لا يظهر تولستوي-الابن؟ ولكن أن تحمل اسم وكنية ليس مجرد كاتب، بل مالك الأفكار والمشاعر، المبشر العظيم، الذي وُضع جنباً إلى جنب مع السيد المسيح والنبي محمد، فهذا شيء آخر تماماً! لا يمكن لأية ثقافة أن تحتمل اثنين مثل ليف تولستوي.

ليوفا تولستوي، الذي ولد في شهر أيار/ مايو المزهر عام 1869 في ياسنايا بوليانا، لم يكن يعرف شيئاً عن مستقبله. إنه كان مجرد الصبي ليولا، ابن الكونت ليف تولستوي، الذي كتب رواية رائعة عن حرب عام 1812.

سُمر وشُقر

بقيت صوفيا أندرييفنا حتى كهولتها امرأة سمراء اللون بعينين بنيتين داكنتين. وكان ليف نيقولايفتش أشقر الشعر، رمادي العينين. وانقسم جميع الأبناء في الأسرة إلى «سُمر» و«شقر» -تبعاً للون العيون والشعر. «السمر» كانوا شبيهين بالأم، و«الشقر» كانوا شبيهين بالأب. وبعد ولادة ليولا، حصل التكافؤ في الأسرة- اثنان «أسمران»، تانيا وليف، واثنان «أشقران»، سيرغي وإيليا. وبعد عامين وُلدت ماشا «الشقراء»، وبعد ماشا، بعد عام، وُلد بيتيا الأسمر، وبعد عام آخر، نيقولشكا الأسمر؛ ومن بعدهم فاريا التي عاشت نصف ساعة فقط.

بلغ مجموع أولاد أسرة تولستوي ثلاثة عشر طفلاً، لم يعش منهم حتى سن الرشد سوى ثمانية. في كتابه «تجربة حياتي» يذكر ليف لفوفيتش ملاحظة هامة: «... من بين إخوتي المتوفين صغاراً ثلاثة كانوا بعيون غامقة

أقرب إلى نموذج «السمرة»، ما يدل على أن هذا النموذج من أسرتنا كانت الحياة بالنسبة له أشد قساوة».

ويورد ملاحظة أخرى: «أختي الكبرى تانيا وأنا -أبناء الأسرة «السمر»- أخذنا من المهارات العقلية التي يمكن تسميتها بالمظهر الداخلي أو الروحي للإنسان، أكثر من أبينا ونسله، لكننا من الناحية الجسدية نشبه أمّنا؛ أما بقية الأبناء، ورغم أنهم يشبهون أباهم كثيراً من الناحية الجسدية (أخي إيليا مثلاً، كان شبيهاً جداً بوالدنا من حيث الشكل الخارجي)، ولكن من حيث الناحية الروحية والعقلية كانوا لا يشبهونه إلا قليلاً. ورسائل أخي إيليا مثلاً، تشبه رسائل أمي إلى حد مضحك».

جميع أبناء تولستوي كانوا موهوبين وأذكياء، كل على طريقته. لكن هذا تجلى في الأبناء «السمر»، تاتيانا وليف، بشكل أكثر تركيزاً، إن صح التعبير. والأهم، هذا أعطى نتائج ملموسة. فقد كانت تاتيانا فنانة ماهرة، قدّر لوحتها الفنان الكبير إيليا ريبين، حتى إنه كما قال، يحسدها. أما بالنسبة لليف، فقد تجلى في كثير من «الأجناس» - من الأدب والنحت إلى النشاط الاجتماعي والنظرة الفلسفية المتميزة.

في الوقت نفسه، وككاتب، كان إيليا، غالباً، أكثر موهبة من ليف. فقصته الطويلة «الجثة» (التي تشبه بموضوعها قصة أبيه الطويلة «الجثة الحية») وقصصه كانت تنبئ بولادة كاتب كبير. أما ليف، الذي نشر كثيراً من القصص والقصص الطويلة، وبعض الروايات، ومجموعة من المسرحيات، وكثيراً من الخواطر الأدبية والمقالات -ولم يصبح كاتباً كبيراً- بقي في مستوى الوسط من حيث موهبته الأدبية. وهذا أمر كان يدركه الجميع، حتى أقارب وأصدقاء ليف لفوفيتش. ولكن هل أدرك هو نفسه ذلك - هذا سؤال كبير.

مع ذلك، إيليا تولستوي لا وجود له تقريباً، ككاتب، من الناحية الواقعية في تاريخ الأدب الروسي. أما ليف تولستوي -الابن- فهو شخصية واقعية في المسيرة الأدبية في بداية القرن العشرين. كان النقد الأدبي يكتب عنه. وكان معروفاً لدى كبار الناشرين. وكان يتراسل مع أنطون تشيخوف، ونيقولاي ليسكوف، ومكسيم غوركي... بالطبع اسمه وكنيته لعبا دوراً

كبيراً. ولكن تصميمه وعمله في مجال الأدب لعبا دوراً. والأهم هنا -لا يقل عن ذلك- رغبته الشديدة بأن يصبح كاتباً محترفاً.

ويمكن إضافة ملاحظة أخرى. لقد كان لدى الأبناء «السمر» قدر أكبر من الذوق والرشاقة. وممّا يدعى بالفرنسية comme il faut (كل شيء كما يجب). فقد كانت تاتيانا في شبابها مصممة أزياء وذات أناقة مذهلة، وكانت تحب حفلات الرقص، ولديها العديد من المعجبين الأرستقراطيين. وكانت تعرف كيف تغزو القلوب. كانت محبوبة من قبل أمها وأبيها. وبصرف النظر عن ظروف حياتها الصعبة فيما بعد، ومهما جرى لها، لم تفقد تاتيانا مظهرها الخارجي الجذاب.

ويمكن قول الشيء نفسه عن شقيقها الأصغر. عندما التقى به ابن أخيه سيرغي ميخائيلوفيتش تولستوي في فرنسا عام 1928، وقد رأى عمه على الشكل التالي: «كان يقترب من عامه الستين، لكنه كان نحيفاً، قوياً، أنيقاً، خطوته مرنة، خفيفة. من الظهر كان يبدو أصغر بعشرين سنة، لكن وجهه بتجاعيده كان يعكس المشاعر والعواطف الصاخبة التي أحرقت حياته العاصفة».

تولستوي وأبناؤه

لم يكن تولستوي يعامل أبناءه بلطف زائد عندما كانوا صغاراً. وهذا ما كان يزعج صوفيا أندرييفنا، لكن الزوج لم يكن يحب التعامل مع الأطفال الصغار «babies»، كما كانوا يسمونهم على الطريقة الإنكليزية.

في عام 1872، وفي رسالته إلى عمته ألكسندرا أندرييفنا تولستايا، اعترف تولستوي: «... لا أحب الأطفال قبل عمر سنتين أو ثلاث سنوات -لا أفهمهم. هل قلت لك ملاحظة غريبة؟ ثمة نوعان من الرجال- الصيادون وغير الصيادين. غير الصيادين يحبون الأطفال الصغار-البيبي «baby»، ويمكنهم أن يأخذوهم ويمسكوهم بأيديهم؛ أما الصيادون فلديهم الشعور بالخوف والاشمئزاز والشفقة تجاه الطفل الصغير. ولا أعرف استثناءً لهذه القاعدة».

كان تولستوي آنذاك صياداً مدمناً.

لكنه في الرسالة ذاتها يقوم بوضع «سجل» لأولاده الستة الذين وُلدوا حتى هذه اللحظة: سيرغي، تاتيانا، إيليا، ليف، ماشا، بطرس. لقد كان تبصر تولستوي ونظرته الثاقبة في حدس مستقبل أولاده مذهلَين للغاية. وهما يدلاّن على أنه، على الرّغم من أنه لم يكن يحب الأطفال الصغار، لكنه كان يتابعهم بانتباه كبير.

«الابن الأشقر، الأكبر سناً، ليس سيئاً. يبرز في تعابيره شيء من الضعف والصبر، وهو لطيف جداً. عندما يضحك لا أتأثر كثيراً، أما عندما يبكي فبالكاد أمسك نفسي عن البكاء. جميعهم يقولون إنه يشبه أخي الأكبر. أخشى أن أصدق هذا. هذا سيكون جيداً جداً. سمة أخي الرئيسة لم تكن الأنانية ولا نكران الذات، بل الوسط الصارم بينهما. إنه لم يضحِ بنفسه من أجل أحد، لكنه لم يلحق ضرراً بأحد، ولم يمنع عمل أحد. كان يبتهج في نفسه ويتألم وحده. سريوجا – ذكي، لديه عقل رياضي، وتذوق للفن، جيد في الدراسة، بارع في القفز والجمباز؛ لكنه كسول وشارد الذهن... لديه القليل من الأصالة...».

ولد سيرغي لفوفيتش تولستوي (1863–1947) في تاريخ سعيد لأبيه – 28 حزيران/ يونيو (ولد أبوه في 28 آب/ أغسطس عام 1828). وتخرج من كلية الفيزياء والرياضيات في جامعة موسكو، مظهراً بعض التأييد للميول الليبيرالية بل والراديكالية لشبيبة الطلبة. وكان من أنصار العلم، واختلف في هذا مع أبيه. وكان موهوباً في الموسيقى: يعزف بصورة رائعة على الآلات الموسيقية، واهتم بتاريخ الموسيقى ونظريتها، وألف هو نفسه بعض المقطوعات الموسيقية. عمل في فرعي تولا وسانت بطرسبورغ من بنك الفلاحين، وعمل رئيس مجلس محلي (زيمستفو) في الريف، وجرّب نفسه في العمل كملاّك للأرض. ورغم عدم تطابق آرائه مع آراء والده، كان دوماً متعاطفاً معه، ورافق شخصياً طائفة الدوخوبوريين في هجرتهم إلى كندا، الذين كان لوالده الفضل الأكبر في نقلهم إلى هناك، مضحياً بأرباحه من رواية «البعث». وكان سيرغي لفوفيتش الابن الوحيد الذي أيد الأب أثناء «رحيله». وبعد وفاته بذل قصارى جهده لجعل ياسنايا بوليانا متحفاً. واهتم

بمتحف تولستوي في موسكو، وبإصدار مؤلفاته الكاملة، ورسائل أبيه ويومياته، وألّف عدة كتب رائعة: («أمّ وجَدّ ل. ن. تولستوي»، «الموسيقى في حياة تولستوي» وغيرهما). وهو الابن الوحيد من أبناء تولستوي الذي بقي في روسيا السوفييتية. وكما يكتب ابن أخيه سيرغي ميخائيلوفيتش، كان البلاشفة يحترمونه... ولكن كان ثمة حزن لا يمكن وصفه في مصيره. فقد كان زواجه الأول غير موفق، حيث ماتت زوجته بمرض السل الرئوي. وقد زيّن سنوات حياته الأخيرة في ياسنايا بوليانا وبالتواصل مع نيقولاي بافلوفيتش بوزين كبير العاملين في متحف ياسنايا بوليانا.

ولنتابع «سجل» تولستوي.

«إيليا-الابن الثالث. لم يكن مريضاً قط. عريض الجسم، أبيض مُشرّب بالحُمرة، مشرق المحيًا. دراسته سيئة، يفكر دوماً بما لا يُطلب منه التفكير فيه. نظيف، مقتصد، «ما يخصني» -بالنسبة له هو الأهم. سريع الغضب و violent (نزق)، جاهز فوراً للمشاجرة، لكنه لطيف وشديد الحساسية. حساس -يحب أن يتناول الطعام ويستلقي بهدوء. وعندما يأكل جيليه الكشمش وعصيدة الحنطة السوداء- شفتاه تدغدغان. أصيل، قائم بذاته في كل شيء. وعندما يبكي، يغضب ويصبح بغيضاً، أما عندما يضحك فالكل يضحكون. كل ما هو ممنوع له جاذبيته بالنسبة له، وهو يدركه على الفور...

إذا ما مُتُّ، الابن الأكبر، حيثما كان، سيكون إنساناً مجيداً، وتقريباً في المؤسسة التعليمية سيكون الطالب الأول، أما إيليا فسيهلك ويموت إذا لم يكن لديه مشرف صارم ومحبوب من جانبه».

عاش إيليا لفوفيتش تولستوي (1866-1933) حياة عاصفة. لم ينهِ المدرسة الثانوية، كان مهتماً أكثر بالصيد في ياسنايا بوليانا، وفي ضواحي موسكو، أحب سونشكا فيلوسوفا، ابنة نائب رئيس أكاديمية الفنون، وهو أول الأبناء الذي أهدى والديه حفيدة-آنّا. في رسالته إلى إيليا التي كتبها قبل زواجه، تنبأ له أبوه بتبصر بأنه من «بين 100 فرصة 99 لن يصيبه من هذا الزواج سوى سوء الحظ»، لأن الحياة لن تكون أكثر متعة بالزواج». ومع ذلك، عاش إيليا لفوفيتش وصوفيا نيقولايفنا سعيدين فترة طويلة. فقد استقرّا

في قرية غرينيفو، التي تملكها والدة إيليا صوفيا أندرييفنا، ثم اشترى عزبته منصوروفو في مقاطعة كالوغا. لكن لم يحصل على دخل جيد لا من غرينيفو ولا من منصوروفو. في حين أن أسرته كانت تكبر وتزداد عدداً – فبعد آنّا وُلِد أندريه، وميخائيل، وإيليا، وفلاديمير، وفيرا، وكيريل. وكان إيليا يطلب المال من أمه، لكن أمه كانت ترى، أن «إعطاء المال بصورة عمياء لأولادها، دون الإشراف على شؤونهم أمر مستحيل». ومع ذلك، كانت تتعاطف كثيراً مع إيليا: «كيف يعيش هذا البائس في بيئته غير المفهومة ومزرعته وإدارته الغبية، وأسرته والشك الدائم، وعدم الرضا عن المصير». ولكن على الرّغم من كل الصعوبات والسخافات، بدت حياة إيليا موفقة! كان صياداً ماهراً، «فارساً»، مرحاً، اجتماعياً، إنساناً محبوباً من الجميع. كان موهوباً في كل شيء: في الزراعة، التي قدم لها كل شغفه وجهده، في تجاربه في الكتابة، التي كانت موضع تقدير من والده، وحتى من ذلك الكاتب والناقد القدير مثل إيفان بونين، الذي ارتبط معه إيليا بعرى الصداقة. وقد كتب عنه إيفان بونين فقال: «لقد كان هذا رجلاً مرحاً، مقبلاً على الحياة، داعراً جداً، وموهوباً بطبيعته». شتاءً في القرية، لم يكن إيليا يشعر بالملل قط: كان نجاراً يمارس أعمال النجارة، ويصلح أثاث البيت، ويجلّد الكتب.

والغريب في الأمر، أن الأب خلال ذلك، كان واثقاً أن إيليا *لن يكون سعيداً* في حياته، وذلك في الوقت الذي لم ينبئ بشيء من هذا. وبالذات، عندما كان إيليا يبدو سعيداً في نظر الجميع، يكتب تولستوي في يومياته: «الشيء الرئيس أنه غير سعيد على الإطلاق. إنه مثل المطر بالنسبة للعنكبوت، عندما تبدأ الرطوبة، هو كذلك بالنسبة لي غير سعيد الآن، كذلك سيكون بعد عشرين عاماً».

وقد أرغمته هموم الأسرة ومشاغلها على التخلي عن أعمال ملاّك الأرض. وتنقل بين المدن والقرى، وعاش في بنزا، وساراتوف، وموسكو، وبطرسبورغ؛ وعمل نائباً في المجلس المحلي، ووكيل تأمين، ومخمِّناً في بنك الفلاحين. وبعد موت والده كتب سيناريو لفيلم مقتبس من قصة «كيف يعيش الناس»، حيث قام بنفسه فيه بدور السيد، أما دور الملاك الساقط فقام بأدائه المغني ألكسندر فيرتينسكي الذي كان شاباً آنذاك. وفي أثناء الحرب

العالمية الأولى عمل مراسلاً صحفياً في البلقان. وفي عام 1916 توجه إلى أمريكا لقراءة محاضرات عن أبيه، وفي عام 1917، ترك أسرته في روسيا واستقر نهائياً في أمريكا. وقد أصبح مشهوراً فترة من الوقت بفضل اسمه، كمحاضر، وصحفي، ومعلّق على الأحداث الجارية في وطنه. وكان يعتبر نفسه بفخر، حلقة الوصل بين روسيا وأمريكا، ورجلاً «ذا أهمية عالمية»، مدعواً للعمل على تقارب الديمقراطيتين الفتيّتين في العالم. ولكن بعد قطع العلاقات الدبلوماسية بين أمريكا والاتحاد السوفييتي انطفأ الاهتمام بأدائه. فانصرف إلى هوليوود، وبرز بصفته خبيراً في أفلام روايتي والده «أنّا كارينينا» و«البعث»، ومثّل دور ليف تولستوي نفسه في أحدها. وفي سن الشيخوخة، أصبح شبيهاً بوالده بشكل مذهل، حتى إن بعض السيدات كان يغمى عليهنّ عند رؤيته.

تزوج إيليا لفوفيتش مرة ثانية من الثيوصوفية ناديجدا كاتولسكايا، التي كتبت عنها أخته ألكسندرا المقيمة في أمريكا أيضاً، بأنها غير مريحة وربة بيت سيئة... وقد أصبح أوج رفاهه الأمريكي منزلاً صغيراً في «القرية الروسية Russian Village» في ولاية كونيكت كوت، في المكان الذي كان يدعوه على سبيل المزاح «خنازير بلدي». وقد كتب لأخته ساشا: «عزاء وحيد –في الصيف، عندما يمكن الخروج إلى الطبيعة... رغم أنها ليست تلك الطبيعة كما في روسيا. فرائحة الأرض ليست كرائحة الأرض الروسية، والأزهار لا تتفتح كالأزهار الروسية، والأشجار تنمو بشكل آخر– ومع ذلك فهي الطبيعة ذاتها».

وقد فارق الحياة على يدَي أخته الصغرى ألكسندرا وتوفي لإصابته بمرض السرطان في مستشفى نيوهافن، وقد أرسل رسائل لجميع إخوته وأقاربه طالباً منهم الصفح والمغفرة. ولم يستطع لضعفه أن يكمل رسم علامة الصليب على صدره، وأمسكت أخته بيده وأكملتها...

لم يخطئ تولستوي أيضاً في مصير ابنته الكبرى تاتيانا، الطفل الثاني في أسرة تولستوي والمحبوبة من الجميع.

«عمر تانيا 8 سنوات. يقول الجميع إنها تشبه صونيا، وأنا أصدّق هذا،

ورغم أن هذا جيد، لكنني أصدق ذلك لأنه واضح. لو كانت تشبهني وكانت الابنة الكبرى ولم يكن هناك أطفال أصغر منها، لكانت فتاة غير سعيدة. أفضل سعادة لها أن تهتم بالصغار. يبدو أنها تجد لذة جسدية في حمل جسم الصغير ولمسه. وحلمها الآن واع - أن تنجب الأطفال... إنها لا تحب العمل بعقلها، لكن آلية ذهنها جيدة. ستكون امرأة رائعة إذا رزقها الله بزوج جيد. وأنا على استعداد لمنح جائزة كبيرة لمن يجعل منها امرأة جديدة».

كانت طفولة تاتيانا لفوفنا تولستايا (1864-1950) في أسعد وقت من حياة الأسرة. كان تولستوي يكتب رواية «الحرب والسلام»، وكانت زوجته صديقة ومساعدة له، أما الخلافات بينهما فكانت نادرة. تكتب تاتيانا في مذكراتها: «لقد نشأت بين والدين يحب أحدهما الآخر ويحبّانني. وكان يبدو لي أن هذه العلاقة طبيعية ومتأصلة في الطبيعة الإنسانية».

لقد تشربت تانيا في ذاتها جو الوفاق العائلي وجمعت في نفسها بانسجام خصائص شخصيتَي أمها وأبيها. كانت تحب الثياب الجميلة، والرقص، وحققت نجاحاً كبيراً في حفلات الرقص، وفي الوقت نفسه كانت فتاة جادة وهادفة. كانت تجمع في نفسها بين موهبة الأعمال المنزلية وحبها الشديد للرسم، الذي حققت فيه نجاحات كبيرة، بتخرجها من مدرسة الرسم والنحت والهندسة المعمارية، حيث كان يدرِّسها فاسيلي غريغوريفيتش بيروف وإيونيد أوسيبوفيتش باسترناك. وكان يدعمها بنصائحهما صديقا العائلة رساما العائلة الكبيران نيقولاي نيقولايفتش غي وإيليا يفيموفيتش ريبين. لكنها لم تصبح فنانة مشهورة. وقد حدد مصيرها اندفاعان عاطفيان.

الأول هو حبها لأبيها. فمنذ منتصف الأعوام الثمانينيات، وبعد أن مرت بالعديد من النزوات المجتمعية الأرستقراطية، وقد كان لديها أكثر من عشرة خاطبين، ومن بينهم أشهر شبيبة موسكو الأرستقراطية: الأميران أورسوف وميشيرسكي، والكونت كابنيست، وأولسوفييف، وستاخوفيتش وغيرهم - تخلت عن المجتمع فجأة، وبدأت تخدم بإخلاص وتفان، أباها وأفكاره الجديدة، رغم أنها لم تكن على قناعة داخلية بها. بل ويمكن القول، إنه كرجل، قد حجب عنها بقية الرجال. فهي لم تكن ترى رجلاً مماثلاً لأبيها، بعقله وسحره. وتكتب في يومياتها: «نعم، إنه منافس لأحبائي، لا

يهزمه أحد». وكانت تنسخ يومياته، وقد حلت في هذا الموقع محل صوفيا أندرييفنا، التي اختلفت مع زوجها في آرائه الجديدة. وشاركت مشاركة نشيطة في دار نشر تولستوي الشعبية «الوسيط» (بوسريدنيك). وبالتدريج، أصبحت ضرورية لأبيها كالهواء، ولكن لهذا السبب بالذات... لم يعد يلاحظها. «عندما تكون هنا، أنا لا ألاحظها فقط لأنها جزء منّي، إنها هي أنا بنفسي. إنها قريبة جداً مني».

بيد أن تاتيانا لم تكن ولم يكن بإمكانها أن تكون «جزءاً» منه. فالاندفاع العاطفي الآخر، الذي لم يكن أقل من حبها لأبيها، كان يعيش فيها – أحلامها بأن يكون لها زوج، وأولاد، وأسرة. من الناحية الظاهرية استسلمت لأنانية أبيها، ورفضت باستمرار جميع خاطبيها، وكانت تقنعه بصورة صريحة بأنها لن تتزوج أبداً. لكن غريزة الزوجة والأم التي لحظها الأب فيها منذ أن كانت في الثامنة من عمرها، لم تختف قط، وأصبحت بالنسبة لها، وقد غدت آنسة كبيرة السن، سبباً للمعاناة. وقد كتبت ذات مرة في يومياتها: «أمر محزن للغاية، أسفي على الشباب، أتوق إلى الحب».

لقد كتبت هذه العبارة عندما تعلقت تاتيانا بيفغيني إيفانوفيتش بوبوف، أحد أتباع أبيها المتزوجين. وبسبب قصة الحب الرومانسية المتأخرة، التي لا معنى لها، كانت تتعذب هي نفسها، وتعذب بوبوف، وكان الأب معانياً وقلقاً... وأخيراً في عام 1896 أحبت ملاّك أرض متزوج أيضاً، لديه كثير من الأولاد، وكبير السن هو ميخائيل سيرغييفيتش سوخوتين. فبعد وفاة زوجته، تكللا بصورة متواضعة في عام 1899. وكان عمرها 35 سنة وعمره 49 سنة. وقد صُعق والداها. وشعر العروسان «الشابان» بالحرج.

على أية حال تبين أن ميخائيل سيرغييفيتش سوخوتين رجل طيب وكريم، استحق احترام جميع أفراد أسرة تولستوي. لكن المصير سخر مرة ثانية بمرارة من تاتيانا: فخلال السنوات الخمس الأولى من زواجها كانت تضع كل عام أطفالاً موتى (في المرة الأولى وضعت توأماً). وأخيراً، في عام 1905، وضعت ابنتها الوحيدة تانشكا. في عام 1914 توفي زوجها سوخوتين. ونشأت تانشكا ضعيفة ودائمة المرض، وغير مرة، لم تفصلها عن الموت سوى شعرة. لكن الابنة تانشكا بالذات هي التي وفرت للأم

في المهجر الشيخوخة السعيدة في روما، حيث كانت تشارك في عرض مسرحية تولستوي «الجثة الحية». كان يحضر عرض المسرحية الصحفي الشهير لويجي ألبرتيني، المالك السابق للصحيفة الإيطالية الرائدة Corriere della Sera. وبعد العرض، دعا الفرقة المسرحية إلى قصره، حيث أحب ابنه ليوناردو، الدكتور في الحقوق، تانشكا. وبعد بضعة أشهر تزوج منها. وقد أمضت تاتيانا لفوفنا سنوات عمرها الأخيرة إلى جانب ابنتها وصهرها في روما، حيث انغمست من جديد في الأجواء الاجتماعية الأرستقراطية التي تعرفها. وكان يجتمع في منزل ألبرتيني نخبة إيطاليا المثقفة والأرستقراطية كلها.

عندما تعرف مصير ابنة تولستوي الثانية -ماريا- فإنك تقرأ بشعور خاص السطور المكرسة لها في رسالة الأب للعمة ألكسندرا أندرييفنا: «ماشا الطفل الخامس، عمرها سنتان، تلك التي كادت صونيا أن تموت أثناء ولادتها. ضعيفة، دائمة المرض. جسدها أبيض اللون كالحليب، شعرها أشقر مجعد؛ عيناها كبيرتان، زرقاوان، غريبتان؛ غريبتان من حيث عمق التعبير وجدّيته. ذكية جداً، وغير جميلة. ستكون إحدى الأحجيات. سوف تعاني، وسوف تبحث، ولن تعثر على شيء، لكنها سوف تبحث إلى الأبد عمّا لا يمكن بلوغه...».

ترتبط ظروف ولادة ماريا لفوفنا تولستايا (1871–1906) بالنزاع الجدي الأول بين ليف نيقولايفتش وصوفيا أندرييفنا. عندما كانت ترضع ابنها ليفوشكا، وعمره عام واحد، شعرت بأنها حامل. لم يدخل السرور إلى قلبها هذا الخبر. لقد سئمت من الولادات والإرضاع، وسئمت من الشعور بأنها ليست امرأة بل أنثى بيولوجية. وعلاوة على ذلك، وبعد ولادة ماشا المبكرة، أصيبت بحمىّ الولادة وكادت أن تموت. وقد نصحها الأطباء بالتوقف عن الحمل والولادة. لكن زوجها عارض ذلك بصورة قطعية. فهو لم يكن يتصور الحياة الأسرية بدون ولادة الأطفال. وهذا كاد أن يؤدي إلى الطلاق.

يقول سيرغي ميخائليوفيتش تولستوي، مؤلف كتاب «أبناء تولستوي»، إن طفولة ماشا (ماريا) «قد انقضت بصورة غير ملحوظة في المجموعة الصاخبة من الأبناء الأكبر سناً: سيرغي، تاتيانا، إيليا، ليف، الذين كانوا

يتعاملون معها كما يتعاملون مع «زولوشكا» (سندريلا)، يتركون لها أكثر الأعمال قذارة. وقد اعتادت منذ الطفولة على عدم تجنب العمل القذر.

على سبيل المزاح والجد، كانوا يقولون، إن ماشا مصابة بمرض نفسي يسمّيه الإنكليز «as you like it» («كما تحبها»). أي أنك دوماً لا تفعل ما تريد، بل تفعل ما يريد الآخرون منك.

وفي وقت مبكر، أصبحت ماريا ظلاً أميناً وفياً لأبيها تولستوي. وعندما أصبحت مراهقة، شاركته جميع أفكاره الجديدة: تخلت عن المجتمع الأرستقراطي، وأصبحت نباتية. كانت تعيد كتابة نصوص ليف نيقولايفتش، وتجري مراسلاته، وكانت حلقة وصل في الأمور العملية مع تلميذه وناشره فلاديمير غريغوريفيتش تشرتكوف، الذي كانت تختلف معه في كثير من الأحيان، لغيرتها على أبيها منه. وابنته تاتيانا كانت تغار بدورها، على أبيها من ماريا.

كانت ماشا (ماريا) ابنة تولستوي البالغة الوحيدة التي كان ليف نيقولايفتش يتعامل معها عاطفياً، وسمح لها بالتعامل معه بالطريقة نفسها. ولم يكن ليف نيقولايفتش يسمح بالانغماس بالحنان والعطف مع أبنائه الآخرين. وهذا يرجع إلى حد كبير إلى شخصية ماشا نفسها – فقد كانت دوماً سريعة الاستجابة، لطيفة، جاهزة دوماً لتقديم المساعدة.

بالإضافة إلى خدمة أبيها، كانت تساعد جميع فلاحي ياسنايا بوليانا. كانت ذكية، نحيفة، لطيفة، تتقن عدة لغات أجنبية، وكانت ماريا تساعد الفلاحين في الحصاد، وتحلب معهم الأبقار، وتطفئ النيران، وتسد أسطح الأكواخ المحترقة، وتعلم أطفال الفلاحين القراءة والكتابة، وتعالج الفلاّحات وتولّدهن...

كان الرجال والنساء يعشقونها. ولم يكن هناك شخص واحد لم يتأثر بسحر هذه الفتاة غير الجميلة من حيث المظهر، والرائعة من حيث جمالها الداخلي. ومع تخليها عن المجتمع الأرستقراطي، لكنها لم تتخلّ قط عن المسرات الأرضية: كانت تغني وترقص مع أفراد أسرتها ومع القرويات، وتشارك في عروض الهواة في ياسنايا بوليانا.

ولكن... حدثت معها القصة ذاتها التي حدثت مع تاتيانا. ومهما حاولت التخلي عن طبيعتها الأنثوية من أجل خدمة أبيها والناس البسطاء، كان لا بد للطبيعة من أن تقول كلمتها. وكان حبها الأول لأحد أتباع والدها بافل إيفانوفيتش بريوكوف، الشاب الرائع الذي كان محبوباً في أسرة تولستوي. وقد كاد الأمر أن يصل إلى مرحلة الزواج، الذي كان كثيرون على ثقة بحدوثه. لكن تولستوي رفض طلب بريوكوف، وأقنع ابنته برفض الزواج منه. ويمكننا القول بكل تأكيد إنه خشي أن يفقد مساعِدة قيّمة له.

أما غرام ماشا الجديّ الثاني فكان بـ (بيتيا) رايفسكي – ابن صديق تولستوي إيفان إيفانوفيتش رايفسكي. وهنا تولستوي أيضاً لم يؤيد هذا الزواج. وقد كتب لابنته: «هل من المعقول أن النور قد حُجب ولم يبق منه سوى إسفين، وهذا الشخص على هذا الإسفين. يمكنني أن أرى من الجانب، أن هذا الرجل يغلق العالم عليك، وكلما ابتعد أكثر، كان لك أفضل وأكثر إشراقاً».

أما الشاب الثالث الذي اختارته ماشا فكان معلم الموسيقى المنزلي – نيقولاي زاندر. لكن تولستوي أيضاً كتب له رسالة مهذبة أبدى فيها اعتذاره. ذلك أن زاندر لم يكن مكافئاً لماشا من حيث المرتبة الاجتماعية. لكن الابنة في هذه المرة أبدت عناداً. ولم ترفض زاندر على الفور، وكانت تلتقي به سراً، ما سبّب الرعب لوالدها الذي لم يستطع تصديق ذلك. وانتهت قصة ماشا بأن تعلقت وعمرها ستة وعشرون عاماً بحفيد أخت والدها الأمير نيقولاي أبولنسكي، حفيد أخت ليف نيقولايفتش ماريا نيقولايفنا تولستايا. وباعتباره أميراً، كان عملياً إنساناً فقيراً، لكنه كان طيباً ومحباً لماشا. وكان من الممكن أن يعيشا سعيدين. ولكن هنا أيضاً، شاركت مصير أختها.

كان أبناؤها، واحداً إثر الآخر، يولدون موتى.

كانت تعتقد صوفيا أندرييفنا أن السبب الرئيس لحالات الحمل غير الناجحة لابنتها هو كونها نباتية. لكن حماتها يليزافيتا فاليريانوفنا أبولنسكايا كانت متأكدة من أن ماشا دمرت صحتها بـ «الأعمال المرهقة في الحقل، على قدم المساواة مع الفلاحين؛ أثناء الحريق في القرية، كانت تخوض في الماء حتى خصرها، تنقل الدلاء...» وبطريقة أو بأخرى لم تلد ماريا طفلاً طبيعياً...

كان موقف الأب من هذا مذهلاً! لقد شعر بالطبع بالشفقة على ابنته المفضلة وحاول مواساتها. ولكن بطريقة غريبة... وعلى سبيل المثال، بعد حالات الوضع الفاشلة كان يكتب لها: «مهما كان هذا محزناً بالمعنى المادي، فإنه بلا شك لمصلحة حياتك الروحية...».

في عام 1906، وفي عمر خمسة وثلاثين عاماً، ماتت ماشا فجأة بالتهاب الرئتين، بين ذراعي والدها الذي لم يبتعد عن سريرها. وقد حملوا نعش ماشا على الأيدي عبر القرية كلها. وكان الفلاحون يخرجون ويقدمون المال للكاهن طالبين الصلاة باستمرار على روح «الشابة» الحبيبة. وكانت القرويات يبكين. وقد رافق ليف نيقولايفتش ابنته حتى نهاية القرية، لكنه لم يذهب إلى المقبرة، وعاد إلى منزله.

وكانت أقل إثارة للاهتمام مدونة تولستوي حول ابنه الأصغر بطرس. «الابن الصبي السادس بطرس العملاق. طفل ضخم، رائع، ولد في قلنسوة، يحرك ساعديه، يتطلع إلى مكان ما. وتأتي زوجتي مضطربة من الفرحة والعجلة، عندما تمسك به؛ لكنني لا أفهم شيئاً. أعرف أن لديه احتياطياً مادياً كبيراً. ولا أعرف ما الغرض من هذا المخزون الكبير». ولكن لم يتم التحقق من ذلك. بطرس لفوفيتش تولستوي مات عن عمر سنة (1872–1873).

بعد سنوات عديدة، وقبل وفاته بفترة قصيرة، وفي حديثه مع بافل إيفانوفيتش بريوكوف، تذكّر تولستوي هذه الرسالة وقال، «هكذا حدث»، كما تنبأ به. «عدا التنبؤ عن ليوفا»، ماذا كتب الأب عن ابنه الذي يحمل اسمه نفسه؟

«جميل، شاطر، قوي الذاكرة، رشيق الحركات. كل ملابسه تليق به، وكأنها خيطت خصيصاً له. كل ما يفعله الآخرون يقدر على فعله هو، بمهارة وبشكل جيد. ما زلت لا أفهمه جيداً حتى الآن».

الأبناء الكبار والصغار

لن نفهم خصائص شخصية ليف لفوفيتش ما لم ننتبه إلى ظرف دقيق خاص... لقد كان الابن الأصغر بين أبناء تولستوي الكبار.

وهل من الممكن فصل أبناء تولستوي إلى كبار وصغار بوضوح، إذا كانت زوجته، منذ عام 1863 وحتى عام 1888، تلد الأطفال دون انقطاع؟

على ما يبدو، أن الأطباء ليس فقط بدافع التعاطف، لم ينصحوا صوفيا أندرييفنا بعدم الحمل وإنجاب الأطفال بعد ولادة ماشا العسيرة. ثلاثة بعد ذلك ماتوا صغاراً – بطرس، فاريا، نيقولاي. فقط في عام 1877، بعد انقضاء ست سنوات على ولادة ماريا، وُلد أندريه الذي عاش حتى سن الرشد. وفي عام 1879 وُلد ميخائيل الذي عاش طويلاً إلى سن الشيخوخة؛ وفي عام 1881 وُلد ألكسي ومات في الخامسة من عمره؛ وفي عام 1884 وُلدت ألكسندرا التي عمّرت طويلاً (توفيت في الولايات المتحدة الأمريكية في سن الخامسة والتسعين)؛ وفي عام 1881 وُلد إيفان (فانشكا) الابن الأكثر محبة في الأسرة، مات في سن السابعة من الحمى القرمزية.

وهكذا حصل أن الأطفال الكبار هم سيرغي، وتاتيانا، وإيليا، وليف، وماريا؛ أما الصغار فهم أندريه وميخائيل وألكسندرا.

وكان التميز بين الكبار والصغار سهلاً وبسيطاً. فالكبار كانوا يخاطبون أمهم بصيغة الجمع «أنتم» والأب بصيغة المفرد «أنت». أما الصغار، فبالعكس– يخاطبون الأب بصيغة الجمع «أنتم» والأم بصيغة المفرد «أنت». لماذا حدث هذا؟ قبل كتابة «الحرب والسلام» و«آنّا كارينينا»، والأهم – قبل الانقلاب الروحي الذي أظهر للعالم تولستوياً جديداً، كان الأب بالنسبة للأبناء مجرد أب. والأم كانت مجرد أم وليست زوجة، وليست زوجة مرشد العالم العظيم. وكانت الهموم الرئيسة في تربية الأطفال الكبار تقع على عاتق الأم، بالطبع، لأن الأب كان منصرفاً إلى الإبداع وفي الوقت نفسه إلى زيادة ثروة الأسرة، وشراء عقارات جديدة. وكانت الأم مسؤولة أيضاً عن تربية الأبناء على الصرامة والطاعة. أما الأب فكان يمارس معهم رياضة الجمباز، والصيد، وصيد الأسماك، والتزلج، وغيرها من الهوايات الممتعة...

ومنذ بداية السنوات الثمانينيات كان الوضع قد تغير. ولم يعد تولستوي مجرد أب، بل أصبح داعية كبيراً، يكتبون عنه في الصحف يومياً، بحيث

من المستحيل أن تعثر على عدد من أعداد صحيفة لا يرد فيها ذكر اسمه. وقد أخذ يتردد على منزله يومياً المشاهير-الكتاب، المؤلفون الموسيقيون، الرسامون، الفنانون، المخرجون المسرحيون، رجالات المجتمع. كانوا يرتعشون أمام والدهم، ويدعونه باحترام «ليف نيقولايفتش»- ويفتخرون بالتعرّف إليه. وأخذ يتردد إلى المنزل أناس غرباء، يدعون أنفسهم «تولستويين»، ويعتبرون أنفسهم أبناء تولستوي الروحيين. وأخيراً، من حيث المظهر، أصبح الأب يوماً بعد يوم شيخاً أشيب اللحية، ذا نظرة خارقة من تحت حاجبين كثيفين، يستحيل الاختباء منها. وكان يلاحظ الجميع أن تولستوي، بنظرته الفولاذية، يقلب نفوس الناس رأساً على عقب. أما الأم، ومع بقائها بالنسبة للأبناء مجرد أمّ، ظهرت أيضاً على أنها زوجة هذا الرجل العظيم، لكنها لم تشاركه آراءه، ولم تتّبعه، واستغرقت في اهتماماتها المادية، ولهذا أدانها «التولستويون» في الصحف وتحدثوا عنها. علاوة على ذلك، ظلت، من حيث المظهر الخارجي، تبدو شابة حتى سن متأخرة، فهي كانت أصغر من تولستوي بأربعة عشر عاماً.

لقد قُدِّر لليف وماريا أن يولَدا في تلك الفترة، عندما أصبح والدهما إنساناً عظيماً. وقد مضت طفولتهما في منزل كاتب كبير وداعية ديني جديد، أما مراهقتهما فحدثت في تلك اللحظة التي انتهى فيها والدهما من انقلابه الروحي، وبدأت خلافاته الجدية مع زوجته، وسارت حياة الأسرة كلها بشكل عشوائي. ووجد المراهقان نفسيهما أمام خيار لا إرادي: من على حق؟ كلمة من نسمع؟ من نتّبع؟ من نقلّد؟

ماشا «الشقراء» اتخذت خيارها دون قيد أو شرط لمصلحة الأب واتّبعته. ولولا طبيعتها الأنثوية، لكان من الممكن أن تكون سعيدة كرفيقة وفية مخلصة لأبيها. أما بالنسبة للابن ليف فكان الأمر أشد صعوبة.

ألثغ بالصلصة

كم بكت صوفيا أندرييفنا عندما انتزعت قبل وقت الفطام ثديها من ليفوشكا، عندما شعرت من جديد أنها حامل! لقد حفظت طيلة حياتها

هذا التاريخ - 1 حزيران/ يونيو عام 1870، عندما «صليت من أجله، واشتقت إليه، كما لو أنني أرسلته إلى حياة أخرى بعيدة، وباركته» (كتاب مذكرات «حياتي»).

أصبح ليف لفوفيتش ابن صوفيا أندرييفنا المحبوب. طبعاً، باستثناء فانشكا الذي غرست فيه كل روحها وحبها كأمّ، والذي لم تستطع تعويض خسارته المبكرة فترة طويلة جداً.

لكن فانشكا ولد عندما ارتسم بوضوح في الأسرة النزاع غير القابل للحل، الذي أدى إلى مأساة الأسرة الأخيرة. أما ليفوشكا فقد ارتشف مع حليب أمه ليس عصير الحياة فحسب، بل وحب صونيا الشابة ذات الخمسة والعشرين ربيعاً اللامحدود لزوجها. عندما كان تولستوي في شهر أيلول عام 1969 في مقاطعة بينزا لشراء عقار جديد، كتبت له: «عندما أرضع ليفوشكا فإنني أتفلسف دوماً، أحلم، أفكر بك، ولهذا فهي لحظاتي المفضلة!».

وُلد ليو لا (ليف) في ذروة السعادة العائلية وقبل بداية غروبها. وقد كان أجمل أبناء الأسرة، بشعر كستنائي ذهبي، وعينين كبيرتين سوداوين، طفل مرح، رشيق، يقفز دوماً على أيدي أمه وخالته تاتيانا أندرييفنا كوزمينسكايا، الأخت الصغرى لصوفيا أندرييفنا، المشهورة بأنها النموذج الأول لناتاشا روستوفا الشابة في رواية «الحرب والسلام». في شهر أكتوبر من العام نفسه، عندما وُلد ليو لا، أنجبت تاتيانا كوزمينسكايا الابنة ماشا. وكانت الأختان تتبادلان أحياناً طفليهما: فترضع صونيا ماشا من ثديها، وترضع تاتيانا ليوفا. ويمكن القول، أرضعته على الفور شخصيتَي ناتاشا روستوفا الاثنتين معاً. فمن المعروف، أن تولستوي جمع في هذه الشخصية الأختين معاً.

كان إشبيناه عمة تولستوي بيلاغيا إيلينتشنايا يوشكوفا والأمير سيرغي سيميونوفيتش أورسوف - رجل رائع، جنرال، مؤرخ، عالم رياضيات، أفضل لاعب شطرنج روسي في ذلك العصر.

لم يكن ليو لا (ليف) محبوباً من قبل أمه وحدها. فقد كان جميع الكبار يميزونه ويدللونه. وكان المعلم فيودور فيودوروفيتش كاوفمان يحبه أكثر من جميع أبناء تولستوي. كل هذا كان من غير الممكن أن لا يسبب غيرة

شقيقيه الأكبرين سيرغي وإيليا. فلم يسمحا له بالمشاركة في ألعابهما، وكانا يدعوانه مع ماشا بـ («الصغيرين») «little ones»، في حين كانا يعتبران نفسيهما كبيرين «big ones». وكانا يسخران منه ويلقبانه بـ «الألثغ بالصلصة» لأنه كان يلثغ ويسكب الصلصة على ثيابه. لعل هذا هو الشيء الوحيد الذي كان يزعج طفولته، باستثناء وفاة عمتي أبيه اللتين كانتا تقيمان في منزلهم بيلاغيا إيلينتشنا وتاتيانا ألكسندروفنا، وكذلك الموت المبكر لأخويه بطرس ونيكولنكا ولأخته فارينكا.

كانوا يحبونه، وكانوا معجبين به.

تكتب صوفيا أندرييفنا عندما كان زوجها يتعالج بالكوميس في مقاطعة سمارى: «ليفوشكا يغدو لطيفاً جداً. أسأله مشيرة إلى أمي (حماة تولستوي ليوبوف ألكسندروفنا بيرس -*المؤلف*): من هذه؟ فيجيب: «تيتا». ثم نظر إلى بيلاغيا إيلينتشنا (عمة تولستوي -*المترجم*) وضحك وقال: «تيتات كتار». كم كان قوله مضحكاً. أصبحت لديه الآن عادة أن يقول للجميع «حبيبتي»...».

غالباً ما كان يثير لدى الكبار الشعور بالحنان. إنه ليس طفلاً بل ملاك! في صيف عام 1871 تمت مناولته القربان في كنيسة القديس نيقولاي العجائبي في قرية كوتشاكي. تكتب صوفيا أندرييفنا لزوجها: «ليفوشكا هنا متميز، كما في أي مكان آخر. ناولوا القربان للآخرين وناولوهم لشرب النبيذ الدافئ وأكل خبز القربان، فرفع رأسه وأخذ يصيح: «لليولا (لليف)، من فضلكم...» وبعد أن حصل على حصته، قال باللغة الانكليزية: «Please, some more for Leila» «من فضلكم قطعة أخرى من أجل ليولا» وتكتب صوفيا أندرييفنا: «حتى إن الجميع ضحكوا».

وقد رسخ في ذاكرة تولستوي هذا المقطع من رسالة زوجته. وسيظهر فيما بعد في الفصل الثامن من الجزء الثالث من روايته «آنّا كارينينا»، حيث تقوم دوللي أبولنسكايا بمناولة القربان لأبنائها في كنيسة القرية. وستلفظ عبارة «please, some more» «من فضلكم قطعة أخرى» بالإنكليزية، الابنة الصغرى ليلي «الابنة الرائعة بمفاجأتها السارة أمام الجميع».

في مجتمع السيدات

لا نعرف، بصورة واعية أم لا، بدّل تولستوي جنس ابنه في رواية «آنّا كارينينا»، معدلاً بشكل طفيف خلال ذلك اسمه: من ليولا إلى ليلي. وهذا ليس سؤالاً عديم الجدوى. فنحن نعرف جيداً كيف يُعامل ليولا (ليف) من قبل أمه، وإخوته وحتى من قبل معلمه. لكننا لا نعرف شيئاً تقريباً عن معاملة أبيه له. لا يوجد أي ذكر لليولا في يوميات تولستوي حتى شهر آذار عام 1884، عندما اقترب الصبي من عامه الخامس عشر «كان الوقت مساء، عملت جيداً في صنع الأحذية. جاء إيليا وليولا وعملا معي بمرح شديد». أي أن الابن استحق اهتمام أبيه عندما بدأ يخيط الأحذية. وهذا لم يحدث بالصدفة، طبعاً. لكن هذا له بعد رمزي. إن ليولا يكتسب جنسه وشخصيته، كذكر، ليس عندما يتلعثم بالإنكليزية في الكنيسة، بل عندما يمسك بيديه الجلد، والمخرز، والخيط المشمع، والمسامير.

الظرف الثاني، الخفي والهام، من طفولة ليولا (ليف) المبكرة، هي أنه ولد ونشأ في البداية، في «مجتمع السيدات».

إيليا وسيرغي، ولعدم اختلافهما كثيراً في العمر، كانا يلعبان ويمضيان الوقت معاً. وكانت معهما الابنة الكبرى تاتيانا. أما صديقا ليولا في الطفولة فكانتا ماشا – ماشا تولستويا أخته، وماشا كوزمينسكايا ابنة خالته.

في عام 1891، وفي مجلة القراءة للأطفال «الينبوع» (رودنيك) نُشرت قصة ليف لفوفيتش الطويلة «ياشا بوليانوف» –وهي من أفضل ما كتبه ليف تولستوي الابن. وهذه القصة في الواقع، ذكرياته لطفولته المبكرة– ومن هنا اسم بطلها الرئيس. وهذه القصة الطويلة تقدم لنا الشيء الكثير لفهم الجو الذي نشأت فيه نفسية هذا الطفل.

إنه عالم الأنثى!

في البداية، بالإضافة إلى أمه، كانت تهتم به مربية روسية بسيطة، ماريا أفاناسيفنا أربوزوفا، وهي التي كانت تربي جميع أبناء تولستوي الخمسة الكبار. ويكتب عنها إيليا لفوفيتش تولستوي: «امرأة صغيرة الجسم، مستديرة، تضع غطاءً أسود على رأسها، طيبة، لا لون لها، ثرثارة أحياناً».

وبها تبدأ قصة «ياشا بوليانوف»: «كنا نمشي طويلاً مع المربية في غابات ومزارع بلدتنا ميخائيلوفسكوي، ونعثر هنا وهناك على البقع الأخيرة من الفطر القديم، وأخيراً، وبعد أن نشعر بالتعب، وقبل موعد الغداء، نعود إلى البيت».

وبما أن المؤلف غيّر ببساطة اسم ياسنايا بوليانا إلى ميخائيلوفسكوي بوشكين، فقد حوّل اسم المربية ماريا أفانيسيفنا الأدبي إلى آرينا فاسيليفنا - تقريباً آرينا روديونوفنا.

ولكن عدا تغيير أسماء الأشخاص والأماكن في القصة ليس هناك أي تغيير آخر أو خيال. ذات مرة، حلت محل المربية المعلمة الإنكليزية miss Emilie Tabor، التي لم يغير اسمها ليف لفوفيتش في قصته الطويلة. وقد كتب عنها تولستوي-الأب فقال: «إيميلي تروقني كثيراً - فهي متدفقة الحركة، رزينة، مضحكة، طيبة، حازمة، لكنها جافة ليس من حيث الطبيعة، بل بمعنى التربية والعادات». أما صوفيا أندرييفنا فكانت تتذكر بأن الآنسة إيميلي miss Emilie كانت متميزة جداً خاصة مع صغار الأطفال الكبار: «سرعان ما تعلقت بها ماشا النحيفة، الضعيفة ذات السنتين من العمر، وكذلك أحبها ليوفا». وقد تعلقت ماشا بالمربية الإنكليزية، لدرجة أنه سرعان ما نشأت لديها مشاكل لغوية: ففي طفولتها المبكرة كانت تتحدث بالروسية بصورة أسوأ من حديثها بالإنكليزية.

أول ذكرى من طفولة ياشا بوليانوف كانت ذكرى كيف كانت أمه ترضعه الحليب: «عندما أكتب هذه الذكريات، لا يبدو لي أنني أتذكر فقط كيف كانت أمي تحمّم بيتيا وإخوتي الآخرين في الحمام، وكيف ترش المسحوق الأصفر - وتقمّطهم، وتطعمهم، وترضعني أيضاً. يبدو لي حتى الآن، أنني أنا كنت مستلقياً بين ذراعي أمي، أمتص حليبها الدافئ الحلو، وهي تنحني عليّ بحب وحنان، وتنظر إليّ باهتمام. وأنا كنت مستغرقاً في رضاعتي، أمتص بشغف الحليب اللذيذ، لدرجة أنني لا أريد أن أتوقف، ومع ذلك أدركُ بشعور سارٍ، أن أمي تعتني بي وتلاحظني بحب وحنان».

أما ذكرى ليف الثانية فهي كيف سلّموه من المربية إلى المعلمة، ونقلوه إلى غرفتها. كانت المربية تبكي. وكان الصبي حزيناً.

«لحقتها، اقتربت منها كثيراً، وأمسكت بسبابة يدها اليسرى، وضغطت عليها بقوة. كان هذا الإصبع لدى المربية بظفر مقطوع، ولهذا فهو دائماً أحمر اللون برّاق عند حافته. عندما عاشت عندنا، قبل ولادتي، كانت تعمل خادمة منزل وليس مربية، وقطعت إصبعها عن غير قصد عندما كانت تكسر قوالب السكّر. لا أعرف لماذا، ولكن في لحظات الاضطراب النفسي، وعلى الرّغم من أني كنت أحب هذه المربية كثيراً، فإن إصبعها المشوه كان يهيّجني، وكنت ألاحظه بشدة، وفي الوقت نفسه لا أرغب بالنظر إليه...

قالت لي المربية:

- وداعاً يا عزيزي، على ما يبدو، لقد انتهى عصرنا معاً.

- وداعاً يا مربيتي العزيزة - أجبت، ومرة أخرى تدفقت الدموع من عينيّ».

وكان تعاطفه الأول مع المعلمة مرتبطاً أيضاً بالدموع. ذات ليلة، يرى الصبي المعلمة، الفتاة الأجنبية، تفتح صندوقها وتخرج منه صورة وتضعها أمامها، وتنظر إليها طويلاً باهتمام. «في هذه اللحظة، تنحدر دمعتان كبيرتان من عيني مس إيميلي miss Emilie وتعلقان على رموشها. وبكت بصوت خافت. «فكرت أنا بقلق - عن ماذا، عن من؟ مسكينة miss Emilie مس إيميلي، جاءت من بلاد بعيدة إلى بلد غريب، وحدها، بدون أهلها، بدون أسرتها، وتجلس هنا معي وتبكي. يا إلهي! كيف يمكن مساعدتها الآن؟».

منذ تلك اللحظة، شعرت أنني أحببتها...».

وكانت أول صدمة خطيرة حقاً في حياته، ربط بها مؤلف قصة «ياشا بوليانوف» نهاية طفولته، هي نقله إلى غرفة الصبيان بإشراف المعلم-الألماني. ويرد الكثير في القصة عن هذا الحدث الذي قلب نفسية الطفل. ويوليه الأهمية الكبيرة ذاتها التي أولاها تولستوي-الأب في قصته «الطفولة» لموت أم البطل الرئيس، التي بموتها تنتهي مرحلة طفولته.

وتدخل والدة ياشا في نزاع مع والده، محاولة إقناعه بألا يفصل الصبي عن المجتمع النسائي. فتقول باكية: «... هذا بلا رحمة، هذا فظيع، ألا ترى أنه لا يزال صغيراً، وأنه من الأفضل أن يبقى معنا، وأنه *ليس ذلك الطفل*».

فلا يفهم الأب ويقول: «وماذا في الأمر؟ وأي طفل هو؟» أما ياشا فيفكر في نفسه قائلاً: «إنه لن يفهم على أية حال، لن يفهم كم أنا حزين ووحيد، وكم أفتقد مس إيميلي miss Emilie وكاتيا، كم أنا خائف هنا. إنه لا يعرف كيف عشت سعيداً هناك مع المربية والآنسة إيميلي، وكاتيا وفيروشكا، وكيف كنّ يحببني ويدللني، وكم كنت أحبهن، وكنت سعيداً معهن هناك. إنه لن يفهم هذا».

وتُختتم قصة «ياشا بوليانوف» بترنيمة عاطفية للنساء. «طيلة تلك الفترة التي كنت فيها في الأسفل مع الصبيان... كان ينقصني ذلك الحب والدلال، تلك العناية اللطيفة والتوجيه المرهف الذي لا يمكن أن يصدر إلا عن الأم أو عن المربية الجيدة، فقط عن الروح النسائية المحبة. وقد فكرت كثيراً ولا أزال أفكر حتى الآن، أنه كلما تُركنا نحن الأطفال فترة أطول في المجتمع الذي وجدنا أنفسنا فيه منذ السنين الأولى -مجتمع الأمهات أو المربيات- كان أفضل. وكلما راقبتنا أعينهن الثاقبة بصورة دائمة واهتمام، وفترة أطول، نمونا وكبرنا بشكل أنظف وأعذب، وتأخرنا أكثر في رؤية أوساخ الناس وقذارتهم. وليدلّلنا المربيات العجائز والأمهات الضعيفات كما يردن. فدلالهن ليس خطيراً كما يتصور الآباء».

ليف (الأسد) وأشباله

هذا في حين أن ليولا (ليف) كان يعشق أباه، مثل جميع أخواته، يعشقه بالمعنى الحرفي للكلمة، يعبده، ويرى فيه كائناً خاصاً. بالاختلاف عن الأم التي كانت قريبة، دافئة، لكنها مفهومة...

يقول إيليا لفوفيتش ابن تولستوي في ذكرياته: «الشخص الرئيس في المنزل هي ماما». وتلاحظ ابنته تاتيانا لفوفنا: «كان تأثير الأب في المنزل أقوى من تأثير الأم».

لم يكن في هذا أي تناقض. كانت صوفيا أندرييفنا أماً مهتمة حنوناً وربة منزل، أما ليف نيقولايفتش فكان شخصية أب قوية لا تقبل الجدل. لهذا كان الأولاد يحبون أمهم ويعبدون أباهم. يتذكر إيليا لفوفيتش: «إنها أمنا... عليها

أن تفعل كل شيء من أجلنا. إنها تتابع تغذيتنا، وتخيط لنا الثياب وحمالات الصدر، وترفو جواربنا، وهي توبخنا عندما نبلل أحذيتنا بالندى... ومهما حدث: «سأذهب إلى ماما». «ماما، إن تانيا تضايقني»... «أين ماما؟» في المطبخ، أو إنها تخيط، أو في غرفة الأطفال، أو تعيد كتابة النص. تسمع خطواتها الخفيفة والمتكررة تسمع من فترة لأخرى في جميع غرف المنزل، وتتمكن من فعل كل شيء، وتعتني بالجميع... ولم يكن يخطر في ذهن أحد منا أن ماما يمكن أن تشعر بالتعب، أو أن تكون ماما في مزاج سيئ، أو أن تريد ماما شيئاً ما لنفسها. إن ماما تعيش من أجلي، ومن أجل سريوجا، ومن أجل تانيا، ومن أجل ليولا، ومن أجلنا جميعاً، وليست لديها حياة أخرى ولا يجب أن تكون».

أما الأب فهو مختلف تماماً. يكتب ليف لفوفيتش: «كنا نعشقه ونخافه عندما يكون «معكّر المزاج». كان الجميع يردد: «بابا معكر المزاج، في مزاج سيئ»، وكان علينا أن ننتظر، كي يتحسن مزاجه...».

ويعترف لاحقاً: «في طفولتي المبكرة، كنت أعشق أبي، كنت أحب رائحة لحيته، كنت أحب يديه وصوته...».

وقد تذكر أبناء آخرون، كانوا يعشقون والدهم أيضاً، الرائحة الخاصة للحية والدهم التي كان يفوح منها تبغ «جوكوفسكي»[1]، ولهذا كانوا يبقون على مسافة بعيدة عنه. بيد أن هذا لا يعني أن الأب كان بعيداً عن أبنائه. فأكثر لحظات المغامرة والمخاطر في حياتهم كانت مرتبطة به بالذات. كان يحمل أبناءه على كتفيه، ويسمح لبناته بالجلوس في حضنه ويدغدغنه إلى أن يتوسل طلباً للرحمة، ويركض معهم في السباق، ويتزلج على المزالج، ويجلب لهم من موسكو أدوات التسلية الغريبة «الخطوات العملاقة»، ويصطاد الحيوانات مع الأبناء، ويصيد السمك، ويقرأ لهم بصوت عال كتب جول فيرن. وكان يلقّبهم بألقاب مضحكة - تانيا «الجِذمة»، وسيرغي «سيرغوليفيتش».

1- نوع مشهور من التبغ. يصنع في مصنع التبغ ببطرسبورغ التابع لمستشار المحكمة وتاجر النقابة الأولى فاسيلي غريغوريفيتش جوكوف. لم يكن تولستوي وحده يدخن تبغ جوكوفسكي، بل دوستويفسكي أيضاً كان يدخنه. -المؤلف

ولكن كان ثمة جدار لا يمكن تجاوزه، ليس بين الأب وأبنائه، بل بين الأب وجميع المقيمين في المنزل. يتذكر إيليا لفوفيتش: «كان بابا يذهب في النهار إلى مكتبه و«يشتغل»، وكان علينا أن لا نثير أية ضجة، ولم يكن يجرؤ أحد على الدخول إليه. ونحن، بالطبع، لم نكن نعرف بم كان «يشتغل» لكننا منذ طفولتنا المبكرة اعتدنا احترامه والخوف منه». ويضيف ليف لفوفيتش: «إذا كان قد «اشتغل جيداً»، وكتب جيداً وكثيراً، كانت تشع منه أشعة ساطعة من النور والمرح، والطيبة والسعادة. أما إذا لم ينجح الإبداع معه فكان مملاً، وكئيباً قاتماً كالليل...».

«بابا معكّر المزاج، بابا في مزاج سيئ...».

لم يكن يعاقب الأطفال، ناهيك عن ضربهم، وهذا ما كانت تسمح به صوفيا أندرييفنا لنفسها أحياناً. وهو تقريباً، لم يرفع قط صوته عليهم. ولكن... يكتب إيليا لفوفيتش: «خلال حياتي كلها، لم يداعبني ولم يدللني أبي قط، يحصل في الطفولة أن أصاب برضة، أو تبرد قدماي -انزلْ، اركضْ خلف العربة، معدتي تؤلمني- إليكَ شراب الكفاس (عصير الفواكه المخمر -*المترجم*) مع الملح -وسيزول الألم- لا يشفق أبداً، ولا يلاطف. إذا كنت بحاجة إلى تعاطف، يجب أن أبكي -وأركض إلى ماما. هي تضع كمّادة، وتلاطفني، وتطمئنني».

وقد تذكّر ليف لفوفيتش طيلة حياته كيف أخذه أبوه ذات مرة، وكمعاملة خاصة له، وبصورة استثنائية، في ليلة صقيعية جداً للنزهة في القرية:

«كانت ليلة رائعة، هادئة، مليئة بالنجوم وكانت تحتضننا بسحرها. وكان الثلج الصلب يصرّ تحت أقدامنا، وكانت كل المناطق المحيطة تلمع بعدد لا يحصى من الألماس تحت الأشعة الفضية للقمر البدر. كانت الغابات مغطاة بأردية بيضاء سميكة من الثلج الكثيف. وكان بستان التفاح محفوراً بظلال غريبة من جذوع الأشجار وأغصانها. نزلنا إلى البئر الحامضة (كيسلي كولودتس) وصعدنا إلى فناء القرية الخلفي. بالقرب من البستان. توقف أبي وأخذ يصيح بصوت قوي رنان:

- أوسيب! أوسيب! أنت هنا؟

– هنا، أنا هنا، يا صاحب السعادة –يجيب صوت رجل عجوز من حظيرة قريبة– وينزل العم أوسيب شائباً، أبيض الشعر، كالثلج، من البوابة نحونا. وفي يده بندقية صيد قديمة بماسورة واحدة، وقبعة بيضاء منحدرة تغطي شعر رأسه.

– حسناً، هل هناك أرانب – يسأله أبي.

– نعم، يوجد كثير منها! البارحة صدت واحداً. الطقس جيد. أعطني قليلاً من الوقت، وسأصطاد من جديد...».

ويتذكر الابن الأكبر سيرغي لفوفيتش: «في الطفولة، كانت سعادتنا الأولى أن يكون معنا أبي بشكل أو بآخر، أن يأخذنا معه في نزهة، أو إلى المزرعة، أو إلى الصيد، أو إلى رحلة ما، أو أن يحدثنا عن شيء ما، أو أن يلعب معنا الجمباز، وما إلى ذلك».

وفي الوقت نفسه، كان أبناؤه يخافون منه، حتى الكبار الذين كانوا يخاطبونه بصيغة المفرد «أنت». يكتب سيرغي لفوفيتش: «لقد كانت أحكامه، بالنسبة لنا، لا تقبل الجدل، ونصائحه–إلزامية. كنا نعتقد أنه يعرف جميع أفكارنا ومشاعرنا، لكنه لا يقول دوماً ما يعرفه. كنت لا أستطيع الصمود أمام نظرة عينيه الفولاذيتين الصغيرتين الفضوليتين، وعندما كان يسألني عن شيء ما، لا أريد الإجابة عنه–لم يكن باستطاعتي الكذب، وحتى التهرب من الإجابة، رغم أنني كنت أرغب بذلك كثيراً».

ويتابع قائلاً: «كان نادراً جداً أن يعاقبنا أبي، ولم يكن يضعنا في الزاوية، ونادراً ما كان يعنّفنا أو يوبخنا، ولم يضربنا قط، ولم يشدّنا من آذاننا وما شابه ذلك، ولكن بدلائل مختلفة، كنا نشعر كيف يعاملنا. كانت عقوبته وصمة عار: لا يولي اهتماماً لمن يعاقبه، ولا يأخذه معه، أو يقول شيئاً ما ساخراً بحقه. في طفولتنا، وحتى في وقت لاحق، وتبعاً لسلوكنا، وأحياناً بدون سبب مباشر، كان لديه أحدنا من المفضلين لديه، هذا أو ذاك، لفترة مؤقتة. لم يكن لديه مفضلون دائمون».

ما الفرق بين الحب والعشق؟ الحب يبحث عن المعاملة بالمثل والحب من الطرف الآخر والتفاهم. أما العشق فيكتفي بالحظوة، أو الرحمة، أو المنّة والإحسان. وإذا لم تكن هناك حظوة أو منّة فإن موضوع العشق يغدو رهيباً.

يكتب إيليا لفوفيتش: «أحياناً نشعر بالمرح الشديد معه... فهو يركب الخيل أفضل من الجميع، ويركض أسرع من الجميع، وليس هناك من هو أقوى منه. إنه لا يعاقبنا أبداً تقريباً، وعندما ينظر إليّ بعينيه فإنه يعرف كل ما أفكر فيه، وأشعر بالخوف».

وتؤكد قوله تاتيانا لفوفنا: «أنا أيضاً، مثل إيليا، لا أشك في أن بابا هو الإنسان الأذكى والأعدل والأطيب في العالم، وأنه لا يمكن أن يخطئ أبداً».

وتتذكر كيف أنها ذات مرة، وكانت فتاة صغيرة، كادت أن تشك في عصمة أبيها عن الخطأ، «لكنني سرعان ما قلت لنفسي، يجب أن تكون لديه أسباب ما لا أعرفها، كي يتصرف على هذا النحو، كما تصرف...».

ركضت تانيا بتهور نحو أبيها عندما عاد من الصيد في غابة تشيبيج. «كان يرتدي جزمة المستنقعات العالية القدمين، ويحمل بندقية صيد على كتف وحقيبة الصياد على الكتف الآخر. أنا أركض للقائه، وأمسك بيدي الصغيرة سبابته، وأقفز من حوله. لكنه كان قلقاً وسحب إصبعه من يدي...

- انتظري، أيتها «الجِذمة»، انتظري - قال وتوقف. وأنا أراقب وأتابع ما يريد أن يفعل. أراه يخرج من حقيبة الصياد دجاجة برية، لم تمت بعد، رغم صيدها بالبندقية. والدجاجة ترفرف بين يديه. ينتزع أبي من الدجاجة ريشة، ويغرز هذه الريشة في مكان ما حول الرأس. فتتوقف الدجاجة عن الحركة».

ولكن، لماذا فعل تولستوي هذا أمام ابنته الصغيرة؟ لأنه فعل الشيء الصحيح! لأنه تصرف بأمانة وإنسانية. إنه قلّص عذاب الدجاجة البرية التي كانت تنازع. في هذه البادرة يتجلى تولستوي كلّه!

يكتب إيليا لفوفيتش تولستوي: «يمكنني أن أكذب على أمي، ولكن ليس على أبي، لأنه، على أية حال، سيعرف على الفور... وكذلك جميع أسرارنا، يعرفها أيضاً. عندما كنا نلعب في بيت صغير تحت أغصان شجرة الليلك، كانت لدينا ثلاثة أسرار، ولم يكن أحد يعرفها سوى سريوجا وتانيا وأنا. فجأة جاء أبي وقال إنه يعرف أسرارنا الثلاثة وأنها كلها تبدأ بحرف «ب»، وكان هذا صحيحاً. السر الأول، أن لدى ماما سيكون «بيبي» (مولود) قريباً، والثاني أن سريوجا مغرم بـ «البارونة» الصغيرة، أما الثالث، فلا أذكره».

يتساءل سيرغي لفوفيتش: «هل كنا نحبه؟ بالطبع كنا نحبه. لم نكن نحبه فحسب: كان يشغل حيزاً كبيراً في حياتنا؛ وكنا نشعر أنه يقمع شخصياتنا، بحيث أننا، غير مرة، أردنا التخلص من هذا الضغط. في مرحلة الطفولة كانت هذه عاطفة لا شعورية، فيما بعد أصبحت شعورية، وعندها ظهرت عندي وعند إخوتي روح معينة من التناقض مع أبي».

في شهر أيلول/سبتمبر عام 1881 تنتقل عائلة تولستوي الكبيرة من ياسنايا بوليانا إلى موسكو. كان سيرغي الأكبر سناً بحاجة للانتساب إلى الجامعة. وأظهرت تانيا مهارات فنية وهي تحلم بالانتساب إلى مدرسة موسكو للرسم والنحت والعمارة. كما أنه حان الوقت لنقلها وإظهارها للمجتمع الأرستقراطي - فقد أصبحت في سن الزواج! وكان إيليا وليف بحاجة للتسجيل في الثانوية. لقد انتهت مرحلة ياسنايا بوليانا من حياة آل تولستوي. ومعها تنتهي طفولة ليف.

الفصل الثاني
الصبي المرهف

الآن يكتب الصبي المرهف

• من رسالة ليولا تولستوي

فقد قبعته

كانت مرحلتا مراهقة ليولا (ليف) وشبابه سعيدتين، مثل طفولته. وباستثناء مشكلات صغيرة طفيفة، لم تتميزا بأية معاناة وآلام يمكنها أن تبدل جذرياً، طبيعة هذا الفتى الجميل والرشيق والعاقل. ولم يكن يخطر بذهن أحد، أنه بعد عشر سنوات من الانتقال إلى موسكو سينتج من هذا الفتى نورستاني بائس، مريض بمرض نفسي - عصبي مدمر.

كانت في حياة تولستوي-الأب أحداث، قد تبدو غير هامة، لكنها ذات بعد رمزي عميق، لا يمكن فهم معناها الحقيقي إلا في ضوء مصيره كله. على سبيل المثال، عندما هرب من المنزل في نهاية شهر تشرين الأول / أكتوبر عام 1910، كما يظهر من يومياته، فقد قبعته ليلاً في حديقته، وكان مضطراً للعودة إلى المنزل من أجل أخذ قبعة أخرى. ثمة قول شعبي، إن من يضيع قبعته - يضيع رأسه. لكن هذا حدث مع تولستوي في أواخر أيام حياته. أما ابنه ليف، فقد أضاع قبعته في بداية حياته الواعية.

في صيف عام 1878 أخذ تولستوي ولديه ليولا (ليف) وإيليا مع المعلم الفرنسي المسيو نيف في رحلة شيقة. وكان تولستوي في شهر آذار/ مارس

من العام نفسه قد اشترى من البارون بيستروم عشرة آلاف ديسياتين (هكتار -*المترجم*) من سهوب سمارى البكر بسعر رخيص- بعشرة روبلات وخمسين كوبيكاً للهكتار الواحد، أملاً بأن أسعار هذه الأراضي البكر الخصبة الغنية سترتفع كثيراً في المستقبل (وهذا ما حصل)، وعازماً أيضاً على تربية الخيول في هذه السهوب، وتهجين سلالاتها البشكيرية بالسلالات الإنكليزية.

يمكننا أن نتخيل شعور الصبي ليولا البالغ من العمر تسع سنوات الذي توجه مع أبيه في هذه الرحلة البعيدة من أجل قضية جادة للكبار وهي مشاهدة الأراضي التي اشتراها أبوه. وكأنه حدَس، أنه هو بالذات، بعد أربعة عشر عاماً، بعد اقتسام ممتلكات الأب، سيغدو صاحب هذه الأراضي.

كان مسار الرحلة على النحو التالي: من ياسنايا بوليانا إلى موسكو، من موسكو إلى نيجني نوفغورود بالقطار، ومنها إلى سمارى بالباخرة، ثم بالقطار إلى محطة بوغاتوي في سكة حديد أورينبورغ، ومنها على ظهور الخيل إلى مزرعة السهوب على نهر موتشي. مدة الرحلة خمسة أيام.

أرسل تولستوي رسالته الأولى إلى زوجته في الطريق من موسكو. «وصلنا بالسلامة، وكل شيء على ما يرام، إذا لم نحسب أن ليولا أضاع قبعته... كوني معافاة، مرحة، هادئة يا روحي». بيد أن صوفيا أندرييفنا لم تستطع أن تكون هادئة مطمئنة. فكتبت: «كيف أضاع ليولا قبعته؟ لقد كان لديه في جيبه سيدارة كتانية سيئة، هل فطنتم بإلباسه إياها على الأقل؟».

قبل فترة قصيرة من رحيل زوجها مع ولديها، رأت صوفيا أندرييفنا في نومها حلماً رهيباً: «كما لو أنها تقترب مع ليولا (ليف) وماشا في الجمعة العظيمة من الكاتدرائية الكبيرة، وحول الكنيسة يتجول صليب ضخم مذهّب؛ وعندما دار ثلاث مرات حول الكنيسة، التفت إليّ، وتوقف، ورأيت المخلص المصلوب أسود اللون من الرأس حتى أخمص القدمين. مسح أحدهم المخلص بالمنشفة، وفجأة ابيضّ المخلص كلّه، وفتح عينه اليمنى، ورفع يده اليمنى من الصليب وأشار إلى السماء. وبعدها، وكأنني ذهبت مع ليولا وماشا إلى الطريق السريع وسقطت تفاحة من تفاح القرم على العشب، فقلت لهما: لا تأخذاها، إنها تفاحتي».

وقد فسرتْ هذا الحلم على النحو التالي: أن الرب يرسل لها «الصليب-الصبر»، وهذا يرتبط بشكل ما بمصير أطفالها: «ستبتعد عني تفاحة ما...».

وأوصت في منزل ياسنايا بوليانا على صلاة مع الماء المقدس. كان زوجها في هذه الفترة في بطرسبورغ.

كما ارتبطت بهذه الرحلة بعض الحوادث الطارئة المزعجة. ففي الطريق إلى نيجني نوفغورود، في بافلوفسك، وبعد أن عاد إلى القطار، اكتشف تولستوي أن محفظة نقوده مفقودة وفيها مئتان وسبعون روبلاً، وهي كل ما لديه من مال. إما أنه نسيها في البوفيه حيث أكل وجبة من سمك الحفش، أو سُرقت منه. وهذا ما تعنيه الزوجة الحكيمة! وبّخته من أجل القبعة، ولم تقل كلمة واحدة من أجل النقود! «ماذا بك يا عزيزي، ارتبكت هكذا وانزعجت لهذه التفاهة؟ إن هذا لا يشبهك يا ليفوشكا». ومن نيجني نوفغورود، من الفندق، يكتب لها متذكراً إهماله بخصوص قبعة ليولا المفقودة: «نمنا جميعاً بشكل جيد. وغطيت ليولا جيداً بعد تذكيرك لي. وعموماً هو جيداً جداً ومرتاح...».

وفي رسالته التي كتبها من الباخرة، يتذكر تولستوي مرة أخرى هذه القبعة المشؤومة: «عزاء لابننا ليولا، الصبي بروتوبوبوف فقد الآن قبعته. ويمسك ولدانا بقبعتيهما الجديدتين بالأشرطة».

وإدراكاً منها لصعوبة الوضع على الرجل، عندما يصطحب معه طفلين للمرة الأولى في رحلة طويلة، تكتب صوفيا أندرييفنا لزوجها: «أنا مسرورة جداً، من أن ليولا مريح جداً في الطريق، أقبِّل الصبيين العزيزين وأفكر بهما كثيراً».

وفي 18 حزيران/ يونيو عندما وصل إلى المزرعة، يخبر تولستوي زوجته: «أمضينا الليل كلنا، جنباً إلى جنب، في العنبر، وقد عانى السيد نيف Mr. Nief وليولا من البراغيث، لكن ليولا في الحلم أخذ يحك، وركلني...».

بين بابا وماما

كانت سمة ليولا المؤسفة أنه كان خاضعاً بشكل شديد لتأثير أبيه وأمه في آن واحد.

لقد كان صبياً ذكياً، نشيطاً، حيوياً، لكنه لا يعتمد على نفسه. بشكله الخارجي وشخصيته كان يشبه أمه. ولكن في تطوره الروحي والعقلي، كان يسعى ليكرر أباه ويكون مثله. ومهما كانا قريبين، فيما بينهما، وخاصة في السنوات الخمس عشرة الأولى من حياتهما المشتركة، فقد كان ليف نيقولايفتش وصوفيا أندرييفنا شخصين مختلفين ومتناقضين في كثير من الأشياء. وقد جمع ليولا في ذاته خصائص والديه الاثنين، وعلى هذا النحو، عاش النزاع الأسري كما لو أنه نزاع داخلي عميق في ذاته...

وبصورة أبكر من بقية إخوته، أخذ يتفاعل بصورة أليمة مرضية مع مشاجرات الوالدين. بينما لم يولِها سيرغي وإيليا وتاتيانا أهمية خاصة. فوضع ماما وبابا في المنزل كان مفهوماً وواضحاً، بحيث لم يثر لديهم أية شكوك أو أفكار، وإذا ما تشاجر الوالدان، فهذا أمر يخصهما! فهما كبيران، ويحلان مشاكلهما بنفسيهما!

يكتب سيرغي لفوفيتش: «في ذلك الوقت، كان يبدو لي أن نظام حياتنا بأكمله يسير من تلقاء ذاته، كنا نعتبر هموم أمي ومشاغلها أمراً مفروغاً منه، شيئاً عادياً طبيعياً. لم أكن ألاحظ، أن أمي كانت مسؤولة عن طعامنا ولباسنا وعن تعليمنا وعن إعادة كتابة النصوص لأبي، وعن كل شيء. كان أبي في بعض الأحيان يعطي توجيهاته، التي كانت أمي تتجاهلها أحياناً. في ذلك الوقت، كانت أمي تمرض غالباً، وباستمرار، إما أنها حامل تنتظر مولوداً، أو ترضع طفلاً».

لكن ليولا كان يشعر بشيء ما... كانت روحه الطفولية، مثل قيثارة إيلوس (*إله الريح عند اليونان -المترجم*)، تستجيب لأي تردد في الجو العائلي. يكتب ليف في إحدى ذكرياته: «أذكر بوضوح مشاجرة بين أبي وأمي على المنصة بالقرب من الدرج أمام باب العليّة. أخذت أمي شيئاً ما من الخزانة خلف الباب، وكان أبي يقف إلى جانبها ويصرخ عليها. ما سبب هذا الشجار؟ بالطبع، من أجل شيء تافه. ولكنّهما كليهما كانا في وضع متهور. أمي كانت تبكي ونادراً ما ترد عليه، وأبي كان يلح على شيء ما ويحاول إثباته. ركضت آنذاك إلى أمي، وعانقتها من ركبتها وقلت لأبي: «لماذا الشجار؟ إنه عديم الجدوى!». شعرت بالأسى على أمي. ودافعت عنها. لاذ أبي بالصمت، ونظر إليّ وقال: «طوبى لصانعي السلام!». وانتهت المشاجرة».

كما يرد ذكر حضور ليوفا (ليف) للشجار الذي جرى بين الأب والأم في شهر آب/ أغسطس عام 1882 في يوميات أخته تاتيانا: «يقول ليولا إنه دخل إلى المكتب عن طريق الخطأ، ورأى كيف كانا كلاهما يبكيان».

وكان ليف بالذات الشاهد الرئيس على النزاع في 17 تموز/ يوليو عام 1884 في ياسنايا بوليانا، عندما جمع تولستوي حقيبته وغادر المنزل، على الرّغم من أن زوجته كانت في الأيام الأخيرة من حملها، وفي ليلة السابع عشر والثامن عشر أنجبت ابنتها ساشا...

«لحقته وسألته، إلى أين هو ذاهب.» لا أعرف، إلى مكان ما، ربما إلى أمريكا، وإلى الأبد. لم أعد أستطيع العيش في البيت» - قال بغضب، وتكاد الدموع تذرف من عينيه. بدأت عندي آلام المخاض. كان الوقت حوالي الساعة الثانية عشرة ليلاً. جلست على مقعد ملعب الكروكيت وبدأت البكاء بمرارة. جاءت قابلتي ماريا إيفانوفنا وأخذت تواسيني، وترجوني بالدخول إلى المنزل. قلت لها إن آلام المخاض قد بدأت، دعيني أموت، لا يمكنني العيش هكذا بعد الآن. أذكر أنه جاء ابني ليوفا وابن مدام سيرون آلسيد Seuron Alcide وأقنعاني بلطف وحنان بالدخول إلى البيت. فقد رفعاني من المقعد، وأمسكا بذراعيّ من الجانبين، وقاداني بعناية إلى غرفة النوم».

كان ليوفا (ليف) في الخامسة عشرة من عمره... وكان في المنزل شقيقاه الأكبران: سيرغي وإيليا. وقد لاحظهما الأب عندما عاد ليلاً إلى المنزل من منتصف الطريق إلى تولا. فقد كتب بشيء من النفور في مذكراته: «في المنزل رجلان ملتحيان يلعبان بالورق - ولداي الكبيران». ويبدو أن جميع أفراد الأسرة كانوا في البيت، بمن في ذلك الابنتان تاتيانا وماشا، لأنه على الرغم من انتقال الأسرة إلى موسكو، كان آل تولستوي يمضون الصيف في ياسنايا بوليانا.

ولكن لم يأت لمواساة الأم سوى ليوفا ذو الخمسة عشر ربيعاً وابن المربية الفرنسية.

كلا، لم يكن «ابن أمه». كان مثله مثل إيليا، يعشق الصيد، ومثله مثل سيرغي، مجتهداً في دراسته. ولكن كان ثمة شيء ما «أنثوي» في طبيعته،

لم يكن في بقية إخوته. وليس عبثاً أنه عانى كثيراً عندما نُقل باكراً من غرفة البنات إلى غرفة الصبيان.

ويعترف في كتاب ذكرياته: «كنت متعلقاً دائماً تقريباً، منذ طفولتي المبكرة، ليس بالحياة والطبيعة فحسب، بل وبالنساء، وهذا الشعور كان يطغى في داخلي أحياناً على كل ما عداه. كان لدي تعلق مرضي بأمي، بالمربيات، بالإنكليزيات، ثم بمختلف الفتيات من عمري وأكبر، وفيما بعد، أصبحت متعلقاً بجميع الفتيات والنساء».

في أوقات مختلفة من حياته، كان يمكن لليوفا أن يتصرف بوقاحة تجاه أمه. لكنه في كل مرة كان يشعر بعدها بالذنب الشديد.

تكتب صوفيا أندرييفنا في يومياتها في شهر كانون الأول/ ديسمبر عام 1890: «إن ليوفا يختلج أخلاقياً، عندما أقترب منه أشعر برعشاته، وبشكل مؤلم أحياناً. لكنه يحس دوماً عندما يدفع، وهذا جيد...».

من السهل جداً القول إنه يشبه أمه. لكن الأمر ليس بهذه البساطة... فقد كان ليولا (ليف) *شبيهاً* بأبيه أيضاً. في كتابه «الحقيقة عن أبي» يتوقف ليف لفوفيتش بالتفصيل عند أقرباء ليف تولستوي-الأب، سواء من جهة الأم أو من جهة الأب، وحتى من جهة الزوجة. ويتوصل إلى نتيجة غريبة: «...أرى أنه لم يكن لدى أبي علاقة وثيقة بالأقارب الذكور، باستثناء عمي سريوجا (الأخ الأكبر لتولستوي-*المؤلف*) الذي لم يؤثر عليه إلا تأثيراً قليلاً وضعيفاً. جميع أقاربه المقربين كانوا من النساء».

ومثل ليف تولستوي-الابن، في طفولته المبكرة، لم يربّه أبوه الذي لم يكن لديه وقت ليقضيه مع الأولاد الصغار، ولم يربّه المربون الرجال الذين ربوا وأثّروا أكثر في الابنين الكبيرين سيرغي وإيليا، بل ربته أمّه والمربيات والمعلمات؛ كذلك ليف تولستوي-الأب، في طفولته المبكرة، لم يكن يشرف عليه أبوه، الذي لم يكن لديه وقت ليصرفه على ابنه، بل ربته عمّاته وخالاته الورعات. واثنتان منهما - تاتيانا ألكسندروفنا يرغولسكايا وبيلاغيّا إيلينتشنا يوشكوفا عاشتا طويلاً، وتوفيتا في ياسنايا بوليانا أمام عيني ليولا (ليف) الصغير.

بالطبع، أخوَا ليف نيقولايفتش الكبيران، نيقولاي وسيرغي، أثّرا بطريقتهما الخاصة عليه في مرحلة الطفولة وخاصة في مرحلة المراهقة والشباب. وهنا أيضاً كان الوضع نفسه مع ليولا - فهو كان بالنسبة لإخوته الكبار صغيراً جداً «little one». ولهذا كانت شريكته في ألعاب الطفولة أخته الصغرى ماشا، التي كان يحبها كثيراً، خاصة فيما بعد.

كان تولستوي يُحدِث لدى الناس الغرباء انطباعاً بأنه رجل قوي، صلب الإرادة. ولم يعرف نقاط ضعف شخصيته إلا المقرّبون جداً منه. فهم لم يعرفوا حقيقة أنه لا يحتمل دموع الآخرين، وفي كل نزاع شديد، يمكنه أن يبدي استعداده للتنازل عن حقه عاجلاً أكثر من الإصرار على رأيه، حلاً للنزاع. وقد تجلت سمته في أوضح صورها في سنواته الأخيرة.

يكتب ليف لفوفيتش: «يقول رومان رولان، إن الشخصيات النسائية في روايات تولستوي، أكثر سطوعاً وصدقاً من شخصيات الرجال، أفلا يرجع هذا إلى الظرف العائلي المذكور وحده؟ ولكن ألا يرجع أيضاً إلى طابع تفكير أبي، وحتى إلى تطرفه، ورؤيته للعالم، وجزئياً لأنه كعقل رجل، كان وحيداً، ومتحرراً تماماً من تأثير ذلك القاضي الصارم، الذي لا يرحم، كما يكون عادة العقل الصادق للقريب الأكبر سناً أو على الأقل القريب من العمر نفسه؟».

إلى موسكو! إلى موسكو!...

يكتب ليف لفوفيتش في كتابه «تجربة حياتي»: «قبل أن تنتقل أسرتنا في عام 1881 من ياسنايا بوليانا إلى موسكو، ساد منزلنا جو عصبي، غير صحي. فأمي لم تعد قادرة وحدها على حل جميع الهموم العائلية ومشاكلها؛ وأبي، ورغم أنه كان يرى أن القرية لم تعد تلبي الشروط الضرورية لتربية الأبناء الكبار وتعليمهم، كان يعاني في الوقت نفسه، من «الأزمة الدينية» ويفكر بالانتقال إلى المدينة بامتعاض شديد».

من الصعب القول، إلى أي حد حقق الانتقال إلى موسكو مبرراته. نعم، كان على سيرغي أن ينتسب إلى الجامعة، وكان على تاتيانا - أن تخرج

إلى المجتمع الأرستقراطي، كي تتزوج، وكان على إيليا وليف أن يدرسا في الثانوية. لكن خروج تاتيانا إلى المجتمع لم يجلب لها السعادة العائلية. تخرج من الجامعة سيرغي لفوفيتش وحده، لكنه لم يدرس في الثانوية، بل حصل على التعليم المنزلي في ياسنايا بوليانا. إيليا أنهى الثانوية بشق النفس. وفي الوقت نفسه، تزامن الانتقال إلى موسكو مع بداية أزمة عائلية.

وكان من بين الأدلة على الجو العائلي غير الصحي، أن صوفيا أندرييفنا وحدها ذهبت إلى موسكو للبحث عن مسكن، وهي حامل في الشهر السادس من حملها. فقد تخلى الزوج في البداية عن المشاركة في البحث عن منزل للسكن في موسكو. حيث ذهب في صيف عام 1881 مع خادمه سيرغي أربوزوف إلى دير صحراء أوبتينا وتحاور مع المرشد الروحي أمبروز، ثم سافر مع ابنه سريوجا إلى عقاراته في سمارى، وبعد عودته إلى ياسنايا بوليانا، يبدو أنه رفض مساعدة صوفيا أندرييفنا، رغم أنه وعد في رسالته لها من مقاطعة سمارى: «إن شاء الله، سآتي، وسأساعدك بجد في أمور موسكو، وأكون تحت أوامرك...».

في البحث عن مسكن جديد، كان يرافق الأم الابن ليولا (ليف) الذي أخذته معها إلى موسكو لعلاج أسنانه. وهو بالذات كان يلاحظ كيف أن أمه، المرأة – الحامل عديمة الخبرة في هذه الأمور، حاولت في البداية شراء منزل، ثم قررت استئجار شقة في جادة دينيجني، لكنها كانت شقة غير مناسبة...

وقد تذكرت صوفيا أندرييفنا: «لقد أربكني الجميع، وكل كان يقول رأيه، وكل واحد كان يجد شيئاً غير مناسب في المنازل التي رأيتها. وأخيراً استقر رأيي بأن لا أشتري منزلاً، بل أخذت بالأجرة شقة رخيصة في جادة دينيجني في منزل (قصر) الأمير فولخونسكي. أعجبني فيها أنها تحتوي على مكتب كبير يطل بنوافذه على الفناء، وبعيد عن بقية الغرف. لكن هذا المكتب الفخم بالذات، هو الذي كان يزعج ليف نيقولايفتش فيما بعد، لأنه كان فسيحاً وفخماً جداً...».

في اختيارها للشقة كانت تسترشد بأفكار زوجها، ومن أجل أبنائها حققت ما يشبه الإنجاز. «كانت الحرارة لا تطاق، والغبار، والطقطقة، والضجة،

والشعور بالوحدة – كل هذا كان صعباً للغاية. طيلة الأيام كنت أتنقل في عربات الأجرة، أصعد إليها وأنزل منها، كي أشاهد الشقق والمنازل. ومن المدهش حقاً، أنني لم أضع مولودي قبل الأوان نتيجة هذا كله». وماذا كانت النتيجة؟ «وصلنا إلى جادة دينيجني، في قصر فولخونسكي. استقبلنا هناك الأخ بيتيا وزوجته أولغا. تم تحضير كل شيء: الشاي، ولحم البقر الروستو، والأسِرّة ولوازمها للجميع، وكل شيء كان مضاءً، وكل شيء كان مدروساً. أثنوا على المنزل. ولكن بصرف النظر عن كل هذا، أصيب الجميع فجأة بالكآبة؛ ونام الجميع بحسرة شديدة في النفس».

وقد تذكر سيرغي لفوفيتش: «لقد تبين أن المنزل في الواقع شبيه بمنزل كرتوني. وكان توزيع الغرف على نحو بحيث أن الحديث والضوضاء في أي غرفة كانا يُسمعان في الغرف الأخرى. وهذا كان يعيق والدي في عمله، كما كان يعيقني: فلم أجد وقتاً للعزف على البيانو، وعند وجود الوقت كنت أخشى ان أزعج والدي».

أما تولستوي، بمزاجه الجديد، فقد كان منزعجاً من منظر مكتبه الواسع، المفروش بالأثاث الفاخر، الذي اختارته زوجته بكل حب. وتكتب صوفيا أندرييفنا في حالة من اليأس لشقيقتها ت. أ. كوزمينسكايا: «يقول ليفوشكا (زوجها –*المترجم*) لو أنني كنت أحبه وأفكر بحالته النفسية لما اخترت له هذه القاعة الكبيرة، حيث لا وجود للهدوء ولا لدقيقة واحدة، وحيث كل كنبة فيها يمكن أن تجلب السعادة لفلاّح، أي أنه بثمنها وهو اثنان وعشرون روبلاً يمكنه شراء حصان أو بقرة، وأن هذا يدفعه إلى البكاء، وهكذا».

في الأشهر الأولى في موسكو، صوفيا أندرييفنا وليف نيقولايفتش يبكيان باستمرار. يكتب تولستوي في يومياته في موسكو: «الرائحة الكريهة، البذخ، البؤس، العربدة. لقد اجتمع الأوغاد الذين سرقوا الشعب، وجمعوا الجنود والقضاة لحماية عربدتهم، وهم يحتفلون». ويرى حياته العائلية ذاتها في المنظور نفسه. «الجميع يقومون بترتيب أمورهم. ومتى يبدؤون حياتهم؟ كل شيء ليس من أجل أن يعيشوا، بل من أجل أن يكونوا كبقية الناس. يا لهم من تعساء!».

تشكو زوجته لأختها: «كان ليف نيقولايفتش لا يتحدث معي إلا نادراً،

وكان طيلة الوقت يشعرني، أنني أعذبه، وأنني قد سممت حياته؛ وأنا كنت أبكي دون انقطاع». «لقد أُصيب ليفوشكا (زوجها -*المترجم*) بحالة من اليأس، بل حتى بحالة من الخمول اليائس. لم يكن ينام، ولا يأكل، وهو نفسه كان يبكي أحياناً بكل معنى الكلمة، كنت أظن أنني سأفقد عقلي».

سقوط تولستوي

في شهر أيار/ مايو عام 1881، أثناء الاحتفال الكبير بافتتاح النصب التذكاري للشاعر ألكسندر بوشكين في موسكو، عندما ألقى دوستويفسكي خطابه الشهير عن «بوشكين»، سرت إشاعة بين الكتّاب المجتمعين، أن تولستوي في ياسنايا بوليانا فقد عقله. وفي 27 أيار/ مايو كتب دوستويفسكي لزوجته: «أعلمنا اليوم غريغوريفيتش، أن تورغينيف الذي عاد من عند تولستوي، بأن ليف تولستوي مريض، وأنه يكاد يفقد عقله، وربما فقد عقله نهائياً». وقد تقبل الإخوة - الكتّاب هذه الإشاعة بسهولة كبيرة لدرجة أن دوستويفسكي يخبر زوجته في رسالة في اليوم التالي: «حول ليف تولستوي، كاتكوف أيضاً أكد الإشاعة، أنه فقد عقله. وقد حثّني يوريف على السفر إليه في ياسنايا بوليانا: فالسفر إلى هناك والعودة لا تستغرق يومين. لكنني لن أذهب، رغم أنه كانت لدي رغبة شديدة».

وفي شهر شباط/ فبراير عام 1881 توفي دوستويفسكي. وضاعت إلى الأبد فرصة لقاء وتعارف الكاتبين العظيمين.

إن الإشاعات حول «جنون» تولستوي لم تنتشر في أوساط الكتّاب فقط. ففي شهر شباط/ فبراير عام 1881 يأتي إلى ياسنايا بوليانا ألكسندر بيرس شقيق صوفيا أندرييفنا. وبعد رحيله، تكتب صوفيا أندرييفنا لأختها تاتيانا كوزمينسكايا: «لقد أخافني ساشا، لأنه وجد في ليفوشكا (زوجها -*المترجم*) تغيراً أخلاقياً نحو الأسوأ، أي أنه يخاف على عقله. أنت تعرفين عندما يكون ليفوشكا مشغولاً بشيء ما، فإنه يستغرق بكامله في أفكاره. لكن المزاج الديني والفلسفي هو الأشد خطراً. وهو معافى، ومرح، وممتلئ الجسم، ولا أرى فيه أي خطر، ووجع رأسه أصبح أقل من السابق...».

وفي تولا، دارت أحاديث حول «جنون» تولستوي. وكان ابنه سيرغي يعتقد أن هذه الإشاعة نشرها كيسلينسكي رئيس مجلس البلدية.

وقد تذكر سيرغي لفوفيتش نفسه: «في عام 1881 كان الوضع المالي لعائلتنا في حالة ممتازة... في تلك الفترة تراكم لدى والدي الكثير من المال. فقد باع المطحنة في نيكولسك - فيازيمسك مقابل 9500 روبل، وباع قسماً من غابة (زاكاز) في ياسنايا بوليانا ولا أذكر بأي سعر، وحصل على 25000 روبل مقابل مؤلفاته الكاملة».

ويكتب لاحقاً: «وعلى الرغم من تغير أفكاره، فإن نمط حياة أبي في ياسنايا بوليانا، قبل الانتقال إلى موسكو لم يتغير إلا قليلاً. فقد تابع العمل في مزارعه، والتدخين، وأكل اللحوم، وحتى الصيد. بيد أنه أصبح يمارس العمل في المزرعة بصورة أقل، وبدون رغبة، وأخذ يعمل أكثر على كتاباته، دون أن يمنح نفسه قسطاً من الراحة في الصيف. ففي عام 1881، من أصل العمل الكبير المفترض، والذي يتألف من أربعة أجزاء: 1-المقدمات («الاعتراف»)، 2-«نقد العقيدة اللاهوتية»، 3-«دراسة الإنجيل»، 4-«تبسيط العقيدة»، كان قد أنجز الجزأين الأولين، وبدأ العمل بالجزء الثالث».

والشيء الوحيد الذي كان يحتاجه في هذا الوقت هو العزلة والتبعية الأقل للهموم والأعباء المنزلية. وقد كان يستحق هذا أكبر استحقاق، لأن الأمور المالية العائلية تسير على ما يرام. فزوجته وأبناؤه شبعى، لا يعرفون الجوع، ويرتدون الملابس والأحذية الأنيقة، ولكن...

من يعاني في ياسنايا بوليانا؟ ومن يهفو إلى موسكو، سوى سيرغي وتاتيانا وقد أصبحا في سن الشباب، ويتطلعان بشغف إلى الهرب من الوسط القروي الموحش؟ فهو يحلم بحياة الطلبة وحريتها واستقلاليتها. وهي تحلم بحفلات الرقص، والأزياء، والمعجبين! ومن أيضاً يشعر بالسوء في القرية؟!

تكتب صوفيا أندرييفنا في يومياتها عام 1878: «... بودي أن أقرأ، وأن أتعلم، وأن أفكر وأحاكم بعقلي... بودي أن أكون جميلة». وتتذكر في كتابها «حياتي»: «في هذا الوقت كان الازدهار الكامل لنموي الجسدي والعقلي.

كان عمري 34 سنة، وبحسب أقوال الجميع دون استثناء، كانوا يجدونني آنذاك، وبعد ذلك بفترة طويلة، شابة في مقبل العمر».

وماذا في ياسنايا بوليانا؟

«قبل الغداء، غضبت من إيليا وليولا (ليف) لأنهما سرقا الكافيار، وضربت إيليا ووبختهما بشدة».

«الطفلان، أي إيليا وتانيا: لا يمكن إيقافهما، كلاهما يأخذ التوت البري المجمد من المربية، ويركض إلى المطبخ بحثاً عن الفجل... إن هذا كله يزعجني وأشعر بنفسي بائسة وضعيفة».

«حصلت مشاجرة رهيبة مع ليفوشكا (زوجي -*المترجم*). أشعر بنفسي بائسة، لكنني لا أشعر بعد بأني مذنبة. كم أكره كل شيء: أكره نفسي، وأكره حياتي، وأكره *سعادتي* المزعومة».

«أنا أخيط، وأخيط، إلى درجة الدُوار، إلى درجة اليأس، والتشنج في حنجرتي، رأسي يؤلمني، الحزن ينتابني... لكنني أخيط، وأخيط. أحياناً، أريد لو أدفع الجدران، وأنطلق إلى حريتي...».

«أجلس وأنتظر لحظة الولادة التي تأخرت. الطفل الجديد يدفع إلى الكآبة، لقد تحول الأفق، وأصبح مظلماً، لقد أصبح العالم ضيقاً...».

في عام 1879، ولأول مرة، بعد سبعة عشر عاماً من الزواج والانتقال إلى ياسنايا بوليانا، تسافر صوفيا أندرييفنا مع سيرغي وتاتيانا إلى موسكو من أجل الاستراحة والمتعة. وقد بررت ذلك بفكرة أن الأطفال «متوحشون وسذّج»، ومن الواجب «تنويرهم». «مكثنا في موسكو فترة غير طويلة وزرنا كل ما أمكننا زيارته. الوحوش والحيوانات البرية في حديقة الحيوان، وخاصة الفيل؛ متحف روميانتسيف بلوحاته، وتماثيله، وتماثيل الشمع فيه... ثم تجولنا في الكرملين، والقصر، والكاتدرائيات؛ وذهبنا للتسوق في المحلات التجارية. وأمضينا أمسيتين في الأوبرا. حيث قدموا «رقصة الحفلة التنكرية» لفيردي و«ليندا دي شاموني»... وزرنا مسرح مالي حيث قدموا عرض «القفص الذهبي». الانطباعات كثيرة لدى أبنائي. أكتب لأختي: <<لقد أصيب أطفالي المتوحشون بالدهشة من كل شيء>>».

وقد كتب سيرغي لفوفيتش فيما بعد، أن أمه «كانت تتطلع بشغف للانتقال

إلى موسكو» وكان يؤيدها في هذا هو وحده وأخته تاتيانا. «أمي، وأختي تانيا وأنا، مثل الأخوات الثلاث عند تشيخوف، كنا نعيش بأمل الانتقال «إلى موسكو، إلى موسكو!»».

«أما إيليا، فبالعكس، كان يخاف من الثانوية، وكان آسفاً على حرمانه من الصيد في فترة الخريف، الذي كان معتاداً عليه. أما الباقون –ليوفا، ماشا، أندريه، ميشا– فقد كانوا صغاراً جداً، كي يرغبوا بشيء محدد ما».

وماذا عن الأب؟

رضخ تولستوي. لدرجة أنه على الرغم من آرائه الجديدة وكراهيته لحياة المدينة، عمل هو وليس صوفيا أندرييفنا على ترتيب أمور الأسرة الحقيقي في موسكو... فبعد عام من العذاب في الشقة «الكرتونية» في جادة دينيجني، يترك عائلته في الصيف في ياسنايا بوليانا، ويشتري منزل التاجر أرناؤوتوف في جادة دولغو – خاموفنيشسكي. وقد كان ابنه سيرغي حاضراً أثناء البازار. «جاء إلينا أرناؤوتوف، صاحب البيت، وهو رجل عجوز، قميء. وقد أدهشني بأنفه الكبير، الضيق، الأحمر، المليء بالبثور، والمائل إلى الجانب. وترك في نفسي انطباعاً بأنه مدمن على الكحول».

كانت الميزة الرئيسة لهذا المنزل هي موقعه المنعزل وحديقته التي تزيد مساحتها على الهكتار. لكن المنزل نفسه كان غير كاف لعائلة كبيرة. يدعو تولستوي مهندساً معمارياً ويبني فوق الطابق الأول ثلاث غرف بأرضيات خشبية، وصالة كبيرة، وغرفة ضيوف، وصالون. أما بالنسبة لمكتبه فينتقي غرفة، بسقف منخفض، تطل نوافذها على الحديقة. وينتقي تولستوي بنفسه ورق الجدران ويتابع ترتيب المواقد ويشتري الأثاث للمنزل.

ومع بداية شهر تشرين الأول/ أكتوبر عام 1882 أصبح المنزل الجديد جاهزاً، بدون مشاركة مباشرة من صوفيا أندرييفنا، التي كانت في رسائلها من ياسنايا بوليانا تصدر تعليماتها «التوجيهية» لزوجها. وقد كان ليولا (ليف) من أوائل من شاهد هذا المنزل، ووصفه بإعجاب في رسالة إلى أمه: «أصبح شكل المنزل جميلاً جداً، لونه عاجي بستائر خضراء، وأرضية خشبية بعروق سوداء، يقول العم كوستيا، إن هذا الأكثر أناقة...».

وكانت تاتيانا سعيدة أيضاً...» إن منزلنا رائع، لا أجد فيه أية عيوب، يمكن الانتباه إليها. أما غرفتي والحديقة - فيا للبهجة!».

كل شيء أنجز بكثير من الحب! وليس مستغرباً، أن يوم الانتقال إلى المنزل -في 8 تشرين الأول/ أكتوبر عام 1882- رسخ في الذاكرة كحدث مشرق. تكتب تاتيانا: «وصلنا إلى منزل أرناؤوتوف مساءً. كان المدخل مضاءً وكذلك الصالة. وكان الطعام جاهزاً، وقد وضعت الفاكهة في إناء زجاجي على الطاولة. عموماً، كان الانطباع الأول هو الأكثر روعة: الإنارة في كل مكان، المنزل رحب، وكل شيء يدل على أن بابا فكر في كل شيء وسعى إلى ترتيب كل شيء على أفضل وجه ممكن، وهذا ما حققه بالكامل... وقد تأثرت كثيراً باهتمامه بنا؛ وهذا كان لطيفاً جداً خاصة لأنه غير مألوف منه».

ولماذا غير مألوف منه؟

مَن سجّل أبناءه في ثانوية بوليفانوف المرموقة، حيث كان يدرس أبناء أسر النبلاء أو التجار أو أساتذة الجامعات؟ مَن أخذ ابنته الكبرى إلى حفلة الرقص الأولى في موسكو؟ مَن كان لديه نفوذ قوي في الأوساط الأرستوقراطية، سمح *للكونتيسة* صوفيا أندرييفنا وابنتها المشاركة في أمسيات عائلات موسكو الأرستقراطية؟ وأخيراً، من الذي اجتذب كالمغناطيس إلى منزل خاموفنيكي المضياف نخبة العالم الأرستقراطي العلمي والأدبي؟

وسؤال بسيط للغاية: بأموال مَن كانت تعيش الأسرة؟ من سمح -كما تكتب تانشكا بسذاجة فتاة في يومياتها- بشراء «كنبات وعربات»؟ «وفي طريقنا عرّجنا إلى صالون رودولف للأزياء لقياس الفساتين التي أحضروها لي من باريس». «لقد حسبت أنني صرفت حوالي ألف وخمسمئة روبل ثمن فساتين لموسم واحد فقط».

«كنت أرتدي فستاناً من الساتان الأبيض والأطلس الأبيض، وكانت ماما ترتدي فستاناً من المخمل الأسود المزين بكثير من تخاريم الأطلس. كنت أرقص رقصة الكادريل (رقصة جماعية زوجية مع ستة أزواج -*المترجم*): الصفرية مع بوريا سولوف، والأولى مع ميشا سوخوتين، والثانية مع أبوخوف-هوسار (الخيّال -*المترجم*)، والثالثة مع غليبوف، والرابعة مع

كوكول-ياسنوبولسكي؛ ورقصت رقصة المازوركا (رقصة روسية شهيرة -*المترجم*) مع كيسلينسكي، ورقصت رقصة كوتيليون مع قائد الفرقة الموسيقية الكونت نوستيتز... كان العشاء رائعاً، من مطعم أوليفيه، وكانت أوركسترا ريابوف كلها مغطاة بالمساحات الخضراء. عدنا إلى المنزل في السادسة والنصف».

إن تاتيانا فتاة ذكية، رغم كل شيء، وها هي تصف في يومياتها، بشيء من السخرية، الأحاديث الأرستقراطية:

«- كم نحفتِ، أيتها الكونتيسة.

- كم أنت نحيف أيها الأمير.

- منذ زمن طويل، لم ير أحدنا الآخر، أيتها الكونتيسة.

- منذ زمن طويل، لم نلتق، أيها الأمير».

وهذه سهرة عيد الميلاد التي حضرها الأمير إيفان ميشيرسكي، المفضل لدى تانيا من شبيبة موسكو الذهبية: «أثناء العشاء كان هناك كثير من المرح: تظاهر مانكو وكأنه يغازلني، وكذلك فانيا (إيفان)؛ بعد ذلك وبّخا أقاربهما، بعد ذلك روى فانيا كيف كان يغازلني في العام الماضي... وبعد العشاء خرج جميع الرجال ليدخنوا السجائر ويشربوا الليكيور، أما السيدات فذهبن إلى غرفة الضيوف لشرب القهوة...».

وهاكم ما يحدث في أمسية في منزل آل تولستوي: «طلبت منه (من إيفان ميشيرسكي -*المؤلف*) أن يغني، فتعمد أن يحشو فمه بالكافيار وأخذ يتجهم ويصعّر بوجهه بأشكال، يا للرعب!».

وكل هذا «الرعب» يوفره لها أبوها بعلاقاته، ولقبه، واسمه الأدبي، وبمكافآته الكبيرة. وهو نفسه، بآرائه الجديدة، يشعر بالألم وهو يشاهد هذا كله.

يكتب تولستوي في «مذكرات مسيحي» التي تمثل يومياته للأعوام 1881-1887: «... إن معنى الحياة الإنسانية هي تعاليم المسيح، وفرحة الحياة هي السعي إلى تحقيق هذه التعاليم، ولهذا فكل ما يتوافق مع هذه التعاليم أحبه وأفرح به؛ وكل ما هو ضدها يثير اشمئزازي وألمي».

لقد فُتحت عينا تولستوي بشكل واسع وشامل. ورأى بحراً من الحزن البشري الذي لم يكن يراه في السابق أو لم يكن يلتفت إليه.

«في هذا العام جاءت تيتا زوجة بوريس (فلاّحنا). امرأة عجوز من العهد القديم، هادئة، وديعة، حنونة، ذابلة، نحيفة، وجهها أصفر تملؤه التجاعيد والنتوءات بين التجاعيد.

– ماذا ستخبرينني؟

– عن أرملة لاريفون البائسة. إنها ابنتي، كانت زوجة لاريفون الحوذي الذي كان مقيماً عندكم.

تذكرت لاريفون بصعوبة.

– إنه قد مات.

– منذ فترة طويلة؟ وما سبب موته؟

– الله وحده يعلم، قيل إن السل الرئوي أصابه من الملل.

– أي ملل هذا، وما سببه؟

– وكيف، في السجن للسنة الثانية.

– لماذا في السجن؟ يبدو لي أنه كان رفيقاً، صغيراً، جيداً.

– نعم صغير جداً بشكل نادر، كان يدمن على شرب النبيذ وحده، وهو الذي أهلكه. والآن بقيت ابنتي، شقيق زوجها يطردها، وأين تذهب ومعها خمسة؟ لو كان معها اثنان فقط لأطعمتهما، أما خمسة فمن أين تطعمهم. ووضعنا بائس...

لقد كنت في هذا السجن وأعرفه. أعرف رائحة هذا السجن، أعرف الوجوه المنتفخة، والشاحبة، والقمصان الممزقة المليئة بالقمل، والمباول في الخيام، أعرف ماذا يعني حبس الأشخاص العاملين في أبواب مغلقة يوماً، واثنين، وثلاثة، كل يوم 24 ساعة أربعة أيام، 5 – مئات الأيام التي يجلس فيها هناك البؤساء، لا يفكرون ولا يسمعون إلا بالانتقام ممن انتقم منهم وحبسهم. وصل لاريفون إلى هناك وخلع سترته، وقميصه الأحمر، وارتدى الثياب المقمّلة والرداء وخضع لعبودية السجّان. ولمعرفتي بكبرياء لاريفون وعزة نفسه، يمكنني أن أخمن ما حدث معه».

في هذا الوقت، كان سؤال يمزق ابنته تاتيانا في موسكو: كيف تتبادل، خفية، الصور الفوتوغرافية مع فانيا (إيفان) ميشيرسكي.

«في الساعة العاشرة ألبسوني فستاناً أخضر اللون فاتحاً من الساتان مع صدرية خضراء غامقة من المخمل، وكان الفستان مزيناً بكثير من الطيور الصغيرة الناعمة، كما وضعت على شعري بكلة على شكل طير. وكالعادة، كان يُلبسني فساتيني كثير من الناس: الآنسة لاكي miss Lake، خادمتان، ماشا، وكان يشارك في ذلك حتى العم كوستيا وليولا (ليف)...

في المدرسة الثانوية استقبلنا كاتكوف وسولوفوي (قيّم الصالة) وأدخلونا إلى الصالة. كل شيء كان جميلاً وثرياً جداً، وشعرت بنفسي بكثير من السعادة والمرح».

يكتب تولستوي في اليوميات: «كيف لا يرون أنني محروم من الحياة للعام الثالث. لقد أسبغوا علي دور العجوز الغاضب المتذمر، ولا يمكنني في أعينهم الخروج منه: وإذا ما شاركت في حياتهم -فإنني أنكر الحقيقة، وهم أول من سيخزني في عينيّ بهذا الإنكار. وإذا ما اكتفيت بالنظر بحزن إلى جنونهم، كما أفعل الآن- فأنا عجوز متذمر، مثلي مثل جميع كبار السن».

ويشعر بالطبع، بالضيم والاستياء من أسرته!

«علام ولماذا لدي سوء التفاهم الرهيب هذا مع الأسرة؟ في المنزل - سريوجا غاضب. لقد نعتني بالجنون هو وصونيا». «لا يمكنني الحديث قطعاً مع أفراد أسرتي. لا يصغون إليّ. إنهم يعرفون كل شيء...».

ينظر تولستوي نظرة جديدة إلى زوجته. يلاحظ فيها ملامح جديدة. «يا للبائسة، كم تكرهني. -يا إلهي، ساعدني. فليسحقني الصليب، ليمحقني الصليب. وارتعاش الروح هذا- فظيع وليس قاسياً فحسب. إنه مؤلم وصعب. ساعدني يا رب!».

ويتوصل إلى استنتاج لا يبشر بالخير أبداً... «بالضبط أنا الوحيد غير المجنون، وأعيش في بيت المجانين الذي يديره مجانين».

في عام 1881 يبدأ ابتعاد تولستوي عن الأسرة... فينتقل إلى جناح في منزل خاموفنيكي، حيث ينهي قصته القصيرة «بمَ يعيش الناس؟» مع التبشير

بالحب الشامل. حيث أنزل الله ملاكاً إلى الأرض، كي يفهم «بم يعيش الناس» وأعلن هذا للناس. وقد أدرك الملاك أنهم «يعيشون بالحب وحده، من يحب فهو مع الله والله معه، لأن الله هو المحبة».

بيد أن فكرة أن «الله محبة» تأتيه في وقت تعيش فيه علاقات الحب في أسرته أزمة خطيرة. ويبدأ *بإقناع نفسه*، بصورة مطردة، بأنه يحب أفراد أسرته الأقربين...

الحرب من أجل الأطفال

بحلول السنة الخامسة من الحياة في موسكو، أصبح الجو في أسرة تولستوي متأزماً. ويعترف تولستوي في رسالته، التي كتبها ولم يرسلها، إلى تشرتكوف:

«عندما أبدأ الحديث مع زوجتي وابني الكبير -يظهر الغضب جلياً، الغضب الذي أشعر تجاهه بالضعف، والذي يعديني.- فما هو الأفضل أن أفعل؟ أن أحتمل وأكذب كما أكذب الآن طيلة حياتي -جالساً وراء طاولتي، مستلقياً في سريري، سامحاً ببيع مؤلفاتي، موقعاً الأوراق حول حق التصويت، سامحاً بمعاقبة الفلاحين واضطهادهم لسرقة ممتلكاتي، حسب توكيلي؟ أم تمزيق كل شيء- والاستسلام للهيجان. إنني لا أستطيع تمزيق كل شيء، وتحرير نفسي من الكذب بدون هيجان، غير قادر على ذلك بعد. أصلي لله - أي أطلب من الله طريق الحل ولا أستطيع».

وكانت تكمن صعوبة وضعه أيضاً، في حقيقة أنه مع عدم عثوره على الطمأنينة الدينية في أسرته، لم يكن يجدها في الكنيسة أيضاً، كما سيحدث لاحقاً مع شقيقته الصغرى ماريا نيقولايفنا. وفي عمله الفلسفي - الديني الأول المنجز، ولكن غير المعنون، وغير المنشور حتى الآن، الذي نشأت منه مؤلفاته اللاحقة: «الاعتراف»، «ماهي عقيدتي»، «نقد العقيدة اللاهوتية»، يكتب عن الكنيسة الأرثوذكسية:

«الآن، لم يعد بإمكاني أن أربط بهذه الكلمة أي مفهوم آخر، سوى بضعة أشخاص غير حليقي الرؤوس، شديدي الثقة بأنفسهم، تائهين، ضعيفي

التعليم، يرتدون الحرير والمخمل مع الأنكولبيونات الماسية المقدسة، ويُدعوْن بالأساقفة والمطارنة، وآلاف غيرهم من غير الحليقين، الخاضعين لطاعة عبودية بربرية من أولئك العشرات، الذين لا همّ لهم سوى خداع الشعب وابتزازه، تحت ستار أداء أسرار مقدسة ما. كيف يمكن أن أثق بهذه الكنيسة وأؤمن بها عندما تجيب عن أعمق أسئلة الإنسان حول نفسه وروحه بخداع وعبثية يرثى لهما وتزعم أيضاً أنه يجب أن لا يجرؤ أي كائن على تقديم إجابة مختلفة، وأن عليّ أن أسترشد في كل ما يشكل أثمن شيء في حياتي بتعاليمها وليس بشيء آخر. يمكنني اختيار لون بنطالي، يمكنني اختيار زوجتي حسب ذوقي، أما الباقي، أي كل ما يشعرني بأنني إنسان، في كل هذا عليّ أن أسألهم - أسأل هؤلاء الناس العاطلين والمخادعين الجاهلين».

من غير المجدي الجدال مع تولستوي. فهذا الموقف يستبعد أي جدال. والأهم من ذلك، الالتفات إلى أن تولستوي، بابتعاده عن الكنيسة، قد وضع علامة المساواة بين اختيار الزوجة... ولون البنطال. إذا كانت هذه زلة لسان فإنها نموذجية مميزة. ففي هذه الفترة لم يعد بين الزوجين أي توافق، بل لم يعد بينهما، كما يبدو، أي شيء مشترك، سوى الأبناء. وإذا ما تمكن تولستوي من التخلص من الهموم المنزلية، بكتابة التوكيل المناسب لزوجته، فمن المستحيل كتابة توكيل لتربية الأطفال. يبقى الأبناء المجال الوحيد للاهتمام والقلق المشتركين. ولكن، وبسبب فهم الحياة المختلف من جانب الزوجين، يحدث هنا بالذات الانقسام الأكثر حساسية.

تكتب صوفيا أندرييفنا لزوجها في 21 تشرين الأول/ أكتوبر عام 1885 عندما مكث طويلاً في ياسنايا بوليانا: «لم نتركك نحن، بل أنت تركتنا. لا يمكنك أن تُبقيَ الإنسان بالقوة. - ولا تنسَ أنك أكبر من سريوجا، على سبيل المثال، بـ 35 عاماً، وأكبر من تانيا وليولا (ليف) بحوالي 40 عاماً، وتريد من الجميع أن يطيروا ويلحقوا بك».

إن صوفيا أندرييفنا مقتنعة بأنه إذا ما كانت الحقيقة الروحية إلى جانب زوجها، فإنها هي وحدها حامية القيم العائلية وزوجها يشكل خطراً في هذا المجال. وهي لا تخفي هذا: «شكراً لأن الأبناء يعاملونني بثقة، وأنا أستحق هذه الثقة، لأنها الآن هي الشيء الوحيد الذي بقي لي... وفي غضون ذلك،

لا يسعني إلا أن أقول: نعم أريده أن يعود إليّ، تماماً كما يريد هو أن أذهب إلى عنده. عندي -الماضي السعيد، الذي عشناه جيداً بلا شك، بنور ومرح وحب وصداقة. وعنده- الجديد بآلامه الأبدية، الذي يجر الجميع من أرواحهم، ويدهشهم، ويدحرهم بقسوة، ويدفع إلى اليأس ليس عائلته وحدها، بل أقاربه وأصدقاءه المقربين».

هذه ليست مدونة في اليوميات... إنها رسالة إلى زوجها بتاريخ 23 كانون الأول/ ديسمبر عام 1885، حيث تتوجه صوفيا أندرييفنا إليه بصيغة الغائب. إنها في الواقع إنذار نهائي.

لكن تولستوي لديه تصوراته الخاصة عمّا يحتاجه الأبناء بالدرجة الأولى. وهو في الوقت الحاضر لا يرغب بالتنازل عنها لزوجته، لا سيما أنه يشعر بالذنب لأنه كان يربي أولاده في السنوات السابقة على طريقة الأسياد والنبلاء.

يكتب تولستوي في يومياته في 24 نيسان / أبريل عام 1883: «ولماذا لا أتحدث مع الأبناء: مع تانيا؟ سريوجا غبي بلا حدود. وبعقل مخصي مثل أمه. أنتما الاثنان إذا ما قرأتما هذا، يوماً ما، فسامحاني. إن هذا يؤلمني جداً...».

يسبب له الابن الأكبر سيرغي الانزعاج الأكبر، لأنه بانتسابه للجامعة، ابتعد عن تأثير الأب، وبقيت تربطه بالأم المصالح والأمور المنزلية. كما أنها هي من كان يعطي المال لابنها.

«في المنزل تحدثت مع المدام سيرون Seuron (المعلمة) ومع إيليا. هو أيضاً كان يريد التواصل معي... شكراً له. كنت مسروراً جداً» (26 نيسان/ أبريل عام 1883). ولكن في نهاية الأمر، لم يعد إيليا يرضي الأب. «إيليا - أسوأ من الجميع، يتواقح - شرير وأناني» (26 تموز/ يوليو).

مثله مثل زوجته، يشفق تولستوي على أبنائه، لكنه يفهم سعادتهم وبؤسهم بطريقته الخاصة. «... أشفق على الأطفال بشكل رهيب. أنا أحبهم أكثر وأكثر وأشفق عليهم...».

يرى تولستوي أنهما أفسدا أبناءهما الكبار بـ«البذخ»، والعادات الأرستقراطية، ولم يشرحا لهم الأسس الأخلاقية للحياة، ولم يجعلا منهم مسيحيين حقيقيين، بتربيتهم في روح «عِرق السادة». وكانت تلك

حقيقة لا تنكر. ففي أسرة تولستوي لم يدلّعوا الأبناء، ومع ذلك فقد نشأوا «أبناء أسياد».

كان يتذكر إيليا لفوفيتش: «لقد نشأنا كـ«سادة» حقيقيين، فخورين بأصلنا النبيل ومنفصلين عن العالم الخارجي كله. وكل ما ليس منّا، هو أدنى منّا، وبالتالي لا يستحق التقليد... وقد بدأت أهتم بشباب القرية فقط عندما أخذت أعلم منهم بعض الأشياء التي لم أعرفها سابقاً، والتي كان محرّماً عليّ معرفتها... كان عمري آنذاك حوالي عشر سنوات. ذهبنا إلى القرية للتزلج من الجبال على دكك خشبية، وعقدنا صداقة مع الأولاد الفلاحين، لكن أبي سرعان ما لاحظ وَلَعَنا وأوقفه...».

لقد حفظ إيليا طيلة حياته حفل توزيع الهدايا في ياسنايا بوليانا على عيد الميلاد. كانت تُقدم الهدايا لأولاد السادة وأولاد الفلاحين، لكنها كانت مختلفة. تُفتح أبواب القاعة، يدخل من أحد الأبواب حشد من أطفال القرويين، ومن الباب الآخر، من باب غرفة الضيوف، نركض نحن... لعبة كبيرة «تغلق عينيها» وإذا ما سُحبت من سلسلتين بخرزتين زرقاوين في نهايتها، مربوطتين بين رجليها، كانت تصيح «بابا» و«ماما». مطبخ للأطفال، طناجر، مقالٍ، صحون وشوَك، دب على عجلات، يهز رأسه ويصيح، سيارات تُدار بالزنبرك، فرسان مختلفون على خيولهم، فئران، محركات بخارية، وأشياء كثيرة غيرها كانوا يقدمونها لنا هدايا. أهدي سريوجا بندقية تطلق صوتاً عالياً بفلينة، وساعة من الصفيح مع سلسلة. وفي هذا الوقت كان الكبار يوزعون على أطفال القرويين الدمى الخشبية المحلية، وخبز الزنجبيل، والجوز والتفاح. وقد أدخلوهم من باب آخر، ويقفون كحشد على الجانب الأيمن من شجرة عيد الميلاد ولا يقتربون من جهتنا. «يا عمة، أعطني، أعطني دمية!» لقد أعطيت فانكا. تنقصني هدية». كنا نتباهى بفخر أمام أولاد الفلاحين بهدايانا. نحن متميزون، ولهذا فمن الطبيعي، كان يبدو لنا، أن تكون عندنا هدايا حقيقية، وعندهم مجرد هياكل خشبية. وعليهم أن يكونوا سعداء بها. ولم يخطر برؤوسنا أنهم يمكنهم أن يحسدونا».

إن واقعة أن إيليا لفوفيتش قد تذكر فيما بعد هذا بخجل، بحد ذاتها، تدل على تأثير والده الكبير عليه. وهذا كانت تدركه صوفيا أندرييفنا أيضاً. ولكن،

منذ تلك الفترة التي تخلى فيها زوجها عن المشاغل الدنيوية، انهالت عليها أعباء لا حصر لها من المشاغل والمشاكل، فكانت مضطرة للاختيار بينها وبين أحقية زوجها الأخلاقية.

يكتب إيليا لفوفيتش: «لو لم يكن عندها أطفال، ربما كانت ستذهب معه وتتبعه. ولكن، ولأنها كانت في بداية الثمانينيات تملك سبعة أولاد، ومن ثم زادوا إلى تسعة، لم يكن باستطاعتها أن تتخذ قراراً بتدمير حياة الأسرة كلها، وبالحكم على نفسها وعلى أولادها بالبؤس والفقر».

ولم يرغب تولستوي في أن يفهم هذا... وها هو ذا يكتب في يومياته، ظالماً وبعيداً عن العدل، في عام 1883: «إنها ستبقى حتى موتي مثل حجر الرحى على رقبتي وعلى الأبناء».

وفي هذا الموقف المتأزم، الذي لا مخرج منه، يعيش الطفل الوحيد، الذي يحب أمه من كل قلبه، ويحاول مشاركة أفكار أبيه، بكامل قلبه.

القلب الرقيق

في الأعوام الثمانينيات، كان ليولا (ليف) تولستوي يثير إعجاب الجميع. وقد تذكرت ابنة عمه ماشا، ابنة سيرغي نيقولايفتش تولستوي، عندما كان يأتي لزيارتهم في موسكو: «كان ابن عمي ليف لفوفيتش تولستوي (وكانوا يدعونه ليولا) يجيد الرقص بصورة متميزة. كان في السابق قد تعلّم الرقص، لكنه كان دوماً تقريباً يشارك في دروس الرقص عندنا. وكان النظر إليه عندما يرقص رقصة المازوركا دائماً يثير الإعجاب الشديد، بما في ذلك لدى الكبار – وكانت أمي معجبة كثيراً بطريقته في الرقص؛ وهي عموماً كانت تحب ليوفا كثيراً وتقول إنه يذكّرها بسيرغي نيقولايفتش في أيام شبابه...».

كان سيرغي نيقولايفتش الأخ الأكبر، في الماضي، موضع حسد من جانب أخيه ليف نيقولايفتش. وقد كتب: «كنت معجباً بسريوجا وكنت أقلده، وكنت أحبه، وأريد *أن أكون مثله*. كنت معجباً بمظهره الجميل –كان يغنّي دائماً– وبرسمه، وبيهجته، وكنت معجباً خاصة، مهما بدا هذا غريباً، بعفويته، وأنانيته».

ومن المعتقد، أن سيرغي نيقولايفتش تولستوي كان أحد النماذج الأولية للأمير بولكونسكي في «الحرب والسلام».

كان ليولا (ليف) أيضاً وسيماً وأنيقاً، وموسيقياً، وكان يغزو قلوب النساء.

تتذكر ماريا سيرغييفنا بيبيكوفا السنوات الثمانينيات: «يبدو أن ليف لفوفيتش كان يغازل نساءً كثيرات، وكان يطيب لهنّ دوماً رؤية قوامه الممشوق بحركاته المرنة، وألق عينيه السوداوين الجميلتين، وابتسامته اللطيفة. كثيراً ما كان يقترب من البيانو ويعزف معزوفة قصيرة ما، ومعظمها من الأغاني الغجرية التي كان يفضلها في ذلك الوقت «أوتشي تشورنيي» (العيون السود)، «في ساعة القدر»؛ ومن مسرحيات «الغزال». وكانت لمسته لمفاتيح البيانو رائعة ولطيفة، أما موسيقاه فكانت تثير الإعجاب الشديد. وعندما كان ينتهي، كان بودنا أن نسمعه ثانية، ودوماً كان الجميع يطلب منه أن يتابع العزف، ونادراً ما كان يوافق».

لقد كان قلبه رقيقاً.

تكتب صوفيا أندرييفنا لزوجها من ياسنايا بوليانا إلى مقاطعة سمارى في 14 حزيران/ يونيو عام 1883: «حقيقة أنه يحبك كثيراً. ودوماً، هو أول من يقرأ رسالتك. وبعده ابنتنا تانيا، وأختي تانيا، أما إيليا وماشا فهما غير مباليين تماماً». وفي رسالة أخرى من موسكو، تخبر زوجها أن ليولا (ليف) قد بكى أثناء عرض أوبرا «فاوست» لشارل هونو، «عندما قتل أحد المتبارزين الآخر في المبارزة». وتشير أيضاً إلى قلقها بخصوص النوبة الغريبة السرنمة (السير خلال النوم -*المترجم*) التي حدثت لابنها ليولا عشية بلوغه الثالثة عشرة سنة من عمره: «أنام، وفجأة خلف الحاجز الخشبي طقطقة وصخب. ظننت أنه سقط من الأريكة، وهرعت إلى سريره - وجدته فارغاً. أنظر، فأراه يركض في قميص النوم وحده في الصالة. اقتربت، قلت: ماذا بك ليولا، إلى أين؟ أرى وجهه كالأبله، ويجيبني وهو يبكي: <<إلى هناك، أريد أن أجلس، دعيني، سأذهب>>».

في إحدى الرسائل الموجهة لوالديه يقول عن نفسه: «الآن يكتب *الصبي المرهف*».

ويظهر واضحاً من خلال رسائل ليف وإيليا في المرحلة الثانوية، أنهما كان يختلف أحدهما عن الآخر. كان إيليا وقحاً، لكن هذا لم يمنعه، مثله مثل ليف، أن يعشق طالبات الثانوية. كان إيليا صياداً متحمساً ماهراً وتلميذاً سيئاً. أما ليولا فكان يسعى أكثر، على الأغلب، لإرضاء والديه. لكنه كان أكثر عصبية واختلالاً في سلوكه. «*مزاجي لا يحتمل...*» - يعترف في رسالته لأبيه. ويشتكي في الوقت نفسه، من أن أمه، عندما وصلت إلى موسكو لم تهتم بعلاماته ودرجاته المدرسية في الثانوية. ويقدم تقريره الدراسي: «حصلت مرتين على درجة 2 في الجبر، لم أحل المسائل، وكنت حزيناً، قريباً ستُملى علينا دروس الإملاء باللغة الروسية، مرة حصلت على درجة 1، ومرة على درجة 2، أيضاً تقدير سيئ، لكنني سأعتاد، أصبحت الآن أفضل، كنت سابقاً درجة 1، الآن درجة 2، وبعدها سأحصل على درجات 3، 4، 5» (نظام الدرجات المدرسية في روسيا هو الخمس الدرجات درجة 1، و2 درجتا رسوب، وما فوقهما درجات النجاح -*المترجم*).

من هذه الرسالة تظهر واقعتان. الأولى، أن السيد الروسي في الخامسة عشرة من عمره كان يعرف لغة الكتابة الروسية بشكل سيئ جداً، وكان لديه تصور سيئ للغاية عن وضع الفواصل في الجملة. على الأغلب، كان هذا نتيجة التعليم المنزلي.

الثانية: كثيراً ما كان يبقى ليف وإيليا في موسكو بمفردهما، وكانا يتصرفان على هواهما. لم يكن الأب في عجلة من أمره لمغادرة ياسنايا بوليانا: كان لا يحب المدينة، وكان يعمل بشكل أفضل في القرية. وصوفيا أندريفنا كانت تتأخر في منزلها بعد انتهاء العطلة الصيفية من أجل زوجها والأطفال الصغار، الذين كانوا بحاجة إلى هواء القرية.

وهذه الاستقلالية كانت تروق لليولا، وها هو يكتب لأمه: «من الجميل أن يعيش المرء بمفرده، كالسمكة بين شعاب الصخور».

لكن هذه الاستقلالية كانت لها جوانب سلبية. فقد بدأ ليولا (ليف) التدخين في موسكو كما تولّع بالرهان على سباق الخيل.

ولكن، عموماً، كان *فتى إيجابياً*. ورسائله إلى أبيه وأمه مليئة بالاحترام

والحنان. «بابا الحبيب، قرأت رسالتك الطيبة لي ورسالتك الطيبة لماما وأردت أن أكتب لك...»؛ «ماما الحبيبة...»؛ «أعزائي في ياسنايا بوليانا...»؛ «تحياتي لكم يا بابا ويا ماما ويا تانيا ويا ماشا»؛ «وداعاً، يجب تحضير الدروس، أقيموا في ياسنايا بوليانا، لكم العمر الطويل والصحة...».

إنه يحسّ بآلام الآخرين. عندما أصيبت ابنة خالته ماشا كوزمينسكايا برض في قدمها في ياسنايا بوليانا، يستفسر ليولا عن صحتها: «كيف ساق ماشا؟ ولأي سبب تشعر بالضجر، لأنها لا تستطيع الركض، أم لسبب آخر؟».

إنه يستوعب جميع دقائق الحياة الأسرية ولكل فرد منها يجد الكلمة الطيبة: «ماشا، إليك رسالة من ستيبانوفا، السيدة madame تقبلك، لا ترتدي البدلة الروسية. وأنت يا تانيا البسيها، وارسمي اللوحات، فأنت قادرة على ذلك. أما أنت يا بابا، فاقطع الحطب ولا تتعب نفسك، كما تكتب ماما. أما ماما، فاذهبي إلى النزهة والعبي مع الصغار».

ولكن ظهرت في رسائله هذه إحدى خاصياته التي أصبحت فيما بعد تزعج أباه. من غير الممكن القول، إنه كان لا ينتقد نفسه على الإطلاق. لكنه في إخفاقاته، وفي نقاط ضعفه كان ميالاً إلى لوم الظروف القائمة وليس لوم نفسه. وكان هذا يدعى، حسب التعبير المعتمد في أسرة تولستوي «المهندس المعماري هو المسؤول». ذات مرة، تلقى إيليا الصغير كوباً جديداً هدية من والديه. بيد أنه تعثر عند عتبة الصالة وكسره. فصاح والدموع في عينيه: «المهندس المعماري هو المسؤول!». ومن هنا درج هذا القول في الأسرة: إذا ما لام فرد ما الآخرين وليس نفسه، يقولون له: «المهندس المعماري هو المسؤول؟». إن هذه العبارة «المهندس المعماري» حاضرة دوماً في رسائل ليولا (ليف).

يكتب ليف في 5 أيلول/ سبتمبر عام 1888: «لو ألقيت نظرة يا أمي العزيزة إلى حياتي لقلت على الأغلب: «يا لها من حياة جيدة!» الجميع مشغولون بي وحدي. في الثانوية يستيقظ المعلمون باكراً كي يصلوا في الوقت المناسب *ويعلّموني*. في المنزل، يعيش العم كوستيا كي تكون حياتي أجمل وأكثر متعة، فيكتور يعتني *بسعادتهم* ويسعى إلى تألقهم والطبّاخة

تطعمهم (ليف وإخوته -*المترجم*)، ممضية اليوم بطوله أمام الموقد. أشعر بشيء من الخجل، لكنني لست المسؤول، فكل شيء تم تنظيمه وترتيبه على هذا الشكل، بحيث من غير الممكن بشكل آخر». وسيتطور هذا فيما بعد عند ليف لفوفيتش إلى هوس حقيقي. وسوف يلوم في أغلب أوضاع حياته الحزينة، إن لم يكن فيها كلها، أي شخص آخر وليس نفسه.

ثانوية بوليفانوف

انتسب ليولا (ليف) إلى الثانوية مرتين. المرة الأولى في عام 1881، والثانية في عام 1884. الأب عثر على ثانوية بوليفانوف الخاصة من أجل ليولا وإيليا. في البداية أراد تسجيلهما في مؤسسة تعليمية حكومية. ولكن طالبوه فيها بتوقيع يثبت «أمانة» الابنين ومصداقيتهما. شعر الأب بالسخط وقال: «لا يمكنني إعطاء مثل هذا التوقيع عن نفسي. فكيف أوقع عن ولديّ؟».

كان التوقيع شكلياً. ولكن في هذا الموقف برز تولستوي الجديد، الذي دخل في تناقض مع عادات الدولة. ومن حسن حظه، علِم أنه على مقربة من شقتهم في جادة دينيجني ثمة ثانوية خاصة كلاسيكية للذكور، أسسها في عام 1868 المربي الكبير ومدرس الآداب الشهير ليف إيفانوفيتش بوليفانوف، المعجب بإبداع تولستوي. ذهب تولستوي إلى المدرسة وتعرّف على بوليفانوف، الذي كان يدرّس في الثانوية في الآن نفسه، اللغة الروسية والأدب. وقد حازت الثانوية على إعجابه. ولم يُطلب منه أي توقيع. وقد قبلوا ابنيه فوق العدد المقرر من التلاميذ.

وقد دَرَس في هذه الثانوية كتّاب مشهورون: فاليري بريوسوف، أندريه بيللي، مكسيميليان فولوشين، فاديم شيرشينيفيتش. وكانت تُروى الأساطير عن بوليفانوف كمعلم متميز، وجميع طلابه، بمن فيهم ليف لفوفيتش، تذكروه لاحقاً بكثير من الشكر والتقدير.

وقد كتب عنه أندريه بيللي: «لقد كان ليف إيفانوفيتش بوليفانوف تحفة أدبية جاهزة، نموذجاً من المستحيل إضافة شيء إليه، أو انتزاع خصائصه المميزة لأن مجمل هذه الخصائص كان هو كله: لم يكن رجلاً بل فكرة

متجسدة بقائمتين: إنه معلم لامع. وكل ما لا يدخل في نطاق «المعلّم» لم يكن مهماً في بوليفانوف...».

وقد تذكره ليف لفوفيتش: «كان بوليفانوف نزقاً وعصبياً، بعُرف شائب وشعر كثيف يسرّحه للخلف، نحيفاً وسريعاً... لم يكن قادراً على التعليم فحسب، بل كان قادراً أيضاً على استثارة أفضل مشاعر الطلاب... وعندما يغضب، كان يخرج عن طوره، ولا يتذكر هو نفسه ما يقوله. ذات مرة، في نوبة غضب، صرخ، مهدداً تلاميذه بقبضته الشاحبة النحيفة، قائلاً: «هنا ليست حانة، بل *مؤسسة شرب*!». وأراد أن يقول «*مؤسسة تعليم*».

كان بوليفانوف يتمتع بذائقة أدبية كبيرة. ذات يوم، ساعد الأب ابنه ليولا (ليف) في كتابة موضوع تعبير عن الحصان، وأدخل فيه نصف صفحة من تأليفه. أعاد بوليفانوف موضوع التعبير، بعد التأشير بقلم أزرق على ذلك النص الذي كتبه تولستوي-الأب.

«- تولستوي، قل لي من فضلك، ما أشّرت عليه، لم تكتبه أنت، بل كتبه ليف نيقولايفتش؟

- نعم! لقد حزرت!

- جيد جداً - قال بوليفانوف مبتسماً لي، وراضياً عن نفسه، وهز برأسه - سأعطيك درجة 4».

كانت السنة الأولى من الدراسة في الثانوية صعبة بالنسبة لليولا (لليف) ومع نهاية السنة الدراسية في الصف الثالث (ليولا تسجل مباشرة في الصف الثالث، وإيليا في الصف الخامس)، طُرحت مسألة إبقائه للعام الثاني في صفه الدراسي. وكان هذا رأي بوليفانوف الذي أصر على ذلك، وكان يرى أن ليوفا فتى مقتدر لكنه بحاجة إلى إعداد تعليمي ثانوي صارم. وقد شاركت صوفيا أندرييفنا رأي بوليفانوف. لكن الأب عارض هذا الرأي.

وهنا نصطدم للمرة الأولى بموقف، حيث أثّرت وجهات نظر تولستوي الجديدة في مجال تربية أولاده تأثيراً سيئاً. وسواء أكانت وجهات نظره السابقة جيدة أم سيئة، فإن أبناءه الكبار، سيرغي وتاتيانا، نشآ وكانا الأكثر عقلانية وإيجابية. وبهذا الصدد، هما بالذات، أثناء رحيل الأب من ياسنايا

بوليانا، كانا يدعمان أباهما من الناحية النفسية، مدركيْن صعوبة وضعه في النزاع مع أمهما، وكانا الوحيدين من الأبناء ممن كان يرعاه ويهتم به في أستابوفو. (باستثناء الابنة الصغرى ساشا. لكن دورها في ذلك الوقت كان مداناً من جميع إخوتها، وتسبب فيما بعد في ندم ألكسندرا لفوفنا نفسها، لأنها باستفزازها لرحيل أبيها وضعت نفسها في حالة عداء مع أمها).

إن الأب، ولاستغراقه بأفكاره، أخذ يتناقص اهتمامه أكثر فأكثر بتربية أبنائه وتعليمهم. لكن الأهم من ذلك، أنه كان، *داخلياً*، ضد مبادئ التربية والتعليم تلك، التي كانت قائمة في أسرته على أساس نظراته السابقة. كان يعتقد تولستوي في السابق، أن المستوى العالي من التعليم ضروري، وقد تم صرف الكثير من الوقت والمال عليه. فالمعلمون المنزليون الذين كانوا يستدعون لتعليم الأولاد، والمعلمون والمعلمات الأجانب، وأخيراً دروس الأبناء مع الوالدين – كل هذا حقق الشيء الكثير. وقد قُبل سيرغي بسهولة في جامعة موسكو وتخرج منها بتفوق. أما إيليا وليف، اللذان أنهيا التعليم الابتدائي في ياسنايا بوليانا في السنوات السبعينيات، وعندما تسجلا في الثانوية أصبحا مشكلة للأسرة، حيث كانت درجاتهما الدراسية 1 و2 (نظام الدرجات هو الدرجات الخمس، حيث الدرجتان 1 و2 هما علامتا الرسوب –*المترجم*).

إن الدوافع التي دفعت بتولستوي إلى معارضة رأي بوليفانوف وزوجته في إبقاء ليولا (ليف) للسنة الثانية في صفه الدراسي غير واضحة تماماً. ولكن من رسالته إلى زوجته بتاريخ 31 تموز / يوليو عام 1881 يمكن الافتراض أن هذه المسألة لم تكن رئيسة بالنسبة له، وليست تلك المسألة التي تستحق الحيرة. فقد كان منذ البداية معارضاً لانتساب ليولا إلى الثانوية. «ثلاثة أشياء، أنا أفهمها، تعذبك: امتحان ليولا، تدلّع إيليا وطيشه، الأرضيات الباردة. من بين هذه الأشياء الثلاثة، اعترف بأن أشد هذه الحالات خطورة – الأرضيات الباردة... الحالة الثانية من حيث الأهمية تدلّع إيليا وطيشه... أما الحالة الثالثة –فهو ليولا– يمكنني أن أنصح بتركه الثانوية نهائياً في هذا العام. ففي هذا العام ثمة الكثير من المشاغل، وسيدرس ويتعلم في المنزل ويتسجل في العام القادم في الصف الرابع. فهو فتى سرعان ما يحفظ ما يتعلمه وسرعان ما ينساه».

ولكن إذا كان الصبي غير مستقر في دراسته، وإذا كان ما يحفظه بسرعة سرعان ما ينساه فإنه يعني أنه يحتاج أكثر إلى التعليم المنهجي! لقد ناقض تولستوي نفسه بنفسه.

لقد اشتهر بوليفانوف بأنه معلم «منهجي»، ومؤيد اتجاه «الأسلوب المنطقي» في التعليم. لقد كانت الدراسة في ثانويته باهظة الثمن، لكن هذا أعطاه الاستقلالية التي لم تكن موجودة في المؤسسات التعليمية الحكومية. ولهذا كان يسعى الأغنياء لتسجيل أبنائهم في مدرسته. وثمة شك في أن هذه الناحية الأخيرة بالذات لم تكن تعجب الأب. فقد كان يشعر بالاشمئزاز من ذلك الوسط الذي وُضع ابنه فيه تحت حمايته.

هذا الوسط لم يكن يُعجب ليولا (ليف) أيضاً. وقد كان يتذكر باحتقار أبناء الآباء الأغنياء:

«كان من بينهم مخلوقات يُرثى لها، أشبه بالحيوانات. ظروفهم الوراثية وتعليمهم الابتدائي كانت أسوأ بكثير من تعليمي وظروفي، وبالتالي حياتهم كانت أشد بؤساً.

هذا هو أربوز (بطيخ)، ابن تاجر، ذو كرش دائري ضخم ورأس صغير أحمر، هو دائماً فظ، وقح، غبي، يجبرني على التوقيع على صفحة بيضاء من الورق. وأنا أوقع اسمي، فيكتب في أعلى الورقة: «ألتزم بإحضار ثلاثة روبلات لفيشنياكوف (أي له -*المترجم*) في يوم كذا وتاريخ كذا.

أما أمير القوقاز من أرمينيا، ورغم أنه لا يزال في الصف الثالث، فهو يبدو رجلاً ذا خبرة، عاش كل شيء، وخَبِر كل شيء. وهو يقنعني للذهاب معه إلى بيت الدعارة، وقد وافقت من باب الفضول والضعف...».

إن الرحلة إلى بيت الدعارة التي وصفها ليف لفوفيتش، تذكّر كثيراً بمقطع غير منجز بعنوان «الليلة المقدسة» كتبه تولستوي عندما كان شاباً في القوقاز عام 1853. وكان لهذا المقطع عناوين مختلفة في المسوّدات: «حفلة الرقص وبيت الدعارة»، «كيف يموت الحب» وغيرهما. إن هذه قصة قصيرة من سيرته الذاتية، مستوحاة من تجربة تولستوي المراهق، ووجد نفسه في بيت الدعارة وقد صُدم حتى أعماق روحه. يبكي وينوح ألكسندر

Alexandre بطل «الليلة المقدسة»، «مثل الطفل»، جالساً في العربة، بعد زيارة بيت الدعارة، حيث اقتاده ثلاثة من الفاسقين الخبيرين. أما ليولا (ليف) الفتى فقد هرب عند رؤيته البغايا «كالمجنون» من بيت الدعارة. «نظر إليّ السائق بدهشة، وسألني عن شيء ما وهو يضحك. وأنا جلست على الزلاجة، وتغطيت بالملحفة من جلد الدب، وأخذت أنتظر «صديقي» القوقازي، نادماً على ذهابي معه».

لم يكن الأب يعلم بهذه الحادثة على الأرجح. لكنه كان يتصور الإغراءات والفتن التي كان يتعرض لها ابنه في موسكو. وربما لهذا السبب حاول تأخير انتسابه إلى الثانوية، وللسبب نفسه أعاده إلى الجو المنزلي بعد الصف الثالث من الدراسة ولعامين آخرين. علاوة على ذلك، بدأت عند ليولا (ليف) في موسكو مشاكل صحية.

يصعب القول، إن كان هذا في مصلحته. كانت صوفيا أندرييفنا ترى، فيما بعد، أنه لم يكن في مصلحته. وها هي تكتب في «حياتي»: «بعد أن أخذ ليف نيقولايفتش ليوفا من الثانوية إلى المنزل، ذهب إلى غرينغموت مدير تجهيز تسيساروفيتش نيقولاي، وطلب منه أن يرشح له معلماً جيداً لابنه ليوفا ليتابع تعليمه. وقد أراد ليف نيقولايفتش نفسه أن يتابع تعليم ليفا وأن ينظّم له امتحانات من فترة لأخرى. وقد أرسل غرينغموت معلماً، غبياً، طالباً سابقاً في الثانوية، كان يعلّم ليفا بصورة سيئة، ويحدثه أكثر عن مغامراته. لم يستمع أحد أبداً إلى دروس هذا المعلم الوقح، ولم يهتم لا غرينغمونت ولا ليف نيقولايفتش بتعليم ليفا ونجاحاته. وكان هذا الأمر يقلقني بشدة؛ وقد وقفت مراراً وتكراراً في وجه زوجي وطلبت منه أن يهتم بدروس ليوفا ويوليه شيئاً من وقته على الأقل. كان ليف نيقولايفتش يبعدني عن هذا الموضوع دوماً، ويقول إن هذا ليس من شأنك. هذا في حين أننا أبقينا ليوفا سنتين في هذا الخمول والكسل، وأعدناه بعد سنتين إلى ثانوية بوليفانوف».

كان بوليفانوف يعتقد أن عامين قد ضاعا: «ليف تراجع إلى الوراء في كل شيء، باستثناء قواعد الكتابة باللغة الروسية. علاوة على ذلك انحدر مزاجه نحو الأسوأ. سابقاً، كان كثير العناية والاهتمام بمتابعة تعليمه ودروسه، وكان آنذاك فوق طاقته، أما الآن فهو يترك في النفس انطباعاً بأنه صبي لا

مبال بأي نجاح. بحيث يصعب جداً حرمانه من الراحة والاستجمام صيفاً. كل هذا دفعني إلى نتيجة أن طريقه في الثانوية قد تعطّل ولا يمكن إصلاحه».

لننتبه إلى كلمة *مزاج*. ففيها تحديداً يكمن السبب الرئيس لفشل ليولا.

ليف - «تولستَوِيّ».

عندما عاد ليولا (ليف) من جديد إلى الثانوية، كان الوضع في الأسرة قد تغير بشكل جوهري بالمقارنة مع نهاية السبعينيات وبداية الثمانينيات. لم يصبح أفضل، بل على الأغلب أسوأ. فإذا ما كان تولستوي، وقت الانتقال إلى موسكو، وحيداً في أبحاثه وتنقيباته، وكانت زوجته مقتنعة بأنه «بالكاد سيهتم عشرة أشخاص في روسيا» بما يدعو إليه، فإنه في منتصف الثمانينيات ظهرت «موضة» تولستوي.

وهذا كان ملموساً في الأسرة. تلاحظ تاتيانا بحماس في يومياتها في عام 1886: «... في الفترة الأخيرة يتحدثون ويكتبون عن بابا أكثر من أي وقت مضى، وأكثر من أي شخص كان. في كل عدد من أعداد الصحف والمجلات ثمة مقالة عنه بالتأكيد. وهنا، في المنزل، لا يمر يوم دون أن يحضر لعنده ثلاثة أو أربعة أشخاص، بعضهم من يطلب المال، وبعضهم يطلب النصيحة، وبعضهم الآخر كي يتحدث معه ويقول إنه رأى ليف نيقولايفتش تولستوي. وترده الرسائل بلا نهاية. والقسم الأكبر منها طلباً للنصيحة والمال. ويأتي لعنده السكارى، والعدميّون بشعرهم الأشعث، ورجال الدين، والتجار الأغنياء الذين يسألون ماذا يفعلون بأموالهم... ويستقبل أبي استقبالاً جيداً كل من يحتاج إلى مساعدته أو نصيحته، لكنه لا يجيب أبداً عن الرسائل: فلو وضع موظفين اثنين مختصين بالإجابة عنها لما أمكنهما الإجابة على ذلك...».

كان يبدو كأن الزوجة خرجت خاسرة، وأن الزوج خرج منتصراً. لكن هذا النصر كان باهظ الثمن، وجاء على حساب سعادة الأسرة. ففي صيف عام 1884، وبعد المحاولة الفاشلة للهروب من المنزل، يكتب تولستوي في يومياته: «لا يمكن القول إن انفصالي عن زوجتي أصبح أكبر، لكنه انفصال كامل».

ولعل الأبناء هم السبب الرئيس الذي لم يدفع هذا الانفصال إلى الطلاق. فعددهم تسعة أشخاص. الابن الأكبر سيرغي عمره تسعة عشر عاماً. وأصغرهم سناً، ساشا، ولدت لتوِّها.

لم يكن الأبناء منجرين إلى النزاع العائلي فحسب، بل كانوا الساحة الرئيسة لأحداثه. باستثناء سيرغي الذي كان يعيش حياة مستقلة نسبياً. تاتيانا تتمزق بين حبها لأبيها ومشاكلها الشخصية. إيليا عموماً، لا يميل إلى إيلاء أهمية كبيرة للجانب الروحي من الحياة: فهو يهتم أكثر بالصيد وطالبات الثانوية. ماشا لا تزال صغيرة، لكنها تبدي ميلها بوضوح إلى جانب أبيها. فهي الطفلة الأقل محبة عند أمها. ذلك أن صوفيا أندرييفنا كادت تفارق الحياة أثناء ولادتها لماشا، وبها يرتبط انقسام الأسرة الأول. ألكسي، أندريه، ميخائيل، ساشا - ما زالوا صغار السن ولا يدركون شيئاً. وماذا بشأن ليو لا (ليف)...

في رسالته إلى تشرتكوف، يكتب تولستوي: «أجد في بناتي بعض العزاء في أسرتي. إنهن يحببنني بما يجب أن يُحب، ويحببنه. كما أجد شيئاً من العزاء أيضاً في ليفوشكا (ليف)، لكنه يقلّ كلما كبر سنه. تحدثت معه للتو. فكان ينظر دوماً إلى الباب - إنه بحاجة إلى المدرسة الثانوية. ولماذا أكتب لك عن هذا... لا تُظهر هذه الرسالة للآخرين».

ومنذ هذه الفترة أخذ ينظر هو وصوفيا أندرييفنا إلى معنى الأسرة وأهميتها بطريقة مختلفة. فهو يعتبر أن زوجته مثل «حجر الرحى» تجره، وتجرّ الأطفال أيضاً إلى القاع. وهي على قناعة بأنه يدمر حياتها ويؤثر تأثيراً سيئاً على الأولاد.

تكتب صوفيا أندرييفنا في ذكرياتها: «لقد أفسدت أفكار ليف نيقولايفتش الجديدة حياتي وحياة أطفالي: أبنائي وبناتي. فتدمير حياتهم الشابة كلها أثّر بقوة على حياتهم النفسية والجسدية. فقد أُرهقت ماشا النحيفة والضعيفة بالعمل الشاق وباتباعها الغذاء النباتي أرهقت قواها وصحتها. أما تانيا فكان لديها الشعور بالمحافظة على الذات أقوى، لكنها عانت من الإنكار الحاد لكل ما كان ينكره أبوها. ولم يكن الأب بالنسبة للأبناء مشرفاً وموجهاً بل

منتقداً ولائماً. وتكتب جيداً تانيا عن هذا في يومياتها، في ذكرها لحديثها مع أبيها، تقول إنها تدرك جيداً الحقيقة الكاملة لعقيدة أبيها، وإنها تحب كل شيء جيد. ولكنها عندما تتحدث عن هذا تشعر بالملل، أما عندما تتذكر الفستان الجديد، والنزهات فإن قلبها يرقص من الفرح».

للأسف، تلك كانت الحقيقة. لقد حاول بعض أبناء تولستوي، عند دخولهم في سن الرشد، مشاركة أفكاره. لكن محاولاتهم هذه كانت تصطدم، عاجلاً أم آجلاً، بالقوانين الأنانية للطبيعة البشرية، وبالرغبة بالأخذ من الحياة بأكبر قدر من السعادة، والمرور بتلك الإغراءات والإغواءات التي كان قد مر بها الأب في شبابه، وتجريب تلك الفرحات المادية التي جربتها الأم. لكن هذا كان يعارض ما يدعو إليه الأب. وتولستوي، المُستنار بالحقيقة التي كُشفت له، لم يراع متطلبات طبيعة الشبيبة، معتقداً بصدق، أن الأخطاء التي ارتكبها في شبابه كافية كي لا يكررها أبناؤه. لكن الأهم – أنه لم يكن قادراً على حماية أبنائه من جميع الإغراءات. فلا منزل موسكو ولا ياسنايا بوليانا كانا معبداً لـ «عقيدة تولستوي».

ومن هنا جاءت شدة سخط تولستوي على زوجته في يومياته في النصف الأول من الأعوام الثمانينيات. وفيما بعد انخفض سخطه بشكل ملحوظ. فقد أخذ يدرك تولستوي أنه لا يصح إخضاع الأقرباء والأهل بالقوة ولو كانوا مخطئين. نعم، وهل كان متأكداً من أحقيته؟ لو كان متأكداً تماماً بأحقيته لغادر المنزل قبل عام 1910 بكثير، كما نصحه «التولستَويون». أما تولستوي فكان ينوي دون أن يغادر، أو يغادر، ويعود من جديد... وفي محاولاته البائسة هذه لترك عائلته، التي كانت تنتهي بعودته، ثمة جانب إنساني ما أكبر من خطبه ومواعظه.

مما لاشك فيه، أن بناته كن يحببن ليس أفكاره فحسب، بل يحببنه هو نفسه، كإنسان، وبمعنى ما كرجل. لأن سحره كان كبيراً، بحيث أن الآخرين، بالمقارنة معه، كانوا يبدون أقزاماً.

أما بالنسبة للأبناء، فكان الوضع أصعب بكثير. فأن تكون ابناً لأب عظيم هو شرف، لكنه ليس بالأمر السهل! وكل منهم كان يعاني من هذا بطريقة

مختلفة، ولكن أياً منهم لم يستطع أن لا يكون من أسرة تولستوي ولم يرغب بذلك. ذلك أن عائلة آل تولستوي ليست فقط ليف نيقولايفتش، بل هي عائلة قديمة جداً.

في كتابه «تجربة حياتي»، يسمّي ليف لفوفيتش آل تولستوي *عرقاً خاصاً*. «إن هذه السلالة أو «العشيرة» التي دخلت في حياة روسيا منذ زمن سحيق - في الحقيقة، ليست عشيرة، بل سلالة مستقلة لا تشبه بقية السلالات، حافظت على خصائصها المميزة حتى الآن. ومع استثناءات نادرة، استطاع آل تولستوي حماية أنفسهم من تأثيرات الدماء التي كان يمكنها تعديل الخصائص الرئيسة لطباعهم، وحتى الجيل الثاني والعشرين حافظوا على نقائهم السلالي كآل تولستوي، كما كانوا في السابق...».

وترى الباحثة في حياة ليف لفوفيتش فاليريا نيقولايفنا أبراسيموفا «أن شعوره بانتمائه للنخبة قد جاءه في وقت مبكر للغاية. فإثر تجاوزه عتبة ثانوية ل. ي. بوليفانوف الكلاسيكية للذكور في موسكو، أخذ يوقع اسمه، كأبيه، وكأنه يحاول، تجريب تحميل نفسه هذا العبء: *«ليف تولستوي»*. ودون أن يدرك بعد مدى غرابة هذا التوقيع، بالنسبة لفتى في الثانوية، شرح في رسالة لأمه: <<*ل. تولستوي* - هكذا أوقع في دفتر الدوام في الصف عندما أكون مناوباً>>...».

عند قراءتنا لرسائل ليولا (ليف) إلى أمه، يسترعي انتباهنا بصورة عفوية أنه كان يوقع رسائله بأسماء وألقاب مختلفة، وكأنه يحاول العثور على اللون الصحيح والمناسب وغير المهين له. «ل. تولستوي»، «ليف تولستوي»، «ليولا»، «ليفكا»، «ليفونتي» - وأحياناً يضع توقيعين في رسالة واحدة. وتُعرف هذه بلغة علم النفس بمشكلة «التعيين الذاتي» أو الهوية.

يمكن الافتراض، أن الوالدين نفسيهما، ندما في يوم من الأيام، لأنهما أعطيا الصبي هذا الاسم. كما يمكن الافتراض، أن الصبي كان يتعرض للمضايقات في الثانوية. وكيف يكون الأمر خلاف ذلك، عندما كان اسم ليف تولستوي يهدر ويدوي في الصحف والمجلات؟

في هذا الوقت، كان يجتمع في مكتب أبيه أتباعه الأوائل. وكان الأب في

الوقت نفسه يعاني لأن أبناءه لا يشاركونه آراءه. فقد كان هذا تناقضاً صارخاً: حيث كان الناس الغرباء يقفون إلى جانب تولستوي وليس أولاده!

وها هو ذا ليولا (ليف) يبدأ بالانجذاب أكثر فأكثر نحو أبيه، مبتعداً عن تأثير أمه. ويعترف في ذكرياته: «مع انتقال أسرتي إلى موسكو، عندما وجدت نفسي في الصفوف الأولى من الثانوية، وكما يحدث دوماً تقريباً في هذا العمر، لم أكن أحب أحداً، كما يبدو لي، سوى نفسي، حتى إنني لم أحب نفسي... فقط عندما بلغت العام السابع عشر والثامن عشر، وفي هذه الفترة بالذات عندما كان أبي يمر بأزمته الدينية، بدأت أنظر إليه بوعي أكثر، وأبحث عنده عن أجوبة عن الحياة التي كانت تتكشف أمامي. هذه المرحلة كانت فترة اقترابي الأكبر من أبي، الذي كان يشعر بذلك، ويشاركني دوماً أفكاره ومشاعره، كما يشارك الكبار. كنت أركض دوماً إلى غرفته، في ياسنايا بوليانا، وفي موسكو، وكنا نتحادث معاً فترة طويلة حول مختلف المسائل التي كانت في ذلك الوقت تهمه أو تهمني. بالطبع، لم أستطع أن أفهم آنذاك جزءاً يسيراً مما كان يحدث في نفسه، لكنني كنت أشعر به، وأخيراً، تعلقت كثيراً بعقيدة أبي، لدرجة أنني كنت أحلم بأن أصبح أنا نفسي شهيداً مسيحياً جديداً لخير البشرية».

تصادق ليولا مع تلميذ أبيه الروحي الرئيس - فلاديمير غريغوريفيتش تشرتكوف «الفارس الذهبي الرائع»، ابن الأسرة الثرية والنبيلة، الذي جاء في عام 1883 إلى تولستوي، وسرعان ما أصبح ساعده الأيمن. وقد تذكر ليف لفوفيتش: «في بداية معرفته بأسرتنا، كان تشرتكوف فاتناً، ساحراً. كان محبوباً من الجميع. كنت قريباً منه، وكنت أخاطبه بصيغة المفرد. كان يعاملني بلطف وحب، وكنت أعامله بالمثل».

عندما كان تشرتكوف يأتي إلى موسكو وينزل عند آل تولستوي، كان يمضي الليلة في غرفة ليولا (ليف). رغم أنه كان أكبر منه بخمسة عشر عاماً.

وفي نهاية الأمر، وجدت صوفيا أندرييفنا نفسها أمام الحقيقة: فقد أصبح ابنها الحبيب المفضل «تولستَويّاً»، أو «جاهلاً» كما كانت تسمي هؤلاء الناس، خلافاً لـ «المتنورين»، الناس العلمانيين. وكان هذا بالنسبة لها خسارة أكثر مرارة من «سقوط» ابنتها ماريا.

وقد تذكرت صوفيا أندرييفنا: «كنت أعزف في الأمسيات أحياناً أنا وليوفا (ليف) وماشا على البيانو بأربع أيدٍ. كان ليوفا آنذاك يحاول أن يدرس جيداً، ولكن، وكما قال هو لي، فإن عقيدة الأب الجديدة، وحياته مع العمل البسيط، وكل مزاجه ونفيه للعلم أمور أثّرت سلباً على دراسة ليوفا في الثانوية. في أثناء غياب أبيه، كان يكتب له الرسائل ويسعده بسعيه للاقتراب منه. وعلى سبيل المثال، يكتب ليف نيقولايفتش في كانون الأول/ ديسمبر عام 1884 من ياسنايا بوليانا، حيث كان يكتب له ليوفا أو ليولا، كما كان الجميع يدعونه: <<إنني أرى، كيف يهاجم الجميع ليولا، لأن لديه ما يقوله لي، ويعرف كيف يقوله، ويقوله بحيث أشعر أنه قريب مني، وأنه يعرف أن جميع اهتماماته قريبة مني وأنه يعرف ويريد أن يعرف اهتماماتي>>».

تقتبس صوفيا أندرييفنا عدة أسطر من رسالة زوجها المؤرخة في 13 كانون الأول/ ديسمبر عام 1884. وقد مزق تولستوي هذه الرسالة المكتوبة على بطاقة بريدية. على ما يبدو، لم يستطع تحمل هذه الرسالة بمزاج هادئ. «الآن كتبت رسالة على بطاقة، لكن بدأت بالمديح وانتهيت باللوم، ولا أرسلها، وأكتب على ورقة، كي لا يحدث هذا الآن. لقد حدث هذا بمناسبة رسالة ليولا، التي كنت مسروراً جداً بها».

هذا يدل على أنه في عام 1884، أي عندما كان ليولا في الخامسة عشرة من عمره، أصبح في مركز الصراع بين الوالدين. فقد دار نوع من الحرب بين الأب والأم لاكتساب تأييد روحه الطفولية.

لقد كان المنتصر في هذه الحرب العجيبة، في النصف الثاني من الثمانينيات، الأب وليس الأم.

وقد تذكر ليف لفوفيتش: «... لقد تعلقت كثيراً بتعاليم والدي وعقيدته لدرجة أن كل ما عداها أبعدْته إلى الخلف ولم يعد يهمني. يمكن للمرء أن يتصور مدى نجاحي في تحضير الترجمات اليونانية أو اللاتينية، أو حل مسألة الجبر، بعد أن أجلس ثلاث أو أربع ساعات، حتى وقت متأخر من المساء، وأنا أجلس في غرف والدي الصغيرة، ذات الأسقف المنخفضة، حيث كانت تحوم سحابة كثيفة من دخان التبغ ومن المستحيل رؤية وجوه

المجتمعين، ولكن حيث كانت تدور نقاشات حامية حول العقيدة الجديدة المفترض بها إنقاذ العالم. لقد تشربت مع دخان التبغ الحقائق التي كان عليها أن تستأصل شرور الحياة وكذبها، ولم أكن أرى شيئاً أسمى منها. فأين مدرستي الثانوية بالمقارنة مع هذه المهام الرائعة؟ وليطردوني منها؛ وما هو يوم الغد بدروسه، ومن هو أنا، بينما كنت مع والدي أفهم وأدرك وينفتح قلبي لأعظم الإلهام؟».

فيما بعد، حدد ليف لفوفيتش تأثير أبيه، بصورة قاطعة، بأنه *ضار*.

«ولكن، على الرّغم من تأثير أبي الضار، تابعت الدراسة بشكل أو بآخر في الثانوية، وأخيراً، وبعد أن بذلت مجهوداً كبيراً على نفسي، وسعيت للابتعاد أكثر عن الأسرة – صمدت أمام امتحان الثانوية، وانتسبت إلى جامعة موسكو في كلية الطب، رغم أن أبي في هذا الوقت كان يشهّر بالأطباء، وبالعلم».

يصعب القول، ما الذي صده في نهاية الأمر عن تعاليم أبيه. وها هو يكتب في ذكرياته اللاحقة، أنه وعلى الرّغم من حبه الكبير كله لأبيه، أخذ في هذه الفترة «يستمر في كراهيته» له، بسبب «موقفه من أمي، عندما كان يعاتبها ويوبخها، بصورة ظالمة وغير مستحبة، دافعاً بها إلى البكاء. كان، تارة، يقبل فجأة يدها ويحدثها بلطف وصوت حنون. وتارة، يشرع بإدانتها بقسوة، وبنبرة بغيضة مخيفة، متهماً إياها بكل شيء – وهي التي تقوم بكل أعباء البيت والأسرة. كانت تبكي بعجز وبصورة مؤثرة، أما هو الغاضب، فكان يغادر المنزل إلى نزهة طويلة، سيراً على الأقدام، أو على ظهر الحصان...».

ولكن كان هناك أيضاً سبب رهيف. وهذا السبب لا يمكن تفسيره بصورة عقلانية، لكنه كان موجوداً، ولم يستطع «الصبي المرهف» ليولا (ليف) ألّا يشعر به.

متلازمة بولبا

لنتذكر رأي تولستوي بابنه ليولا (ليف) من رسالته لألكسندرا أندرييفنا تولستايا، في عام 1872:

«إنه صبي جميل، بارع، قوي الذاكرة، رشيق. الثياب التي يرتديها تليق به، وكأنها فُصلت وخيطت له. وكل ما يفعله الآخرون، يفعله هو بمهارة كبيرة وبشكل رائع. *لا أفهمه* بعد جيداً».

للنظرة الأولى، ليس ثمة ما يستدعي الدهشة في أن تولستوي لم يكن يفهم ابنه. فعمره كان آنذاك ثلاث سنوات فقط. بيد أنه في حديثه عن ابنته ماشا التي كان عمرها سنتين، في الرسالة نفسها، قال تولستوي بثقة تامة: «سوف تعاني، سوف تبحث، ولن تجد شيئاً، لكنها سوف تبحث إلى الأبد عمّا يصعب الوصول إليه».

لقد عبر تولستوي عن كل ابن من أبنائه الستة بتنبؤات معينة، وبصورة عامة، لم يخطئ في تنبؤاته. وهل تعثّر في تنبؤه عن ليف؟

ولكن إذا ما نظرنا بعناية إلى رأي تولستوي الأول بابنه، يمكننا أن ننتبه إلى بعض *الفتور* تجاهه. «جميل»، «بارع»، كل ما يفعله الآخرون يفعله هو» – من المستبعد أن تكون هذه هي السمات القيمة في تصور الأب. ها كم ما يقوله عن إيليا... «أصيل في كل شيء». وعن سيرغي... «يقول الجميع إنه يشبه أخي الأكبر». وعن تاتيانا... «إنها ستكون امرأة رائعة...» وعن ماشا... «إنها ستكون أحد الألغاز». أما ليوفا (ليف) فسيكون ذلك الصبي الذكي. نعم والبارع، والماهر، والذي يحسن ارتداء الثياب منذ صغره. لكن هذا لا يرضي الأب. ربما لهذا، هو لا يفهم ابنه، لأنه لا *يجد فيه سلالته الحبيبة*.

في هذه الحالة، «لا أفهم» ليست هي نفسها كما في حالة ماشا – «ستكون أحد الألغاز». هذا ليس معنى كاملاً بعد، لكنه *رأي سلبي* بالفعل. إن ليولا (ليف) ليس من سلالة تولستوي. ليولا–بيرس (من سلالة أمه –*المترجم*). إنه ابن أمه وليس ابن أبيه.

في الوقت نفسه، يثير إعجابه تشابه تاتيانا مع أمها: «يقول الجميع إنها تشبه صونيا، وأنا أصدق هذا...، لأنه واضح للعيان...».

أما تشابه ليولا فكان يزعجه إلى حد ما. وهذا يذكرنا ببداية قصة «تاراس بولبا» الطويلة (للكاتب الروسي الكبير نيقولاي غوغول –*المترجم*) عندما يتحدث تاراس (القائد الشعبي القوقازي –*المترجم*) مع ابنه أندريه: «أوه،

نعم، أنت مدلّل، كما أرى! ابني، لا تصغ إلى أمك!: إنها امرأة. إنها لا تعرف شيئاً. أي دلال لك! الدلال - الساحة المكشوفة والحصان الجيد. هذا هو دلالك! هل ترى هذا السيف - هذه هي أمك! إن كل ما يحشوه برؤوسكم هو قمامة: بما فيه الأكاديميات، وجميع الكتب، وكتب القراءة والفلسفة، كل هذا، الشيطان يعرف ما هو - لا أهتم بهذا كله!».

كان تولستوي يحب نيقولاي غوغول كثيراً، لكنه لا يحب قصته الطويلة «تاراس بولبا». ومع ذلك فإن مقارنة تولستوي ببطل قصة غوغول، المحارب والهادف ذات معنى. فبعد الانقلاب الروحي، فقدت كذلك، في عيني تولستوي «الأكاديميات، وجميع الكتب، وكتب القراءة والفلسفة» قيمتها السابقة. ومنذ ذلك الوقت، أخذ تولستوي يتمسك بنظرة هادفة إلى الحياة، غير مشوشة بضجيج «الكتب»، وكثيراً ما كان يتحدث بصراحة مطلقة، في معالجته لأصعب قضايا المدنية العالمية «بحماقة»، كما كان يقول، على أساس علاقات فلاّحيّة ناضجة.

وقد أصبح هذا أحد الأسباب الرئيسة لاختلافه مع ابنه سيرغي الذي كان يحب العلم. يقول سيرغي لفوفيتش في كتابه «نبذات من الماضي»: «عندما سألته ما العمل الذي تنصحني بأن أمارسه، كان في مزاج عكِر، وأجابني: «لا حاجة للبحث عن الأعمال، فالأعمال المفيدة في العالم لا حصر لها. تكنيس الشارع أيضاً عمل مفيد». هذا الجواب أزعجني كثيراً، وكان أحد أسباب اغترابي عن رؤية أبي للعالم».

لقد سجل تولستوي نفسه ابنيه إيليا وليولا (ليف) في الثانوية، كما سجل بولبا أبناءه في الأكاديمية، وكان تولستوي يعتبر الدراسة أمراً ثانوياً بالمقارنة مع التربية الأخلاقية. بيد أن بولبا نفسه، هو «أخلاقي» في نوعه، غير أن القيمة الأخلاقية الرئيسة عنده لم تكن الأخوّة بين جميع البشر، بل الأخوّة «القوقازية». ومن أجلها، يضحي تاراس بأبنائه، ومن بينهم أندريه، الذي أطلق عليه النار بيده.

كان موقف تولستوي من دراسة ليولا (ليف) مزدوجاً. يقول ليف لفوفيتش في كتابه «الحقيقة عن أبي»: «كنت أنا وأخي إيليا في الثانوية،

وسارت دراستنا بشكل سيئ في البداية. كانت أمي منزعجة، أما أبي فكان تقريباً لا يهتم بدراستنا. أذكر مرة جئنا من موسكو إلى ياسنايا بوليانا، وكلانا رسب في صفه. استقبلنا أبي في محطة «زاسيكا»، وأعلمناه بفشلنا الدراسي.

– ماذا دهاكما؟ – قال لنا بتوبيخ وحزن –

وبقي متجهماً طيلة المساء».

ويتذكر في كتابه «تجربة حياتي»: «كان أبي يسألني أحياناً، هل حضّرت ما أعطوك في الثانوية، لكنه لم يلزمني قط بفعل ذلك».

في النتيجة، كان موقف ليو لا نفسه من الدراسة غير مستقر. لم يكن يشعر بدعم والده، وعندما بدأ يتعلق بآرائه ونظراته، فقد قرر نهائياً، أن أباه ضد تعليمه في الثانوية.

بيد أن الأب عارض هذا فجأة.

إن رسالة تولستوي إلى ابنه، المكتوبة في خريف عام 1884، عندما كان على ليو لا أن ينتسب للمرة الثانية إلى الثانوية، تعكس بصورة دقيقة مزاجية الأب في موقفه من ابنه. في هذه الرسالة كل شيء صادق، وصحيح. لكنها رسالة غير سارة بلهجتها الإقصائية. وكأنها كُتبت ليس لابنه، بل لتلميذ من الشارع المجاور.

«أعلمتني أمك، وكأنك قلت إنني قلت، إنني سأكون مستاءً للغاية إذا ما اجتزت الامتحان أو شيئاً من هذا القبيل –باختصار، ما يعني أنني أشجعك على عدم اجتياز الامتحان وعدم الدراسة–. هنا سوء تفاهم. لا يمكنني قول هذا. إن طالب الثانوية الذي جاء لعندي، وأخذ يسأل: هل يترك الثانوية، ويصرّ على أنه يريد تركها. أنا أقنعته. رأيي، أن الإنسان لا يحتاج أبداً إلى تغيير وضعه الخارجي، بل عليه دوماً أن يسعى لتغيير وضعه الداخلي، أي أن يسعى دوماً ليكون أفضل... وبما أنه ليس لديك (للأسف) عمل آخر، ولا حتى تصور عن عمل آخر، باستثناء متعتك plaisir، فإن الثانوية هي أفضل شيء بالنسبة لك. فالثانوية، أولاً، تفي بمتطلبات ماما منك، وثانياً تعطي عملاً وبعض المعارف التي يمكن أن تكون مفيدة للآخرين... إن إنهاء العمل الذي بدأته عن قناعة، أو عن ضعف وعجز شيئان مختلفان. أنت ليس لديك أية قناعات، رغم أنه

يبدو لك أنك تعرف كل شيء، وحتى أنك لا تعرف ما هي القناعات وما هي قناعاتي، رغم أنك تعتقد أنك تعرف كل شيء جيداً جداً...».

كان يبدو... وكأن طفلين فقط يشاركان حتى النهاية قناعات الأب وبالتالي يدخلان في تناقض مع الأم–ليوفا وماشا. ولكن إذا كان تولستوي يكتب عن ماشا في رسالة لنصيره فاينرمان في عام 1888: «*إنها فرحتي الكبرى*» - فإن تعليقاته عن ليوفا (ليف) تدفع أكثر إلى الشك، بأن هذا الصبي «الماهر» قادر على شيء ما.

من ناحية أولى، ليو لا «بعد ماشا أقرب الجميع إليّ». ومن ناحية ثانية – «ليس سيئاً ابني الحبيب. قد يصبح جيداً جداً. ما يزال الآن بعيداً». إن رسائل تولستوي النادرة إليه تذكّر بالمواعظ الجافة.

«إن جميع الخطوات الأكثر أهمية في الحياة هكذا تجري –ليس على شكل انفجار، بصورة ملحوظة، بل هكذا تماماً– الآن لا أرغب، غداً لم أذهب إلى العمل، فأنظر وأرى نفسي بالفعل في وضع ميئوس منه...».

«ثمة قضية هامة، واحدة لنا جميعاً: أن نعيش حياة جيدة. أن نعيش حياة جيدة تعني أن لا نعمل الآن العمل السيئ الذي نراه، ويمكننا أن لا نفعله. مهما كانت المهام التي يعمل عليها الإنسان، كلها على الأغلب تُفسر بالإعداد الصحيح للحياة، تماماً مثل أنّ تحسين خطّي سوف يتوقف على جلستي الصحيحة والثابتة...».

«إن تنظيف الإنسان لغرفته وإخراج أوساخه منها لا يمكن أن يعيقا إلّا من يخجل من عدم فعل ذلك. وإذا ما قارنا بين شيئين، لا يقبلان المقارنة أبداً، بين تعليم أبناء الفلاحين وقيامك بتنظيف غرفتك وإخراج مبولتك، فمما لا شك فيه أن الثاني أفضل بكثير من الأول».

كان أحياناً، سلوك الابن يزعج الأب! عندما تخرّج ليوفا (ليف) في شهر أيار/ مايو عام 1889 من الثانوية، كان أبوه ينتظره في ياسنايا بوليانا، من أجل مناقشة حياته المقبلة. لكن الابن تأخر في موسكو: كان يعالج أسنانه، ويفصّل بدلة جديدة، ويجري الولائم مع أصدقائه في الثانوية... وانفجر تولستوي!

«إذا ما بحثت جيداً، فستجد كثيراً من الأعمال الشبيهة بحشو الأسنان، وتفصيل البدلات، ليس فقط قبل 8 حزيران/ يونيو، بل وحتى قبل 8 تشرين

الأول/ أكتوبر. وقد حدثني كراسوفسكي، الذي كان يدير مستشفى المجانين، أنه ذات مرة أخرج المجانين معه في نزهة خارج أبواب المستشفى. وبعد أن اجتازوا الشارع، طلبوا العودة إلى المستشفى: فقد كانوا محرجين في وسط آخر غير وسط المجانين. هل من الممكن أنك وصلت إلى هذه الحالة».

وبدلاً من أن يهنئ ابنه بتخرجه من الثانوية، يكتب له أبوه رسالة عدائية: «ما هذا الهراء -غداء مع الخدع والشعوذة؟ إن التعبير المنطقي والسار الوحيد عن التخرج- هو الخروج بأسرع وقت ممكن، دون تلطيخ الزيف القديم بزيف جديد...».

وبعبارة أخرى، فهو مازال يعتقد أن الدراسة في الثانوية لم تحقق الفائدة لليولا (لليف). وعموماً، فهذا كله «زيف»! كما أن معتقدات الأب لا يستطيع ليوفا بلوغها. إنه صغير، لم ينضج بعد، ولم يشبهه بطباعه، وسلالته مغايرة!

إن ما ينصح تولستوي به ابنه بأن يخرج «قصريته» الليلية بأوساخها من الغرفة لا أن يعلّم أبناء الفلاحين، هذه ليست زلة لسان بل موقف مبدئي له من ابنه، الذي لا يعجبه فيه، بادئ ذي بدء، غطرسته وسطحيته اللتان تميزان ليولا حقيقة.

لكن كان لدى ليوفا خاصية أخرى لم يقدرها الأب، وكانت أمه تقدرها حق التقدير.

كتبت زوجة تولستوي، متذكّرة عام 1888 أي عام التقارب الخاص بين ليولا وأبيه: «ابني الشديد الملاحظة، والمرهف الحساسية، نظر إليّ نظرة ثاقبة وقال: <<ماما، هل أنت سعيدة؟>>. فوجئت بسؤاله، وقلت له، أعتبر نفسي سعيدة. فسألني: << ولماذا لديك شكل معذّبة؟>>...».

لا يصح القول إن الأب لم يكن يشعر بهذه الخاصية عنده. ولكن ربما كان انقسام الابن المرضي بين حبه لأمه وحبه لأبيه، مع تفضيله لأمه رغم كل شيء، قد أقام هذا الجدار بين ليف الكبير وليف الصغير.

وفي مرحلة النضج، يصل ليف لفوفيتش إلى فكرة صحيحة، لكنها متأخرة، مفادها، أن تعلّقه بأفكار أبيه كان «يقلق» الأب أكثر مما كان يسرّه. «لكنه لم يستطع أن يقول لي صراحة، أن لا أصغي له، بل أعيش وأفعل، مثل الجميع» («الحقيقة عن أبي»).

الفصل الثالث

ينقطع الحبل عندما يصبح رفيعاً

تحلّى بالشجاعة، ليف لفوفيتش تولستوي، ابن ليف تولستوي، عش، والمهم عش، ولا تنم

• ل.ل. تولستوي. يوميات عام 1890

ليولا «مات».

في 17 تموز/ يوليو عام 1889 يرسل تولستوي من ياسنايا بوليانا رسالة إلى «صديقه الروحي» تشرتكوف يمدح فيها بصورة مفاجئة ابنه ليوفا الذي أنهى الثانوية في ذلك الوقت وعزم على الانتساب إلى كلية الطب من جامعة موسكو. ولكن قبل استعراض هذه الرسالة سننظر في الظروف التي استدعتها.

بحلول نهاية الثمانينيات، يغدو تشرتكوف الشخص الرئيس في حياة تولستوي، يتفوق في نفوذه وتأثيره على جميع من كان يحيط به في ذلك الوقت. ويمكن مقارنة محبة ليف نيقولايفتش لتشرتكوف فقط بمحبته لابنته ماريا التي كرست حياتها لأبيها تماماً، مثلها مثل تشرتكوف. حتى إن حبه لماشا (ماريا) أعمق، أو أكثر حميمية، من حبه لتشرتكوف. لكن *الشخص الرئيس* عند تولستوي كان تشرتكوف.

إن جميع مؤلفات تولستوي الفلسفية – الدينية، المحظورة في روسيا،

نُشرت عن طريقه. كان يدير شؤون دار نشر تولستوي «الوسيط-بوسريدنيك» الشعبية. وكما يقول كاتب سيرته ميخائيل فاسيليفيتش موراتوف، كان تشرتكوف «يجمع بإصرار دائم مسوّدات تولستوي ورسائله، ويسعى لجمع أصول، أو نسخ على الأقل، من كل سطر يكتبه تولستوي. ويدقق تشرتكوف المخطوطات الواردة من تولستوي بعناية شديدة، ويعيد كتابتها بنفسه، أو يتحقق من صحة إعادة كتابتها، إذا ما كلف آخرين بذلك، ويتأكد من أنه يجري حفظها بالشكل السليم...».

يعيش تشرتكوف مع زوجته غالا (هكذا كانوا يدعون آنّا كونستانتينفنا تشرتكوفا، كنيتها قبل الزواج ديتيريخس) في مزرعة رجيفسك بمقاطعة فورونيج، التي أعطتها له أمه الثرية والنبيلة، التي كانت غير راضية قط عن تعلّق ابنها بتولستوي. وفجأة، في شهر تموز/ يوليو عام 1889 تموت ابنته أولنكا وعمرها سنة واحدة.

يكتب موراتوف: «كانت ابنته الصغيرة أوليا - لوسا، كما كانوا يدعونها في الأسرة، فتاة متميزة، حيوية، لطيفة، والمذكرات التي كتبتها أمها عن حياتها، تدل على مدى التعلق الكبير بها، ليس من جانب والديها وجدتها فحسب، بل ومن جانب جميع سكان رجيفسك، الذين نشأت بينهم».

ويرسل تشرتكوف برقية لتولستوي بهذا الخصوص: «لقد خسرنا بها أكثر من طفلتنا المحبوبة. لقد فقدنا بها حلقة الوصل الصغيرة والقوة المهدّئة بيننا جميعاً».

كان رد تولستوي على هذه البرقية مذهلاً!

«الآن استلمت برقيتكما، صديقي العزيزين، بودي أن أعاني ولا يمكنني أن لا أشارككما المعاناة، وخاصة أنتِ، عزيزتي غالا.

الآن فقط كنت أفكر بكيفية تحمّل ما يُدعى وما يسمى في نفوسنا حزناً. كان لدي حزن، روحي، ولكن لا داعي لأن أقول لكما إن الحزن الروحي حدث ليس أصغر بل أكبر من الحزن المادي. فما هو الحدث الأكبر: أن يحترق بيتي، أو يموت شخص عزيز عليّ، أو أن أعرف أن الإنسان الذي أحبه كان مخادعاً، ولم يكن ذلك الذي من أجله أحببته؟

مثل هذا الحدث جرى معي. وكي لا أثير فضولكما - سأقول: لقد كان

صداماً قاسياً مع ابني ليوفا، أظهر لي أنه يشبه سيرغي، أو على الأقل، أظهر أن علاقاتي به ستكون مثل علاقاتي بسيرغي. كان هذا حزني. وقد فكرت فيه كثيراً وفي الحزن عامة».

كيف يمكن فهم هذا؟ فقط على النحو التالي: لقد ماتت ابنتكما، وأنا خاب أملي بابني. حزني أشد من حزنكما. لو أن ابني مات لما شعرت بهذه المرارة.

لم يظهر تزمت تولستوي الروحي في أي مكان، بهذا الوضوح القاسي، كما ظهر في موقفه من موت الأطفال. لقد كان موقفه من هذه المسألة غريباً جداً، لدرجة أنه استثار لدى الآخرين شعوراً طبيعياً بالمعارضة.

كذلك، قبل عام من وفاة (أوليا) ابنة تشرتكوف، كان فاسيلي إيفانوفيتش ألكسييف، من أعضاء منظمة «الإرادة الشعبية» سابقاً، المعلم المنزلي في أسرة تولستوي (ليولا تعلم على يديه)، ومن ثم أصبح مثقفاً «فلاحياً»، قد فقد ابنته. كان عمرها أربع سنوات. وقد شارك تولستوي في مصابه، فتلقى منه الجواب التالي:

«صديقي العزيز، فاسيلي إيفانوفيتش، أشعر بالألم الشديد من أجلك، ولكن يا صديقي العزيز، لا تغضب مني، أنا لا أعاني لأنك فقدت ابنتك، بل لأن روحك المُحبة كلها تعلقت بهذا الحب الصغير، غير المشروع من حيث استثنائيته. أن تحب الله والقريب، ولا تحب شخصاً، بصورة محددة بكل قوة روحك، هو خداع، لكن الخداع الأكبر - أن تحب كائناً واحداً أكثر مما تحب الله والقريب... تحبهم وتحب أطفالهم أيضاً، لأنهم عاملون في تلك القضية التي تشكل حياتي، والعمال أفضل مني، أنا الملوّث بإغراءات الحياة وأوساخها. وهكذا جزئياً، أنت تحب ابنتك ناديا، ولماذا هي عندك وحيدة؟ لو أنك أحببت جميع القريبين منك لأنهم سيكونون العاملين الأفضل لقضية الرب، لما كنت شعرت هكذا. أنا أحبك كثيراً، فاسيلي إيفانوفيتش، أحبك للطفك، أشكرك لأنك ساعدتني في التحرر من تلك الإغراءات التي كانت تقيدني. ولكن في الفترة الأخيرة، يبدو لي أنك أهملت روحك وأخذت تكبر بالاحتكاكات والمشاحنات».

أُصيب ألكسييف بالذهول!

اعترض على تولستوي في رده قائلاً: «... لا يمكنني التخلي عن حبي لابنتي، ولا يمكنني أن لا أعاني من فقداني لابنتي». لكن تولستوي لا يلين. ورد عليه في رسالة ثانية قائلاً: «جوابك على رسالتي أحزنني... هناك حقيقة أن الحياة مُعطاة لك، يمكن النظر إليها على أنها من ممتلكاتك، حياتك المنفصلة، ويمكن النظر إليها وفهمها على أنها خدمة (لله -*المترجم*). في الحالة الأولى موتك وموت المقرّبين هو رعب، وفي الحالة الثانية -لا وجود للموت لأن هدف الحياة ليس الحياة بل ما تخدمه هذه الحياة. لماذا ربة البيت لا تصاب باليأس من أن الطعام الذي أعدته بكثير من الحب يأكلونه؟ ماذا سيحدث لها لو أنها أحبت طعامها لدرجة أنها رأته هو هدفها؟- كل شيء يكمن في كيفية فهمنا للحياة. يمكن للخادم أن يكون سيئاً وكسولاً، لكنه يدرك نفسه أنه خادم، وعندها لا خوف عليه مما يصيبه كخادم؛ ولكن إذا ما كنت أدرك نفسي بأنني سيد، رغم أنني أقوم بأعمال الخادم، فإن أي تذكير لي، بأنني خادم، سيكون رهيباً بالنسبة لي...».

أُصيب ألكسييف باكتئاب عميق، تحول إلى مرض قاس استمر عدة أشهر.

إن أول ما يتبادر إلى ذهن القارئ: من السهل على تولستوي الحديث عن موت أطفال الآخرين! ولكن في كانون الثاني/ يناير من العام نفسه، عندما فقد ألكسييف ابنته، مات ابن تولستوي أليوشا فجأة في الخامسة من عمره. كان الأب حاضراً موت الطفل حتى النزع الأخير. وهاكم ما كتبه تولستوي بهذا الصدد لتشرتكوف: «إن ما غادر جثة أليوشا غادره، وليس ما اتحد مع الله. لا يمكننا أن نعرف، هل اتحد، أم بقي، كما كان، بدون الاتحاد السابق مع أليوشا. وهذا ليس هو الحال. لا يمكننا الحديث عن هذا - أنا أعرف فقط، أن موت الطفل الذي كان يبدو لي سابقاً قاسياً وغير مفهوم، يبدو لي الآن معقولاً وخيّراً...».

كتب ابنه ليولا (ليف)، البالغ من العمر ستة عشر عاماً والمتعلق في هذا الوقت بأفكار أبيه، رسالة لتشرتكوف نفسه: «عزيزي ديما، لدينا حزن، كبير بنظر البعض وصغير بنظر البعض الآخر، مات أخي الصغير أليوشا بسبب التهاب في الحنجرة في ليلة الثامن عشر من هذا الشهر. لن أقوم بوصف

التفاصيل، لكنني سأقول فقط إن ماما حزينة للغاية وكل هذا كئيب جداً... الآن سوف تجري عملية الجنازة والدفن الكئيبة كلها. وكلما أسرعوا بإخراج الصغير المتوفى من البيت زال الحزن بسرعة أكبر... تحدثتُ كثيراً اليوم أنا وأبي عن هذا اليوم، وأنا لا أوافق على ما يقوله من أن الروح التي غادرت أليوشا هي نار (روح) الله الواحدة الممتدة في كل مكان؛ أنا أعتقد أن لدى كل إنسان ناره أو روحه الخاصة التي تغادره».

مع ذلك، لم يفصل الابن حتى النهاية بين روح الطفل وجسده، وكان يرى في موته حدثاً شخصياً ما، ويؤمن بأن لدى كل إنسان روحه الفردية الخاصة. تظهر في وجهة نظر الأب الدينية الحكمة المشرقية، ويظهر نداء إلى موقف «بهيج» من الموت. لكنه موقف لا يخلو من الجفاف، وهو موقف عقلاني.

في الوقت نفسه، لا يسع المرء أن لا يتساءل عن الاستياء العميق والطفولي إلى حد ما الذي يشعر به الأب من خيانة ابنه الروحية، كما يبدو له.

في شهر تموز/ يوليو عام 1889 بلغ عمر ليف نيقولايفتش ستين عاماً، أما عمر ليفا فقد بلغ عشرين عاماً فقط. فما سبب حدوث هذا الشجار الذي كتب عنه تولستوي في رسالته لتشرتكوف؟

«بدأ الحديث الأبدي، المتكرر حول المزرعة -فأُصبنا بالاكتئاب واليأس، وأدان أحدنا الآخر وجميع الناس. حاولت أن أقول له إن المسألة كلها ليست بعيدة في الخارج، بل هنا بالقرب من أنفك، وعليك فقط أن تعرف كيف تعمل، وأن تجرّب وتختبر- وبعدها تحكم. بدأ ليفا (ليف) يجادل. وبدأت المجادلة من بستان التفاح. وبإصرار ووقاحة جادل قائلاً: لا يمكن الحديث معك، أنت ستغضب الآن، وما شابه ذلك. شعرت بكثير من الألم. بالطبع، هاجمتني صونيا على الفور، ممزقة قلبي المعذب. شعرت بألم شديد. جلست حتى الواحدة ليلاً، ثم ذهبت للنوم مريضاً» (مدونة تولستوي بتاريخ 15 تموز/ يوليو).

«شعرت بألم شديد»-يكررها مرتين. إن تولستوي ليس منزعجاً فحسب، إنه متألم بعمق، إنه يعاني بشدة لأن أفراد أسرته لا يفهمونه، بل وببساطة لا يصغون إلى رأيه!

«كنت أعتقد: يا له من شيء رائع - عدم احترام الأبناء لوالديهم وللكبار في جميع الطبقات، ظاهرة عامة، حيثما كان! إنها دلالة العصر الهامة؛ لقد ولّى الاحترام والطاعة بسبب الخوف، انتهى، وجاءت الحرية. وفي الحرية يجب أن تنمو علاقة محبة، تشمل في طياتها كل ما كان يعطيه الخوف، ولكن بلا خوف. وهذا ما يحصل عندي مع ماشا وحدها. أخشى من الحديث والكتابة عن ذلك. كي لا أُصاب بالحسد، أي كي لا تصيبني خيبة الأمل» (مدوّنة بتاريخ 16 تموز/ يوليو).

هنا يبرز هذا السؤال: هل كان تولستوي بحاجة ماسة إلى هذه الدرجة أن يشاركه أبناؤه قناعاته بالتأكيد؟ لو كان الأمر يتعلق فقط *بالقناعات والمعتقدات* لما سبب له هذا النقاش التافه حول بستان التفاح مثل هذه المعاناة والآلام. لا، إن الأمر يتعلق بشيء آخر! وليس من قبيل الصدفة أن يتذكر تولستوي ابنته في تأملاته حول ابنه.

يكتب إيليا لفوفيتش عن أخته ماشا: «لقد شعرتْ بقلبها بوحدة أبيها، وكانت الأولى من بيننا التي ابتعدت عن مجتمع أترابها، وانتقلت، بصورة غير ملحوظة ولكن بثبات وتحديد، إلى جانبه. كانت تعرف بطريقة ما، الاقتراب منه ببساطة، باعتباره أباها العجوز المحبوب، وكانت أحياناً، تداعب يده وتلاطفها، وكان يتجاوب مع ملاطفتها ومداعبتها ببساطة ويستجيب لها. ولكن معنا نحن أبناءه لم يكن يجري هذا. كان الحب المتبادل حاضراً ضمنياً، ولكن دون تصريح».

عند مفترق الطرق

أثناء دراسته في الثانوية، كان ليوفا (ليف) يمرض كثيراً. على أية حال، جميع أبناء تولستوي كانوا يمرضون في كثير من الأحيان، وبعضهم مات في سن الطفولة. لكن ليولا نشأ صبياً عصبياً للغاية. وكانت حساسيته المفرطة أحد أسباب انحراف صحته بشكل دائم. والحقيقة، يصعب هنا فهم السبب، وما هي النتيجة. هل أصبح «تولستَويّاً» نتيجة انطباعيته وحساسيته، أم إن تعلقه بأفكار أبيه أدى إلى اختلال أعصابه.

ولكن طالما بقي ليولا «تولستَويّاً» كان كل شيء يسقط من بين يديه. وقد كلّفه التخرج من الثانوية جهوداً كبيرة. وكتب في سنوات نضجه: «حتى الآن، ما زلت أرى أحلاماً وكوابيس حول امتحاني للشهادة الثانوية. وبعده حلمت عدة مرات، أنني رسبت في الامتحان، وكنت أستيقظ مرعوباً. أما أثناء الامتحان نفسه، فقد أصابتني نوبة حقيقية من الهيجان العصبي والضعف، لدرجة أنني كنت أشعر أن الحياة نفسها قد غادرتني وانزلقت مني من الاضطراب الشديد».

وقد شرح اختياره لكلية الطب برغبته في «خدمة الناس في مجال مفيد»، وكذلك بأنه في ذلك الوقت كان يقرأ بحماس كبير كتاب الجرّاح الروسي البارز نيقولاي إيفانوفيتش بيروغوف «يوميات طبيب مسنّ».

لم يحبذ تولستوي خيار ابنه – فتولستوي لم يكن ينظر إلى الطب نظرة طيبة. بل بشيء من التساهل، كما كان عموماً متساهلاً مع ابنه إلى أن بدأ يتجادل معه. ويكتب تولستوي لصوفيا أندرييفنا من ياسنايا بوليانا بعد أن اجتاز ليولا (ليف) امتحانات التخرج من الثانوية: «أنا أشعر بالفرح لأن جزءاً من هموم ليوفا قد زال. آمل أن يصبح أكثر لطفاً؛ لأنه كان صارماً جداً». ويكتب لنصيره بافل إيفانوفيتش بريوكوف قائلاً: «لقد وصل ليوفا منذ فترة قصيرة في قبعة الطلاب، يريد الالتحاق بكلية الطب. هو بعد ماشا أقرب الجميع إليّ، وهو أكثر الجميع إخلاصاً لكم». ولكن بعد شهر يحدث ذلك الخلاف «المميت» بسبب بستان التفاح. وبعد شهر أيضاً، يكتب تولستوي عنه بشعور من الرضا لبريوكوف: «ليوفا في موسكو في كلية الطب ويتشجع بأن لديه تحت طاولته عظام بشرية...».

وكأن تولستوي لم يستطع العثور على الاستراتيجية الصحيحة للتواصل مع ليوفا. فمن ناحية، كان يجذبه فيه عقل ابنه وروحانيته، ومن ناحية أخرى – كان يشعر أن ابنه ضعيف جداً، وعلاوة على ذلك «سيد أرستقراطي» جداً. كان يزعجه كيفية تعامل ليوفا مع الخدم. وقد كتب لصوفيا أندرييفنا بعد مغادرة ابنه ياسنايا بوليانا إلى موسكو: «قولي لليوفا، إنني لم أكن ودوداً جداً معه كما كان يرغب. كانت أرستقراطيته لا تسرني: «هيّا! هيّا! أمرك مطاع!»».

لم يجد عنده محور ارتكازه الداخلي. في نيسان / أبريل عام 1887 عندما عاد ليوفا إلى موسكو من ياسنايا بوليانا، بقي هناك رفيقه، ابن الفنان نيقولاي نيقولايفتش غي، نيقولاي غي، أو كوليتشكا، كما كانوا يدعونه في أسرة تولستوي. كان ليوفا في موسكو يشتاق إلى التواصل معه، وهذا ما كتبت عنه صوفيا أندرييفنا لزوجها. وقد أثار هذا في الأب أيضاً شعوراً من السخرية فقال: «فليبحث في ذاته على الأقل، ألا يوجد فيها كوليتشكا صغير».

كان الأب ضعيف الثقة بمستقبل «التولستَوي» الشاب. في حين أنه كان يتقبل تشرتكوف بطريقة مغايرة تماماً: «إنه يتوهج جيداً!» (مدونة في اليوميات). ومن ناحية أخرى، كانت أقرب إليه طاعة ماشا الهادئة، التي كانت تخدم أباها بتفان وإيثار، ودون جدال.

بعد انتقاله من المدرسة الثانوية إلى الجامعة، كتب ليوفا (ليف) رسالة لأبيه، معترضاً على صيغته «ثمة قضية هامة واحدة – هي أن تعيش حياة جيدة»: «كما أفهم الحياة، كذلك أبذل جهدي لأتصرف، ولكن ثمة اختلافاً هاماً كبيراً بيننا، وهو بالضبط، أن البداية البسيطة القريبة، التي تتحدث عنها، يفهمها كل منا بشكل مختلف (سامحني أنني أكتب هكذا، فأنا أدرك جيداً أنني لست ندّاً لك)».

في هذه الرسالة يتصور ليف الحياة كما لو أنها برج من الطوب، يجب تفكيكه بالتدريج من الأعلى إلى الأسفل. وإذا ما بدأنا بتفكيكه من الأسفل، فإن البرج سينهار ويدفن الإنسان بكومة من «الطوب» (المشاكل). وبرأي ليوفا، أن أباه وأتباعه يبدؤون بتفكيك البرج من الأسفل، وهنا يكمن خطأهم، «لأنهم لم يسيروا بصورة متتابعة كما قدمت لهم الحياة». «ارتدِ ثوباً من التيل، وارتد جزمة، ومعطفاً قصيراً من الفرو، ولا تأكل اللحم، ولا تشرب الخمرة، واعمل كل شيء بنفسك، أوَليس هذا كله البدء من الأسفل؟... أنا لا أفعل هذا ولا يمكنني فهمه...».

بعد موت ليف الأب وليف الابن، حدد فالنتين فيودوروفيتش بولغاكوف، سكرتير تولستوي الأخير، بدقة جوهر النزاع بين الأب والابن: «في جدل ليف لفوفيتش الدائم، وكما يبدو غير المناسب، مع أبيه العظيم، وحتى بعد

موت الأخير، خيّل إلي أحياناً أنني اكتشفت بذرة ما من الحقيقة». يرى بولغاكوف، أن ليف لفوفيتش «كان يستثقل روحانية ليف تولستوي الأحادية الجانب وموقفه المهمل للجانب المادي والعملي من الحياة، وبالتالي لتلك المؤسسات كالزواج، والقانون، والدولة. ولحالته العصبية، وكبريائه المفرطة، وسرعة هيجانه، ولإضفائه طابعاً شخصياً على جداله مع أبيه، كان ليف لفوفيتش يضع نفسه في موقف مضحك في نظر الآخرين -وكان يشعر بهذا- وهذا ما كان يزيد من تعصيبه وتوتره...».

في الوقت نفسه، كان بولغاكوف يكتب بنظرة ثاقبة أنه «كان في ليف الصغير شيء ما من ليف الكبير». «ماذا كان؟ إليكم: تصوروا قلق ليف نيقولايفتش تولستوي الشاب وبحثه، ولكن بدون مساعدة عقله - وهو سيكون ليف لفوفيتش تولستوي».

ولكن ما الذي كان ينبغي عمله؟ من المستحيل تغيير الاسم، أما شخصية الابن فقد تشكلت بصورة جامحة بالتأثير المستمر لوالده، سواء رغب والده بذلك أم لم يرغب. وعندها يتخذ تولستوي موقفاً، ربما ليس الموقف الأقوى لكنه الموقف الممكن الوحيد في هذا الوضع. إنه يسعى إلى التمسك بمبدأ عدم التدخل. إن ليوفا أصبح، حسب رأيه، راشداً بما فيه الكفاية، كي يقرر مصيره بنفسه.

يكتب الأب لابنه ليوفا من ياسنايا بوليانا في شهر حزيران/ يونيو عام 1889 عندما أنهى الثانوية: «افعل ما هو الأفضل، وتعال بأسرع وقت. عندنا كل شيء هادئ، ومن يشعر بالراحة والطمأنينة في روحه يمكنه أن يكون جيداً جداً، وأنا أنتمي إلى هؤلاء، رغم اعتلال صحتي. كيف، وماذا قررت بالنسبة للجامعة والكلية؟ يبدو لي أنه يجب اتخاذ القرار الآن. هذا -ليس الموضوع نفسه بقدر ما هو قرارك في هذا الموضوع- يهمني جداً. أنت الآن عموماً في مرحلة هامة جداً، لأنك على مفترق طرق. الإنسان دوماً على مفترق طرق، ولكن، أحياناً، كما أنت الآن، بصورة خاصة. ومعكم جميعاً، في هذه الأوقات، أنتظر بقلق، ممتنعاً عن التدخل، الذي قد يكون ضاراً وليس بلا فائدة فحسب. وداعاً، يا حبيبي، أقبّلك، لا تفعل سيئاً، وتعال بأسرع وقت».

في قبعة الطالب

لم تنتظم دراسته في الجامعة منذ البداية.

تكتب صوفيا أندرييفنا في كتابها «حياتي»: «استقر في موسكو، في جناح، حيث كانت زوجة البواب تحضّر له غداءً بسيطاً، حساء الملفوف والعصيدة، والفطائر للتحلية، كما كان يقول ليوفا. وبدأ يتردد إلى الجامعة، إلى كلية الطب، حيث كانت تسيطر عليه فكرة بأن يجلب للناس فائدة كبيرة. وبدراسته لعلم التشريح بفضول مرضي، كان ليوفا يذهب إلى الأقبية، حيث كانت جثث الموتى الجاهزة *للتشريح* مسطحة، كما كان يقول الطلاب».

حتى إنه اشترى مع رفيقه إيفان رايفسكي هيكلاً عظمياً بشرياً، «أوقعا به الخادم بالرعب الشديد».

كان من الصعب تخيل جو أكثر شذوذاً ولا طبيعية، بالنسبة لشاب عصبي وانطباعي، مثل المشرحة. لكن ليوفا عنيد، وقد بدأ في الشهر الأول من الدراسة بحضور محاضرات عالم الفيزيولوجيا البارز إيفان ميخائيلوفيتش سيتشينوف، الذي كان يدرّس في الصفوف الجامعية العليا. وها هو يكتب لأمه: «... كنت أصغي باهتمام كبير، رغم أن التجارب على الضفدع كانت مقرفة جداً. يصلبون الضفدع بالمسامير على لوح خشبي، ويكشفون عن عصبه ويمررون فيه التيار الكهربائي، يتلوى الضفدع، ويحرك قوائمه، ومن فمه يتدفق الدم، والبروفيسور يحدث الطلاب باهتمام ووقار لماذا تحدث هذه الأفعال. هذا مقرف جداً، لأنه غير مألوف بالنسبة لي، ولكن إذا ما أشفقت على الضفدع، فماذا سوف أعمل عندما سيكون من الضرورة ذبح الكلاب والقطط. في المشرحة كل يوم رائحة الجثث كثيفة ونفّاذة. قد تصبح هذه الرائحة مألوفة... لكنها مع ذلك رائحة نتنة، وأعتقد أنه من المستحيل القول إنه من الممكن أن أعتاد على هذه الرائحة. عندما أعود إلى المنزل أو أحل ضيفاً عند أحد ما، تبقى هذه الرائحة في كل مكان من أنفي».

ولم ينسجم حق الانسجام أيضاً في البيئة الطلابية.

يكتب ليف لفوفيتش في ذكرياته: «كان لديّ في الكلية رفيق مقرّب فانيا (إيفان) رايفسكي، وكنا نذهب معاً إلى المحاضرات؛ ولكن، كلانا كانت

تنقصه الطاقة، من أجل استيعاب الحياة اليومية الجامعية بكل مضايقاتها وعيوبها، وتقبلها بإذعان، مثل رفاقنا اليهود النشيطين وغير المدللين، الذين كانوا يشكلون حشداً صاخباً».

بيد أن استشهاده برايفسكي غير موفق. فقد تخرج رايفسكي بنجاح من جامعة موسكو، خلافاً لليف.

كان سبب فشل ليف متجذراً في نفسه هو. وقد ترك واحد من هؤلاء «اليهود النشيطين وغير المدللين» الذين يكتب عنهم بغطرسة الأسياد، ذكرياته عن ليف لفوفيتش: «إنني أتذكر باستغراب حديثي مع رفيقي في السنة الأولى، ابن ليف نيقولايفتش تولستوي، ليف لفوفيتش غير الودود. في تلك الفترة كان يحضّر الأدوية الدورية في علم التشريح. ولكن حين دخوله إلى المشرحة كان يدعو البواب خصيصاً كي يخلع عنه معطفه. عموماً، كان يتصرف مثل طالب أرستقراطي نموذجي، ابن كونت. وقد ردّ على اقتراحي بأن يسجل اسمه في مجموعة المحاضرات في فيزيولوجيا النبات بالرفض، وبرر رفضه بالاستناد إلى أن أباه، ليف نيقولايفتش تولستوي، قد أثبت عدم ضرورة، وعدم جدوى علم النبات باعتباره علماً. ونصحته أن لا يستند إلى ليف نيقولايفتش تولستوي بتهور، ولم أعد بعد ذلك إلى هذا الحديث معه» (ز. غ. فرينكل. «ملاحظات عن طريقي في الحياة»).

مع ذلك، لم يكن ليف شاباً مخنثاً ولا منحلاً. عندما وصلت صوفيا أندرييفنا مع ابنتها تاتيانا إلى موسكو في شهر تشرين الثاني/ نوفمبر عام 1889، وجدت أن ابنها رتب أمور معيشته بصورة لائقة. «نزلنا عند ليوفا في جناح منزل جادة خاموفنيكي. وقد كان مسروراً جداً بقدومنا، وأنا، كأم، كنت مسرورة من رؤية أنه كان يعيش بشكل جيد. في كل مكان في الجناح وجدنا الترتيب، النظافة، دلائل العادات والأذواق الثقافية. كان البيانو في الزاوية، وآلة البلالايكا (آلة وترية موسيقية روسية -*المترجم*) معلقة على الحائط، وكان الكثير من الكتب؛ الفرش كان متواضعاً في الجناح، لكن كل شيء كان منسجماً مع الآخر. كان يواظب بجد على الجامعة، ويحضر حفلات الموسيقى السمفونية».

إذا ما حكمنا من خلال بعض الرسائل والبطاقات البريدية، المرسلة من موسكو إلى ياسنايا بوليانا في غياب أمه، كان ليولا (ليف) يدير بدلاً منها الأعمال الخاصة ببيع المؤلفات الكاملة لأبيه من مستودع الجملة، الذي كان موجوداً في فناء منزلهم بموسكو. وإحدى هذه الرسائل مكتوبة على الورق مع ختم: «مستودع منشورات مؤلفات الكونت ل. ن. تولستوي. موسكو. جادة دولغو - خاموفنيكي، رقم المنزل 15، الكونتيسة صوفيا أندرييفنا تولستايا».

ولكن، كان هناك شيء ما في طبيعته، لا يسمح له بالتمسك والاستقرار بأي عمل كان. وكانت كلية الطب مجرد بداية تلك السلسلة الطويلة من الإخفاقات.

«كانت غريبة عني أيضاً لغة الأساتذة، حيث كانت المصطلحات العلمية المقتبسة عن الفرنسية تشكل نصف كلمات محاضراتهم، كما كانت المشرحة غريبة ومقرفة بالنسبة لي، حيث كنا نقطّع الجثث البشرية؛ أما تشريح الحيوانات الحية فمثير للاشمئزاز، حيث كان البروفيسور الشهير سيتشينوف يقتل الخنازير البحرية، والجرذان، والضفادع، والأرانب ويعذبها؛ وأخيراً كانت البيئة الطلابية نفسها غريبة بالنسبة لي، حيث لم أجد فيها من الأشياء المشتركة إلا القليل».

في بداية دراسته، في خريف عام 1889 لم يستطع ليف احتمال الدراسة وجاء إلى ياسنايا بوليانا... تكتب أمه صوفيا أندرييفنا: «بعد مشهد الموتى في أقبية الجامعة، كم شعر ليوفا بالفرح والبهجة بطبيعتنا الجميلة في ياسنايا بوليانا. كان يذهب إلى الصيد يومياً ويصطاد آنذاك 12 دجاجة برية...».

وفي شهر آذار عام 1890 يقرر ترك كلية الطب والانتساب إلى كلية اللغات. نوى في البداية مغادرة الجامعة نهائياً والذهاب للخدمة في البحرية... لكن هذا كان يتطلب رسالة حماية من السناتور (عضو البرلمان) كوزمينسكي زوج خالته، ذي النفوذ. غير أن «الخال ساشا» لا يوافق على المساعدة بدون موافقة والديه. أما الوالدان فقد أدركا أن ما يحدث مع ليوفا شيء غير حميد.

وتكتب أمه عنه فتقول: «إن هذا البحث الأبدي عنده، والفضول نحو الأحاسيس الجديدة والتطلع إلى شيء ما جديد، أفضل - بقي عنده طيلة حياته وكان يعيقه إلى حد كبير».

بيد أنها لا تتطرق إلى الشيء الرئيس. في بداية مسار حياته المستقل، يبدأ ليوفا (ليف) *بتقليد* سلوك أبيه في شبابه. فتولستوي-الأب فعل الشيء نفسه تماما: في عام 1844 وبعد أن انتسب إلى كلية اللغات في جامعة قازان ودرس عاماً واحداً، انتقل إلى كلية الحقوق كي يغادرها بعد عام ونصف، ويتوجه إلى ياسنايا بوليانا ليدير مزرعته.

في كتاب استقالته من الجامعة، كتب الشاب ليف نيقولايفتش تولستوي البالغ من العمر ثمانية عشر عاماً: «...نتيجة لاعتلال صحتي وظروفي المنزلية». وفي كتابه «تجربة حياتي» شرح ليف لفوفيتش تولستوي انسحابه من كلية الطب على النحو التالي: «... نتيجة الجو العام غير الطبيعي، السائد في أسرتنا، اعتلت صحتي وتدهورت، على الرّغم من قوتي الطبيعية».

لم ينسجم تولستوي-الأب، ولا تولستوي-الابن مع الوسط الطلابي.

ونعرف سلوك تولستوي-الأب في جامعة قازان من خلال ذكريات فاليريان نيكانوروفيتش نازاريف المنشورة في مجلة «الأخبار التاريخية» في شهر تشرين الثاني/ نوفمبر عام 1890، عندما انتقل ابن تولستوي من كلية الطب إلى كلية اللغات. ولكن هل قرأ الابن هذه الذكريات عن أبيه؟ إنه لم يقرأها فحسب، بل كان ممتعضاً، لدرجة أنه كتب اعتراضاً على الذكريات عن شباب أبيه، أي عن تلك الفترة من الزمن، التي لم يكن فيها ليوفا قد ولد بعد!

كان تصرف ليوفا غريباً جداً، لدرجة أن ليف نيقولايفتش كان مضطراً لأن يشرح لابنه متوخياً الحذر، لماذا لا يصح فعل هذا: «لا حاجة لنشر المقال ولا حاجة أصلاً لكتابته. إذا كانت الآراء والأحكام الغبية والكاذبة مزعجة، فإن أفضل وسيلة كي تصبح أقل، أن لا ترد عليها أبداً، كما كنت أفعل دائماً، وأعتقد أنه يجب فعل ذلك...».

وبعبارة شعبية بسيطة، ليوفا اندفع إلى النار قبل أبيه. وقد كتب لأبيه منفعلاً، متهيجاً: «إن نازاريف مجرد شخص مزعج. يمكن اختيار شخص

آخر. رجاءً، اكتب أنت. لقد أفرطوا كثيراً في الكذب عنك، ولماذا نحن صامتون، كالحمقى، طالما أنه يجب القول، كي يشعر الجميع بالخوف».

وبعبارة أخرى، كان يقنع أباه بالدفاع عن شرفه وكرامته. وإذا لم يفعل، فسيقوم ابنه بهذه المهمة بدلاً منه!

فما هو الشيء الفظيع، المريع الذي كان في ذكريات نازاريف؟

لقد ظهر فيها تولستوي في إضـاءة غير متوقعة. سيد شاب، بارد ومتغطرس. كتب نازاريف: «لأول مرة في حياتي التقيت بشاب ممتلئ بأهميته الغريبة وغير المفهومة بالنسبة لي ورضاه الزائد عن نفسه... أحياناً وفقط في محاضرات التاريخ الإلزامية لطلاب السنتين الأوليين في جميع الكليات (باستثناء كلية الطب)، كنت أواجه الكونت الذي انضم، على الرّغم من حرجه وخجله، إلى حلقة صغيرة لما يسمى بالأرستقراطيين. كان بالكاد يرد على تحياتي وانحناءاتي، وكأنه أراد أن يظهر أننا هنا أيضاً غير متساوين، لأنه وصل إلى هنا على ظهر حصان، وأنا جئت سيراً على الأقدام». أبعد الكونت نازاريف على الفور بـ«برودته الظاهرة، وشعره الخشن، وتعبير الازدراء الظاهر في عينيه الضيقتين».

وهذا هو حديثه عن العِلم الجامعي. واستخلص تولستوي: «هذا في حين أنه يحق لنا أن نتوقع أننا سنتخرج من هذا الحرم ذوي فائدة ومعرفة للناس. فماذا نحمل معنا من الجامعة؟ فكروا وأجيبوا بضمير حي. ماذا سنحمل معنا من هذا الحرم، عند عودتنا إلى منازلنا في القرية، ولأي شيء نكون صالحين، ومن يحتاج إلينا؟».

أَوَلم ير ليوفا (ليف) نفسه في هذا الانعكاس الملتوي؟

فقبل بضعة أشهر من نشر ذكريات نازاريف، كتب ليوفا لأمه عن أسباب قراره بمغادرة الجامعة: «... من خلال الرسالة، قد تعتقدين أنني في مزاج سيئ، بالعكس، أنا راض جداً، وأقول بصراحة تامة، إنني أغادر الجامعة بسرور، دون أي أسف، ودون أي شك، وليس نتيجة «الكسل»، بل لاعتبارات ودوافع وقناعات مختلفة».

فماذا كانت قناعاته هذه؟

في رسالته لأمه، يطرح ليف سؤالاً ويجيب عليه بنفسه: «لماذا نحتاج إلى الجامعة أصلاً؟ رجال القانون، من أجل النفي مع الأشغال الشاقة (منذ أيام رأيت في المحطة مشاهد مروعة لتوديع المحكومين بالأشغال الشاقة والمنفيين إلى جزيرة سخالين)، وعلماء اللغة، من أجل تعذيب الشبيبة واستغلالها بوحشية في المدارس الثانوية... ونحن الأطباء، من أجل تقطيع الناس الأحياء في المستشفيات، وقتلهم أحياء».

«فماذا يبقى» «إذن، ماذا علينا أن نفعل؟» القرية، القرية والقرية. ومنها يجب السعي لتحقيق الهدف والنجاح، وإذا كنت عاجزاً عن ذلك يمكنك الجلوس بهدوء وعلى الأقل ستكون هادئاً وستنجز أكثر».

كل شيء رائع. لكن هذه الأفكار ليست أفكاره. وليس من العبث أن يورد في رسالته عنوان مقالة أبيه «إذن، ماذا علينا أن نفعل؟».

لقد فهم الأب مشكلة ابنه الرئيسة في وقت مبكر، ولهذا كان يثني عزمه عن ترك الجامعة: «لا تفعل هذا. ولا يكفي فقط أن لا تفعل هذا، لا تُضعْف من جهودك في الدروس، لا تخفّف، بل ضاعف الشعور بالواجب الأخلاقي لمتابعة الدراسة... صحيح أنه لو كانت لديك هذه النية من أجل التظاهر أمام الطبقات العليا من رأي الناس ومن أجل عزة نفسك، فمن السهل انتزاعها وستزول. هذه النية ستكون قوية عندما تدعمها بمسامير وعي الواجب أمام الضمير وأمام الله. ولهذا إذا كان لديك مجرد تظاهر، قم برصّ البراغي. وسأعطيك مفك براغٍ، طالما أن مفكّك لا يرصّ. هذا ما أردت قوله. وإلا فهذا خمول ولا مبالاة: لماذا أذهب إلى الجامعة؟ من أجل ماذا؟ وماذا».

في شهر أيلول/ سبتمبر عام 1890 تسجل ليوفا في كلية اللغات وأخذ يتابعها. لكن، هنا أيضاً لا يشعر بالرضا ولا يفارقه القلق.

يكتب لأمه: «من جديد، اللغة اللاتينية، اللغة اليونانية، الترجمات، القلق من جديد...» وفي شهر نيسان/ أبريل عام 1891 يعترف بصراحة لأمه، أنه لا يمكنه التقدم لامتحانات السنة الثانية.

«أنهيت محاضراتي ورأيت أنني لن أتمكن من الصمود أمام الامتحانات، ليس فقط لأنني أعرف بشكل سيئ، بل أيضاً، وهو السبب الرئيس، أنني

كبير في السن، وعملية إجراء الامتحانات كلها مقرفة بالنسبة لي، لدرجة أنه لا يمكنني، وليس أنني لا أريد أو أتخيل لنفسي شيئاً ما، إنجاز هذه الكوميديا كلها».

«أنا كبير السن» - هذا ما يكتبه. علماً بأنه لم يكمل عامه العشرين.

مصيبة كبيرة

خلال فترة وجوده في الجامعة، كان ليوفا تولستوي يمثل نموذجاً سيكولوجياً معقداً. فمن ناحية أولى، كان ضعيفاً وخاضعاً لتأثيرات مختلفة. إنه في تردد دائم، وانعدام الثقة، وعجز عن العثور على طريقه في الحياة. وأخيراً، ظهرت عنده أولى علامات مرض عصبي غير معروف، ينحف ويفقد بسببه، وزنه بسرعة، ويسيطر عليه الخمول واللامبالاة، ولا يمكنه تقديم الامتحانات. ومن ناحية أخرى، إنه شاب شديد الطموح مع متطلبات حياة متضخمة. يبدو كأنه مستعد لتحريك الجبال، ولكن... كل شيء من حوله ليس كما يرغب! الظروف العائلية، البيئة الجامعية... وأقل ما يمكن أن يتبادر إلى ذهنه، *أنه* ليس أبداً*كما* يتصور نفسه.

إنه ليس بخير في موسكو! مثل أبيه، يلاحظ ليوفا عيوب حياة المدينة باشمئزاز. حتى في السيرك. يكتب لأمه: «لقد عدت الآن من السيرك. لم أستطع مشاهدة العرض حتى النهاية، ويبدو لي أن هذه هي المرة الأخيرة في حياتي. أي فجور هذا، أي جهل دامس... صبي في الرابعة عشرة من عمره بهلوان الحبال، سيدات في تنانير ضيقة وقبعات حمراء... ذهبت إلى البيت، والمشاهد الليلية ثانية، هذا الفجور السري الذي يحدث ليلاً، ورغم أنه سري، فإنه يسيطر بشكل مكشوف على الشوارع. يجب أن أهرب وأن أخاف من هذا الإغراء في لحظات الضعف، أما في لحظات النشاط النفسي والروحي فيجب عليّ تقوية نفسي، ومسامحتها وأن أتحلّى بالأمل».

إنه يندفع من موسكو إلى ياسنايا بوليانا. ولكن، هناك أيضاً لا وجود للطمأنينة النفسية. يكتب في يومياته في شهر كانون الأول/ ديسمبر عام 1890: «وصلت، مفعماً بالطاقة، والحياة، والفرح. التقيت الجميع

على مائدة الغداء. نوع من القهر يسيطر على الجميع، وكأنهم فرحون، سعداء، نعم بعضهم فرحون بل كلهم، ولكن وراء هذا الفرح يكمن شيء ما مرهِق. كان وجه أبي يعبر عن الاستياء والحزن. إنه «يضحي بنفسه». وقد ظهر هذا التعبير الآن، بعد الأحاديث الأولى. وهذا ينعكس على وجوه الآخرين.

أبدأ العيش. كل على حدة. مصيبة كبيرة. كل ينسى الآخرين ويستغرق في أنانيته. تانيا مريضة بسببنا. ماشا تخدع نفسها وتعتبر نفسها بائسة، مثل تانيا... ماما تربي إخوتي الصغار. أندريوشا يمارس العادة السرية. ميشا يقترب من الشيء نفسه. أوه، يا لوضع الأسرة المأساوي، بسببك، أيها الشيخ العظيم الذي يقول الحقيقة ويتوقف عن العيش...».

إنه يجد السبب الرئيس لـ «المصيبة الكبيرة» في الأب. وبالفعل، فمنذ أوائل التسعينيات بدأ يزعجه تقديس شخصية الأب. ويكتب كما يلي عن ألكسندر نيكيفوروفيتش دونايف، مدير بنك موسكو التجاري: «... إن محبة دونايف لأبي تصل إلى درجة العبث، إنه على ما يبدو، يشم بكل سرور الرائحة الكريهة من قصريته».

لا يروقه ولاء أخته ماشا لأبيه. «ماشا مشحونة، بل ليست مشحونة، إنها مدهونة بفكر أبي ونظراته وكل ما يمكن أن تلمسه بروحها الصغيرة، وماذا يمكنها أن تفهم من عقلية أبي الداخلية المعقدة إلى اللانهاية...».

في يوم 27 كانون الأول/ ديسمبر احتفلوا في ياسنايا بوليانا بعيد الميلاد. يرتدي خدم وأفراد عائلة آل تولستوي ملابس التنكر والتمثيل الإيمائي. يعبر ليوفا (ليف) عن سخطه في يومياته: «مشهد مريع. فوميتش، الغاضب من زوجته الجاهلة باراشا التي ارتدت البدلة، وهي التي تعمل طيلة حياتها وأم لستة أطفال. إيفان ألكسندروفيتش الذي يرقص، في حين أن قلبه معتل بالأمراض... فاركا العشيقة التعيسة التي هجرها لوكيان الحوذي السابق عندنا. ثم، وكي تتألق الصورة أكثر أختي ماشا في سروالها الضيق برجليها النحيفتين، المسيحية، النباتية، وما إلى ذلك، غبية كغطاء الفلين».

إنه يسعى إلى كبح مشاعره الشريرة ويدين نفسه على هذه المدونات: «بصورة مشوشة للغاية، وبشكل غير متماسك، والأهـم، «بمشاركة أحاسيسي»، وبتحيز، على الأغلب، «الأنا» الهادئة عندي ستغضب من بعض الأفكار التي عبرت عنها اليوم». ولكن حتى في هذه الإدانة ثمة حصة الأسد لـ«النرجسية» التي كانت تميزه وتميز أباه. بيد أنها كانت تتخذ لدى الأب أشكالاً أخرى - كالتحليل الذاتي الذي لا يعرف الرحمة، وجلد الذات والتوبة.

يشعر المرء أنه ابن أبيه. بيد أن النطاق مختلف! إن عدسة رؤية تولستوي-الأب إلى العالم وإلى نفسه تتغير في جهاز رؤيته من التلسكوب إلى المجهر. أما ليوفا (ليف-الابن) فينظر إلى الحياة بعينيه العاديتين. وهذا أقرب إلى شخصية أمه من أبيه. فالأم أيضاً كانت ممتعضة من سلوك ابنتها ماشا في عيد الميلاد. وها هي تكتب في يومياتها: «في المساء جاء الفلاحون والخدم مرتدين ثياب التنكر ورقصوا على الإيقاع والبيانو. إنها تانيا التي رتبت كل شيء، فقد رغبت بمتعة سخيفة. وارتدت ثياب التنكر والتمثيل هي وماشا. ولكن ما إن دخلت ماشا حتى أخذنا العجب، أنا وليوفا، كل مأخذ. فقد غطت نفسها ببنطلون بالكامل -ارتدت زي صبي- دون أي خجل. إنها مخلوقة غريبة، غبية، مشوشة».

إن كل ما يحتاجه هو أن يعترف لنفسه بنفسه، أن أمه أقرب إليه من أبيه. وأن فيه من آل «بيرس» أكثر مما فيه من آل «تولستوي». لديه مع أمه عادات وأذواق مشتركة. فهو مثلها أنيق، بل وحتى نظيف ومحب للنظافة إلى درجة كبيرة متطرفة، بحيث إنه لا يتحمل كل شيء قذر، ناقص، حتى القرف والاشمئزاز، في مظاهر الحياة الداخلية أو الخارجية. وعموماً، المظاهر الخارجية، بالنسبة له مهمة جداً، كما هي بالنسبة لأمه، بالاختلاف عن أبيه. وفي هذا الموقف ثمة حقيقة ثابتة، راسخة للحياة، وهي التي تسمح بالحفاظ على الأسرة. فمتطلبات الأب الروحية المفرطة قد تكون جيدة *للإنسانية*، لكنها مستحيلة بالنسبة *للعائلة*. والأب نفسه يدرك هذا ويقْدم على التنازلات لزوجته. لكن سبباً ما لا يسمح لليوفا بإدراك هذه الحقيقة، وسبباً ما لا يسمح لتولستوي بشرحها لابنه.

خاتمة «لحن كرويتزر».

في عام 1891، صدرت في المجلد الثالث عشر من «مؤلفات الكونت ل. ن. تولستوي» التي تنشرها زوجته، قصة طويلة بعنوان «لحن كرويتزر». لقد كانت هذه القصة عمل ليف تولستوي الأكثر فضائحية، الذي أثار أعداداً لا تحصى من الأصداء المكتوبة وردود الفعل الشفوية. ويمكننا القول، إن روسيا المفكرة كان يقلقها طيلة السنوات التسعينيات سؤالان رئيسان: «من على حق - النارودنيكيون[1] أم الماركسيون؟» و«ماذا أراد تولستوي أن يقول في «لحن كرويتزر»؟».

وكان أحد الأجوبة، الأشد ذكاء، على السؤال الثاني، الجواب الذي اقترحه الناقد والأديب الفرنسي إيجين ميلشيور دو فوغ Eugen – Melchior de Vogue. وقد نُشرت ترجمة مقالته حول «لحن كرويتزر» في «المجلة الروسية» قبل صدور القصة الطويلة، التي أخّرت الرقابة طبعها، في حين كانت تتناقلها أيدي القراء كمخطوطة. وقد قرِئت مقالة دو فوغ في ياسنايا بوليانا. وكان ليوفا من أوائل من قرأها. وكما في حالة ذكريات نازاريف، كان ليوفا مستاءً.

وقد كتب في يومياته: «إن موقفه مبتذل جداً وعادي، والأهم أنه لا يفهم، أو يكذب ببساطة، كيف يمكن القول أن المثل الأعلى في اللحن هو أن ينتهي العالم بموت من بلغ العزوبية، في حين أن الأمر يتعلق بالحياة. لقد تعبت من هؤلاء النقّاد. لقد كتبت مقالة على شكل رسالة إلى الصحيفة، لكن أبي لم يوافق على نشرها. إنه على حق، ولكن من المزعج أحياناً، إن من الصعوبة بمكان أن يصمت المرء، ولا يرغب بالتعبير عن رأيه».

أما صوفيا أندرييفنا فكان موقفها مغايراً من مقالة إيجين ميليشور دو فوغ: «... إنه دقيق وذكي بشكل مدهش. إنه يقول، بهذا الصدد، أن تولستوي

1- النارودنيكيون: نارودنيكي Народники أعضاء حركة نارودنيشستفو Народничество وهي حركة اجتماعية سياسية انتشرت انتشاراً واسعاً بين مثقفي روسيا في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، وكانت تدعو إلى تقارب المثقفين والأنتليجنسيا الروسية مع الشعب الروسي البسيط. -المترجم.

وصل إلى أقصى حدود التحليل (analyse creusante) الذي قتل الحياة الشخصية والأدبية معاً».

كانت قصة «لحن كرويتزر» تثير قلق زوجة تولستوي. وكانت ترى فيها بحق، معاناة زوجها فيما يتعلق بحياته الشخصية. وتكتب في يومياتها: «ثمة خيط غير مرئي يربط يوميات ليفوشكا (زوجها -*المترجم*) القديمة بقصته «لحن كرويتزر». وأنا في شبكة خيوط العنكبوت هذه ذبابة طنانة تم صيدها خطأً، يمتص العنكبوت دمها».

في خاتمة «لحن كرويتزر» المكتوبة، بناء على نصيحة تشرتكوف، عبر تولستوي بصورة قطعية عن تأييده للعزوبية ووقف ضد الحب الجنسي. في حين أنه، في عام 1888، عندما أنهى قصته الطويلة هذه، وُلد في أسرة تولستوي الطفل الأخير -ابنه فانيشكا. كانت صوفيا أندرييفنا تقول على سبيل المزاح، إن هذا الابن- هو أفضل خاتمة لـ «لحن كرويتزر».

عندما كتب دو فوغ مقالته، لم يكن قد قرأ «خاتمة لحن كرويتزر»، وقد أشار بشكل صحيح تماماً إلى أن تولستوي في قصته يخاف من استخلاص النتيجة النهائية: «يريد الكونت تولستوي إلغاء الطبيعة، وهذا الفائض من المنطق يضعه أمام استحالة استخلاص النتيجة... إن غياب الاستنتاج هو العيب الرئيس الذي أود الإشارة إليه في لحن كرويتزر... لكن الكونت تولستوي، الجريء في كل ما تبقى، يتردد في إعلانه. وهذا الاستنتاج يكمن في أنه يجب على العالم أن ينتهي، لأنه عالم سيئ، والمثل الأعلى يكمن في أن ينتهي بأسرع وقت ممكن، عن طريق العزوبية الشاملة».

وفي 21 آذار/ مارس عام 1891 كتبت صوفيا أندرييفنا في يومياتها: «إن ليفوشكا (ليف زوجها -*المترجم*) لطيف، ومرح، وحنون، بصورة غير عادية. وكل هذا، للأسف، وكل هذا للسبب نفسه. ولو أن أولئك، الذين قرأوا «لحن كرويتزر» باحترام وتبجيل، ألقوا نظرة للحظة، إلى تلك الحياة العاطفية التي يعيشها ليفوشكا، والتي خلالها وحدها يكون مرحاً وطيباً، لأطاحوا بإلههم من منصته التي نصبوها لأجله!».

لقد كانت الخاصية المميزة لقصة تولستوي الطويلة الجديدة تكمن في

أن صوفيا أندرييفنا كانت الناقد الوحيد «المؤهل» لها. فهي وحدها كانت قادرة على رؤية الصلة بينها، وبين يوميات تولستوي المبكرة، وبين معاناته الأخيرة. وهي وحدها القادرة على معرفة، من أية أعماق سرية برزت هذه القصة الطويلة.

في شبابه، كان تولستوي يقارن الغريزة الجنسية بـ«إحساس الغزال» ويخافه. ويومياته المبكرة مليئة بالاعترافات عن عجزه الشخصي على مقاومة الغريزة الجنسية. يكتب تولستوي في 5 حزيران/ يونيو عام 1856: «... تجولت في الحديقة بأمل غامض ولذيذ بأن أمسك بامرأة ما في الدغل. لا شيء يمنعني من العمل هكذا، ولذا قررت أن أستحوذ على عشيقة، أين ما كان، وحيثما كان، خلال هذين الشهرين». ويعترف بعد بضعة أيام: «كانت جُندية... شيء مقزز».

إن مؤلفات تولستوي الثلاثة الأخيرة -«لحن كرويتزر»، «الشيطان»، «الأب سيرغي»- مكرسة لمسألة القوة الطاغية لهذه الغريزة، التي لا يستطيع الإنسان مقاومتها.

فماذا كان يمكن أن يفهم من هذا ليوفا (ليف الابن) في أوائل التسعينيات؟ أولاً: هو لم يقرأ يوميات أبيه المبكرة. ثانياً: هو نفسه، «كذبابة في شبكة العنكبوت»، التبس عليه الأمر في المسألة الجنسية.

المدونة الأولى من يوميات ليف لفوفيتش المحفوظة. عام 1882، كان عمره اثني عشر عاماً. «شجرة عيد الميلاد. أرقص عند آل أوسوفييف في قاعة ديفيتشي. حفلة تنكرية كبيرة. بحّة في صوتي. لم تكن هناك ليليا، وكنت أشعر بالملل. ولكن ها هي ابنة آل أوسوفييف الثالثة كاتيا، التي تروقني جداً. إنها جميلة، بشعرها الأسود، وعينيها وضفيرتها! أشعر بالملل من الكبيرة. أنا مريض. تشققات في وجهي وموضوع التعبير باللغة الروسية. لقاؤنا وهذه القصة كلها. أشتاق إلى ليليا».

في كتابه «تجربة حياتي»، لم يتذكر الأحداث الأكثر أهمية -مثل رحلته مع ميخائيل ألكسندروفيتش ستاخوف إلى دير صحراء أوبتينا في ربيع عام 1890، و«حديثه الصعب» مع والده عند العودة، الذي كتبت عنه صوفيا

أندرييفنا تولستايا في ذكرياتها- يتحدث ليف لفوفيتش بالتفصيل عن نزواته العاطفية وغرامياته في مرحلتي المراهقة والشباب. إنها ليليا أبولونسكايا، وكاتيا أولسوفييفا، وماشا كوزمينسكايا، وناتا فيلوسوفوفا، وفيرشكا سفيرتسوفا، و«كوزشكا» «اليهودية ذات الجمال النادر» التي تعرّف عليها في الأورال، والتي أعجبته، لأنها «كانت تشبه، كما كنت أتصور آنذاك، آنّا كارينينا». وهناك أيضاً ابنة السائق في محطة تلياكا بالقرب من أوفا، حيث كان يعمل خاله فياتشيسلاف بيرس. «وأهمهنّ - الفلاّحة الشابة داشا (داريا) تشيكوليفا، التي استمر حبي لها عدة سنوات، وكان في تلك السنوات حبي الأقوى».

إن قصة حب الشاب ليوفا (ليف) للفلاحة المتزوجة داريا تشيكوليفا تشبه إلى حد كبير موضوع قصة «الشيطان» التي كتبها في العامين 1889-1890، أي في ذلك الوقت تماماً عندما كان ابنه يعاني من هذا الحب. وهنا أو هناك، في القصتين، شغف الحب، باعتباره هاجساً، لا يمكن التخلص منه إلا بإخماده مؤقتاً بالجماع الجنسي. مع اختلاف وحيد هو أن حب ليوفا بقي من جانب واحد، أما شهوة بطل قصة «الشيطان» يفغيني إرتينييف بستيبانيدا فكان يتم إشباعها. لكنها قادته إلى مأزق أخلاقي أخير، يقترح عليه المؤلف منه مخرجين (صيغتين لنهاية القصة): الانتحار أو قتل ستيبانيدا. وكما يتجول إرتينييف في القرية وما حولها، أملاً بلقاء ستيبانيدا، وفي الوقت نفسه، خوفاً من هذا اللقاء، كذلك ليوفا كان يترصد داشا في القرية تارة، وفي الحقل، وفي الغابة تارة أخرى.

«ساعات كنت أنتظرها في الحقل، وعندما ألمح أخيراً من بعيد، هيئتها، كنت أشعر بفرح لذيذ. كنا نجلس مرة أخرى، أحدنا بجانب الآخر، وألمس جسدها الجميل، وأضغط على يديها الخشنتين، وما إن أسمح لنفسي بالمزيد، حتى كانت تفلت من بين يديّ، وتقفز وتهرب».

«الشيطان» هو عمل تولستوي الأدبي الأكثر صراحة عن الحب الجسدي. وحتى حيث يلجأ إلى شخصيات الصمت، فإن تهيج الشهوة الجسدية يتجلى بقوة استثنائية. ها هو البطل قد تأخر على الموعد مع ستيبانيدا في الغابة. «لم تكن هناك. ولكن كان كل شيء مكسوراً في المكان المعتاد، وحيث يمكن

أن تصل يده، شجرة البطم، شجرة الجوز، وحتى شجيرة القيقب الصغيرة الرفيعة. إنها هي كانت تنتظر، وكانت قلقة وغاضبة، وكانت تلعب تاركة له هذه الذكرى».

لكن تولستوي لا يعرف الرحمة تجاه نفسه. إنه يرى في حبه القديم إثماً عظيماً لا يستطيع التكفير عنه بسنوات. فيخفي مخطوطة قصة «الشيطان» في حشوة تنجيد الكرسي، خوفاً من أن تقرأها زوجته. أما ليف لفوفيتش فيصف حبه لفلاّحة متزوجة بألوان وردية، معجباً بمشاعره، وآسفاً لأنها بقيت دون تلبية.

«إن ذكريات ما بقي من حبي النقي الخالص لداريا ترتبط بأفضل الأشهر والأيام والساعات من حياتي الشابة، - ترتبط ببلابل الربيع وزنابق الوادي، بأجمات الغابات وظلالها، باتساع الحقول والمراعي وبالظمأ، بالظمأ المجنون للحياة والسعادة. لماذا هذا الظمأ لم يُقدَّر إرواؤه، لي ولها؟ لماذا صُرف هذا الكم من الرغبة النارية عبثاً، ولم يبق منها سوى هذه الذكريات المشرقة التي تقلقني حتى الآن؟».

إنها نظرة ليف تولستوي-الابن الناضج. وحتى من خلال «تجربة حياتي» يمكننا أن نفهم، أن ليوفا الشاب كان ينظر إلى «حالات حبه» المبكّرة (تدعى قائمة الفتيات والنساء اللواتي عرفهن وأحبهن في حياته «12 حباً في حياتي»، وهي محفوظة في أرشيف متحف ليف نيقولايفتش تولستوي) نظرة أخرى. ومثله مثل أبيه، كان ليوفا في سنوات شبابه، *يخاف* من الرغبة الجنسية.

وكان يهرب منها بالصيد على سبيل المثال، على مبدأ لا يفل الحديد إلا الحديد. «كان الصيد بالنسبة لي، إلهاءً، وفي كثير من الأحيان إنقاذاً من الأفكار عن النساء اللواتي كنّ يعذبنني بصورة متزايدة لجوجة. ومع ذلك، تمكنت من البقاء بكراً على عذريتي، رغم أنني كنت فاسداً منذ زمن طويل، من الناحية الحسية بمعنى آخر. كنت أتجنب النساء لسببين: كنت أخاف من العدوى، وثانياً، لحلمي بزواج جميل، أردت أن أحافظ قبله على طهارتي».

في أوائل التسعينيات، يخضع ليوفا لتأثير والده القوي وتأثير قصته «لحن كرويتزر». وكانت تكمن إحدى الرؤى الرئيسة لبطل «لحن كرويتزر»

بوزدنيشيف تكمن في الفكرة التالية: لماذا كان على الفتيات الحفاظ على الطهارة الجنسية قبل الزواج ولا يطلب ذلك من الشباب؟ لماذا خبرة الرجل الجنسية، المُقدِم على الزواج، لا تعتبر إثماً وخطيئة أبداً، بل تعتبر، بصورة غير علنية، ميزة إيجابية؟

بيد أن الاعتبارات الأخلاقية تصطدم باستمرار عند ليوفا الشاب مع متطلبات الطبيعة. فهو مستعد لرؤية سبب حالته المرضية في عدم إشباع غريزته الجنسية.

وها هو يكتب في يومياته في شهر كانون الأول/ ديسمبر عام 1890: «وهكذا، إن معدتي مريضة، وصحتي معتلة، ضعيفة. ولكن لا بد من قوة شخصية، وإرادة، وروح، فهذه ستعوض عن العيوب الجسدية. لماذا أنا لست قوياً في صحتي، وضعيف مثل عود الثقاب؟ أمن المعقول بسبب...؟ لا، هذا فقط صبّ الزيت على النار، وبدون ذلك، لكنت غالباً، كما أنا».

وفي رسالته إلى تشرتكوف، يعترف بأن المشكلة الجنسية تعذّبه.

«الأمور الجنسية... تثقل عليّ بشكل رهيب... أنا اليوم أعيش وأفكر بصورة أخلاقية، وغداً، وعلى الرّغم من قناعتي العميقة، بأن هذا يحرّمه عليّ الضمير، لا تفكر مثل الطبيب، أن في هذا هلاكي، أنا أتهيج عند رؤية المرأة، لدرجة أنني أنسى كل شيء، وليست لدي القوة للابتعاد عنها، أصارع نفسي وأتعذب، وأخيراً أنقذ نفسي بوسائل خارجية ما من السقوط الفعلي، وبعد ذلك أندم وأوشك على البكاء... أنا، على الأقل، ومنذ أن شعرت في نفسي بالغرائز الجنسية وحتى الآن، لم أستطع قط العيش بهدوء، وممارسة عمل ما بسلاسة وسعادة – فهي كانت دوماً تلهيني، وترغمني على أن أنسى ما هي الحياة العقلانية الحقيقية، وتجعل مني حيواناً. ولهذا السبب يجب أن أتزوج بسرعة، ولهذا يجب أن أترك الجامعة».

وقد كان يناقش هذه المشاكل الحميمة مع والده. وهاكم مدونة تولستوي في يومياته بتاريخ 19 كانون الأول/ ديسمبر عام 1988: «لقد تحدثت مع ليوفا (ليف) عن محنة شائعة – الاستمناء والكذب، التي يختفي تحتها الفجور».

واتضح أنه عندما كان الأب، بكامل قوة عقله الذي لا يقبل الحلول الوسط، وبكل قوة موهبته الأدبية، يدق إسفين الحور في المسألة الجنسية

الملعونة، مثبتاً أنه لا يمكن أن يكون هناك حب خاص من الرجل للمرأة سوى الرغبة الجنسية، كما لا يمكن أن يكون هناك زواج مسيحي - كان ابنه قد بدأ يعاني مما كان يعاني منه الأب في شبابه. كان يحلم فقط بالزواج، كما كان أبوه يحلم في شبابه. لكن هذه المعاناة العذبة والأحلام الغامضة قد تسممت باكتشافات الأب اللاحقة.

كيف كان يمكنه مواكبة أبيه؟ كيف يبرر اسمه الكبير؟ ما الجديد الذي سيقوله للناس الذي لم يقله أبوه بعد؟

يكتب تولستوي في يومياته في 31 آب/ أغسطس عام 1889: «في المساء قرأت للجميع «لحن كرويتزر». لقد أثارت الجميع. إنها ضرورية جداً... كان ليوفا مصغياً، إنها ضرورية له».

الرغبة في الانتقال وحب السفر

كتبت صوفيا أندرييفنا في 19 كانون الثاني/ يناير عام 1891: «رسالة رائعة من ليوفا؛ ولكن، يا إلهي، كم هو شديد الحساسية ومتجهم! إذا لم يكن هناك فرح في الحياة فلن يكون كمال ولا انسجام في الحياة، ولا في العمل، يا للأسف!».

وبحساسيته وتجهمه، كان أيضاً يشبه أباه في شبابه. ولم يكن عنده أيضاً هدف وانسجام. والأب أيضاً، لم يكن يجد مستقراً لنفسه... فمن جامعة قازان انتقل إلى ياسنايا بوليانا للعمل في المزرعة، ومن ثم إلى موسكو، للاحتفال والصخب، ثم - إلى بطرسبورغ، في محاولة عقيمة لمواصلة دراسته، ثم من جديد إلى ياسنايا بوليانا. وهكذا كان يتنقل من طرف إلى طرف آخر، إلى أن توجه مع أخيه الأكبر سيرغي في ربيع عام 1851 إلى القوقاز.

لكنه لم يتوجه إلى القوقاز كما يتوجهون للخدمة في الجيش، بل عامَ في البداية مع أخيه على متن قارب من ساراتوف إلى أستراخان... وكان في البداية يتصور الرحلة إلى القوقاز كرحلة مثيرة ممتعة، وعندما وصل إلى قرية ستارغلادسكايا كتب في يومياته مستغرباً: «كيف وصلت إلى هنا؟ لا أعرف. لماذا؟ أيضاً لا أعرف».

ولكن، في صيف عام 1890، عندما كان «يسيطر على ابنه القلق، وحب السفر» نظر ليف نيقولايفتش إلى هذا باستنكار. وكتب في يومياته في 4 حزيران/ يونيو: «كان لي حديث مع ليوفا حول رحلته. كنت أقول له، إنه سيّد، وعليه أن يعود إلى رشده ويتوب».

وفي شهر أيلول/ سبتمبر من العام نفسه، عندما انتقل ابنه من كلية الطب إلى كلية اللغات، كتب تولستوي في يومياته: «استلمت من ليوفا رسالة مزعجة - لا يمكنه العيش بدون خادم. غباء أخلاقي مذهل». وكان هذا أول تصريح *غاضب* مكشوف للأب عن ابنه.

والحقيقة، أن ليوفا في رسالته من موسكو إلى ياسنايا بوليانا طالب بإرسال خادم له: «... هنا منزل كامل، مصابيح، صحون، ثلاث غرف، غبار... يمكنك استنتاج أي شيء من كل هذا، أنني اعتدت على حياة الأسياد وما شابه ذلك، ولكن أرسلوا لي فاسكا. هنا عليّ أن أبحث طويلاً (عن خادم -*المترجم*) ويمكن العثور عليه، ولكن أغلى من فاسيا. فالأفضل أن ترسلوه».

ولكن، ما هو الخطأ في رغبة ابنه في الانتقال والسفر في أنحاء بلده؟ ربما، ما كان يعذّب الأب أن ابنه يكرر أفعال أبيه الشابة، بدلاً من أن ينتقل فوراً إلى تلك «القاعدة» الأخلاقية التي صاغها ليف نيقولايفتش. وكان هذا يعذبه أكثر لأنه في أعماق نفسه كان يشعر باستحالة تحقيق ذلك. ليس لأن ليوفا شاب في مقتبل العمر فحسب، بل لأنه هو نفسه ربّاه «سيداً».

يكتب تولستوي: «كنت أفكر اليوم: أنا غاضب من الغباء الأخلاقي لأبنائي باستثناء ماشا. ولكن، من هم؟ إنهم أبنائي، إنتاجي من جميع النواحي الجسدية والروحية. أنا جعلتهم، كما هم الآن. إنهم ذنوبي أمامي دائماً. ومن المستحيل أن أبتعد عنهم».

هذا في حين أن رحلة ليوفا كانت دليلاً على أنه لا يزال منشرحاً، محباً للحياة.

يكتب ليوفا في «تجربة حياتي»: «بعد أن تجولت وانتقلت منذ طفولتي في كل أنحاء ياسنايا بوليانا، أخذت بالتدريج أوسع اطلاعي على العالم،

ومنذ سنوات دراستي الأولى بدأت أسافر وأتنقل في جميع أنحاء روسيا كي أعرفها بشكل أفضل».

ومن المثير للاهتمام، أن ليوفا (ليف) كرر جزئياً، من الناحية الجغرافية، أسفار أبيه في السنوات الخمسينيات: «أولاً إلى نهر الفولغا وأوفا، والأورال، ثم إلى القوقاز والقرم». وفي صيف عام 1890 انتقل بالباخرة من نيجني نوفغورد إلى قازان، ومن ثم بنهري كاما وبيلايا وصل إلى أوفا، ومنها بقطار السكة الحديدية وصل إلى جبال الأورال ثم عاد إلى ياسنايا بوليانا. وفي صيف العام التالي، سافر على المسار التالي: أستراخان - باكو - تفليس - فلاديقوقاز - بيتيغورسك - كيسلوفودسك - نوفوروسيسك - يالطا - أوديسا. وكان قد زار أبوه غالبية هذه المدن.

وفي كل من أسفاره، كان ليوفا يتوقف في أراضي آل تولستوي في سمارى. وكان هذا أيضاً طريق سفر الأب، الذي كان طيلة السنوات السبعينيات يتوجه صيفاً إلى سهوب سمارى للعلاج بالكوميس (حليب الحِجر - أنثى الحصان -*المترجم*)، ومن ثم لشؤون المزرعة.

ورغبة منه كي يثبت لنفسه ولوالديه استقلاليته، كان ليوفا يدور في أماكن والده، ولكن بفارق جوهري، وهو أن الأب كان يخدم وتعرض لخطر الموت، أما الابن فكان يسافر ويتنقل مثل سيد.

لكن تولستوي كان مخطئاً عندما لام ابنه على «الغباء الأخلاقي». كان ليوفا يشعر بوضعه ويعاني نتيجة لهذا الوضع. ففي إحدى رسائله لأمه من نهر الفولغا، وصف لها لقاءه مع عامل القارب الذي أنهكه التعب، حيث نظر إليه وكان واقفاً على الجسر، وقال بألم: «ماذا يا سيدي، أليس من الممتع الركوب على القوارب؟».

كان يبدي حساسية كبيرة تجاه الناس البسطاء، متذكراً طيلة حياته أبسط المقاطع: «في بيتيغورسك أخذت أهتم بفتاة قوقازية أعجبتني، رتبت لي سريري في الفندق، لكنها برّدت من همتي باحتقار («تجربة حياتي») ألست شبيهاً بالأمير أولينين في قصة «القوزاق»؟

في هذه الرحلات، كان عليه بصورة لا إرادية أن يقارن نفسه بأبيه. وعندما

كان ينسى ذلك، كان الآخرون يذكّرونه. «في محطة كازبيك التقيت طبيباً قصير القامة، كان يلف السجائر ويقول باللاتينية «Omnia mea mecum porto» (كل ما لديّ أحمله معي). قلت له، إنني تولستوي، فلم يصدق ودعاني بـ «quasi شبه تولستوي»».

بحماسة شبابه، أراد أن يحقق شيئاً جديراً باسمه. وسرعان ما سنحت له هذه الفرصة. وقبل هذا عاش حدثين مهمين جداً. ففي عام واحد أصبح مالكاً للأرض وكاتباً.

«وأنا أحببته».

في منتصف شهر نيسان/ أبريل عام 1891 قدم إلى ياسنايا بوليانا جميع أبناء تولستوي الكبار من أجل مناقشة مسألة تقسيم ملكية الأب من الأراضي. كانت الحالة فريدة من نوعها. فقد كتب تولستوي كل ممتلكاته باسم زوجته وأولاده «كما لو أنني مُتُّ». فحلمه المنشود بتوزيع كل شيء على البؤساء والفقراء المعدمين لم تؤيده الأسرة. وبالنتيجة، تم في شهر نيسان/ أبريل عام 1891 إجراء عقد لا سابق له لـ «توريث» كامل ملكية رجل *على قيد الحياة*، وتم اعتماده قانونياً بعد عام. وقد تطلب الأمر أكثر من عام كي تصيغ صوفيا أندرييفنا قرار زوجها هذا بصورة رسمية، وهي تكتب عنه في ذكرياتها باعتبارها «مسألة صعبة، ومتعبة ومعقدة».

لكن الموقف كان صعباً جداً، من الناحية النفسية أيضاً. فقد كانت تدرك صوفيا أندرييفنا وكذلك جميع الأبناء البالغين، أن قرار الأب هذا لم يكن نزوة ما بل كان حلاً وسطاً توصل إليه بشق النفس بين معتقداته ومصالح الأسرة. كان تولستوي يدرك أي «قنبلة» يزرعها في العلاقات بين أنصاره وأعدائه من أسرته. والآن، كان بإمكان كل واحد أن يشير إلى الكونت بأنه رغم تبشيره بالكلمات بالتخلي عن الملكية، فقد كتب في الواقع ممتلكاته باسم أفراد أسرته وبقي يعيش «سيداً» في ياسنايا بوليانا.

من الآن فصاعداً، الشخص اللامبالي وحده لم يتهم تولستوي بالدهاء والمكر. فقد كان من المستحيل تفنيد أي شيء. كان من الضروري فهم

تولستوي بشكل عميق، وفهم وجهات نظره تجاه نفسه وتجاه الآخرين، وقراءة رسائله ويومياته، من أجل تقويم تصرفه هذا بشكل صحيح.

لقد تقاسموا التركة بسلام. وتكتب صوفيا أندرييفنا عن هذا كما يلي: «لقد وضع خطة الاقتسام ليف نيقولايفتش بنفسه؛ وأنا بصورة متعمدة ابتعدت عن هذا، وكنت أؤيد بشدة بأن يجري كل شيء بالقرعة. ولكن لم يرغب بالقرعة لا ليف نيقولايفتش ولا الأولاد، وبعد محادثات طويلة وآراء مختلفة توصلنا إلى النتيجة التالية: إعطاء سيريوجا عقار نيكولسكا، ونصفه يشكل حصة ماشا، وقد التزم بأن يدفع لها مالاً مقابل حصتها. وأعطينا لتانيا 40000 روبل كان من المفروض أن يدفعها الأبناء الأصغر من حصصهم، وعقار أفسيانيكوفو. وإعطاء إيليا مزرعة غرينيفكا التي اشتريتها أنا مع عزبة ألكسندروفسكي في قرية نيكولسكا. وإعطاء ليوفا قطعة أرض بوبروفسكي في مقاطعة سمارى ومنزل في موسكو في جادة خاموفنيكي... أما ياسنايا بوليانا فقد أعطاها ليف نيقولايفتش لي ولابننا الصغير فانشكا، وبعد موته انتقلت حصته إلى الأبناء الصبيان الخمسة. وقد باعوا الأخشاب والغابة، لكنهم لم يتدخلوا في شؤوننا نحن كبار السن، ولم يتدخلوا في شؤون ياسنايا بوليانا حتى اليوم».

من هذه العبارة المدونة تظهر حقيقة مثيرة للاهتمام. بعد وفاة فانشكا في عام 1895، بقيت صوفيا أندرييفنا غير مالكة، من الناحية القانونية. كانت تدير عزبة ياسنايا بوليانا، لكنها لم تكن مالكة هذا العقار ككل. فقد كانت ملكيتها تقتصر على المنزل وقطعة الأرض المحيطة به اللذين خصصا لها أثناء اقتسام الممتلكات في عامي 1891-1892، أما العقار الذي كان يشكل حصة فانشكا الصغير، فقد انتقل بعد وفاته إلى الأخوة الخمسة الآخرين. وفي الوقت نفسه، كانت طيلة حياتها تدعمهم بالمال. إن من غير الممكن ألا نُؤخذ *بشجاعة* هذه المرأة *وتفانيها*.

لقد جرى تقسيم الممتلكات في أسبوع الآلام. وقد كتبت تاتيانا لفوفنا في يومياتها، أن أباها عايش هذا الحدث بمعاناة شديدة. «لقد كان هذا مثيراً جداً للشفقة، لأنه كان مثل محكوم عليه بالإعدام يسرع إلى وضع رأسه في حبل المشنقة، لمعرفته بأنه لا مهرب منها». حاولت الابنة ماريا التخلي

عن حصتها من «الميراث»، لكن صوفيا أندرييفنا أصرت بأن تبقى حصتها (خمسة وخمسون ألف روبل) مع أمها وتنتقل للابنة عندما تطلبها للمرة الأولى. وهذا ما حدث. عندما تزوجت ماشا (ماريا) في عام 1897 من نيقولاي أبولنسكي، كانت مجبرة على أخذ حصتها من أمها.

مرّ اقتسام الممتلكات بسلام، لكنه مزق الأسرة. بادئ ذي بدء، انفصل تولستوي عن العائلة بكاملها، وتقاسمت صوفيا أندرييفنا مع الأبناء. ماشا أخذت بموقف الأب، وبذلك أساءت لمشاعر إخوتها وأختها تانيا الذين وافقوا على أن يصبحوا أصحاب أملاك. وبقي إيليا غير راضٍ بحصته وعبر عن ذلك.

أما الابن الصغير فانشكا فقد كان تصرفه لافتاً للاهتمام. فبحسب ذكريات إيليا، أثناء النزهة، كانت أمه تقول له، إنه هو الآن مالك ياسنايا بوليانا، فكان فانشكا يضرب الأرض بقدميه ويعترض قائلاً: «لا، يا ماما، لا تقولي إن ياسنايا بوليانا ملكي. كل شيء – ملك الجميع». لكننا نجد شهادة أخرى مختلفة تماماً في ذكريات ليديا فيسيليتسكايا، التي كانت غير مرة في ياسنايا بوليانا وتمتعت بثقة آل تولستوي.

«ذهبت مع فانشكا إلى الغابة. ركض وراءنا كلب أبيض كبير. وعندما مدحت الغابة، قال فانشكا:

– إنها غابة تشبيج. هذه غابتي. هذا كله لي. نعم، نعم. والأرض أرضي».

يبدو، أن الطفل، لعدم إدراكه ظروف الاقتسام المعقدة، كان يتصرف مع الناس المختلفين بطرق مختلفة، تارة بصفته «نصيراً» لأبيه، وتارة بصفته «ملاّكاً» فخوراً.

كان إيليا وليف من الأنصار المتحمسين لاقتسام الممتلكات. ليس من الصعب فهم دوافع إيليا. في عام 1888 تزوج إيليا من صونيا فيلوسوفوفا. وقبل اقتسام الممتلكات، كان إيليا، عملياً مشرفاً على عزبة غرينوفا التي تعود ملكيتها إلى أمه، أهداها لها زوجها. لكن أسرته الشابة لم يكن لها عقارها. وكان هذا يحزّ في نفس إيليا، وكان يطلب المال من أمه من أجل شراء عقار لأسرته، مما كان يؤدي إلى نزاعات بينهما.

أما فهم دوافع ليف فأصعب بكثير.

تكتب صوفيا أندرييفنا لزوجها: «إن ليوفا أيضاً يؤيد بشدة اقتسام الملكية، كي يصبح بصورة محددة في حياة أكثر بؤساً، ويعرف كل شخص ما لديه».

كيف يمكن فهم هذا؟ بنتيجة اقتسام الممتلكات، أصبح ليف مالكاً لثروة محترمة: منزل كبير في موسكو ومزرعة في سمارى. كانت ظروف الحياة في سمارى قاسية، لكن سهوب سمارى البكر كانت خصبة مثمرة، وقد أعطت في السنوات الجيدة محاصيل كبيرة من القمح. ومع ذلك، كان ليوفا يتطلع إلى الحياة الفقيرة البائسة. على الأرجح، كان يقصد بالحياة البائسة الحياة *المستقلة*.

وهذا أمر من الممكن فهمه.

لم ينجح ليوفا بالتشبث بوالده والالتصاق به، كما فعلت أخته ماشا وصديقه تشرتكوف. وهو نفسه لم يكن يريد ذلك. لكن العيش تحت جناح أمه كان يحطّ من كرامته. كان يتحرق شوقاً إلى ياسنايا بوليانا، لكن كل وصول إليها تقريباً كان مشحوناً بمشاحنات مع أبيه، وكانت الأم خلالها بين أسدين (بين ليف الكبير وليف الصغير). في شهر تموز/ يوليو عام 1889 تشاجرا بسبب بستان التفاح، وعندها وقفت الأم إلى جانب الابن. وفي كانون الأول/ ديسمبر عام 1890 حدث شجار آخر، بسبب ساعات تناول الطعام هذه المرة. هذا الأمر التافه، كما يبدو، قد سبب الاضطراب للأب والابن، لدرجة أن المسألة انتهت بالدموع.

«بدأ الحديث أثناء تناول الشاي بحضور دونايف حول نمط الحياة، وحول وقت وجبات الطعام؛ كان هو (ليوفا -*المؤلف*) يعاتب أمه؛ وأنا قلت إنه هو معها. فقال ليوفا، إنهم جميعاً يقولون (وهذا غير عادي) إنه لا يوجد أي فرق بين ماشا وتشرتكوف وبينه، وقلت إنه لا يعرف حتى ما هي المسألة، قلت إنه لا يعرف لا الوداعة، ولا الحب، ويعتبر الهموم الصحية هموماً أخلاقية. فوقف والدموع في عينيه وغادر... شعرت بألم شديد، وبالشفقة عليه، وبالخجل... وأحببته...».

«وأحببته...».

كم من المرات تتكرّر هذه العبارة الغريبة في يوميات الأب عندما يكتب عن ابنه! «وأحببته...» وكأنه لم يكن يحبه من قبل، وأحببته الآن - *أرغمني على أن أحبه*.

تكتب صوفيا أندرييفنا في يومياتها: «في الصباح نشرب القهوة مع ليفوشكا (الأب)، وكان هناك جدال حار مع ليوفا (الابن) حول السعادة، حول هدف الحياة، وبدأ بحديث ليوفا عن تغيير الطعام وعموماً عن عدم رضاه عن أشكال *حياتنا*. قال له ليفوشكا (الأب) بذكاء وبشكل جيد، إن كل شيء يتوقف علينا نحن، وعلى حياتنا في *الداخل* وليس في *الخارج*...».

وقعت صوفيا أندرييفنا في حيرة من أمرها. في هذه الحالة، كان الجدال يتعلق بها، في المقام الأول، لأنها هي التي كانت تدير شؤون منزل ياسنايا بوليانا، وتغيير ساعات تناول الوجبات ليس أمراً تافهاً، بالنسبة لها. على ما يبدو، هذا ما كان يقصده الأب، عندما قال، إن الابن والأم معاً، أي أن الاثنين يوليان أهمية مفرطة للطعام. وقد حاول الابن أن يثبت لأبيه أنه إنسان، مثله مثل ماشا وتشرتكوف... ومفهومٌ انزعاجه من أبيه الذي خصّ ماشا وتشرتكوف لأنهما يخدمانه بتفان. أما الأب فإما أنه لم يقدّر انزعاج ابنه حق التقدير، وإما أراد أن يصب الزيت على النار، واتهم الابن بأنه يعتبر اهتماماته الصحية اهتمامات أخلاقية. وقد كانت هذه قرصة مؤلمة، لأنه في تلك الفترة بدأ ليوفا يعاني من مشاكل صحية. كان يشتبه بالتهاب غشاء معدته المخاطي، وبحسب اللغة الطبية المعاصرة، التهاب المعدة. وبسبب هذا حدث الجدال مع الأب: فقد أفرط ليوفا في أثناء تناول طعام الفطور المتأخر (كان آل تولستوي يتناولون طعام الفطور ظهراً)، حيث أكل أوزة، ملفوفاً مع البشاميل، وشعر بوجع في معدته. ويعترف في يومياته: «أكتب عن الطعام، لأنني أهتم به. ولدي بالإضافة إلى الذاكرة، معدة شنيعة، وهنا يأكلون كثيراً، بحيث يبدو لي أنني أعاني من التهاب في غشاء معدتي. وهذه نقطة ضعفي، كما يقولون لي، وما العمل، إنها حقيقة، وقد تكون نقطة ضعف».

وبعد شهر يكتب لأمه من موسكو: «ماما العزيزة، يبدو لي أنك مضطربة وفي مزاج قلق... أنا بصحة جيدة، رغم أن الجميع يقول لي، إنني أنحف، وهذا يحيّرني، وبالفعل، صحتي تقلقني باستمرار».

وعندما وصل ليف في شهر آذار/ مارس عام 1891 إلى ياسنايا بوليانا أصيبت أمه بالرعب! «ليوفا مخيف جداً، نحيف، حليق الشعر، ووجهه حليق كله، لا يأكل غير البيض ويحاول دوماً شرب الحليب، إنه في وضع مريب جداً».

لقد كانت هذه بداية مرض عصبي حاد لاحظته الأم على الفور... ولماذا لم يلاحظه الأب؟

أو أنه لاحظ، ولكن لم يولِه أهمية كبيرة، وفق قناعاته؟ وإلا فما معنى أشكال الحياة الخارجية بالمقارنة بالحياة الداخلية؟ أو أن تولستوي كان قد أدرك أن ابنه محكوم؟ ولكن ليس من الناحية الجسدية بل من الناحية الداخلية النفسية. ولن ينتج منه أي شيء! وكل حركاته وركضه وأعصابه والتهاب معدته ليست سوى نتيجة التهافت الداخلي لإنسان يحمل اسم ليف تولستوي، نتيجة سوء فهم. ربما لهذا السبب طُعن الأب، عندما بكى ليوفا فجأة وغادر المائدة؟ وربما لهذا كتب «وأنا أحببته»؟

نحن نعرف شيئاً واحداً مؤكداً: كان ليوفا يريد حقاً أن يصبح ملاّكاً، وقد أصبح ملاّكاً. وأصبح ملاّكاً في تلك اللحظة التي تخلى فيها الأب عن الملكية. وقد نال ما طرحه الأب عن نفسه باعتباره رجس العالم، ولكن ليس أبعد من داخل أسرته نفسها. وكان هذا تناقضاً رهيباً وبداية نزاع عائلي بلا نهاية. لكن ليوفا لم يكن يدرك هذا. كان سعيداً لأنه أصبح مستقلاً، بل رجلاً ثرياً، تماماً كما كان الأب سعيداً عندما حصل بعد اقتسام التركة مع إخوته على *ملكية* ياسنايا بوليانا.

كان محكوماً على ليوفا أن يسير على خطا أبيه، عندما كان أبوه يذهب بعيداً وبعيداً أكثر... وهذا ما حصل بالنسبة للأدب والكتابة.

السيد لفوف

في 8 آذار/ مارس عام 1891 كتبت صوفيا أندرييفنا في يومياتها: «تلقينا كتاب شهر آذار/ مارس من مجلة «كتب الأسبوع» وفيه قصة ليوفا الطويلة. ولأول مرة ينشرون له شيئاً ما باسم *ل. لفوف*. لم أقرأ القصة مرة ثانية لأن

الكتاب استلمته اليوم، وكنت في تولا. أنا مهتمة جداً بكتابة ليوفا، وخاصة بمستقبله. هل هذه الظاهرة عرضية من انطباعات وأخبار ظواهر الحياة التي لم يكن يعرفها، أم أنها بداية نشاطه الأدبي؟ سيكون من الرائع لو أصبحت هذه قضية حياته، عندها سوف يحب الحياة ذاتها. إن صحته ومظهره أصبحا أفضل، لكنه لا يزال نحيفاً جداً».

في عدد شهر آذار/ مارس من مجلة «كتب الأسبوع» ظهرت قصة ليف تولستوي القصيرة «الحب». ليف تولستوي-الثاني. ليف تولستوي-الابن. استحى من ذكر اسمه الحقيقي، واختفى خلف اسم مستعار «ل. لفوف»، أي كما يبدو اختصاراً لـ «ليف لفوفيتش».

لقد كان هذا حدثاً هاماً للغاية في حياة الشاب. ولكن، ولسخرية القدر المريرة، هذا الحدث جرى في العام نفسه الذي تخلى فيه الأب عن دور الكاتب المحترف.

ففي 19 أيلول/ سبتمبر نُشرت في صحيفة «روسكيي فيدوموسيتي» رسالة تولستوي حول تخليه عن حقوق التأليف.

«السيد المحترم. نتيجة الطلبات المتكررة التي تصلني حول السماح بنشر وترجمة مؤلفاتي وإخراجها إلى المسرح، أرجو أن تنشروا في صحيفتكم إعلاني التالي:

أمنح لجميع الراغبين الحق بالنشر بدون مقابل في روسيا وفي الخارج، باللغة الروسية وبالترجمة إلى لغات أخرى، وبالإخراج إلى المسرح لجميع مؤلفاتي التي كتبتها *منذ عام 1881* ... وكذلك لجميع مؤلفاتي وأعمالي التي لم تنشر في روسيا والتي يمكن أن تظهر بعد هذا اليوم».

هذا أيضاً كان حلاً وسطاً مع زوجته، لأنها احتفظت بحق النشر والحصول على الأرباح من جميع مؤلفات زوجها المكتوبة *قبل عام 1881*، أي من «الطفولة» و«المراهقة» و«الشباب»، ومن «قصص سيفاستوبول»، ومن «القوزاق» و«الحرب والسلام» و«آنا كارينينا» وغيرها. لكن هذا الحل الوسط كان أشد قساوة من جانب تولستوي من اقتسام الممتلكات في ربيع العام نفسه. فقد انحصرت حقوق صوفيا أندرييفنا في مؤلفاته

القديمة المنشورة التي أعيد نشرها عدة مرات، أما كل ما كتبه تولستوي بعد عام 1881، أي منذ بدء انقلابه الروحي، وكل ما كتبه بعد ذلك أصبح حقاً مكتسباً للجميع. أي جميع *الناشرين*، لأن تولستوي لم يستطع إلغاء حق جميع الناشرين في بيع كتبهم ومجلاتهم. فهو لم يحصل منهم على أية أموال، وبالتالي أثرى ناشريه السعداء. وقد نتج أمر غريب: فقد كان بإمكان الناشرين زيادة ثروتهم على حساب مؤلفات تولستوي، دون دفع المكافأة المستحقة للمؤلف أو لأسرته، ولم يكن باستطاعة أسرته ذلك.

لقد كان هذا تناقضاً مزدوجاً. أولاً، أن تولستوي، لم يتخلّ بصورة نهائية عن حقوقه. وصوفيا أندرييفنا استمرت في الحصول على الأرباح من المجموعة القديمة من مؤلفات زوجها، الذي استمر في العيش معها واستخدام هذه الأموال بشكل أو بآخر. فياسنايا بوليانا لم تكن مزرعة مربحة. وكانت مؤلفات تولستوي القديمة، في الواقع، المصدر المادي الوحيد لحياة الزوجين وأولادهما غير الراشدين. وثانياً، بتخليه عن حقوق التأليف والمكافآت، وضع تولستوي الأموال في جيوب الناشرين بدلاً من توزيعها على الفقراء، على سبيل المثال.

إن التخلي عن حقوق التأليف كان بالنسبة لتولستوي، أكثر إيلاماً من تقسيم الملكية. وليس من قبيل الصدفة أنه أقدم على التخلي بعد اقتسام الملكية. لقد كانت محاولة لقطع ذيل الأفعى بطريقتين.

قبل ثلاثة أيام من وصول العدد الجديد من مجلة «كتب الأسبوع» مع النشر لأول مرة لابن تولستوي، بدأت تستفحل بين ليف نيقولايفتش وصوفيا أندرييفنا عاصفة الشجار المقبل. فقد تحدثت إلى زوجها عن نشر «لحن كرويتزر» في المجلد الثالث عشر من مؤلفاته التي *أصدرتها*. لقد كان من الصعب الوصول إلى رفع الحظر عن نشر هذه القصة، ولهذا الغرض، طلبت زوجة تولستوي مقابلة القيصر، وقد تمت المقابلة في أوائل نيسان / أبريل من العام نفسه. لقد فعلت صوفيا أندرييفنا كل ما هو ممكن من أجل نشر قصة «لحن كرويتزر»، التي لقيت نجاحاً ورواجاً بين الجمهور، في مؤلفات تولستوي التي تنشرها. ولم يثر نشاط زوجته كناشر لدى تولستوي إلا الانزعاج. وقد كتب في يومياته في 5 آذار/ مارس: «تتحدث صونيا عن

الطباعة والنشر، دون أن تدرك مدى صعوبة هذا بالنسبة لي. نعم إنني أشعر بألم خاص بسبب هذا، لأنني أشعر بانقباض شديد في نفسي».

كان من الصعب عليه أيضاً لأن صوفيا أندرييفنا طالبته بوعد بأن لا ينشر إعلانه في الصحيفة حول التخلي عن حقوق النشر قبل صدور المجلد الثالث عشر. فقد أرادت أن تجد الوقت الكافي لتكسب المال من «لحن كرويتزر»!

وفي اليوم التالي تماماً بعد أن امتلأت رفوف الكتب في ياسنايا بوليانا بقصة تولستوي-الابن، أعلن ليف نيقولايفتش لزوجته أنه سينشر في الصحف تخلّيه عن حقوق التأليف. وهذان الحدثان لم يكونا مرتبطين بعضهما ببعض. ولكن، من الغريب أنه قبل يومين من هذا دار حديث غامض بين الأب والابن حول «الوراثة». يكتب تولستوي في يومياته: «كان (ابنه -*المترجم*) يصرّ على أنها (أي الوراثة -*المترجم*)، بالنسبة لي، اعتراف بأن الناس ليسوا متساوين في قيمتهم الداخلية (leur valeur intrinseque)، وهو تماماً كأن تقول لعالم الرياضيات أن الآحاد (جمع 1 -*المترجم*) ليست متساوية. إن هذا تدمير لعلم الحياة كله. طيلة الوقت أشعر بالحزن، والكآبة، والخجل».

لا نعرف ما قاله ليوفا في دفاعه عن مبدأ الوراثة. ولكن يمكننا التخمين بحذر، ما كان يقصده بذلك ابن الكاتب الكبير.

إن تولستوي شبيه بالدب المقيد بأحابيل السلاسل. ابنه يتحدث عن «الوراثة»، أما زوجته... «هذا الصباح قلت لصونيا بصعوبة، وبقلق، إنني سأعلن عن حق الجميع بطباعة مؤلفاتي. ورأيت أنها استاءت. ثم عندما عدت، كانت كلها مخضبة باللون الأحمر، غاضبة، وأخذت تقول إنها ستطبع... رغماً عني. حاولت تهدئتها، لكن السيئ في الأمر، أنني نفسي كنت قلقاً مضطرباً وخرجت. بعد الغداء، اقتربت مني، وأخذت تقبّلني وتقول، إنها لن تفعل شيئاً ضدي، واستسلمتْ للبكاء. شعرت بسعادة كبيرة. ساعدني يا رب».

وقد كتبت صوفيا أندرييفنا عن هذا الموضوع أيضاً في يومياتها: «يجلس اليوم ليفوشكا (زوجها -*المترجم*) يتناول طعام الفطور، أحضروا من كوزلوفكا الصحف والرسائل، أنا أقول: «لم تصلني بعد أخبار عن المجلد الثالث عشر». فرد علي ليفوشكا قائلاً: «وعلام تبذلين جهدك، فأنا سأكون

مضطراً لنشر أنني أتخلى عن جميع حقوقي لمؤلفات المجلد الثالث عشر». فأجبته قائلة: «ولكن انتظر، ريثما يصدر». قال: «بالطبع». ثم خرج، وأنا أخذت أغتاظ غضباً لأنه يريد أن يأخذ مني فرصة الحصول على القليل من المال الإضافي، الضروري لجميع أولادي. وفكّرت بأن أقول له عبارة حاقدة، عندما خرج ليفوشكا للنزهة قلت له: «أنت ستنشر أنك تتخلى عن حقوقك، وأنا هنا أنشر، وآمل أن الجمهور حساس ومؤدب لدرجة أنه لن يستغل الحقوق الخاصة بأطفالك». وأخذ يثبت لي عدم تأدبي، بصورة مخففة؛ فلذت بالصمت. ثم قال لو كنت أحبه لنشرت بنفسي هذا التخلي عن حقوق مؤلفاته الجديدة. وخرج، فشعرت بالشفقة والأسف تجاهه، وبدت لي المصالح المادية تافهة جداً بالمقارنة بذلك الألم الذي أشعر به من اغترابنا المتبادل أحدنا عن الآخر. بعد الغداء، قلت له إنني آسفة لأنني قلت له كلاماً مزعجاً، وإنني لن أطبع شيئاً، وإن أغلى شيء عندي أن لا أكدّره. واستسلمنا كلانا للبكاء، هنا كان يقف فانشكا، وأخذ يسأل خائفاً: ماذا؟ ماذا؟ قلت له: «ماما أزعجت بابا، وقد تصالحنا». فاقتنع وأصدر صوت: «آ».

لكن هذه كانت مجرد بداية الدراما العائلية. انتظر تولستوي صدور المجلد الثالث عشر، فذكّر زوجته بأن إرادته لم تتغير وهو يكتب رسالته إلى الصحافة. وهنا اندلعت الفضيحة في ياسنايا بوليانا. فصرخ على زوجته: «اخرجي، اخرجي!» وهي هددته بالانتحار - وكيف! كتبت ملاحظة على ورقة بأنها سترمي بنفسها على قضبان السكة الحديدية، كما فعلت آنّا كارينينا. حتى إنها ركضت إلى محطة كوزلوفكا لتنفيذ هذا القرار، ولكن أعادها صهرها كوزمينسكي الذي وصل في تلك اللحظة على متن القطار.

في مثل هذا السياق العائلي *أسعد* الشاب ليف لفوفيتش الجميع ببداية نشاطه الأدبي. فهل كانوا مستعدين لهذا الخبر؟ وإلى ماذا كان يطمح؟ إلى أي تعاطف؟!

حتى نكون عادلين، لم يكن الأب غير مبال تماماً بتجاربه الأدبية. فقد كان قد قرأها قبل نشرها، عندما كانت مخطوطة، وقوّمها أحياناً بصرامة، ولكن باهتمام.

في 4 كانون الثاني/ يناير عام 1891 كتب ليف لفوفيتش في يومياته: «بابا

مشغول ويكتب كثيراً. أنا أيضاً أريد أن أكتب. قصة «الحب» تحدث انطباعاً، يجب طباعتها، رغم أن الكثير لم يعد يروقني. مع ذلك، يجب أن أفعل مثل فيكتور هيغو - أن أتعلّم من مؤلفاتي التالية، لا أن أكتفي بعمل واحد. يمكن كتابة أشياء كثيرة. ولكن، لماذا؟ وهل هناك من هو بحاجة إليها؟ هل هناك من يوضح لي».

كان الأب في هذا الوقت ينظر إلى الأدب من الأعلى إلى الأسفل ويكتب «ملكوت الله في داخلكم». ومع ذلك، بذل جهده كي يشجع ابنه. ولكن ليس على حساب النقد.

وقد أخذ موقفاً إيجابياً جداً من قصة ليوفا القصيرة الثانية «مونت - كريستو» التي صدرت في عدد نيسان/ أبريل من مجلة الأطفال والوالدين «رودنيك» (الينبوع) في عام 1891 تحت الاسم المستعار «ل. لفوف». وهي قصة أخلاقية تتحدث عن صبي ادخر المال لشراء آلة عزف موسيقية هوائية، وعندما جمع تسعة روبلات أعطاها لمتسولة احترق بيتها، وذلك بتأثير أخلاقي من أبيه الذي كان يشاهد ذلك من النافذة وبارك تصرف ابنه. قالت المتسولة: «شكراً لك، يا ملاك؛ إن الله لن يتركك!».

القصة القصيرة جميلة ومشرقة مثل جميع مؤلفات ليف لفوفيتش اللاحقة حول موضوع الطفولة. ولكن عندما نقرأه لا يمكننا الانفصال عن الشعور بأنه ليس الله من هدى هذا الشاب بل أبوه الذي كان يراقبه من النافذة.

كتب ليوفا (ليف) لتشرتكوف فرحاً: «لقد عرضت قصتي القصيرة على أبي، واستحسنها، رغم أنه وضع عدة ملاحظات وقال إنها مكتوبة دون خبرة، لكن مضمونها جيد، وأنه لو كان في عمري لما اختار الكتابة في هذا الموضوع، بل كان سيكتب عن اللصوص وقطاع الطرق على سبيل المثال. وقال لي أن أتابع الكتابة وصحح لي القصة، وحتى إنه نفسه يريد سرقة هذا المضمون مني والكتابة في هذا الموضوع...».

وبالفعل، نجد في يوميات تولستوي بتاريخ 8 نيسان/ أبريل عام 1891: «عند قراءتي لكتابة ليوفا، خطر في ذهني: تربية الأبناء، أي إفسادهم، وأنانية الوالدين ومراءاتهم. قصة مثل إيفان إيليتش».

ليس من الواضح تماماً، ماذا قصد تولستوي، وكيف ارتبطت في ذهنه قصة للأطفال بقصة «موت إيفان إيليتش». وهذه الفكرة لم تتحقق. لكن الابن حصل على دعم من الأب.

ولكن، أوَلم يسترضِ تولستوي ابنه؟ إلى هذه الفكرة تقود رسالته التي كتبها لابنه في شهر شباط/ فبراير عام 1891: «أمك وصلت سعيدة جداً بك، فهذا يبعث فيها الكثير من المسرة، وحدثتني عن قصتك التي كتبتها للأطفال. يعجبني موضوع قصتك أيضاً، وهو ليس مبتذلاً، ولا خوف من أنه مألوف. لا شيء جديد وكل شيء جديد. - سيكون من الممتع قراءتها».

لننتبه إلى أن الأم هي أول من قرأ القصة القصيرة، في الوقت الذي كانت فيه مهمومة بحالة ابنها الذي سيطرت عليه اللامبالاة والخمول، وكان يسرها أي مظهر من مظاهر الإبداع فيه. فهل كان باستطاعة تولستوي توبيخ ابنه؟ إن هذا كان سيعني ليس الإساءة إلى الابن فحسب، بل وتكدير زوجته مرة أخرى. وهذا في ظل ذلك الجو المشحون الذي كان سائداً في الأسرة.

لكن قصة «الحب» القصيرة لم تعجب الأب قطعياً. عندما علم من ابنه ليوفا، أن الناشر دميتري نيقولايفتش تسرتلييف رفض نشرها في مجلته «المجلة الروسية روسكوي أوبزرينيي» كتب تولستوي لابنه: «الآن بالنسبة للقصة: لو كنت مكان تسرتلييف لما نشرتها أيضاً. المهم، هناك نقيصتان: الأولى - البطل غير جذاب ولا شيق، ولا يسترعي الاهتمام والتعاطف، والمؤلف ينظر إليه بتعاطف؛ والثانية: حديث الطالب يؤثر بصورة غير مريحة على القارئ، ومواعظه غير طبيعية. البطل غير جذاب ولا شيق لأنه سيد ابن سيد، وليس واضحاً في سبيل ماذا يجتهد على نفسه، كأنه من أجل نفسه فقط. ولهذا فإن سخطه ضعيف ولا يأسر القارئ».

في حين أن موضوع قصة «الحب» القصيرة للابن يذكّرنا بشكل غريب برواية «البعث» لتولستوي-الأب. وقد أوحى لتولستوي بفكرة «البعث» في عام 1887 المحامي أناتولي فيودوفيتش كوني، وفي صيغتها قبل النهائية كان تولستوي يسميها «قصة كوني». بدأ تولستوي بكتابة الرواية في أواخر عام 1889، وفي أواخر عام 1890، أُنجزت الرواية في صيغتها الأولى. لكن

تولستوي لم يكن في عجلة من أمره في نشر الرواية، وكان يرجع إليها ويعدّلها مراراً، ولم ينجزها في صيغتها النهائية إلا في نهاية التسعينيات. وبالطبع، كانت الرواية تُناقش في مسار كتابتها وتأليفها في أسرة تولستوي، بحكم العادة المتبعة. وكان من الممكن أن يكون ليوفاً حاضراً خلال هذه المناقشات.

يذهب طالب كلية الطب فلاديمير زفيريف، دفعاً للملل عن نفسه، إلى الغرف المفروشة حيث توجد العاهرة ليوبا، المدمنة على الكحول. وبعد رحيل زفيريف تموت ليوبا نتيجة التسمم بالكحول. يُدعى زفيريف إلى مشرحة الجثث من أجل «تشريح جثة مهمة». ويتعرف برعب شديد على ليوبا في جثة المرأة الشابة. قال طالب «سمين، متورد» أثناء الكشف عن الجثة: «كانت جميلة في حياتها، كان جسدها رائعاً!» وابتسم «ابتسامة حلوة، بلهاء». عندئذ انفجر زفيريف! «أوغاد، أنتم جميعاً وحوش!... وأنا مثلكم!... جسدها رائع! أتعرفون من هي؟ أتعرفون من قتلها؟ أنا قتلتها، أنتم قتلتموها، وبالضبط، كما قلتم الآن، هو من قتلها «كانت جميلة في حياتها!» أي حيوانات نحن، أي أوغاد!».

إن صحوة زفيريف تذكرنا إلى حد كبير بصحوة الأمير نخليودوف في رواية «البعث»، عندما يرى في المحكمة كاتيوشا ماسلوفا التي أغواها، والتي أصبحت عاهرة. إنه يقول عنها، وهو يعرضها على الزبائن: «طازجة، ريفية». في بداية الرواية، يصف تولستوي صباح نخليودوف بصورة مفصلة وبإدانة واضحة: يدخن السجائر الباهظة الثمن، يغتسل ويستحمّ، يجفف جسمه بمناشف مختلفة، يشرب القهوة، يفكر بالزيارات التي سيقوم بها...

بداية قصة «الحب»: «أولاً، في الصباح، نهض من جديد متأخراً، ووبخ خادمه مرة أخرى لأنه لم يوقظه في الوقت المناسب، ومن جديد تأخر على الجامعة... بعد القهوة التي شربها في الساعة الواحدة، دخّن من جديد عدة سجائر، رغم أنه كان يقرر كل يوم الإقلاع عن التدخين، وذهب للقيام بزيارتين ضروريتين، عازماً على العودة بعدهما فوراً إلى البيت والدراسة حتى الليل. بدلاً من ذلك، عرّج على معارفه المقربين في طريق العودة، وتناول عندهم طعام الغداء». كانت وجبة الغداء دسمة، ولهذا انجذب مساء إلى العاهرة.

إن قصة ليوفا (ليف) القصيرة، إن لم تكن مكتوبة تحت تأثير رواية

«البعث» التي لم تكن قد أنجزت بعد، فقد كُتبت حتماً تحت تأثير قناعات الأب الأخلاقية. حتى إن الابن قد أدرك بشكل صحيح بعض ملامح جماليته الجديدة. ولكن، وكأنه أسرع بقول كلمته في *روح أبيه*. غير أن القصة كانت مكتوبة بصورة باهتة، إرشادية، وبدون ذلك الصوت الثاقب من الإدانة الذاتية والتوبة، وهو الأكثر قيمة في رواية الأب. عند الابن ليوفا الجميع مذنبون. الجميع أوغاد! وهو، الطالب زفيريف، أفضل من الآخرين، لأنه يعترف بذنبه رغم كل شيء. وهذا بالذات، لم يرق للأب.

إن نقده ليس موجهاً للكاتب، بل لابنه. إنه لم يكن ينقد القصة، بل كان يلمّح لابنه ليوفا أنه لن يصبح كاتباً على الإطلاق، ما لم يتغير من الداخل. لكن هذه كانت متطلبات عالية جداً بالنسبة لكاتب مبتدئ.

كان ليوفا يريد النجاح، والاعتراف به ككاتب! وقد أساءه رأي «عمه سريوجا»، سيرغي نيقولايفتش تولستوي. «إنه يقول كل شيء من عند أبي، غريب عني، لذلك يتأسف لأنهم نشروا القصة ليس لأنها جيدة بل لأنني ابن أبي. وهذا غير صحيح أولاً كما يبدو لي؛ وثانياً، لقد حاولت إرسال قصصي القصيرة إلى «المجلة الروسية - روسكويي أوبزرينيي» بدون اسم وانتظرت ستة أشهر ولم يصلني أي جواب، إلى أن ذهبت بنفسي، ولم أذكر اسمي. ولكن رئيس التحرير تسرتيليف بعد أن قرأ قصتي لم يقبلها، لذلك فإن قبول نشر قصتي «الحب» (في مجلة «كتب الأسبوع» -*المؤلف*) لأنني ابن أبي، ليس له أي أساس. ولماذا عليّ أن أخفي نفسي؟ وما هذا الامتياز؟ إن رئيس التحرير هو الذي يخالف ضميره وليس أنا. ومع ذلك، فإن العم سريوجا حيّرني أكثر من الآخرين وأربكني، حتى إنني كنت أفكر بالأمس بأن أجمع كل ما كتبته وأحرقه، وأتوقف عن الكتابة. ولكن صباح هذا اليوم سمعت صوتاً قدرياً يقول لي إنه علي أن لا أتوقف عن الكتابة وأن الكتابة قدري. والغريب في الأمر، وعلى الرّغم من أن أبي وأخوتي وأخواتي، باستثناء أمي، لم يكتفوا بعدم تشجيعي فحسب، بل على العكس، يعبرون عن موقفهم المعارض والمتردد، ويلوذون بالصمت، على الرّغم من هذا، فإنني منجذب إلى الكتابة، وفي لحظات الفراغ أحلم بمسرحيات كاملة تدور في رأسي. الزمن سيُظهر لنا...».

المشكلة، أنه جادل حول حقيقة لا تقبل النقاش. فقد نشروا قصته، بالدرجة الأولى، لأنه «ابن الأب». وقد كان رئيس تحرير «كتب الأسبوع» بافل ألكسندروفيتش غايدنبورغ من محبي أدب تولستوي. وفي مجلته بالذات، كان من المفترض أن تصدر قصة تولستوي الطويلة «لحن كرويتزر» لولا حظر الرقابة لها. وفي 27 نيسان/ أبريل عام 1890 زار غايدنبورغ شخصياً ياسنايا بوليانا والتقى بتولستوي.

ومن كان باستطاعة «ل. لفوف» أن يخدع، فلم يكن الأب وحده، بل أسرته كلها كانت في موضع الاهتمام العام؟ حيث أية نميمة، مرتبطة بياسنايا بوليانا تغدو على الفور في متناول الصحف؟ لذلك، في شهر أيار/ مايو عام 1890 اضطر أبناء تولستوي الكبار إلى نشر دحض في صحيفة «الوقت الجديد - نوفوي فريميا» للتقرير العام للسينودس المقدس:

«السيد م.غ. المحرر المحترم.

بتاريخ 8 أيار/ مايو نشرتم في «نوفوي فريميا - الوقت الجديد» مقتطفاً من التقرير الأعلى للمدعي العام للسينودس المقدس لعام 1887 بخصوص انتشار رؤية الكونت ل. ن. تولستوي للعالم ومعتقداته الأخلاقية في ضاحية كوتشاكوفسكي، والتي قرأنا فيها، بالإضافة إلى أشياء أخرى، أن الكونت تولستوي لم يعد يملك الإمكانية لتقديم المساعدة للفلاحين، بالمقادير السابقة، من ممتلكاته، لأن أبناءه الكبار بدأوا بالحد من تبذيره وملاحقة أفعاله ضد ممتلكاته، ولم يعودوا يسمحون له بالتصرف بوحشية بممتلكاته.

دون التطرق إلى كل ما تبقى من تقريره، نشير إلى أن والدنا يقدم المساعدة فقط لقاء *العمل الشخصي*، ومن هذه الرؤية لا مكان لأي تبذير، وهذا ما يظهر من كتاباته، وكذلك من تقرير السيد المدعي العام، الذي يقول، إن الكونت تولستوي يقدم المساعدة *للفلاحين على عملهم*، ونحن أبناء الكونت ل. ن. تولستوي الكبار، نرى أن من واجبنا الإعلان في الصحف، أننا لسنا فقط لا نسمح لأنفسنا أبداً بالحد من تبذير والدنا، فهذا ما لا نملك أي حق به، وأيضاً نعتبر أن أي تدخل من جانبنا في أعماله أمراً مخالفاً للاحترام.

سيرغي، إيليا، ليف تولستوي».

دقة هذه المسألة كانت تكمن في أن الأبناء لم يكن باستطاعتهم فعلاً الحد من «تبذير» الأب، حتى إذا ما أرادوا ذلك. ولم يكن عندهم آنذاك أية حقوق قانونية. لكن صوفيا أندرييفنا، التي كانت تدير بالفعل مزرعة ياسنايا بوليانا على أساس التوكيل الذي أعطاه لها زوجها في عام 1883، كانت تحاول جاهدة الحد من هذا «التبذير».

عندما وصل ليوفا في 11 كانون الأول/ ديسمبر عام 1890 إلى ياسنايا بوليانا، ووجد العائلة في حالة نفسية مضنية («كان وجه بابا يعبر عن الحزن والاستياء. إنه «يضحي بنفسه»). لم يعلق على هذه المدونة في مذكراته. لكن الجميع في الأسرة كان يعرف ما هو موضوعها.

لقد كانت صوفيا أندرييفنا مضطرة لتسليم فلاحي ياسنايا بوليانا الذين قطعوا ثلاثين شجرة من أشجار البتولا في منطقة التشجير إلى المحكمة. وفي يوم 11 كانون الأول/ ديسمبر بالذات جاؤوا يطلبون الرأفة والعفو من السيد، إما لعدم معرفتهم أن السيد لم يعد مسؤولاً عن إدارة المزرعة وأن السيدة هي التي تدير كل شيء، وإما لجأوا إلى حيلة الفلاحين المألوفة، فالسيدة قد لا توافق لكن السيد طيب! بيد أن صوفيا أندرييفنا أصرت على المحاكمة، ووقعت في أحبولة مكرها: فليحاكموهم أولاً، وليخيفوهم، وبعد ذلك ستسامحهم! ولكن قرار المحكمة لم يستطع حتى المدعي الطعن فيه. وأمضى الفلاحون ستة أسابيع في السجن.

ومن سخرية القدر، أن هذه الرسالة الجماعية كانت أول ظهور لليوفا في الصحافة. وأول ظهور لاسمه الحقيقي في الصحف. وقد أثارت اهتماماً عاماً أكبر بكثير من القصص القصيرة للسيد لفوف.

وفي 21 أيار/ مايو عام 1891 كتب تولستوي لابنته ماريا: «البارحة كان عيد ميلاد ليوفا. وقد نسيه الجميع، وأعتقد أنه كان حزيناً».

مكتبة
t.me/soramnqraa

الفصل الرابع
في سنوات الجوع

«من سنبلة إلى سنبلة – لا يسمع الصوت».
• قول مأثور عن الموسم السيئ

الإرهابيون

في شهر تموز/ يوليو من عام 1891 وقع حدثان مصيريان لليف لفوفيتش. ولكن إذا كان الحدث الأول مصيرياً بالمعنى المباشر، فإن الحدث الثاني كان، في الغالب، تنبؤياً.

الأول: لأول مرة يواجه جائحة شعبية رهيبة –القحط، سوء الموسم، الذي كان يعِد بمجاعة رهيبة في الخريف والشتاء والربيع. لقد صدمته صورة هذه الكارثة لدرجة أنه فكر، مرة أخرى، حول ماذا يمكنه أن يفعل هو، ليف تولستوي–الابن، لإنقاذ عشرات الآلاف من الناس–الرجال، والنساء، والشيوخ، والأطفال– من الموت جوعاً. وكيف يمكنه العيش سيداً إلى جانب هؤلاء جميعاً...

والحدث الثاني، التقى، للمرة الأولى، بالإمبراطور الروسي المقبل.

ولكن في البداية سنتحدث عن الحالة التي كان فيها ليف لفوفيتش في هذه الفترة. كان أمام مفترق طرق، وليس أمامه أي خيار. ثمة طريق واحد واضح، لكنه لا يريد السير فيه، ولم يكن ثمة طريق آخر بعد...

إنه يريد ترك الجامعة، ولا يجرؤ على اتخاذ القرار. مهنة الكتابة، التي

لم تدعمها الأسرة بشكل كاف، وبخاصة أبوه، تبدو له هشة. الخدمة في البحرية، كما كان يعتقد (غالباً لحبه للرحلات أكثر من حبة للخدمة في البحرية) لم تنجح.

ولكن، ها قد لاح الأمل بأن يحيا حياة الملاّك، بعيداً عن الوالدين، في سهوب سمارى. وكان قد حلم بهذا قبل عام، عندما كتب لأمه رداً على تساؤله: ماذا أعمل إذا لم أدرس في الجامعة؟ «القرية، القرية والقرية. من هناك لا بد من القصف، وإذا لم تستطع، فعليك أن تجلس بهدوء وستكون هادئاً على الأقل وستفعل أكثر». ماذا قصد بكلمة «القصف»؟ محاربة الظلم، تحسين ظروف حياة القرية، والانخراط في تثقيف الفلاحين...

لقد كانت الأفكار ذاتها التي دفعت أباه لترك الجامعة والتوجه إلى ياسنايا بوليانا. وفي شهر نيسان/ أبريل عام 1891، أصبح ليف لفوفيتش، بحكم الواقع، ملاّكاً إقطاعياً. وقد حصل على أحد عقارات سمارى في منطقة بوزولوك. وبالطبع، ما إن سنحت له الفرصة، حتى ذهب إليه، لمشاهدته.

واللافت للاهتمام، أن الأب الذي نظر باستخفاف إلى دراسة الابن الأكبر سيرغي في الجامعة، وهذا ما أساء إليه بشدة، كان يصر بصورة قطعية على الابن الثالث بأن لا يترك الجامعة. ففي نيسان/ أبريل عام 1891، كتب لزوجته في موسكو: «تلقيت بالأمس رسالة قصيرة من ليوفا. إنه نشيط، رغم أنه يشتكي ثانية من معدته. تحدثت معه عن جامعته. وقد قال إنه سيترك الجامعة، وأنا أوحي له بأن هذا سيكون ضاراً، وسابقة antecedent سيئة، ستضعفه، وأن هذا غير جيد، صحياً وأخلاقياً. ورأيت بفرح في الرسالة، أنه يدرس ويجد متعة في ترجمة شيشرون، الذي كان يتحدث بملل عنه سابقاً. وقد تذكّرتك، فأنت على حق، عندما تقولين إنه يتأثر بسهولة، وإنه يجب الحديث دوماً معه، وهذا ما فعلته. عموماً، هو طيب جيد، وليكن الله في عونه».

يمكننا أن نفهم من هذه الرسالة، أن *مشكلة ليوفا* كانت مطروحة في الأسرة بصورة حادة للغاية. فقد تحول بين يوم وليلة من صبي ذكي، حيوي إلى شاب بدون مستقبل محدد، والأهم، شاب مريض لا يُعرف ما هو مرضه.

لهذا، لم يفرض عليه الأب متطلبات زائدة - الأفضل أن يدرس في الجامعة! في الوقت نفسه، لم يستطع أن لا يشعر بأنه أكثر أبنائه الذكور روحانية. وقد كتب تولستوي لأولغا ألكسييفنا بارشيفا وماريا ألكسندروفنا شميدت في 22 أيار/ مايو عام 1891: «إن ليوفا هو أقرب الجميع إليّ بعد ماشا. إنه يمضي قدماً، ويعيش. لا أعرف ماذا سيحدث، لكنني أشعر بالسرور بالتواصل معه».

لكن ليف لفوفيتش نفسه، لم يكن يعرف ماذا سيحدث له. وفي الوقت نفسه كان يدرك أنه ضعيف. ويحلم في الوقت نفسه بمستقبل عظيم.

وها هو يكتب في يومياته: «أنا أرى العالم، ليس كالآخرين، علاوة على ذلك، أرى كل شيء وأدركه، وللحقيقة، لدي من القوة والاهتمام أقل من الآخرين، أقل من أبي على سبيل المثال، لكنهما ينموان ويتطوران، كالعضلات. وإذا كنت أنا لست كاتباً، إذا لم تكن لدي قدرات للكتابة، فإن لدي عملاً أهم وأعظم بكثير. لقد أجّلت خياري، لأن كل شيء نحو الأفضل في هذا العالم...».

ولكن، حتى ذلك الوقت، كانت الأمور تسير بعيداً عن التحسن. ولأول مرة توجه إلى مقاطعة سمارى، بصفته ملاّكاً للأرض، اصطدم بتلك المسألة الأخلاقية التي حاول أبوه حلها دون أي نجاح.

إن رسالته إلى والدته، المؤرخة في 14 تموز/ يوليو عام 1891 تستحق الذكر بكاملها تقريباً، لأن فيها يُسمع ولأول مرة صوت ليف لفوفيتش الناضج، الذي تحول خلال أيام معدودات من شاب إلى رجل ناضج...

«احترق كل شيء، بحيث يصعب حتى جمع البذور. الفلاحون يعيشون في فقر مدقع. يقبلون العمل بأبخس الأجور، كي لا يموتوا جوعاً. هذه هي المرة الأولى التي أرى فيها هذه الظاهرة. عند ألكسي ألكسييفيتش (بيبيكوف - الملاّك الإقطاعي المجاور -*المؤلف*) استأجروا عمالاً بروبل و 75 كوبيكاً فقط لحصاد القمح من الهكتار الواحد. وفي باتروفكا استأجر فلاح عمالاً لأرض سيده مقابل روبل و25 كوبيكاً ورطل من القمح مقابل حصاد هكتار القمح، وكذلك دفع للملاك صاحب الأرض 15 كوبيكاً عن كل عامل مقابل القمح. وهكذا فمن أجل أن يعملوا كان عليهم أن يدفعوا

بدل أن يُدفع لهم. عموماً، هنا –ليس كما في تولا– هذا العام، بعد عدد من سنوات الجوع، سيذلّ الشعب كلياً. البارحة تحدثت مع فلاحي باتروفكا واستغربت موقفهم من هذا الأمر. إنهم يتباهون بوضعهم ويضحكون على أنفسهم. إنهم يقولون:

– حسناً، سنحصد القمح، ونأكله خلال شهر، وبعدها؟ سوف نموت.

وقد رد عليهم غريغوري مكسيموفيتش (ناظر سمارى –*المؤلف*) بأن الحكومة ستساعدهم.

فيقولون:

– حسناً، هذا. لكن الدعم سيئ، ولا يمكننا أن نضع أملنا فيه؛ فأية بذور هناك، وقد يعطون بذوراً غير قابلة للإنبات، فسنبقى بدون خبز على الإطلاق.

باختصار، الوضع هنا صعب للغاية، والعزاء الوحيد في أن يخرج الإنسان من جميع المصائب، أو فليمت الفلاحون، وهذا ما يفعلونه دوماً، انهم يموتون، ليس جسدياً، بل روحياً.

إلى جانب هذا كله، يا أمي العزيزة، هناك مزرعتنا. وهي تكمن في سحب آخر قرش، أو رأس قطيع، أو خبز من الفلاح مقابل الأرض التي استأجرها منّا، والتي لم تجلب له شيئاً. غريغوري مكسيموفيتش يسعى بجد للشراء على النحو التالي: يبقى القمح والعلف في الحقل، إلى أن يدفع الفلاحون له المال، فيبيع الفلاحون ماشيتهم بسعر زهيد للغاية. لذلك فإن غريغوري مكسيموفيتش – ناظر جيد جداً، ويعد بإعطاء الفلاحين إذا لم يطالبوا الآن 8–10 آلاف روبل. فيستأجر الفلاحون الأرض. حان وقت الحصاد. ليس لديهم المال، فيدفعون له آجار الأرض قمحاً. وفي الربيع نحن نبيع القمح بسعر مضاعف، وبذلك يتضاعف الدخل. إن حصاد مزروعاتنا مرضٍ جداً بالمقارنة مع الآخرين، فهو لا يغطي التكاليف فحسب، بل وقد يعطي ربحاً حوالي 1000 روبل. علاوة على ذلك، فإن المراعي والأراضي مؤجرة بمبلغ 8 آلاف، ولهذا فقد يكون هناك دخل. بيد أن كل هذا تقديريّ.

أولاً، ترين مدى صعوبة أخذ آخر ما يملكه الفلاحون، وثانياً، محصولنا قد يعطي أقل بكثير. من كل هذا، وكعادتي دائماً، أستنتج أنه من المستحيل

إدارة المزرعة، لأن هذا إثم كامل، وهتك كامل للضمير. إنني أخدع نفسي عندما أقول إن الأمر ليس هكذا على الإطلاق كما يبدو لي: الفلاحون يكذبون، ويتسولون، ولديهم ما يدفعونه لي، ولكن عندما تدرك كل هذا، ترى كم أنت مخطئ، وتشعر بالخجل.

البارحة سافرت إلى بابروفكا، لمشاهدة ثرواتي المستقبلية. تبعد من هنا حوالي 40 فيرستا (الفيرستا 1060 متراً -*المترجم*). وصلنا إلى بيت الفلاح جدانوف، أحد مستأجرينا، وشربنا عنده الشاي. وقد حدثنا أنهم «مرهقون» ويريدون التخلي عن الاستئجار.

في داخلي اثنان. أحدهما يقول، ببساطة، جيد، والآخر - رديء. أحدهما يرى ويقول، إنه من القبح تكوين ثروة، فهو يعرف أنه من ربح أعمال الصالحين لن تبني قصوراً من حجر؛ وآخر جشع ونشيط، مفعم بالحيوية، يقول إليك الفائدة، الفائدة، حيث يمكنك أن تكسب المال لنفسك، وينتج عنده أن هذا مغر وممتع للغاية. هذان السيدان، الموجودان في داخلي، لا يحب أحدهما الآخر، بالطبع. لا أعرف من سينتصر منهما، ما أعرفه حتى الآن أنهما كليهما في داخلي، وكل منهما يطالب بحقوقه...».

كتب ليف لفوفيتش في ذكرياته اللاحقة: «في هذا العام حدث جفاف رهيب في روسيا. حقول القمح ماتت من جذورها، وحدث هذا في سهوب سمارى بالمعنى الحرفي للكلمة. «من سنبلة إلى سنبلة لم يكن يُسمع صوت الإنسان». لقد تشققت الأرض السوداء، بحيث تشكلت شقوق كان من الضروري القفز من فوقها في بعض الأماكن. وجفت جميع الآبار والبرك حتى القاع، واقتربت مجاعة لا سابق لها... في القرى، عندما نزلت في غافريلوفكا أو في باتروفكا، أحاط بي الفلاحون قائلين إن نهايتهم قد حانت. في هذه الأماكن يعيش الشعب على الخبز وحده حصراً. وفي الموسم السيئ - ليس لديه خبز ولا مال...».

بهذا المزاج التقى ليف لفوفيتش أخاه الأكبر سيرغي الذي قدم إلى مزرعة سمارى بتكليف من أمه. في ذلك الوقت، كان يعبر سهوب سمارى الإمبراطور الروسي المقبل الأخير ولي العهد نيقولاي ألكسندروفيتش.

كان عائداً من رحلته الطويلة إلى الشرق، التي أُوليت في القصر أهمية رمزية كبيرة لها. ولا تقتصر أهمية الرحلة على أن وريث العرش البالغ من العمر اثنين وعشرين عاماً توجه برحلته الأولى إلى العالم وإلى روسيا – فمثل هذه الرحلات التعليمية التربوية كانت متبعة منذ عهد بطرس الأكبر. كان *القسم الشرقي* بالذات من هذه الرحلة مهماً. وبحسب قول الأمير إسبر إسبيروفيتش أوختومسكي، الذي رافقه، فإن الإمبراطور القادم توجه «إلى ذلك الاتجاه، حيث يمتد الطريق التاريخي الذي يتحرك فيه الشعب الروسي».

استغرقت هذه الرحلة قرابة عام. فمن فيينا توجه وريث العرش إلى مدينة ترييست (في إيطاليا –*المترجم*) ومنها إلى اليونان، ومن ثم إلى مصر. ومن مصر – إلى بومباي، وعبر الهند إلى سيلان. وزار جاوة وبانكوك، ووصل إلى نانجينغ وقام برحلات في الصين. وفي اليابان تعرض لمحاولة اغتيال، بالقرب من كيوتو، وقد أصيب بجروح. ومن فلاديفوستوك سافر عبر الشرق الأقصى إلى سيبيريا والأورال، وعاد إلى سانت–بطرسبورغ من أورينبورغ بالقطار.

أراد ليف وسيرغي بالطبع، رؤية وريث العرش الشاب، وإن أمكن أن يُقدّما له. وكانت المزرعة المفروض أن يبيت فيها في طريقه إلى أورينبورغ، تبعد أربعين فيرستا (كم –*المترجم*) عن قرية بيبيكوف، حيث كان يعيش ليف. لكن الأمير أوختومسكي، الصديق المقرب من سيرغي، رفض بحزم هذا الطلب، وقال إن الوريث متعب للغاية، كي يتحدث مع أشخاص جدد. وفي المحصلة، كان بإمكانهما إلقاء نظرة سريعة عليه.

احتفاءً بقدوم وريث العرش إلى مزرعة متواضعة، تم بناء منزل كبير بإنارة كهربائية. وقد كتب ليف لفوفيتش: «عندما وصلنا إلى القرية، حيث كانوا ينتظرون وريث العرش، وقفت في حشد الشعب بالقرب من الكنيسة الخشبية الريفية. ظهرت من بعيد سحابة من الغبار الأسود، ثم ظهرت رؤوس وطواقم الجياد المتعرقة الراكضة بجنون، وعدة عربات ترويكا الروسية مع الأجراس الصغيرة اندفعت إلى القرية، وتوقفت فجأة بالقرب من الكنيسة. وكان الوريث أول من قفز من عربته. مرّ بالقرب مني إلى رواق الكنيسة، وهو ينظر بدهشة إلى زيّي الطلابي الموحد بالأزرار الذهبية وسط الشعب، ودخل إلى الكنيسة بسرعة».

يمكن الافتراض أن وريث العرش الشاب نيقولاي لم يكن متفاجئاً، فحسب بل وقلقاً، إن لم يكن خائفاً من وجود ليف لفوفيتش. فالطلاب لم يكونوا أبداً دعامة أو ركيزة للحكم الروسي المطلق. وبعد محاولة اغتيال نيقولاي في مدينة أوتسو اليابانية، حيث وجه له شرطي الساموراي ضربتين بالسيف على رأسه (أنقذه من الموت بأعجوبة الأمير اليوناني غيورغ الذي كان إلى جانبه)، كان يمكن لولي العهد أن يشك بمحاولة اغتيال جديدة عند رؤيته فجأة طالباً... بين الشعب!

يبدو أن ليف لفوفيتش لم يفهم هذا. وكان غير راض من أن وريث العرش لم يرغب بالالتقاء بالأخوين تولستوي. «لقد كان هذا انطباعي السيئ الأول عن حاشية وريث العرش نيقولاي ألكسندروفيتش، وأملي بأن أتعرّف إليه وأن أعمل معه يوماً لمصلحة روسيا - قد تكدر بهذا على الفور...».

بالاختلاف عن أبيه، كان ليف لفوفيتش في شبابه، يعلق أهمية كبيرة على إمكانية تعارفه مع العائلة القيصرية. وهو، بذلك، كان أقرب إلى أمه منه إلى أبيه. فقد كانت صوفيا أندرييفنا تفتخر بلقاءاتها مع أفراد الأسرة الإمبراطورية. ذلك أن والدها وعمها كانا من أطباء القصر الإمبراطوري. وقد ترك لقاؤها الأول مع الإمبراطورة ماريا فيودوروفنا، زوجة ألكسندر الثالث، وأم ولي العهد نيقولاي في شهر شباط/ فبراير عام 1885 انطباعاً قوياً في نفس صوفيا أندرييفنا. وقد تم التعارف بصورة عرضية، في معهد نيقولايف النسائي الذي كانت تترأسه يكاتيرينا عمة صوفيا أندرييفنا.

في مذكراتها «حياتي» وصفت صوفيا أندرييفنا بإيجاز شديد لقاءها الأول مع ممثلة الأسرة القيصرية الحاكمة. ولكن من رسالتها إلى زوجها بتاريخ 21 شباط/ فبراير 1885 من بطرسبورغ، حيث كانت مع ابنتها الكبرى تاتيانا، يمكننا أن ندرك كم كانت متحمسة لهذا الحدث.

«أجلس معها (مع السيدة شوستاك -*المؤلف*)، نتحدث، فجأة يقولون: «الإمبراطورة!» قلت: «أروني إياها من أي مكان». قفزت يكاتيرينا نيقولايفنا كالسهم وصاحت: «عكّازي بسرعة» (كانت ساقها مريضة، تسير بالارتكاز على العكاز)، ثم خاطبتني «Sophie, restez - ابقي يا صوفيا»»،

وركضت... انتظرنا، انتظرنا، انتظرنا، فجأة سمعنا همهمة وضوضاء، وصراخاً: «إنها قادمة». تسرع سيدة تحمل دفتر ملاحظات وتقول على وجه السرعة: «L'impeuratrice fera une visite a` Madame Schostak - الإمبرطورة ستقوم بزيارة إلى مدام شوستاك». شعرنا بالحرج، ولكن سرعان ما مرّ الموكب على مقربة منا. اعتقدت أنه سينتهي على هذا الشكل، لكن يكاتيرينا نيقولايفنا صاحت: «صوفيا تعالي أنت وتانيا». اقتربت، وقدمتني إلى الإمبراطورة، ثم دعت تانيا، وهنا قلت: «ma fille ابنتي». أعترف بصراحة أنني كنت قلقة جداً - لكنني لم أرتبك. سألتني: «Il y a longtemps que vous etes arrive? - هل وصلت إلى هنا منذ فترة طويلة؟». فأجبتها: «Non,Madam, depuis hiers seulement - لا، يا سيدتي، منذ البارحة فقط». ثم ذهبنا إلى القاعة. توجهت الإمبراطورة نحوي مرة ثانية قائلة: «Votre marie se porte bien - كيف صحة زوجك؟» فقلت: «Votre Majeste,est bien bonne , il se porte bien - يا صاحبة الجلالة، إنه طيب جداً، في صحة جيدة». سألتني: J, espere qu, il ecrit quelque chose - آمل أنه يكتب شيئاً ما... فأجبتها: «لا يا سيدتي، لا يكتب الآن، ولكن يبدو أنه سيكتب شيئاً ما للمدارس، من نوع «بم يعيش الناس». وهنا تدخلت يكاتيرينا نيقولايفنا وقالت: «لن يكتب روايات بعد الآن، هذا ما قاله للكونتيسة ألكسندرين تولستايا». وخاطبتني الإمبراطورة قائلة: «أفلا ترغبين بهذا، إن هذا يدهشني». فقلت: «آمل أن أبناءك يا صاحبة الجلالة، قد قرأوا كتب زوجي. فهزت برأسها وقالت: «Oh, je crois bien - أجل، بالطبع». ثم جلست وبدأ الغناء وسرعان ما غادرت».

كانت صوفيا أندرييفنا راضية عن نفسها. فقد تمكنت من الاحتفاظ بماء وجهها، مذكّرة الإمبراطورة بأنها زوجة كاتب كبير، حيث بكى زوجها المكلل بالتاج عندما كان مراهقاً، لدى قراءته لكتاب زوجها «قصص سيفاستوبول» (وهنا ربما كان المعنى المزدوج لسؤال: هل يقرأ أطفالك ليف تولستوي؟)؛ ومؤازرة حديث علية المجتمع دون تجاوز حدود الحشمة والأدب. فلو أنها تجاوزت هذه الحدود لقالت لماريا فيودوروفنا (الإمبراطورة -*المترجم*) إنه في هذا الوقت - في شتاء عام 1885 تم حظر طباعة كتاب تولستوي

«إذن، ماذا علينا أن نفعل؟». حيث تم سحبه من التنضيد الجاهز للطبع في مجلة «الفكر الروسي - روسكايا ميسل». وفي هذا الشتاء بالذات، صدر في باريس، مترجماً إلى الفرنسية كتاب تولستوي: «ماهي عقيدتي» - وهو أيضاً محظور في روسيا. كما أن قدوم صوفيا أندرييفنا إلى بطرسبورغ بحد ذاته، كان مرتبطاً بحظر الرقابة للمجلد الثاني عشر من مؤلفات زوجها.

لكن صوفيا أندرييفنا تصرفت بشكل صحيح. فالحديث عن هذا للإمبراطورة كان غير لائق، وبلا معنى. لأن مسائل الرقابة لا تدخل في نطاق نفوذها. ولكن، مما لا شك فيه، أن تولستوي قطب جبينه، أثناء قراءته لرسالة زوجته هذه.

في رسالته الجوابية، علق تولستوي على هذا اللقاء بسخرية: «كوستنكا (ك. آ. إيسلافين - عم صوفيا أندرييفنا -*المؤلف*) كان عندي في الصباح، وليولا (ليف) قرأ للتو رسالتك، وعند مقابلته له، قال ليولا: تحدثتْ ماما مع الإمبراطورة. قال كوستنكا، دون تردد: الآن، يمكنني أن أموت بسلام. أطلق عبدك الآن يا رب».

أما اللقاء الفاشل للأخوين تولستوي مع ولي العهد فقد انتهى بشكل غريب، وخطير للغاية. فقد قرر الأخوان تولستوي اللحاق بولي العهد وحاشيته إلى أورينبورغ...

«نزلنا في فندق، وبدأنا يومنا بجولة في المسجد الشهير في المدينة. وكان يهتم بالمسجد بصورة خاصة صديقنا البشكيري نجيم، الذي اصطحبه معه سريوجا كخبير في الخيول. عند خروجنا من المسجد، لاحظنا أشخاصاً غرباء كانوا جالسين هنا وهناك على الساحة، يراقبوننا. اقتربنا من مقعد فارغ، وجلسنا نستريح. اقترب فجأة أحد هؤلاء السادة النبلاء الغرباء، وكان يرتدي ثياباً نظيفة ويجلس إلى جانبهم، من أخي سيرغي وسأله باحترام، لماذا أتينا إلى أورينبورغ.

- من أجل أن نرمي القنابل - قال سريوجا بغضب، ناظراً بحقد إليه من تحت نظارته.

حدث انطباع غير عادي، وكأن قنبلة رهيبة انفجرت فعلاً. جرت حركة غير عادية في الساحة، وأخذ الناس يهربون إلى مكان ما، وعندما عدنا إلى

الفندق، كان يقف على مدخله وعلى الدرج رجال الشرطة، وكانت غرفتنا مختومة بالشمع الأحمر. وطُلب منا التوقيع بمغادرة المدينة بأسرع وقت، وقد وقّع سريوجا على هذا الطلب، وأنا رفضت التوقيع، ورحلنا إلى المحطة، دون أن يتوفر لدينا الوقت لمشاهدة الخيول وشرائها.

وقد كان حزيناً بصورة خاصة نجيم، الكريم والجميل، الذي كان يهز بصمت رأسه، المزين بقلنسوة مطرّزة مذهّبة. حيث كان يهمس قائلاً:

- حسناً، وهل هذا ممكن... ذلك، ذلك، ذلك، ذلك».

بعد هذا بقليل، توجه ليف لفوفيتش من سمارى في رحلته الثانية في روسيا. عندما عاد إلى ياسنايا بوليانا، وجد أن الجو هناك *يخلو من السرور*. «فقد تابعت تعاليم الأب وموقفه من الحياة تسميم الجو».

كُونت، ابن كُونت

تقول فاليريا أبروسيموفا، كاتبة سيرة ليف لفوفيتش، إن الأب «فاتته لحظة التقارب الأكبر مع ابنه الناضج». للأسف، هذا صحيح. إن عمل الأسدين (ليف الأب وليف الابن) في المجاعة أصبح من أكثر صفحات سيرة الأب والابن إشراقاً، ووقت اختلافهما الجديّ «الراشد» الأول فيما بينهما. وما كان من المفروض أن يقرّب أحدهما من الآخر أصبح موضع جدال.

كان يمكن للابن أن يفخر بأنه أدرك ضرورة مساعدة الجائعين قبل الأب. فعندما عاد من جولته الثانية في روسيا، حدّث أفراد أسرته عن الجائحة التي تلوح في أفق سهوب سمارى. كما أن رسالته المذكورة أعلاه إلى أمه، قد قرأها أبوه، بلا شك، وذلك حسب العادة المرعية في أسرة آل تولستوي (وإذا كانت الرسالة مخصصة لفرد واحد من الأسرة، كان يُكتب في أعلاها «اقرأها وحدك» على سبيل المثال).

ليس ليف لفوفيتش وحده، بالطبع، كان يعرف حقيقة أن بعض المقاطعات الروسية كانت تهددها المجاعة الجماعية. فقد كانت تناقش على نطاق واسع في المجتمع، وكانت موضوع المناقشات الصحفية الساخنة. وجميع الناس المتعلمين كانوا يدركون ضرورة مساعدة الفلاحين. إن لم يكن لاعتبارات

أخلاقية فلاعتبارات عملية. فالفلاحون كانوا عماد روسيا، وكل ملاّك عاقل راشد كان يدرك، أن الفلاح الذي يموت جوعاً لن يطعم مالك العقار. لكن تولستوي-الأب كانت لديه وجهة نظره في هذه المسألة.

هذا قد يبدو غريباً، لكن تولستوي قبل خريف عام 1891 لم يكن يرى ضرورة إنقاذ الفلاحين. وتجلت راديكاليته الأخلاقية هنا بالشكل الأكثر تناقضاً. إن الطبقة المتعلمة هي المذنبة والمتسببة في حدوث الجوائح والكوارث الشعبية، ولهذا بالذات فالطبقة المتعلمة لا تملك الحق الأخلاقي لمساعدة الجائعين. فمن يأكل على حساب الفلاحين لا يحق له إطعام الفلاحين أنفسهم.

وعندما كتب له ليف نيقولايفتش ليسكوف (كاتب وروائي روسي 1831-1895 -*المترجم*)، أنه «يظهر الآن في كثير من الأماكن موسم سيئ للقمح، يهدد بالمجاعة»، رد عليه تولستوي برسالة عرض فيها للمرة الأولى موقفه في هذه المسألة. وكان يرى أن جمع المتعلمين الأموال وشراء القمح للجائعين -هو إغراء وخطيئة صريحة. «لو أن هذا القمح الذي كان والموجود الآن، أو تلك الأرض أو الأموال الموجودة قسّموها بحيث لا يبقى جائعون، فمن الصعب التفكير، أن هذا القمح أو الأموال التي سيعطونها الآن- سيقسمونها بشكل أفضل. إن تلك الأموال التي سيجمعونها من جديد وسيوزعونها ليست سوى إغراء جديد...».

فما العمل إذن؟ كان تولستوي يجيب على هذا السؤال:

«عمل الخير ليس في إطعام الجائعين بالخبز، بل في محبة الجائعين والشبعانين. والمحبة أهم من الإطعام، لأنه يمكنك أن تُطعم دون أن تُحب، أي تفعل الشر للناس، ولكن لا يمكنك أن تحب دون أن تطعم...».

وفي هذه الفترة، فكّر بكتابة مقالة كبيرة «حول المجاعة» وقد أنجزها في شهر تشرين الأول/ أكتوبر عام 1891، وأرسلها إلى مجلة «قضايا الفلسفة وعلم النفس». وكانت مجلة واسعة الانتشار في تلك الفترة. وقد تم تنضيد المقالة، لكن الرقابة فرضت الحظر على عدد المجلة. ونُشرت المقالة للمرة الأولى باللغة الإنكليزية في كانون الثاني/ يناير عام 1892، في صحيفة «الديلي تلغراف Daily Telegraph».

في هذه المقالة، عرض تولستوي نظرته بصورة أدبية مجازية، إلى مساعدة الجياع:

«طفل رضيع يريد إطعام مرضعته؛ الطفيلي – هو ذلك النبات الذي يتغذى منه! نحن، الطبقات العليا، الذين *نعيش على حسابه*، ولا يمكننا أن نخطو خطوة *بدونه*، نحن سوف نطعمه! في هذه الفكرة بالذات ثمة شيء غريب جداً.

أُعطيَ الأطفال حصاناً – حصاناً، حياً، حقيقياً، وهم ذهبوا للركوب في العربة التي يجرها هذا الحصان والاستمتاع. انطلقوا، وساقوه بعيداً، طويلاً، انحداراً وصعوداً. وتصبب العرق الغزير من الحصان الطيب، وأخذ يختنق، وكان ينقلهم ويحملهم، ويطيعهم؛ والأطفال يصرخون ويشجعون، ويتفاخرون فيما بينهم من يقوده أفضل، ومن يندفع، ويقفز عليه أفضل. كان يبدو لهم، كما هو الحال دائماً، أنه عندما كان الحصان يقفز أنهم هم أنفسهم يقفزون، وكانوا يتفاخرون بقفزاتهم...

مرح الأطفال طويلاً واستمتعوا، دون التفكير بالحصان، متناسين أنه كائن حي يعيش، ويكدح، ويعاني، وإذا ما لاحظوا أنه توقف، لوّحوا بالسوط بقوة أكبر، وجلدوه وصرخوا عليه. لكن لكل شيء نهاية. وحلت النهاية وأخذت قوى الحصان الطيب تنهار وتتوقف، على الرّغم من السوط. هنا فقط، تذكر الأطفال أن الحصان كائن حي، وتذكروا أن الجياد تُسقى وتُغذى، لكن الأطفال لم يريدوا التوقف، وأخذوا يفكرون، كيف يمكن إطعام الحصان راكضاً. أحضروا عصا طويلة وربطوا في نهايتها دريساً وقدموه للحصان من مقعد العربة مباشرة. بالإضافة إلى ذلك، لاحظ اثنان منهم أن الحصان يترنح، فأخذا يسندانه، وسنداه بأيديهما من الخلف، كي لا يسقط إلى اليمين أو إلى اليسار. فكر الأطفال في أشياء كثيرة، ولكن لم يفكروا قط بما كان يجب بادئ ذي بدء، أن يخطر في أذهانهم – أن ينزلوا من العربة، ويتوقفوا عن ركوب الحصان، وإذا كانوا يشفقون عليه فعلاً، يفكونه من العربة ويعطونه حريته».

كان استنتاج المؤلف بسيطاً: «الشعب جائع لأننا متخمون».

عندما أعيد نشر مقتطفات من هذه المقالة مترجمة عن الإنكليزية إلى

الروسية من جديد في صحيفة «موسكوفسكي فيدوموستي» أرفقت هيئة التحرير هذه المقتطفات بتعليق جاء فيه أن مقالة تولستوي تعد دعوة لـ «الاشتراكية الجامحة». ومع التنديد الواضح بروح هذا التصرف، فإن هيئة التحرير كانت محقة، من حيث الجوهر. وكانت هناك دعوة في مقالة تولستوي، بلا شك، للاشتراكية المتطرفة.

وليس من قبيل الصدفة، أن المقالة لم تقبل في داخل روسيا، حتى من قبل نيقولاي ياكوفليفيتش غروت، رئيس تحرير مجلة «قضايا الفلسفة وعلم النفس»، الذي كان يرغب بنشرها، وكتب لمؤلفها تولستوي: «إن مقالتك مليئة بالسخط والغضب والاحتقار للأغنياء».

وقد أثارت المقالة غضب الفيلسوف نيقولاي فيدوروفيتش فيودوروف. فعند لقائه بالمؤلف، لم يعطه يده لمصافحته. ومن الممكن تفهم دوافعه. فبنفيه لحق المثقفين بـ «الإطعام» من قبل الفلاحين، ينفي تولستوي الحق في الثقافة.

كما أربكت المقالة ابنه ليف، فقد كتب: «إنني أوافقك على كل شيء، باستثناء بعض الأماكن التي يبدو لي أنك لا تراعي ما تقترحه بنفسك في نهاية المقالة - الوداعة والمحبة لجميع الناس بدون استثناء ذوي القمصان المنشاة وقمصان القنّب (يقصد المثقفين -*المترجم*)».

وهنا ربما يكمن الاختلاف الرئيس بين الابن والأب. إن ليف الشاب كان مستعداً لمساعدة الجياع. لكنه لم يكن مستعداً لإدانة نفسه لأنه يأكل من عمل هؤلاء الفلاحين الجائعين. وكما انقسم في رسالته إلى أمه إلى مسيحي وملاّك - كذلك في موقفه من مقالة أبيه لم يستطع الاعتراف براديكاليته الأخلاقية.

وخز الضمير

في رسالة تولستوي إلى ليسكوف المذكورة أعلاه حول المجاعة الشعبية، تسترعي الاهتمام جملة تقلب الحجج المنطقية السابقة حول أن المُطعَمين لا يملكون الحق الأخلاقي بتقديم الطعام لمن يُطعمهم. «... المسألة ليست في إطعام الجائعين بالخبز، بل في محبة الجائعين والشبعانين. والمحبة أهم

من الإطعام، لأنه يمكنك أن تُطعم دون أن تُحب، أي تفعل الشر للناس، ولكن لا يمكنك أن تحب دون أن تطعم...».

ولكن إذا كنت لا تستطيع أن تحب ولا تطعم، إذن عليك أن تطعم! وإلا، فما معنى هذا الحب؟

وتولستوي يتصرف بالفعل على هذا الشكل. ضد ما يؤكده في مقالته «عن المجاعة».

لكن هذا يجري ليس أبداً لأن تولستوي أعاد النظر في رؤيته بشأن هذه القضية، كما يقال أحياناً في الأدبيات المكرسة لهذه المرحلة من حياته. فماذا يعني: أعاد النظر في رؤيته؟ كان تولستوي أبعد بكثير من أن يكون فتى ناشئاً في هذه القضية. وكان منذ عام 1873 قد رأى في مزرعته في سمارى ما سوف يذهل ابنه بعد عشرين عاماً. ومنذ تلك الأثناء شارك مشاركة حيوية للغاية في مكافحة المجاعة، ليس فقط دون ازدراء اللجوء إلى مساعدة الأغنياء فحسب، بل وكتب نداء لهم من خلال صحيفة «موسكوفسكيي فيدوموستي».

«بعد أن عشت جزءاً من الصيف الحالي في أعماق ريف مقاطعة سمارى وكنت شاهد عيان للجائحة الرهيبة التي حلت بالشعب، نتيجة السنوات العجاف الثلاث، وخاصة السنة الحالية، أرى من واجبي أن أصف بصورة صادقة قدر استطاعتي الوضع البائس لسكان الريف في هذه المنطقة وأدعو جميع المواطنين الروس إلى تقديم المساعدة للشعب المنكوب».

لكتابة هذه الرسالة، قطع تولستوي على العربة دائرة نصف قطرها سبعون كيلومتراً من المزرعة التي كان يعيش فيها مع أسرته، وتنقّل في جميع القرى المحيطة بها. وبعد أن كوّن انطباعاً عاماً عن الكارثة الزاحفة، تجوّل ووصف بالأرقام حالة ثلاث وعشرين عزبة من قرية غافريلوفكا القريبة. وهذا الوصف الذي تم تصديقه من مختار القرية، أرسله تولستوي إلى الصحيفة، لكن تولستوي أدرك فيما بعد أنه ارتكب خطيئة. فقد كان يصف واحدة من عشر من العزب، معتبراً أن هذا كاف للدلالة على الكارثة، وبالمحصلة، لم يأت الكثير من التبرعات إلا إلى عناوين العزب المذكورة.

بالإضافة إلى النداء المنشور في الصحيفة، توجه تولستوي برسالة إلى

عمته ألكسندرا أندرييفنا تولستايا، وصيفة الشرف في البلاط الإمبراطوري، وذات النفوذ الكبير على الإمبراطورة. وفي هذه الرسالة ناشد ضمير الأغنياء وأصحاب النفوذ. «إذا كنتم تريدون ويمكنكم إثارة اهتمام ذوي القوة والإرادة الخيّرة في العالم، والذين هم ذاتهم لحسن الحظ، فإن القضية ستنجح».

بم كان يسترشد تولستوي؟ فقط بمعاناته الداخلية مما رآه وإدراكه لما قد يحدث في وقت قريب. «لا أحب الكتابة برأفة، لكنني أعيش في هذه الدنيا منذ 45 عاماً ولم أر شيئاً مشابهاً ولم أكن أعتقد أنه يمكن أن يحدث. عندما تتصور بصورة حية ماذا سيحدث في الشتاء فإن شعر رأسك ينتصب. لقد تمت كتابة الرسالة بالفعل الآن –وعرفنا أن الفلاح الشاب- الحصّاد قد أُصيب بمرض الكوليرا. لا يوجد أي طعام سوى الخبز الأسمر الرديء، ولو لم يكن هذا موجوداً بالقرب منا لمات هذا الرجل بسبب نقص التغذية الجيدة للمعدة الضعيفة. وهذا لافت ومثير للشفقة بصورة خاصة لمن يدرك هذا الصبر للإنسان الروسي وتواضع معاناته، وهدوئه وخضوعه. لا وجود للغذاء الجيد، ولا داع للشكوى. والموت هو إرادة الله. بالتأكيد ليسوا غنماً، لكنهم ثيران طيبة قوية تحرث ثلمها... تسقط – فيجرونها بعيداً، وتشد المحراث ثيران غيرها...».

وجاء في الرسالة ذاتها: «... أناس طيبون، جيدون، أصحاء جسدياً ومعنوياً، عندما يعانون من الحرمان يشعر جميع الكائنات بالشفقة عليهم، ويشعر الإنسان بوخز الضمير والألم عندما ينظر إلى معاناتهم».

لقد تجاوزت نتائج جهود تولستوي جميع التوقعات. ووصل إجمالي الأموال الواردة من الأفراد إلى مليون وثماني مئة وسبعة وستين ألف روبل، ومن القمح واحد وعشرون ألف بود (البود= 16 كغ). وبتأثير عمته، شاركت كذلك زوجة القيصر ماريا ألكسندروفنا في هذه المساعدة، مما زاد من حجم التبرعات إلى أرقام فلكية...

وهذا ما تؤكده رسالة تولستوي إلى ستراخوف: «إن الرسالة عن المجاعة قد نتجت، من ناحية أولى، عن زوجتي التي أسعدتني بتعاطفها الحي والصادق

مع الشعب، ومن ناحية ثانية، عن ذلك الحاكم الغبي الذي عُين للتو حاكماً للمقاطعة، ورأى أن مجاعة الشعب ظاهرة غير لائقة بالحاكم الجديد، الذي استلم زمام الأمور في المقاطعة، ولم يكتف بعدم الاهتمام بطلب المساعدة، بل طالب بحماسة بتحصيل جميع الاستحقاقات المتأخرة».

ومن الغريب أن رسالته هذه لستراخوف كانت مكتوبة كتبرير للتصرف الذي قام به تولستوي - رسالته إلى صحيفة «موسكوفسكيي فيدوموستي». لكن الأكثر غرابة، أن في رسالة ستراخوف نفسه التي أجاب عليها تولستوي، لم يرد أي ذكر لرسالته إلى الصحيفة. فحبه لزوجته، وغباء الحاكم... وأي شيء آخر، وليس كونه كونت، قرر إنقاذ شعبه من المجاعة. هذا في حين أنه لم يجرِ آنذاك بعد أي حديث عن الانقلاب الروحي.

لقد تكرر الموقف نفسه في خريف عام 1891. والفارق الوحيد أن تولستوي كان يعاني من شعور حاد *بالذنب والخجل* تجاه الشعب، بصورة استثنائية. وكان من المؤلم بالنسبة له، ولنسمّ الأشياء بأسمائها، الإقدام على *حملة خيرية وصدقات* تجاه الفلاحين الروس. وأكثر إيلاماً من تقسيم ممتلكاته بين زوجته وأولاده. ومن جديد، وكما حدث في عام 1873، ظهر أن المبادر إلى هذا القرار، على ما يبدو، لم يكن تولستوي نفسه، بل صديقه إيفان إيفانوفيتش رايفسكي.

تولستوي ورايفسكي

إن قصة عمل تولستوي على المجاعة في ضيعة رايفسكي (بيغيتشيفكا) بمقاطعة ريازان بقضاء دانكوفسك تثير كثيراً من الأسئلة. أولاً: لماذا توجه إلى مقاطعة أخرى لمساعدة الجائعين؟ ثانياً: لماذا اختيرت عزبة رايفسكي «مقراً» لمكافحة المجاعة وليس عزبته في ياسنايا بوليانا؟ وأخيراً، من أول من خطرت في ذهنه فكرة إقامة مطاعم مجانية، أو «رعاية الأيتام»، كما كان الشعب يسميها؟

عندما بدأوا الحديث في صيف عام 1891 عن الكارثة الوشيكة الزاحفة على روسيا (يقول تولستوي في بداية مقالته «عن المجاعة»: » خلال الشهرين الأخيرين لم يكن هناك كتاب أو مجلة أو عدد من أعداد الصحف يخلو من

مقالات عن المجاعة...»)، وجد ليف نيقولايفتش نفسه في وضع صعب. كان يتعاطف مع الفلاحين ويدرك أن الوسيلة الوحيدة لمساعدة الجائعين يمكن أن تكون بالدعم الحكومي من خلال «زيمستفو» (مجالس الريف المحلية المنتخبة -*المترجم*) مع الجمعيات الخيرية الخاصة. بيد أنه لم يستطع المشاركة فيها، بسبب قناعاته.

في هذا الوقت بالذات، كان يعمل على كتابه «ملكوت الله في داخلك»، حيث يقف معادياً للدولة. وفي هذا العام بالذات، يبذل كل ما في وسعه كي يبقى بدون مال: يتخلى عن الملكية ويتشاجر مع زوجته حول مسألة حقوق التأليف. وينشأ موقف مفارق متناقض. من أجل مساعدة الجائعين لا بد من المال، وكلما كان أكثر كان أفضل. في حين أن كل قواه الذهنية والنفسية في هذا العام قد صرفها من أجل التخلص من هذه الأموال الملعونة!

قد يبدو، أنه يمكن العثور على مخرج! فليطلبْ من الناشرين سلفة كبيرة عن كتابه القادم. بيد أنه لا يمكنه الإقدام على ذلك. كذلك لا يمكنه أن يقف موقف المتفرج من المجاعة. وهكذا تتشكل دائرة مغلقة.

في اليوم التالي تماماً، بعد إرسال إعلانه بالتخلي عن حقوق المؤلفين إلى صحيفة «روسكيي فيدوموستي» يحل ضيفاً عليه جاره الملاّك يفغيني فلاديميروفيتش لفوف، وقد تحدثا عن المجاعة. بعد هذا الحديث، لم يستطع تولستوي النوم حتى الساعة الرابعة صباحاً، «كنت أفكر طيلة الوقت بالمجاعة»، «يبدو لي أنه يجب فتح مطاعم» - هذا ما كتبه في يومياته وتحدث عنه مع زوجته، لكن الحديث لم ينجح بينهما.

في 19 أيلول/ سبتمبر، في يوم صدور عدد الصحيفة الذي نشر فيه إعلانه عن التخلي عن حقوق التأليف، يتوجه تولستوي مع ابنته تاتيانا إلى بيراغوفو -عزبة أخيه سيرغي نيقولايفتش تولستوي، ويتنقل في القرى المجاورة على العربة من أجل الاطلاع على وضع الفلاحين. لكن فكرة المطاعم لم تلق حماساً لدى أخيه الأكبر. ويكتب تولستوي في يومياته: «لم يتم الاتفاق حتى الآن على المطاعم. أخشى أنني أخطأت». وهنا يتساءل بألم، كيف يمكن حل مسألة المال اللعينة؟ «يمكن القول هكذا: استخدام المال- إثم بلا

شك عندما لا تكون هناك حاجة أكيدة لاستخدامه. فما الذي يحدد تأكيد الحاجة؟ أولاً، أن في الاستخدام ليس هناك تعسف، ولا يوجد خيار، وأن المال يمكن أن يستخدم فقط لقضية واحدة؛ ثانياً (نسيت)... وحالتي سيئة جسداً وروحاً...».

تزعجه الأحاديث العامة عن المجاعة!: «الكل يتحدث عن الجوع، الجميع يهتم بالجائعين، يريدون مساعدتهم، وإنقاذهم. كم هذا مقرف! الناس الذين لا يفكرون بالآخرين، بالشعب، فجأة يتحرقون شوقاً لخدمته. هنا يتجلى إما الغرور، وإما الخوف، ولكن لا وجود للخير».

لا خير في هذا. لكنه يدرك، أنه بعدم رغبته في التعامل شخصياً بالمال، وتحويله إلى زوجته وأخيه الأكبر، فإنه يتصرف بذلك تصرفاً لا أخلاقياً. ليست هناك طرق أخرى لإطعام الجائعين إلا بالمال الذي يكرهه. تسمّي ابنة تولستوي تاتيانا لفوفنا في يومياتها هذه الحالة بحالة الاختيار بين «first best» «الأفضل الأول و«second best» الأفضل الثاني». واختيار «الأفضل الأول» تمليه المتطلبات الأخلاقية العالية نحو الناس الذين يعيشون، عموماً، على خطأ. يكتب تولستوي في يومياته: «هل من المعقول أن الناس الذين يعيشون الآن عالة على الآخرين، لن يدركوا بأنفسهم أن هذا لا يجب أن يكون، ولن يتنازلوا طواعية، بل سينتظرون حتى يتم التخلص منهم وسحقهم؟». أجل، ولكن ريثما يتنازلون سيموت أناس كثيرون. ولا يستطيع إنقاذهم إلا من يعيش عالة عليهم. ويختار تولستوي «الأفضل الثانيsecond best».

ولكن خلال ذلك يشعر «بالحزن، والقرف من حياتنا، والخجل، والإثم، والألم. يا رب، ساعدني لألبي إرادتك».

قد يبدو أن تولستوي ضاع بين شجرتي صنوبر. لكنه في الواقع، وجد نفسه أمام تناقض جدي وخطر في رؤيته للعالم. إنه يضع على محك الاختبار كل ما توصل إليه خلال السنوات العشر الأخيرة. في نظرته الجديدة للعالم المال والملكية هما شر مطلق، وبمساعدة الشر لا يمكن فعل الخير. لكن الشعور الحي بمشاركة معاناة الناس يقول العكس: فبواسطة المال وبامتلاك الممتلكات يمكن القيام بعمل مسيحي مباشر: وهو إطعام الجياع. وهو،

تولستوي، يمكنه فعل ذلك، ويمكنه رفضه. لكنه، بموافقته على هذا العمل، يساهم في انتصار الشر والظلم على الأرض. ولهذا فليس هذا «الأفضل الثاني second best»، بل *اختيار صريح للإثم، وتعاون مع الشر.*

يتردد تولستوي لبعض الوقت. فالأوضاع في ضواحي ياسنايا بوليانا ليست بهذا السوء والتردي. والفلاحون لديهم البطاطا، على الأقل. ولكن في المناطق الأبعد، في منطقة يفريموف، يرى تولستوي لوحة أخرى: «من أصل 70 بيتاً ثمة 10 بيوت تأكل من منتوجها. وسكان البيوت الباقية ركبوا الخيول وذهبوا للتسول. أولئك الذين بقوا يأكلون القمح مع القاقلي (حشيش ينمو مع الحبوب -*المترجم*) والنخالة التي تبيعها لهم المجالس الريفية من المستودعات بـ 60 كوبيكاً للبود (البود 16 كغ تقريباً -*المترجم*)...».

يعرف تولستوي، ماذا يعني هذا الطعام. «الخبز مع القاقلي لا يمكن أكله وحده. وإذا ما أكلت على الريق الخبز وحده، فستتقيأ. أما شراب الكفاس المصنوع من الطحين مع القاقلي، فيصيب الناس بالخبل والجنون».

ومع ذلك، فمن غير المعروف كيف كانت ستظهر مشاركة تولستوي في مكافحة المجاعة إن لم يظهر في طريقه صديقه القديم إيفان إيفانوفيتش رايفسكي، ملّاك قرية بيغيتشيفكا في مقاطعة ريازان. في ذلك الوضع المتردد الذي كان فيه تولستوي في صيف وخريف عام 1891، كان بحاجة إلى دفعة من الخارج. وكان رايفسكي هذه الدفعة، هذه «العصا السحرية المنقذة».

كان رايفسكي واحداً من أندر معارف تولستوي المقربين. وكانا قد تعارفا في نهاية الخمسينيات في موسكو، عندما عاد تولستوي من حملة سيفاستوبول. وأصبحا صديقين على الفور. رايفسكي كان الابن الأكبر لإيفان أرتيموفيتش رايفسكي ويكاتيرينا إيفانوفنا رايفسكايا؛ وكان والده من أسرة نبيلة عريقة. ولد جاجا -كما كانوا يدعونه في الأسرة- في 26 تشرين الأول/ أكتوبر عام 1835، ومن طفولته أثار الجميع بقدراته العقلية. ففي سن السابعة كان يتحدث بطلاقة باللغتين الفرنسية والألمانية، وكان يقرأ ويكتب باللغة الروسية بصورة ممتازة ويعرف عمليات الحساب الأربع كلها. بعد الثانوية، انتسب إيفان إلى كلية الفيزياء والرياضيات بجامعة موسكو وتخرج

منها مرشحاً للدكتوراه في علوم الرياضيات. عمل فترة من الوقت مسؤولاً في إدارة الثقافة الشعبية، ولكن بعد ذلك اجتذبته القرية، حيث انغمس في إدارة المزرعة وفي الأنشطة الاجتماعية. وأصبح رايفسكي من أنشط العاملين في مجلس (زيمستفو) الريفي المنتخب في منطقة دانكوف بمقاطعة ريازان.

كان ينتمي إلى الإقطاعيين الملاّكين التنويريين الذين سعوا إلى بناء الاقتصاد على أساس علمي. وكان يطلب من الخارج الآليات الزراعية والأسمدة. وقد نقلوا له «درق الطيور» من التشيلي (كسماد -*المترجم*)، أي بعبارة مبسطة الزبل التشيلي. وكان الفلاحون يسخرون منه: «سيدنا الشاب الآن من وراء البحار يشتري الخر...، وكأنه ينقصنا ما لدينا منه».

التقى بتولستوي في قاعة جمعية الجمباز في بولشايا دميتروفكا. كان الشاب تولستوي من أشد المعجبين بالجمباز. وفي المقالة التأبينية لذكرى وفاة رايفسكي كان يتذكر تولستوي: «كان عمري أقل من 30 عاماً، وعمره كان يزيد قليلاً على العشرين. لم أكن ميالاً قط إلى التقارب السريع، لكن هذا الشاب آنذاك جذبني إليه بشكل لا يُقاوم، وكنت أبحث عن التقارب معه ورفعت الكُلفة معه. كان لديه الكثير من الأشياء الجذابة: الجمال، الصحة البهية، النضارة، الشباب، القوة البدنية غير العادية، الثقافة الممتازة المتعددة الجوانب... لكن أكثر ما كان يجذبني إليه البساطة غير العادية لذوقه، والنفور من الأمور الدنيوية، محبة الشعب والأهم النقاء الأخلاقي، وهو الآن نادر بين الشباب، أما آنذاك فكان يشكل استثناء كبيراً. أعتقد أنه لم يكن قط في حياته سكيراً، ولم يشارك في صخب، ناهيك عن الهوايات الأخرى».

وتقاربا أكثر في هواية الصيد، حيث كانا يتشاركان في مطاردة الدببة. ولكن فيما بعد افترقا، ولم يعد أحدهما يرى الآخر، من ناحية بسبب المسافة بين بيغيتشيفكا وياسنايا بوليانا، ومن ناحية أخرى، لأن تولستوي بآرائه الجديدة، أخذ يبدو له رايفسكي ملاّكاً إقطاعياً عادياً. أما رايفسكي نفسه، فلم يحاول قط اتباع آراء تولستوي، ولم يشاركه هذه الآراء. كما أن طبيعة كل منهما كانت مختلفة. فقد عاش تولستوي فترة شباب عاصفة وعاطفية، أما رايفسكي فهو لم يعرف في حياته امرأة أخرى غير زوجته، حسب قناعة أصدقائه.

بدأ رايفسكي مكافحة المجاعة قبل تولستوي. كان يعاني بصدق من اللامساواة الاجتماعية. وكان يبحث عن تبرير وضعه في التأثير الثقافي على الفلاحين وفي عمله في المجلس الريفي المنتخب (زيمستفو). ومع نشوء خطر المجاعة توصل أيضاً إلى فكرة أخرى. إن مغزى وجود الاقتصاد الإقطاعي (اقتصاد الملاّكين) يكمن في أن يكون «رأس المال لتأمين الشعب». وقد كانت هذه فكرة سليمة تماماً من الناحية الأخلاقية: فاقتصاد الملاّكين القوي يشكل ضمانة لرفاهية الشعب وإنقاذه في سنوات القحط. بيد أنها كانت تناقض بوضوح الآراء التي توصل إليها تولستوي. لكن حقيقة أن تولستوي لم يوافق على التعاون مع رايفسكي فحسب، بل قام في المراحل الأولى بدور مساعده، تتحدث عن تولستوي - الإنسان أكثر بكثير من الحديث عن مقالته في المجاعة. وحقيقة أن رايفسكي تنازل لتولستوي بكل استعداد عن الأولوية في هذه القضية، وفي عزبته الخاصة، تخبرنا بالكثير عن شخصية رايفسكي.

إن فكرة المطاعم الشعبية ليست جديدة. لكن رايفسكي قرر البدء بها قبل تولستوي. ففي صيف عام 1891 عندما كان تولستوي في ياسنايا بوليانا لا يزال يفكر: هل من الأخلاقي أو اللاأخلاقي أن يقوم المطعَمين بإطعام من يطعمهم، كان رايفسكي، حسب ذكريات معلم أطفاله ألكسي متروفانوفيتش نوفيكوف، «قد نشر عدداً من المؤسسات من أجل إطعام الجائعين، وإن كان بحجم غير كبير وعلى مساحة صغيرة».

يكتب نوفيكوف: «وصلت في شهر آب / أغسطس إلى ياسنايا بوليانا. هنا كان الوضع أكثر هدوءاً، نادراً ما كانوا يتحدثون عن المجاعة، كانوا يتحدثون أكثر عن المتسولين، وعن ضحايا الحرائق. سأل ليف نيقولايفتش عن الجياع وبدأ يقول إن هناك دوماً كثيراً من الجياع، وإن الطريقة الوحيدة لمساعدة الحصان على حمل العربة المحمّلة هي النزول منها. كنت آنذاك أسمع في هذه الكلمات، بالنسبة لي، سأم وانعدام الحياة. كنت أعلم أن ي. ي. رايفسكي كان يتنقل في أعالي نهر الدون، في منطقة عقاراته، من اجتماع في «زيمستفو» إلى آخر، أما ل. ن. تولستوي فيجلس في منزله في ياسنايا بوليانا ويكتب أو ينوي الكتابة عن المجاعة، عن أن الجوع موجود دائماً، وأنه من

اللاأخلاقي أن نقوم بإطعام الجياع ونعتقد بأن هذا عمل جيد وضروري، في حين أنه في كل خطوة نخطوها نضيف أعداداً أكبر من الجياع. وكم كان هذا جميلاً ومقنعاً، وصحيحاً بصورة رائعة، عندما عرضه لنا ليف نيقولايفتش!».

إن بداية مقالة تولستوي «عن المجاعة»، التي شرع بها في صيف عام 1891، تختلف عن نهايتها، التي كتبها في تشرين الأول/ أكتوبر، بعد أن زار تولستوي منطقة يبيفان، والتقى برايفسكي واتخذ قراره بالنزول في عزبة بيغيتشيفكا، لتنظيم المطاعم الشعبية هناك. وإذا كان في بداية المقالة ينظر بشك إلى فكرة مساعدة الجائعين، فإنه في نهاية المقالة يدعو الشباب للعمل في المطاعم الشعبية، على أسس «تطوعية» كما يقال اليوم. ولا يرد أي ذكر لكنية رايفسكي في المقالة، ولكن من الواضح عمّن يكتب تولستوي: «هذه رسالة تلقيتها من صديقي، النشيط في المجلس الريفي «زيمستفو»، والمقيم بشكل دائم في القرية، عن أنشطة جمعيات اليتامى الخيرية...» ثم يورد رسالة رايفسكي عن المطاعم الشعبية.

وقد ورد اسم رايفسكي في مقالة تولستوي التالية عام 1891: «حول وسائل مساعدة السكان الذين عانوا من الموسم السيئ»: «في رحلتي إلى منطقتي يبيفان في نهاية أيلول/ سبتمبر، التقيت بصديقي القديم ي. ي. رايفسكي ونقلت له عزمي على تأسيس مطاعم شعبية في أماكن المجاعة. فدعاني للنزول عنده، ودون أن ينفي أي شكل آخر للمساعدة، لم يكتف بالموافقة على خطتي لتجهيز المطاعم، بل أخذ يساعدني في هذا العمل، وبما عُرف به من حبه للشعب، وحسم وبساطة في الاستقبال، كان على الفور، وقبل وصولنا إليه، قد بدأ هذا العمل، وفتح حول منطقته حوالي ستة من هذه المطاعم».

ولكن من هذا يمكننا أن نستنتج أن المبادر إلى افتتاح المطاعم في مزرعته لم يكن رايفسكي بل تولستوي. وهذا يتعارض مع ذكريات نوفيكوف الذي أكد أنه منذ صيف عام 1891 زار رايفسكي تولستوي في ياسنايا بوليانا، و«حدثه عن صور المنطقة الجائعة وأقنع ليف نيقولايفتش أن يسافر ويرى بأم عينه. وكان ليف نيقولايفتش يحب مثل هذه الرحلات. وسافر إلى المنطقة الجائعة، كي يكتب مقالة عن المجاعة بمعرفة أكبر بالمسألة. وقد سافر لمدة يوم أو يومين وبقي هناك عامين».

ويتحدث عن زيارة رايفسكي لياسنايا بوليانا بافل إيفانوفيتش بريوكوف، كاتب سيرة تولستوي. كما تتذكر هذا اللقاء المصيري صوفيا أندرييفنا في يومياتها: «كان إيفان إيفانوفيتش رايفسكي الذي جاء إلينا أول من وافق ليف نيقولايفتش في عزمه على الذهاب لإطعام الجائعين في مناطقهم عن طريق المطاعم. وحدثنا أنه منذ القدم، أثناء المجاعات، كانوا ينظمون هذه المطاعم التي كان الشعب يسميها «مطاعم رعاية الأيتام».

اليقين في هذه المسألة يأتينا من ذكريات فيرا فيليتشكينا التي توجهت في كانون الأول/ ديسمبر عام 1891 إلى بيغيتشيفكا لمساعدة تولستوي. تقول في كتابها «في عام المجاعة مع ليف تولستوي»: «تعود بداية افتتاح المطاعم في هذه المنطقة ليس إلى ليف تولستوي بل إلى صديقه الحميم إيفان إيفانوفيتش رايفسكي الذي افتتح على نفقته الخاصة ستة مطاعم باسم «مطاعم رعاية الأيتام». وكان ليف نيقولايفتش من أجل التعرف على الوضع في المنطقة، قد تنقل منذ الخريف في أنحاء هذه المنطقة، التي كانت مركز المجاعة، وقرر عندها الانتقال إلى هنا».

متى حل رايفسكي ضيفاً على تولستوي؟ حدث هذا في أوائل شهر تموز/ يوليو عندما كانت في زيارة آل تولستوي العمة ألكسندرا أندرييفنا، فيما بين اليومين الثاني والسابع من هذا الشهر. وتكتب العمة في مذكراتها: «لقد قوطعت إحدى أجمل الأمسيات بقدوم رايفسكي، رئيس نبلاء تولا[1]؛ وكانت تلك الفترة وقت المجاعة الزاحفة عام 1891؛ وكان رايفسكي مستغرقاً جداً في التفكير بهذه المجاعة، بحيث لم يستطع الحديث عن أي شيء آخر، وهذا ما أزعج ليف، ولا أعرف لماذا، كان يعارض كل كلمة من كلماته، وتمتم بينه وبين نفسه بأن كل هذا هراء، وأنه إذا ما حلت المجاعة فمن الضروري فقط الخضوع لمشيئة الله...».

وأخيراً تضع النقاط على الحروف في هذه المسألة، التي لم تتضح بعد، رسالة تولستوي نفسه لزوجته من بيغيتشيفكا بتاريخ 2 تشرين الثاني/ نوفمبر

1- لم يكن رايفسكي قط رئيساً لنبلاء مقاطعة تولا. في عام 1891، كان رئيس نبلاء المقاطعة آ. آ. أرسينييف (المؤلف)

عام 1891، حيث يقول: «إن تأسيس المطاعم الذي يعود فيه الفضل إلى إيفان إيفانوفيتش هو أمر مدهش».

على أية حال، صديقان قديمان، لم ير أحدهما الآخر منذ قرابة ثلاثين عاماً، والتقيا أخيراً وبدآ العمل معاً في قضية عامة مشتركة...

لكن هذا العمل انتهى بصورة مأساوية لرايفسكي. يكتب نوفيكوف: «في شهر تشرين الثاني/ أكتوبر كان رايفسكي عائداً في المطر والوحل والطقس السيئ من اجتماع النواب المنتخبين (الزيمستفو) في يبيفان إلى بيغيتشيفكا، وكان المتسولون القرويون يتنقلون على الطريق من قرية لأخرى، طلباً للصدقة. وكان رايفسكي يجلس المعدمين معه في العربة واحداً إثر آخر. وأثناء الصعود إلى الجبل كان مضطراً للنزول من العربة والسير على قدميه. فيبلل قدميه بالماء والرطوبة وبقدمين مبللتين يقطع نصف الطريق تقريباً... وفي صباح اليوم التالي، شعر رايفسكي أنه ليس على ما يرام. ولكن عليه السفر إلى دانكوف لاجتماع (زيمستفو) - التي تبعد 40 كيلومتراً على العربة. وأسرع بالعودة من دانكوف، فوصل مريضاً، مصاباً بأنفلونزا شديدة...».

كتب رايفسكي رسالته الأخيرة إلى زوجته في تولا: «ملاكي العزيز! هل ستغفرين لي! لأول مرة في حياتي، أخفيت عنك، ولم أكتب أنني مريض».

وقد توفي بعد أيام قليلة.

أما تولستوي فقد بقي في بيغيتشيفكا.

آل تولستوي في بيغيتشيفكا

في 26 تشرين الأول/ أكتوبر عام 1891 توجه تولستوي مع ابنتيه تاتيانا وماريا وابنة أخت زوجته فيرا كوزمينسكايا بالقطار إلى محطة كليكوتكا في مقاطعة ريازان. وفي 28 تشرين الأول/ أكتوبر وصلوا إلى مزرعة رايفسكي. وهكذا بدأت مرحلة استمرت عامين من حياة تولستوي، لم تحظ بالبحث والدراسة بما فيه الكفاية، حيث تم إنقاذ الآلاف في روسيا من الموت جوعاً -من أطفال، وكبار السن، ونساء وفلاحين. وقد كانت هذه مأثرة شخصية لمجموعة صغيرة من الناس.

لكن هذا لم يكن يرضي تولستوي...

جاء «التبرع» الأول لهذه القضية الوطنية المقدسة من زوجته - ستمئة روبل. وكانت جزءاً من تلك الأموال التي أعطاها تولستوي لزوجته، بتخليه عن الملكية وعن حقوق مؤلفاته. قدمت له الستمئة روبل دون سرور، وقبلها منها دون مسرة. ففي هذا كله كان ثمة شيء غير صحيح. فالسفر إلى بيغيتشيفكا لم يثر حماس تولستوي نفسه ولا ابنته الكبرى تاتيانا. حتى إنها قبل السفر كانت تشك فيما إذا كان أبوها يتصرف تصرفاً سليماً. وقد كتبت في يومياتها في 26 تشرين الأول/ أكتوبر: «نحن عشية سفرنا إلى الدون. أنا لست مسرورة بهذه السفرة، وليست لدي أي طاقة. وذلك لأنني أرى أن تصرفات أبي غير منطقية، ومن غير اللائق بالنسبة له التصرف بالأموال، وقبول التبرعات، وأخذ المال من أمي الذي كان قد أعطاها إياه. أعتقد أنه سيرى هذا بنفسه. إنه يقول ويكتب، وأنا هكذا أعتقد أيضاً، أن بؤس الشعب كله ناتج عن أنه مسروق من قبلنا -من قبل الملاّك الإقطاعيين- وقد أوصلناه نحن إلى هذه الحالة، وأن الحل كله يكمن في التوقف عن نهب الشعب. وهذا بالطبع، صحيح وعادل، وبابا فعل ما يقوله: توقف عن سرقة الفلاحين. وأنا أرى أنه ليس هناك ما يفعله أكثر من ذلك. أما أن يأخذ من الآخرين الأموال المسروقة ويتصرف بها، فلا يجدر به فعل ذلك، برأيي. هنا، يبدو لي، ثمة حالة لاشعورية من الخوف ممن سوف يلومه ويعيّره باللامبالاة، والرغبة بفعل شيء ما للجياع، أكثر إيجابية من تخليه نفسه عن الملكية».

«الشعور بالخوف»؟

إن ابنته المحبة كانت تفهم أباها بعمق. فقد توجه تولستوي لإنقاذ الجياع ليس وعياً منه للقوة الأخلاقية والأحقية، بل إدراكاً منه لضعفه وهزيمته الأخلاقية. إنه، كبطل، نوى إنقاذ البشرية كلها. لقد عرض، كما كان يعتقد صادقاً، الدواء الشافي من جميع العلل -تنفيذ جميع وصايا السيد المسيح، والتخلي عن كل ما يعيق تنفيذ هذه الوصايا. وقد صدقه الناس، وساروا وراءه... وكان عليه الثبات في هذه القمة الدعوية. وإكمال ما بدأه: أن يخرج من البيت، ويصبح متسولاً، ناسكاً جوّالاً... ولكن نشأ أمامه خيار:

أن يعطي قميصه الأخير للبائس المحتاج أم يطلب القماش الهدية من الأغنياء لمئات أطفال ريازان العراة؟ يتقاسم آخر قطعة من خبزه مع الجياع أم يتوجه بطلب المساعدة إلى الأغنياء، ليس الروس فحسب، بل والإنكليز والأمريكيين، ويقبل المساعدة لعشرات الآلاف من الفلاحين الجائعين بضمانة *اسم تولستوي*؟

تكتب صوفيا أندرييفنا في يومياتها، أن تولستوي «لم ينم طيلة الليل، وقال في صبيحة اليوم التالي، إن المجاعة تقض مضجعه، ومن الضروري تنظيم مطاعم شعبية، حيث يمكن للجياع أن يحضروا ويتناولوا الطعام، وإنه من الضروري والمهم بذل الجهود الشخصية، وهو يأمل بأنني سأعطي المال (وكان هو نفسه قد سلم للبريد رسالة بالتخلي عن الحقوق... فكيف يمكن أن أفهمه!)».

وقال أيضاً لزوجته: «لكن، لا تظني أنني أفعل هذا كي يتحدثوا عني، بل فقط لأنه من المستحيل العيش بهدوء وسلام». للأسف، هكذا ظنت، واعتقدت. «كل شيء من هذا القبيل ينبع من مصدر واحد: الغرور والرغبة في مجد جديد وجديد، كي يتحدثوا عنه أكثر».

وافترقا بصورة غير ودية. كانت تشك في أنه يهرب إلى بيغيتشيفكا من مشاكل الأسرة. وكانت محقة من حيث كونها زوجة وامرأة. كان تولستوي مثقلاً بأعباء الأسرة، حيث كانت تدعمه بناته، دون تحفظ، فأخذهن معه إلى بيغيتشيفكا.

لقد كان هذا شبيهاً بالطلاق. وقبل هذا كان قد رفض الانتقال مع الأسرة إلى موسكو شتاءً، كما كان متبعاً منذ عام 1881. وقد اتبعت الأسرة هذه العادة طيلة عشر سنوات. وفجأة تمرد تولستوي.

«في مساء يوم 29 آب/ أغسطس بدأتُ الحديث مع ليف نيقولايفتش حول السفر إلى موسكو. فأجاب بحزم:

– لن آتيَ على الإطلاق.

قلت:

– حسناً، هذا رائع، وأنا سأبقى هنا.

قال ليف نيقولايفتش: - لا، هذا مالا أريده؛ أنت اذهبي وسجلي الأولاد (في الثانوية -*المؤلف*)، لأنك تعتبرين هذا ضرورياً.

- بيد أن هذا يعد طلاقاً! أنت، طيلة الشتاء لن تراني، ولن ترى الأولاد الخمسة.

- الأولاد أنا هنا لا أراهم أيضاً، أما أنت فسوف تأتين لعندي...

- أنا؟ أبداً، ولا بأي شكل من الأشكال! سآتي كعشيقة لتلبية احتياجاتك، ونعيش منفصلين... أبداً، ولا بأي شكل - صرخت بسخط، وانفجرت في البكاء».

جاء السفر إلى بيغيتشيفكا في الوقت المناسب. لم يكن تولستوي بحاجة إلى تفسير أي شيء لزوجته، ولم يكن لدى صوفيا أندرييفنا أي اعتراض. ولكن لم يكن هناك سلام ووئام في القلوب.

كانت صورة المجاعة في منطقة دانكوف مرعبة! فالمطاعم الستة التي افتتحها رايفسكي لم تكف حتى لإطعام الأطفال وحدهم. لكن الأهم من ذلك، لم يكن واضحاً حجم الجائحة. في الخريف، كان لا يزال بعض المواد الغذائية متوفراً لدى الفلاحين، ولكن ماذا سيحصل في الشتاء، وفي الربيع؟ ولمن يجب تقديم المساعدة بادئ ذي بدء؟ من غير المفيد، سؤال الفلاحين أنفسهم. فلا أحد يرفض كيساً إضافياً من الطحين.

نظرت السلطات المحلية بريبة إلى ظهور تولستوي في المنطقة. عندما تتضور المقاطعة كلها جوعاً فهذا مفهوم. ولكن عندما يظهر في منطقة واحدة شخص شهير معروف، وتتدفق إليه الأموال بالآلاف والمواد الغذائية بعربات السكك الحديدية - فماذا سيقول الفلاحون في المناطق الأخرى؟ وكيف ستنظر السلطة؟ نعم، كانت هذه بداية الفتنة.

حتى إن السلطة لم تكن العقبة الرئيسة في عمل المتطوعين. بل الشعب نفسه. لم يكن الفلاحون يدركون، لماذا جاء السادة إلى هنا، وما الذي يخططون له. وعلى أية حال، حاولوا اغتنام الفرصة للتسول. كانت ابنة تولستوي أبعد من غيرها عن الاشتباه بعدم محبتها للشعب. ومع ذلك ففي يوميات تاتيانا لفوفنا يتراءى اليأس أحياناً.

«كم من الناس البائسين الذين يُرثى لهم! إنه يوم نادر عندما لا تبكي ماشا أو فيرا...

هنا الكثير من الأعمال ومما يجب عمله، بحيث أبدأ بالشعور باليأس: الجميع محتاجون للمساعدة، الجميع بائسون، ومن المستحيل مساعدتهم. من أجل مساعدة الجميع، لا بد من مئات الروبلات لكل عزبة، ومع ذلك فكثيرون يعودون إلى الوضع نفسه من جديد بسبب الكسل أو بسبب المسكرات.

هنا ثمة حاجة كبيرة للمساعدة ليس بسبب سوء موسم هذا العام فحسب، بل للسبب نفسه الذي جعل فلاحنا كوستيوشكا فقيراً: لعدم محبته للعمل الجسدي، ولإهماله وكسله. وهنا المساعدة بالمال لا معنى لها أبداً. كل هذا في غاية الصعوبة والتعقيد.

ربما كان من الممكن أن يكون كوستويشكا كاتباً، شاعراً، وربما ممثلاً، أو ربما موظفاً أو عالماً. ولأنه موجود في ظروف لا يمكنه أن يؤمن لنفسه خبزه إلا بعمله الجسدي، وهو يكره العمل الجسدي، لذلك فهو يستلقي على الموقد مع كتابه، ويتفلسف مع الناسك الجوّال، وعزبته تنهار خلال ذلك، وحقله لا يحرثه، ونساؤه عندما يرون إهماله، لا يعملن شيئاً أيضاً، ويملأن بطونهن بالطعام الذي يتسولنه، أو يقترضنه أو حتى يسرقنه من الجيران».

لكن تولستوي كان يدرك أيضاً أن مساعدة الشعب المجانية ليست مساعدة، بل إثم وإغراء. إنها المذلة الأخيرة لكرامة الفلاحين. ففي ظروف سوء المحصول ومساعدة الجياع من جانب سكان المدينة الغنية بدأت تنمو مهنة التسول في وسط الفلاحين، وأصبحت حرفة. لدرجة أن قرى بأكملها تحولت إلى جيوب ومعسكرات لهذه «الحرفة السهلة».

إن بعض صفحات يوميات تولستوي في بيغيتشيفكا تنزف دماً. وهاكم صورة واحدة فقط: «كان اليوم الثالث مذهلاً: أخرج صباحاً من الغرفة إلى الشرفة مع المِبولة، أرى فلاحاً قوياً ممتلئ الجسم، خفيف الحركة، في الخمسين من عمره، مع صبي في الثانية عشرة من عمره، بشعر جميل مجعد بني، فاتح اللون. «من أين؟» -«من زاتفورني»- هذه القرية التي يعيش فيها

الفلاحون على مهنة التسول. «ماذا أنت؟» - وكالعادة، العبارة المملة: «أطلب الصدقة منكم» «لا تسمح بأن أموت جوعاً. أكلنا كل شيء». -«أنت تشحذ؟»- «نعم، قُدّر علينا. أكلنا كل شيء، لا وجود لقطعة خبز عندنا. لم نأكل منذ يومين». أشعر بتثاقل. كلها كلمات مألوفة وكلها محفوظة. وأذهب لأحضر له خمسة كوبيكات (الروبل 100 كوبيك -*المترجم*) لأتخلص منه. ويتابع الفلاح وصفه لوضعه. لا فرن ولا خبز. تجولنا في المنطقة، لا أحد يعطي صدقة. في الساحة عاصفة ثلجية، برد. ذهبت لأتخلص منه. أنظر إلى الوراء إلى الصبي. عينا الصبي الجميلتان مليئتان بالدموع، من إحداهما تتدفق دموع مشرقة كبيرة».

خمسة كوبيكات؟! يعطيهما خمسة كوبيكات؟! ولكن قبل ذلك بقليل يكتب في يومياته: «تبرعات كبيرة - أكثر من 10 آلاف روبل». وبعد ستة أيام يكتب من جديد: «أموال كثيرة: 3300 روبل». وتولستوي يعطيهما خمسة كوبيكات...

إذا ما رغب، كان بإمكانه ملء منطقة دانكوف بالأموال. في 3 تشرين الثاني/ نوفمبر عام 1891 نشرت صحيفة «روسكيي فيدوموستي» رسالة مفتوحة لا من تولستوي نفسه بل من زوجته صوفيا أندريفنا إلى المجتمع تطلب مساعدة الجياع. وقد اختتمت الرسالة بالعبارات التالية: «لست أنا المخطئة من يشكر كل من يستجيب لكلماتي، بل أولئك التعساء الذين ستطعمهم النفوس الخيّرة...».

في الصباح الأول أحضروا لها أربعمئة روبل، وخلال اليوم الأول استلمت 1500 روبل. وبحلول يوم 11 تشرين الثاني/ نوفمبر تم استلام تسعة آلاف روبل. وبلغ مجموع ما وصل لاسم تولستوي وزوجته خلال المجاعة أكثر من مئتي ألف روبل.

كتبت لزوجها في بيغيتشيفكا: «يحضرون الأموال بصورة مؤثرة جداً: هناك من يرسم الصليب عند دخوله، ويقدم الروبلات الفضية؛ رجل عجوز قبّل يدي وقال، وهو يبكي: تقبلي أيتها الكونتيسة الحبيبة شكري ومساهمتي قدر استطاعتي. وأعطاني 40 روبلاً. معلمات تبرعن، وقالت إحداهن: «البارحة كنت أبكي على رسالتك». - سيد على ظهر جواد، يرتدي ثياباً

فاخرة، التقى أندريوشا عند الباب وسأله: أنت ابن ليف نيقولايفتش؟ -نعم- أمك في البيت؟ أعطها هذا. وكان في الظرف 100 روبل. يدخل الأطفال، يحضرون 3، 5، 15 روبلاً. سيدة أحضرت بقجة أغراض مع فستان. سيدة أنيقة قالت وهي تختنق: «أية رسالة مؤثرة كتبتِ! خذي، هذه أموالي الخاصة، لا يعرف عنها أبي أو أمي شيئاً، أقدمها، وأنا مسرورة جداً!» وكان في الظرف 101 روبل و30 كوبيكاً».

كانت تتدفق الرسائل إلى بيت آل تولستوي في موسكو وإلى بيغيتشيفكا من جميع أنحاء روسيا...

«ابنتي الكبرى بربارا التي أصبحت عروساً، طلبت مني أن أنظم لها زفافاً متواضعاً للغاية، وفي الوقت نفسه، أن لا أرفض طلبها بتنظيم وجبة للفقراء الذين أرادت أن تخدمهم بنفسها. لكن ابنتي ماتت دون أن تنتظر اليوم الموعود. فلتخصص الأموال المرسلة باسمها لإطعام مجموعة من كبار السن والأطفال...».

«يا صاحبة السعادة! أنت لن تصدقي إذا ما قلت لكِ عندما أقرأ أسطراً عن مآثرك ومآثر أولادك الأعزاء في هذه القضية، انهمرت الدموع من عيني بصورة لا إرادية عند فكرة أنه لو كان لدينا على الأقل واحد من ألف من هؤلاء الرجال مثل السيد الموقر زوجك وعائلته المباركة لما حدث لدينا حتى عشر حالات البؤس بين الشعب...».

«5 روبلات من الرجل العجوز سيميون وزوجته ومن قارئ الموتى...».

«في الوقت نفسه، أرى من واجبي أن أضيف، أن من بين التبرعات المرسلة، ثلاثة روبلات تبرعت بها فتاة شابة تعمل خادمة عندي، وهذا المبلغ هو راتبها الشهري».

أرسل شخص مجهول قلادة من الماس...

القس الشهير يوحنا كرونشتادسكي، عدو تولستوي الروحي الضاري، أرسل للكونتيسة مئتي روبل مع رسالة يبدي فيها تعاطفه.

سافا موروزوف تبرع بألف وخمسمئة أرشين (الأرشين = الذراع= 71 سم -*المترجم*) من القماش.

لقد استجابت روسيا كلها لنداء زوجة تولستوي. وقد أعيد نشر رسالة الكونتيسة في الخارج. وبالفعل، في بداية تشرين الثاني/ نوفمبر طلب الناشر الإنكليزي الكبير أنوين فيشر كتابياً من تولستوي أن يكون مؤتمناً ووسيطاً بين قادة مجموعة التبرعات في إنكلترا والمنظمات الروسية التي تقدم المساعدة للجائعين. وفي الولايات المتحدة تم أيضاً تنظيم جمع التبرعات للجائعين في روسيا. ففي 19 تشرين الثاني/ نوفمبر أُرسلت سبع سفن تجارية من أمريكا محملة بالذرة...

وقد اعتبرت صوفيا أندرييفنا بصدق هذا بمنزلة مهرجان عائلي. ولم يخالفها تولستوي في هذا. وفي النهاية، فإن مشاركتهما معاً في مكافحة المجاعة قد قرّبت المسافة بين الزوج وزوجته، وعند قدومه إلى موسكو لشؤون العمل في كانون الأول/ ديسمبر عام 1891، يكتب تولستوي في يومياته: «علاقات سارة مع صونيا. لم تكن علاقاتنا دافئة، حميمة بهذا الشكل». ويعترف في رسائله إليها: «دون رعب لا يمكنني التفكير كم تشعرين بالوحدة عندما تكونين وحيدة... أفكر بك باستمرار، وبحنان وعاطفة دوماً».

ولكن لا يمكننا تسمية حالة تولستوي الذهنية والنفسية أثناء مكافحة المجاعة بالحالة السارة. في هذه الفترة لم يكن يعمل تقريباً على المؤلفات الأدبية الروائية. وهو يكرس كل أوقات فراغه لكتاب «ملكوت الله بداخلك»، وللمقالات عن المجاعة والتقارير عن «استخدام أموال التبرعات» التي كان يكتبها بنفسه حصرياً والتي كانت تنشر في الصحف. ومع ذلك، من المثير للاهتمام، ما هي الأعمال الأدبية الروائية التي كانت تشغله في سنوات الجوع. في بيغيتشيفكا وضع خطة قصة قصيرة بعنوان «السيد والعامل». وهنا أيضاً عمل على مخطوطة «الأب سيرغي». في العمل الأول ينقذ السيد العامل على حساب موته الشخصي، وفي العمل الثاني – يطرح مسألة العلاقة الخفية والمغرية بين القداسة والغرور. ويقرر هذه المسألة فجأة الناسك سرجيوس، الأمير كاساتسكي سابقاً. وعلى حساب السقوط في الاسم العظيم، المقرف والمخزي (سمح لنفسه بإغواء فتاة معاقة ومضطربة عقلياً)، سرجيوس (سيرغي) *يتخلص من القداسة*، القريبة من الغرور.

في 6 تشرين الثاني/ نوفمبر يكتب تولستوي في بيغيتشيفكا أفكاراً لقصة «الأب سيرغي»: «عليه أن يجابه الكبرياء كي يجد نفسه في تلك الدائرة المزيفة، حيث يكون الخضوع كبرياءً؛ وأن يشعر باليأس من كبريائه، وفقط بعد سقوطه وشعوره بالعار، من أنه تقيأ من هذه الدائرة المزيفة يمكن أن يكون خاضعاً ومستكيناً حتماً. وسيشعر بالسعادة لتحرره من أيدي الشيطان ويشعر بنفسه بين يدي الله...».

تصرف تولستوي ومساعدوه بشكل بطولي. أثناء المجاعة، كان يساعد تولستوي ابنه إيليا، وابنتاه تاتيانا وماريا، وابنة أخت زوجته فيرا كوزمينسكايا، وأبناء رايفسكي الثلاثة: إيفان، وبيوتر، وغريغوري، وابن عمهم ألكسندر تسينغر، وأقرباء آل رايفسكي وآل تولستوي ناتاليا وفلاديمير فيلوسوفوف، وزوج شقيقة رايفسكي إيفان موردفينوف، والمعلم المنزلي ألكسي نوفيكوف، وأبناء عمومة رايفسكي دميتري أبولنسكي ورفائيل بساريف وبعض «التولستويين»: أليوخين، تشيستياكوف، نوفوسيلوف وغيرهم. وقد قدم نيقولاي غي، نجل الفنان غي، مساعدة قيمة في شراء المواد الغذائية وإرسالها إلى بيغيتشيفكا عن طريق صوفيا أندرييفنا.

وقد حقَّ لتولستوي أن يفتخر! فقد جمع من حوله الشباب الشرفاء، الصادقين، الممتلئين بالهمة والحماس! بيد أنه يعاني في هذه الفترة. فالعمل لمكافحة المجاعة لا يقدم له الشعور بالرضا الأخلاقي. تماماً مثل الأب سيرغي الذي لم يقدم له المسرة إيمان الناس به. ويقول تولستوي في رسالته إلى نصيره إسحاق بوريسوفيتش فاينرمان: «أنا أعيش حياة سيئة. وأنا نفسي لا أعرف، كيف انجذبت إلى هذا العمل القاسي بالنسبة لي بإطعام الجياع. لست من يطعمهم، وهم يطعمونني. لكنني انجذبت بشكل بحيث أصبحت موزعاً للقيء الذي يتقيأ منه الأغنياء».

هذا في حين أن نظام المطاعم الشعبية، الذي بدأه رايفسكي وتابعه تولستوي في مقاييس مختلفة تماماً (من ستة مطاعم لرايفسكي إلى مئتين وستة وأربعين مطعماً أقامها تولستوي ومساعدوه، كان يأكل فيها أكثر من اثني عشر ألف شخص) إن لم يكن مثالياً فقد كان الشكل الأفضل لمساعدة الجائعين. وقد تميزت عن نشاط مجالس الأرياف (زيمستفو) والصليب

الأحمر بأنها لم تكن تعرض توزيعاً «عينياً» للمواد الغذائية، بل مشاركة شخصية مباشرة قوية للمتطوعين في إطعام الجائعين. علاوة على ذلك، كان يعمل في المطاعم الفلاحون والفلاحات أنفسهم. وهنا كان الجوهر الأخلاقي لهذا النظام الذي يستبعد عملياً إساءة استخدام الأموال والمواد الغذائية المتبرع بها. وكان يعمل في المطاعم بصورة مشتركة المحسنون المتبرعون والمستفيدون.

كما كان نظام المطاعم أيضاً وسيلة لمكافحة المضاربة والاستغلال والتسول التي تزدهر بصورة حتمية في أثناء المجاعة. أول من كان يُرسل إلى المطاعم الشعبية الأطفال وكبار السن، لأنه من الصعب أن يتصور المرء فلاحاً شاباً قوياً أو فلاحة يذهبان لتناول الحساء والخبز ويتركان أولادهما أو والديهما كبيرَي السن وراء العتبة. وفي الوقت نفسه، قاربت المطاعم الشعبية بين الفلاحين بالمعنى الحرفي للكلمة. ففي أثناء التقاعس الاقتصادي القسري، أصبحت هذه المطاعم «مركزاً» للفلاحين. وأخيراً، لقد كان هذا نظاماً يتطور بصورة ذاتية، حيث إن تأسيس مطعم في قرية كان يجتذب الجائعين من القرى الأخرى، وعلى هذا النحو تم اكتشاف الحاجة بصورة تلقائية إلى المطاعم في أماكن جديدة.

علاوة على الصعوبات الدائمة في تأمين المواد الغذائية (حين كان من المستحيل شراؤها في المناطق الجائعة، وكان من الضروري شراؤها من مقاطعات أخرى)، كانت المشكلة لهذا النظام هي حاجته الدائمة إلى الرقابة المستمرة. وقد اضطر تولستوي نفسه بالإضافة إلى حلقة صغيرة من المساعدين للقيام بهذه المهمة، وكانت الفتيات هن القوة العاملة الرئيسة بينهم. ففي الخريف وفي الشتاء، وفي الأمطار والعواصف الثلجية، كنّ ينتقلن وحيدات لعشرات الكيلومترات حول المركز، دون أي تواصل فيما بينهن. وكانت عودتهن إلى بيغيتشيفكا في كل مرة موضع توقع وقلق وخوف، وكانت تعتبر بمنزلة حدث سار.

وكان يتوجه في هذه الأسفار تولستوي أيضاً البالغ من العمر ثلاثة وستين عاماً. ولعل موضوع قصة «السيد والعامل» مشبع بإحدى هذه الأسفار: لقد ضاع هو نفسه في عاصفة ثلجية وكاد أن يتجمد. من رسالته إلى فاينرمان

قد ينشأ انطباع خاطئ بأن تولستوي كان «يقرف»، أرستقراطياً، من توزيع «القيء الذي يتقيأ به الأغنياء». ولكن، بحسب ذكريات شهود العيان، كان يبيع شخصياً الأشياء التي يرسلها الأغنياء كتبرعات، دون أن يدركوا أن هذه الأشياء الثمينة لن تنقذ الفلاحين الجياع وشبه العراة. وكان يتاجر بها بصورة مستميتة، كي يحصل على مزيد من المال للمساعدة (من كتاب «ليف تولستوي والمجاعة» - نيجني نوفغورود، 1912).

كان تولستوي يتابع كل التفاصيل الدقيقة، بدءاً بوضع بيوت الفلاحين في كل قرية من القرى، وانتهاءً بالحصص، حيث مع الحد الأدنى من المواد الغذائية يجب تحقيق النتيجة العليا ليس من الشبع فحسب، بل ومن توفير الفيتامينات الضرورية، وألّا يهددهم مرض الاسقربوط.

فيما بعد، في عام 1894، روت ماريا لفوفنا تولستايا في ياسنايا بوليانا لدوشان بتروفيتش ماكوفيتسكي كيف كانوا ينظمون المطاعم الشعبية. وقد سجل ذكرياتها.

«كان آل تولستوي يتصرفون على النحو التالي: يأتون إلى القرية، ويسجلون، بمساعدة المختار أو الكاهن أو الملاّك الإقطاعي، المحتاجين ثم يستأجرون عند أرملة ما أو عند أحد المحتاجين بيتاً للمطعم، ومستودعاً للمواد الغذائية. وكان من الضروري القدوم إلى كل قرية ومراقبة كل شيء. وقد انقضى وقت طويل إلى أن تم ترتيب هذا النظام وتطويره. وكان يهبّ للمساعدة أناس من قرى بعيدة. <<كنا نضطر أن نقول لهم: انتظروا حتى نأتي إلى قريتكم وهناك سنسجلكم>>. ولكن كان من المستحيل تطبيق هذا المبدأ بشكل منتظم: كان يأتي أناس من 40 قرية لا توجد فيها أية مطاعم، ويجب الذهاب إلى كل قرية منها؛ وريثما نذهب إليها كلها تمر الأيام، وخلال هذه الأيام قد يموت كثيرون، من الأطفال وكبار السن، من الجوع. ومهما كان هذا مؤسفاً، كنا مضطرين للتأكد من الناس: فنثق بواحد ولا نثق بالآخر. كانوا يسيرون إلى القرى فرادى، بدون مرافقين - إضافة إلى تعرضهم للبرد والصقيع. في البداية، لم يرغب بعض الفلاحين بأخذ أي مساعدة منا. وفي بعض الأمكنة كانوا يموتون من الجوع، وعندما كنا نأتي إليهم، كانوا يقولون لنا: «لا نريد منكم شيئاً». حتى إنهم لم يرغبوا بأخذ

حطب للتدفئة. استغربنا وتساءلنا عن تفسير ذلك. ثم عرفنا أن الكاهن دعا في خطبته والدنا (تولستوي -*المترجم*) بالمسيح الدجال...».

وكان بعض الكهنة يقولون: «هل تظنون أن المسيح الدجال سيأتي إليكم حاملاً الشر؟ لا، إنه سيأتي إليكم بالخير، بالخبز، وبالذات في هذا الوقت عندما تموتون جوعاً... ولكن الويل كل الويل لمن يغريه هذا الخبز ويجربه». وعن الموضوع نفسه، كتبت في ذكرياتها فيرا فيليتشكينا.

في حين ساعد رجال دين آخرون تولستوي في تعداد الفلاحين وتنظيم المطاعم الشعبية.

ما الذي رأته الفتيات الشابات أثناء هذه الأسفار؟ من رسالة تاتيانا لفوفنا:

«نذهب إلى القرى ونفتح المطاعم بطريقة ما من الطرق. نشعر بالرثاء والشفقة خاصة نحو الأطفال، فتعابير وجوههم في كل مكان تقريباً جادة، مثل التعابير التي نجدها عند الأطفال الذين عانوا كثيراً من الحاجة. يرتدون أسمالاً مرعبة: بعض الفتيات الصغيرات من أكواعهن وحتى التنانير هي خِرق لا أكثر. وقد روت لنا نساء القرى أن الأطفال لم يصدقوا في البداية عندما أعطوهم خبز القاقلي أن هذا خبز، وأخذوا يبكون ويصرخون، إن هذا تراب، ورموه جانباً».

ولكن كانت هناك لوحات سارة...

من رسالة تولستوي: «المطاعم الشعبية تنتشر مثل الطفح الجلدي. الآن هي أكثر من ثلاثين مطعماً وتعمل بشكل جيد. البارحة زرت اثنين منها. مؤثر جداً رؤية الأطفال والشباب يركضون كالحشد بالملاعق. ظهر صبي - متسول من قرية غريبة. دعوه، وأطعموه، وأرقدوه ليستريح في المطعم».

وقد كتبت فيليتشكينا: «بالإضافة إلى المطاعم، كان لدينا الكثير من البدايات والمبادرات الأخرى. فقد قمنا بتوزيع لحاء الأشجار لنسج الأحذية والكتّان والقنب لغزل الألبسة. وما نتج معنا من منتوجات قمنا بتوزيعه على الأيتام والفقراء المعدمين. كما تبرعوا لنا بالقماش. وبالشروط نفسها كانوا يحضرون لنا الوقود من المحطة. وأظن أننا لم نضطر لشراء الوقود للمطاعم، فقد كانت دائماً هناك تبرعات. وبما أنه لم يبق سوى عدد قليل

جداً من الأبقار في القرى، فقد قمنا بإنشاء الملاجئ للأطفال الصغار، حيث كنا نقدم لهم العصيدة من السميد والحنطة السوداء... كما اتخذت التدابير للحفاظ على الخيول للسكان حتى فصل الربيع. وقد وفرنا العلف لقسم منها هنا، على مقربة منا، وأرسلنا القسم الآخر إلى مقاطعة كالوغا، حيث تلقينا عرضاً منها لإطعامها مجاناً...».

وبحسب إحصائيات ماريا لفوفنا، تم افتتاح مئة وأربع وعشرين حضانة داخلية للأطفال الصغار في منطقة دانكوف. وبجهود ابنتي تولستوي تم في بيغيتشيفكا استئناف تعليم الأطفال القراءة والكتابة.

لقد كان هذا عملاً دؤوباً يومياً شاقاً. يكتب ماكوفيتسكي نقلاً عن أقوال ماريا لفوفنا: «أحياناً كانوا يشعرون بكثير من التعب، فمنذ الصباح حتى الساعة 9–10 مساءً كان عليهم الذهاب أحياناً إلى حوالي عشرين قرية، والاستماع إلى شكاوى الفلاحين، وتقديم المساعدة الطبية في بعض الأحيان، والمراقبة، والتسجيل، وتقديم التقارير للرأي العام. << ذات مساء عدنا، وكان أبي قد تعامل مع أشخاص كثيرين، مع الفلاحين – السائقين، ومع آخرين، وكان يكتب كتابه («ملكوت الله في داخلك») وعندما أتينا إليه أنا وأختي بدأ يتكلم كلاماً غير مترابط، وغير مفهوم، ثم ضحك، ولوّح بيده ولاذ بالصمت. ولم نستطع أن نفهم ماذا يحدث لأبي. وفي الصباح، بعد أن استراح ليلاً، عاد طبيعياً تماماً. كل هذا كان يحدث بسبب التعب المرهق». وقد كان على ابنتيه أن تحمياه من الاضطراب والقلق الزائد <<كان المساعدون يفدون إلى والدي أحياناً بسبب «بعض حبات البطاطا». ولم نكن نسمح لهم بالدخول – وقد سمّونا بالدرك>>».

في هذه الفترة بدأ شقاق خطير بين تولستوي و «التولستَويين «الشباب المقيمين في بيغيتشيفكا. فقد مال أركادي أليوخين وتلميذ تولستوي المفضل ميخائيل نوفوسيولوف إلى العودة إلى الأرثوذكسية. بينما أنّب ماتفيي تشستياكوف تولستوي لمشاركته في الأعمال الخيرية.

تكتب تاتيانا لفوفنا في مذكراتها: «يقول تشستياكوف، بسبب النشاط الحالي لم يعد أبي بعيداً عن العروض الخيرية التمثيلية وعن نشاط الأب

يوحنا، وأنه لا يحق له أن يقود الناس إلى الضلال والخطأ، لأن الكثيرين يتبعونه وينتظرون التعليمات منه، وأن الجميع سوف يمدحونه بسبب نشاطه الحالي في هذه القضية، في حين أنها قضية غير جيدة». وتكتب أن أبي «كان يتألم. فهو نفسه كان يدرك هذا تماماً ووصل إلى حد القول إن هذا ليس الشيء المطلوب، ولا حاجة لأن يقول له أحد هذا».

ولكن، ما هو الخطأ؟ هل إنقاذ الناس من الجوع *خطأ*، أوَليس هو الشيء المطلوب؟

عند قراءتنا لرسائل تولستوي في مرحلة عمله في مكافحة المجاعة في مدينة بيغيتشيفكا، تأخذنا الدهشة من أمرين اثنين. الأول – مقاربته الدقيقة المتحمسة من واجباته التي فرضها على نفسه بنفسه. كان يتابع كل صغيرة وكبيرة، كل رقم، ولا يدع أي مسألة دون اهتمام، ويبدو أنه لم يكن يثق كثيراً بالشباب عديمي الخبرة الذين كانوا يحيطون به، والذين حاولوا الإمساك بزمام الأمور في أيديهم. وعلى سبيل المثال، لاضطراره إلى السفر إلى موسكو والمغادرة في شهر كانون الثاني/ يناير عام 1892، حيث ترك ابنه إيليا مكانه في بيغيتشيفكا، سرعان ما كتب له الرسالة التالية:

«أرجوك شيئاً واحداً. كن حذراً، قدر الإمكان، دون تغيير. والشيء الرئيس – أن تهتم باقتناء الخبز الوارد ونقله، وتوزيعه الصحيح، كي لا يدخل إلى المطاعم الذين يحصلون على مساعدة غذائية كافية من المجالس الريفية (زيمستفو)، ومن ناحية أخرى، إطعام من يحتاج إلى طعام ولا تكفيه مساعدة المجالس.

والآن يجب مساعدة الأكثر فقراً بالوقود. وهذا مهم جداً وصعب، ومهما كان هذا غير مرغوب، فمن الأفضل أن لا يحصل على المساعدة غير المحتاجين من أن يحصل عليها المحتاجون.

ماذا بالنسبة للتبن من أوسوف؟ أخشى أن يرمالايف قد أخطأ هنا. هم يكتبون عن الرُّزم (البالات) المكسورة. يجب حمله بسرعة ونقله إلى ليبيديف في كولوديزي. ابحثْ عن البطاطا في الحقول المجاورة، إن كانت تباع في مكان ما واشترِها. لا يزال يلزمنا أشياء كثيرة أخرى، ولكن لا يمكن

التصرف من خلال المراسلات، دون أن تعرف ماذا وكيف. أعتمد عليك. من فضلك، ابذل كل ما في وسعك».

الأمر الثاني المدهش الذي يظهر في رسائل تولستوي، هو مدى صدق معاناته لـ «زيف» وضعه. وها هو يكتب لأسرة الفنان غي:

«نحن نعيش هنا ونقيم المطاعم الشعبية التي تُطعم الجياع. لا تلوموني فجأة على ذلك. هنا أشياء كثيرة مما لا يجب أن تكون، هنا أموال صوفيا أندرييفنا والمتبرعين، هنا علاقة المطعِمين والمطعَمين، هنا لا نهاية للإثم والخطيئة، ولكن لا يمكنني العيش في البيت، والكتابة. أشعر بالحاجة للمشاركة، بأن أعمل شيئاً ما. وأعرف أن ما أعمله ليس هو الصحيح، لكنني لا يمكنني أن أفعل الصحيح، ولا يمكنني أن لا أفعل شيئاً. أخشى من تمجيد الناس لي، وكل ساعة أسأل نفسي، ألا أرتكب خطأ بهذا، وأسعى لأحكم على نفسي بقسوة وأفعل أمام الله ومن أجل الله...».

وبمزاجه هذا عدا ابنتيه أيضاً.

زار بيغيتشيفكا جوناس ستادلينغ مراسل صحيفة أمريكية، وهو سويدي الأصل. وقد أصيب بالذهول من الظروف التي كانت تعمل فيها ابنتا تولستوي. فقد توجه مع ماريا في إحدى الجولات التفتيشية، وطرح عليها السؤال التالي: كيف تحتمل هذا كله؟! «<< أليس من المعيب علينا أن نسمح لأنفسنا بوسائل الرفاهية عندما يموت إخوتنا وأخواتنا من الفاقة والمعاناة؟>> -<<لكنك ضحيت بكل الرفاهية ووسائل الراحة التي تميز رتبتك ووضعك، وانحدرت إلى مستوى الفقراء، لمساعدتهم>>- <<نعم، ولكن انظر إلى أثوابنا الدافئة ووسائل الراحة الأخرى غير المألوفة لدى إخوتنا وأخواتنا>>. -<<ولكن ما الفائدة لو أنك ارتديت الأسمال البالية ووقفت على حافة المجاعة؟>>- <<وأي حق نملكه لنعيش أفضل منهم؟>> سألت ماريا. لم أحر جواباً، لكنني نظرت بدهشة إلى عيني هذه الفتاة الرائعة ورأيت دمعة كبيرة ترتجف فيهما».

لقد أصبح وصول ستادلينغ إلى بيغيتشيفكا، ومن ثم ذهابه إلى ليف لفوفيتش في مقاطعة سماري ظاهرة بارزة. وحدث بالذات ما كان يخشاه

تولستوي: فقد اندلعت في روسيا وفي الخارج «*موضة*» جديدة - إنها *موضة تولستوي*. وبدا كأن صوفيا أندرييفنا كانت محقة عندما كتبت في يومياتها أن زوجها يفعل كل شيء كي يتحدثوا عنه أكثر. وبدا كأنه لم يكن من الممكن التفكير بشيء أفضل من أجل شهرته. في هذه الأثناء، كان الناس المحيطون بتولستوي يموتون. وبعد وفاة رايفسكي، توفيت بمرض التيفوس زوجة شقيق صوفيا أندرييفنا، التي كانت تعمل في مكافحة المجاعة. وليس من قبيل المصادفة، أن تولستوي الذي كتب مقالة تأبين ملهمة في رثاء رايفسكي، لم ينشرها. على ما يبدو، كان يشعر بالحرج من هذا التصرف. مات رايفسكي، وهو على قيد الحياة. وبالطريقة نفسها، لم يكتب تولستوي ذكرياته عن العمل في مكافحة المجاعة.

كان يظهر أناس غرباء في بيغيتشيفكا. وعلى سبيل المثال، سيدتان أمريكيتان نظمتا سباقاً: الأولى سافرت إلى تولستوي عن طريق أوروبا، والثانية عن طريق آسيا. والتقتا معاً به في بيغيتشيفكا. وقد قال تولستوي لفيليتشكينا: «وصلتا وأخذتا تسألانني عن آرائي بهذا أو بذاك. وأنا أرى بوضوح، أنهما غير مهتمتين على الإطلاق بمضمون ما أقوله، وأن كل شيء صحيح، حسب زعمهما - وهكذا يجب أن يقول تولستوي. وكأنهما قرأتا في موسوعة بيديكر وجاءتا تتحققان من صحة ما قرأتاه».

لكن سويدياً آخر هو أبراهام فون بونجي سبق الجميع. قدِم إلى تولستوي في بيغيتشيفكا من الهند، حيث سمع باسمه للمرة الأولى. وبعد أن وصل، قرر أن يعيش عنده للأبد. في 2 أيار/ مايو عام 1892 كتب تولستوي لزوجته: «قبل ثلاثة أيام جاء إلينا رجل كبير السن، عمره 70 عاماً، سويدي، عاش ثلاثين عاماً في أمريكا، وزار الصين والهند واليابان. شعره طويل أصفر شائب، ولحيته باللون نفسه، قصير القامة، بقبعة ضخمة، رث الثياب، يشبهني بعض الشيء؛ داعية الحياة حسب قانون الطبيعة. يتقن الحديث باللغة الإنكليزية، حاد الذكاء، أصيل ومثير للاهتمام. يريد أن يعيش في مكان ما (كان في ياسنايا بوليانا) وأن يعلم الناس كيف يمكن إطعام 10 أشخاص من قبل شخص واحد بواسطة 400 ساجين (وحدة قياس روسية الساجين 113 سم -*المترجم*) بدون حيوانات جر، وبمجرفة واحدة... والآن هو

يحفر بحثاً عن جذور البطاطا وينشر دعوته. إنه نباتي بدون حليب ولا بيض، يفضل أكل كل شيء نيء. يمشي حافي القدمين، ينام على الأرض، ويضع تحت رأسه زجاجة، وما إلى ذلك».

أوضح السويدي رفضه للحليب كما يلي: «أمي ماتت منذ زمن طويل». أي أن الحليب الوحيد الذي يحق لي شربه هو حليب الأم. وكان يرفض شرب الشاي لأنه رأى عمل الصينيين في مزارع الشاي: «لو كان يعرف الناس كم من الدماء والمعاناة يكمن في فنجان من الشاي...» ودعا السماور بـ «المعبود».

كان تولستوي معجباً بالسويدي، وفي الوقت نفسه كان يشعر بالارتباك والحيرة تجاهه. لقد رأى فيه مِثله، قرينه، ومحاكاة ساخرة له. يكتب تولستوي في يومياته: «إنه ظلي – الأفكار ذاتها، المزاج ذاته، لكن الحساسية أقل». عندما أراد السويدي أن يذهب مع تولستوي من بيغيتشيفكا إلى ياسنايا بوليانا، طلب تولستوي من بونجي أن يأتي بعده بيوم واحد. وقد شرح سبب ذلك لأفراد أسرته: «عندما أركب وحدي على قطار السكة الحديدية يخجلني أنني أسترعي انتباه المسافرين. وأركب أيضاً وأصطحب مِثلي وقريني، وشبه عار أيضاً – فلا تكفيني الشجاعة لتقبل هذا!».

في ياسنايا بوليانا واصل فون بونجي ملاحقة آل تولستوي. كان يتنزه عارياً في حديقة ياسنايا بوليانا ويطلب من تاتيانا لفوفنا أن ترسمه عارياً. وقالت تاتيانا لفوفنا في ذكرياتها: «كانت دروسه في علم وظائف الأعضاء تنحصر في أن يخز كل امرأة في جنبها، كي يشعر ما إذا كانت ترتدي مشدّاً (كورسيه) أم لا، وإذا كانت ترتديه كان يشرح لها أضراره، وإذا لم تكن ترتديه كان يمتدحها. عموماً، كان يرى أنه من الأفضل أن يرتدي الإنسان أقل ما يمكن من الثياب. كان ينام تحت بطانية من الصوف القرمزي التي تبين فيما بعد أنه أخذها من بيت آل رايفسكي، دون استئذان، ويرتدي قميصاً مفتوحاً حتى الخصر وبنطلوناً قصيراً كان يرفعه من فترة لأخرى لما فوق الركبتين. لم يكن يلبس حذاء، حتى إنه لم يكن يملك أي حذاء».

صوفيا أندرييفنا أصبحت تكرهه بكل معنى الكلمة! في شهر أيار عام

1892 أصبح سبباً مباشراً لقدومها الطارئ إلى بيغيتشيفكا. فقد أطعم هذا السويدي ليف نيقولايفتش كعكة نصف مخبوزة وغير ناضجة من تحضيره، بحيث كاد يموت من مغص في الكبد.

لقد فهمت صوفيا أندرييفنا «المذهب الطبيعي» لبونجي على طريقتها الخاصة، حيث كتبت: «لقد كان المثل الأعلى لهذا السويدي هو «health» أي الصحة، وكل شيء يجب أن يجري في سبيل الصحة، ونظرية الحياة كلها تكمن فيها. ولم يكن لديه أية مثل عليا أخلاقية أو روحية، وكان يُلاحظ فيه شيء بهيمي، حيواني. كان في ما مضى غنياً، وكان يشعر بالملل، وكان مريضاً. وقد أدرك أن البساطة، والبدائية في الحياة تقدمان الصحة والطمأنينة، وتمكن من الوصول إلى الاثنتين. كان يحدث أن يستلقي طيلة اليوم على العشب، مثل البقرة، أو يلعب بالماء على نهر الدون؛ يأكل كثيراً. يحفر الأرض قليلاً بالمجرفة، ثم يأتي إلى المطبخ، ويستلقي هناك».

في ياسنايا بوليانا قالت لبونجي بصريح العبارة أن يغادر المنزل.

قال السويدي: «إذا كنتِ بحاجة إلى هذه القطعة من الأرض، فسأبتعد وأشغل قطعة مثلها إلى جانبها. ولا بد من أن يكون لي مكاني الخاص على الأرض».

والطريف، أن فون بونجي كان يجسد *عملياً* بالفعل بعض مُثل تولستوي العليا. مثل، «تبسيط الحياة»، الغذاء بدون الذبح، التخلي عن ملكية الأرض. ونتج عنه محاكاة ساخرة.

وفي نهاية الأمر، طردت صوفيا أندرييفنا «ظل» زوجها من ياسنايا بوليانا. وقد تذكرت تاتيانا لفوفنا: «عندما سافر أبراهام نسي في ياسنايا بوليانا ساعته مع سلسلة مربوطة عليها بوصلة وبعض الأدوات. فأرسلنا له هذه الأشياء إلى السويد إلى العنوان الذي تركه لنا. بعد بضعة أسابيع عاد لنا الطرد لعدم العثور على العنوان. إلى أين ذهب؟ أين كان يتجول؟ وهل عاش طويلاً بعد ذلك؟ أين جُمعت عظامه القديمة؟ - جميع هذه الأسئلة لم نحصل على أجوبة عنها قط».

الشعور بالوحدة في السهب

قصة عمل ليف لفوفيتش في مكافحة المجاعة في مقاطعة سمارى تثير مشاعر متضاربة... من ناحية، تثير تعاطفاً عميقاً مع ابن تولستوي. جميع أبناء الكاتب الكبار عملوا في مكافحة المجاعة. إيليا - كمالك للأرض في منطقة تشيرنسك بمقاطعة تولا، سيرغي -كرئيس لمجلس نواب الريف (زيمستفو) في منطقة تشيرنسك، حيث كانت مزرعته نيكولسكوي-فيازيمسكوي... لكن ليف وحده سدد ثمن عمله بصحته الجسدية، والأهم بصحته النفسية.

من ناحية أخرى - كشفت مشاركة الأب والابن في مكافحة المجاعة بوضوح عن اختلاف شخصيتيهما. فتولستوي الأب كان يبدو كأنه يقوم بعمله بشيء من الاشمئزاز. ومع ذلك، فقد جلب له فائدة روحية جلية. وكل ما كان يقوم به تولستوي جلب له جدوى روحية. هكذا كانت قائمة منظومته الداخلية. أما ليف الشاب، ورغم تكراره لأفعال أبيه، توصل إلى نتيجة روحية، من المستحيل تحديدها بدقة. ثمة شيء واحد واضح: العمل في مكافحة المجاعة صقل تولستوي-الأب روحياً و... أضنى تولستوي-الابن.

يكتب تولستوي-الابن في ذكرياته: «هذا العمل كاد أن يكلفني حياتي وكان السبب الرئيس لحلول مرضي الذي استمر عدة سنوات بعد ذلك الشتاء».

كانت مصيبته في أنه كان يقلد أباه. بنات تولستوي كن يقلّدن أباهن قبله وأكثر منه. لكنهنّ كنّ يدركن حدود إمكاناتهنّ. ولم يخطر في أذهانهنّ قط التنافس مع أبيهن. ولم يفكر بذلك ابنا تولستوي الكبيران سيرغي وإيليا. أما ليف لفوفيتش فقد سعى كالفراشة المتوقدة وطمح إلى صورة «ليف تولستوي الثاني»، التي ولدت في ذهنه كما يبدو، منذ السنوات الباكرة.

لقد أتى تولستوي-الأب إلى مكافحة المجاعة على غير عجالة أو تسرع، متأرجحاً وشاكّاً، ومقلّباً في نفسه سلبيات العمل وإيجابياته. وأخيراً، وقف ضد هذا العمل.

نعم، بدأ يساعد الجياع مسترشداً بالشعور الأخلاقي المباشر وليس بالأفكار والمثل العليا. وحتى في هذا الأمر كانت لديه استراتيجيته وتكتيكه الخاصان. نعم، إنه يتوجه إلى بيغيتشيفكا، مدركاً أنه يرتكب خطأً من حيث قناعاته. لكن هذا ضروري له. فهو ليس قديساً، إنه خطّاء. مثل الأب سيرغي في قصته القادمة. وفي الوقت نفسه، فإن عمله يرسّخ صورة «ليف المقدس» في وعي المجتمع. وهذا أيضاً يقدم له المنفعة الروحية! حاولْ أن تصمد أمام الغرور. حاول -بوجدانك وضميرك- القيام بعمل صالح، يخدم رفعتك وعظمتك، ولا تخضع للكبرياء!

يندفع تولستوي-الابن إلى العمل في مكافحة المجاعة كما يندفع إلى حفرة عميقة. ومن المستحيل أن نفهم ما الذي يدفعه إلى ذلك. التعاطف مع الشعب؟ احتمال ترك الجامعة تحت ذريعة نبيلة؟ رغبته بمنافسة الأب؟ على الأغلب، جميع هذه المشاعر معاً. ولكن ما هو الدافع الرئيس؟ لن ندرك هذا أبداً. وليف لفوفيتش نفسه لم يكن يدركه.

في بداية أيلول/ سبتمبر عام 1891، يسافر من ياسنايا بوليانا إلى موسكو، وكأنه لمتابعة دراسته في الجامعة. وكأنه مفعم بالرغبة في الدراسة. ويكتب لأمه في 25 أيلول/ سبتمبر: «الدراسة، الدراسة ثم الدراسة».

ولكن عندما علم أن أباه مع ابنتيه ينوون الذهاب إلى بيغيتشيفكا، بدأ الشك يراوده. «أصدقائي الأعزاء، تانيا، أبي، ماشا... عندما قرأت رسالتكم بخططكم حول المطاعم الشعبية عند آل رايفسكي، شعرت على الفور، بالطبع، بالتعاطف معكم ومع هذه القضية. ورغبت بنفسي المشاركة فيها».

لكن الأم كانت ضد ذلك. ولم يعد يعرف كيف يتصرف. «لذا، فالأمر يعود إليكم. وأنا أبقى بخصوص نفسي على قراري القديم، أي أن أبقى طيلة الشتاء هنا وأدرس».

مرة أخرى يجد نفسه بين أبيه وأمه. لكن أباه بالذات لم يصرّ على مشاركته في مكافحة المجاعة. إنه هنا بالاتفاق غالباً مع زوجته. وليف لفوفيتش يريد أن يتصرف مثل أبيه وأختيه. ويقرر العمل بمفرده. وإظهار شخصيته. واختبار نفسه. وقبل وصول صوفيا أندرييفنا مع الأطفال الصغار إلى موسكو لقضاء

فصل الشتاء ينبّه أمه ببطاقة بريدية: «... سأذهب إلى سمارى. سأفعل ذلك مهما كلف الأمر...».

وبقراره هذا، مثله مثل أبيه، يحل كذلك مشاكله الشخصية. الهروب، الهروب! مهما كلف الأمر، الهروب إلى مكان ما! مثل الأمير أولينين في قصة «القوزاق».

تكتب صوفيا أندريفنا لزوجها: «إنه يسعى بكامل قواه إلى مكان ما، ولسبب ما، يبدو له أنه يستطيع فعل شيء ما في سمارى. انطباعي، أنه لا يريد الدراسة في الجامعة، وربما لا يستطيع الدراسة، ما يحتاج إليه هو الانطباعات المتنوعة. سفرته غير محددة أبداً... طلب 200 روبل، وهذا المبلغ فقط للطريق وللمعيشة. هو نفسه مرح، مبتهج، وكأنه راض عن كل شيء، وأنا أشعر بالأسف الشديد لأنه سيسافر؛ إنه عندنا العنصر الوحيد المثير والممتع، والمؤثر على الأولاد».

فارقت الأم بصعوبة ابنها الحبيب... في 25 تشرين الأول/ أكتوبر عام 1891 تكتب لزوجها: «يغادر ليوفا أيضاً؛ اليوم عاصفة ثلجية وبرد قارص، وكل هذه الأسفار والحياة، منفصلين أحدنا عن الآخر، هي الأسوأ بالطبع، لي أنا البائسة، الجالسة كالمقيّدة بغرفة الضيوف دون أي عمل، سوى القلق على الجميع. الجياع يعانون من العذاب الجسدي، أما نحن الخطاّؤون فنعاني من عذاب أسوأ وهو العذاب الأخلاقي. آمل أن يمر هذا الوقت العصيب على الجميع وينقضي، لكنه لن ينقضي بدون تضحيات...».

بالطبع، لم تقصد بالتضحيات الشعب وحده. كانت تشعر بشيء ما...

بماذا كان يفكر عندما توجه لمكافحة المجاعة بمئتي روبل؟ ذلك أنه من رحلته في الصيف إلى مزرعته في سمارى كان يمكنه تصور حجم الكارثة القادمة. على أية حال، الأب نفسه أيضاً، ذهب إلى بيغيتشيفكا في البداية، برأس مال هزيل. لكن الأب كان لديه مساعدون – ابنتاه وأسرة رايفسكي الكبيرة. وعند وصول آل تولستوي إلى بيغيتشيفكا كانت قد افتتحت المطاعم الشعبية الأولى... أما ليف لفوفيتش فقد ذهب إلى السهوب العارية وحيداً بأفكار غير واضحة حول كيف يمكن إنقاذ الجياع، بل وحتى كيف

يمكن أن يمضي هو نفسه الشتاء في السهوب المغطاة بالثلوج. وقد تذكرت صوفيا أندرييفنا: «لقد تخلص من كل شيء، ولم يرد أن يأخذ شيئاً معه». عموماً، كان هناك شيء غير واقعي في هذه الرحلة. حتى إنه لم يكلف نفسه عناء ترك الجامعة، واكتفى بأخذ إجازة شهر.

قبل سفره إلى سمارى، زار والده في بيغيتشيفكا. يمكننا الافتراض أن فكرة المطاعم الشعبية منذ البداية لم يكن متحمساً لها. فمنذ 19 أيلول/ سبتمبر كتب لأمه: «المطاعم الشعبية - فكرة ممتازة، ولكن من المستبعد أن يرتبها بصورة عملية الإقطاعيون وأصحاب الأراضي عندنا. ومن المشكوك به أيضاً أن يباشر آل بولياكوف وآل غاغارين (كبار المصرفيين والإقطاعيين -*المؤلف*) ومن شابههم -برحابة صدر، مثل هذا العمل. وبالطبع، من أجل أن يتحدثوا عنهم، ومن أجل أبي، سيوافقون، وينتج أن هذا يجب إثباته- بالخبز والمال».

كان يدرك أنه ليس مكافئاً لوالده. لقد أعطوا الأب الأموال والمواد الغذائية، ولن يعطوه. في حين أنه عندما ذهب ليف لفوفيتش إلى سهوب سمارى، كان الأب، مثل الملك سلطان في الحكاية، يتابع القيام بالعجائب بالنسبة للأموال. إن الرسالة - النداء إلى المجتمع كتبتها صوفيا أندرييفنا ليس بمبادرة منه. فقد أقنعها بكتابتها كل من فيت وستراخوف. لكن هذا النداء لم يظهر في الصحافة إلا في 3 تشرين الثاني/ نوفمبر عندما كان ليف لفوفيتش في لجّة سمارى وفي حالة من اليأس المطلق...

في الصيف الحار، عندما زار مزرعة سمارى قبل جولته في أنحاء البلاد، لم يكن ظاهراً للعيان رعب الشتاء القادم بكامله بعد. أما الآن، فهي لم تكن روسيا بل مقاطعة داخلية ما من الهند أو أفريقيا، حيث قبيلة الناس كانت معرضة للانقراض الواضح. هذه لم تكن بيغيتشيفكا، حيث فتح مالك الأرض المستنير رايفسكي مع صديقه الكاتب الكبير تولستوي المطاعم الشعبية. حيث بالمقارنة مع سهوب سمارى كانت بيغيتشيفكا على مرمى حجر من موسكو، وعلى مقربة منها مقاطعات مجاورة لم يمسها القحط إلى هذه الدرجة. حيث من الممكن للفلاحين في موسكو الخروج للعمل حوذيين أو حمالين. أما هنا، في سهوب سمارى، فمن سنبلة قمح إلى سنبلة

لم يكن يُسمع صوت إنسان حقاً. ومن أين العون – الله عال جداً في السماء، والقيصر بعيد جداً.

فقط في 17 تشرين الثاني/ نوفمبر عام 1891 أمر الإمبراطور ألكسندر الثالث بتشكيل لجنة خاصة لمساعدة المحتاجين (كلمة «الجوع» و«الجياع» لم تلفظا علناً في الأوساط العليا الرسمية) في *الأماكن المحتاجة* برئاسة الوريث ولي العهد. رغم أن وزير المالية فيشنيغرادسكي كان قد حذره منذ شهر تشرين الثاني/ نوفمبر عام 1890 من «سنة حزينة» قادمة (تقرير ف. ن. أبراسيموفا).

لحسن حظ ليف لفوفيتش، كان حاكم سمارى ألكسندر دميتريفيتش سفيربييف «رجلاً محافظاً مستنيراً» ومن معارف آل تولستوي. وقد استقبل ليف لفوفيتش بأريحية، «ولكن عندما علم أنني قدمت بمبلغ مثير للشفقة، أعرب عن شكه في أن أتمكن من فعل شيء مهم ما بمبلغ مئتي روبل التعيس...».

في اليوم نفسه حضر ليف لفوفيتش اجتماع الولاية الإقليمية للصليب الأحمر: «كنا نناقش جميع المسائل المتعلقة بتأمين الخبز، وعلف الماشية، والمساعدة الطبية للمرضى؛ لكن الكارثة كانت في أن الحاجة كانت كبيرة جداً، وأن كل طرف كان يطلب من الوصاية أكثر مما كان يمكنه الحصول عليه، ولهذا فقد انحصر الاجتماع على تلبية جزء من حاجة قطاع كل طرف...».

وفي اليوم نفسه، زار سوقاً –بازار– حيث اجتمع حشد من الفلاحين بالقرب من محل لبيع الخبز. «كان كثيرون يشترون الخبز؛ وآخرون كانوا يقفون إلى جانبهم، ينظرون بحسد إلى المحظوظين... بعض المشترين كانوا يأكلون خبزهم مباشرة فور شرائه. اقتربت من طاولة البيع واشتريت بضعة أرطال من الخبز، من أجل تقديمها للفلاحين والفلاحات الأكثر إثارة للشفقة، كما بدوا لي. وما كدت أفعل هذا، حتى أحاط بي حشد من الناس، طالبين أن أشتري لهم الخبز أيضاً. أخذت أشتري وأوزع إلى أن أرضيت الكثيرين».

وهكذا، فقد كشف أول عمل لابن تولستوي في مكافحة المجاعة

انعدام خبرته في هذه المسألة. فقد فعل بالضبط ما تمرد عليه أبوه. بدأ يوزع الخبز على المتسولين، منفقاً على هذا «أمواله المحدودة» التي لا تكفي بحد ذاتها.

في مزرعة أحد معارفهم، الملاّك بيبيكوف، حيث نزل مؤقتاً ليف لفوفيتش، استقبلوه كرسول من السماء. وكان بيبيكوف نفسه قد أصابه اليأس من تقديم الصدقات للشعب. فمهما وزع من الصدقات بكرم وسخاء، ومهما أطعم في مطبخه من المتسولين، كان من المستحيل إطعام الجميع. أثار وصول «السيد» الجديد المنطقة كلها! في مزرعة بيبيكوف كان هناك يقف حشد من الجياع ليلاً ونهاراً؛ ولم أكد أصل إلى المنزل حتى كان المنزل محاطاً بهم. لكننا أجلنا الحديث معهم حتى الصباح. ومع ذلك، طيلة الليل، وأنا لم أستطع النوم تقريباً، كانت تسمع أصواتاً تحت النوافذ تردد طالبة الصدقة: «باسم الآب والابن والروح القدس، أعطونا، من أجل المسيح!».

في الصباح عندما خرج إلى الشرفة، كان الفناء كله يغص بالناس. «هو؟! هل هو أم لا؟!» - كانوا يهمسون في الحشد. «إنهم قد وثقوا بي، باعتباري مخلّصهم. وفجأة رفع الجميع قبعاتهم عن رؤوسهم، وأخذت الجموع كلها تنحني لي... عندها قررت أن أتحدث وأشرح لهم، بأن لا يعلقوا آمالهم عليّ وأنني قدمت بمبلغ مالي يسير ومن المستبعد أن أتمكن من التخفيف من ضائقتهم». وسُمعت أصوات من الحشد: «- إن لم تكن أنت، فمن إذن؟ نحن نموت جوعاً، ولا نأكل طيلة ثلاثة أيام، الأطفال يصرخون؛ لا تسمح، أيها المحسن المُطعِم بأن نموت جوعاً!» «إنهم لم يرغبوا بأن يصدقوا عجزي...».

لكن الفلاحين الأصحاء لم يتحملوا ليس الموت جوعاً، بل انتظار موت أفراد أسرهم من الجوع، وكانوا يلجؤون إلى الانتحار. في كانون الأول/ ديسمبر عام 1891 زار ليف لفوفيتش كوخ أحد هؤلاء الفلاحين الذي حاول ليلاً قطع رقبته. وقد وصف ذلك في رسالته إلى أمه:

«يجلس رجل على مقعد قرب النافذة. وجهه مصفر ترابي اللون، عيناه

باهتتان بتعبير بلا معنى. رقبته مربوطة بمنديل أبيض. كان واضحاً أنه غير مبالٍ أبداً بقدومي. زوجته البائسة كانت شاحبة مرهقة، تتمسك بالمقعد وتتأوه. صبي في الرابعة عشرة من عمره يُشعل الموقد... سألت الصبي كيف حدث كل هذا مع أبيه، وهو روى لي بالتفصيل الآتي:

«استيقظت أمي ليلاً لإرضاع الطفل، وأضاءت المصباح، وألقت نظرة إليه، إلى أبي، كان مستلقياً على المقعد، يمسك سكيناً في يده، والدم ينزف على ياقة قميصه. قفزت إليه فأشار إلى السكين، وقال: أكملي ذبحي، لن أتمكن بنفسي. أخذت ماما تحاول انتزاع السكين منه، لكنه قاوم ولم يعطها، وهنا ساعدتها أنا، قفزت من الموقد، وانتزعنا منه السكين. ركضت ماما إلى المدخل، ودفنت السكين في التبن، ها هي هناك...».

- وكيف هو الآن؟ - أتوجه بالسؤال إلى الصبي ستيبان الذي أصبح تعبير وجهه واضحاً...

- لا بأس -يجيب الصبي- لم يقطع سوى الجلد، ولم يصل إلى الحلق، فالسكين كانت مثلّمة».

هذا أو ذاك الرجل الآخر، واسمه سيميون، الذي وصفه ليف لفوفيتش في كتابه «سنوات الجوع»، أصبح بطل قصته «أمسية في وقت المجاعة». حاول سيميون جرح نفسه في الحلق في هذيان مرضه بالتيفوس. «بالطبع، فعل هذا ليس بتأثير الحمىّ وحدها. فعدا أنه كان مريضاً، وأن زوجته بالكاد تعافت من مرض التيفوس، ولم يكن لديه من الطعام ما يأكله - كانوا يرفضون تقديم المساعدة له في كل مكان. المجلس الريفي (زيمستفو) كان يرفض مساعدته بحجة أنه غريب (وافد جديد -*المؤلف*)، الصليب الأحمر لم يقدم له المساعدة لعدم توفر المال لديه... لهذا لم يكن غريباً أن يفكر وأن يرغب بوضع حد لحياته حتى قبل أن يكون في حالة الحمى».

وهذا هو مسكن سيميون: «بيته الطيني هو وجار وحش أكثر مما هو مسكن إنسان. بل وأسوأ من الوجار، لأنه أشد قذارة، وأنتن رائحة، وأكثر ضرراً بالصحة. ولكن يُقال، إن الإنسان هو حيوان يعتاد على كل شيء. غير أنني شخصياً، لا أعتقد أنه يمكنني العيش في بيت سيميون أكثر من أسبوع».

كان من الممكن فقط في سمارى العثور على عمل. وكانت السلطات المحلية تفعل ما بوسعها. وعلى سبيل المثال، بدأوا بتنفيذ أعمال في توسيع مجرى نهر سماركا ليلاً ونهاراً. وتذكّر ليف لفوفيتش: «لقد زرت مكان هذه الأعمال ذات يوم، في وقت متأخر من المساء. لقد كان في هذه الهياكل البشرية السوداء، الذين كانوا يحفرون في الظلام، والمزودين بالمصابيح، شيءٌ خاص سحريّ لم تألفه العين».

لكن المدينة لم يكن باستطاعتها إطعام المقاطعة كلها. وأصبح التسول هو «الحرفة» الرئيسة. ولكن كيف يمكن للرجال الكبار الأصحاء أن يتسولوا؟ لهذا أصبح الأطفال هم «القوة العاملة» الرئيسة، الذين كانوا يطعمون آباءهم... يكتب ليف لفوفيتش عن أحد هؤلاء الأطفال: «كان لدى الطفل أندريوشكا أب قوي معافى، سليم الجسم، كان ينام طيلة فصل الشتاء الجائع على الموقد، ويعلن أنه لن يتحرك أبداً بعيداً عن الموقد، لأنه على أية حال، لا يوجد أي عمل...».

وهكذا أصبح أندريوشكا حاذقاً في التسول، وبفن تسوله كان يطعم الأسرة كلها.

- وهل جمعت كثيراً من الصدقات؟ - كنا نسأله. فيجيب بسرعة:

- الجميع سيكونون معنا شبِعين. الأب، والأم والأولاد. نشكر الله، أهل الخير لا ينسوننا.

- وكيف تستجدي الصدقات؟

- كيف؟ -بدأ أندريوشكا يبتسم بخبث- أدخل إلى العزبة، وأقف -ثم تابع- نعم، وأقول: من أجل المسيح أعطوا كسرة خبز للإنسان الجائع...

كان يمدّ هذه العبارة بصوت حزين. ثم أضاف:

- وإذا لم يعطوا، وقالوا: الله هو العاطي - ألتفت إليهم، وأقول بصوت مرح: أعطوني، ولو قطعة صغيرة جداً! فيضحكون ويعطونني!

- حسناً، ووالداك، أمك وأبوك بصحة جيدة؟

- أمي مريضة، تسعل وتبصق دماً - أجاب بسذاجة.

سألته ذات مرة:

- ولماذا لا تذهب إلى المدرسة؟

نظر إلي نظرة حائرة، ثم أجاب بغضب، مقطباً جبينه:

- ألا ترى، أنني أتسول...

وكان أندريوشكا يحب أيضاً الحديث عمّن توفي وعن عدد الطاولات أثناء وليمة تأبين المتوفّى. فعندما يموت أحدهم، يعملون الفطائر، أي يخبزون الخبز ويطعمون الناس».

وقد تذكر ليف لفوفيتش حياته فيما بعد في قرية باتروفكا بمنطقة بوزولكسكو: «كان الناس يموتون كل يوم، وكان أبونا العميد ينتقل ليلاً ونهاراً بين المرضى، ويقدم وصاياه لهم... كنت أسأله أحياناً عندما ألقاه في الشارع: - ماذا أيها الأب، المرضى في ازدياد؟ كان يجيب بصوته العريض المنخفض:

- كارثة واضحة للعيان. لقد أنهكوني للغاية! الآن قدمت الوصايا 18 مرة. نعم، والأهم من ذلك. فقر مدقع. أذهب وأسافر وأتنقل من أجل لا شيء. هناك سنحتسب معهم في الحياة الآخرة يوماً ما. ينقلون التوابيت على الزلاجات يومياً، أو يحملونها على الأعمدة باتجاه الكنيسة».

في أثناء عمله في مكافحة المجاعة، وصل ليف لفوفيتش إلى فكرة معارضة لآراء أبيه:

«... لأول مرة أدركت قوة كنيستنا وعظمتها، ونشاطاتها وأهميتها، وأدركت إلى أية درجة شعبنا متحد معها بقوة».

ومن المثير للاهتمام، أن المطاعم التي افتتحها في سهوب سماري، كان يشرف عليها الكهنة بصورة رئيسة. وعموماً، تشكلت لدية علاقات دافئة للغاية مع الكهنة المحليين.

كان موقف ليف لفوفيتش من التسول مختلفاً عن موقف أبيه. وقد أصبح التسول، حسب رأيه، «اللجنة» الرئيسة لإنقاذ الجياع. و«رأس مال الشعب المدّخر» (تعبير رايفسكي)، كما كان يعتقد ليف لفوفيتش، ليست مزارع الاقطاعيين ومالكي الأراضي، بل ضمير الفلاحين المسيحي، الذي ربّته الكنيسة الأرثوذكسية عدة قرون.

عندما عجزت مجالس الأرياف (الزيمستفو) والصليب الأحمر أمام

المقاييس الهائلة لتفشي المجاعة التي حدثت في الأعوام 1877-1878، 1891-1892، و 1898-1899، أكثر الناس فقراً والمتسولون وحدهم كان بإمكانهم إطعام الجياع. ولم يكن من الممكن أن يصمد الفلاحون بكتلتهم الرئيسة إلا من خلال إعادة التوزيع الوجدانية العادلة للاحتياطات النادرة المتاحة من المواد الغذائية. كانت تصل المساعدة الخارجية متأخرة - المواصلات السيئة، العواصف الثلجية، انتظار ذوبان الجليد، وما إلى ذلك. ولم يكن جميع «السادة» طيبين، مثل ليف لفوفيتش. ففي تلك «المناطق الميتة»، حيث لم تكن هناك مساعدة لا من الدولة ولا مساعدة خاصة، بقي الفقراء على قيد الحياة على حساب المتسولين، متقاسمين فيما بينهم آخر الأعطيات.

كتب ليف لفوفيتش: «باسم المسيح يواسي أحدهم الآخر، ويعيشون، وباسمه يُطعم نصف الشعب، وفي أعوام المجاعات والكوارث لسنا نحن، بإمكاناتنا الصغيرة نسبياً، من ينقذ الجياع ويطعمهم، بل إن من يطعم الجياع وينقذهم هم الجياع أنفسهم، متقاسمين فيما بينهم قطعة الخبز الأخيرة. إن ضمير الفقير، ضمير الفلاح الذي يملك أكثر قليلاً من جاره الفقير، الذي قد يصبح في الغد في وضع المتسول - أكثر استجابة بقليل من ضميرنا، من ضمير الأغنياء... إن ضمير الشعب هو تلك «اللجنة» الرئيسة التي تفتح صدرها للجياع في سنوات الكوارث على نطاق واسع وبحرية، وتستوعبهم. وبدون هذه «اللجنة» لكانت مجاعاتنا بلا شك، أشد فظاعة بألف مرة من الناحيتين المادية والروحية».

بيد أنه سيفهم هذا كله لاحقاً... أما في تلك الأثناء فهو يعود إلى موسكو بمهمتين: العثور على المال وعلى زملاء للعمل. وهو لم يعرف بعد، أن أمه في ندائها للمجتمع ذكرت عنوانه في سمارى وأن المال قد تم تحويله إلى اسمه في مقاطعة سمارى. «بعد وصولي إلى موسكو، تلقيت إشعاراً من ب. أنه في بوزولوك ثمة أكوام من الطرود النقدية الواردة باسمي. علاوة على ذلك، وصلت إلى أبي تبرعات كثيرة في آن واحد، وقد وعد بتحويل جزء منها إلى الجياع في سمارى».

مشكلة المال تم حلها بصورة جزئية. أما بالنسبة لزملاء العمل فكان

الوضع أسوأ. «عن المجاعة القادمة لم يعودوا يتحدثون، بل هم الآن يصرخون باعتبارها كارثة رهيبة غير مسبوقة منذ ومن طويل؛ وتدفقت التبرعات من كل مكان، وكانت المناشدات تنشر في الصحف واحدة إثر أخرى...» لكن جميع رفاقه في جامعة موسكو رفضوا السفر مع ليف لفوفيتش للعمل في مكافحة المجاعة.

أحد المديرين في ياسنايا بوليانا، إيفان ألكسندروفيتش بيرغر، «شاب مرح، لطيف» عبر عن رغبته بمرافقته. ثم انضم إليه بريوكوف والسويدي ستادلينغ. وقد توجه الأخير كصحفي وليس كمساعد في حملة مكافحة المجاعة. استقر بريوكوف في المنطقة المجاورة في قرية بوكروفكا، وتبعد خمسة وعشرين فيرست عن باتروفكا، حيث نزل ليف لفوفيتش. وعاش بيبيكوف في مزرعته. وهكذا فقد أصبح بيرغر الرفيق الوحيد الحقيقي لابن تولستوي في باتروفكا.

في هذا الوقت أكمل ليف لفوفيتش عامه الثاني والعشرين. شاب في مقتبل العمر، عديم الخبرة، وجد نفسه وجهاً لوجه أمام حشد هائل من الناس المعانين الذين كانوا يتوافدون إلى باتروفكا من مختلف القرى، حيث وصلت الشائعة عن «السيد الطيّب». وما كان قد رآه في مزرعة بيبيكوف كان يتكرر بالقرب من منزله طيلة فصل الشتاء. في كل صباح على الشرفة كان ينتظره حشد من الراكعين. ولم يقفوا وينهضوا على رُكبهم إلا عندما كان ينهض ويقف على ركبتيه أمامهم. كانت النساء تؤمن به كما لو أنه قديس، رسول الله. وبعضهن كن يرجونه أن يدخل إلى أكواخهنّ ويلقي نظرة على أولادهن ورجالهن الذين ماتوا من الجوع والتيفوس، معتقدات أن نظرته تتمتع بقوة الشفاء.

بيد أنه قد تعلم الرفض. وقد فهم أنه ليس المسيح الذي يوزع الخبز كما كان يفعل في بازار سماري. وأقام علاقة جيدة مع الحاكم الجديد ألكسندر سيميونوفيتش بريانشانينوف، الذي حل محلّ سفيربييف، ومع أشخاص مفيدين آخرين. وأخذ يوزع المعونة بحكمة، معتمداً بادئ ذي بدء، على الحاجة الحقيقية لكل فناء.

ومع ذلك، فقد تخلى في البداية عن نظام المطاعم الشعبية التي كان

يصرّ عليها والده. وقد أقنعته بذلك رحلته الثانية إلى منطقة الدون وإلى بيغيتشيفكا. وقد كتب: «... لقد بدت لي حاجة الشعب في الدون بسيطة وتافهة بالمقارنة مع ما رأيته في سمارى...».

لم يكن هناك مرض التيفوس في منطقة الدون. وفي منطقة الدون لم يشنقوا أنفسهم ولم يقطعوا حناجرهم. وقرر ليف لفوفيتش الانطباعي أن نظام المطاعم الشعبية الذي يتطلب الأشخاص المناسبين والوقت المناسب سيكون في ظروفه غير أخلاقي. ويكتب لوالده: «الجميع بدون خبز هنا بدون استثناء، وريثما نقوم بفتح المطاعم سوف يقطعون حناجرهم ويموتون من الجوع ومن التيفوس وما شابه ذلك».

لقد أثارت رسالة الابن غضب تولستوي!

فكتب لزوجته في 24 كانون الأول/ ديسمبر عام 1891: «لقد أثارت رسائل ليوفا أسوأ انطباع لدي -الرعونة، وحب السيادة، وعدم الرغبة بالعمل- أخشى أن يهدر هناك أموال تبرعات الغرباء دون أدنى فائدة إطلاقاً. لقد اختصر المسألة الآن إلى شراء الطحين وتوزيعه، أي إلى فعل ما تفعله (الزيمستفو) أو الإدارة المحلية. إن (الزيمستفو) أو الموظفين يقومون بشراء الجودار وتوزيعه بشكل ليس أسوأ منه، لذلك لا داعي لأن يكون هناك. والأسهل أن يحوّل الأموال إلى (الزيمستفو). هذا يؤسفني كثيراً: أن الأموال تنفق سدى، والأهم من ذلك، أنه طائش، وواثق من نفسه».

لقد كانت هذه قسوة شديدة من جانب تولستوي! بصفته أباً، وبصفته زوجاً. فقد كان يعرف جيداً أن ليفوشكا - هو ابن صوفيا أندرييفنا المفضل. وكانت قد كتبت لزوجها في 25 تشرين الأول/ أكتوبر عام 1891: «إن ليوفا يغرق هناك في بحر سهوب سمارى، ومن المستحيل أن أمسك نفسي عن الحزن الشديد عليه».

«... الرعونة، وحب السيادة، وعدم الرغبة بالعمل» لقد كانت الكلمات ذاتها التي قالها عن رحلات ابنه في أنحاء روسيا، واعتبرها مجرد ترفيه.

في رسالته إلى ابنه بتاريخ 24 كانون الأول/ ديسمبر كان متحفظاً. وبعد أن شرح بالتفصيل أفضلية المطاعم على التوزيع البسيط للطحين، أورد الأرقام

الضرورية الدالة على ذلك. لكنه في منتصف الرسالة لم يستطع ضبط نفسه: «فلماذا تفعل هذه... (قصد تولستوي السخافات غالباً -*المؤلف*) وبهذا العناد؟ أفكر ولا أستطيع الوصول إلى أي فكرة. أمن المعقول أنه شيء واحد، ليس الكبرياء وحب الذات، بل الطموح - وعدم رغبتك بالاعتراف أمام نفسك بأنك أخطأت، يمكن أن يقودك ويدمر كل القضية التي تخدمها».

ومع ذاك استبدل تولستوي في نهاية رسالته الغضب بالعطف: «... دعنا من المطاعم، لكن علاقاتنا أغلى من كل شيء. إذا كنت ترى أنه من الضروري فعل هذا، كما تفعل، فافعل هكذا. لقد تحدثت عن هذا بما فيه الكفاية. وهذا يُثقِلُ عليّ كثيراً. رجاءً، لن نتحدث عن هذا الموضوع بعد الآن. فليوفقك الله لتفعل ما هو أفضل تجاهه».

لكن ليف لفوفيتش شعر بالاستياء.

وكتب لوالده في 3 كانون الثاني/ يناير عام 1892: «أبي الحبيب، رسالتك سببت لي كثيراً من الشجن. ومن المفروض أنك نفسك شعرت بالندم منها لأنها أثارت في نفسي مشاعر اضطررت لكبحها. لن أختلق الأعذار ولن أدافع عن تصرفاتي؛ إن كنت راغباً يمكنك أن تغيّر قناعتي يوماً ما، حول ما قلته بكثير من الحقد والظلم؛ ويمكنك أن تفعل هذا بدون حججي. علاوة على ذلك، أخشى أن أنتقل إلى أسلوب غير مناسب، لهذا ألوذ بالصمت. أحبك من كل قلبي ولا أغضب منك أبداً».

وحسب ذكريات صوفيا أندرييفنا، بكى ليف نيقولايفتش عندما قرأ هذه الرسالة. ولم يعد يوبّخ ابنه في رسائله إلى زوجته، أما في رسائله إلى الآخرين فكان يحاول دوماً التنويه بأنه أفضل أبنائه. فمثلاً، في رسالته إلى الناشر الإنكليزي في لندن فيشر أونيون يكتب له بفخر: «إن أحد أبنائي يعمل للغرض نفسه في المقاطعات الشرقية، حيث مقاطعة سمارى في أسوأ وضع». وفي نيسان/ أبريل عام 1892 كتب للأمير دميتري ألكسندروفيتش خيلكوف: «لدي أيضاً خبر مفرح مفاجئ - ابني ليف يقترب كثيراً من المسيح، أي أنه أدرك كامل جنون الحياة بدون تعاليمه».

في المقابل، سرعان ما أدرك ليف لفوفيتش صواب رأي أبيه، وأخذ يعمل

على طريقته. وفي كانون الثاني/ يناير عام 1892، أخبر أباه أنه فتح المطاعم الشعبية الأولى.

ويكتب لأمه في 9 آذار/ مارس عام 1892: «... نسير نحو التوسع في المطاعم» «الآن بدأنا التوسع كثيراً في فتح المطاعم الشعبية، بلغ عددها حوالي 70 مطعماً، وننوي قريباً جداً زيادة عددها حتى 100، أي قبل موسم توحل الأرض» (15 آذار/ مارس). «المطاعم الشعبية تسير بخطى جيدة كما في السابق، وعددها 150 مطعماً، ونحن سنزيد عددها عندما يفتح الطريق» (16 نيسان/ أبريل). «المطاعم الشعبية، ما عدا المخصصة للمرضى والطلاب، أكثر من 200 مطعم...» (6 أيار/ مايو).

إن ذكر المرضى يستحق اهتماماً خاصاً. فبعد أخبار ليف لفوفيتش المقلقة تم إرسال فصيلين صحيين أرسلهما الأمير بيوتر دميتروفيتش دولغوروكوف. عموماً كان هناك طبيب واحد (ثم أصبحا اثنين). ولكن كان هناك ممرضون وممرضات ومسعفون ومسعفات كانوا يعنون بالمرضى في أكواخ مخصصة لذلك. وقد تفشى في مقاطعة سمارى وباء التيفوس والاسقربوط. وفي باتروفكا وحدها كان يموت يومياً من سبعة إلى ثمانية أشخاص. وكان ليف لفوفيتش نفسه يزور شخصياً المستشفيات، وقد انعدى هو نفسه بالتيفوس الذي أصابه في رجليه.

وقد روت ماريا لفوفنا لماكوفيتسكي أن شقيقها قطع ذات شتاء سيراً على الأقدام تسعين فيرست (ما يزيد على 90 كم)، مرافقاً شحنة من الطحين وصلت من أمريكا. وقد كتب ليف لفوفيتش عن هذه المعونة من ما وراء المحيط لأمه في 23 آذار/ مارس عام 1892: «وصل الطحين الأمريكي – 9 عربات بالسكك الحديدية. ونوعيته ممتازة للغاية، بصورة رهيبة...».

وفي نهاية الأمر، قوّض ليف لفوفيتش صحته النفسية والجسدية. فهو في الواقع كان وحيداً يقوم على رأس مهمة أصعب وأوسع نطاقاً من المهمة التي مارسها أبوه في بيغيتشيفكا.

لقد تحطمت أحلامه الماضية بالحياة الطبيعية لملاّك الأرض في مزرعته على صخرة الحقيقة الأليمة للحياة. وكان يشتكي في رسائله لأمه: «...

الحياة في القرية رهيبة ومتوحشة». ومع اقتراب الصيف أخذ يحنّ إلى ياسنايا بوليانا: «ياسنايا بوليانا الحبيبة، لكنها الخطيرة بالنسبة لنفوسنا، ياسنايا بوليانا مع ألحان غلينكا الرومانسية، مع القهوة على الكروكيت، مع فوميتش وروديفونيتش... ولكن يبدو أن القدر كتب لي أن أعيش هنا فترة أخرى».

لم يستطع لفترة طويلة مغادرة السهوب. في البداية بسبب مرض أحد الطبيبين اللذين كانا يرعيان وينقذان المرضى من الموت بالتيفوس. ثم اضطر للبقاء من أجل تلقي العلاج بحليب الكوميس، ولكن سرعان ما خاب أمله منه.

وفي 1 تموز/ يوليو يكتب لأمه من سماري، حيث ينتظر القطار المتجه إلى تولا: «إننا نعيش الكثير من الأشياء المثيرة للاهتمام. إنني أثق بأن هذا نحو الأفضل، وأنه قريباً يجب أن يحل الوقت المشرق في تاريخنا، وأنه بعد هذه السنوات والمجاعات والكوليرا نقترب من شيء جديد مشرق، ساطع يبزغ الآن. وإنني أتصور هذا الجديد...».

في 3 تموز/ يوليو وصل ليف لفوفيتش إلى ياسنايا بوليانا. كان لا يزال شاباً في مقتبل العمر، لكنه كان محطماً جسدياً ونفسياً. وبدأ عنده مرض وهن الأعصاب (النوراستينيا) المديد. ولم يكن هناك أي مجال للحديث عن الدراسة. ولكن في هذه الحالة كانت تنتظره الخدمة العسكرية الإلزامية - جندياً بسيطاً. ولكن بحسب القناعات التي أخذها عن والده، كان عليه أن يرفض الخدمة العسكرية، ويدخل السجن بسبب ذلك.

مكتبة
t.me/soramnqraa

الفصل الخامس

«أريد أن أعيش!».

لا يمكنني أن أتذكّر، دون ألم، عينيْ ليوفا السوداوين المريضتين، وبأي عتاب وحزن نظر بهما إلى أبيه، عندما لامه أبوه على مرضه، ولم يصدق معاناته.

• *من يوميات صوفيا أندرييفنا تولستايا*

حادثة في محطة بوغاتوي

بين انتهاء العمل في المجاعة والعودة إلى ياسنايا بوليانا وقعت لليف لفوفيتش حادثة، عادية بالنسبة لأي شاب، لكنها لم تكن بالنسبة لابن تولستوي عادية على الإطلاق، بسبب حالته النفسية آنذاك. إن ليف لفوفيتش، الذي كان في 1 تموز/ يوليو عام 1892 في محطة السكة الحديدية بانتظار القطار الذاهب إلى تولا، *قد سقط*، حسب تعبير لغة أبيه.

وإذا ما تحرينا الدقة، فقد جرت عنده في هذا اليوم العلاقة الجسدية الأولى مع المرأة. علاقة عرضية، بسرعة خاطفة، لم تنتج عنها أية عواقب. وكان من الممكن صرف النظر عنها، لو أن ليف لفوفيتش نفسه لم يعانِ إلى هذه الدرجة في ذلك الوقت بسبب هذه «المسألة» ولو أنه لم يتذكرها بعد سنوات عديدة، عندما كتب «تجربة حياتي» وعندما وضع وحافظ على

صفحة منفصلة، قائمة بـ «12 حباً في حياتي»، حيث تحت الرقم 4 لا نجد اسم فتاة بل نجد كلمة «محطة».

وفي ذكرياته، يصف هذه الحادثة كما يلي:

«في الطريق حدثت لي حادثة غريبة. وصلت إلى محطة بوغاتوي للسكك الحديدية التي تبعد تسعين فيرست عن ضيعة بيبيكوف على ظهر عربة متأرجحة مهتزة، وكنت في حالة هيجان جسدي شديد بسبب الحرارة وحليب الكوميس. كنت أخشى ألا ألحق القطار، ولكن تبين أن القطار تأخر لثلاث ساعات كاملة، نتيجة تمزق رصيف الخط الحديدي بسبب السيول الأخيرة. دعاني العجوز، مدير المحطة للانتظار في شقته الفارغة، بسبب سفر عائلته لقضاء فصل الصيف.

دخلت إلى الشقة، وجلست على الكنبة المغطاة برداء أبيض في غرفة الضيوف.

وبالجوار كان باب غرفة النوم مفتوحاً، حيث سرير عريض بفراش عار.

كانت الطبّاخة تشتغل في المطبخ. وهي امرأة بيضاء الوجه، وسيمة، في الثلاثين من عمرها، أنيقة، نشيطة جداً في حركتها.

دخّنتُ سيجارة، ثم سيجارة ثانية، وشعرت بإثارة كبيرة، ولم أكن أعرف كيف سأمضي ثلاث ساعات كاملة في وحدتي.

خلال هذا الوقت، مرّت الطباخة من جانبي إلى غرفة النوم، وبحركات عصبية، أخذت تقلّب الفراش على السرير، دون أي ضرورة.

نهضتُ من الكنبة وأخذت أذرع الغرفة جيئة وذهاباً. ثم اقتربت مني أكثر، وعادت ثانية إلى غرفة النوم.

خرجت من الشقة بخطوات سريعة، ونزلت على السلم الخلفي، وركضت إلى الساحة. كان الظلام دامساً، ولم يكن هناك أحد من حولي، لا إنس ولا جان.

رأيت أمامي فجوة فيها عشب كثيف، فأسرعت نحوها. أما هي، فابتسمت وركضت إلى جانبي، إنها قوية وجميلة. توقفتُ ورميتها على العشب.

عند عودتي إلى شقة مدير المحطة، شعرت بالدهشة أكثر مما شعرت بالاستياء مما حصل.

اقترب القطار، فجلست في الكابين العلوي من عربة الدرجة الثالثة ونمت كالقتيل».

في هذه القصة ثمة جانب أدبي بل وتأثري احتذائي. هنا نسترجع النثر الإيروتيكي للقرن الفضي، وقصة «حب ميتيا» لإيفان بونين، التي كتبها في العشرينيات. ولن ننسى أن النثر الإيروتيكي للقرن الفضي (سولوغوب، آرتسيباشيف، ليونيد أندرييف) وقصة بونين «حب ميتيا» مدين بالكثير لقصتي تولستوي «الشيطان» و«لحن كرويتزر». ولم يكن مكسيم غوركي بعيداً عن الحقيقة عندما كتب لكونستانتين ألكسندروفيتش فيدين في 23 حزيران/ يونيو عام 1925 من سورينتو: «إن بونين يعيد كتابة «لحن كرويتزر» تحت عنوان «حب ميتيا»...» لكن الأصح القول: «إنه يعيد كتابة << الشيطان>>». فقصة «حب ميتيا» ليست شيئاً آخر سوى تجديد لقصة «الشيطان» لتولستوي. رغم أنه في العشرينيات لم يجر أي حديث عن أي تجديد أو طبعات جديدة.

كان تولستوي وبونين يدركان الشهوة الجنسية، كهوس، كإغراء شيطاني، وفي المحصلة، كجريمة، بطريقتين مختلفتين، ولكن بدرجة متساوية من التمزق في المعاناة. وليطلق ميتيا -بطل بونين- النار على نفسه في فمه «بلذة»، وليقتل إرتينيف -بطل تولستوي- نفسه، في إحدى صيغ «الشيطان» في نزوة الانفعال الأخلاقي، فإن الدافع الانفعالي العاطفي لهاتين القصتين هو نفسه. بونين-جمالي، تولستوي-أخلاقي، ولكن في الحالتين تُختتم الشهوة الجنسية بمأساة. أما بطل ذكريات ليف لفوفيتش «فقد شعر بالدهشة أكثر مما شعر بالاستياء». وليس في هذا أي شيء غريب. إنه شعور طبيعي لشاب كان ينتظر من الاتصال الجنسي الأول شيئاً ما «مماثلاً»، وحصل ما هو مألوف.

قصة عادية للغاية. تخلو من أية أخلاق عميقة، أو معاناة جمالية ساطعة. في حين أن ابن تولستوي آنذاك كان لا يزال تحت تأثير أبيه و تأثير ما نشر للتو «لحن كرويتزر» و«خاتمة» هذه القصة. وبحسب وجهات نظر تولستوي، فمثل هذه الخطيئة، لن يُكفِّر عنها وبصورة جزئية، إلا الزواج من تلك التي «سقط» معها لأول مرة. وفي هذه الحالة، كان على ليف لفوفيتش أن يتزوج

من طبّاخة مدير المحطة. وإلّا، تنتظره سلسلة حتمية من «السقوط»، بما فيها «السقوط» مع زوجة المستقبل، والحياة البائسة في نهاية الأمر.

والمصيبة أن والده كان على حق.

أهواء الجندي تولستوي

عندما عاد ليف لفوفيتش إلى ياسنايا بوليانا، كان الأب هناك أيضاً، حيث أوقف عمله مؤقتاً في المجاعة. وكان قدومه مرتبطاً، في جزء منه، بضرورة توقيع صك التنازل الرسمي عن ملكيته لمصلحة زوجته وأبنائه.

من جديد، تكاثفت الغيوم السوداء في الجو العائلي. وكان يشعر جميع أفراد الأسرة بالعبء النفسي لتوقيع هذه الوثيقة. فأولاً، كان هذا أشبه بالحصول على الإرث مع وجود الأب والأم على قيد الحياة. فهو، حسب كلمات تولستوي، يتخلى عن ممتلكاته «كما لو أنني متُّ». كان الجميع يدرك أن تولستوي العظيم منذ هذه اللحظة، أصبح من الناحية القانونية، معدماً لأنه لم يتخل عن ممتلكاته فحسب، بل تخلى أيضاً عن دخله المالي من مؤلفاته.

في هذه الوضعية كان قد أنهى العمل على كتابه «ملكوت الله في داخلكم» وكتب لصديقه الفنان غي:

«لم أكن مشغولاً في يوم من الأيام، كما أنا عليه الآن. لا أزال أعمل على الفصل الثامن، خمس ساعات أجلس في كتابته، سأطلق روحي كلها ولن يبقى شيء. وهنا، الشؤون الجارية اليومية والعلاقات. يبدو أنني انتهيت، ولكن يبدو فقط. لا تلمني، أيها الصديق العزيز، الأب. أنت تعرف، كيف أن ما يبدو للمشاهدين والقرّاء غير مهم، هو مهم بالنسبة لنا. ومهم لأن القارئ يقول عن نفسه شيئاً، وأنا عليّ أن أعدّ، ما يمكن أن يؤثر -إذا كنت واثقاً من نفسي- على الملايين من الناس المتنوعين».

فمن ناحية -هناك ملايين الناس الذين ينتظرون كلامه، ومن ناحية أخرى- الأسرة، «الشؤون الجارية اليومية والعلاقات». زد على ذلك يعود الابن الذي يترك الجامعة، وعليه الذهاب إلى الخدمة العسكرية جندياً عادياً. وهو، بتأثير والده، ينوي رفض أداء الخدمة العسكرية، ولهذا قد ينتهي به

الأمر إلى السجن أو كتيبة التأديب. وهو ضعيف جسدياً، ومنقبض نفسياً. تشعر أمه بالرعب من مستقبل معاناة ابنها لرفضه الخدمة في الجيش. وتصر على أن يذهب للخدمة في الجيش لا من أجل نفسه، بل *من أجلها*. في أحد أحاديث المنادمة، يذكّرها الابن، مازحاً، بالمرأة الرومانية القديمة كورنيللي، والدة تيبيريوس وغايوس كراكوس، اللذين ماتا بسبب آرائهما. لكن مثل هذا المزاح لا يروق لصوفيا أندرييفنا.

لا يقنع الأب ابنه ليوفا صراحة برفض التجنيد الإجباري. ومع ذلك، يدور بين الأب وابنه حديث ما مخفي عن الآخرين، يفهم منه الابن أن الأب يود أن يعاني من أجل قناعاته (وهي من حيث الجوهر، قناعات الأب). ويكتب المسؤول القضائي ألكسندر فلاديميروفيتش جيركيفيتش، الذي زار ياسنايا بوليانا في هذه الفترة، في يومياته: «أثناء نزهتي المسائية مع الكونت ليف نيقولايفتش، أكد لي الأخير حديث الكونتيسة حول تردد ابنها، وأوضح لي أنه لن يجبره أبداً بقناعاته، رغم أنه يريد لابنه أن يعاني في كتيبة التأديب من أجل مصلحته».

ولكن، هل من أجل *مصلحته* هو فقط؟ لو رفض ليف لفوفيتش الخدمة العسكرية الإجبارية، لقدّم دعماً هائلاً لأبيه! فعندما كان الناس الغرباء عن الأسرة يعانون من أجل هذه القناعات، حيث كانوا يزجونهم في السجون وينتزعون منهم أولادهم، كان ابنا تولستوي الكبيران سيرغي وإيليا قد خدما في الجيش بصورة موفقة، وعاشا بعدها ملاّكيْن إقطاعيين للأراضي، ثم عملا في رئاسة مجالس الأرياف... وها هو ذا الابن الوحيد، المستعد، كما يبدو *للمعاناة* من أجل أفكار والده.

مرة أخرى نتعامل مع الظروف القدرية في مصير ليف لفوفيتش. فمهما فعل، ومهما اتخذ من قرارات، كان يبدو هذا في أعين جميع المحيطين، أنه ليس اختياره المستقل، بل ترداد لإرادة أبيه أو أمه. وكأنه لم يكن لديه عقله، ولا نفسه، ولا قناعاته، بل لديه قطبان مغناطيسيان ينقسمان إلى جزأين. وكأن عليه دوماً أن يجيب على السؤال: هل هو من *أسرة بيرس أم من أسرة تولستوي*؟

لقد أشفق ليف لفوفيتش على أمه. وتصرف بصورة عقلانية. كان بإمكانه الصمود، ولو على حساب صحته، والعمل البطولي في مكافحة المجاعة، لكن المذلة في السجون لم يكن باستطاعته تحملها. ومع ذلك، كان ثمة خيار آخر ممكن، كان «التولستَويون» يقنعونه به. وبالتحديد، أنه لن يتعرض للعقاب الشديد، باعتباره *ابن تولستوي*. بيد أن هذا سيكون المذلة الأشد.

في كتابه «تجربة حياتي» أخفى ليف لفوفيتش حقيقة أنه ذهب للخدمة في الجيش تحت ضغط أمه، وخلافاً لرغبة أبيه. «عندما أعلمت والديّ بهذا القرار، انزعجت أمي، لكن أبي لم يقل شيئاً. فمن حيث الجوهر، لم يكن هناك ما يهمه سوى حياته الشخصية، وحتى مصير أبنائه».

لم يكن هذا صحيحاً. فقد كتبت صوفيا أندرييفنا لأختها كوزمينسكايا عن ليوفا: «لقد ذهب للخدمة جندياً مرغماً، *كالحجر في قلبه*، لكنه انتزع بذلك الحجر من *قلبي*». وفي رسالة أخرى، طلبت صراحة من أختها تاتيانا ومن زوجها كوزمينسكي المقيمين في بطرسبورغ، أن يفرز ابنها للخدمة في مدفعية الفرسان: «إن مساعدتكما ومشاركتكما غاليتان عليّ كثيراً، لأنه كان من الصعب للغاية عليّ إقناع ليوفا للذهاب للخدمة، وقد اهتز قلبي مرة ثانية، وكلفني الكثير من الدموع والألم النفسي. ويجب ربط قراره بأسرع وقت، وإلا سيبعده عن هذا القرار شخص ما».

«شخص ما» – هذا ليس أباه الذي لم يضغط قط على ابنه بصورة صريحة مباشرة. إنهم «التولستَويون» بزعامة تشرتكوف. في ذلك الوقت كان لهم تأثير كبير على ليف لفوفيتش. وليس من قبيل الصدفة، أنه شعر نحوهم بكثير من الكراهية. وخصوصاً نحو تشرتكوف! ولكن في نهاية أيلول/ سبتمبر عام 1892 قبل التحاقه بالخدمة العسكرية بشهر، كان ليف لفوفيتش قريباً من فكرة الذهاب ليس إلى الجيش بل إلى مقاطعة فورونيج لمساعدة تشرتكوف في مكافحة المجاعة ومرضى الكوليرا. وماذا عن الأب؟ الأب كان سعيداً! وها هو يكتب لتشرتكوف في 27 أيلول/ سبتمبر عام 1892: «ليوفا يريد القدوم إليكم. أنا مسرور جداً...».

وفي رسالة إلى تشرتكوف، اعتذر ليف لفوفيتش لعدم استطاعته القدوم:

«لم تطمئن روحي حتى الآن بعد الخدمة العسكرية الإجبارية كما أنني ضعيف من الناحية الصحية والبدنية. هذا هو السبب الذي منعني من القدوم إليكم. ولكن، إن شاء الله سأتحسن وسآتي». هذه الرسالة كتبها قبل الذهاب إلى الخدمة العسكرية. وكان يقصد على الأغلب، أنه لن يهدأ ويطمئن روحياً بعد الأحاديث العائلية حول هذا الموضوع.

لقد بذلت صوفيا أندرييفنا جهوداً جبارة من أجل التغلب على زوجها، وعلى تلاميذه، في الصراع من أجل ابنها. وبإصرارها بدموعها وضغطها السيكولوجي الصريح على ليوفا الضعيف المتردد في الخدمة العسكرية، أنقذت بذلك حياته، لأنها لم تكن تشك قط في أنه لن يحتمل أعباء حمل صليب الطريق «التولستَوي».

وكانت أيضاً على حق.

معاناة في تسارسكوي سيلو

كتب ليف لفوفيتش، متذكراً خدمته العسكرية البائسة في الجيش، إنه «من حيث الجوهر، خسر كل شيء» ومنذ تلك الأثناء «أصيب بمرض عصبي في المعدة طويل الأمد».

لكن، من كان المسؤول عن ذلك؟ إنه هو وحده! نتيجة التقلبات الدائمة بين إرادة الأم ورغبة الأب، اتخذ أسوأ القرارات الممكنة. وافق على الذهاب للخدمة في الجيش، لكنه خلال ذلك نوى على الملأ رفض أداء القسم العسكري. لأن «التولستَوية» لا تسمح بأداء القسم: وبحسب تعاليم السيد المسيح، من المحرّم أداء القسم («وأقول لكم: لا تقسموا أبداً...» م. ف. 5: 34).

لقد كان رفض أداء القسم جريمة أسوأ من رفض أداء الخدمة. ومن الصعب فهم، ما الذي أملى عليه هذا القرار الجنوني. هنا قد يكون تفسير واحد: لم يكن يعرف ليف لفوفيتش كيف يتصرف، كي لا يزعج والدته، ويرضي والده، وأن يكون راضياً عن نفسه. وفي المحصلة سبب وجع الرأس ليس لأبيه وأمه، بل للقيادة العسكرية.

وقد قرر أداء الخدمة العسكرية (مع رفض أداء القسم) في الحرس الشخصي التابع لكتيبة المشاة الإمبراطورية الرابعة، التي كان قد خدم فيها منذ زمن شقيق أبيه الأكبر سيرغي نيقولايفتش. وفي وقت لاحق، اعترف بنفسه بسخافة هذا القرار: «الآن فقط، أستطيع أن أرى إلى أي درجة كان كل شيء سخيفاً، وغير نزيه من حيث الأساس. أن أجعل من نفسي جندياً بصورة طوعية، وفي الوقت نفسه أن أرفض أداء القسم، وبفضل الموارد المادية، أخفف على نفسي أعباء هذه الخدمة إلى النصف». لكنه في تلك الأثناء، فسر قراره برغبته «التعرف عن قرب على وسط بطرسبورغ، المحيط بالقصر والحكومة».

كانت الكتيبة متمركزة في تسارسكوي سيلو (القرية القيصرية). وكان قائدها العقيد إيفرينوف، صديق الأخ الأكبر لصوفيا أندرييفنا. علاوة على ذلك، كان يخدم في تسارسكوي سيلو الهوسار الشخصي (الفارس الشخصي) إيفان إيرديلي زوج ماشا كوزمينسكايا، ابنة أخت صوفيا أندرييفنا. وقد نزل ليف لفوفيتش في شقتهما. وقد خاط لنفسه البدلة الرسمية، واشترى قبعة سلاح المشاة ذات الصليب والقرون الأربعة وأخذ ينتظر موعد أداء القسم، كي يرفض النطق به. كان خريف عام 1892 بارداً.

«في ذلك الخريف، اشتد الصقيع القاسي في شهر تشرين الثاني/ نوفمبر إلى أكثر من 25 درجة تحت الصفر، وأنا كبائس، كنت أتجمد في معطفي الخفيف أكثر من أي وقت مضى. كل صباح كنت أذهب إلى الثكنة للتدريب، وفي المساء أعود إلى بطرسبورغ».

في 16 تشرين الثاني/ نوفمبر كتب لأمه: «اليوم هو اليوم الأول من خدمتي. كان قاسياً من الناحية المعنوية. ورغم أنني كنت أتوقع الأشياء غير السارة، لكن هذا أسوأ بكثير مما كنت أتصور. ما يزالون يعاملونني بإحساس مرهف وحذر، لذلك من هذه الناحية لا يمكن أن يكون هناك شيء أفضل. لكن المزعج في الأمر ما أرغموني على فعله -الدوران في مكان واحد كالدوّامة، وتقديم التحية، وكيفية الوقوف في المقدمة، وكيف يجب الرد على الرئيس- إن كل هذا مقرف ومثير للاشمئزاز، وسخيف، ويرتعد الضمير منه».

كان بالنسبة لليوفا الشاب «صعباً، حقيقة، أن يصرخ بصوت» عال ومبتهج «نتمنى الصحة لسيادتكم»، فكان يروض نفسه، ويرسم تعبيراً باهتاً من اللامبالاة على وجهه، ويستدير نصف دورة إلى اليسار «وفي الوقت نفسه، يخفي في أعماق نفسه شعوراً بالحزن اللامتناهي على كل شيء في هذا الشر والظلام البشري».

وهو لم يستطع بعد فصل روحه عن ياسنايا بوليانا! كان يتوق إليها، مثلما كان يتوق إليها عندما كان في سهوب سماري. بدأ عامه الرابع والعشرون، ولا يزال، نفسياً، ليولا المدلل ذاته، ياشا بوليانوف، محبوب الأسرة والفناء كله. إن جميع مثله العليا ومشاعره المضيئة كانت تنتمي إلى ياسنايا بوليانا - دائماً، طيلة حياته، وحتى أواخر سنوات هرمه! لكن ياسنايا بوليانا كانت تعود إلى الأب. حتى بعد تخليه عن ملكيتها. وحتى بعد مماته. وهنا كانت تكمن المفارقة الأصعب في حياة ليف لفوفيتش كلها. إنه هو وحده لم يكن يفهم هذا. أو لم يرغب في الاعتراف بهذا لنفسه.

إن رسائله إلى أمه مفعمة بالحنان. فهو يبتهج، ويشكو في الوقت نفسه، لكنه صريح معها. (على أية حال، هو يعرف أن هذه الرسائل يقرأها أبوه). إنه يروي جميع تفاصيل حياته، وكامل معاناته. وهو على اطلاع على جميع شؤون الأسرة. فهو يعرف أن أمه تكتب قصة طويلة بعنوان «ذنْبُ مَنْ؟»، وهي موجهة ضد «لحن كرويتزر»، وهذا لا يروقه.

«ماما العزيزة... توقفي عن كتابة قصتك. هذا لا يليق بك، أنت تسيئين إلى نفسك. ماذا تريدين؟ الانتقام. علام؟ مِمّن؟ إنه أمر غير مفهوم. إن هذا أمر مقيت جداً بالنسبة لي وأشعر بالاستياء تجاهك، لأنني أحبك. تريدين أن تقولي، إن أبي كان رجلاً شهوانياً عندما كان في الـ 35 عاماً من عمره وكان عمرك 18 عاماً. إن الجميع يعرفون هذا منذ زمن، وأبي نفسه في «لحن كرويتزر» أدان نفسه بشكل كاف لهذا (أية كتابة هي أفضل مؤشر على المضمون الداخلي لمؤلفها)، وماذا بعد؟ لقد تراكم لديك كدر شخصي ما تجاهه، وهذا الكدر بدل أن تخمديه وتطفئيه، تطوّرينه وتنمينه دون أن تشعري بذلك».

لكنه في الرسالة التالية يعتذر إليها: «أمي العزيزة. تعذبني كثيراً تلك الرسالة التي أرسلتها لك. أرجوكِ، لا تنزعجي مني، واغفري لي: عبثاً أرسلتها لك».

كما اكتشفت السلطات العسكرية «مناورته» بخصوص القسم، فأشفقت عليه، وأشفقت على نفسها، وقررت إعادة ابن تولستوي إلى منزله بسلام، معتبرة إياه غير لائق للخدمة العسكرية. وماذا تفعل مع مجند جديد، لا يتعرّف على الضباط، ولا يحييهم، حتى إنه لم يتعرّف على الإمبراطورة في العربة، ولم يقف أمامها.

أخيراً، استدعى العقيد أوزيروف ليف لفوفيتش وأعلن أنه توصل إلى طريقة للتخلص منه. كان من المقرر أداء القسم في 1 كانون الثاني/ يناير. وقبل أسبوع من عيد الميلاد، فحصت اللجنة الطبية ليف لفوفيتش وقدمت له «وثيقة زرقاء»، تعفيه إلى الأبد من الخدمة العسكرية. وقال له العقيد بلطف: «اذهب إلى المنزل بمناسبة العيد، وليمنّ الله عليك بالسعادة!».

في 31 كانون الأول/ ديسمبر عام 1892 كانوا يحتفلون في منزل آل تولستوي بعيد رأس السنة. وقد تذكرت صوفيا أندرييفنا: «وبينما كانت شجرة عيد الميلاد تتلألأ، والأطفال يمرحون، ويستلمون هداياهم، قرع أحد ما جرس الباب، وسُمع وقع خطوات على الدرج، وفُتح الباب، ودخل ليوفا. هذا لم يكن رجلاً، بل شبحاً. ما إن نظرت إليه جمدت في مكاني. وذهب المرح كله دفعة واحدة. كان نحيفاً بشكل رهيب. وعندما كان يبتسم، كانت تظهر أسنانه بشكل خاص، وكان خدّاه مجوفين، مقعرين بشدة... وقال: نعم، أنا لست بصحة جيدة، ولكن الآن أطلقوا سراحي، وكل شيء على ما يرام، سأتحسن...».

كيس من العظام

إن مشهد ظهور ليف لفوفيتش المفاجئ في منتصف عيد رأس السنة مقتبس من ذكريات صوفيا أندرييفنا. ولكن ليست هناك أية أدلة أخرى على قدومه إلى موسكو على رأس السنة تحديداً. تعتقد فاليريا أبراسيموفا أن

وصوله حدث في 31 كانون الثاني/ يناير عام 1893، وقبل هذا كان قد غادر تسارسكوي سيلو في النصف الثاني من كانون الأول/ ديسمبر عام 1892، حيث عاش ليف لفوفيتش في بطرسبورغ مع عائلة كوزمينسكي.

وهذا ما حدث، كما يبدو. فقد أعلمت صوفيا أندرييفنا زوجها في ياسنايا بوليانا عن قدوم ابنها لأول مرة في 31 كانون الثاني/ يناير. وبدون مشاعر خاصة: «وصل ليوفا، لا يزال نحيفاً كما كان؛ لا يريد العلاج وشرب المياه، وأنا أعتقد أن هذا ضروري له». من هذه الرسالة، يتشكل انطباع أنها كانت مهتمة أكثر من قدوم ابنها بالزواج الوشيك لابنة أخت تولستوي، لينشكا -الابنة غير الشرعية لماريا نيقولايفنا تولستايا. حيث قدّم المحامي إيفان فاسيليفيتش دينيسينكو للينشكا عرضاً بالزواج في بطرسبورغ. وقد أعلم ليوفا القادم من بطرسبورغ أمه بذلك، وأسرعت صوفيا أندرييفنا لمشاركة زوجها الفرح: ذلك أن مصير أقربائه يهمها مثل مصير أقربائها- فهما أسرة واحدة!

إن شكل ليوفا المريض يكرِب الأم، لكنه لا يخيفها بعد. نكرر، على الأرجح، ليف لفوفيتش لم يكن موجوداً في ليلة رأس السنة في منزل خاموفنيكي بموسكو. أما تولستوي-الأب فكان موجوداً في موسكو آنذاك. وفي 22 كانون الثاني/ يناير سافر إلى ياسنايا بوليانا، كي يعود من هناك مع ابنته ماشا إلى بيغيتشيفكا. وبعد شهر عاد ثانية إلى ياسنايا بوليانا، وهناك رأى ابنه لأول مرة بعد الخدمة في الجيش.

ويكتب لزوجته في 25 شباط/ فبراير عام 1893: «... إنني أشعر بالأسى عندما أنظر إليه، كيف انقلب من فتى مشرق، محب للحياة، وسيم إلى فتى مريض».

في كانون الثاني/ يناير عام 1893 كان ليف لفوفيتش في بطرسبورغ، من أجل ترتيب أموره بعد تسريحه من الجيش. وبهذا الصدد، هناك تعرّف قبل أبيه، على تشيخوف. وقد راق أحدهما للآخر، لدرجة أنهما قررا معاً القيام برحلة حول العالم. في البداية - إلى أمريكا، إلى المعرض العالمي في شيكاغو، والعودة إلى روسيا عن طريق اليابان.

وقد كتب ليف لفوفيتش لأمه في 23 كانون الثاني/ يناير: «تعرّفت على تشيخوف، الذي أفكر معه في الذهاب إلى أمريكا. إنه إنسان رائع، كما يبدو، على أية حال، رفيق درب مثير للاهتمام».

لم تفارقه فكرة الرحلة المشتركة مع تشيخوف حول العالم حتى منتصف خريف عام 1893، عندما أدرك بصورة نهائية، أنه ليست لديه القوى لمثل هذه الرحلة. ويبدو أن أهله لم يدركوا حتى تلك الفترة كامل جدية وخطورة وضعه الصحي.

فما هو مرضه؟ لم يقدم أي من الأطباء جواباً محدداً عن هذا السؤال. في حين أنه كان يفحصه ويعالجه نجوم الطب الكبار في موسكو-زاخارين، كوجوفنيكوف، بيلوغولوفي؛ وفي باريس-بوتان وبريسان، تلميذ شاركو الشهير. وقد أكد الجميع أن مرضه مرتبط باضطراب الجهاز العصبي، الذي يؤثر على عمل الجهاز الهضمي، وهذا يؤثر بدوره على الأعصاب. لقد كانت حلقة مغلقة.

كان يبدو أنه ليس هناك من مخرج. كان يفقد وزنه بشدة، منتقلاً إلى حالة من القلق الدائم، وتطلع *للهرب* إلى مكان ما. وربما كانت فكرة الرحلة مع تشيخوف ناتجة عن السبب نفسه. ولكن ليس من المستبعد أنها بدأت قبل ذلك بكثير. ولهذا ترك الجامعة، وهرع لمساعدة الجياع، ثم أراد التخلي عن خدمة الجيش، ثم أخذ يحلم بالخروج من الجيش.

ثمة مدونة في يوميات أخته تاتيانا عام 1894 عن شقيقها: «مسكين، إنه يريد أن يهرب من مرضه، وفي كل مكان جديد يصل إليه، يبدو له أن وضعه أسوأ، أن آماله تخدعه...».

فما هذا المرض الغريب! إنه لم يضعف رغبته وإرادته في الحياة. بل على العكس، كان يقوّيها! ففي أكثر اللحظات الحرجة، كان يرغب بشغف *في الحياة*. وكان يعاني أكثر من أي شيء آخر عندما لم يكن يسمح له مرضه بذلك. كان يتوق إلى *الحياة* بكامل روحه! وقد كتب لأبيه:

«بابا الحبيب، أنا أشعر بأشد الأسف والمرارة لأنه حدث بيني وبينك سوء التفاهم هذا. لا تغضب عليّ واغفر لي إذا سببت لك الآلام. لقد صدر

هذا رغماً عن إرادتي. ولا تفكّر أبداً أنني يوماً استرضيتك باتباعي أفكارك، وإذا ما شاركتك فيها فإنني كنت صادقاً دوماً في ذلك. ولكن لماذا أنت لا تفهم تبدلات مزاجي ولا تسامحني. وحقيقة أنني أزعجتك تؤلمني أكثر من أي شيء آخر. لم أرد هذا قط. لكنك دوماً سوف تنزعج منا، طالما أنك تطالبنا بكثير من الصرامة، وفي الوقت نفسه لا تراعينا.

أنت تسير بطريقك، وكل واحد منا يسير بطريقه...

... ولهذا، ربما الأفضل، أن أبقى ضائعاً وأن أركب على دراجتي وآكل شرائح اللحم في لباس فارس الهوسار، من أن أخدع نفسي، وأخدعك، وأخدع الآخرين. وليكن في علمك، من فضلك، وثق بي، حباً بالله، بأنك أنت وما تقوله، وما تعيش من أجله الآن أغلى شيء عندي في الدنيا. هذه حقيقة، وأنا لا أخدع نفسي».

وماذا عن الأب؟ هل استاء من «الدراجة» ومن «زي فارس الهوسار»؟ لا، أبداً. وكتب لزوجته: «تلقيت بالأمس رسالة من ليوفا، وأنا ممتن له كثيراً عليها...».

إن أسهل طريقة أن نتصور الأمر على النحو التالي: لوى الأب العنيد المزاجي ابنه باتجاه قناعاته، والابن، مرض لعدم قدرته على تحمل ضغط الأب. لكن تولستوي لم يفرض إرادته على الابن. وهو لم يسع كي يصبح ابنه مثيلاً له. إن مجرد وجود مثل هذا الأب كان يقتل في الابن القدرة على الحياة المستقلة. فيما بعد، وفي محاولته إعطاء تسمية لمرضه، لم يعثر ليف لفوفيتش على كلمات أخرى سوى «*المرض التولستَوي المستمر*». لقد كان شكلاً قاسياً لتبعيته الروحية لأبيه. وهذه لم تكن مشكلة ليف لفوفيتش وحده.

وقد تذكر الكاتب سكيتاليتس (الجوّال) (لقب أدبي للكاتب ستيبان غافريلوفيتش بتروف) الذي ارتبط بعلاقات الصداقة مع أبناء تولستوي، أن إيليا في أحاديثه معه «كان يلعن منشأه من أب مشهور؛ وبحسب قوله، فإن أباه، دون أن يلاحظ، كان يقمع موهبتهم الوراثية بضخامة عبقريته: فهم دوماً إلى جانبه كانوا يقتنعون، يائسين، بضآلتهم. وكانت مقارنة أنفسهم بأبيهم تقتل طاقتهم».

لم يكن ليف لفوفيتش هو من بدأ بركوب الدرّاجة. بل بدأ بركوب الدراجة أبوه عندما كان في السادسة والستين من العمر. وقد حدث هذا في ربيع عام 1895. في البداية كان يركب الدراجة في مانييج، ثم في شوارع موسكو، وأخيراً في طرقات ياسنايا بوليانا. وقد كتبت حتى الصحف الأمريكية عن هذا الخبر: «الآن الكونت ليف تولستوي يركب على الدرّاجة، مثيراً دهشة الفلاحين في ضيعته».

هواية الزوج كبير السن هذه أثارت استياء صوفيا أندرييفنا، لا سيما أنها حدثت بعد شهر واحد من وفاة ابنهما الصغير فانشكا. كما سخط «التولستَويون» من هذه الهواية لأنها ألقت بظلالها على قداسة معلمهم، وناقضت تعاليمه حول التخلي عن الترف. فالدراجة في تلك الأثناء كانت باهظة الثمن[1].

وماذا عن تولستوي؟ إنه يكتب في يومياته: «حاول يفغيني إيفانوفيتش أن يثنيني وانزعج لأنني أركب الدراجة، لكنني لا أشعر بالخجل. بل على العكس، أشعر أن في هذا غبطة طبيعية، وإنني لا أهتم بما يفكرون، كما أنه لا خطيئة أبداً، في التسلية والمرح على طريقة الأطفال».

في هذا الوقت كان ابنه في مصحة الدكتور ميخائيل بتروفيتش أوغرانوفيتش في ضاحية موسكو لمرضى الأعصاب. وكان وضعه الصحي سيئاً لدرجة أن طبيب الأعصاب الروسي الشهير ألكسي ياكوفليفيتش كوجيفنيكوف أعلن لصوفيا أندرييفنا بأنها أم غير شابة ويمكنها أن تتقبل «بهدوء أكبر خبر أن ليوفا لا يمكن أن يتعافى، وأنه يهدده إما الموت أو الجنون». ونفض يديه الطبيب المعالج الشهير غريغوري أنطونوفيتش زاخارين، الذي «حكم» عملياً على ليف لفوفيتش بالموت القريب.

كانت ترى صوفيا أندرييفنا في نومها كوابيس ليلية: «لا أدري، نائمة أم لا، أرى: ليوفا يدخل، فرحت به، عانقته، وقد تراكمت عظامه تحت جلده بين يديّ في كتلة واحدة؛ وأشعر كيف تتدلى عظامه في الجلد ويضرب أحدها الآخر، أما وجهه فكان يبتسم لكنه نحيف للغاية».

1- أهدى تولستوي الدرّاجة أعضاء جمعية موسكو لهواة الدراجات.

من الصعب القول، كيف كان سينتهي الأمر، لو لم تكن لدى ليف لفوفيتش *إرادة قوية* في الحياة *شديدة التطور*. وبعد سنوات عديدة، كتبت خالته تاتيانا أندرييفنا كوزمينسكايا رسالة لابن أختها، الذي كان آنذاك في المهجر: «كن بصحة جيدة، لا تثبط عزيمتك، لقد كان لديك الكثير من الطاقة الحَيوية عندما كنت تصرخ: عمتي، أريد أن أعيس! (أنا أكتب كما كنتُ تلفظ) (المقصود أعيش -*المترجم*)».

بسهولة وبساطة وبهجة

لا يصح القول إن الأب لم يكن يهتم على الإطلاق بمرض ابنه. كان يفكر بحالته النفسية. علاوة على ذلك، بدأ تولستوي يخاف عليه حتى قبل أن يصيبه المرض. وقد بدأ هذا قبل خدمة ليف لفوفيتش في الجيش. ففي رسائله إلى زوجته وإلى أشخاص آخرين، يكتب تولستوي في أحيان كثيرة، أن الحديث يدور حول ليوفا: «إنني أخاف عليه باستمرار...»، «أخاف عليه دائماً».

إن مرض ليف لفوفيتش قد قرّب صوفيا أندرييفنا من زوجها. وقد كتبت له من موسكو إلى ياسنايا بوليانا في عام 1893: «إن حزننا على ليوفا في الفترة الأخيرة متماثل لدرجة أنه أخذ يربط فيما بيننا أكثر».

لكن الغريب أن في يومياتها في هذا الوقت تتردد فكرة أخرى مغايرة تماماً. ففي عام 1893 نفسه، تكتب عن زوجها أشياء مروعة! (على أية حال، ندمتْ لاحقاً على هذه الكلمات.)

«أنا أُؤمن بالأرواح الخيّرة والشريرة. لقد استحوذت الأرواح الشريرة على الإنسان الذي أحبه، دون أن يلاحظ هذا. وتأثيره مميت وضار. وها هو ابنه سيموت، وبناته ستموت، وسيموت كل من يتواصل معه. وأنا أصلي من أجل الأبناء ليلاً ونهاراً، وهذا الجهد الروحي قاس وصعب، وأنا أنحف، وسأموت جسدياً، لكنني أنقذت نفسي روحياً لأن ارتباطي مع الله، وهذا الارتباط لا يمكن أن ينقطع، طالما أنني لست تحت تأثير أولئك الذين تغمرهم قوى الشر، العميان، الفاترين، الذين ينسون ولا يرون واجباتهم

تجاه الله، أولئك المتكبرين والمتشامخين. أنا لم أصلّ بعد من أجل الصغار، فمن غير الممكن القضاء عليهم. هنا ليوفا، في موسكو، أصبح أكثر مرحاً وبدأ يتعافى. إنه لا يخضع لأي تأثير سوى صلاتي».

في يوميات زوجته، يبرز تولستوي كمصاص دماء روحي، نصيراً بلا رحمة لمذهب المتعة hedonist: «إنه يتنزه، يركب على الحصان، يكتب قليلاً، يعيش حيث يريد، وكما يريد، ولا يفعل شيئاً على الإطلاق من أجل الأسرة، مستخدماً كل شيء: خدمات بناته، رفاهية الحياة، تملق الناس وطاعتي وعملي. والمجد، المجد الذي لا يشبع منه، الذي فعل من أجله كل ما في وسعه، ولا يزال يفعل. الأشخاص بلا قلب وحدهم القادرون على هذه الحياة. ليوفا المسكين، كيف تعذب وعانى من موقف أبيه السلبي منه طيلة الفترة الأخيرة. إن شكل الابن المريض كان يمنعنا من العيش بهدوء والتنعم - وكل هذا لم يكن يزعج الأب...».

إن التناقض بين رسائل صوفيا أندرييفنا ويومياتها وذكرياتها يرغمنا على التعامل مع كلماتها بكثير من الحذر. ففي تلك الحادثة التي يسهل جداً فيها العثور على مذنب، لا وجود له. إن مدونات يوميات صوفيا أندرييفنا قد أملاها وضعها اليائس. فمرض ابنها وقع على كاهلها بادئ ذي بدء. وقد نشأ هذا المرض إلى حد كبير، نتيجة محاولات ليوفا اتِّباع أبيه، وتقليده حرفياً. ولكن، هل كان باستطاعة الأب، في هذا الموقف مساعدة الابن بشيء ما؟

إن هذا ممكن في أسرة عادية، حيث تكرار الابن لـ «مصفوفة» سلوك الأب في حياته، في ظروف تفاهمهما المتبادل، يمكن أن يصبح مصدراً للانسجام العائلي. وفي هذه الحالة يقال: «انصب الابن في قالب الأب». بيد أن تكرار سلوك تولستوي-الأكبر لم يكن خطيراً فحسب بل وبلا معنى. وتولستوي نفسه، طيلة حياته كان يتعامل مع نفسه، ولم يكن لديه خلال ذلك أمام عينيه أي نموذج للتقليد. وعمله في مكافحة المجاعة كان عفوياً وعاطفياً، كعمل ابنه الشاب. لكن ليف لفوفيتش أثناء المجاعة، شعر بنفسه بطلاً رغم كل شيء، أما أبوه فشعر بنفسه آثماً. وفي هذه الفترة يعترف تولستوي في يومياته: «... ليست لدي حياتي التي كنت أحبها. اليابانيون، الصينيون، المالاويون، أبنائي، زوجتي-وجميع الناس... أنا واحد، ووحيد

بين جميع الناس. إن الشعور بهذه الوحدة، والحاجة إلى التواصل مع الناس، واستحالة هذا التواصل كاف لكي يفقد الإنسان عقله».

في كتابه الفلسفي-الديني «ملكوت الله في داخلكم» الذي اختتمه في ذلك الوقت، يميز تولستوي ثلاث مراحل لفهم الحياة. الأولى شخصية أو *حيوانية*. الثانية: عامة أو *وثنية*. والثالثة: عالمية أو *إلهية*. كان تولستوي يدرك، أن كل إنسان (بمن في ذلك هو) يقع في أفضل الأحوال في المراحل الثلاث في وقت واحد، ومحكوم بأن يبقى عليها طيلة حياته. والمرحلة الشخصية أو الحيوانية لها بالإضافة إلى جوانبها السلبية (الشهوة، الشراهة وما شابه ذلك) جوانبها الإيجابية: حب *الرجل لزوجته*، *لأطفاله*، *لبيته*... وثمة فضائل في الفهم العام أو الوثني للحياة: محبة *الوطن*، محبة *الأمة*، محبة *المجتمع*.

ولكن، كان يعتقد تولستوي، أنه يكمن في الإنسان دوماً سعي إلى المثل الأعلى الذي لا يكتسبه إلا باتحاده الكامل مع الله. «لأن ملكوت الله في داخلك» (لوقا 17: 20-21). لهذا فإن معنى الحياة الإنسانية هو تجاوز الحد الأقصى من مفهوم الحياة «الحيواني» و«الوثني» والاقتراب إلى مفهوم الحياة «الإلهي».

هذا المسار بلا نهاية، ولا يمكن تحقيقه، وبدون نتائج معروفة، لأننا لا نعرف ما يحدث للإنسان بعد الموت. لكن ضمانة صحة هذا الطريق هي «فرحة الحياة» التي يجلبها هذا المسار. والشهادة الوحيدة على أنك تسير على هذا الطريق هي محبة الناس، جميع الناس دون استثناء، «اليابانيين، الصينيين، المالاويين، أطفالي، زوجتي...».

ربما هنا، كان يكمن التناقض الأخطر في عقيدة تولستوي.

في عام 1907 كتب تولستوي نوعاً من الوصية الروحية للشبيبة تحت عنوان: «أحبوا بعضكم بعضاً». وفيها أثبت أن محبة الناس هي وضعية النفس الأكثر بهجة والأكثر طبيعية.

«أن نتمنى الخير لجميع الناس يعني أن نحب الناس. لا يمكن لأي أحد ولا أي شيء أن يمنع محبة الناس، وكلما أحب الإنسان أكثر أصبحت حياته أكثر حرية وأكثر بهجة».

«إخوتي الأعزاء، لماذا، ومن أجل ماذا تعذبون أنفسكم؟ تذكروا فقط أن الخير الأعظم مكتوب لكم، فخذوه. كل شيء في داخلكم. إن هذا سهل للغاية، وبسيط، ومبهج».

«نعم، أيها الإخوة الأعزاء، فلنكرس حياتنا لتعزيز الحب في أنفسنا ولينطلق العالم كما يريد، أي كما هو مرسوم له من الأعلى... فهذا يجري بسهولة، وبساطة، وبهجة».

ولكن لماذا لم يكن يشعر بالسرور والبهجة؟

«الشيء نفسه: عناد العمل ذاته، الحركة البطيئة ذاتها وعدم الرضا عن الذات نفسه. على أية حال، أفضل قليلاً. الآن سافرت إلى كوزلوفكا، كنت أفكر للمرة الأولى: مهما كان رهيباً التفكير والقول: هدف الحياة قليل – تكاثر واستنساخ الإنسان لأمثاله، واستمرار الجنس البشري، وكذلك خدمة الناس، كذلك قليل خدمة الله. استنساخ الإنسان لأمثاله. ولماذا؟ خدمة الناس؟ وأولئك الذين سنخدمهم ماذا سيفعلون؟ سيخدمون الله؟ أفلا يمكنه فعل ما يريده دون خدمتنا؟ نعم إنه لا يمكن أن يحتاج إلى شيء».

في ذروة العمل على مكافحة المجاعة، أحبت الابنة الكبرى تاتيانا نصير أبيها يفغيني بوبوف. لكن المشكلة، أنه متزوج. وتبدأ سلسلة من الآلام النفسية، وتبادل اليوميات، والمراسلات الهستيرية... تشعر تاتيانا بالذنب تجاه أبيها، وتمزق قلب أمها، التي ترى أن ابنتها قد أنهكت نفسها في العمل في المجاعة، زد على ذلك، وقعت في حب رجل متزوج. وقد بلغت الثلاثين من عمرها، ولا تزال فتاة عذراء.

أما الابنة الثانية، ماشا، فقد كانت الأكثر روحانية، والأكثر محبة. من حيث الشكل الخارجي، غير جميلة، تشبه أباها، لكنها كانت تتمتع بجاذبية فاتنة مميتة. وقد وقع في حبها جميع «التولستَويين» الشباب. وكذلك غير «التولستَويين». وكان هذا يروق لماشا. تكتب تاتيانا في يومياتها بغضب: «كان كل رجل يثيرها، بحيث من غير الممتع مشاهدة ذلك. رغم أنها كانت تخفي ذلك. لليوم الثالث كانت ذابلة طيلة اليوم، ومملة، وكانت تشكو بأن حزناً «أخضر» جثم عليها، ولكن بمجرد أن يأتي شخص ما تغدو متحمسة

ومبتهجة. فلتتزوج بأسرع وقت، لأنه من القبح أن ترمي بنفسها على رقبة كل من يعيش على مقربة منها. وكيف يمكن أن تنظر للناس في أعينهم عندما تكون قذرة على هذا النحو، وترفع الكلفة مع عدد كبير من الرجال، وتقبِّلهم».

في بيغيتشيفكا أدارت رأس الشاب فانيا رايفسكي. ومن ثم في ياسنايا بوليانا، أصبح معلم الموسيقى نيقولاي زاندر ضحية جاذبيتها. وإذا كان تعلّق ماشا برايفسكي قد أثار قلق والديها، فإن احتمال زواجها من زاندر، الألماني الذي لا يُعرف أصله وجذوره، بدا مرعباً حقاً! وقد كتب ليف نيقولايفتش رسالتين إلى زاندر، على مضض، ليصرفه عن هذا الزواج. وكتب لابنته ماشا: «حمامتي الحبيبة، سأقول لك في الرسالة ما أود كثيراً قوله لك، ولكن بكل ضمير ووجدان: مهما كان الأمر مؤلماً بالنسبة لك، يجب أن تُخرجي هذه الشوكة، وأن تعترفي أمام نفسك بأنك أُصبت بمرض ما... لا أريد أن أقول شيئاً ضده. بالنسبة لي، شيء واحد، هو ما أكتبه له: إنه الزواج الأكثر سخافة، الخالي من أي أساس: عقلي، أو عاطفي أو منطقي. إنه نزوة طائشة مشوهة».

أما صوفيا أندرييفنا (وهي نفسها نصف ألمانية) ففي رسائلها إلى زوجها كانت أكثر صراحة: «... لماذا سمحت لنفسك بأن تتأثر وكتبت رسالة لزاندر؟ فأنت، كما يبدو، في حالة يأس، من هذا كله وقد استُؤنف من جديد؛ فإذا كان شعورك المباشر يعارض هذا، فيجب التصرف مباشرة. ومن غير المسموح ترك ماشا تنحدر إلى هذا الوضع غير الطبيعي، حيث ترمي بنفسها على عنق هذا الألماني السمين، وذلك فقط لأنه استطاع كتابة رسالة عاطفية؟ لا يمكن أبداً أن أتخيل ماشا في هذا الوسط الألماني البرجوازي، بأب أحمر الأنف، يذهب إلى السوق لشراء النقانق والبيرة، – مع نسل آل زاندر البيض... إنه أمر مقرف!».

ثم من يمكنه أن يقول لنا، كيف يمكن أن تقترن المرحلة الثالثة/*الإلهية* مع المرحلة الأولى *الحيوانية*، التي تغلي فيها بالذات الشهوات القوية؟!

وفي هذا الوقت بالذات مرض ليوفا. وكأي مريض نفسياً، لا يفهم

أسباب مرضه، كان يتطلب بصورة أنانية اهتماماً متزايداً، وفي الوقت نفسه ينزعج من هذا الاهتمام.

تشكو صوفيا أندريفنا: «ليوفا من جديد، كئيب يوجع قلبي، يوبخ الطبيب، ويوبخني، ويشتم المياه العلاجية، ويصل إلى حد اليأس. إنه يندفع بشكل رهيب، وهذا صعب عليّ، ولا أقدر على مساعدته، ولا أعرف كيف».

في البداية كان ممتلئاً رغبة بامتلاك عقار في مكان ما بالقرب من ياسنايا بوليانا. لكن نفسه لم تشعر بالاطمئنان والراحة إلى أي منها سوى ياسنايا بوليانا.

«ليوفا يبدو أنه أفضل، لكنه يندفع ويتقلب باستمرار، ولا يعرف ماذا يقرر؛ يريد شراء دوبني، لكن هذا العقار لا يروقه كثيراً. أعتقد، أن لكل شيء قَدَره، وقدره قد تحدد، أين سوف يعيش. أنا لا أنصحه بأي شيء، أخشى التدخل في شؤون القدر...».

إن مرض الابن أربع سنوات قد أصبح كابوساً لأمه. كان يطالب بالاهتمام به، لكنه خلال ذلك كان يعذِّب بقسوة أمه، التي كانت تبدي نحوه الاهتمام والحب أكثر من الجميع.

«عَداء ليوفا تجاهي يزداد بسرعة كبيرة ومن غير المفهوم لماذا، ولا يمكن لأحد غالباً أن يجد سبباً لهذا العداء. حتى ما يسمى بالمضايقات، حول جميع همومه ومشاعره -لم أعد أقوم بها أبداً. لا يمكنني وصف جميع تفاصيل مماحكاته، ولكن بالأمس عندما حملت رسالتك إلى جناحه، أرغمني على أن أذرف الدموع: فخرجت كي لا يقول لي أيضاً إنني أرتب له مسرحيات.- الآن جاءني هادئاً، مثيراً للشفقة - إنه مستغرق إلى حد كبير بمعاناته، يا له من مسكين، لم يعد حساساً، لطيفاً، كما كان في السابق، تجاه كل ما يحيط به. البارحة لم يتناول طعام الغداء معنا، بل في الجناح وحده، وكنا قد أنهينا وجبة الغداء...».

أثناء وجوده في موسكو، لم يعش ليف لفوفيتش في البيت الكبير، الذي هو مالكه القانوني. بل انتقل إلى الجناح، المبنى الإضافي حتى إنه كان يتناول طعامه وحيداً. ربما كانت تزعجه الفوضى السائدة في البيت. ولكن، ربما كان هذا أيضاً تعبيراً مَرَضياً عن عدم جدواه، عن عبث وجوده.

تكتب صوفيا أندرييفنا بمرارة: «مساء ذهبت للجلوس مع ليوفا. وعن غير قصد تحدثت عن الأعصاب، وكررت كلمات الدكتور بيلوغولوفي، أن المشكلة كلها تتعلق بالأعصاب. قفز ليف بصورة مفاجئة، وبدأ يشتمني بصورة رهيبة: حمقاء، شريرة، عجوز، أنتم جميعاً تكذبون!... كيف يمكن احتمال هذه الأشياء! شيئاً فشيئاً تقلُّ شفقتي عليه، كم هو قاس، لا يرحم، رغم أن هذا كله بسبب المرض، ومرضه هذا مؤسف رغم كل شيء!».

وطيلة هذه السنوات استمر ليف لفوفيتش نصيراً معجباً بتعاليم والده. وعبّر لأمه عن اعتراضه وقال إنها لا تربي إخوته الصغار بشكل صحيح، مكرراً بالضبط أفكار أبيه.

ومع انزعاجه من أمه، القلقة عليه، مثل أنثى ترعى ابنها الشبل المريض، كان في الوقت نفسه يكتب لأبيه المقيم في ياسنايا بوليانا أرقّ الرسائل: «بابا، صديقي العزيز، ليس هناك يوم لم أفكر فيك، لأنه ليس هناك إنسان أكثر مني يحبك ويعرفك ويحس بك. من فضلك، عندما تتذكرني، اكتب لي، ولو قليلاً. لا تؤاخذني لأنني ما زلت أنتظر استعادة صحتي. إنني أرضى بالقليل منها، علها تأتي، لا صحة لدي أبداً، لا حياة كما أفهمها، وكما أريد أن أعيشها. أعانقك. ماذا تفعل، وكيف أنت، هل أنت بخير؟ أنا بحالة جيدة هنا، أعيش قليلاً، ولكن ليس كما أريد، بل كما ترى».

أما رسائل الأب الجوابية فتترك في نفس القارئ انطباعاً معقداً. إنه يسعى للتعبير عن حبه لابنه، واهتمامه به، ولكن يشعر المرء أن هذا ليس سهلاً عليه. إن مرض ليوفا يعيقه من أن يعيش حياته المألوفة، يتغلغل في مسار معاناته الإبداعية وتأملاته الفلسفية، كشيء غير ضروري وغريب. لكن الأهم من ذلك، أن ليوفا بمرضه، قد انحدر بسرعة في عيني أبيه، إلى المرحلة الأولى الحيوانية، الأنانية، وهذه المرحلة كانت أقل شيء يهم الأب.

يكتب تولستوي لابنه من ياسنايا بوليانا: «الفظيع أن هذه حلقة مفرغة cercle vicieux – من اعتلال الصحة أنت تفكر بصحتك، ومن التفكير تصبح معتل الصحة. الشيء الأهم والأكثر فائدة لك هو الشغف بفكرة قوية وبالعمل. وهذا ما أتمناه لك، مع علمي أن هذا لا يمكن شراؤه».

لكن ليف لفوفيتش كان يتعذب بالذات لأنه أراد بحماسة وشغف أن يعيش «الفكر والعمل»، لكن وضعه الصحي البدني لم يسمح له بذلك. وكان في نصيحة الأب «حلقة مفرغة» أيضاً: أنت تشعر بسوء وضعك لأنك لا تستطيع أن تتعلق بشيء قوي ما، ولا تستطيع التعلق بشيء قوي لأنك تشعر بسوء وضعك.

في رسائل الأب إلى الابن ثمة الكثير من المواعظ الأخلاقية. «لقد علّمك المرض الكثير، ولكن لم يعلمك بعد كل شيء، وإذا ما عشت معافى، وحتى مريضاً، خمسين سنة أخرى، سوف تتعلم أيضاً ولن تعرف كل شيء».

والمدهش في الأمر، أن هذه الرسالة قد كُتبت في نهاية تشرين الأول/ أكتوبر عام 1894، وقد توفي ليف لفوفيتش في 18 تشرين الأول/ أكتوبر عام 1945، أي عاش خمسين سنة بالضبط!

«... أنت مخطئ عندما تقول إنه من أجل الخدمة ثمة حاجة إلى قوى خارجية. هذا غير صحيح، فلا حاجة للصحة والقوى الخارجية. إن لطف الله وحكمته مذهلان بالنسبة لي، فهو أعطانا إمكانية فعل الخير بصرف النظر عن جميع الظروف المادية مهما كانت... إنها كجناحي الطائر. يمكنك أن تعيش ويجب أن تعيش حياتك المادية كلها، بالعمل فيها؛ ولكن ما إن تظهر عقبة أمامك، تفتح جناحيك وتثق بهما وتطير».

كل هذه الأقوال كانت حكيمة، والتشبيه بالطائر بدا جميلاً للغاية... لكن هذه الكلمات كُتبت لشخص كان يتعالج في باريس، وتبين أن وزنه لا يزيد عن اثنين وثلاثين كيلوغراماً. وبهذا الصدد، كان يكتب على سبيل المزاح في رسائله لأهله: «من عظامي لن يتجمع سوى كيس غير كبير...».

«أردت أن أسألك أيضاً: هل تؤمن بالله؟ - تسألني -بأي إله؟- بالله الذي بإرادته يوجد كل ما هو موجود، ويوجد كما هو موجود، والأهم الذي بإرادته ظهرت أنت بنفسك العاقلة، المحبة، الخالدة، الكامنة لفترة في هذا الجسد... يجب أن تؤمن بهذا الإله، يجب أن تؤمن جيداً بهذا الإله. لمثل هذا الإله يمكن أن نصلي، ليس بالطبع من أجل تغيير شيء ما في العالم المادي، كي يزول المرض، ولا يأتي الموت وما شابه ذلك، بل يمكنني

الصلاة من أجل أن يساعدني في معرفة وتحقيق إرادته، من أجل أن يقرّبني إلى ذاته، كي يساعدني في صدّ ما يفصلني عنه. «تعال واسكن فينا»، كما قيل في الدعاء الجميل...».

هذه لهجة واعظ ديني وليس لهجة أب. ومع ذلك، كان ليف لفوفيتش يحاول دائماً *التوافق* مع تلك الذروة الدينية التي كان يطرحها الأب. إنه يكتب لأبيه: «كيف أعيش؟ أسعى لأن أتعافى، آمل، وأسعى لمساعدة الأولاد، وأسعى لعدم إزعاج ماما ومراعاة اهتماماتها في مخللاتها وتصحيحاتها، قدر استطاعتي، وأحاول عدم إدانة أي شخص، والنظر للحياة والناس حتى النهاية ومن وجهات جديدة، وأسعى للمهادنة والقبول بالحاضر. وأحقق كل هذا بقدر ما أستطيع. أسعى أحياناً أن لا أرغب بالتعافي وأن أحتمل الآلام بوداعة وأصغي إليها، وعندها أدرك أنه لا وجود لها».

من بين الرسائل إلى والده، ثمة رسالة أملاها على ابن الفنان غي كليتشكا ومكتوبة بخطه. يبدو أن يد ليف لفوفيتش في تشرين الثاني/ نوفمبر عام 1894 كانت عاجزة عن مسك الريشة. «بابا، صديقي العزيز، أرد على رسالتك. أنا أعلم أن هناك شيئاً ما في حياة الناس، شيئاً يدفعهم إلى طريق اليقين... وهذا الشيء، الضمير أو العقل، يقودنا، رغم إرادتنا، إلى مكان ما، إلى شيء ما أفضل، في هذا الشيء بالذات، بهذا الإله أنا أؤمن. وكثيراً ما أردد: فلتكن إرادتك، معتقداً، أن هذا ما يجب أن يكون وهذا أفضل. لقد توقفت عن الصلاة من أجل أن تعود لي صحتي، وكل ما أرجوه، أن يمنحني الله القوة والقدرة على تحمل وضعي... أردد صلاة أفرايم السرياني وصلاتي التي صغتها بنفسي...».

بصورة لا إرادية، تخطر في ذهن القارئ فكرة، أن ليف لفوفيتش، ليس بسبب مرضه فقط، بل بتأثير تعاليم أبيه أيضاً، وصل بحلول نهاية عام 1894 إلى النفي الكامل لإرادة الحياة، واستسلم لوضعه وهيأ نفسه للموت.

هنا لا بد من مواجهة الحقيقة. فالحالة الجسمية لابنه كانت أقل ما يهم الأب. حتى إنه لم يحاول إخفاء هذا الشعور. بينما كان تعاطفه مع زوجته أكبر بكثير: «... يبدو، أن ليوفا الآن، يعذبك أكثر من أي شيء آخر». وفي

رسالته إلى تشرتكوف كتب عن ابنه: «إن صحته ليست في أحسن حال. والأمر الغريب، أن مرضه الجسدي لا يقلقني أبداً. وأشعر باللامبالاة الكاملة نحو وزنه، سواء زاد أو نقص، في حين أنني أبدي حساسية وأتأثر بأي جزء صغير من وزنه الأخلاقي».

وللصدفة الغريبة، أنه في هذا الوقت أصيبت زوجة تشرتكوف آنّا كونستانتينفنا (غالا) بمرض شبيه. ومن خلال رسائل تشرتكوف وحده، يستنتج تولستوي، أن الحالة الأخلاقية لغالا أغلى بكثير من حالة ابنه: «الفرق بين ليوفا وبينها أن فيها قدراً أكبر من القبول والاستكانة ولذلك فلديها قوة روحية أكبر». كان تولستوي يبحث مع ابنته ماشا عن ممرضة مسعفة للمريضة غالا، كي يرسلها إلى عقار آل تشرتكوف في فورونيج. وها هو يكتب لتشرتكوف: «أتعاطف معكما من كل روحي، معك ومع آنا كونستانتينفنا... بودي كثيراً أن أرى حياتكما وأن أشارككما أعباءها وفرحتها. لم أيأس من القدوم إليكم. أولادي - تانيا وليوفا، الذي يتسرع في كل شيء، يعودان قريباً من باريس. ومن المقرر أن يكونا هنا حوالي 20 من هذا الشهر، وعندها إذا لم يحصل أي شيء يعيق وإذا ما بقيت حياً سأحاول القدوم إليكم».

محاولة ليف لفوفيتش العلاج في مدينة كان، بناء على نصيحة الأطباء، لم تحقق أي نجاح. وفي بداية عام 1894 انتقل إلى باريس، لكن وضعه هنا أصبح سيئاً جداً لدرجة أنه استدعى أخته تانيا إليه ببرقية ذعر.

وفي الرسالة التي أرسلها لها لاحقاً، دوت صرخة يأس: «أنا في انتظارك، يا عزيزتي تانيا، إذا لم تغادري بعد بناء على البرقية. خذيني، خذيني إلى المنزل، وصِليني وعالجيني. أنا بحاجة إلى شعبي، إلى حياتي الهادئة، العادية، المملة، وإلى المربية أو سأنزل للعلاج في عيادات موسكو».

كان رد فعل الأب مذهلاً! تكتب تاتيانا في يومياتها في طريقها إلى باريس: «لقد صبَّ علينا بابا ماءً بارداً، حيث قال، إنه من الجنون أن أسافر لعنده، وأن ليوفا نفسه سيتوب عما كتبه لي...» وهنا أيضاً تشرح، كيف يكمن حب الأب لابنه ليوفا: «... البارحة تحدث أبي عن حبه لليوفا. وأنه يشعر

بأقل تغيير في حياته الداخلية، وفي آرائه، وأنه يتابعه ويرى أي تردد عنده، ويشعر بالألم عندما يجد تراجعه ويفرح عندما يجد اقترابه من الحقيقة، لكنه لا يفكر أبداً بحالته الجسمية ولا يمكنه العناية بها. وقال إن ثمة حباً آخر، يهتم فقط بصحة الإنسان، ولباسه، وغذائه - أحياناً هذان النوعان من الحب يلتقيان، ولكن يجدر بالجميع أن يتعاملوا كما يتعامل هو مع ليوفا. ثم ضحك وقال: <<لكن ما يحزنني، أن أسنان تانيا تتساقط>>».

ولكن، هل يمكن تسمية هذا حباً؟! مكتبة سُر مَن قرأ

إن عودة ليف المريض مع تانيا من باريس تمنع بشكل مزعج الأب من الذهاب مع ماشا إلى آل تشرتكوف. في غضون ذلك، تصل برقية مقلقة أيضاً من تشرتكوف: «كانت غالا اليوم بحالة صحية سيئة جداً. حتى إننا ظننا أنها تنازع. الآن انتعشت قليلاً، لكن حالتها سيئة جداً. أرادت رؤيتك». أجاب تولستوي: «لا يمكنني أن أعبر لك كم أحبكم، يا صديقي العزيز، وكم كنت أرغب أن أكون الآن معكم. الآن، من المستحيل السفر، بالنسبة لي. لقد وصل ليوفا الآن، في حالة يرثى له، ويقول إن كل شيء قد انتهى، وإنه لن يتعافى، وهو مسرور فقط لأنه يريد أن يموت في المنزل بين أهله. أعتقد أن هذا إلى حد كبير، نتيجة تمضيته أربع ليال في القطار، ولكن مع ذلك لا يمكنني أن أتركه الآن، لا سيما أن الجميع يعارضون سفري. ولكن مهما عارضوا، بعد يومين أو ثلاثة أيام، عندما يصبح أقوى كما آمل، سأسافر إذا ما بقيت حياً، وسأفرح بمشاركتكم أحزانكم وآمالكم وأفراحكم». وبعد ستة أيام تصل برقية إلى تشرتكوف: «غداً نركب بالقطار السريع؛ هل ثمة معبر؟ أجب. تولستوي».

موقف الأب هذا أساء إلى الابن. وسيكتب لاحقاً: «عندما فحصني أستاذ الأمراض العصبية كوجيفنيكوف في عيادة موسكو، وأعلن لوالديّ أنه بقي من عمري عامان على أكبر تقدير، جاء والدي لعندي وأخذ «يعزيني» قائلاً: «*إن لكل شخص دائرة حياته الخاصة*: فدائرة حياة شخص مئة عام، وشخص آخر -عامان، وشخص ثالث- خمسة وعشرون عاماً». لن أنسى أبداً، بأي رعب نظرت إليه، غير مصدق، أن يكون هو قاسياً إلى هذه الدرجة. حتى الآن، لا أفهم، كيف أمكنه أن يقول هذا. ربما، من أجل تهدئة نفسه في حالة موتي...».

تقول صوفيا أندرييفنا في كتابها «حياتي»: «إن ليف نيقولايفتش لم يستطع العيش قط في جو معاناة الآخرين، وخاصة الناس المقربين منه، وبشكل متعمد، وحتى بشكل غريزي، كان ينفي معاناتهم، ويهرب منها. وهكذا كان يحدث دائماً وحتى معي. لقد سجلت هذا في يومياتي في عام 1894، وفي عام 1910 حدث هذا بالضبط. لقد مرضت عصبياً، ولم يحتمل ليف نيقولايفتش حالتي فخرج وغادر».

في شهر تشرين الثاني/ نوفمبر عام 1894 جرى لقاء تولستوي بطبيب ابنه المعالج البروفيسور نيقولاي أندرييفيتش بيلوغولوف، الطبيب المشهور، الذي كان قد عالج في وقت ما الأدباء نكراسوف وتورغينيف وسالتيكوف - شدرين. لم يخف البروفيسور خطورة وضع ليف لفوفيتش وصرح بأن المخرج الوحيد هو وضعه في مستشفى بنظام يومي قاس، المريض «يخضع لانضباط شديد، حيث تحل إرادة الطبيب الصارمة محل ضعف الإرادة والتساهل؛ حيث يأتي إليه كل يوم في الساعة المحددة مدرب التربية البدنية تارة ومدرب الجمباز تارة أخرى، وينفذ ما يصفه له الطبيب، حيث الطعام منظم بشكل صارم، وحيث الأهم، أن المريض يعرف، أن أي خرق يقوم به للنظام سيؤدي إلى طرده من المستشفى». وكان رد فعل تولستوي على هذا كما يلي:

قاطعه الكونت قائلاً: «نعم. أنا أفهمك في هذا، إنه شبيه بما كنت أتخيله أحياناً: آخذه معي على عربة الترويكا، وأقوده بعيداً، وأرميه في الثلج وأغادر وحدي بالعربة؛ خلّص نفسك، كما يقولون، يا عزيزي، كما تستطيع».

كلا، إن هذه لم تكن قسوة. إنها كانت ضعف تولستوي. وليست مجرد ضعف طبعه، غير القادر على تحمل معاناة أقربائه والسعي إلى الاختباء منهم، والهروب. إنها كانت الحلقة الأضعف في رؤيته للعالم. فأن تقول: «فليحبّ أحدكم الآخر! فهذا الأمر بسيط وسهل ومبهج للغاية!» شيء، وهو مختلف تماماً عن الحب الصادق الحقيقي للابن الضعيف، المريض، الذي تحول لفترة إلى مخلوق بائس، أناني، لم يكن ينزعج من أبيه فحسب، بل وأحياناً من أمه، ومن أخته الكبرى التي سارعت إلى باريس لإنقاذه. «ليوفا في حالة سيئة، وفي روح معنوية منهارة للغاية. حاشا لله من أن أدينه: ربما لو

كنت في وضعه، لكنت أسوأ بكثير منه؛ ولكن من المحزن لي أن هذا الإنسان وقد تخلى عن جميع الالتزامات الأخلاقية... يا للرعب، كم من الأنانية في نفسي: أنا لا أتقن أبداً تكريس نفسي للآخر، كثيراً ما أشعر بالحيف من موقف ليوفا مني، عندما ينسى أنني لم آكل، أنني تعبة، أنني لست بصحة جيدة وما شابه ذلك. كل يوم تقريباً، عندما أعد طعام الغداء أو الفطور، يقول لي: «لماذا تقدمين الكثير من الطعام؟» أشعر بالخجل من الإجابة «هذا لي»، بالضبط يمكنني العيش بدون أكل...».

ويتضح أنه هنا كان اختباراً للحب. في المستوى الأدنى، في المستوى *الحيواني*.

مصير خوخلوف

بدأ عام 1895 بداية حزينة وعكرة في منزل آل تولستوي في خاموفنيكي. كانت الحياة ثقيلة في موسكو بالنسبة لتولستوي. ربما بسبب مرض ليوفا الذي كان يستمر في معاناته وتقلباته، مسبباً العذاب لأهله.

في شهر كانون الأول/ ديسمبر عام 1894 اجتمع في منزل تولستوي مجلس أطباء الأمراض العصبية. ودرس حالة المريض أبرز أطباء الأمراض العصبية في ذلك الوقت: فلاديمير كارلوفيتش روت وألكسي ياكوفيليفيتش كوجيفنيكوف. وقد كتبت صوفيا أندرييفنا لأختها تاتيانا أندرييفنا كوزمينسكايا: «لقد وجدوا ليوفا في حالة سيئة للغاية. أعطوا قليلاً من الأمل بالشفاء التام، وعثروا عنده على مرض الأمعاء والانهيار العصبي الشديد. ونصحوا بالعلاج الكهربائي، لكن ليوفا عاند، وقال لي بدلاً من العناية به أعذبه بالأطباء، وأخذ ينتحب، ويغضب، ويشتكي، وبدأ يتحدث عن الانتحار...».

وكتبت أنها متعبة للغاية. فبالإضافة إلى ليوفا، كان عليها أن تفعل الكثير للأطفال الصغار أندريه، ميشا، ساشا وفانيا. الابنتان الكبيرتان بعد العمل في المجاعة مع الأب، كانتا تبدوان حسب رأي الأم، منهكتين، علاوة على ذلك تعانيان من قصتي «حب» فاشلتين.

وتشكو الأم في يومياتها قلقة: «هل من المعقول أن بناتي لن يتزوجن؟».

في 1 كانون الثاني/ يناير عام 1895 سافر تولستوي مع ابنته تانيا ليحل ضيفاً على أصدقائه آل أولسوفييف في حوزتهم نيكولسكوي بضاحية موسكو. لقد كان هذا ثانية، أشبه بالهروب. لقد غادرا في الليل على الزلاّجة. وفي الساعة الرابعة صباحاً قُرع الجرس في منزل تولستوي. وضعت صوفيا أندرييفنا رداءها على كتفيها وخرجت إلى الردهة وبكثير من الرعب رأت أحد أتباع زوجها -بيوتر خوخلوف- شبه عار، أشعث الشعر، وقد فقد عقله بالفعل. في الفترة الأخيرة، كان يلاحق تانيا باستمرار بحيث إنها كانت تخشى الخروج إلى الشارع. كان يعرض عليها أن تصبح زوجته.

للأسف، كان مصير خوخلوف نموذجياً لبعض «التولستويين».

بيوتر غالاكتيونوفيتش خوخلوف، طالب في المدرسة الفنية العليا، ابن أسرة سمسار البورصة، خلافاً لإرادة أبيه، أصبح تابعاً لعقيدة تولستوي، وقرر ترك المدرسة وكسب رزقه من عمله في الأرض. كتب أبوه لتولستوي رسالة عتاب في وفاة ابنه: «نحن والداه، أنا أبوه، إنسان مريض، كبير السن، وأمه، زوجتي، امرأة ضعيفة، مريضة، وهو عندنا دعامتنا الوحيدة». وأجاب تولستوي على هذا برسالته:

«إن عقيدة السيد المسيح هي عقيدة الخير ولهذا إذا كانت نتيجة عقيدة المسيح تنتهك خير الناس، فيجب الافتراض أن ثمة خطأ في فهم عقيدة المسيح، ويجب البحث عن هذا الخطأ حتى يتم العثور على ذلك الطريق الذي لا ينتهك الخير الحقيقي لأحد. اسمح لي أن أقدم لك نصيحة... نصيحتي هي التالية: حاول أن لا تغضب من ابنك، واكبت في نفسك الشعور بالإهانة، إذا كنت تعاني منه، واستحضر إلى نفسك أفضل المشاعر تجاه ابنك، فقط في هذا المزاج المسالم والمحب تحادث معه. سوف تقهره بالحب».

وكتب إلى بيوتر خوخلوف الرسالة التالية: «صديقي العزيز بيوتر غالاكتيونوفيتش، استلمت الآن رسالتك، وترقرقت الدموع في عينيّ، والآن أكتب والدموع تجري في عينيّ. صديقي. كم كنت سعيداً لو كان باستطاعتي

مساعدتك، ولكن ما عليك أن تقرره، سيكون ما تقرره بشكل أفضل عندما تكون وحيداً، أي مع الله. بودي أن أراك، ولهذا فما يتعلق بالمجيء إليّ، افعل كما يملي الله على قلبك».

ومع ذلك، حاول تولستوي في الرسالة التالية ثني الشاب عن الإقدام على خطوة متسرعة: «عزيزي بيوتر غالاكتيونوفيتش. استلمت الآن رسالة من أبيك تركت أثراً كبيراً في نفسي. صديقي العزيز، إنها ليست مزحة، تلك الآمال والجهود التي توجهها هذه الآمال في غضون 20 عاماً. إنه يشعر بالكثير، الكثير من الألم، الألم الشديد. ولا يمكنني قبول تلك الفكرة أن عقيدة الخير التي نؤديها في الحياة، يمكن أن تكون لها مثل هذه العواقب. ثمة شيء خاطئ هنا».

لقد ترك خوخلوف المدرسة الفنية العليا، وهجر والديه ولحِق بتولستوي بالمعنى الحرفي للكلمة. كان يظهر في ياسنايا بوليانا وفي بيغيتشيفكا، ويقوم برحلات مع المعلم إلى «التولستويين» الآخرين، العاملين في الزراعة. هذا «الشبيه بالمسيح»، كما عرّفه عالم النفس فالنتين بولغاكوف، كان على الأغلب يثير ارتباك تولستوي. وقد حدس عالم النفس الكبير، أنه لن ينتج شيء جيد عنه. وكتب في يومياته بعد لقائه الأول به: «إنه أمر مخيف، أعرف أنه لن ينجح فيما يتوق إليه».

في بداية عام 1895، أصيب خوخلوف بلوثة عقلية وتم إدخاله إلى مستشفى بريابراجينسكي للأمراض العقلية في موسكو. وقد زاره تولستوي، و«اهتم» به، كما يشير في يومياته. في المستشفى كانوا يتعاملون مع خوخلوف كما يتعاملون مع مجنون عادي. وقد أثار هذا غضب تولستوي. وها هو يكتب في يومياته: «لم أكن أتوقع مثل هذه الحقارة والقسوة من الأطباء». لكن خوخلوف نفسه كان يدرك في بعض الأحيان أنه قد «تشوش». وقال أثناء زيارة تولستوي الأخيرة له: «أنا، حقيقة، أصبحت مجنوناً». واشتكى تولستوي في يومياته: «لا أعرف كيف أساعده».

في 31 آب/ أغسطس هرب خوخلوف من مستشفى الأمراض العقلية واختفى. توجه والده من جديد برسالة إلى تولستوي، آملاً بأن ابنه موجود

في ياسنايا بوليانا. لكنه لم يكن هناك. وقد أجابه تولستوي: «سيدي العزيز، غالاكتيون إيفانوفيتش، لقد سمعت بالفعل قبل استلام رسالتك، أن بيوتر غالاكتيونوفيتش هرب من المستشفى. للأسف، إنه لم يأتِ لنا، ولا أعرف أين هو. إذا ما جاء لعندنا سأخبرك فوراً. أتعاطف كثيراً معه، ومعك، ونفسي تعاني من أجله».

وفي عام 1896 توفي بيوتر خوخلوف.

تولستوي كمرض

في الوقت الذي كان فيه خوخلوف في مستشفى الأمراض العقلية، كان ليف لفوفيتش، ابن تولستوي، يخضع أيضاً لدورة علاجية في الإصلاحية العلاجية للدكتور أغرانوفيتش. هكذا كانت تدعى هذه المؤسسة العلاجية الواقعة في قرية آلياخوفو بمنطقة زفينيغورود في مقاطعة موسكو. وقد زاره أبوه وأمه في نهاية شهر آذار/ مارس، ويبدو أنهما عاشا هناك معه عدة أيام. ولا توجد سوى أدلة غير مباشرة على ذلك: ذكريات الكاتب والصحفي الشهير آنذاك ألكسندر فالنتينوفيتش أمفيتياتروف (الذي أخطأ في العام فذكر عام 1894) ورسالة ابن أغرانوفيتش المتأخرة جداً التي أرسلها لكاتب سيرة تولستوي نيقولاي نيقولايفتش غوسيف. وبحسب رسالة ماريا، ابنة تولستوي، المؤرخة في 18 آذار/ مارس 1985، تمت زيارة الوالدين إلى آلياخوفو في 20 آذار/ مارس. ولم تتم الإشارة إليها في يوميات تولستوي، خلافاً لزيارته للمريض خوخلوف، ولنصير آخر، نيقولاي ترافيموفيتش إيزيومشينكو، الذي سُجن لرفضه الذهاب إلى الخدمة العسكرية. يكتب تولستوي عن هاتين الزيارتين في 28 آذار/ مارس، باعتبارهما حدثين هامين.

أما في ذكريات صوفيا أندرييفنا فيذكر تاريخ آخر لزيارة المريض ليوفا – 22 نيسان/ أبريل، ولكن خلال ذلك، لم يرد أي ذكر أن ليف نيقولايفتش كان معها. «وجدته مستلقياً على السرير، قرب المنزل، في الفناء، متدثراً بمعطف من الفراء. وقد تعافى وزاد وزنه آنذاك حوالي اثنين وعشرين رطلاً (الرطل=

حوالي نصف كغ). لكنه كان بمزاج كئيب سيئ للغاية، أناني، رغم أنه سأل عن الجميع، وخصوصاً عن فانشكا».

بصورة لا إرادية، ينشأ إحساس، إما أن زيارة تولستوي لابنه المريض لم تترك انطباعاً خاصاً في ذاكرة الأب (كما أن الأم لم تتذكر زيارة الأب لابنه)، وإما أن تولستوي لم يعرف ببساطة ماذا يكتب عن زيارته لابنه في يومياته.

إضافة إلى ذلك، في هذا الوقت وقع حدث مهم. ففي ليلة 21 شباط/ فبراير عام 1895 توفي الكاتب الكبير نيقولاي سيميونوفيتش ليسكوف. وفي وصيته «طلبي قبل الوفاة»، طلب دفنه في «المستوى الأدنى، الأخير». وهذه الوصية التي نشرتها الصحف، أرغمت تولستوي لأول مرة على التفكير بإرادته ووصيته قبل الموت. وفي 27 آذار/ مارس، يكتب تولستوي في يومياته «وصيته» الأولى غير الرسمية.

بين هذه الأحداث والاضطرابات، أصبحت الحالة الصحية لابنه المريض بعيدة عن أفكار الأب الرئيسة ومعاناته.

وبحسب قول فاليريا أبروسيموفا، كما في الزمن المناسب «لم يستغل لحظة التقارب الأعظم مع ابنه السائر إلى النضج»، كذلك في وقت متأخر لم يولِ الاهتمام الكافي لمرضه النفسي، وكذلك الآن لم يلتفت إلى أن الابن أخذ يتعافى، وإن كان ببطء.

وقد تذكر ليف لفوفيتش: «من بين جميع الأطباء الذين عالجوني في تلك السنوات، أخيراً عثرنا على الطبيب الذي قادتني نصائحه إلى طريق الصحة والعافية. لقد كان أوغرانوفيتش -طبيب عمتي، الكونتيسة ماريا نيقولايفنا تولستايا، شقيقة أبي- الذي كان عنده في ذلك الوقت مصحة بالقرب من موسكو، أقامها في عزبة استأجرها».

ميخائيل بتروفيتش أوغرانوفيتش (1848-1904) طبيب روسي متميز، وهو الأب -المؤسس للمنتجعات العلاجية في روسيا، التي تولاها بعد دراسته للمنتجعات العلاجية في سويسرا. وقد فتح واحداً من أوائل المنتجعات العلاجية في روسيا عامة وأول منتجع علاجي في شبه جزيرة القرم- في الجزء الغربي من خليج يالطا في قرية شوكورلار. أما الإصلاحية

العلاجية بالقرب من زفينيغورود فقد أسسها في حوزة الكونت شيريميتوف. وهنا تعالج كثير من المشاهير: الكتّاب ستانيوكوفيتش، إيرتيل، أمفيتياتروف، غيلياروفسكي، أندريه بيللي، والداعية والناشط الاجتماعي ميخائيلوفسكي، والفنانان نيستيروف وليفيتان. وقد دخل ابن تولستوي الإصلاحية في حالة صحية حرجة.

يتذكر ليف لفوفيتش: «ألزمني الدكتور أغرانوفيتش بأن آكل عصيدة الحنطة السوداء المسلوقة بالماء ثلاث أو أربع مرات في اليوم، وهي ما يدعى «مسحات» لتنشيط الأمعاء، والاستلقاء طوال اليوم في الحديقة على الثلج مباشرة. فقد وجد أن مرضي ليس سوى شكل قديم من الميكروبات المستقرة في جسمي لتلك الحميات التي أخشاها في طفولتي...».

وبصورة غير متوقعة، وافق تولستوي-الأب على تشخيص أوغرانوفيتش، الذي كان ينظر بشك إلى مختلف طرق علاج ليوفا. ففي 15 شباط/ فبراير عام 1895 يكتب في يومياته: «بالأمس ساعدني أغرانوفيتش على أن أكون أكثر إنصافاً تجاه ليوفا. وشرح لي أن مرضه شكل مخفي من الملاريا-انقباض النَفَس الاكتئابي. واتضحت لي حالته، وأخذت أشفق عليه، لكنني ما زلت لا أستطيع التعبير عن الشعور الحي بالحب نحوه».

واختار أغرانوفيتش الطريقة الصحيحة للتعامل مع المريض. وهي الطريقة ذاتها التي أصر عليها الدكتور بيلوغولوفي. *القمع الكامل للإرادة الشخصية والخضوع للانضباط الصارم.* أن يأكل «العصيدة» -يعني أن يأكل! أن يستلقي على الثلج طيلة اليوم- يعني أن يستلقي! وقد حدس ليف لفوفيتش نفسه غريزياً، أن هذا بالذات ضروري بالنسبة له، عندما ناشد في رسالته المذعورة، المذكورة آنفاً، من باريس بنقله إلى روسيا و«تواصله». لكن الأكثر إثارة للاهتمام، أن أباه حدس بذلك أيضاً.

في يومياته لعام 1895، يسمي تولستوي ابنه «اختباراً قاسياً». لقد أصبح ليوفا بالفعل اختباراً للعائلة. وكانت مشكلته تكمن في أنه لم يستطع التعامل مع «الأنا» الخاصة به. وكان عالمه الداخلي عبارة عن صراع كارثي بين القيم والمعالم الدالة. كان يبحث عن ذاته ولم يكن يجد في نفسه ذاته، *ليف*

تولستوي، لأن هذا المكان كان يشغله الأب. لكنه لم يرغب بالاستسلام لذلك، وهذا ما دفعه إلى بحث جديد وخيبة أمل. ويُطرح سؤال بالغ الحساسية. هل حقيقة، أن تولستوي-الأب، كما كان يعتقد ليف لفوفيتش، لم يكن يعامل ابنه *معاملة* حسنة؟ لم يكن يحبه؟ وحتى كان يحتقره؟

أو في مرحلة ما، أدرك أن مشكلة ليوفا الرئيسة تكمن في أنه غير قادر على العيش وتحقيق ذاته، كشخصية، *بدون أبيه*، وفي الوقت نفسه غير قادر على هذا بسبب وجود *الأب*. وإذا كان الأمر كذلك، فهو أمام مشكلة لا تقبل الحل. إنها تلك الحلقة المفرغة ذاتها التي أشار إليها في رسالته لابنه. فماذا كان باستطاعة تولستوي-الأب أن يفعله، من أجل نسف هذه الحلقة المفرغة؟

في قراءتنا لرسائل الأب لابنه، نلاحظ كيف تتغير فيها بصورة تدريجية، النبرات واللهجات. في البداية هو يغضب، يبدي سخطه على ابنه، عندما ينحرف ابنه، حسب رأيه، عن الحقيقة، وعن طريق التحرر الروحي، الإلهي من المادي، الأناني. وبالعكس، يفرح عندما ينتصر عند الابن المبدأ الروحي. ولكن في مرحلة ما، يبدأ الأب بنصحه بصورة مباشرة *بالتخلي عن إرادته الشخصية*. ولكن من أجل التغلب على المادي في النفس وتربية الروحي، لا بد من إرادة لا تُقهر وانضباط ذاتي حديدي! ولنتذكر، كيف أنه في إحدى رسائله، كان يقنع ابنه بشدّ جميع براغيه الداخلية حتى النهاية، وإذا لم يكن لديه مثل هذا المِفكّ، فليأخذه منه. ولكن، ربما، عندما مرض الابن، أدرك تولستوي، أن ليوفا ثلّم في ذاته الحزّ الداخلي. فقد كان ضعيفاً ولا يمكن الاعتماد عليه. وعندها تغيرت لهجة رسائله.

في 23 تشرين الأول/ أكتوبر عام 1893، يكتب لابنته تاتيانا، بصدد محادثتها مع الدكتور زاخارين عن أخيها: «شكراً، عزيزتي تانيا، على رسالتك المفصلة عن ليوفا. الكل واحد، وكلنا نعرف، وكل شيء صعب بالنسبة له، وصعب بالنسبة لنا أيضاً. ولكن، حقيقة، هؤلاء الأطباء، عندما نريد معرفة شيء ضروري، هم دوماً لا يعرفون شيئاً؟ تماماً مثل الحيل والألاعيب بالبطاقات، عندما يبدو أنهم يخمنون، أما في الواقع فهم يكررون ما قاله هو لهم بنفسه، ولكن بإجابة مربكة. وإلى جانب ذلك، اللازورد

والبروم. حسناً، أما المهم، فيجب أن يتخلى عن إرادته. ربما اللازورد والبروم لن يلحقا الكثير من الضرر. قولي لأخيك ليوفا، إنني ما زلت أنصحه بالامتثال والطاعة».

في 21 شباط/ فبراير عام 1894، يكتب لابنه عندما كان ابنه يتعالج في باريس: «لا تخجل من ضعفك، أنك لم تتحمل الوحدة وتُصاب باليأس. أنا لا أدينك أبداً، بل أبتهج عندما أرى أنك المريض تعيش، ولا تهمل المتطلبات الأخلاقية تجاه نفسك».

وفي رسالته لصوفيا أندرييفنا في 23 آذار/ مارس عام 1894: «كيف ليوفا؟ هل حاله أفضل، من ذلك اليوم، عندما غادرنا؟ قولي له ألا يسيء إليك، بل أن يطيعك».

إن أكثر ما يحيّر في هذه الرسائل، هو ما يبدو كأنه لم تكن تقلقه أبداً حالة ابنه البدنية السيئة. فهو منذ البداية، كان مقتنعاً بأن مرض ليوفا سيزول من تلقاء نفسه، دون أي علاج.

ويكتب لصوفيا أندرييفنا عندما تكاد الأم تفقد عقلها، وهي ترى ابنها ليوفا يتحول إلى «كيس من العظام»: «إن صحته لا تقلقني كثيراً. فأنا واثق إلى حد ما -وأرجو من الله أن لا أخطئ- من أن صحته ستعود خلال فترة معينة، بصورة مستقلة تماماً عن الأطباء والمناخ...».

وهذه الثقة ذاتها تتردد في رسالته إلى ابنه: «إن مرضك، حسب رأيي، سيزول ليس بالعلاج، ولا بالأطباء، ولا حتى بالمناخ، بل لأنه سيحين وقت زواله...».

وفي المحصلة، كان على حق! فقد زال المرض عندما فقد ليف لفوفيتش قواه الجسدية الأخيرة، واضطر للتخلي عن «تولستوي» في ذاته. فهو (على الأقل لفترة معينة) تعافى مما كان يدعوه نفسه بـ«مرض تولستوي». وكانت أمه أيضاً صوفيا أندرييفنا تعرف بهذا المرض الخطير.

وقد كتبت أمه: «إن السمة المميزة لابني ليوفا هي سمة مشتركة مع والده. وهي تكمن في البحث الأبدي، وعدم الرضا الأبدي. بالطبع، البحث عمّا هو أفضل وأنفع وأكثر خيراً. ومن الصعب جداً الوصول إلى الرضا في هذا

الطريق، لأن الكمال بعيد المنال، كما أن السعي الأبدي والصراع يرهقان في نهاية الأمر. كم من المرات في حياتي، عندما أتأمل زوجي وابني، كان بودي إعطاؤهما قليلاً من السعادة المؤقتة والرضا... لكن هذا كان من المستحيل...».

وكان يعرف بهذا المرض تولستوي-الأب أيضاً... وقد دفع الثمن بتوتر داخلي هائل، لم يتعلم التعامل مع هذا المرض فحسب، بل جعله المحتوى الرئيس لحياته، والرافعة الجبارة لتطوره الروحي وإصلاح الذات. إن القارئ اليقظ ليومياته سينتبه إلى أية درجة كان قد تعرض تولستوي نفسه لكآبة شديدة؟ وهذه الكآبة كانت ترافقه طيلة حياته. وكان الأطباء يفسرون ذلك بالحالة السيئة لكبده ومرارته. في هذه الحالة، إذن، استخدم تولستوي الكبد والمرارة أيضاً كرافعة لتطوره الروحي. فبتغلبه على أمراضه الجسدية، وجد هنا نفعاً، وصقل نفسه روحياً. وهنا كان يكمن اختلافه عن ابنه. ولهذا بالذات، لم يستطع أن يشعر بـ «عاطفة الحب الحية نحوه». فهذا كان يعني أن يحب مرضه.

في عام 1895 يكتب في يومياته: «إنها الحالة ذاتها من الخمول، اللامبالاة، الكسل. أنا لا أعمل شيئاً. الدراجة. وصل ليوفا... إنه محنة قاسية...» ويكتب في العام نفسه: «حالتي الصحية سيئة. ضعيف جداً. الصفراء تملأ المعدة وتتهيج. أخشى أن أبدأ في علاج نفسي ومتابعة حالتي الصحية، وهو الشيء نفسه الذي كنت أدين ليوفا عليه».

موت فانشكا

لقد تلاشت جميع أحداث شتاء عام 1895 وربيعه على خلفية ما حدث في مساء 23 شباط/ فبراير. خلال ثلاثة أيام مات ابن آل تولستوي الأصغر -فانشكا البالغ من العمر ست سنوات- بالحمى القرمزية. الطفل المحبوب المفضل عند صوفيا أندرييفنا وليف نيقولايفتش. وهو روح وقلب أسرة آل تولستوي الكثيرة العدد.

لقد كان الطفل الثالث عشر والأخير. وقبله شهد والداه موت عدد من

أطفالهما الصغار - فاريا، بطرس، نيكولنكا، أليوشا. ولكن لم يكن موت أي منهم مؤلماً إلى هذه الدرجة مثل موت فانشكا. لقد كان موته، على الأغلب، أكبر صدمة للعائلة، ولا يمكن مقارنتها إلا بهروب تولستوي من ياسنايا بوليانا عام 1910.

وقد كتب ابن تولستوي إيليا لفوفيتش: «من يعرف، لو أن فانشكا بقي حياً لحدث الكثير والكثير في حياة الأب بطريقة أخرى. فلربما أن هذا الطفل الحساس والمتعاطف كان يمكنه أن يربط أباه بالعائلة، وربما لما ظهرت عنده هذه الفكرة المسيطرة بالخروج من ياسنايا بوليانا ومغادرتها».

هذا افتراض صحيح، لأنه لو بقي حياً لكان عمره اثنتين وعشرين سنة، في عام 1910، ولاستطاع التوفيق بشكل معقول بين الأب والأم.

ولد فانشكا في 31 آذار/ مارس عام 1888. كانت صوفيا أندرييفنا تقترب من عامها الرابع والأربعين، وأكمل ليف تولستوي عامه الستين. ولكن منذ البداية، كان تولستوي يرى في هذا الابن *وريثه الروحي*. منذ أن وُلد فانشكا، كتبت صوفيا أندرييفنا لأختها: «أخذه ليفوشكا (زوجها ليف) بين يديه وقبّله؛ وهذه معجزة لم تحدث من قبل...» كما أشار ليف نيقولايفتش نفسه في يومياته: «أشعر نحوه بعاطفة غريبة بـ«آه» من الرهبة المبجلة أمام هذه الروح، الجنين، لأنقى روح في هذا الجسم الصغير المريض».

نشأ فانشكا طفلاً مريضاً. وقد قال عنه أخوه ليف، وهو يلقي عليه نظرة، بحضور صوفيا أندرييفنا: «إنه ليس من سكان هذا العالم». وهذا، على ما يبدو، كان يشعر به جميع أفراد الأسرة، وحتى الغرباء. وقد كتب الداعية والصحفي المعروف ميخائيل أوسيبوفيتش مينشيكوف، الذي زار ذات مرة آل تولستوي، لصوفيا أندرييفنا بعد موت فانشكا: «عندما رأيت ابنك الصغير، فإنني فكرت بأنه إما سيموت أو سيكون أكثر عبقرية من أبيه». وقد رأى *إرهاصات ليف تولستوي الجديد* في فانشكا الناقد الكبير نيقولاي نيقولايفتش ستراخوف، الذي كتب لتولستوي: «كان يعد بالكثير، وربما لم يكن ليرث اسمك وحده فحسب، بل ومجدك أيضاً».

كان التشابه الخارجي الكبير بين فانشكا وأبيه يذهل الجميع. ولم يُفهم

جوهر مسألة الشبه على الفور. أصبح الأب كبير السن، وبدأ يتساقط شعر رأسه، وأصبح أنفه مثل «حبة البطاطا» وظهرت اللحية الشائبة المعروفة للعالم كله. فانشكا كان شاحباً، أشقر الشعر، مجعداً حتى الكتفين. ولكن كان يكفي النظر إليه عن كثب.

وقد تذكر غابرييل ألكسندروفيتش روسانوف، أحد محبّي تولستوي المعجبين به: «في هذا الوجه الطفولي كانت تُذهلنا عيناه الرماديتان العميقتان الجديتان بنظرتهما، وخاصة عندما كان الصبي يفكر ويتأمل، يغدو عميقاً نفاذاً، خارقاً، وعندها كان يزداد أكثر شبهه مع ليف نيقولايفتش. عندما رأيتهما معاً سيطر علي شعور غريب متميز. أحدهما -عجوز، منحني الظهر، يغادر الحياة بصورة تدريجية، والآخر- طفل. أما تعبير العينين فهو نفسه. لقد كان ليف نيقولايفتش مقتنعاً بأن فانيا، من بعده، سوف ينفذ «إرادة الله».

مع تقدمه بالسن، تناقص اهتمام تولستوي بأولاده شيئاً فشيئاً. وقد نشأ ابناه الصغيران أندريه وميخائيل بدون رقيب أو حسيب. وبخاصة أندريه، الذي تولّع مبكراً بالكحول، وأخذ يمضي الليالي في القرية، ويمضي أيامه وهو يعزف على الهارمونيكا ويخيف والديه بأنه بعد الثانوية سيتزوج من قروية ياسنايا بوليانا آكولينا ماكاروفا. وبهذا الصدد، كتب تولستوي لابنه في تشرين الأول/ أكتوبر عام 1895، مشيراً إلى أن «شرب الفودكا» و«العزف على الهارمونيكا ليس لهما أية علاقة بالزواج» وأن «الإنسان لا يمكنه أبداً أن يتزوج وهو في مثل هذه الحالة».

واصلت البنات الكبيرات خدمة أبيهن، لكنهن كن يحلمن بالزواج. وكان يدرك تولستوي أنهن سيتركنه، عاجلاً أم آجلاً. الابنان الكبيران سيرغي وإيليا عاشا منفصلين عن الوالدين. إيليا تزوج مبكراً، وسيرغي تزوج متأخراً، في العام 1895 نفسه. ليف كان مريضاً، أما الابنة الصغرى ساشا، التي ستغدو في المستقبل، النصيرة والتابعة الأكثر إخلاصاً لأبيها، فكانت لا تزال صغيرة، أكملت عامها العاشر في عام 1894. علاوة على ذلك، ولأسباب معقدة، لم تكن الأم تحب الابنة الصغرى.

كان فانشكا يوحِّد روحياً هذه العائلة المركبة، المتعددة الأوجه. وكانت

الخاصية المميزة لشخصيته صنع السلام. فهذا الطفل لم يكن يتحمل المشاجرات العائلية، وكان يحاول على الفور التوفيق. وكان لديه شعور فطري ولادي بالعدالة. فكان يدافع دوماً عن الضعيف، سواء أكانت أخته ساشا التي كان يزعجها الإخوة الكبار، أو المربية، التي يمكن أن تصرخ عليها أمه. وهذا لم يكن خوفاً عادياً لطفل أثناء المشاجرات العائلية، بل مظهر مبكر جداً للخير وحب الناس. كان يمكنه أن يقبل أيدي كوزكا ابن الطباخة فرحاً لأنه رآه. كان يحب ترتيب الأعياد وتجهيز الهدايا. وقد تذكرت صوفيا أندرييفنا: «كان يشعر بالقلق قبل بضعة أيام، ويسأل الجميع، من وماذا سيهدي المربية، وهو نفسه يجهز لها كوباً، ومناديل، وسفطاً أو شيئاً ما آخر».

من المحتمل، أن تولستوي لم يكن يحب فانشكا، كما يحب الأب المتقدم في السن ابنه الأصغر (آخر العنقود) فحسب، بل كان يشعر نحوه باهتمام روحي معين. كان فانشكا يتوصل بسهولة إلى ما كان تولستوي يحقق في ذاته بجهد جهيد. فقد كان لديه منذ الولادة ما كان يسعى إليه أبوه. ولهذا كان يحب تمضية بعض الوقت معه، وكثيراً ما كان يلعب معه، وفي الوقت نفسه كان يجري معه أحاديث جدية للغاية حول الخير والحب والعدالة. ويصعب القول، من الذي كان يعلّم الآخر. كان يقول لأبيه: «بابا، إياك أن تهين ماما أبداً». ويقول لأمه: «لا تغضبي، يا ماما، أليس الموت أسهل، من رؤية الناس غاضبين...».

ذات يوم، غضب فانشكا على أبيه وحظر عليه الدخول إلى غرفته. شعر تولستوي بالإهانة ودخل متعمداً. ثم سجل في يومياته: «صعبٌ علينا نحن المتكبرين الفاسدين تحمل الإهانة، ونسيانها، ومحبة الأعداء، حتى هؤلاء، مثل العزيز ابن السنوات الثلاث ف. (يقصد ابنه فانشكا-*المترجم*)». وفي عمله على كتابه «عرض موجز لعقيدتي» كتب تولستوي لبوبوف: «الاختبار واحد -أن تكون مفهومة للصغار والناس العاديين- بحيث تكون مفهومة لفانشكا وللبوّاب».

كان فانشكا يتمتع بقدرات خارقة. ففي السادسة من عمره كان يتحدث اللغة الإنكليزية بطلاقة (حتى إنه كان يعلّم اللغة الإنكليزية للفنان المتقدم في السن غي، الذي قال عنه: «إنه معلمي»)، كما كان يفهم اللغتين الألمانية

والفرنسية. وكان يرسم جيداً، وكان ذا أذن موسيقية، وكان يملي الرسائل، ومن ثم أصبح يكتب بنفسه الرسائل لأهله وأقاربه، ولم يعش في الدنيا عامه السابع، وقد ترك قصة أدبية بعنوان «الضريبة المنقذة» التي نشرتها صوفيا أندرييفنا بعد موته.

وتوفي فانشكا بطريقة غير عادية... قبل وقت قصير من وفاته سأل أمه، صحيح أن الأطفال الذين يموتون قبل السابعة يصبحون ملائكة؟ نعم – أجابته أمه. فقال لها: «الأفضل لي، يا ماما، أن أموت قبل السابعة». لم يكن عنده خوف من الموت. («لا تبكي، يا ماما، فهي إرادة الله»)، ولكن في الوقت نفسه، كان يشعر بالحنين على فراش الموت. وكانت كلماته الأخيرة: «نعم، الحنين...» (وحسب رواية ليف لفوفيتش، كانت كلمات الطفل الأخيرة: «أرى... أرى...»).

وقد دُفن إلى جانب شقيقه أليوشا في مقبرة قرية نيكولسكوي بالقرب من بوكروفسكي–ستريشنيف، حيث ولدت صوفيا أندرييفنا. في عام 1932 جرى هنا بناء خط قناة نهري موسكو–الفولغا، ونقلوا جثامين الأطفال إلى قرية كوتشاكا على بعد عدة كيلومترات عن ياسنايا بوليانا، حيث يرقد كثير من أفراد أسرة آل تولستوي. وبحسب رواية شاهدة عيان: «انتزعت التوابيت من التربة الجافة، وعند فتح تابوت فانشكا أذهل الجميع أن رأسه بشعره المجعد كان كأنه حيّ، لكن أمام أعيننا، ما إن لامس وجهه الهواء أصبح غامق اللون، وشعره تساقط».

لم تتعافَ صوفيا أندرييفنا من هذه الصدمة سنوات طويلة. ومنها بالذات بدأت اضطراباتها النفسية الشديدة. كانت تعذبها الهلوسات الليلية، ففي ياسنايا بوليانا كانت تذهب إلى الحديقة وتتكلم مع فانشكا المتوفى في مواضيع أنثوية حميمة. وحتى تولستوي، الذي رأى في حياته كثيراً من حالات الوفاة المختلفة، لم يستطع في البداية تحديد موقف من موت ابنه. «دفنوا فانشكا. حدث فظيع – لا ليس فظيعاً، بل حدث روحاني كبير. لك الشكر، يا الله، يا أبتي. شكراً لك».

على ماذا يشكر الله؟ على موت الابن؟ على الاختبار الجديد؟ أم على

الفهم الجديد لمعنى الحياة؟ وفي وقت لاحق، سجل في يومياته: «كان موت فانشكا بالنسبة لي كموت نيكولنكا (شقيق تولستوي الأكبر-*المؤلف*)، لا، بل أكبر من ذلك، كان علامة من الله، واجتذاباً نحوه. لهذا لا يمكنني القول إن هذا كان حدثاً حزيناً، قاسياً، بل أقول بصراحة، إنه حدث (بهيج) - ليس بهيجاً فهذه كلمة سيئة، بل حدث رحيم من الله، يكشف كذب الحياة، حدث يقرّبني إلى الله».

وكتب بعد ذلك: «موت الأطفال من وجهة نظر موضوعية: تحاول الطبيعة إعطاء الأفضل، وعندما ترى أن العالم بعد غير مهيأ لهم، تأخذهم من جديد. ولكن عليها أن تجرّب كي تتقدم نحو الأمام. إنه مطلب. مثل عصافير الجنة التي تطير مبكراً، يضربها الصقيع وتتجمد. ولكن عليها مع ذلك أن تطير. وكذلك فانشكا. غير أن هذا حكم موضوعي غبي. والحكم العقلاني هو أنه أنجز إرادة الله: إقامة ملكوت الله من خلال زيادة المحبة - أكثر بكثير من الآخرين الذين عاشوا نصف قرن وأكثر».

وكتب أيضاً: «نعم، من الضروري أن تعيش دائماً أن تعيش كما لو كان في الغرفة المجاورة يموت طفلك المحبوب. إنه يموت دوماً. ودوماً أموت أنا».

وقال تولستوي في اليوم الثالث بعد موت ابنه: «للمرة الأولى في حياتي أشعر باليأس...».

وكانت تؤكد صوفيا أندرييفنا أن ليف نيقولايفتش أصبح عجوزاً بعد موت فانشكا تحديداً.

وصية الطفل

من شهر شباط/ فبراير إلى شهر نيسان/ أبريل عام 1895 يتعالج ليف لفوفيتش في مصحة أغرانوفيتش في ضاحية موسكو، ومن ثم بناء على نصيحته، يسافر إلى غانغيو - المدينة الصغيرة الواقعة في جنوب فنلندا وأغلبية سكانها من السويديين. ويبقى فيها حتى الخريف، وفي شهر أيلول/ سبتمبر ينتقل إلى السويد، إلى مدينة إنشيبينغ، إلى الطبيب إرنست ويسترلوند.

طيلة عام 1895 لا يزال ليف لفوفيتش «تولستوياً» ويحتاج حاجة ماسة إلى دعم أبيه. ويكتب له من غانغيو: «بابا، صديقي العزيز، لا يمر يوم دون أن أفكر فيك...».

أما الأب فكان مهتماً بأشياء أخرى. فعام 1895 -كان في الوقت نفسه، عاماً قاسياً، وحافلاً بأحداث مختلفة في حياة تولستوي. موت فانشكا، بداية مرض زوجته النفسي، تعلقها بالموسيقي سيرغي إيفانوفيتش تانييف، الذي ولّد في تولستوي، البالغ من العمر سبعة وستين عاماً، الشعور بالغيرة، سلوك الابنين الصغيرين أندريه وميخائيل، زواج الابن الأكبر سيرغي- وغيرها من الاضطرابات الأسرية التي تصرف اهتمام تولستوي عن العمل الإبداعي، ولكن ليس بالقدر كما في أثناء العمل لمساعدة الجياع. في هذا العام كتب تولستوي إحدى أفضل قصصه الطويلة «السيد والعامل»، وبدأ بكتابة رواية «البعث» ووضع خطة كتابة مسرحية: «والنور يضيء في الظلام».

هذا العام بداية انتصار مسرح تولستوي. في 18 تشرين الأول/ أكتوبر جرى العرض الأول لمسرحية «سلطة الظلام» على خشبة مسرح ألكسندرينسكي. وكان النجاح رائعاً! ومن أسرة تولستوي حضر العرض الأول صوفيا أندرييفنا وابنتها تانيا وابنها ميخائيل. لم يذهب تولستوي إلى بطرسبورغ.

تكتب صوفيا أندرييفنا لزوجها: «كانوا يستدعون المؤلف بشكل محموم. طيلة فترة الاستراحة كانوا يصرخون، إلى أن قالوا لهم إن المؤلف غير موجود في المسرح. تدفق إلينا على اللوج عدد كبير من الأشخاص، البارونة إسكول، ريبين، غريغوريفيتش، سيدات مختلفات - شيء مرعب».

لم يحضر تولستوي أيضاً العرض الأول للمسرحية في مسرح مالي في موسكو في 29 تشرين الثاني/ نوفمبر. لكنه حضر البروفة الرئيسة للمسرحية.

في اليوم نفسه أرسلت صوفيا أندرييفنا رسالة إلى ليف لفوفيتش، شاركته فرحتها: «أخرجوا «سلطة الظلام» بصورة ممتازة. أُنجزت الديكورات بطريقة رائعة، وبخاصة الفناء بحيث بدا ممتلئاً بالبريستيج، بحيث ينسى المرء أنه مسرح وليس واقعاً. يمثلون الأدوار بصورة جيدة، ولكن كان من

المرغوب أن يكون أفضل. عندما انتهى مشهد ميتريتش والفتاة التي مثلت بصورة رائعة، المسرح كله كان يبكي... أبوك لم يُظهر بوضوح ماذا حدث له، كان يمخّط بقوة ولاذ بالصمت. قال فقط، من المؤسف أنهم أرغموا هذه الفتاة الصغيرة على أداء هذا الدور المرعب وهذا معيب. بيد أن هذا مؤثِّر، برأيي، كون الفتاة صغيرة».

ومنذ هذا الوقت عُرضت مسرحية «سلطة الظلام» بنجاح في مسارح عديدة. بيد أن شهرة الكاتب-تولستوي لم تمنع السلطات من متابعة بل وزيادة ملاحقة «التولستويين». وبالإضافة إلى خوخلوف وإزيومشنكو لرفضهما أداء الخدمة العسكرية، عانى الصحفي والداعية ميخائيل أركادييفيتش سوبوتسكو وصديق آل تولستوي، المخرج المسرحي ليوبولد أنطونوفيتش سوليرجيتسكي -فسجنوا الأول ونفوه إلى مقاطعة أولونتسك، وأرسلوا الثاني إلى المعالجة النفسية- العقلية القسرية.

في حزيران/ يونيو عام 1895 بدأت أعمال الاضطهاد ضد طائفة الدوخوبوريين التي كان يتعاطف معها تولستوي. وكانت الذريعة المباشرة لذلك قيام الدوخوبوريين بالحرق الاحتفالي للأسلحة في مقاطعتي يليزافيتوبولسك وتفليس. وإذا ما جرى الحرق بصورة هادئة نسبياً في الأولى، فقد أقام حاكم تفليس شيرفاشيدزه بالتعاون مع القوزاق مذبحة حقيقية. وقد تذكر شهود العيان: «لقد ساموهم من الضرب والجروح في وجوههم بحيث إن الأخ لم يعد يعرف أخاه: وكان العشب مغطى بالدماء». ورووا تفاصيل مذهلة حول نزول القوزاق في قرية الدوخوبوريين: «كان القوزاق ينهبون علناً، ويضربون الرجال ويغتصبون النساء، بعد أن حبسوا الرجال مسبقاً في العنابر».

وقد توجه بريوكوف، نصير تولستوي، إلى القوقاز لمعرفة وضع الأمور. ويكتب تولستوي الرسالة الأولى لرئيس الدوخوبوريين بيوتر فاسيليفيتس فيريغين، تبدأ بالنداء: «أيها الأخ العزيز» وتنتهي بالعبارة التالية: «هل يمكنني تقديم خدمة ما لكم؟ سأكون مسروراً جداً لو كلفتموني بمهمة ما». ومنذ هذه اللحظة تبدأ مشاركة الكاتب الفعالة في مصير الدوخوبوريين، التي تختتم بترحيلهم (حوالي 8000 شخص) إلى كندا في عامي 1898-

1899. ومن أجل تمويل هذا الترحيل، وعلى الرّغم من تخليه عن حقوق التأليف، يبيع تولستوي حق نشر رواية «البعث» للناشر الكبير أدولف فيودوروفيتش ماركس.

في ضوء هذه الأحداث، لم يستطع الأب ببساطة أن يستوعب بعمق وضع ابنه المريض، لكنه المنطلق نحو المعافاة. لهذا فالرسائل الخمس التي كتبها لابنه ليوفا من شهر أيار/ مايو حتى شهر كانون الأول/ ديسمبر ليست قليلة بل كثيرة جداً.

«لقد اشتقت لك يا ليوفا العزيز، منذ وقت طويل لم أعرف أخبارك وأعرف أنك وحيد. لا أعرف كيف أنت –وفي حالة المرض– ، لكنني عندما كنت شاباً والآن أحب أن أكون وحيداً. أقرب إلى الله، لا يلهونني عنه. وهذا جيد جداً لنا جميعاً، ولك خاصة، في مرضك».

إنه لا يدخل في تفاصيل حالة ابنه البدنية ولا يسأل عنها. ما يقلقه فقط هو مزاجه الروحي. «شيئاً واحداً أرغبه لك، وهو أن تعتقد ولو قليلاً، أن أساس حياتك في النفس وليس في الجسد».

وبقلق أكبر يكتب عن مرض صوفيا أندرييفنا. لكن تولستوي هنا أيضاً لا يرحم: «الحالة النفسية لأمك أفضل، بمعنى أن الحزن أقل حدة، من الناحية الجسدية أفضل، ولكن من غير الجيد أنها لا يمكنها الارتقاء إلى وجهة النظر الدينية وتعاني بصورة مباشرة من أن كائنها الغالي، الذي كان حياً سابقاً، قد دُفن في الأرض، ولم يبق من هذا الكائن أي شيء...».

أما في يومياته فيلاحظ: «لا تزال صونيا تعاني ولا يمكنها الارتقاء إلى الذروة الدينية... والسبب نفسه، وهو أنها بالحب الحيواني لابنها قد غرست جميع قواها الروحية».

فيما بعد تقرأ صوفيا أندرييفنا هذه الكلمات وتشعر بالإهانة. وتتساءل في كتابها «حياتي»: «ولماذا في الحب *الحيواني*؟ لقد كان لدي العديد من الأولاد، ولكن تجاه فانشكا بالتحديد، كان يتغلب في مشاعرنا المتبادلة الحب الروحي. لقد عشت معه بروح واحدة، وكان أحدنا يفهم الآخر، وكنا ننطلق باستمرار، على الرّغم من صغر سنه، إلى المجال الروحي، المجرد».

إن موقف فانشكا من الموت أظهر اختلافاً في فهم الزوجين ليس للمسائل المادية فحسب بل وللمسائل الروحية. فالابن الميت، بالنسبة للأب، هو «كائن، كان حياً سابقاً» وقد «دُفن في الأرض». أما الابن الميت بالنسبة لصوفيا أندرييفنا - فهو مصدر لألم لا يزول، وجزء من ذاتها «دُفن في الأرض». ويدرك تولستوي هذا عموماً، لكنه يرفض اعتباره *معاناة روحية*. وهو كذلك تماماً عديم الرحمة تجاه ليوفا، عندما يكون ليوفا بحالة سيئة، وعندما يحتاج إلى الحنان، إلى «المربية»، وبدلاً من ذلك يحصل على الوصايا الأخلاقية.

ولكن لن نتسرع في الاستنتاجات... ولكن للغرابة، أن صوفيا أندرييفنا في عام 1895 بالذات، تتخذ موقفاً من ليوفا، شبيهاً إلى حد ما بوجهة نظر زوجها. ومن ناحية أخرى أكثر قسوة...

من شهر أيار/ مايو إلى شهر كانون الأول/ ديسمبر تكتب لابنها، وهي تعاني من غربته بعيداً عن أهله. وقد تم الاحتفاظ بإحدى وعشرين رسالة من صوفيا أندرييفنا إلى ابنها ليف لفوفيتش خلال عام 1895 في قسم المخطوطات بمنزل بوشكين ونشرتها تامارا بورلاكوفا في عام 2010 في مجلة «أكتوبر». وهذه الرسائل - هي قصة مرض الابن والأم في الوقت نفسه. وهي في هذه الرسائل مع ليفوشكا (الابن) صريحة للغاية، لأنها لم تعد تجد مع ليف (زوجها) محاوراً لها في مسائل حميمة.

ولكن في هذه الرسائل يحضر دوماً شريك ثالث لهذه المراسلات - *فانشكا المتوفى*. فهو بالذات، في عيني الأم، يعدّ الحكم في حل هذه المسائل.

«حبيبي ليوفا، أكتب لك الشيء الرئيس لأن بودي الاستجابة لكلماتك الحنونة الموجهة لنا نحن العجوزين. ولكن يبدو أنك تفكر فقط بمرضك، وأنا أعرف أنك بروحك الحساسة المرهفة تشعر أكثر منا جميعاً، وأكثر من أي شخص، وتحبنا، وتنتظر شفاءك كي تعود للعيش معنا، ومن أجلنا إذا ما دعت الضرورة. وأنا، من ناحيتي، أصلي لله، مثل فانشكا وبكلماته، من أجل صحتك، وآمل بأن تُشفى وبأن تكون حياتك مليئة، سعيدة، مفيدة للناس» (الرسالة بتاريخ 8 أيار/ مايو).

لقد غدا فانشكا، الذي مضى على موته أكثر من شهرين بقليل، البطل الرئيس لهذه الرسائل. وكل ما يحدث مع ابنها الثالث تستوعبه الأم كإسقاط لمصير فانشكا. وبصورة حرفية - كتنفيذ لإرادته. وهذا ليس مدخل الأب العقلاني لـ «الروح» و«الجسد» في تناقضاتهما، بل نظرة مجنونة لأم مريضة إلى أبنائها كـ «مصاص دماء» و«متبرع». الأول يقتل، والثاني يعطي ويضيف. واحد مات، الثاني ملزم بأن يعيش.

«وفيك، كما في فانشكا، كثير من الجوانب الروحية، وإنها لمصيبة كبيرة أنك مرضت، وعليك أن تنتبه إلى جسمك. وسيعطيك الله القوة وتعود كما كنت، أي تخرج من المادي وتعود ثانية إلى العالم الروحي. أنت غالباً ما تنزعج مني، ولكن لا أحد يفهمك، ويشعر بك مثلي أنا» (رسالة بتاريخ 8 أيار/ مايو).

ومنذ أن كان في إصلاحية أغرانوفيتش الصحية لاحظت أمه أن وزنه ازداد. ولكن، مثلها مثل زوجها، قررت أن المسألة هنا ليست في الأطباء. وها هي تتذكر في كتابها «حياتي»: «لقد كان تطابقاً غريباً. هذا الصبي الصغير فانشكا كان طيلة عام كامل، ولم يتخلف يوماً واحداً، يصلي معي في الأمسيات من أجل شفاء أخيه ليف... ومنذ ذلك الأسبوع الذي توفي فيه فانشكا بدأ يزداد وزن ليف، في البداية منذ اليوم الأول لوفاة فانشكا ازداد وزنه رطلين، وبنهاية نيسان/ أبريل ازداد وزنه 22 رطلاً... بالضبط، وكأن فانشكا أدى رسالته وذهب إلى الله الذي خلقه وأرسله».

وتعترف لابنها في 28 أيار/ مايو: «لقد تبلّدتُ كثيراً، يا عزيزي ليوفا، من الحزن».

وهكذا، تقع على ليوفا مسؤولية ضخمة. لقد بقيت الأم بدون ابنها الحبيب، *ابنها الأكثر روحانية*. وحصل الشيء نفسه مع الأب، لقد فقد *وريثه الروحي*. قبل وفاته، توسل فانشكا إلى الله من أجل حياة ليوفا. بل وأكثر من ذلك، ضحى بنفسه من أجل حياة أخيه. فانشكا أصبح ملاكاً، وماذا على ليوفا أن يفعل؟ عليه فقط أن ينفذ وصية أخيه الصغير، ويصبح وريثه الروحي! وكل هذا تكتبه بصورة جادة لابنها الذي بدأ لتوه يتخلص من «الانقباض النفسي» الذي استمر أربع سنوات!

«أردت أن أقول أيضاً إن العلاج والشفاء موجودان في العالم بلا شك، ولكنني لا أؤمن بعلاجك، وأعرف *غالباً*، أنك ستتعافى من صلاة فانشكا؛ فهو الذي أوصاك بأن تعيش وتحبني، كما كان يحبني، ولديك المواهب نفسها التي كانت لديه. لقد صلّى معي طيلة عامين، دون كلل وبصورة يومية، في الأمسيات لأجلك، بحماس ووعي، وفي اليوم الذي غادر الحياة – بدأت تتحسن. كان يصلي بالكلمات التي علمته المربية: «يا رب، اشف عبدك ليف من المرض والضعف، وأرسل له الصحة والقوة. كنت أعاني معه، عندما ننظر إلى حالتك؛ كان يرى مصيبتي، وكان يعاني معي. وهو الآن يشعر بالفرح» (25 آب/ أغسطس).

لكن صوفيا أندرييفنا لا تشعر بالفرح. «نتغنى بجمال الخريف الذي هو بالنسبة لي الآن أقرب من الربيع، نظراً لأنني أحببت الموت وكرهت الانبعاث» (29 أيلول/ سبتمبر) «نفسي أصبحت معلّقة في الدير، والحياة كلها – لغو وفراغ» (18 كانون أول/ ديسمبر).

يتعلم الأب ركوب الدراجة، وبدأ يتعلم اللغة الإيطالية، ويكتب رواية «البعث» التي لا تروق لصوفيا أندرييفنا: «بقدر ما «السيد والعامل» *ثمرة طازجة* هذه القصة *جبنة معفّنة*». الأبناء الصغار يموتون أمام أعيننا: «لقد دمَّرنا أندريوشا تدميراً تاماً. يتسكع في القرية مع الفلاحين (الموجيك) والفتيات الرخيصات، يشرب الفودكا ويدخن ولا يفعل شيئاً...» «أتعرف، لدي شعور عنه تقريباً مثل فانشكا، أنه هو أيضاً مات...» «ميشا دخل أيضاً في مرحلة سيئة. ظاهر أن الجانب الحيواني فيه أكبر من الجانب الروحي. وإذا لم يجتهد ويعمل على نفسه فسوف يسقط، مثل أندريوشا».

الأمل كله معلّق على ليوفا! «صحيح، لقد تغيرت منذ أن سافرت. أقصد أخلاقياً وليس جسدياً. فالناس يكبرون وينمون إذا لم يكونوا سافلين. وأنت، إذا كنتُ لا أخدع نفسي، لستَ من هؤلاء، ولست مثل الجميع بل أفضل وأكثر جدوى...».

بوفاة فانشكا، حدث في صوفيا أندرييفنا ذاتها «انقلاب روحي». «يبدو لي في أحيان كثيرة، أنني في هذا العام ولدت روحياً من جديد. وهذا لأنه

فُتحت أمامي لدقيقة واحدة أبواب الخلود، التي مرّ عبرها فانشكا، والتي سأمر بسرور وراءه عندما تُفتح هذه الأبواب لي».

لقد أصبحت أقرب لزوجها، وهذا ما يلاحظه في يومياته: «... لقد أذهلتني. فقد حررها ألم التمزق مباشرة من كل ما كان يحجب روحها. كما لو أن أبواباً فُتحت وتجلى ذلك الجوهر الإلهي للحب، الذي يشكل روحنا». ومع ذلك، يكتب: «الوقت يمر، وهذا البرعم ينغلق مرة ثانية، وتتوقف معاناتها عن العثور على الرضا، والريح vent في الحب الشامل، وتشعر بألم لا ينتهي. إنها تعاني خاصة لأن موضوع حبها تركها، ويبدو لها، أن الخير كان في هذا الموضوع، وليس في الحب نفسه. إنها لا تستطيع فصل أحدهما عن الآخر؛ لا يمكنها أن تنظر نظرة دينية إلى الحياة عامة وإلى حياتها...».

طيلة صيف عام 1895 حل الموسيقي تانييف ضيفاً في ياسنايا بوليانا. افتتان صوفيا أندرييفنا بعزفه يتحول إلى افتتان مرضي بشخص تانييف، الذي ربما لم يخمنه. وتعترف صوفيا أندرييفنا في رسالتها إلى ليوفا: «في الفترة الأخيرة أُصبت بالجنون تماماً من هذه الموسيقى، لكنني استمتعت كثيراً».

وهو يدرك أيضاً: أنه لا مكان له في ياسنايا بوليانا! عمره ست وعشرون سنة. وهو يريد أن «يعيس» (يعيش-*المترجم*) دون أن يحمل على كاهله عبء الصليب الروسي الثقيل، الذي يفرضه عليه بطرق مختلفة، الأب والأم. وعليه أن يتخذ *قراره*. قراره الصغير. فالعودة إلى روسيا – تعني الموت. وهو، ربما للمرة الأولى، يقدم على الاختيار الصحيح.

السويد!

الفصل السادس

روسيا هي المرض

... انتقلت إلى فنلندا، ومن فنلندا إلى السويد، حيث تعافيت نهائياً، نابذاً بصورة نهائية، النظرة اليائسة إلى العالم، التي أوحى بها لي أبي... خرجت من المأزق إلى الطريق الكبير.

• ل. ل. تولستوي «الحقيقة عن أبي».

طرد إيفان

في فنلندا، في غانغيو، ومن ثم – في السويد في إنشيبينغ، حيث توجه ليف لفوفيتش برفقة خادمه إيفان، كان لديه الكثير من الوقت ليفكر في وضعه الذي وجد نفسه فيه، وكيف اقتنع فيما بعد، بتأثير «العقيدة الضارة» لأبيه. وكان وضعه على نحو بحيث ليس الأطباء الروس وحدهم لم يأملوا بشفائه، بل أمه كتبت لأختها بعد خروج ابنها من المصحة في ضاحية موسكو:

«لقد وجدت ليوفا في موسكو وقد أصبح سميناً جداً، ولكن بذبول وانتفاخ، بدون عضلات ولا قوة. من ناحية الروح هو غير جيد على الإطلاق: لا مبالٍ، بطيء الحركة، لا يفكر إلا بمرضه وأمعائه، لا يقرأ شيئاً، ولا يتكلم، ويبتعد عن الجميع. رهيب أنه أصيب بالخمول أو البلاهة، وهذا أسوأ من الموت».

تطوع الأخ الأصغر أندريه لمرافقة ليف لفوفيتش إلى فنلندا.

لم يعِد العام الـ 95، القاسي بالنسبة للأسرة كلها، بأي بصيص من الأمل. الابنة ماشا نوت فجأة الزواج من نيقولاي أبولونسكي. أمه، ابنة أخت تولستوي يليزافيتا فاليريانوفا، كانت فقيرة لدرجة أنها كانت مضطرة لمغادرة موسكو مع أسرتها الكبيرة. وطلبت أن يأخذوا ابنها الأكبر كوليا ليعيش على نفقة آل تولستوي وفي منزلهم. لم يكن كوليا غبياً، ولا بليداً، ولا أبله، وكان هادئ الطبع، لكن قرار ماشا بالزواج منه نزل على الأسرة نزول الصاعقة. وقد كتبت صوفيا أندرييفنا في ذكرياتها: «أمنّا له الدفء، أنزلناه في منزلنا طيلة فترة دراسته، وفجأة، ودون أن يملك قرشاً في جيبه، وليس له أي وظيفة، لم يأخذ على عاتقه دوراً فوق استطاعته فحسب، بل وبقي عالة علينا. كان كسولاً وخاملاً للغاية، ولم يكن يشارك قط أفكار ماشا واتجاهاتها، بل على العكس، كان يحب السيادة، وعدم فعل أي شيء. وعندما تزوجت منه ماشا فيما بعد، على الرّغم من كل شيء، قال ليف نيقولايفتش بحزن عن زواج ماشا: <<مثل حصان أصيل تم تسخيره في عربة جرّ الزبل>>».

في كتابه «تجربة حياتي»، اعترف ليف لفوفيتش بصراحة، أنه مع محبته الكبيرة للأسرة، فهو من حيث الواقع هرب منها في عام 1895 إلى فنلندا. فعائلة تولستوي في تلك الفترة كانت عبارة عن عقدة من المشاكل التي لا يمكن حلها. وفي هذه العقدة، كان هو، ليف لفوفيتش، مجرد خيط من بين خيوط هذه العقدة. وهو بمرضه البائس، كان يحتاج إلى عناية شديدة ورعاية حكيمة، وبدلاً من هذا، وباعتباره الابن الأكبر من الأبناء الذين بقوا في المنزل، كان عليه أن يعتني بالأسرة ويهتم بها. عليه أن يتعاطف مع أمه التي فقدت ابنها فانشكا، وأن يعلم إخوته الصغار، الذين لم يعد باستطاعة الأب والأم التعامل معهم، العقل والحكمة، وأن يعاني بسبب قصص حب أختيه، ويشارك أباه في مساعيه الروحية القاسية.

بمغادرته إلى فنلندا، حل ليوفا مسألتين دفعة واحدة. فقد أنقذ والده ووالدته من حضوره، من مظهره الكئيب، ومن شخصية إنسان لا يحتمل، يشعر بالقلق الدائم على «أمعائه». وتخلص هو نفسه من المشاكل العائلية.

بعد أن وصل إلى مدينة غانغيو الفنلندية الصغيرة، أطلق سراح أخيه أندريه ليعود إلى البيت بسرعة، لأنه لم تكن هناك أي فائدة منه. أما الخادم الشاب إيفان، الذي استعاره آل تولستوي من عزبة آل رايفسكي، فقد كان يروق له. كان إيفان سريع الحركة، وكان يتقن الطبخ مثل طباخة. علاوة على ذلك، كان يسلّي سيده بسلوكه. في اليوم الأول لوصوله، ولأول مرة يرى البحر، شرب كثيراً من ماء البحر المالح، فأصابه انقباض في معدته. لكن إيفان لم يعجبه تفسير أن ماء البحر لا يُشرب. وقال لليف بفخامة: «لا، يا صاحب السعادة، هذا ليس من الماء، بل بسبب تغير المناخ». وفي المساء ذهب يتجول في المدينة مع الشبيبة الفنلندية، وأخذ يمدح روسيا ويتفاخر بها، ولهذا تعرض للضرب، ولُقب بـ «المتفاخر بالشيطان».

عموماً، إيفان هذا، الذي يومض في ذكريات ليف لفوفيتش كشخصية تافهة، كان يمثل ظاهرة مثيرة للاهتمام. فقد تعايشت فيه الروح الوطنية مع نزعة سمردياكوف (سمردياكوفشينا[1]). ويتذكر ليف لفوفيتش «كانت آراؤه الأكثر حسماً». ذات مرة سأل ليف لفوفيتش خادمه إيفان، عن رأيه بالشعب الروسي، فقال إيفان:

«بلا شك، شعب متوحش، يا صاحب السعادة».

لقد كان إيفان الحلقة الأخيرة التي تربط المريض ليف لفوفيتش بالوطن. وبافتراقه معه في السويد، أدرك فجأة أنه يفترق مع روسيا... مع روسيا في ذاته وكان هذا مثل المرض بالنسبة له... والغريب في الأمر، أن الطبيب السويدي ويسترلوند، الذي أخذ على عاتقه علاج ليف لفوفيتش في إنشيبينغ، هو الذي أصر على طرد إيفان. وقد كان هذا أحد شروطه – التخلي عن الخادم الروسي. أما الشرط الإلزامي الثاني فكان وقف المراسلات مع الأهل والأقارب.

لم يدخل على الغالب في نوايا ويسترلوند «شفاء» مريضه *من وطنه*. وكل ما

1- سمردياكوفشينا من اسم سمردياكوف: إحدى شخصيات رواية «الإخوة كارامازوف» لدوستويفسكي، وهو خادم آل كارامازوف. وهذا التعبير يصف احتقار وكراهية الرعايا ومن ثم المواطنين الروس. -المترجم.

في الأمر، أن طريقة علاجه كانت تقوم على العزل التام للمريض عن المثيرات التي كانت تزعجه سابقاً. بيد أن ليف لفوفيتش نفسه تقبل الأمر على النحو التالي: «لقد عالجني الدكتور ويسترلوند، ولكن ما ساعده في ذلك بصورة رئيسة، هو أنني انفصلت عن الأسرة وعن روسيا وابتعدت عن تأثيرهما». («تجربة حياتي»). أما في كتابه «الحقيقة عن أبي»، وفي حديثه عن «نظرة أبيه للعالم اليائسة» (هو أيضاً رمز لروسيا مثل الفلاح إيفان)، التي شُفي منها، باعتبارها مرضاً، يكتب: «لقد فُتحت أمامي آفاق جديدة للحياة، الثقافة الأوروبية التي لديها الكثير من العيوب، لكنها مع ذلك تبقى في جوهرها، عقلانية وحيوية».

وهكذا، فإن ليف لفوفيتش، بحسب شعوره الشخصي، أصبح «الأوروبي» الأول في الأسرة. نادراً ما كان إخوته وأخواته يغادرون روسيا إلى الخارج. أبوه سافر إلى الخارج مرتين، ولكن في شبابه. صوفيا أندرييفنا، طيلة حياتها، لم تغادر ربوع وطنها. وظهر في رأس ليف لفوفيتش «مشروع» داخلي جديد. هو -ليف تولستوي- الصغير سوف يجمع لقبه (كنيته) العظيم مع الثقافة الأوروبية العظيمة.

دم روريك

بالاختلاف عن باريس، حيث كان ليف لفوفيتش يعاني من الكآبة المميتة والذعر، شعر في فنلندا بتدفق ولو قليل من القوة. لم يخطئ أغرانوفيتش في أن المناخ وهواء البحر في غانغيو أثرا تأثيراً منشطاً على المريض. ويتذكر في «تجربة حياتي»: «... لقد شعرت على الفور بأنني حللت تحديداً في ذلك المناخ وتلك البيئة الضروريين لي. كل يوم كنت أبحر على الزوارق الشراعية لمدة ساعتين-ثلاث، وتابعت أكل الحنطة السوداء الضرورية لي، وتنزهت في نزهات طويلة سيراً على الأقدام، وكنت أذهب للنوم باكراً، وبدأت بالتدريج أستعيد قواي». في 10 أيلول/ سبتمبر عام 1895، وقبل التوجه إلى السويد، كتب رسالة هامة إلى أبيه من غانغيو، بدأ فيها يجادله وإن كان بصورة خجولة. إنها نظرة ليف لفوفيتش الجديدة إلى الحياة، وهي نظرة قوية و«مادية» نشأت عنده بتأثير السويديين الفنلنديين.

في بداية الرسالة يخبره أنه في بضعة أشهر من إقامته في غانغيو «لم يفعل أي شيء على الإطلاق»، أي أنه لم يقرأ ولم يكتب أي شيء. «ولكن رغم ذلك، تعلمت أكثر مما لو قرأت ألف كتاب. تعلمت أشياء جديدة تتعلق بالعالم والناس».

في هذه الرسالة يمتدح كثيراً أسلوب حياة السويديين. «يعيش الناس هنا بشكل رائع. ثمة أناس سعداء حقيقيون، لم أر مثلهم عندنا. يأكلون بصورة جيدة، وينامون بصورة صحيحة، راضين، يتنعمون طيلة حياتهم. ويتقبلون الحزن بهدوء وبهجة».

ويصر قائلاً: «وكل هذا، أي الكثير في طباعهم وشخصياتهم من المناخ. إن المناخ هو قضية رائعة، ومن العبث أنك لا توليه الأهمية...».

يلمّح في الرسالة السابقة إلى أنه يريد التخلي عن النزعة النباتية، على الرغم من أنه عندما كان في موسكو، هو من عوّد إخوته الصغار على النباتية. وليكن اللحم «مقرفاً، كالسم» بالنسبة له، ولكن «من حيث المناخ، يصعب على الناس هنا أن يكونوا نباتيين».

إن المضمون النفسي العميق الخفي لهذه الرسائل لن يكون واضحاً إلا لمن يتصور الأجواء العائلية لآل تولستوي في عام 1895. في هذا الوقت كانت الأسرة بائسة. وها هو ليف لفوفيتش قد غادر هذه الأسرة البائسة، وخلّصها من قليل من بؤسه الشخصي. وعندما أرسل أخاه أندريه إلى البيت، كتب لأمه: «الغربة عزيزة عليّ». مع الغرباء أشعر بسهولة أكبر مما مع أهلي.

علاوة على ذلك، بدا له هؤلاء الغرباء أكثر قرباً ومعزة له من الروس. ومع اقترابه على ظهر الباخرة إلى ستوكهولم، يبدأ ليف لفوفيتش ببناء الأحلام والأوهام. فيتذكر أن في عروقه «يجري دم روريك القديم». وهذه حقيقة، لأن أصل آل تولستوي من جهة الأمراء فولكونسكي اندمج مع آل ريوريكوفيتش. ومع ذلك، فإن حماسة أفكاره حول العودة إلى «الوطن التاريخي» فائض عن الحاجة ومضحك قليلاً. ولا يمكن تبريره إلا بالحالة العصبية لشاب متعطش للتعافي والشفاء.

ويكتب: «أخيراً، بعد أن عانيت في الدنيا خمسة وعشرين عاماً، أرى

وطني القديم الحقيقي. نعم، نعم. هكذا كانت المنازل، هكذا كان الناس في وجودي السابق، هكذا بالذات كان الجو العام للحياة، وهكذا كان هواء البحر اللطيف النقي، الذي كنت أستنشقه. لقد تحركت في نفسي فرحة عميقة لم أشعر بها قط من قبل، وتحدثت أصوات أسلافي الشماليين في داخلي بقوة غير متوقعة...».

ويتذكر بصورة ضبابية: «وروسيا؟ فقد وُلدت فيها، هناك، في ياسنايا بوليانا البعيدة الصماء؟... نعم، ولكنني من هنا، أنا أنتمي إلى هنا، وهنا وطني الحقيقي...».

وتغدو ذكرى روسيا غير سارة: «ذات وقت، كانت القوات الروسية في السويد، وداهمت خليج بوثنيا على الجليد، وأحرقت جميع المدن الساحلية السويدية[1]. ولكن ها قد مضى مئة عام والشعب السويدي بحكمة يتجنب الحروب، ويعيش بسلام مع جميع الأمم... أمن المعقول أنه سوف يحارب يوماً ما، ويصطدم من جديد مع روسيا؟ يجب أن نأمل أنه سيقترب منها ليس عن طريق الحرب...» («تجربة حياتي»).

تحتوي هذه الأسطر أيضاً على مضمون سيكولوجي خلف النص. لقد ذهب ليف لفوفيتش إلى ستوكهولم من أجل التوجه إلى إنشيبينغ، المدينة الصغيرة التي تبعد أربع ساعات بالسيارة عن عاصمة السويد، للقاء الطبيب إرنست ويسترلوند. وكانت تدور أساطير حقيقية عن هذا الطبيب، في أنه يعالج أمراض العصاب في أشد مراحله، بفضل قدرته على التأثير في المرضى. وقد أوصاه بالطبيب ويسترلوند صديقه السويدي إيوناس ستادلينغ، الذي عمل معه في مكافحة المجاعة في مقاطعة سمارى. وقد زار ستادلينغ المقيم في ستوكهولم ليف لفوفيتش في غانغيو، وتعهد بترتيب مسألة علاجه. وقد كانت هذه الصدفة السعيدة الأولى لتقاطع الأحداث. أما الثانية – فهي أن ويسترلوند كان لديه ابنتان، وتزوجت الابنة الكبرى من نرويجي كان مريضاً عند والدها. ومنذ أن كان في غانغيو، علم ليف لفوفيتش

1- المقصود بذلك الحرب الروسية–السويدية 1808–1809 بهدف ضم فنلندا إلى روسيا. –المؤلف.

بوجود ابنة الطبيب الصغرى البالغ عمرها سبعة عشر عاماً. ولسبب ما، تخيل أن هذه الفتاة بالذات ستغدو زوجته.

لم يكن هناك أي تفسير منطقي لهذا الخيال الغريب. وليس من العبث أن ليف لفوفيتش انطلق من الفكرة الأدبية. وقد بدا له زواجه من دورا ويسترلوند تاج الحلم الإسكندنافي، الذي تصور فيه نفسه حلقة الوصل بين روسيا القديمة وروسيا المستقبلية.

هذا في حين أن ليف لفوفيتش ترك في موسكو فتاة، كان من المتوقع أن تكون عروسه. وهي فيرا سفيرتسوفا، التي أُشير إليها، غالباً في قائمة «12 حباً في حياتي» باسم «فيرشكا». غير أن ليف لفوفيتش كان يعتقد، أنه «كان ينقصها تلك القوى والصحة البدنية التي كنت أبحث عنها غريزياً في زوجتي المقبلة». علاوة على ذلك، فإن أباها فقد عقله، وأصبح مجنوناً، ما كان يهدد بنسل وراثي سيئ. بيد أن فيرشكا، وهي فتاة متدينة للغاية، كانت قد اختارت الكنيسة التي عليهما أن يتكللا فيها. وكانت تنظر إلى «تولستوية» خطيبها المحتمل بشك وعدم ثقة. وعندما مات فانشكا، كانت فيرا أول من أسرع إلى مصحة أوغرانوفيتش ونقلت الخبر إلى ليف لفوفيتش. وعموماً، كان عند فيرشكا شيء معتل مريض في صحتها...

«أنا لم أتبادل القبلات قط مع فيرشكا، مرة واحدة فقط مسّدت يدها البيضاء، رانياً إلى عينيها المشرقتين».

وكان هذا رمزاً آخر لروسيا البائسة التي ودعها على طريقه إلى شفائه وصحته.

والده كان مريضاً بتعاليمه. أخواته -في تبعية خفرة لأبيهن. إخوته الصغار- مشغولون بالقرية الروسية والفودكا والأكورديون. الأم مرضت بعد وفاة فانشكا. هكذا على الأغلب، كان يفكر، عندما كتب لأمه: «لن آتي لعندكم... رؤية موسكو فقط وما شابه ذلك، بالنسبة لي، تعني أن أمرض من جديد...».

لكن المدهش، أنه تسيطر عليه فجأة، في هذه الحالة بالذات، آمال مسيحية عفوية. الزواج من أجنبية، غير سلافية، كان خطوة جريئة جداً. فقط

على هذا النحو، من خلال القطيعة مع روسيا «المتخلفة» المريضة، نوى أن يقهر في نفسه المرض القاسي. بيد أن هذا لا يعني على الإطلاق، أنه انقطع عن روسيا إلى الأبد. كلا، كان ينوي أن يعود!. ولكن أن يعود إنساناً آخر – سليماً معافى، ممتلئاً بالقوة والنشاط. وبرؤية جديدة للعالم، تتعارض مع عقيدة الأب التي *أضعفت إرادة الأمة*.

كل هذا كان يدور بصورة خافتة في رأسه الذي تهب عليه رياح البحر. على طريق الصحة والسعادة...

ويسترلوند

إن أول ما لفت انتباهه عندما زاره الدكتور ويسترلوند في فندق إنشيبينغ: «هيئته ووضعيته كانتا شبيهتين بنابليون: كان يقف مستقيماً، منتفخ البطن قليلاً، أما يده فكان يضعها بين عراوي صدريته». آنذاك لم يكن ليف لفوفيتش يعرف أن زوجته المقبلة، ابنة ويسترلوند الصغرى دورا، أو دولان، كما كانوا يدعونها في الأسرة، تقدّس شخصية نابليون.

كان يتذكر ليف لفوفيتش: «كان أنفه الأعقف وشفتاه الرقيقتان ويداه الجافتان القويتان تعبر عن الطاقة والإرادة».

إن أول ما لفت انتباه صوفيا أندرييفنا، عند نظرتها إلى صورة كنتها المقبلة: «الفم والذقن يظهران شخصية قوية» (من رسالتها لابنها بتاريخ 4 آذار/ مارس عام 1896).

تقع البلدة – المنتجع إنشيبينغ وعدد سكانها ثلاثة آلاف نسمة، على شاطئ نهر يصب في بحيرة ميلارين، وفي طرف البحيرة الشرقي تقع مدينة ستوكهولم. وقد ذكّرت ليف لفوفيتش بحجمها ونمط حياتها البطيء ببلدة أودويف التي تبعد خمسة وسبعين كيلومتراً عن تولا على ضفة نهر أوبا.

وصل ليف لفوفيتش إلى إنشيبينغ في نهاية أيلول/ سبتمبر عام 1895 ونزل لقضاء الليل في فندق المدينة. في المساء نفسه زاره ويسترلوند، دون انتظار زيارة المريض له. وهذا لا يدل على أن ويسترلوند قد أُخطر مسبقاً بوصول ابن تولستوي فحسب، بل على أن *شهرة ابن تولستوي* رافقته في السويد. ويخبر ليف لفوفيتش أباه: «إنهم يحبونك كثيراً ويعرفونك جيداً».

حاز ويسترلوند على الفور على تعاطف وإعجاب ليف لفوفيتش. بعد بضعة أيام من وصوله يكتب رسالة لأهله: «الدكتور ويسترلوند إنسان متميز، عمره 57 عاماً ويبدو في الأربعين[1] متوسط القامة، ممتلئ الجسم، بخدين حمراوين وعينين كبيرتين، متباعدتين واسعتين، يضيقهما. إنه ذكي، وطيب، وما يفسر قوته، أنه قادر على التأثير في المرضى، بالولوج إلى نفوسهم، والوصول بالضبط إلى تلك الأماكن التي يضنيها المرض».

نحن لا نعرف ما هو المرض الذي شخّصه ويسترلوند عند ابن تولستوي، بيد أنه صرح للمريض، بأنه لم يعثر على «أية أضرار عضوية» ووعده بالشفاء المطلق. وهذا كان بالذات ما أراد أن يسمعه ليف لفوفيتش، الذي كان يعارض بصورة غريزية في روسيا، وفي فرنسا، أي تدخل مادي في جسده وكان يؤكد شيئاً واحداً: لست بحاجة إلى أدوية، أنا بحاجة إلى «مربية» حكيمة. وكتب لأهله: «مكان علاج رائع. يعتنون بالمرضى. بدقة، ولطف، وحكمة، وصبر...».

«بدأ علاجي بأن أرقدوني على السرير، وبدأوا يقدمون لي التغذية الممتازة، ويطعمونني خمس مرات في اليوم» («تجربة حياتي»).

كانت النزهات والعلاج بالعمل الطرق الرئيسة التي استخدمها الطبيب. أخذ ابن تولستوي يطرّز الوسائد (وهذا ما كانت تنفّره منه أمه –ليس من عمل الكونت!) ويجلّد الكتب– ابن الكاتب، وهو نفسه كاتب، عليه أن يتعلم تجليد الكتب. هكذا قرر ويسترلوند. كان يخرج للنزهة في أي طقس، حتى في المطر الغزير، وضمن مسار واحد محدد: يصعد إلى الجبل حيث الكنيسة وينزل في طريق العودة. شتاءً كان يتزلج على المزالج، وهنا، في حلبة تزلج إنشيبينغ، وبحسب التقاليد العائلية، التقى الفتاة دورا ذات السابعة عشرة من العمر، التي كانت ترتدي قبعة فرو صغيرة، وفروة لتدفئة اليدين (كتب ليف لفوفيتش نفسه، أنه رأى للمرة الأولى زوجته المقبلة في منزل آل ويسترلوند، حيث حضر في اليوم الثالث لعيد الميلاد ليس كمريض، بل كضيف، وكانت ترتدي بلوزة من الحرير الأزرق وتنورة بنية اللون.)

1- هنا، ولاحقاً، تُستخدم جزئياً الذكريات غير المنشورة لابن ليف لفوفيتش تولستوي، بافل لفوفيتش، بترجمة ت. ل. بالدوفسكايا. المؤلف.

وبحسب قناعة ليف لفوفيتش، فإن السر الرئيس لنجاح ويسترلوند في علاج المرضى المصابين بعصاب بدرجة مهملة للغاية، لا يكمن في طرق علاجه، بل في الطبيب نفسه.

يرجع أصل إرنست تيودور ويسترلوند[1] إلى بلدة إيريغروند السويدية على شاطئ بحر البلطيق. نشأ في عائلة كاهن، وتربّى بطريقة صارمة، لدرجة أنه وهو طفل لم يجرؤ على الجلوس إلى المائدة أثناء الغداء بحضور والديه، وكان عليه أن يتناول طعامه واقفاً. كان الكهنة في السويد ينتسبون إلى «الطبقة الدنيا، إلى ما يعرف بـ «الفئة الثالثة»، وكان على إرنست ويسترلوند أن يتحمل الكثير من الصعوبات كي يدرس ويتخرج طبيباً. في عام 1864، وباعتباره طبيباً عسكرياً، شارك في الحرب الدانمركية – البروسية، وأسره البروسيون. ثم عمل مدرساً في أسرة الملاّك غير الموسر فلوديروس، حيث تقدم بعرض للزواج من ابنة المالك نينا. في عام 1867 انتقل مع زوجته إلى بلدة إنشيبينغ، بصفة طبيب البلدة، وسرعان ما حقق شهرة في علاج العُصابات، وفتح عيادة خاصة به. وكانوا يفدون للعلاج إليه من مختلف الدول الإسكندنافية وحتى من أوروبا.

أنجب من زوجته نينا ثلاث بنات. ماتت إحداهن، وتزوجت الثانية من صحفي نرويجي، أما الثالثة فقد درست في ستوكهولم، ومن أجل ممارسة اللغة الإنكليزية والتحدث بها، كانت تعيش مع عائلة سويدية – أمريكية.

كان ويسترلوند يربي بناته بصرامة أيضاً. وبسبب عصيان أمر والدها للمرة الأولى، تعرضت دولان (دورا) للجلد من قبل والدها شخصياً، ثم ترك هذه المسألة لزوجته (في أسرة آل تولستوي لم يجلدوا الأطفال قط). في الوقت نفسه، كانت لدى الفتاة اثنتان وسبعون دمية كبيرة، وكانت ترقِد كل واحدة منها للنوم مساء، مثيرة استياء أمها، بيد أنها كانت تنتظر بصبر نهاية لعبة الطفلة هذه، قبل أن ترقد ابنتها للنوم.

بعد أن جمع الأموال، أصبح ويسترلوند ملاّكاً أيضاً، واشترى ووسّع عقاراً لوالد زوجته. وبنى لنفسه منزلاً رائعاً ومزرعة نموذجية. وقد دعا

1- ولد إرنست ويسترلوند في عام 1839. المؤلف.

حوزته باسم «هالمبيوبودا» وتعني بالترجمة من اللغة السويدية «قرية عنبر القش». ولكن على الرّغم من نجاحاته ومظهره الخارجي الحاسم، كان ويسترلوند بطبيعته إنساناً متواضعاً. ولهذا كان عرض ابن الكونت والكاتب الشهير بالزواج من ابنته مغرياً للغاية، بالنسبة له.

ويسترلوند لم يكن موضع احترام في إنشيبينغ فحسب، بل كان مضمون ومعنى وجود هذه البلدة. وبدا كأنه ليس السكان فحسب بل والطبيعة أيضاً كانت تعمل لمصلحة ويسترلوند. كل شيء كان خاضعاً لعلاج المرضى الذين كان عددهم يتراوح في وقت واحد بين مئة إلى مئة وخمسين مريضاً. كانوا يقيمون في فندقين من فنادق البلدة. لكن القسم الأكبر استقر في منازل داخلية خاصة يديرها السكان المحليون، حيث كان نمط الحياة كله خاضعاً لويسترلوند وطرق علاجه. وكان كل يوم يزور هذه المنازل الداخلية، التي بلغ عددها العشرات.

وقد كتب ليف لفوفيتش في كتابه «السويد المعاصرة – في الرسائل والمقالات والصور»: «إنه يعمل على مدار السنة تقريباً، ناسياً نفسه، لا يعرف التعب. يبدأ يوم ويسترلوند في السادسة صباحاً وينتهي في التاسعة مساء، وأحياناً في وقت لاحق».

«منذ أن يستيقظ، يتوجه الدكتور إلى مكتبه الصغير ويبدأ على الفور باستقبال المرضى الذين اجتمعوا في الغرفة المجاورة للمكتب. هنا يجلسون، ينتظرون دورهم، أرستقراطيون إلى جانب أشخاص من عامة الشعب، ويستقبل الطبيب كلاً منهم باللطافة ذاتها، والاهتمام، والحب. يستمر استقبال المرضى الصباحي ساعتين؛ وبعد الفطور يجلس ويسترلوند فوراً في العربة ويتوجه إلى مرضاه، المقيمين في المدينة بنظامه وتحت إشرافه ومراقبته...

بعد استخدامه الفترة الصباحية كلها في زيارة المنازل الداخلية للمرضى المقررة لهذا اليوم، يذهب بعدها ويسترلوند إلى المستشفى حيث لديه يومياً وقت مخصص للعمليات. بعد أن يمكث هناك حوالي ساعة، يعود إلى البيت، حيث يتناول وجبة خفيفة، ثم يذهب إلى مكتبه مرة ثانية، كي يبدأ

الاستقبال الثاني للمرضى في شقته. وهو الآن لا يستقبل المرضى لساعة أو ساعتين بل لـ 4–5 ساعات دون أن يخرج من غرفته...

وبعد أن ينهي الاستقبال الثاني للمرضى في الساعة 6–7 مساء يتناول طعام الغداء، ثم يستريح قليلاً وفي المساء يخرج من جديد من أجل زيارة مرضاه ذوي الأوضاع الصحية الصعبة في المدينة، أو إذا ما استدعي إلى مريض يتوجه إليه في قرية ما من القرى، ولا يعود إلى المنزل أحياناً إلا في الصباح». ومع كامل طيبته ولطفه، كان ويسترلوند يطالب المرضى بتخليهم الكامل عن إرادتهم الشخصية والخضوع المطلق لنظام الحياة المقرر. وإلا، كان الطبيب يرفض معالجتهم. فإذا ما كان ليف لفوفيتش يطرز الوسائد، كانت سيدة نبيلة تقوم بالرسم على الخشب وحرقه، وآخر كان يقطع الحطب، ورابع كان يعمل في المطبخ، وخامس كان يدرس اللغة الإنكليزية – كما أمر الطبيب.

وهكذا، كانت الطاعة المطلقة لإرادته. يقول ويسترلوند: «إذا كنت لا تريد أن تصغي إليّ، ولا تتخلى نهائياً عن إرادتك المريضة، ولا تتبع بصورة عمياء كل ما أصفه لك، فمن العبث أنك توجهت إليّ للعلاج».

الشرط الثاني –رغبة المريض نفسه بالتعافي والشفاء. «فقط ذلك الذي *يريد* لأن يكون معافى صحيح الجسم، يمكنه أن يكون معافى صحيح الجسم، والأعداد الكبيرة من المرضى غير أصحاء فقط لأنهم أنفسهم لا يريدون شيئاً آخر»– هكذا قال الدكتور.

كان ويسترلوند عدو العلاج بالأدوية، ما كان يخيّب أحياناً ظنّ المرضى، وخاصة من عامة الشعب، الذين كانوا بانتظار جرعة معجزة. كان يؤكد أن الطبيعة وحدها في الاستخدام المعقول يمكنها أن تشفي الإنسان. ولهذا ففي إنشيبينغ لم يكونوا يعالجون المرضى بقدر ما كانوا يعتنون بهم ويرعونهم. وفي هذا يكمن سر هذا المكان.

وقد كتب ليف لفوفيتش: «من السهل على الطبيب أن يعطي دواءً، ويعطي نصيحة وينسى المريض، ولكن أن يرعاه ويعتني به –هذا ليس سهلاً، وهذا ما يقوم به عادة ليس الأطباء بل الناس الأقرباء المحبون. إن المرضى

الذين لم يحصلوا في منازلهم على الاهتمام الضروري، والرعاية اللازمة، والحب- يجدون هذا كله في إنشيبينغ على أيدي الناس الغرباء...».

كانت هناك أسطورة في السويد، تقول إن الملك سأل ويسترلوند ذات يوم، ما هي الوصفة السرية في علاجه للمرضى. أجاب ويسترلوند: «أنا أحبهم، يا صاحب الجلالة». وكان ليف لفوفيتش يؤكد بحزم، أن «ويسترلوند، بادئ ذي بدء، ليس طبيباً فحسب، بل هو الدواء نفسه». ومع ذلك فإن «الدواء» الرئيس الذي أهداه له الطبيب، لم يكن هو نفسه، بل كانت ابنته دولان.

دورا

كتب سيرغي نيقولايفتش، أخو تولستوي الأكبر، لأخيه في 8 أيار/ مايو1896: «لقد شفى الطبيب السويدي ليوفا جيداً، بيد أن هذا الدواء غير متوفر في كل صيدلية».

كان اسمها الكامل سيغني يوحنا دوروثيا. عندما رآها ليف لفوفيتش للمرة الأولى كان عمرها سبعة عشر عاماً. كانت تعشق أباها وتشبهه بعينيها المتباعدتين، أما من حيث الطبع -فكان طبعها أكثر نعومة وأنثوية- كانت تشبه أمها، نينا ويسترلوند، وكنيتها قبل الزواج فلوديروس، وقد وصفها ليف لفوفيتش في رسالته إلى أهله بأنها: «امرأة بسيطة، متواضعة وطيبة، من أسرة ملاّك صغير».

وبحسب ذكريات ليف لفوفيتش، فقد تعارفا في نهاية عام 1895، في اليوم الثالث لعيد الميلاد، عندما زار الكونت الروسي الشاب آل ويسترلوند في منزلهم. وبمناسبة العيد اجتمعت في إنشيبينغ الأسرة الصغيرة كلها: الأب، والأم، الابنتان، والأخت الكبرى لربة البيت ماتيلدا فلوديروس، وعانس في السبعين من عمرها تعمل سكرتيرة للدكتور، ومحبوبة من كل أفراد الأسرة، ومن المرضى الذين كانوا يدعونها «الخالة ما». ابنة آل ويسترلوند الصغرى كانت متعلقة كثيرة بالخالة العجوز. وكانت تكنّ لأختها الكبرى حباً شديداً. وهذا ما لفت انتباه الضيف الروسي: جلست إلى المائدة إلى جانب أختها، وأمسكت دولان بيديها وقبلتهما.

لم يكتب ليف لفوفيتش في ذكرياته بالتفصيل عن الانطباع الذي أحدثته في نفسه دوروثيا ويسترلوند «عندما دخلت بخطى سريعة، راكضة تقريباً» إلى غرفة الضيوف، حيث اجتمعوا على مائدة العشاء. كما أنه لا يكتب شيئاً عما إذا كان قد تحدث بالتفصيل مع عروس المستقبل حول إمكانية الزواج منها. وكيف يمكن اللحاق لتحقيق ذلك خلال عطل عيد الميلاد، حيث تنزها عدة مرات والتقيا في حلبة التزلج؟ بأي لغة عبرا عن حبهما؟ كان ليف لفوفيتش لا يتحدث باللغة السويدية تقريباً، ودورا لم تكن تعرف اللغة الروسية على الإطلاق. كان يتقن اللغة الإنكليزية بطلاقة، وكانت تتعلم اللغة الإنكليزية في ستوكهولم. وكانا يتفاهمان بهذه اللغة. بعد عطلة عيد الميلاد سافرت دورا إلى ستوكهولم، وفي شهر شباط/ فبراير طلب ليف لفوفيتش من آل ويسترلوند يد ابنتهما. لم يكن يسأل عن موافقة والديها، ووضعهما كتابياً أمام الأمر الواقع. ترددت أم دورا. أما الأب فكان محرجاً، لكنه شعر بشكل واضح بإغراء هذا العرض. أما دورا نفسها، وكما اتضح قريباً، فلم تكن تدرك شيئاً على الإطلاق، وكانت تنظر إلى الزواج نظرة طفولية، كما تنظر إلى لعبة ممتعة.

ولكن في هذه الأرجوحة المدهشة مع الخطبة كان ثمة جانب تفصيلي هام. كان يجري تواصل ليف لفوفيتش مع عروس المستقبل في حلبة التزلج. وبالطبع، كان الكونت الروسي الشاب، الذي كانت أسرته تقدّس التزلج على الجليد (كان يتزلج عليه الكبار والصغار في ياسنايا بوليانا، وفي موسكو في فناء منزل خاموفنيكي)، يمكنه أن يفتخر أمام دورا بمهارته. مثل ليفين أمام كيتي في المشهد الشتوي في «آنّا كارينينا». لكن قصة خطبة ليفين لكيتي، مثل قصة زواجه وحياته الزوجية، كانت إسقاطاً مباشراً لعلاقات ليف نيقولايفتش وصوفيا أندرييفنا في الأعوام الستينيات. وعندما تزوجت صونيا أكملت في حينها عامها الثامن عشر. كان والدها طبيباً، أندريه يفستافيفيتش بيرس، ألماني الجنسية. لم يكن غنياً، لكنه كان محبوباً من الجميع في منطقته في الكرملين. وكان لديه أيضاً ثلاث بنات.

كان على ليف لفوفيتش أن ينتبه إلى تعاقب هذه الصدف والتطابقات. والمسألة هي: كيف كان يقدرها؟

في 23 شباط/ فبراير عام 1896 يخبر والدته: «عسى ألا تغضب روحك هذه الرسالة، ولتطمئنها، ولتكن لياليك هادئة وأيامك سعيدة، مثلي.

وليبق هذا الخبر ضمن نطاق بيتنا.

كنت أعاني لأنني أحببت فتاة أحبتني، بصدق وقوة من قبل الجانبين، لدرجة أننا لا يمكننا إخفاء ذلك.

متى سنتزوج، هذا غير معروف. نأمل في الخريف القادم أو الشتاء، والآن آمل أن أبقى معها طول الوقت ربيعاً وصيفاً. إنها تريد أن ترعاني، وأن تعيش معي الحياة والسعادة. اكتبي لها ولوالدها، أو من يريد، أبي، الجميع، أخواتي. هذا سيكون لنا جميعاً فرحة كبيرة...».

في رسالته إلى أبيه، يتحدث بالتفصيل عن دورا:

«لم تنشأ نشأة دينية-كنسية، واعتادت على الحرية بمختلف أشكالها... عندما تكلمت عن المعمودية أعلنت أنها لن تسمح بتعذيب أولادها على هذا النحو. كما أنها لا تستطيع أن تفهم كيف يمارسون الجَلْد في روسيا. فهذا غير مفهوم لها، كما هو غير مفهوم لي، أن يبيعوا الناس في البازار. كما أنها لا تحب الصيد. وتقول إن هذا كما في مونت كارلو -من الممنوع قتل الأرنب وهو *هادئ*، بل يجب أن يكون في حالة حمى. إنها جدية ونشيطة. تحب والدها كثيراً، وتنتقل من هواية إلى أخرى ومن شغف لآخر. لديها ذاكرة جيدة، وأنا آمل، إن شاء الله، أنها ستتعلم اللغة الروسية بسرعة. ذات مرة، شككت في أنها أخفت عني شيئاً صغيراً. فحزنت لهذا وقلت لها إنها إذا لم تخبرني بكل شيء أو لم تقل الحقيقة فسأكون غير سعيد. عندها هرعت نحوي، وكانت مستاءة للغاية، بحيث أمكنني الاعتقاد، ورأيت أنه لن يكون هناك كذب أبداً من ناحيتها أبداً أبداً Never, never- هكذا بقيت في أذنيّ...

اكتبْ وانصحْ بما سيكون مفيداً مع هذه الروح البالغة من العمر 17 عاماً في أيامنا الأولى».

في هذه الرسالة كان ليف لفوفيتش يمثِّل على أبيه، محاولاً إظهار دورا في الضوء المناسب لآراء أبيه. مثل دورا غالباً، التي كانت تمثل على *ابن تولستوي*، في حديثها أنها لا يمكنها أن تتصور - جَلد إنسان حي أو قتل

أرنب حي! بيد أن خطبة ليفين لكيتي كانت تجري أيضاً (مثل خطبة ليف نيقولايفتش لصونيا بيرس) في جو من التمثيل: لنتذكر طاولة الورق، التي كتب عليها البطل والمؤلف الأحرف الأولى من كلمات التعبير عن الحب.

كان الشرط الرئيس الذي وضع على الفور بين الزوجين الجديدين ليف وصونيا تولستوي، من قبلهما نفسيهما في بداية حياتهما الزوجية – لا كذب على الإطلاق! أن يعرف كل منهما عن الآخر كل التفاصيل الصغيرة! عدم إخفاء أحدهما عن الآخر يومياته، رسائله! أبداً أبداً وإلا فسيكونان غير سعيدين.

بعد ثلاثين عاماً تكررت القصة نفسها. بيد أنها كانت تفتقر إلى ظرف واحد، وهو ظرف المكان.

كانت تفتقر إلى ياسنايا بوليانا.

مكتبة
t.me/soramnqraa

رسائل من ياسنايا بوليانا

جميع الأمهات متشابهات... مثل نينا ويسترلوند، اتخذت صوفيا أندريفنا موقفاً حذراً من قرار الخطيبين. كان يحرجها أن خطيبة ابنها أجنبية. وقد شعرت على الفور وبشكل لا لبس فيه: هنا تكمن المشكلة لمستقبل الحياة الأسرية. في 4 آذار/ مارس عام 1896 تكتب لابنها ليوفا في السويد:

«حيثما انتهى كل شيء وتقرر -أصبحت أشعر، بالطبع، بالخوف عليكما. لكن المستقبل غامض للجميع وسوف نأمل ونصلي لله، بأن يكون كل شيء في أحسن حال. وبودّي أن أحذركما، بأنه سيكون هناك كثير من الصعاب، والمضاعفات وخيبات الأمل- بيد أنكما الآن لن تصدقا أي شيء. – فحقيقة أن عروسك أجنبية سيجعل حياتكما صعبة إلى حد كبير».

بعد بضعة أيام، تكتب له من جديد: «لقد أصبح الأمر مخيفاً للغاية بالنسبة لكما، عندما تقرر كل شيء. هل فكرت ملياً، هل قِسْت دورا وحياتها معك لروسيا، لعائلتك، لمختلف ظروف الحياة وتعقيداتها؟ وحقيقة أنها غير روسية -هذا بالنسبة لكما، وخاصة بالنسبة لها، صعوبة لا داعيَ لها ومضاعفات لا داعيَ لها في الحياة.- لا تنزعج ولا تقلق، كرمى لله؛ وأنت

بنفسك، كن أكثر حزماً، وتحقق بصورة أفضل، وفكر بوضعك. الحياة الآن سوف تسير بجدية وصعوبة أكبر: فأنت وحدك سوف توجهها وعليك أن تقودها، أقصد حياتك».

في حين أن الأب كان راضياً بقرار ابنه! مباشرة، وبدون قيد أو شرط. وواقع أن دورا ليست روسية بل سويدية، كان في عينيه لمصلحة الزفاف. «على الرّغم من أنني أسعى إلى عدم تقديم تفضيل لأشخاص أو لأمم، لكن السويديين كانوا دائماً، بالنسبة لي، لطيفين، منذ أيام كارل الثاني عشر. مثيرة جداً للاهتمام، بالنسبة لي، آراء ومعتقدات تلك البيئة التي نشأت وتربت فيها خطيبتك. ربما يكون لديها الآن فقط إرهاصات شخصيتها. إن تلاقح الأفكار مفيد مثله مثل تلاقح الأجناس. انقل لوالدها ووالدتها سروري باختيارك».

يبقى لغزاً، لماذا تولستوي أحب كارل الثاني عشر الذي هزمه بطرس الأكبر بالقرب من بولتافا. ولكن في اللهجة السارة لرسالته («أنا سعيد جداً. يبدو لي هذا جيداً جداً») يمكن ملاحظة علامة تنفس الصعداء. وكأن عبئاً ما أزيح عن كاهل الأب الروسي وانتقل إلى الكتفين السويديين العريضين لأرنست ويسترلوند. فقد كان ليوفا المريض مشكلة للأسرة، ولم يكن بإمكان الأب أن لا يشعر ببعض الذنب تجاهه: فالابن حاول أن يسير على خطاه وأضنى صحته. من الممكن أن تولستوي، في هذه الفترة، كان ينظر نظرة سلبية إلى الزواج، ويعتبر العفة المثل الأعلى للحياة (يكتب تولستوي في هذه الرسالة: «لن أغير نظرتي أبداً في أن العفة هي المثل الأعلى للإنسان»)، بيد أنه جعل من حالة ليوفا استثناء.

في رسالته التالية لابنه، يعترف تولستوي بأنه ليس هناك من مبرر عقلاني لفرحته بخصوص العرس -أنا سعيد وهذا كل شيء! «يروقني جداً زواجك. ليست لدي أسس محددة جداً لذلك، ولكن لدي شعور عام، وعندما أتذكر بموجبه أنك تتزوج وبالتحديد من دورا ويسترلوند، أشعر بالمتعة- والسرور. كل ما أعرفه عنها يسرني، حقيقة أنها سويدية، وأنها شابة جداً، والأهم أنكما تحبان أحدكما الآخر كثيراً...».

ولكن في الرسالة ذاتها، يعطي ابنه نصيحة تدل على أن تولستوي قد

استنتج من تجربة حياته الأسرية الشخصية، ولا يود أن يكرر ليوفا أخطاءه. فمن رسالة ابنه، حيث كان يُعلِمه أنه يطلب من خطيبته الحقيقة الكاملة، وهو نفسه ينوي أن لا يخفي عنها شيئاً، شعر الأب، على الغالب: أن الابن يكرر سلوكه في شبابه. إنه يطأ من جديد على ظله.

«نصيحة، بأن لا تقيدا حريتكما إلا بأقل قدر ممكن، فلا تتخذا أية قرارات، ولا تعدا بأي شيء، ولا تربطا نفسيكما بشكل معين من الحياة، بل Garder ses coudes franches احتفظا بحرية الحركة. أنتما في ريعان شبابكما، وعليكما أن تعرفا، ماذا تريدان، ومن أنتما، وعلى أي شيء تقدران، ولهذا عليكما أن تتعلما كل شيء، وأن تكتشفا حياتكما، وتتعلما الحياة أفضل، دون أن تفكرا بشكل الحياة. فالشكل يتطور من تلقاء نفسه».

هكذا كان يعتقد أبوه. لكن ليف لفوفيتش لم يكن يعتقد هكذا. ورغم أنه في رسائله الجوابية، شكر والده بمختلف الوسائل على نصائحه، لكنه في أعماقه لم يكن موافقاً. كان ينظر إلى حياته العائلية المقبلة كمشروع، وتحديداً كمشروع روسي، وهذا على وجه التحديد، كان يتجلى في رفضه عرض والد زوجته بأن يتولى إدارة مزرعة هالمبيوبودا السويدية. فهذا لم يكن جزءاً من مخططه.

الزفاف

لم يكن ليف الشاب ينتظر نصائح أبيه بقدر ما كان ينتظر أباه على حفل الزفاف. «صديقي العزيز بابا. شكراً جزيلاً على رسالتك بنصيحتك الحكيمة حول عدم القلق بشأن الأشكال المستقبلية للحياة، وثانياً، تعال إلى حفل زفافي. أنا واثق من أنه يمكنك بسهولة بل وبسرور القيام بهذه الرحلة... اصطحب معك ماما وماشا، كمساعِدة ذكية، أما تانيا وساشا وميشا فليسبقوكم في القدوم. يتوفر حيثما كان عصيدة الشوفان وحليب اللوز والمرافق الثقافية. إن ظهورك مع ماما سيشكل بالنسبة لي فرحة لا يمكن تصورها، وسيكون لها أهمية لحياتنا كلها... أقبّلك وأقبِّل ماما. ستكون على خير ما يرام لو شاركت ولو مشاركة بسيطة في زواجي... وهنا لا أتحدث عن فرح السويديين العام وفخرهم لو قمتم بزيارة لهم».

لقد كتبت جميع الصحف السويدية عن حفل زفاف ابن الكاتب الكبير وابنة الطبيب الشهير. لكن ليف نيقولايفتش وصوفيا أندرييفنا لم يحضرا حفل الزفاف. على الأغلب، كان السبب الرئيس الحالة الصحية السيئة للاثنين معاً. ولكن كانت ثمة مسألة أخرى دقيقة ساهمت في ذلك.

إن ليف لفوفيتش، باعتباره كان مقيماً في السويد ويتواصل مع أسرة خطيبته، لم يستطع عدم المقارنة بين أسرتين، أسرته والأسرة التي لا تزال غريبة. وكان من غير الممكن أن لا يقارن بين شخصيتين بارزتين في عصره - تولستوي وويسترلوند. وبالطبع، لم تكن المقارنة آنذاك في مصلحة الأولى. ولنتحدث بصراحة: لقد أصبح الأب سبب مرض ليف لفوفيتش، أما حموه فقد أنقذه من الموت. وعاجلاً أم آجلاً، كان على تولستوي أن يلتقي بويسترلوند ويعبر له عن شكره على إنقاذه ابنه. (وهذا ما حصل فيما بعد.) ولكن ليس بالطبع في *موقف الاحتفال الوطني السويدي*.

تم عقد زواج تولستوي -الابن ودوروثيا ويسترلوند في 15 أيار/ مايو (27 مايو حسب التقويم الأوروبي) عام 1896 في ستوكهولم. وقد تكللا مرتين- حسب الطقوس الأرثوذكسية والطقوس اللوثرية، بداية في كنيسة التجلي الإلهي التابعة للسفارة الروسية، ومن ثم في فندق ريدبرج Rydberg التي سميت تخليداً لذكرى الكاتب السويدي الذي توفي قبل عام أبراهام فيكتور ريدبرج، الذي حاول ترجمة أعماله ليف لفوفيتش. وكان أبو العريس الروحي إيفان ألكسييفيتش زينوفييف سفير روسيا في السويد والنرويج فوق العادة والمطلق الصلاحية. ومن عائلة آل تولستوي قدم لحضور حفل الزفاف الأخت الكبرى تاتيانا والأخ الأصغر ميشا.

تاتيانا وجدت شقيقها في حالة ممتازة وكتبت في يومياتها: «كان ليوفا يبدو بصحة جيدة، وتظهر عيناه المشرقتان الحيويتان الفارق الكبير مع ما كان عليه في العام الفائت: يمشي بخفة، وأناقة، لكنه رقيق جداً، وهذا ما يميزه». أُعجبت تاتيانا كثيراً بدورا: «إنها طويلة، جميلة، ناضجة جداً بالنسبة لعمرها، ويبدو أنها كرست نفسها له بكل إيثار. شعرتُ بأنها يمكن أن تكون قريبة جداً، على الرّغم من أنها بالإضافة إلى اللغة السويدية، تتحدث باللغة الإنكليزية فقط، والأمر السيئ أنها نشأت في بلد غريب».

كانوا يمزحون كثيراً أثناء حفل الزفاف. قال ليف لفوفيتش مشوهاً كلمات الحفل على سبيل المزاح: «أنا، تولستوي البائس، آخذك، أنت الفتاة المقرفة والمدللة زوجة لي»، أما حموه فأعلن بشكل مهيب أنه يسلم مريضه «أثمن دواء». وفي أثناء حفل الغداء، اندهشت تاتيانا كثيراً من أن الكاهن الروسي قد حضر إلى الغداء مرتدياً بدلة السهرة (الفراك). وأكثر أخوه ميشا من شرب النبيذ الأبيض، ولكن بشكل عام، جرى كل شيء على ما يرام، وفي المساء نفسه (وبحسب معطيات أخرى-في صباح اليوم التالي) أبحر العروسان على باخرة بيضاء إلى جزيرة غوتلاند، التي تبعد مئة كيلومتر عن البر السويدي - في المدينة المنتجع فيسبيو.

شهر العسل

تشاجرا للمرة الأولى، كالعادة، لسبب تافه. في الباخرة، قرر ليف لفوفيتش أن زوجته تستخدم معجون أسنانه ووجه لها توبيخاً. فاستشاطت غضباً، لأنها، حسب تعبيرها، «لم يخطر في ذهني طيلة حياتي أن أستخدم معجون أسنانه المقرف». كانت تستخدم صابوناً نرويجياً خاصاً لتنظيف الأسنان.

في البداية، مر شهر العسل بصورة جيدة. فقد كانت مدينة فيسبيو القديمة بآثارها ومعابدها الوثنية جميلة للغاية. وكانت الأيام مشمسة. كان الماء بارداً للسباحة، لكن العروسين الشابين استمتعا بالبحر، واستقلّا المراكب الشراعية. وكان يلعبان بالتنس، ويتناولان الطعام الصحي، والنوم...

أما في موسكو فقد حصل تدافع رهيب. أثناء تتويج نيقولاي الثاني آلاف من عامة الشعب والناس البسطاء، المجتمعين في الساحة، حيث كانوا يوزعون مجاناً أكواباً للذكرى، دهسوا وشوهوا بعضهم بعضاً. باعتبارها كانت في مركز موسكو، رأت صوفيا أندرييفنا عواقب هذا الحدث الرهيب. «ألتقي في شارع تفيرسكي صفاً من الشاحنات الضخمة، وعليها شيء غريب، غير مألوف، غير طبيعي، ومغلق بأكياس من الخيش السميكة القذرة. لم تميز عيناي القصيرتا النظر ما هذا. أخذت المنظار، ودققت النظر... يا للرعب! تتدلى أذرع، وأرجل، ورؤوس بشرية مشوهة، وينقلون هذه الجثث، ينقلونها

بلا نهاية، وغير معروف إلى أين: صف واحد من الشاحنات، صفان، ثلاثة، سبعة، عشرة، بلا نهاية... فما هذا؟».

إنها لم تر الكبار وحدهم فحسب، بل رأت أيضاً الأطفال الذين سُحقوا في بطون أمهاتهم. ابنة أخت الملحن الموسيقي تانييف، فتاة شابة، كانت في ساحة التدافع، وكادت تموت. حملها على يديه عامل من المصنع، وأعادها إلى وعيها بشراب الكفاس، الذي اشتراه لها بماله الخاص.

لقد علم ليف لفوفيتش بما حدث في موسكو في 30 أيار/ مايو من خلال الرسائل، ومن الصحف المحلية. ولكن حدثت مأساة في أسرته الخاصة التي تكونت حديثاً.

من فيسبيو توجها عبر كوبنهاغن إلى النرويج. وهنا، في غاوسدال، أدركت دورا أنها حامل. وقد أزعجها هذا، وهي لم تكن متهيئة له، كما تذكّر ليف لفوفيتش، «بحيث تحولت من ملاك مطيع لطيف إلى وحش بري...».

وأدرك أن زوجته لم تكن متهيئة إطلاقاً للزواج. كانت لديها حياة فتاة مألوفة في إنشيبينغ هالمبيوبودا، وتدرس في ستوكهولم، وظنت دورا، على الأغلب، أن كل شيء سيستمر على هذا النحو، مع إضافة لطيفة متمثلة بالكونت الروسي الساحر. كما أدرك أيضاً، أن زوجته السويدية مرتبطة فقط بأسرتها. وهي غير مستعدة أبداً لتكريس نفسها لأسرة جديدة. وبالنتيجة «جُنّت» دورا. وأخذت تجمع أشياءها وتضعها في الحقائب. وكانت جميع محاولات طمأنتها عابثة. وفي أثناء النزهة في الجبال، صعدت فجأة على صخرة عالية من الغرانيت، وقفزت من عليها إلى الأرض. وفي المساء بدأ النزيف، وحصل إجهاض وإسقاط الحمل.

يكتب ليف لفوفيتش: «لقد كلفها هذا الحادث مرضاً نسائياً مديداً وآلاماً كثيرة». وبقي في نفسه بعده شعور ثقيل تجاه زوجته.

«يا لها من بريّة!».

من أية أموال نوى ليف لفوفيتش أن يعيش مع زوجته الشابة؟ لم يكن لديه تعليم اختصاصي. رفض أن يكون مدير مزرعة حميه. فقد كان هذا أدنى

من عزة نفسه، كما أنه على الرّغم من حبه للسويد، كان ينجذب إلى روسيا، كان يحنّ إلى روسيا، وبادئ ذي بدء إلى ياسنايا بوليانا. وخلال وجوده في الخارج، كان يعيش على المال الذي ترسله له أمه. ولكن، في الواقع، كانت هذه أموال الأب التي حصلت عليها صوفيا أندرييفنا من بيع مؤلفاته القديمة. لم تكن ياسنايا بوليانا تجلب لها أي دخل، بل على العكس، كانت تتطلب توظيف استثمارات نقدية سنوية.

كان الوضع القانوني لياسنايا بوليانا معقداً بما فيه الكفاية. فبعد تخلي تولستوي عن الملكية في عام 1892، انتقلت ملكية العقار والمزرعة إلى زوجته والابن الصغير فانشكا الذي كانت أمه وصية على حصته من التركة. وبعد موت فانشكا في عام 1895 انتقلت حصته من التركة إلى ملكية الأخوة الخمسة-سيرغي، إيليا، ليف، أندريه، ميخائيل. تملكت صوفيا أندرييفنا العزبة، وتملك الأخوة-المزرعة. ومن هذا كله كانت حصة ليف لفوفيتش هي الخمس. بالإضافة إلى ذلك، كان يمتلك منزل آل تولستوي في موسكو، الذي كان يقدر بحوالي خمسين ألف روبل. ولكن في الواقع، كان يعيش في هذا المنزل، في فترة الخريف والشتاء، صوفيا أندرييفنا مع الأبناء الصغار، الذين كانوا يدرسون في الثانوية. وكان يعيش هناك أيضاً ليف نيقولايفتش عند تواجده في موسكو. وكان بيع المنزل يعني حرمان الأسرة من الرسوّ في المدينة.

وعندها توصل إلى فكرة كان من الممكن أن تكون معقولة جداً، لو كانت الأسرة غير أسرة آل تولستوي. فبدلاً من أن يعمل مديراً لدى حميه، أليس من الأفضل أن يصبح مديراً لياسنايا بوليانا، حيث كل شيء مألوف له منذ طفولته الباكرة، وحيث يعيش أبوه وأمه، وأخواته وإخوته الصغار؟ وأن ينهض بمزرعة الأسرة إلى مستوى الزراعة الأوروبية، ويجعلها مربحة.

فكرة رائعة! وبالطريقة نفسها، كان أبوه قد فكر في فترة ما. ففي عام 1847، عندما ترك الجامعة، من أجل أن يعيش ملاّكاً في ياسنايا بوليانا. وفيما بعد، في الخمسينيات، بعد رحلاته إلى الخارج التي أثرته بخبرة الزراعة الأوروبية. وفي الأعوام الستينيات، عندما وصل تولستوي مع صونيا البالغة من العمر ثمانية عشر عاماً في عربة الدورميز الكبيرة التي اشتراها خصيصاً،

إلى ياسنايا بوليانا لقضاء شهر عسله، وحياته الأسرية السعيدة كلها، كما بدا له آنذاك. وحصل، ما حصل...

في كتابه «تجربة حياتي» عرض ليف لفوفيتش هذا المشروع الروسي – السويدي الرائع، كما كان يبدو له في سنوات شبابه. «في العام الأول من وصولي إلى السويد، أدهشني أكثر من أي شيء آخر، أن المدنية والثقافة السويدية العامة كانتا بما لا يقارن أعلى ليس من المدنية الروسية فحسب بل والفرنسية– وربما المدنية الأوروبية العامة...

لم يكن هناك مجال في الحياة السويدية لم تتحقق فيه نتائج هامة ورشيدة عميقة، بدءاً من الدين وانتهاءً بالتغذية، وهذه الشروط خففت في البلاد التوتر ومصاعب الصراع من أجل الوجود، سواء على مستوى الشخص أو الأسرة، بحيث إن الحياة هنا كانت أسهل بكثير مما هي في روسيا وحتى في فرنسا».

ولكن بدلاً من أن يتخلى عن وطنه البائس ويصبح مواطناً سويدياً، قرر ليف لفوفيتش إدخال تغييرات مفيدة في الحياة الروسية. وسنرى لاحقاً، إلى أي مسافة ستمتد آماله في هذا الخصوص. في غضون هذا الوقت «قررت الاستقرار في ياسنايا بوليانا، في جناحها الخارجي، والاستعداد لإدارة مزرعة العقار، الذي أمتلك جزءاً منه بعد وفاة فانشكا. لقد كنت أريد، مثل أبي، أن أستقر مدى الحياة في القرية، وأن أكتب، شعوراً مني بالنداء إلى الكتابة... كنت أحلم بأن ياسنايا بوليانا كلها ستكون لي يوماً ما، وسأنشئ فيها أسرة كبيرة جديدة، ومركزاً جديداً واستمراراً لعائلة آل تولستوي».

في الصيغة المسوّدة لـ«تجربة حياتي» التي توردها آبروسيموفا، ترد أقوال أشد قسوة: «بودّي في المستقبل، أن أمتلك بنفسي وحدي عقار العائلة كله، وعلى هذا النحو أن أتابع فيه سلالة آل تولستوي. لكن هذه الأحلام كانت مجرد أحلام، لأنني أدركت آنذاك أن ياسنايا بوليانا، كعقار لعائلة آل تولستوي، كاد يتدمر، أولاً، لأنه أصبح ملكية لستة أشخاص، وثانياً، وهو الأهم، لأن ليف نيقولايفتش طلب أن يدفنوه في منتصف العقار، وهذا بالطبع ما سيجذب الزوار إلى قبره، وبالتالي يجعل من الحياة الأسرية الخاصة لآل تولستوي في المستقبل غير محتملة».

لندع مسألة الملكية جانباً، التي يمكن أن تحل نظرياً بطريقة ما، بعد وفاة الأب والأم، لمصلحة ليف لفوفيتش، بأن يشتري من إخوته حصصهم من تركة ياسنايا بوليانا. ولكن تبقى مشكلة أخرى، وهي وهمية من وجهة نظر قانونية، لكنها الأهم – من الناحية الأخلاقية والثقافية. لقد كان والد ليف لفوفيتش إنساناً عظيماً، ولد في ياسنايا بوليانا وعاش فيها القسم الأكبر من حياته. ورغم أن مسألة دفن ليف تولستوي في ياسنايا بوليانا لم تكن قد طُرحت بعد في عام 1896 (أخطأ ليف لفوفيتش في تسلسل الأحداث)، ولكن هذا ما حدث في المحصلة. ولهذا فإن ياسنايا بوليانا لم تكن في الواقع مجرد «ملكية عائلية»، بل حتى في حياة تولستوي أصبحت مكاناً للحج الثقافي والديني، وبعد وفاته كان مقدراً عليها أن تصبح متحفاً.

لم يكن هناك حيز في هذا المتحف لليف تولستوي–الابن.

وهذا ما كانت تدركه جيداً صوفيا أندرييفنا. ولهذا رداً على رسالة ابنها، الذي طلب ترميم جناح ياسنايا بوليانا وإصلاحه بمناسبة قدومه مع دورا ووعد بتحمل أعباء إدارة مزرعة ياسنايا بوليانا، أجابت بنفي قطعي «لا».

«أنت تكتب: أنت تعيش في ياسنايا بوليانا، وأن تدير المزرعة، وتكتب، أن دينها وأباها (الضمير يعود إلى زوجته–*المترجم*) –العمل والمنفعة. كما يتم تطبيق جميع هذه المبادئ الآن عند الأجانب، أما عندنا– للأسف! أينما تتوجه، ليس هناك ما تفعله.

وأية مزرعة وإدارة في ياسنايا بوليانا؟ وهل هذا ممكن في أيدي مختلفة وفي وجود الأب؟

لا يا ليوفا، لا تسكن معنا، ستمرض مرة أخرى. امتلك عشّك، اشترِ عقاراً، إذا أردت أن تعيش في القرية، وفي ضوء سعادتنا المشتركة وهدوئنا – لا تعش معنا. أنصحك بهذا، حباً لك. انتظر، لم يبق لنا من العمر طويلاً أنا وأبيك».

لماذا لم يأخذ ليف لفوفيتش بالنصيحة المعقولة لأمه؟ لماذا لم يقدر حق التقدير شفافية تلميحها بأن المصدر الرئيس لمرضه لا يقع في مكان ما، بل في ياسنايا بوليانا. وهذا للأسف، والده. ولم يعد هناك معنى للكشف، عن

سبب حدوث هذا، وعلى من يقع اللوم: تولستوي الأكبر بعقيدته الدينية أم تولستوي الأصغر - بروحه الطيبة، وبمطامعه المفرطة؟ لكن ياسنايا بوليانا كانت المكان الأخير على الأرض، حيث يستطيع ليف لفوفيتش بنجاح تلقيح *السلالات والثقافات*.

ولم يجد شيئاً أفضل من أن يكتب رسالة لأبيه ليشتكي من أمه: «أنا أعرف أنك مثلي، عندما يفكر أحدنا بالآخر، نريد رؤية أحدنا الآخر، وأن نكون معاً، أما ماما، ولسبب ما، لا تريد أن أكون في ياسنايا بوليانا، حتى إنها نصحتني بأن أشتري عقاراً، وهذا ما أزعجني. الحب، والصداقة، والمعونة المتبادلة بادئ ذي بدء، ولا وجود خلال ذلك للمسائل المتبقية».

وردَّ على رسالة أمه بجفاء:

«لقد أزعجتني رسالتك وجوابك السلبي. لن أتحدث عن هذا الموضوع. في الشتاء، أنوي العثور على قطعة أرض في مقاطعة موسكو، وفي الربيع أو الصيف سأنتقل إلى هناك. لن أعيش في ياسنايا».

بيد أنه طلب في الرسالة نفسها: «رجاء، وهذا ليس بالأمر الصعب، وهو من أجل دولان أكثر، جهزي لنا مكاناً للعيش مؤقتاً، ريثما يتوفر لدينا منزلنا الخاص».

أسدان (ليف الأب وليف الابن) مزقا صوفيا أندرييفنا تمزيقاً. ليف الأول كانت تنقصه فيها الناحية الروحية. وقد كتب لها زوجها، متأملاً، في أيلول/ سبتمبر عام 1896: «لديك الكثير من القوى، ليس الجسدية فحسب بل والأخلاقية، لكنها لا يكفيها شيء ما، وهو الأهم، الذي سيأتي، وأنا واثق من ذلك. لكنني حزين لأنني سأكون في العالم الآخر، عندما يأتيك هذا بعد موتي». وليف الابن الذي يأتي في هذا الوقت إلى روسيا مع زوجته ويرجو فقط أن تعدّ له الجناح الصيفي من المنزل ليعيش في الشتاء مع السويدية ذات السبعة عشر عاماً. وقد تذكرت صوفيا أندرييفنا: «لقد كنت أشعر بالخوف، من هذه المخلوقة، الفتاة السويدية البالغة من العمر 17 عاماً».

وصلا في 14 أيلول/ سبتمبر. كان ليف لفوفيتش في عجلة من أمره، ورأت دورا روسيا لأول مرة من نافذة القطار. بالقرب من المدخل المقفر

لمحطة شوكينو كان ينتظرهم الحوذي أندريان بعربته. وفي الطريق إلى ياسنايا لاحت قرية كوتشاكي، حيث بالقرب من الكنيسة كان دُفن جد وجدة ليف لفوفيتش، «مقبرة ريفية بائسة، محفورة بقناة، مع صلبان خشبية مائلة مِسودّة، مثيرة للشفقة». أخيراً، ظهرت قرية ياسنايا بوليانا بأسقفها المبنية من القش.

«يا لها من بريّة، يا لها من بؤس!» – يكتب مؤلف «تجربة حياتي»، ناقلاً انطباعاته عن لقائه مع الوطن:

«في بداية الشارع مبنى صغير ووحيد لمدرسة الرعيّة الكنسية. هيئات مألوفة للفلاحين والفلاحات يتحركون ببطء قرب أكواخهم. إنهم يتوقفون وينظرون إلينا بلامبالاة. بعضهم تعرّف عليّ وانحنى تحية لي. وجوههم جادة، مهمومة، وعدائية».

هذه روسيا!

ومع ذلك، بجوار منزل السيد، ثمة حركة نشيطة. «الأم، الأب، الأخوات، الإخوة، الخدم – جميعهم يستقبلوننا بالابتسامات والهتافات، ويقودوننا إلى الأعلى إلى الغرفتين المجهزتين لنا، تينك الغرفتين المطلتين على الفناء الشمالي القذر، حيث أمضيت طفولتي الصعبة. أي بساطة رمادية، أي هدوء، أي حزن! هذه هي الحفر النتنة، والخندق تحت النافذة، والبئر العميقة على اليمين».

إلى أين أتى؟ والأهم، لماذا؟! بعد العشاء توجه الزوجان الشابان إلى غرفتيهما للنوم. ارتمت دورا بعينين مفتوحتين واسعتين في حضنه، دون أن تنبس بكلمة واحدة. «إنها لم تقل شيئاً، لكنني حزرت شعورها. فنظرتها لم تعبر عن اليأس فحسب، بل عبرت عن الرعب أيضاً».

الأب، الابن، الأم

تختلف ذكريات ليف لفوفيتش عن وصوله مع زوجته إلى ياسنايا بوليانا في شهر أيلول/ سبتمبر عام 1896 عن انطباعات المشاركين الآخرين في

هذا الحدث، بمن فيهم دورا نفسها. وكما يكتب ابنها بافل، «وجدتْ أمي، أن الجميع، وخاصة «الطاعن في السن «الحمو» – أناس طيبون ومحبّون للغاية، وليس أفراد الأسرة فحسب، بل جميع الأشخاص كانوا ودودين ومرحبين بلا حدود».

في اليوم التالي، جاءت النساء في أزيائهن الروسية الوطنية وأحضرن معهن للعروسين الديك الوسيم والبيض في منديل. وغنّين ورقصن، وبعد أن حصلن على مكافأة قدرها سبعة روبلات خرجن راضيات. نعم، لقد انتبهتْ إلى فقر قرية ياسنايا بوليانا بالمقارنة مع القرى السويدية. وقد أصيبت بصدمة عندما حدثوها، أثناء تناول الشاي مساء، كيف تم العثور في البركة الكبيرة على جثة طفل، وقد ظل هذا الطفل يراودها في الحلم طيلة الليل. لقد ظهر أن الكاتب العظيم للأرض الروسية عند لقائها له شخصياً، عجوزاً بلا أسنان. وحتى النظافة والترتيب ظهرا لها في بيت السادة غير كافيين. (أوه، لو رأت دورا ما رأته صونيا البالغة من العمر ثمانية عشر ربيعاً، عندما قدمت في خريف عام 1862 للعيش في هذا المنزل، حيث كان الإخوة تولستوي ينامون على الدريس.)

نعم، لقبها آل تولستوي، في البداية، بـ«أميرة البازلاء»، ولقبها تولستوي-الأب بـ«الفرخة الذكية». لكن دورا، بطاقتها الكبيرة ومحبتها للحياة، سرعان ما اعتادت على حياة القرية الروسية، وأصبحت «ياسنابوليانية»، كما قال عنها تولستوي. وبهذا الصدد، نشأت عندها علاقات ممتازة مع حميها. فقد كان يفهم ويشاركها في كثير من آرائها (بخصوص الكنيسة، وقتل الحيوانات، والمعاملة الطيبة لجميع الناس). وأصبحا شبه صديقين. وكانت تصغي إلى أحكامه وآرائه الفلسفية، بالقدر الذي تسمح لها معرفتها باللغة الروسية، التي حققت فيها نجاحات كبيرة، بفضل دروس ماشا وحتى العجوز تولستوي نفسه. وفي هذا كانت تتبع المبدأ الأوروبي الذي عبر عنه غوته بقوله: «عندما يتكلم الأذكياء، يسرّني أنني أفهم ما يقولونه».

عندما انتقل الشابان إلى المبنى الخارجي بعد صيانته وتجديده، وسافرت صوفيا أندرييفنا مع الصغار إلى موسكو، أمضى تولستوي فصل الشتاء في ياسنايا بوليانا، وكان يذهب لتناول طعام الغداء عند ربة البيت

الشابة. كان يشعر بالسرور لوجوده معها. صحيح، أنها لم تكن تفهم بعض تعابيره. مثل، «كلما كان أسوأ، كان أفضل». لكنها كانت تنسب هذا إلى نقص ذهنيتها الروسية.

المشكلة الحقيقية، كما اتضح لم تكن في دورا بل كانت في ليف الشاب... فعلى الرغم من النصيحة الحكيمة لأمه بأن لا يعيش في ياسنايا بوليانا، لم يستقر ليف لفوفيتش في عقار والده فحسب، بل أخذ يشرف على إدارته بهمة ونشاط. وربما كان كل ما يفعله صحيحاً. فقد هدم الدفيئة، واستخدم من أجل الأعمال الزراعية البذّارة والحصادة السويديتين (هدية من ويسترلوند). لكن الأهم، حوّل مع زوجته جناح الضيوف الخارجي إلى «واحة سويدية صغيرة في الصحراء الروسية»، حسب تعبير الصحفي المجري الذي زار ياسنايا بوليانا. لقد شاهد ليف لفوفيتش بالطبع، عدة عقارات مجاورة معروضة للبيع، لكن نشاطه الحماسي بترتيب منزل منفصل عن الوالدين في ياسنايا بوليانا نفسها، لم يدع أي مجال للشك: لقد قرر العيش فيها لفترة طويلة، إن لم يكن بشكل دائم. ودون انتظار المهر من السويد، الذي كان يتألف من الأثاث، والأطباق والأدوات المنزلية وغيرها من الأشياء الضرورية للحياة المريحة، اشترى الأثاث من موسكو، ورمى من الجناح، حسب تعبيره، «سقط المتاع»، واستأجر طباخاً مستقلاً، وخادمة... وبكلمة واحدة، بنى عشه.

إنه من الممكن فهمه. فهذا ما كان يحلم به قبل عام مضى، عندما كان مريضاً، وكتب لأمه من ستوكهولم: «مرة أخرى، كل شيء ممزق من حولي، وأنا وحدي مع إيفان، ويجب بناء أعشاش جديدة للناس. وهذا الشعور غير مريح بالنسبة لي دائماً. متى سأجلس أخيراً، وأبني عشي لطيلة حياتي؟».

لقد تمكن ليوفا ودورا من بناء عشهما المجيد. وقد زار ليف نيقولايفتش وصوفيا أندرييفنا كذلك «الواحة السويدية» بارتياح وسرور، ووجدا أن المستوى المعيشي لحياة الابن والكنّة أعلى بكثير من المستوى العام للحياة في الحوزة. وكتبت في يومياتها: «... ذهبت إلى جناح ليوفا ودورا لتناول طعام الغداء والعشاء، وشعرت أنني بحالة جيدة هناك». في نهاية عام 1896، حلت ضيفة على ابنها إيليا وزوجته صونيا في مزرعتهما في غرينوفكا، ثم

عرّجت في طريقها إلى موسكو، إلى ياسنايا بوليانا، وأشارت إلى التباين الصارخ بين طريقتي حياة ولديها المتزوجين. «نظفت دورا جناحنا وزينته على الطريقة السويدية: كل شيء جديد، نظيف وأنيق. كتبت لأختي أن لدى ليوفا ودورا -أوروبا، أما لدى إيليا وصونيا- آسيا» («حياتي»).

كان نقص الثقافة المنزلية اليومية الريفية، حتى في القصور، يؤثر تأثيراً محبطاً على صوفيا أندرييفنا. وأواخر الخريف في ياسنايا بوليانا كانت تبدو لها أحياناً ككابوس حقيقي: «... الطين في الفناء، الطين في تلك الغرف التي عشنا فيها الآن مع ليف نيقولايفتش. أربع مصايد للفئران كانت تنقر باستمرار من الفئران المأسورة. فئران، فئران بلا نهاية... منزل بارد، فارغ، سماء رمادية، مطر ناعم، ظلام دامس؛ الممرات من منزل إلى منزل لتناول طعام الغداء والعشاء عند ليوفا، مع الفانوس في الوحل؛ الكتابة، الكتابة من الصباح حتى الليل؛ أباريق السماور المدخنة، غياب الناس، صمت الأموات؛ حياتي الآن في ياسنايا أصبحت قاسية للغاية كالكبريت...».

كان ليوفا يحب بحنان أمه، وأباه، وأخواته، وإخوته، وكان صادقاً تماماً عندما كتب لأبيه من السويد: «... علينا أن نحاول فهم الآخرين – إن سوء الفهم قاس وقد عانيت منه بشكل مرضي في المنزل ثلاث سنوات من المرض. وعندها تكون الآلام أقوى بعشرة أضعاف. لا أريد توجيه اللوم، أريد أن أعبر عن كل ما كان يؤلمني كي يخرج مني ولا يعود أبداً. أحبكم جميعاً حباً جماً وسأعود للعيش معكم، إذا ما توفرت لدي القوة، وإذا ما بقينا أحياء، بالطبع...».

ولكن ماذا كانت تعني «العيش معكم»؟

العيش معكم كانت تعني عملياً *العيش مع أبيه*، الذي تدور من حوله حياة ياسنايا بوليانا كلها. وهذا كانت تدركه جيداً أمه وأخواته، وإخوته الذين فضلوا العيش منفصلين، وعدم التدخل في حياة الوالدين.

وكأن ليف لفوفيتش مع زوجته الشابة، بوصولهما إلى ياسنايا بوليانا، جددا المشروع العائلي المنهار لليف نيقولايفتش وصونيا القديم الذي يعود إلى ثلاثين عاماً...

لكن، لم ينتج عن هذا أن حياة الوالدين الأسرية لم تنجح. كل ما في الأمر وصلت حياتهما إلى مرحلة أدرك كلاهما، أن الماضي لن يعود، كما أن ابنهما فانشكا لن يعود. ويمكن العيش كما حدث بالفعل. وما حدث، كما كتب ابنهما إيليا لفوفيتش في ذكرياته، «عندما حدث الانقلاب الروحي - الديني عند الأب، لم تكن هي التي ابتعدت عنه، بل هو الذي ابتعد عنها. لقد بقيت هي ذاتها الزوجة المحبة والأم المثالية، كما كانت في السابق. ولو لم يكن عندها أولاد، ربما لكانت قد تبعته، ولكن ولوجود سبعة أولاد لديها في بداية الثمانينيات، ومن ثمة تسعة أولاد، لم يكن باستطاعتها تحطيم حياة الأسرة كلها، والحكم على نفسها وعلى أولادها بالفقر والحاجة». لكن حقيقة الأب كانت واضحة ومفهومة بالنسبة لابنه إيليا لفوفيتش: «مما لاشك فيه، أن الحياة في ياسنايا بوليانا كانت بالنسبة له صعبة للغاية. إنه يعاني بنفسه وروحه ليس من أجل ذاته فحسب. إنه يعاني من أجل الآخرين، من أجل الفلاحين الذين يعيشون في العمل والحرمان، يعاني من أجل زوجته التي تلاحق هؤلاء الفلاحين من أجل قطع الغابات المزمن، يعاني من الذين يكرهونه ويشتمونه. ويرغم نفسه على محبة الجميع».

نعم، من المستحيل أن تحب الجميع. يجب أن تحب الجميع -لا أن تحب شخصاً واحداً لوحده. نعم، كان لا بد من التضحية بالشعور القبلَي من أجل مذهب الحب الشامل. ولكن بعد موت فانشكا ظهر توازن نفسي مرتجف جديد، في علاقات تولستوي المتقدم بالسن وصوفيا أندرييفنا الكهلة، تم الحفاظ عليه حتى الخريف الرهيب عام 1910، عندما هرب، مع ذلك، من ياسنايا بوليانا. نعم، في الواقع، «عاشا معاً، منفصلين»، كما عبر ذات مرة ليف نيقولايفتش. لقد سلّمت أخيراً، بما لم ترغب طويلاً التسليم به: فقد بقي يعيش دون انقطاع في ياسنايا بوليانا، وهي من أجل تعليم أبنائها الصغار، كانت مضطرة للعيش في منزلين- في منزل ياسنايا بوليانا وفي منزل موسكو. أخذ يحيط به أكثر «تلاميذه» المخلصين، وبقي الأبناء الصغار بطلباتهم على مسؤوليتها. كان هذا يمزقها، ويزعجها، وكان هذا نسفاً كاملاً لعقد الزواج غير الرسمي الذي عرضه عليها في شهر أيلول/ سبتمبر عام 1862، عندما اتخذها، وهي عديمة الخبرة، زوجة له.

ولكن مع وصول ليوفا الذي فاتته، بسبب مرضه وغيابه عن الوطن، فترة هامة في حياة الوالدين، ترتبط بموت فانشكا، نشأت بينهما علاقات جديدة، بل وولد حب جديد.

في شهر تشرين الأول/ أكتوبر عام 1895 بعد سفر زوجته من ياسنايا بوليانا إلى موسكو، كتب لها تولستوي: «إن العاطفة التي شعرت بها، كانت حناناً غريباً، وشفقة وحباً جديداً كلياً لك - إنه ذلك الحب الذي أحمله لك وأشعر تماماً ما تشعرين به. إنها عاطفة مقدسة جيدة، بحيث لا حاجة للحديث عنها، وأعرف أنك ستكونين مسرورة لسماعك هذا، وأعرف أن ما سأعبر به عنها لن يغيرها. بل على العكس، الآن بدأت الكتابة لك، لدي الشعور نفسه. غريب أن عاطفتنا هذه مثل شفق المساء. فقط نادراً، غيوم خلافك معي وخلافي معك تضعف هذا الضوء. وكلّي أمل بأنها ستتفرق قبل الليل وأن الغروب سيكون مضيئاً ومشرقاً كلياً...».

عندما انفصلا من جديد في خريف عام 1896 -عاشت هي في موسكو مع أبنائها وعاش هو في ياسنايا بوليانا- قدِمت صوفيا أندرييفنا إلى ياسنايا بوليانا في الذكرى السنوية لزواجهما في 23 أيلول/ سبتمبر. وفي المساء رافقها إلى محطة كوزلوفكا. في مقصورة القطار شعرت بالرعب. تهيأ لها أنها ستموت في الليل، وأنه لا يمكن إضاءة النور، وأنها ستسقط من القطار، لأن باب الخروج قريب من مقصورتها. كتبت له عن هذا كله في اليوم التالي من موسكو، واشتكت من اعتلال صحتها واعترفت: «كنت طيلة الوقت أفكر فيك، يا صديقي العزيز، ولأول مرة في حياتي اعترفت هذا الخريف، أن أعوامنا تمضي حقيقة، وأن الشيخوخة قد حلّت بلا شك، وأنه لا مستقبل بعد الآن، بل هناك ماضٍ، يجب أن نشكر الله من أجله، وثمة حاضر، يجب أن نحافظ على كل دقيقة منه، وأن نرجو الله كي يساعدنا في أن لا نفسده بأي شيء».

لسبب ما، في هذا الخريف بالذات، بعد قدوم ليوفا مع دورا، عندما كانت تعود من ياسنايا بوليانا إلى موسكو، كان يسيطر الرعب في المحطة على صوفيا أندرييفنا. كانت تخاف بالضبط الفراق مع زوجها إلى الأبد. كان يمسك بها من كتفها ويقودها إلى المقصورة. وتكتب له في تشرين الأول/

أكتوبر عام 1896: «في عربة القطار كنت أتذكر كيف كنت مرتبكة بغباء، وكيف أحطتني بيدك وقدتني، مثل طفلة، فشعرت بالطمأنينة على الفور، واستسلمت فوراً لإرادتك وفقدت إرادتي. للأسف، في حياتي نادراً ما كنت أستسلم على هذا النحو لإرادتك، وهذا يثير في نفسي الكثير من الهدوء، والطمأنينة. لكنك لم تناضل من أجل هذا بمهارة، ولا بصورة مستمرة، بل بشكل محموم: أحياناً بشغف وحماس، وأحياناً تنساني وتتركني نهائياً، تغضب تارة، وتدللني تارة أخرى - هكذا كنت تعاملني».

وتكتب صوفيا أندرييفنا لليف نيقولايفيتش من موسكو في رسالة أخرى: «منذ متى كنا -أنا وأنت- شباباً، مفعمين بالحياة، عندما تعيش ولا ترى في مستقبلك حداً نهائياً بل لا نهاية... أما اليوم فقد رأيت فجأة نهاية الحياة، وكأنني وصلت إلى جدار ما، واختفى الأفق البعيد، وأصبح واضحاً أن النهاية باتت قريبة».

من الغريب أن نقول، لكنهما كانا سعيدين في حياتهما العائلية في الخمسة عشر عاماً الأولى، من عام 1862 إلى عام 1877، من حفل زفافهما إلى «انقلابه الروحي»، وكانا أيضاً سعيدين بطريقتهما الخاصة في الخمسة عشر عاماً الأخيرة، من عام 1895 إلى عام 1910، من موت فانشكا إلى هروب تولستوي. لقد كانت هذه سعادة من نوع خاص، من وجهة نظر العروسين الشابين، وسعادة - العجوز والمرأة الكهلة، اللذين لم يبق لديهما أحد قريب إلا أحدهما للآخر، وكان يعرف كل منهما عن الآخر كل شيء، ولم يشيدا أي خطط للمستقبل، لأنه ببساطة لم يعد له وجود، وكان هناك فقط الماضي والحاضر، الذي من أجله كان عليهما أن يشكرا أو يلعنا الله.

يبدو، أنه ليس عبثاً أن يسافرا معاً في صيف عام 1896 إلى دير صحراء أوبتينا، وأن يزورا قبل ذلك في دير شاموردينو شقيقة تولستوي، الراهبة ماريا نيقولايفنا. لقد اقترح القيام بهذه الرحلة في وقت الصيام تولستوي، الذي شعر بأن هذا ضروري لزوجته: «... منذ موت فانشكا، وجدت خير عزاء لي في الصلاة في الكنائس، وفي الصوم والأفكار الدائمة عن الله وعن ذلك الفضاء الروحي الذي ذهب إليه ابني فانشكا».

في الأدبيات المعاصرة عن تولستوي، ثمة اعتقاد منتشر لا تدعمه سوى أدلة غير مباشرة، مفاده أن تولستوي في تلك المرحلة التقى المرشد الروحي لدير أوبتينا يوسف، وهو الذي أراد فعلاً اللقاء به ولم يستطع،، لأسباب صعبة، أثناء هروبه في عام 1910. في الواقع، لا توجد أي أسس لتأكيد حصول هذا اللقاء في عام 1896. فليس هناك أي حديث عنه في يوميات تولستوي، ولا في ذكريات زوجته، التي تصف هذه الرحلة بتفصيل كبير. من المعروف فقط على وجه اليقين، أنه في أثناء هذه الزيارة لأوبتينا، زار تولستوي ضريح عمتيه – ألكسندرا إيلينتشنا وإيليزافيتا ألكسندروفنا. بيد أن صوفيا أندرييفنا تحادثت مع المرشد الروحي ولكن ليس يوسف، بل غيراسيم، وكانت غير راضية أبداً عن هذا الحديث...

«كنت أتوقع الكثير من هذا الاعتراف وأُصبت بخيبة أمل كبيرة جداً: ومزاج توبتي بقي في روحي فقط أمام الله. أمرني الأب غيراسيم أن أجثو على ركبتي، وأخذ كتاباً من الكتب، ودون أن يطرح أي سؤال، وبصوت حزين رتيب، أخذ يقرأ عن تلك الذنوب التي لم أسمع بها في حياتي قط، بل ولا أعرف أسماءها. أحياناً نادرة كان يتوقف، متوقعاً مني شيئاً ما. أنا بقيت صامتة، وبهذا انتهى اعترافي. كان ليف نيقولايفتش ينتظرني عند الباب، وتوجهنا إلى الفندق...» («حياتي»).

عموماً، ليس كل شيء واضحاً عن هذه الرحلة. في «سِفر» مناسك أوبتينا لا يرد ذكر قدوم تولستوي في عام 1896، رغم ذكر جميع زياراته الأخرى: في أعوام 1877، 1881، 1890، 1910. وفي هذا السفر المفصل لا وجود للمرشد الروحي غيراسيم، بل هناك فقط الراهب غيراسيم، السوري، الذي جاء إلى دير صحراء أوبتينا في عام 1866 كمرافق لرئيس نيابة السينودس المقدس السابق الكونت ألكسندر بتروفيتش تولستوي. لكن المرشد الروحي – هو شخصية مهمة للغاية للدير، كي لا يرد عنه أي ذكر في «السِفر». ربما أن صوفيا أندرييفنا قد اختلطت عليها الأسماء، وفي عام 1896 التقت هي بالمرشد الروحي يوسف وليس ليف نيقولايفتش.

ذلك أنه لم تكن هناك عقيدة كنسية في منزل آل تولستوي. كان يسود هناك «دين» تولستوي. والمسألة كانت إلى أي حد كان يمكن لأهله والمقربين

منه أن يشاركوه هذه العقيدة، ويطبقوها. كان تولستوي هو الشمس الروحية للأسرة، أما بقية الأفراد فهم كواكب. ولدى عودته إلى ياسنايا بوليانا، أصبح ليف لفوفيتش كوكباً من هذه الكواكب.

بيد أنه لم يود الاعتراف بذلك. وقد لعب المرض، والشباب، أو الشخصية الدور الرئيس -كان من الصعب عليه قول ذلك، بيد أنه لم يوافق على المشاركة في لعبة الأدوار العائلية، القائمة في ذلك الوقت، حيث كل ما كان يجري، كان يجري بالنظر لرؤية الأب. على بعد عشرات الخطوات من منزل الوالدين بدأ مع دورا يؤسس بيته الجديد، «مركزاً جديداً واستمراراً لسلالة آل تولستوي»، حسب تعبيره في ذكرياته. وهكذا كان يبدو من حيث الشكل الخارجي. في المنزل الأول- النهاية، وفي هذا - البداية.

خلافات مع الأب

في 7 حزيران/ يونيو عام 1896 عندما أمضيا ليوفا ودورا شهر العسل في السويد والنرويج، كتب تولستوي للعروسين الجديدين: «انتبها، لا تتشاجرا. أي كلمة يوجهها أحدكما للآخر، بلهجة ساخطة، وأي نظرة قاسية -حدث هام جداً. عليكما الاعتياد على أن لا تكونا غير راضيين أحدكما عن الآخر، مثلما يحدث أن يكون الإنسان غير راض عن نفسه- غير راض عن سلوكه ولكن لا أكثر، وليس عن روحه. روحي - إنه تعبير جميل، أي ليس الروح لي وحدي، لكنه روحي مع ذلك. أحب مثل روحي. وليس كجسدي، بل كروحي. كم أرغب برؤيتكما لأنني أعرف أنني سأكون سعيداً...».

كلمات من ذهب! ولكن، لسبب ما، لم يستطع الأب مع وصول ابنه إلى المنزل الوفاء بما نصح به العروسين الشابين.

ليس من المهم جداً، ما هو سبب خلافهما الأول. المهم، أن ليف لفوفيتش قد تصرف بلا شك تجاه أبيه، كمصدر إزعاج شديد، ولم يستطع الأب فعل أي شيء مع نفسه.

كانت مدونته الأولى في اليوميات، المرتبطة بقدوم الأسرة الشابة قصيرة: «وصل ليوفا مع زوجته. إنها طفلة. إنهما لطيفان جداً». ولكن بعد شهر تظهر

مدونة أخرى: «ليوفا ضعيف». ماذا كانت تعني؟ فابنه بالذات كان ممتلئاً عزيمة وطاقة على صيانة وترميم الجناح الخارجي، وشراء وترتيب الأثاث وخطط الأعمال الزراعية. وقد أمكنه تحقيق أن ينقلوا خصيصاً لزوجته من محطة «زاسيكا» كل صباح الرسائل والصحف الجديدة من السويد.

بيد أن هذا في عينَي الأب لم يكن علامة قوة بل علامة ضعف، وموقفاً سطحياً من الحياة.

في هذا الوقت، كان تولستوي يعمل على كتابه «أصول الدين»، وعرض مفهومه للدين المسيحي. ومفهومه هذا لا يوجد فيه أي شيء مشترك مع ذلك الحماس الذي كان يشيد فيه ابنه لنفسه ولزوجته في ياسنايا بوليانا حياة «الأسياد». لو أنه فعل هذا في مكان آخر لما كان مزعجاً لهذه الدرجة. لكن ليف لفوفيتش يفعل هذا على مرأى من الأب. وكان هذا أشبه بالاستعراض.

وفي ذكرياته، لا يخفي ليف لفوفيتش أنه كان يدرك جيداً، حقيقة أنه بسلوكه هذا كان يزعج *أباه*. بيد أنه يعتبر هذا بمنزلة عامل تربوي. كأنه قرر جدياً، أن الوقت قد حان كي يتعلم الأب العجوز العقل والمنطق.

«كان أبي يعاملني في ذلك الوقت معاملة أقل ودية، لأنه كان يشعر، عندما ينظر إلى نموذج حياتي، كيف رميت بحزم وبشكل مطلق عقيدته، وكيف أصبحت أشعر بنفسي أكثر سعادة بدونها. كان يمكنه أن يشعر بها دون أن يفهم – فقد كان يتابع الاعتقاد بقوة بأفكاره، على الرغم، وربما، كان نموي العقلي وآرائي تؤثر عليه تأثيراً كبيراً» («تجربة حياتي»).

ولكن، حتى لو كان هذا صحيحاً، فقد كانت هذه مسألة حصافة ولباقة. وهي مسألة كبيرة الأهمية في العلاقات العائلية. فغطرسة الابن الشاب وعناد الأب في الدفاع عن نظراته إلى الحياة كان لا بد من أن يؤديا، عاجلاً أم آجلاً، إلى الشجار. وهذا ما حدث في بداية شهر تشرين الثاني/ نوفمبر.

يكتب تولستوي في اليوميات: «الأمس كان يوماً مرعباً. وقبل ثلاثة أيام كنت قد عبّرت لليوفا بحرارة وبصورة جامحة، عن نظرتي إلى فهمه الخاطئ للحياة، وما هو الفهم الصحيح. ثم قلت له إنني أشعر بنفسي مذنباً. البارحة، بدأ هو الحديث، وكان يتحدث بصورة سيئة للغاية، بحقد شخصي صغير.

لقد نسيت الله، ولم أصلّ، وشعرت بالألم، ودمجت *أناتي* الحقيقية بأناتي السيئة - نسيت الله في نفسي، وانحدرت إلى الأسفل. وجاءت صونيا، مثل الأمس، وكانت رائعة. فيما بعد، مساء، عندما ذهب الجميع، أخذت ترجوني أن أسلمها حقوق مؤلفاتي. قلت لها، لا أستطيع. فاستاءت وافترتْ عليّ كثيراً. فتكدرت أكثر، ولم أتمالك نفسي وذهبت للنوم. لم أستطع النوم ليلاً تقريباً، وكنت أشعر بصعوبة».

هل مجرد صدفة أم لا، طرحت صوفيا أندرييفنا غير مرة على زوجها المسألة المؤلمة للأسرة حول نقل حقوق التأليف إليها - وهي «الملكية» الوحيدة التي لم يتنازل عنها للأسرة في عام 1872؟ ومن أية موارد كان يمكن ترميم الجناح الخارجي وشراء الأثاث؟ فالمداخيل بقيت كما هي ولم تزدَد، لا لدى ليف لفوفيتش ولا لدى صوفيا أندرييفنا.

بعد شجاره مع والده، سافر ليف لفوفيتش إلى أخيه إيليا في عقاره. ويكتب الأب: «أشعر بالخجل، لكن هذا يريحني».

وبعد بضعة أيام ظهرت في اليوميات المدونة التالية: «الآن عرض العقيدة قليل. ضعف في الفكر وشعور بالحزن. يجب تعلّم الرضا بالسخافة. بشرط أن لا نحبها، ولا نكرهها...».

عندما سافر ابنه إلى موسكو، بشؤونه الخاصة، يعترف الأب: «أشعر بالخجل من القول إنني أجد صعوبة في التعامل معه». وأصبح الابن من جديد، امتحاناً قاسياً، بالنسبة له.

في شهر كانون الأول/ ديسمبر، اندلع بينهما شجار جديد، كان مرتبطاً هذه المرة بوصول مَهر دورا فيودوروفنا من السويد - هكذا يدعون دولان الآن. وقد أرسلوا إلى محطة «شوكينو» حوالي ثلاثين مركبة ثلجية قروية. عندما أخذت هذه القافلة الخيالية، من وجهة نظر سكان ياسنايا بوليانا، المحملة بالأثاث، والأواني المنزلية وغيرها من الأشياء، تصعد إلى الشارع صادفها تولستوي الذي خرج في نزهته اليومية العادية. فسيطر عليه الرعب!

«ما هذا؟» - سأل تولستوي الفلاحين. فأجابوا:

«إنه مهر الكونتيسة الشابة دورا فيودوروفنا. استأُجَرنا ليو ليوليتش.».

سأل في المساء ابنه: «لماذا كل هذه الأشياء؟ لماذا هذه الرفاهية كلها إلى جانب الفقر والبؤس؟».

يكتب ليف لفوفيتش: «لقد شرحت له أن هذه الأشياء ضرورية لدورا، وهذا مهرها».

كان تولستوي يكره بصورة خاصة بطانيات مساند الكنبات antimacassars الطرية. فهي في نظره رمز «الرفاهية الأوروبية المجنونة والضارة».

ويعترف ليف لفوفيتش: «لم يخطئ تماماً في هذا...».

بعد أن أمضيا فصل الشتاء في ياسنايا بوليانا، واستقبلا الربيع الروسي الرائع مع البلابل وسوسن الغابة، ومع بستان التفاح المزهر وكورس الضفادع في البركة الكبيرة، توجه الزوجان الشابان صيفاً إلى السويد، تاركين الاهتمام بالزراعة لصوفيا أندرييفنا نفسها. وكانت لديهما في الواقع مشكلة أهم بكثير من الزراعة والعلاقة مع الوالد. فبعد إسقاط الجنين الأول، لم تعد دورا قادرة على الحمل. وكان الأمل الوحيد على «معجزة الطبيب - بابا».

لم يخيب أملهما ويسترلوند. عندما عاد الزوجان الشابان إلى روسيا، في وقت متأخر من خريف عام 1897، شعرت دورا بنفسها للمرة الثانية أنها حامل.

ربما ساعد حمل دورا ورعاية ليوفا لها بتخفيف توتر العلاقات بين الأب والابن. وعلى الأقل، خلال النصف الأول من عام 1898 لم يتشاجرا بصورة علنية مكشوفة. ولكن في خريف عام 1897 عندما عاد ليف لفوفيتش وزوجته من السويد، تشاجر الابن مع أبيه عدة مرات، وبلغت العلاقات بينهما تلك الدرجة من الغليان، بحيث عندما كان عليهما السفر معاً إلى موسكو بالقطار، شعر العجوز بـ «الرعب».

كانت الخلافات التي تنشأ بينهما من فترة إلى أخرى تدور حول موقف ليوفا الجديد من الثقافة ومفهوم الأب للمسيحية. وفي وقت لاحق وصف ليف لفوفيتش أحد هذه الخلافات. لقد كان تبادلاً عشوائياً للعتاب والملامات.

«بدأت من بعض الأمور التافهة... قلت، من الأفضل وضع العمال

والماشية في مبنى جيد وتعليمهم الصدق ومحو أميتهم، بدلاً من عدم فعل أي شيء وإطلاق الأحكام...

– أنت، وأمك، وصحيفة «نوفوي فريميا»[1] تعرفون كل شيء.

–لا، أنت دائماً على حق! وقررت كل شيء، وتعرف كل شيء، وعلى الجميع أن يرقصوا على قيثارتك. مع من أمكنك الحديث عن الحياة؟ فقط مع أناس محدودين، يهزون برؤوسهم ويكررون: «نعم، نعم، بائس، طيب، ليف نيقولايفتش لا يقدر بثمن». أما أنا فلا أستطيع فعل ذلك! إذا ما تركت زوجتي، وأرضي وبيتي وذهبت إلى العالم لأدعو لعدم فعل أي شيء– فلن ينتج عن هذا أي شيء، سوى أن يأتي آخر ويحتل مكاني، مثلي أنا أو أسوأ، وسوف يختلس بيتي ومزرعتي مع الفلاحين المجاورين، وأنا سأتجمد، وأموت في مكان ما على الطريق الكبير، دون أن أفعل شيئاً في الحياة...

–تماماً كما في «نوفوي فريميا» ومثل أمك! ما الذي حصل كي تتجمد، ويحتل مكانك ملاّك– أنا أقول شيئاً واحداً: هل هو جيد أم سيئ؟

– الحياة يجب أن تكون مسرّة، وهي تتحقق بالثقافة. كلما كانت الحياة أكثر تحضراً وثقافة، كانت المسرّة والفرح أكبر وأعلى. ولهذا يجب أخذ الظروف القائمة بعين الاعتبار... وأنت كنت تعرف جيداً هذا طيلة حياتك ولهذا لم توزع عقارك على الفلاحين، ولم تهجر زوجتك ولم تترك البيت.

– وهل تعتقد حقاً أنني، وبعد أن عشت سبعين عاماً لا أعرف ما تقوله؟»

ذات مرة أبدى تولستوي، الذي كان يحب السباحة كثيراً، استياءه أمام ليوفا من رجل عجوز كان يسبح بالكلسون، بدون بنطلون. وربما كان هذا عالم الجريمة الإيطالي تشيزاري لومبروزو، الذي زار تولستوي في ياسنايا بوليانا في شهر آب عام 1897، وتوجه للسباحة في فورونكا، وأخذ يغرق وقد أنقذه تولستوي.

«الأجساد العارية –مثيرة للاشمئزاز– قال تولستوي – هكذا كان منذ خلق العالم. وليس من العبث أن ألبسوا نوحاً».

1– نوفوي فريميا «الوقت الجديد»: صحيفة محافظة، أصدرها ألكسي سيرغييفيتش سوفورين. –المؤلف.

وبدأ ليف لفوفيتش يعترض على هذا:

«من يعرف، ربما نحن قذرون، لأننا اعتدنا النظر إلى هذا بصورة قذرة... ربما يكون هذا خطوة نحو الموقف النظيف...».

«أي موقف نظيف -اعترض الأب- ما هذا؟ المؤخرة ستبقى دوماً مؤخرة، وكبار السن العراة سيبقون دوماً عراة كبار السن».

وأملاً منه بالحصول على دخل من ياسنايا بوليانا، قرر الابن استخراج الحديد الخام في هذه المنطقة. يكتب تولستوي في يومياته: «عثر تولستوي على الخام وهو يجد أنه من الطبيعي جداً أن الناس سوف يعيشون تحت الأرض مع الخطر على الحياة، وهو سيحصل على دخل».

يجب الاعتراف، بأن ليف لفوفيتش كان على حق في أحيان كثيرة. وعلى سبيل المثال، لماذا لا يمكن استخراج الحديد الخام؟ ومن أي شيء تُصنع المناجل، والمحاريث، وحدوات الخيل؟ بالمناسبة، سطح منزل ياسنايا بوليانا كان مغطى بصفائح الحديد، بالاختلاف عن أسطح بيوت الفلاحين المغطاة بالقش.

المشكلة لم تكن في أيهما كان على حق. كانت المشكلة أعمق من ذلك بكثير. ربما ليس من قبيل الصدفة، أن يذكِّر تولستوي ابنه بالقصة التوراتية حول نوح وابنه حام، الذي رأى أباه سِكّيراً وعارياً وتحدث عن هذا الخبر لإخوته، أي للعالم كله، لأنه لم يكن هناك من أحد على الأرض، في ذلك الوقت، سوى أسرة نوح. ولكن، لسبب ما، عندما سمع بهذه «الحقيقة»، ابنا نوح الآخران، سام ويافث، دخلا إلى الخيمة «أدارا وجهيهما»، وغطيا أباهما بالثياب. فإلى جانب من كانت *الثقافة*؟

يكتب تولستوي في يومياته في 10 تشرين الثاني/ نوفمبر عام 1897: «ذهبت اليوم مع ليوفا إلى ياسينكي. وبدأ حديثاً كوميدياً عن الثقافة. كان من الممكن أن لا يكون سيئاً لولا هذا المقام الضخم جداً مع البسط الصغير جداً».

قصد تولستوي بـ «المقام» رأي الإنسان بنفسه، وقصد بـ «البسط» كرامته وسماته الحقيقية. وهذه للأسف، كانت حقيقة ليف لفوفيتش نفسه، التي دُمرت لاحقاً، حياته بصورة قدرية.

يكتب تولستوي في 20 تشرين الثاني/ نوفمبر: «البارحة كان هناك حديث غاضب مع ليوفا. قلت له أشياء كثيرة غير سارة، وكان أكثر صمتاً، وفي النهاية، شعرت بالخجل والأسف من أجله، وشعرت بالحب نحوه. إن فيه الكثير من الخير... إنني أنسى أنه لا يزال شاباً...».

وصول آل ويسترلوند

كان من المتوقع ولادة الطفل الأول بحلول بداية شهر حزيران/ يونيو. في منتصف شهر أيار/ مايو وصل إلى ياسنايا بوليانا إرنست ونينا ويسترلوند. كان وصول الوالدين بالنسبة لدورا حدثاً ساراً. تكتب صوفيا أندرييفنا في يومياتها: «كم كانت سعيدة، الفتاة الجميلة بحملها الكبير في بطنها، وهمومها المنزلية، واهتماماتها بتأمين راحتهما». وكان حدثاً مشهوداً أيضاً لليوفا لفوفيتش. كان من المفروض أن يجري لقاء الوالدين اللذين قدما له الحياة، بطريقين مختلفين.

ذهب ليف لفوفيتش نفسه للقاء آل ويسترلوند بعربة تجرها أربعة من الجياد. كان مساء الأحد، كان مئات الفلاحين عائدين بأغاني السكارى من بازار تولا. وقد أرعبت الصرخات وهدير العربات زوجة الطبيب. فصرخت في رعب: «من هؤلاء؟» -«إنهم الهمج»- أجابها صهرها باللغة السويدية.

وقد تذكر ليف لفوفيتش: «كان الطبيب، وهو جالس على مقعد العربة، بصدره المنتفخ إلى الأمام، يراقب بهدوء وفضول الصور الأولى للحياة الروسية».

انتشرت شائعة وصول الطبيب الأجنبي في مقاطعة تولا. وكان المرضى يفدون إليه من القرى البعيدة. وكان يستقبل الجميع ويفحصهم في غرفته.

لم يرق ويسترلوند لتولستوي. بدا له فظاً ومبتذلاً. ربت الطبيب بود على كتف والد زوج ابنته، ونصحه بأن لا ينجرف في تناول الطعام النباتي، وأن يأكل بيضتين في اليوم على الأقل. وقال لصوفيا أندرييفنا بأنها «دلّلت زوجها كثيراً».

تكتب صوفيا أندرييفنا: «لقد وجد (تولستوي -*المترجم*) أن الدكتور

ويسترلوند رجل ألماني، وبرجوازي، وغبي، ومتخلف في الطب بمقدار 30 عاماً. لكنه لم ير طيبة هذا الدكتور، وتفانيه لمصلحة الإنسانية، ورغبته بمساعدة كل امرأة، وكل شخص يقابله؛ ولم ير اهتمامه بزوجته، وابنته، ونزاهته».

من المحتمل أن ويسترلوند قد ذكّر صوفيا أندرييفنا بأبيها الراحل – الطبيب الألماني أندريه يفستافيفيتش بيرس.

كان على تولستوي أن يشكر ويسترلوند لإنقاذه ابنه، وقد فعل ذلك. كان ليف لفوفيتش ينتظر هذه اللحظة بانتباه، مولياً إياها أهمية كبيرة.

وها هو يكتب في ذكرياته: «بدون كلمات، كنا نحن الثلاثة ندرك جيداً، أن دراما كاملة كانت تختفي خلف لفتة الأب هذه. كنت مريضاً أكثر من أي شيء آخر، بسببه وبسبب تعاليمه الباطلة، التي كان يزعم أنها كانت تعطي الناس السعادة. بدون أي تعاليم أفهمني ويسترلوند حقيقة الحياة الواقعية بمثله الحي وحده وبشخصيته الصادقة المشرقة...».

في 8 حزيران / يونيو أنجبت دورا مولوداً ذكراً. تكتب صوفيا أندرييفنا في يومياتها: «كم كانت تعاني، دورا المسكينة، كيف كانت تتوسل إلى أبيها من أجل شيء ما، بصوت فتي من حنجرتها، وهي تتحدث بصوت عال باللغة السويدية. كان ليوفا حنوناً جداً معها، وكان يشجعها، وكانت تعامله معاملة جيدة بحب، وتحتضنه، وكأنها تطلب منه أن يشاركها معاناتها».

وُلد الصبي سليماً معافى وجميلاً، «مثل لوحة فنية». تحدثت عن هذا جميع الصحف الروسية والسويدية. وساد الفرح في منزل آل تولستوي. وهنأ آباء وأمهات الأسر الثلاث بعضهم بعضاً، والتقطوا الصور التذكارية. وقد سمي الابن الأول لليف لفوفيتش تولستوي –ابن ليف تولستوي– أيضاً باسم ليف. وظهر في دنيا الله ليف الثالث.

نهاية المشروع

مر خريف، وشتاء، وربيع عام 1898 بسرعة، بالنسبة لليوفا ودورا. كان هو يمارس الكتابة الأدبية ويدير المزرعة في ياسنايا بوليانا، كما

كان يطمح، وهي كانت تساعده، وترضع ليفوشكا الصغير، دون أن تثق بالمرضعات الروسيات.

أمضيا صيف، وخريف وشتاء عام 1899 في السويد، لدى والدي دورا في ستوكهولم، حيث كان ليف لفوفيتش يجمع المواد لكتابه: «السويد المعاصرة في الرسائل والمقالات والصور». في شتاء عام 1900، صحب زوجته إلى فرنسا وإيطاليا، اللتين لم تزرهما من قبل. في باريس تعرّفا على الكاتب الفرنسي إيميل زولا. استقبلهما بلطف وترحاب، وكان مسروراً جداً لأن والد ليف لفوفيتش كان قد قرأ مؤلفاته وقدّرها تقديراً رفيعاً. واهتم، آسفاً: «هل من المعقول أن والدك يؤمن حقاً بالكتاب المقدس؟».

في هذه الرحلة كانت دورا، بصورة خاصة، رائعة. فشمس إيطاليا، كان يتذكر ليف لفوفيتش: «أضاءت فيها حياة جديدة ولونتها بألوان جديدة». في فلورنسا مر ضابطان إيطاليان في بدلتين زرقاوين أمام الزوجين وصاحا بإعجاب: «جميلة La Belle!». وكان ليف لفوفيتش بنحافته الطبيعية أنيقاً في قبعته وقفازاته. أما الطفل الصغير ليفوشكا، البالغ من العمر سنة ونصف السنة، فكان هادئاً متواضعاً، بعينين بندقيتين كبيرتين، ولم يسبب لهما الكثير من المتاعب؛ علاوة على ذلك كانت تهتم به مربية روسية - الفتاة الريفية الشريفة الصادقة غير الجميلة ساشا.

في ربيع عام 1900 عادوا إلى ياسنايا بوليانا. الوالدان العجوزان كانا فرحين بهم. حمل الجد على كتفيه ليف الثالث، وعندها التقطوا الصورة الفوتوغرافية «الأسُود الثلاثة». كانت الصورة مؤثرة. الحفيد -ليف الثالث- يجلس على ركبتي الجد، الابن والأب يتّكئان على عصا، وينظران نظرة المنتصر إلى المستقبل. وكان على رأس الأب والجد قبعتان مستديرتان متماثلتان.

ولكن في الربيع نفسه، ارتكب ليف لفوفيتش فعلتين لا يصح القيام بهما في القرية الروسية التي تؤمن بالخرافات. فقد أخذت تستولي عليه وعلى دورا في الجناح أعداد كبيرة لا تحصى من الثعابين المتوالدة غير السامة. لقد زحفت إلى المنزل، واستقرت على الأسرّة، مكونة كرات لولبية، كما استقرت في أحواض الزهور.

في حوزة تولستوي في تلك الأثناء، كان من غير الممكن ليس قتل الثعابين، بل وحتى الفئران. بيد أن ليف لفوفيتش أعلن الحرب على الأفاعي. ومع البواب ستيبان قتل منها العشرات، وكان يرميها في الخندق. وكان هذا فألاً سيئاً.

وفي تلك الأثناء، أطلق النار على كلب حارس الغابة الأحمر الكبير، الذي هاجم ليفوشكا الصغير أثناء نزهته ذات يوم وكاد يسقطه من أيدي مربيته. «أخذت البندقية، واقتربت بصمت إلى بيت الحراسة، وأطلقت النار على الكلب عن قرب تقريباً. ركضت زوجة الحارس وأولاده إلى الشرفة، ونظروا إلي طويلاً بإدانة وحزن».

في شهر آب، أغسطس، أنجبت دورا ابنها الثاني - بافل. وجاء آل ويسترلوند للمرة الثانية إلى ياسنايا بوليانا. وقد أصبح الطبيب على معرفة بها، فكان يخرج وحده في نزهة يومية لعدة ساعات، ليعود حاملاً معه الفطر أو الزهور.

واستقرت علاقات سلمية بين ليف الأب وليف الابن. لكنها كانت تفتقر إلى الشيء الرئيس. كانت تفتقر إلى الحب.

يكتب تولستوي في يومياته: «علاقتي هادئة مع ليف، ولكن من السيئ، أنه وكأنني أحتقره. يا رب -أنت، الذي في داخلي،- اندفع في داخلي، اعطني الحب».

عموماً، في مدوناته عن ليوفا بعد شفائه في السويد، يمكن بسهولة ملاحظة موضوع واحد دائم. كان الابن يعذب أباه أكثر من أي شيء آخر، ليس لعدم موافقته على آرائه أو لتصرفه بصورة خاطئة. كان يعذب تولستوي ليس ليوفا نفسه، الذي كان معه آنذاك على ما يرام. كان يعذبه *انعدام محبته* الشخصية لابنه.

وها هو يكتب: «إن شعوري بضرورة محبته يساعدني فيما ألاحظه على ليوفا». لكنه يكتب بعد فترة لاحقة: «... لا يمكنني التغلب على الاشمئزاز والانزعاج. عليّ أن أتعلّم». وكأن ليوفا يختبره في الحب. ويكتب: «لقد سببت له الحزن بقولي الحقيقة. هذا شيء سيئ. كان عليّ أن أفعل هذا

بطريقة أكثر ليونة ولطفاً». أحياناً، كان تولستوي يعتبر علاقاته مع ابنه بمنزلة تدريب روحي. «شعرت معه بتحسن بالنسبة لي. رغم أن الجمباز السلبي كان قوياً جداً...».

كان ليف لفوفيتش يشعر بهذا، وبالطبع كان يشعر بالإهانة. بيد أنه كان يحاول تفسير هذا بخلافاته العقلية مع أبيه. لأن الاعتراف لنفسه بأن أباه لا يحبه بصورة مبدئية، وأنه يزعجه بواقع إقامته في ياسنايا بوليانا، سيكون مهيناً جداً بالنسبة له! ولهذا عندما كان يفارق أباه لفترة قصيرة، كان ليف لفوفيتش يتابع في رسائله إليه الإصرار على محبتهما المتبادلة، التي كانت تبدو له طبيعية، ولكن... ربما... هو مذنب في شيء ما تجاهه... ولم يعره ما يستحقه من اهتمام...

«أبي الحبيب، أريد أن أقول إنني كما كنت، أحبك، وطردت من قلبي نهائياً المشاعر السيئة من قلبي. من فضلك، اغفر لي ما يمكن أن أكنَّ مثل هذا نحوك. أنا أعرف بنفسي، وليس فقط الآن عندما أنت على قيد الحياة، أشعر بالخجل أحياناً لتلك المشاعر المزعجة نحوك، ولكن في المستقبل، إذا ما عشت من بعدك، فسأتعذب من التوبة والندم. ليس لدي إنسان أغلى منك. قد لا تصدق إذا كنت تريد، لكن لا يمكن أن لا تشعر بدموعي».

«لن أطلب منك المغفرة عن الأفكار السيئة التي كونتها عنك وإدانتي لك-أنت بنفسك تعرف، كيف هي تعذبني أحياناً، لن أشرح حبي لك. أكتب ببساطة، كي أعبر عن تلك العاطفة الحقيقية نحوك، والتي تعيش في داخلي عن جميع الآخرين. وأنا أعرف، وبدأت أرى أن الحياة كلما طالت أكثر تغدو هذه العاطفة أقوى، وأقرب، وأكثر ثباتاً من السابق، وسوف أقترب منك».

«أنت على حق، لقد عاملتك بصورة سيئة، وهذا بالطبع، سبب اغترابنا. سأسعى بصدق لاستئصال المشاعر السيئة نحوك في نفسي نهائياً... تفسيرات عدم صداقتنا بسيطة، وعلى العكس من ذلك، من المفيد معرفتها. أولاً، لقد نظرتُ بطريقة أخرى، تختلف عن نظرتك، إلى بعض الأشياء وهذا ما فرق بيننا؛ وثانياً، لست أنا وحدي، أنت أيضاً عاملتني بصورة سيئة، وكان الأمر صعباً بالنسبة لي، كما هو بالنسبة لك، أن أتعامل معك ببساطة وبقلب

مفتوح. ولكن الآن، انتهى كل شيء. أرجوك، سامحني حتى النهاية، وكن معي كما كنت في السابق».

كان الأب يرد على تصريحات الحب العاطفية هذه بفتور شديد: «لقد استلمت رسالتك، يا ليوفا، وللأسف، شعرت أنني لا يمكن أن أكتب لك ببساطة وصدق، كما أتمنى معاملة جميع الناس، وخاصة ابني. إن كلامك غير المفهوم بالنسبة لي وموقفك القاسي جداً تجاهي جعلاني، من الشعور اللاإرادي للحفاظ على الذات، أن أختصر التواصل معك إلى أقل حد ممكن. نأمل بأن يزول هذا ما إن يزول موقفك غير الجيد. من غير الممكن تصحيح هذا بالشروح والتصريحات. فالشروح لا تحسِّن العلاقات بل تسيء إليها. وداعاً، أتمنى لك ذلك الخير الداخلي الذي تقوم بنتيجته، ودون الاهتمام بذلك، أفضل العلاقات الودية مع جميع الناس».

كانت محنة ليف لفوفيتش تكمن في أنه كان يحب أباه، وكان، مثل أمه، في تبعية مطلقة له. إنها كانت تبعية من نوع آخر، لكنها ليست أقل عمقاً، بل وأكثر حزناً. لقد أصبحت صوفيا أندرييفنا بصورة شعورية، جزءاً من حياة زوجها. ولكن كان يبقى لديها مجالها الخاص من الحياة، التي كانت فيه سيدة وربة منزل، وكان هو تابعاً لها. كان يمكنها أن تكتب عنه في يومياتها أشياء شريرة بل ومخيفة. كان يمكنها أن تكتب أنه عنكبوت، وأنها ذبابة تطن في شبكته. ولكنهما كانا كلاهما يدركان أن علاقة ثابتة وأبدية لا تنفصم تقوم بينهما، ولا يمكن خرقها، دون أن يمزق أي طرف من نفسه لحمه ودمه.

أما تبعية ليف لفوفيتش فكان فيها شيء ما مثير للشفقة، لا يوصف. كان يمكن أن يدمر في نفسه «التولستوي»، لكنه لا يمكن أن يقتل في نفسه «ليف تولستوي». ولكنه لم يستطع أن يستوعب في ذاته «ليف تولستوي». فالاسم الذي أطلق عليه منذ الولادة، حكم عليه بالوجود الأكثر إبهاماً، الذي كان عليه الرضا والقبول به، مرة واحدة وإلى الأبد، كما لو كان نكتة سيئة. ليف تولستوي -الأول، ليف تولستوي- الثاني، ليف تولستوي - الثالث.

كتب ليف لفوفيتش متذكراً شتاء نهاية عام 1900: «كان تأثير الغرب الأوروبي عليّ كبيراً، وبفضله، سرعان ما أسست وجهات نظري المحددة

للحياة، التي أبعدتني أكثر عن أبي. وأدركت، أين وكيف أخطأ، في حديثه عن السلطة والملكية، والزواج وإصلاح الأرض للشعب الروسي، وعن الثقافة والعلم والفن، وعن العزوبية، والفوضوية، والمسائل الأخرى».

يا الله! وهل كانت أهمية أبيه في هذا! وهذا ما كتبه ليس ليف لفوفيتش الشاب، بل مؤلف «تجربة حياتي». أمن المعقول أنه حتى أيامه الأخيرة، لم يفهم أن أهمية أبيه لم تكن في موقفه من «مسائل» ما، بل في أن تولستوي نفسه كان «مسألة» للحياة الروسية والعالمية؟

ألم يدرك أن مشروعه في ياسنايا بوليانا فشل ليس لأن العقار كان ملكاً لأخوته، بل لأنه لم يكن عقاراً، بل كان شيئاً آخر؟

«لقد كنت أحب الحياة الهادئة والمسلية في ياسنايا، بزراعتها وصيدها، بأيامها الخريفية والشتوية الرائعة، بعواصفها المطرية والثلجية، بربيعها الشاعري، والحياة الروسية المحيطة بها والقريبة مني».

في هذه الرعوية لم تكن شخصية الأب ضرورية. كانت تنتزعها، مجبرة الركن الهادئ من مقاطعة تولا على أن يقترب ليس من أوروبا، بل من «الهند» الروحية.

لو وافق ليف لفوفيتش على اقتراح ويسترلوند وقبل بإدارة مزرعة هالمبيوبودا، لكانت لديه إمكانية نظرية بتحويل المزرعة إلى نموذج سويدي من ياسنايا بوليانا. ولكن لم يكن عنده أدنى فرصة لكي يجعل من ياسنايا بوليانا نموذجاً روسياً من هالمبيوبودا.

في خريف عام 1900 سافر ليف لفوفيتش لأعمال خاصة إلى موسكو، واشترى للصغير ليفوشكا قبعة صغيرة من جلد الخروف، خفيفة ورشيقة. في بداية شهر كانون الأول، أثناء ذوبان الجليد، أمر بإخفاء الزلاجة، وذهب في نزهة مع زوجته وابنه. لقد قدت بنفسي عربة يقودها حصان رمادي قوي نابض بالحياة، ولم ألاحظ كيف نام ليفوشكا بيني وبين دورا في معطفه الجديد وقبعته الجديدة التي لا تغطي جبينه وقذاله بشكل كاف...».

في المساء أصيب الطفل بالحمى، وبعد أسبوعين، في يوم عيد الميلاد القديم، وافته المنية من التهاب الدماغ. كان الأطباء عاجزين.

جاءت من موسكو صوفيا أندرييفنا، وجاء ويسترلوند من السويد. كان من المستحيل النظر إلى دورا. فقد أصيبت بالذهول. وعندما أصبح الموت مؤكداً، لم تصدق عينيها، وتابعت تزيين شجرة عيد الميلاد، وتحضير الهدايا. عندما جاءت صوفيا أندرييفنا إلى ياسنايا بوليانا، وجدت أن «حالة الوالدين مرعبة». وكتبت لزوجها في موسكو:

«تخرج دورا صارخة أو تنفجر في الغرفة التي يرقد فيها ليفوشكا، وتصرخ، وتهجم عليه، وتناديه، وتنطق بكلمات بلا معنى؛ والغرفة لم يدفئوها ثلاثة أيام والنافذة مفتوحة على مصراعيها. لقد أصيبت دورا بنحاف شديد، ولا يوجد لديها حليب تقريباً، وتسعل باستمرار. وليوفا يعاني من أجلها، يجلسها بالقرب منه، وهو نفسه يكاد يفقد عقله. خرج اليوم للنزهة، الشمس ساطعة، والسماء زرقاء، والذباب الضخم يطنّ على النوافذ، حيث توجد الزنابق؛ درجة الحرارة في الشمس 15 درجة مئوية. دفء ورائحة الربيع، النحل يئز هنا تحت الدرج، حيث وضعناه شتاءً. ذكّره بالربيع عندما عادوا من الخارج، وليفوشكا، كما لو هو الآن –ركض إلى البيت، ورمى بنفسه على السرير، حيث جلست دورا وأطعمته، هي الآن أعطتني بافليك وبدأت تنوح– يا للرعب! بعد ذلك، الأمور عادية، نشرب الشاي، نتحادث. وفجأة يتذكر ليوفا كيف كان يلعب بالغميضة أو بالكرة مع ليفوشكا وأسماك القرش، ويبكي من جديد. ويكرر قوله: «مؤسف، مؤسف جداً، نهاية حياة، لا ركيزة، لا هدف»... وتتمسك دورا بي باستمرار، تعانقني تارة، وتجلس على الأرض وتضع رأسها على ركبتيّ تارة أخرى، أو تحدثني طويلاً عن ليفوشكا، وكلماته، وألعابه، وصراخه، وأمراضه، وما إلى ذلك. أما بالنسبة للصغير (الابن الثاني بافل –*المؤلف*) فهي غير مبالية إلى حد ما، وتقول إنها ترضعه وسوف تحبه فقط لأن ليفوشكا طلب منها ذلك. وتكرر كلماته: <<ماما، خذي أخي، ماما أرضعي أخي>>».

بعد الجنازة، اكتشف ليف لفوفيتش أن دورا ليست في المنزل. كان الجو ليلاً في الفناء والعاصفة تدوي. أمر بكدن الجياد إلى العربة. «التقينا بها وحدها في الساحة، عائدة من القبر، منهكة وفاقدة عقلها، بصعوبة تخطو على قدميها في الطريق، المظلم والمغطى بالثلج المرتفع...».

كانت دورا وليوفا يتناقشان باستمرار: من المذنب في موت الطفل. لم يطعموه كما يجب، لم يربوه التربية البدنية الصحيحة، ألبسوه القبعة غير المناسبة. ثم وضعا الخطط: إلى أين يذهبان؟ وأين سيعيشان؟ كانا كلاهما يدركان أنه من المستحيل البقاء في ياسنايا بوليانا.

لم يحضر الجد جنازة الحفيد. وقد كتب في يومياته: «لقد مات طفل ليوفا. أنا أشفق عليهما كثيراً. دائماً في الحزن ثمة جزاء روحي وفائدة كبيرة. الحزن - عندما يزورنا الله ويتذكرنا».

مكتبة
t.me/soramnqraa

الفصل السابع

تيغر تيغروفيتش (نمر نمروفيتش)

أنا لا أكتب شيئاً، أنا نفسي لا شيء، أنا لست من تظنني، ولو أنت صديقي، أرجوك، أخفِ عن الناس، وعن نفسك، وعني أيضاً، كل ما أقوم هناك بتأليفه.

• ل. ل. تولستوي. رسالة إلى ن. س. ليسكوف

«ابنك ليف».

لقد كانت لدى ليف لفوفيتش الأسباب الكافية ليشعر بالاستياء من أبيه... كأب. ففي الجبرية الدينية التي كان يتعامل بها تولستوي مع مصائب أهله وأقربائه كان ثمة شيء أناني عميق. وهذا ما كانت تشكو منه كثيراً صوفيا أندرييفنا في يومياتها. فمن ناحية أولى، كان تولستوي شبيهاً بالنبي إبراهيم، المستعد للتضحية بابنه، لأن الله أمره بذلك. ومن ناحية أخرى، كانت تظهر في هذا غريزة الحفاظ على الذات عند الكاتب والفيلسوف، الذي كان يدافع عن ذاته، على هذا النحو، من الاضطرابات الخارجية، عندما كان يُطلب منه مشاركة حية وليس كلمة حكيمة.

ولكن كان ثمة سبب آخر يمنع تولستوي من التعامل بحب مع ابنه. تكتب صوفيا أندرييفنا: «لم يكن قادراً على الحب –لم يعتد الحب منذ الصغر»،

مؤكدة بصورة مقصودة على «لم يعتد». وهي بذلك كانت تشير إلى أن المقصود ليس إنساناً شريراً منذ البداية، بل إلى الانعدام المبدئي لعادة الحب الأسري. هنا، علينا أن لا ننسى، أن تولستوي فقد أمه عندما لم يكمل السنة الثانية من عمره، وفقد أباه في الثامنة من عمره. إنه الأخ الأصغر من الإخوة تولستوي، كان محروماً من حنان الوالدين وربّته عماته وخالاته الثلاث، اثنتان منهما: ألكسندرا إيلينتشنا أوستن- ساكن وبولينا إيلينتشنا يوشكوفا كانتا غير سعيدتين في حياتهما الزوجية، أما الثالثة تاتيانا ألكسندروفنا يرغولسكايا فلم تكن متزوجة على الإطلاق.

لم يرسل تولستوي رسالة لليوفا ودورا بمناسبة وفاة ليفوشكا، واكتفى بحاشية صغيرة في رسالته إلى زوجته: «بكل قلبي أتعاطف مع حزنكما، عزيزيّ دورا وليوفا، وآمل أن تجدا العزاء والدعم، حيث هما موجودان فقط، عند الله».

وقد كتب ليف لفوفيتش عن هذه الحاشية: «... كالعادة، فيها من الفلسفة الباردة أكثر من الدفء القلبي الحار».

أما هو نفسه، فبعد موت ليفوشكا كتب قصيدة شعرية، ضعيفة من حيث الشكل، لكنها معبرة من حيث المعنى، حيث حمّل نفسه مسؤولية وفاة ابنه: فهو الذي اشترى له القبعة غير المناسبة.

آه، أيتها الشمس الساطعة، كم أنت تضطهدينني!
آه، ولتكن حياتي كلها تكفيراً عن ذنبي...
أحمِّل نفسي هذا الذنب على خسارتك،
طفلي العزيز، ابني وعزائي.

ولكن كانت في هذه القصيدة أسطر غريبة، يصعب نسبتها إلى ليف لفوفيتش نفسه، وقد انطبع فيها على الأغلب استيعابه لأبيه:

نعم، أنا وحدي، من أحبك بلا نهاية.
قتلك الكذب، والحقد، وقلق البحث،
ولم تعد لدي دموع مبتذلة رخيصة
وفخور، ولا أستطيع الصلاة من المعاناة.

وكأنه هنا، في حزنه المباشر من فقدان ابنه البكر، ازدوجت كينونته، وهو ينتقل فكرياً إلى شخصية أبيه بـ «كبريائه» و«بحثه». ويؤيد هذه الفرضية رسالتان أرسلهما إلى أبيه بعد موت ليفوشكا. ويتشكل انطباع كأنهما كتبتا من شخصين مختلفين. أحدهما كان ليف لفوفيتش، الذي تعافى من «التولستَوية» وأخذ بوجهة النظر «الأوروبية» الناضجة للحياة والموت. والآخر ليف لفوفيتش الذي لا يزال في أَسْر آراء تولستوي-الأب.

يكتب ليف لفوفيتش لأبيه في 30 كانون الأول/ ديسمبر عام 1900: «المكافأة على شكل تطهير الروح ربما قد تأتي، ولكن ما الحاجة إلى التضحيات من أجل هذا، ولماذا لا يصح التطهير بخلاف ذلك. إنها مصيبة، فظة وقبيحة، لأنها يجب أن لا تكون، ومن المستحيل القبول بها، رغم ذلك. لقد مات ليفوشكا لأننا عرّضناه لنزلة برد، وعقلي لا يقبل خلاف ذلك، ولذلك أشعر أنا خاصة بحزن شديد. لا يمكنني التفكير، أنه كان عليه أن يموت – وإلا لما كنت حزنت».

لكنه بعد شهر يكتب له شيئاً آخر تماماً: «أنا أتقبل مصيبتنا كهدية ثمينة من الله. من المؤسف أن نضيعها، ومن المؤسف أن نلوثها وبودي المحافظة عليها، وإذا ما استخدمتها فمن أجل ما أُعطيت لي فحسب...».

مثير للاهتمام توقيع هذه الرسالة: «*ابنك ليف*». عموماً، لم يكن لدى ليف لفوفيتش توقيع ثابت في رسائله لأبيه. كان يبدّله تبعاً لمضمون الرسالة، وحتى من المحتمل، تبعاً لمزاجه الآنيّ. أحياناً كان يمكنه أن يوقع بحرف واحد «*ل*»، ولكن أحياناً كان ينفجر بتوقيع مطوّل مثل: «*ابنك ليف الضعيف والغبي مدى الحياة*».

وقد لاحظت فاليريا أبراسيموفا أن ليف لفوفيتش منذ سنوات الدراسة الثانوية، كان يبدّل تواقيعه للرسائل وللكتابات المدرسية، «كأنه يجرب، ويقيس هذا العبء على نفسه بتوقيعه: << ليف تولستوي>>». لكن هذه المشكلة واجهته بكامل قوامها، عندما قرر أن يصبح كاتباً، على الرّغم من شكوك أهله ومن شكوكه الشخصية القاسية.

نهاية عشّ العائلة

في شهر نيسان/ أبريل عام 1898 ارتكب الشاب ليف فعلة غادرة بحق والديه، وبادئ ذي بدء بحق أمه. فبدون أخذ رأيها، باع عن طريق السمسار منزل العائلة في خاموفنيكي المسجل باسمه. وكانت صوفيا أندرييفنا مضطرة لشرائه بثمانية وخمسين ألف روبل. وفي المحصلة، أفلست وغرقت في الديون.

كان الموقف دقيقاً وحساساً. كانت صوفيا أندرييفنا ترى آنذاك أن منزل خاموفنيكي يجب أن يصبح في المستقبل متحف تولستوي. وربما لهذا السبب، عند بيعه المنزل المسجل قانونياً على أنه ملكية شخصية له، لم يطلب ليف لفوفيتش موافقة أمه. لقد كان هذا تصرفاً بعيداً عن اللباقة ليس تجاه الأب الذي كان أقل شيء يهتم به هو إنشاء متاحفه الخاصة، بقدر ما هو تجاه الأم التي كانت بالذات تفكر كثيراً بماذا ستفعل بعد موت زوجها. ولكن إذا ما نظرنا إلى الموقف من وجهة نظر عملية، ينتج معنا، أن الأب كان قد اقتنى البيت واشتراه في وقته، والابن يتاجر به. وبعد عامين من بيعه منزل موسكو، باع أيضاً واحداً من عقارات سماري، عقار بوبروفكا، الذي كان أبوه قد اشتراه في الأعوام السبعينيات، وأصبح بموجب تقسيم التركة في عام 1892، مِلْكاً لليف لفوفيتش.

في الواقع، كان لجميع هذه «الصفقات» سبب واحد ومرير. لم يكن لدى ليف لفوفيتش مكان يسكنه من أجل حياة مستقلة. فالعيش في برّية سماري، ومع زوجته – السويدية كان مستحيلاً على الإطلاق. في ياسنايا بوليانا كان يعيش أبوه، مجتذباً إليه أنظار روسيا كلها بل والعالم كله، أما منزل موسكو فرغم أنه كان يعد منزل ليف لفوفيتش من الناحية القانونية، لكنه بقي، عملياً، منزل الأم و«مقر» الأب في موسكو.

كان موت ليفوشكا النقطة الأخيرة في كأس صبر ليف لفوفيتش الذي سئم من دور التابع المهين أمام أبيه الكبير، وأمه المخلصة له بلا حدود. كان يمكن لصوفيا أندرييفنا أن تحب ابنها قدر ما تستطيع، لكنها في المواقف الحرجة، كانت تقف إلى جانب زوجها الذي كرست له حياتها كلها.

لقد أدرك ليف لفوفيتش خطأ قراره بالاستقرار في ياسنايا بوليانا قبل وفاة ليفوشكا بوقت طويل، ومنذ العام الأول لوصوله مع دورا إلى عقار العائلة. ولكن، ماذا كان عليه أن يفعل؟ أن يخدم في وظيفة مثل أخيه سيرغي، لم يكن باستطاعته، لعدم حصوله على مؤهل التعليم العالي. أما أن يعيش حياة ملاّك أراضٍ عادي، مثل أخيه إيليا، فقد بدت له غير جديرة باسمه وقدراته، التي كان يقدِّرها عالياً. فتأسيس «مركز جديد واستمرار آل تولستوي» في ياسنايا بوليانا شيء، واستعباد الذات في الزراعة الروسية القاسية والخطيرة من حيث الظروف المناخية شيء آخر. علاوة على ذلك، كانت هناك سمة في طبيعة ليف لفوفيتش كان يدينه عليها بحق أبوه، وكذلك أمه، عندما كانت تنظر نظرة يقظة سليمة إلى ابنها الحبيب.

لقد كان، وبقي طيلة حياته «سيداً نبيلاً». وهو في هذا، للأسف، كان يقلد أباه، بصورة فاشلة. لكن «نبالة» تولستوي-الأب التي كتبت عنها زوجته: «... إن ليف نيقولايفتش حكيم، وسعيد في الوقت نفسه. إنه دوماً كان يعمل باختياره وليس بالضرورة. أراد – فكتب، أراد – فحرث وزرع. فكر بخياطة الأحذية – فقام بخياطتها بعناد وإصرار. فكّر بتعليم الأطفال – فقام بتعليمهم. شعر بالملل من التعليم – فتركه» – كان له ما يبرره في عبقريته الأدبية، التي يعترف بها العالم أجمع. أما «بابا ليو» –حسب تعبير ابنه بافل– فببساطة، «كان ينسب نفسه إلى «الطبقة العليا» وعليه ألا يلزم نفسه بأي عمل ما، لكن عليه دوماً أن: يفكر، ويكتب، وينحت، ويصطاد وما شابه ذلك».

أما السمة المهمة الثانية المميزة لطبيعة ليف لفوفيتش، التي كانت تقرّبه من والده، كما كان في سنوات الشباب، فكانت تكمن في رسمه الخطط الفارغة. إن ابن تولستوي لم يعش، بل كان دوماً يحقق مشاريع حياتية حيوية كانت تبدو له في حينها صحيحة ومعقولة. وخلال ذلك، كل ما لم يدخل في المشروع الحالي كان ينتقده بشدة، باعتباره غير معقول وخاطئاً. وقد كتبت صوفيا أندرييفنا لابنها في 24 كانون الثاني/ يناير عام 1900، قاصدة ليف الأب والابن دفعة واحدة: «... أنتم آل تولستوي، المهم أنكم تبحثون عن شيء ما في الحياة إما غير عادي، وإما تخضعونه للتحليل البسيط والإدانة. في حين أنه يجب النظر ببساطة وهدوء أكبر».

في الوقت نفسه، كانت تشعر بأن ليوفا من بين جميع أبنائها كان الأقرب إليها بطبيعتها: «... أنت تفهمني وترأف بي، بشكل ما، أكثر من الآخرين. من الأبناء الآخرين كنت أرى دوماً المتطلبات الصارمة، والقسوة، وعدم الاعتراف بالشيء الجيد ولو كان قليلاً. أما أنت ودورا فقد كنتما معي لطيفين...».

وكانت تعتقد أنه كان يفهم أباه أكثر من الآخرين: «كان ليوفا أكثر من جميع الأبناء، في أعماقه، يفهم أباه ويحبه. حتى إنه كان يقدم لي نصائح حول الموقف الحكيم من حياة ليف نيقولايفيتش في القرية، وعند قدومه إلى موسكو، واللامبالاة تجاه الأطفال وتربيتهم».

عموماً، كان *اللطف* هو السمة الأكثر جاذبية في شخصية ليوفا.

«كان دائما يهتم من كل قلبه بكل ما يتعلق بالأسرة، ويهتم خاصة ويتكدر بشؤون أخويه الصغيرين: أندريوشا وماشا. ويعطيهما النصائح التي لم يريدا اتباعها، وكان يكتب عن ضرر الزوار غير اللازمين على الأسرة، الذين يعيقون الحياة الأسرية، وضرر عدم اهتمام الأب بحياة أبنائه، والقصص الغرامية لأخواته، وضرر كل ما يسلي ويبعد عن الاهتمام بالدروس والحياة الجادة...» («حياتي»).

لكن علاقاته مع والده لم تكن على ما يرام، وكانت دورا تشعر أحياناً، أن وجودهما مع زوجها في الحوزة يشكل عبئاً على حميها. كانت صوفيا أندرييفنا تشتكي: «كانت المسكينة دورا تنسب هذا إلى نفسها وتبكي بألم ومرارة...».

أما في الواقع، فالسبب الرئيس لجميع هذه التناقضات في حياة عائلة آل تولستوي لم يكن ليوفا بطباعه وشخصيته، ولا دورا بعاداتها السويدية، بل تولستوي نفسه بنظرته إلى العالم، التي قلبت حياة الأسرة رأساً على عقب. وهذا ما كان يدركه جيداً جميع أبنائه.

في عام 1897 تزوجت الابنة ماشا وغادرت مع زوجها للعيش في عقار بيروغوفو، المجاور لعقار عمها سيرغي نيقولايفتش. وفي شهر تشرين الثاني/ نوفمبر عام 1899 غادرت الابنة الكبرى تاتيانا بيت الوالدين. فقد

تزوجت وانتقلت للعيش مع زوجها وأولاده من زوجته الأولى في مزرعة كوتشيتي. كان الفراق مع تانيا التي كانت مساعدة مخلصة لأبيها قاسياً جداً بالنسبة له. وقد كتبت صوفيا أندرييفنا لابنها ليف لفوفيتش:

«عزيزي ليوفا، بالأمس ودعنا أخيراً ابنتنا تانيا مع سوخوتين إلى خارج روسيا. لم يتوقع أحد منا ذلك الحزن الرهيب، وذلك الفراغ، الذي تركته تانيا بعد غيابها. جاء الأب اليوم بعد نزهته للغداء، ونظر إلى الأطباق الفارغة، ومقعدها الفارغ، الذي لم يجرؤ أحد على الجلوس عليه، وبكثير من الحزن، وقال والدموع تسمع في صوته: «لكن تانيا لن تأتي». واختنقنا جميعاً بدموعنا، ولم يرغب أحد بتناول الطعام. وسيطر على المنزل مزاج، وكأنه ليس حفل زفاف بل جنازة...».

في العام نفسه تزوج ابن أندريه من أولغا ديتيريخس سلفة تشرتكوفا (أخت زوجته) واستقر منفصلاً عن والديه. وفي كانون الثاني/ يناير عام 1901 تمت خطبة الابن الأصغر ميخائيل على لينا غليبوفا. وفي العام نفسه، غادر ياسنايا بوليانا ليف لفوفيتش ودورا وابنهما بافل.

لقد تزامنت بداية القرن العشرين في عائلة آل تولستوي بسلسلة من وفيات الأطفال. فمباشرة بعد جنازة ليف الثالث توجهت صوفيا أندرييفنا إلى كوتشيتي إلى ابنتها تاتيانا، التي ولدت في 27 كانون الأول/ ديسمبر عام 1900 مولودة ميتة. وفي كانون الثاني/ يناير عام 1901 أثناء الاستعداد لحفل زفاف ميخائيل «وصل خبر من المسكينة ماشا أن الطفل الذي تحمله في بطنها قد مات، وهي مستلقية في المخاض، حزينة، متكدرة من أملها الخائب مثل تانيا». وفي نهاية شباط/ فبراير عام 1901 فصلوا تولستوي رسمياً، وبصورة احتفالية، من الكنيسة الأرثوذكسية.

تكتب صوفيا أندرييفنا في يومياتها في 14 تموز/ يوليو عام 1901: «غادر ليوفا ودورا وبافليك إلى السويد. كان فراقهم مؤلماً بصورة مرعبة. أنا أضعهم بصورة خاصة قريبين جداً من قلبي، *أشعر* بصورة خاصة بحياتهم، وأتراحهم وأفراحهم. أفراحهم كانت قليلة في هذا العام! وهم يعيشون حياة مثالية بدون أخطاء، بأفضل النوايا والمثل. لم يكن هناك ما يخفونه –يمكن

أن تشاهد أعماق أرواحهم بهدوء- وسترى كل شيء نقياً وطاهراً. دورا المسكينة ركضت في الساعة الخامسة صباحاً إلى قبر ابنها ليفوشكا لتودع ابنها الحبيب، وكان بودي البكاء، وكنت أعاني معها من آلامها كأم». ويبدو أن تولستوي قد شعر أنه برحيل ليوفا ودورا من ياسنايا بوليانا انتهت مرحلة كبيرة ما من حياته - حياته مع أولاده: «إن الحياة محزنة بدون أطفال، لا، لا، وتجد أمامك عربتين للأطفال، أما الآن، فلا». بالذات، كان في ياسنايا بوليانا حفيداه بافليك، وصونيوشكا، ابنة أندريوشا».

لهذه الأسباب، أو بسبب تقدمه في العمر (في عام 1898 أكمل تولستوي عامه السبعين) بدأ تولستوي يعاني من أمراض شديدة. تكتب صوفيا أندرييفنا في شباط/ فبراير عام 1901: «إنه كئيب في جميع هذه الأيام، لأنه ضعيف ويخشى الموت بصورة مرعبة، ومهما كان غير راغب بذلك، فإن ليف نيقولايفتش يغادر هذه الحياة...». وتكتب في شهر أيار/ مايو: «إن وهْن ليف نيقولايفتش يجرّني وراءه، *وعليّ* أن أهرم وأتقدم في السن معه، ولا أستطيع، ولا يمكنني ذلك، حتى إذا ما أردت». وفي شهر تموز/ يوليو أصبح وضعه الصحي خطيراً لدرجة أن الأطباء نصحوه بأن يمضي الخريف والشتاء في شبه جزيرة القرم. وقد قدمت الكونتيسة بانينا لأسرة تولستوي فيلا رائعة في غاسبرا. وقام أحد أتباع تولستوي بافل ألكسندروفيتش بولانجي الذي يعمل في إدارة السكك الحديدية بتجهيز عربة خاصة مستقلة لنقلهم.

إلى بطرسبورغ، إلى بطرسبورغ

من مذكرات ليف لفوفيتش، المكتوبة بعد عدة سنوات، يتضح أنه فكر لأول مرة بالانتقال من ياسنايا بوليانا إلى بطرسبورغ بعد وفاة ليفوشكا. بيد أن هذا لا يطابق الواقع.

إن المنزل الكبير، المؤلف من طابقين، والواقع على شارع تافريشسكايا، كان قد اشتراه في كانون الأول/ ديسمبر عام 1900، عندما كان الطفل لا يزال على قيد الحياة. وقد وقع عقد شراء هذا البيت أثناء مرض ليفوشكا، حيث ترك دورا مع الطفل المريض في ياسنايا بوليانا. ويبدو أن هذا السفر إلى

بطرسبورغ كان مرتبطاً بضرورة عاجلة لتوقيع الوثائق اللازمة، لكن قصة شراء المنزل بدأت منذ عام 1898، عندما باع ليف منزل موسكو.

وببيعه لجزء من مزرعة سمارى في خريف عام 1900، كان ابن تولستوي عارفاً بأنه سيشتري منزلاً في بطرسبورغ. وقد كتب لأمه في 10 تشرين الثاني/ نوفمبر: «بعت مزرعة بوبروفكا مقابل 20 ألفاً، كان أمراً مؤسفاً، ولكن إذا كنت سأشتري منزلاً، وهذا ما سأفعله في سفرتي القادمة إلى بطرسبورغ، فلا بد من أن تكون النقود كلها معي».

إذن، موت ليفوشكا لم يكن سبب رحيل ليوفا ودورا من ياسنايا بوليانا.

عموماً، يصعب الحديث عن مدى جدية ووجاهة قراره بالاستقرار في ياسنايا بوليانا. وعلى ما يبدو، أنه كانت في ذهنه عدة خطط حياتية وليست خطة حياة واحدة. فقد كان يريد أن يصبح ملاّكاً إقطاعياً، وكاتباً، ومصلحاً لروسيا، ورئيس أسرة كبيرة - وريث عائلتي آل تولستوي وآل فولكونسكي...

وهاكم بعض الأمور الصغيرة لكنها ذات دلالة كبيرة. عندما قام بتفكيك الأثاث القديم «سقط المتاع» من الجناح الخارجي ورماه، رمى في العليّة مذكرات جدته ماريا نيقولايفنا فولكونسكايا. وعندما جاء طبيب الأطفال من موسكو إلى ياسنايا بوليانا لعلاج ابنه المريض ليفوشكا، لم يكن لدى ليف لفوفيتش «المال في جيبه»، وطلب من أمه تقديم مئتي روبل للطبيب. وعند شرائه منزلاً في بطرسبورغ بمبلغ كبير -أكثر من مئة ألف روبل- صرف عليه جميع الأموال التي استلمها من بيع البيت الذي ورثه عن أبيه، وعلاوة على ذلك، طيلة حياته لم يقتنِ أي شيء ولم يترك أي شيء لأولاده، خلافاً لأبيه الذي قسّم بين أولاده وزوجته ثروة تقدر بنصف مليون روبل...

إن مشروع «بطرسبورغ» لليف لفوفيتش، كان يسعى، كما كتب هو بنفسه، إلى تحقيق ثلاثة أهداف: «الأول: تأسيس أسرة متحابة ومعافاة، والثاني: تأسيس منزل كافٍ لي وللأبناء، والثالث: خدمة روسيا بقدر ما أستطيع...». جميع هذه المهام كانت رائعة! لكن شيئاً واحداً كان يدفع إلى الحذر. فهو لم يأخذ بهذا المشروع بذهن صاف وتفكير عميق، بل أخذه مغموراً بأحلام

غير مدروسة، كما في ذلك الوقت، عندما أبحر إلى السويد، شاعراً في نفسه بتدفق دماء آل روريكوف.

وقد كتب يقول: «إلى بطرسبورغ! إلى العاصمة الروسية الأوروبية الفتية الجميلة، التي دعاها بوشكين بـ <<خطيئة بطرس العظيمة>>[1]. لكن من وقع في الخطأ هو بوشكين وليس بطرس، وسترى الأجيال الروسية المقبلة، على الأغلب، أن بطرسبورغ بدأت للتو في أداء دورها كنافذة على أوروبا وأنها ستكون في نهاية هذا القرن إحدى أغنى مدن العالم الثقافية، زارعة في جميع أنحاء روسيا حضارة الشمال الحقيقية».

أما زوجته دورا فكانت تمنياتها ورغباتها أكثر تواضعاً بكثير. فقد كان بودها أن تكون قريبة من أبيها وأمها، ومن وطنها السويد. وبكل صدق، أدركت أنه من الممكن العيش بصورة رائعة في ياسنايا بوليانا، ولكن ولادة الأطفال يجب أن تكون إلى جانب أبيها ويسترلوند.

كان المنزل في شارع تافريشسكايا يعود للكونتيسة كلينميخل. وبحسب الشائعات، عاش في هذا المنزل رجل الدولة البارز ميخائيل ميخائيلوفيتش سبيرانسكي الذي كتب «الدستور». لكنه أصبح الآن منزلاً مصدراً للربح، مسقوفاً بالقرميد، يشغل مع ملحقه مساحة قدرها خمسمائة ساجين مربع (الساجين= 1,13 م)، ويتألف من عشرين شقة، في الطابق الأول مخبز، وملحمة لبيع اللحوم، وورشة لصناعة الأحذية. وقد أرسل زوجته دورا مع بافليك في الصيف إلى السويد، وأعاد ليف لفوفيتش بناء المنزل بمساعدة خاله، محتفظاً لنفسه بالطابق العلوي، لنوافذه التي تطل على حديقة تافريشسكي. وقد تجلى في هذا اهتمامه بمستقبل أسرة متعددة الأولاد. وكتب لأمه في شهر أيلول/ سبتمبر عام 1901: «أمي العزيزة، البارحة وصلت دورا مع بافليك من ستوكهولم إلى هنا مباشرة، ونحن الآن معاً، رغم أننا لم نستقر بعد ولم تألف دورا بعد حياتها الجديدة... والجيد هنا – الحديقة، ما إن وصل بافليك انطلق مباشرة إلى الحديقة للنزهة، وقد أخذناه

1– هذا القول للشاعر الروسي كارمزين وليس لبوشكين. وقد أخطأ ليف لفوفيتش – المؤلف.

منها بعد أن تسلل النوم إلى عينيه... أجلس أمام النافذة المفتوحة على حديقة تافريشسكي، حيث الخريف الذهبي يرسل أوراق الشجر إلى الطرقات التي يتنزه فيها الأطفال».

أُرسلت هذه الرسالة إلى شبه جزيرة القرم. حيث بدأت معركة أهل وأقارب ليف نيقولايفتش من أجل حياته التي تعرضت لخطر الموت.

حاجة لا تُردع

كان جميع أبناء تولستوي تقريباً أشخاصاً ذوي موهبة أدبية وقد تركوا بعد رحيلهم إرثاً على شكل يوميات أو ذكريات، وكذلك مراسلات رائعة، نعرف منها اليوم الكثير ليس عن شخصية أبيهم فحسب، بل عن حياة هذه الأسرة الكبيرة أيضاً. كما كانت صوفيا أندرييفنا تمتلك موهبة أدبية فائقة، تجلت في يومياتها وذكرياتها ومراسلاتها. غير أن موهبتها لم تظهر بصورة موفقة تماماً على الصعيد الروائي: فالقصتان الطويلتان: «ذنب من؟» و«أغنية بلا كلمات» تبقيان شاهدتين رائعتين على حياتها الشخصية مع زوجها، لكنهما ليستا من الأعمال الروائية البارزة.

لم يخطر في ذهن أي من أفراد العائلة أن يصبح *كاتباً محترفاً* أثناء حياة الأب وحتى بعد وفاته. لكن ليف لفوفيتش وحده تجرّأ على ذلك. وقد أصبح هذا بالنسبة له مأساة الحياة الحقيقية.

لقد كان ثمة شيء ما، قدري ومَرَضي، في رغبته بأن يصبح كاتباً مستقلاً. من حيث المبدأ، كان يدرك أن وضعه ميئوس منه، وأن شهرة أبيه سوف تلاحقه كظل والد هِملت. فعندما كان ينشر ويطبع باسم ليف تولستوي - كان يتقبله جمهور القراء بطريقة غير مناسبة بل ومضحكة، كما لو أن شخصاً يحاول تغطية نور الشمس بفانوس.

ولكن، يبدو أن هذا بالذات، شكل في نهاية الأمر، حافزاً وليس حاجزاً لإبداعه. وقد تجلى بالصورة الأشد إيلاماً في تنافسه البائس مع والده. أيأخذ اسماً مستعاراً؟ هكذا نصحه الناشر وكبير ممولي الصحف ألكسي سيرغييفيتش سوفورين. ولكن، أولاً، ليف لفوفيتش، مثله مثل أبيه، لم يكن

يفصل الشخصية عن الإبداع. كان يريد أن يتحدث للقارئ باسمه. ثانياً، تبين أن هذا صعب لسبب تقني: فقد بدأ بالنشر في الصحافة مباشرة تقريباً، ليس كمؤلف روائي، بل ككاتب اجتماعي.

مع ذلك، فإن أول قصتين قصيرتين يكتبهما «الحب» و«مونت - كريستو» نشرهما بتوقيع «ل. لفوف». ولكن في عام 1892، عندما عمل في مكافحة المجاعة في مقاطعة سمارى وكتب مجموعة مقالات حول هذه الكارثة الرهيبة، وجد نفسه أمام مسألة: إذا ما نشرتها فبأي اسم وبأي توقيع؟ فالرأي العام الروسي كله كان يعرف أن ابن تولستوي كان يعمل مع تولستوي في مكافحة المجاعة. وكان من السخافة الاختباء تحت اسم مستعار؟ وعلامَ؟ لم يجرؤ ليف لفوفيتش على نشر هذه المقالات لهذا السبب بالذات، لأنه هو أيضاً ليف تولستوي. وبهذا الصدد، كاد أن يتشاجر مع الكاتب الأول الذي كان يشجع جرأته الإبداعية، وهو الكاتب ليسكوف.

في 20 كانون الثاني/ يناير عام 1892 كتب ليسكوف لسوفورين: «قام «ليف الصغير» (محب الآباء ومستحق الحب) بزيارة لا نستحقها... يا له من شاب رائع...! بودي البكاء من الفرح...».

من الواضح أن عطف ليسكوف قد ألهم ليف الصغير، وقد كتب له يعلمه في 17 تموز/ يوليو من العام نفسه: «... لقد أخطأت أنا نفسي، وسأخبرك سراً أنني أريد أن أنقل إلى كتاب كامل بعض الملاحظات والمواد التي جمعتها خلال العام الحالي أثناء المجاعة...».

كيف كان يجب أن يفهم هذا ليسكوف؟ فقط، كرغبة في التعبير عن رأيه في المجاعة في النشر. لن يكتب ليضع «ما يكتبه في الطاولة»! أعلم ليسكوف بهذا، سراً أيضاً، لوبوف ياكوفليفنا غوريفيتش، ناشرة مجلة جديدة «سيفيرني فيستنيك - أخبار الشمال»، راغباً بذلك صيد عصفورين بحجر واحد: مساعدة ليف لفوفيتش في النشر ودعم المجلة الجديدة باسم شهير. ولكن في النتيجة، غضب ليف لفوفيتش.

وكتب لليسكوف: «عفواً، لكنك تتصرف تصرفاً لا يرضي الله بمتابعتك الحديث للغرباء عما نقلته لك سراً بصورة عفوية». ورد على عرض

غوريفيتش بنشر مقالاته: «عبثاً ن. س. ليسكوف ضلّلكم. فالمذكرات التي كتبتُها في مقاطعة سمارى ليس لها أي قيمة، وربما ليست صالحة للنشر... لهذا إذا كنت تتمنين لي الخير، فلا تتحدثي معي ولا مع الآخرين عن وقاحتي غير اللائقة بتسويد الورق أحياناً».

لقد أبعده الاكتئاب الذي استمر طويلاً عن الكتابة الأدبية. لكنه لم يطفئ رغبته في أن يصبح كاتباً. وفي عام 1898 اعترف لسوفورين: «إنني لا أثق إلا قليلاً جداً بنفسي وبقواي. أتعرف، عندما تقف في ضوء محيط بأبٍ عظيم، تشعر بنفسك ضئيلاً، لا أحد يلقي عليك نظرة، لدرجة أن آخر قطرة من ثقتك بنفسك تنطفئ. في حين أنني أرد على دفئك بدفء مماثل - منذ أن استعدت صحتي، تتحرك في داخلي، في أحيان كثيرة، *حاجة داخلية لا تُردع للكتابة*، وأشعر نحو ذلك بميل كبير».

وهو حتى في أثناء مرضه، لم يتخلَّ عن محاولات النشر في الصحافة، إن لم يكن ككاتب روائي فكناقد اجتماعي. وفي 26 كانون الأول/ ديسمبر عام 1895 عندما كان في إنشيبينغ كتبت له صوفيا أندرييفنا: «نعم، لقد أرسلوا لك مكافأة التأليف 65 روبلاً من صحيفة «روسكيي فيدومستي». ماذا يعني هذا؟ هل غاب عن ذهننا شيء؟ أبوك أيضاً في حيرة وهو مهتم...».

وقد تحدث عن مقالات تلميذه السابق بحماس مدير الثانوية بوليفانوف الذي زار ليوفا أثناء مرضه. وكتب يقول في رسالته إلى صوفيا أندرييفنا: «لقد قرأت مقالته «عن المخلصين»، كم هذا لطيف، كيف كل شيء في اعتدال، مقالة مكتوبة بذكاء وبشكل جيد. لديه موهبة إيجابية. من فضلك، انقلي رأيي له، وقولي له إنني أؤمن بمستقبله، وأن لا يتوقف عن الكتابة، فرسالته إيجابية».

لم تكن لديه موهبة في الكتابة الاجتماعية فحسب. فعندما استقر مع دورا في ياسنايا بوليانا وشرع بصورة رئيسة بممارسة الكتابة الأدبية، ظهرت لديه موهبة أكيدة ككاتب للأطفال. ويبدو أن هذا كان يناسب شخصيته، الطيبة، اللطيفة والحنونة. فقصته الطويلة «ياشا بوليانوف» التي هي بمنزلة سيرة ذاتية له، كتبها في ياسنايا بوليانا، ونشرها في مجلة الأطفال والآباء «رودنيك»

(«النبع») في عام 1898، كانت أفضل ما خطته ريشته على الإطلاق. فهي مشبعة بالكثير من الشفافية والدفء الصادقين! وكان من الممكن الملاحظة بعد ذلك، أن هذه القصة الطويلة قد كُتبت بتأثير قوي من قصة «طفولة» التي كتبها أبوه ليف تولستوي. وهل كان من الممكن خلاف ذلك؟

وفي رسالته إلى سوفورين، لم ينكر ليف لفوفيتش هذا:

«تسألني لماذا تركت الكتابة؟ أنا لم أترك الكتابة نهائياً، وآخر ما كتبته قصة طويلة بعنوان «ياشا بوليانوف» نشرتها في مجلة الأطفال «رودنيك»... إنها ذكريات الطفولة. بالطبع لا أريد مقارنة ما كتبته بذكريات الآخرين –فمن أين لي هذا– بيد أنني لم أرغب بأن تبقى ذكريات الطفولة غير مكتوبة، ودون نشر. لقد كتبتها بكثير من الحب؛ وماذا نتج، لست أنا من يحكم. ربما أكون قد قلّدت أبي؟ وكيف لي أن لا أقلده؟».

هذه القصة الطويلة التي وقعها باسمه الحقيقي «ل. ل. تولستوي» قد أثارت، عموماً، انطباعات إيجابية، من جانب النقّاد. بيد أنهم انتبهوا أيضاً إلى تشابهها مع قصة «طفولة» تولستوي.

ومع ذلك، فقد ظهر في هذه القصة موقف ليف لفوفيتش غير الودي من أبيه، الناتج غالباً، بسبب خلافاتهما في عامي 1896–1897. فشخصية الأب في القصة تكاد لا تظهر، خلافاً لصورة الأم التي ظهرت بصورة مفصلة للغاية. وعموماً، يتشكل انطباع لدى القارئ بأن هذا البطل الصغير لم يترعرع في منزل كاتب كبير بل في منزل ملاّك إقطاعي ما، يمضي كثيراً من الوقت في مكتبه لسبب غير معروف. والغريب، أن الكاتب الكبير تورغينيف نفسه يحل ضيفاً على هذا الإقطاعي... قد يبدو هذا مبرراً، من الناحية السيكولوجية، بأن الفتى الصغير لا يدرك القيمة الحقيقية لأبيه. لكنه عندما كتب هذه القصة لم يكن فتى صغيراً. وهو لا يستطيع أن لا يعبر أبداً عن موقفه من شخصية أبيه، لكنه لا يجرؤ أن يعبر عن موقفه بصراحة. وربما لهذا السبب، لم يكن يعتبر هذه القصة الطويلة عملاً أدبياً مكتملاً، وكان ينوي كتابة تكملتها.

إن ليف تولستوي–الابن هو نفسه قاد نفسه إلى الفخ. فرغم وجوده تحت التأثير الأدبي الروائي الكبير لأبيه، عزم أن ينافس أباه في الأدب. ربما هو

نفسه لم يكن يدرك معنى هذا، كما لم يكن يدرك معنى أنه بتشييده «واحة سويدية في صحراء روسية»، لم يكن يبني عشه العائلي فحسب، بل كان يبعث برسالة تحد لأبيه، ويجادله في مسائل الحياة الهامة.

على أية حال، فإن «العمل» الأدبي التالي لليف لفوفيتش لم يدع أي مجال للشك: بانطلاقه إلى الساحة الأدبية، كان يدخل في جدال مع والده.

«مقدمة شوبان».

لقد كانت قصة «لحن كرويترز»، التي نُشرت عام 1890، أكبر حدث أدبي في روسيا في أواخر القرن التاسع عشر. ويمكن القول إنها كانت خاتمة القرن التاسع عشر الأدبي. ويصعب القول مَن مِن المثقفين في روسيا لم يحدد موقفه، بشكل أو بآخر، من هذه القصة. ولم يستطع التهرب من هذا ابن تولستوي أيضاً. ويكتب في مذكراته أنه كان متفقاً مع أبيه في كثير من وجهات النظر: «لقد كان على حق في تمرده على الكنيسة الأرثوذكسية البالية، التي وجب إصلاحها منذ زمن، رغم أنه من الخطأ إنكارها نهائياً. إنه محق في دعوته إلى النضج والرصانة والامتناع عن الطعام والشراب والزواج. وهو محق، بسخطه من النظام القيصري الفاسد». ولكن «بعد الضجة التي سببتها قصة <<لحن كرويتزر>> «سيطر الشعور بالانزعاج على ليف لفوفيتش». لقد كان مخطئاً تماماً في إنكاره الكامل للزواج، وكان على قصته، بالطبع، أن تجلب للناس الإيذاء أكثر من الفائدة، بتنديدها بالسعادة الأسرية وإضعافها لقدسيتها وأهميتها».

ومرة أخرى، نحن نتعامل إما مع خطيئة الذاكرة أو السعي المقصود لليف لفوفيتش المتقدم في السن لإخفاء التعقيد الحقيقي لعلاقاته مع أبيه. في 19 كانون الثاني/ يناير عام 1890 كتب لتشرتكوف: «صديقي العزيز ديما-أقول فقط إنني أعيش بهدوء تام، لا أشرب النبيذ، وأسعى للإقلاع عن التدخين، وبالطبع، أمتنع عن أعظم الشرور والفتن، مما ورد في «لحن كرويتزر»، عن النساء وعن تلك النظرة الرهيبة إليهن، كجسد جميل، يمكن أن يمنحك لذة جسدية. إن «لحن كرويتزر» -هي قصة أبي الكبيرة الأعظم، ومن غير

الممكن لأي عمل أدبي آخر أن يحدث تأثيراً أكبر علينا نحن الشباب، ويدفعنا إلى مثل هذا العدد الكبير من الأفكار- المهمة للغاية والمبدئية في الوقت نفسه».

بتأثير هذه القصة الطويلة بقي ليف فترة طويلة بكراً، لا يقرب النساء، أي أن قصة الأب أثرت بصورة مباشرة على حياته. وفقط بعد الزواج من دورا رأى النور، وأدرك ما هي السعادة الزوجية، وقرر الوقوف ضد «لحن كرويتزر»، وضد تعاليم أبيه ككل. ولم يول أي أهمية لحقيقة أن قصة «لحن كرويتزر» لم يكتبها حاقد على النساء ومعارض للزواج، بل كتبها رجل ناضج اجتاز الطريق كله الذي بدأ السير عليه ليف لفوفيتش. وفي ذلك الوقت كان لدى أبيه خبرة عمرها ثلاثون عاماً من الحياة الزوجية، ونصفها على الأقل كانت حياة سعيدة.

لقد عاش ليف لفوفيتش في النصف الثاني من التسعينيات في ياسنايا بوليانا، إلى جانب أبيه، وكتب خلال هذه الفترة عملين أدبيين، جادل فيهما آراء أبيه حول الزواج والأسرة، مستوحياً ذلك من نجاحه العائلي الذي أفقده بصره.

الأول: العش المريح الذي أسسه مع دورا. واتضح أن الأب المتقدم في السن غير سعيد في زواجه (ولهذا كتب قصة «لحن كرويتزر» البغيضة التي تنفّر الناس من الزواج)، أما هو، ليف الشاب، فهو سعيد، وهو ليس عازماً على عدم إخفاء سعادته عن أبيه، بل ومفعم بالرغبة لمشاركة العالم كله بسعادته. ومن أجل هذا يؤلّف العمل الثاني: «مقدمة شوبان»، القصة الطويلة التي عليها أن تنقذ الشباب من التأثير الضار لـ«لحن كرويتزر». ويكتب، ولكن للأسف، إنها قصة ضعيفة بلا موهبة بشكل مريع... وضعيفة من جميع النواحي. من وجهة نظر قيمتها الروائية ومضمونها الفكري.

يبدأ جداله مع أبيه بعبارة مقتبسة. العبارة المقتبسة لـ«لحن كرويتزر» تقدّمها اقتباسان من إنجيل متّى، يقول المسيح في الأول: «... كل من ينظر إلى المرأة بشهوة، فقد نام معها بقلبه». أما في المقتبس الثاني فيسأل التلاميذُ المسيحَ: «أليس من الأفضل في هذه الحالة عدم الزواج نهائياً». «فقال لهم:

لا يستطيع الجميع استيعاب هذه الكلمة: ولكن لمن أُعطيت. لأنه ثمة خصيان ولدوا هكذا خصياناً من رحم أمهاتهم، وهناك خصيان جعلوا من أنفسهم خصياناً لملكوت السماء. من يستطع الاستيعاب، فليستوعب». على هذا النحو، عبر تولستوي عن موقفه الجديد من الزواج، الذي كان يتطابق مع موقف الرسول بولس: الأفضل أن نعيش في العفة، ولكن إذا لم تكف القوى الروحية لذلك، فمن الضروري الزواج. «أقول لغير المتزوجين والأرامل: من الجيد أن يبقوا هكذا، مثلي. ولكن إذا لم يحتملوا، فليتزوجوا؛ فالأفضل أن يدخلوا في عقد زواج من أن يشتعلوا ناراً» (رسالة بولس الرسول إلى أهل كورنثوس).

في العبارة المقتبسة لقصة «مقدمة شوبان» يستشهد ليف – الصغير أيضاً بإنجيل متىّ: «لهذا يترك الرجل أباه وأمه، ويلتصق بزوجته، ويشكلان جسداً واحداً». إن هذا جدل واضح لليف لفوفيتش مع أبيه، بيد أنه في الواقع لم يكن أكثر من لعب بالاقتباسات من الكتاب المقدس. ففي كلمات المسيح في إنجيل متّى التي ينطق بها فيما بعد الرسول بولس في رسالته إلى أهالي أفس، تتكرر فكرة العهد القديم من سفر التكوين. وبالتالي، فمعنى العبارة المقتبسة لقصة «لحن كرويتزر»، مثله مثل معنى مذهب تولستوي حول العزوبة، كان في أنه إذا كان المثل الأعلى للعفة الوارد في العهد الجديد، المتجسد في حياة السيد المسيح، بعيد المنال، فمن الأفضل اتباع المثل الأعلى للعهد القديم للأسرة المتماسكة، من «الاشتعال بالنار» والعيش في علاقات جنسية فوضوية.

لم ينتج عند ليف لفوفيتش أي جدال مع أبيه، بدءاً بالعبارات المقتبسة. فالأب الحكيم كان يكتب عن الزواج، باعتباره أكبر خطر، عندما يشرع فيه شباب غير مهيئين له. أما ليف لفوفيتش العاشق لدورا فكان يكتب عن الزواج باعتباره *السعادة* الأعظم، التي بدت له أبدية وغير مشروطة.

هل من باب الصدفة أم لا، أن بطلة قصة ليف لفوفيتش اسمها صونيا، مثل اسم أم المؤلف، وهي الأخت الصغرى من أخوات باريتسكي الثلاث من عائلة أمراء، مثل كيتي في «آنّا كارينينا»؟ وهل من باب الصدفة أن أحد لقاءات البطل الرئيس الطالب كريوكوف مع الفتاة يجري على حلبة التزلج،

كما حدث في حياة المؤلف، وفي رواية «آنّا كارينينا» أيضاً؟ ولكن، بالتأكيد ليس من باب الصدفة تزامن عذاب البطل الرئيس مع ما كان يشعر به ليف لفوفيتش تجاه أسرته أثناء مرضه البائس: «الأسرة، التي يعيش جميع أفرادها حياة أنانية منفصلة، ولا أحد يهتم بشؤون الآخر...» («مقدمة شوبان»)

وبالطبع، المسؤول عن كل شيء ليس البطل بل الظروف. «الجامعة، الدروس، الرفاق؟ الدروس التي كلها كريهة بالنسبة له، باستثناء عدد قليل؟» لكن المسؤولية الكبرى تقع على العائلة والأب. «أقرب الناس إليه، أهل القرابة والدم، وهؤلاء لا يفهمونه ولن يفهموه. هل يروي كل شيء لأمه، لأخته؟ إنهما إذا لم تسخرا منه تبدآن في ثنيه، ولن تصدقا جديّة مزاجه وأفكاره. هل يتحدث مع أبيه؟ إنه متعاطف، حساس، وقد أدرك حالته، ولكن بالمقابل، لن يكون مثلَه أحد فاتر بقسوة، ولا مبالٍ، من حيث الواقع...».

لدى كريوكوف مشكلتان لا تتقاطع الأولى مع الثانية. تكمن الأولى في أنه يعتنق مبدأ العفة، لكنه خلال ذلك يشعر بشهوة الجنس نحو الخادمة الشابة ماتريونا. والثانية –هو يحب صونيا باريتسكايا لكن أمها لا ترغب بزواجهما، لأن كريوكوف– هو مجرد «طالب».

يتم حل كلتا المشكلتين عندما يذهب كريوكوف إلى صديقه طالب كلية الطب كومكوف، الذي تزوج مؤخراً وسافر إلى خارج روسيا. وقلبت هاتان الحالتان فوراً نظرته إلى الحياة و... إلى «لحن كرويتزر» تولستوي. وحول هذه القصة يدور حديثهما كله، زد على ذلك أن اسم القصة وارد، أما اسم مؤلفها فلم يذكر، لسبب ما. أليس لأن «مقدمة شوبان» موقعة بالاسم نفسه؟ يجادل كومكوف بحماسة مع «لحن كرويتزر» ومع «خاتمتها»، ويشرِّح جميع آراء تولستوي إلى نتف صغيرة. كما ينتقد «التولستويين» أيضاً. يقول كومكوف: «هؤلاء المساكين، كيف يؤمنون بأصنامهم، بحيث من المؤسف تحطيمها».

لقد أنقذه «نموذج الغرب الحي» من «الضباب الروسي». ويقول: «لو عشت مئة عام في روسيا لما عرفت ما تعلمته في الخارج خلال شهر واحد». الكلمات ذاتها تقريباً كتبها ليف لفوفيتش في رسائله من فنلندا والسويد.

بعد عودته من عند كومكوف، يشتهي كريوكوف ماتريونا من جديد،

ومن أجل قهر نفسه، يعزف على البيانو مقدمة شوبان. وبتأثير الموسيقى، التي تبرز في قصة تولستوي-الأب كعامل حافز للخيانة والقتل، هنا على العكس، يصحو عقل البطل. ويقرر كتابة رسالة إلى صونيا والذهاب إليها في المزرعة. «سأترك الجامعة، وأترك والديّ، أبي، وأمي، ومنزلي، لكنني سأتزوج من صونيا، مهما كلّف الأمر، وليعلم العالم كله بقراري!».

وعلِم العالم كله، أن ابن ليف تولستوي هو خصم فكري لأبيه. لقد حدثت، بالطبع، ضجة كبيرة! وأثناء نشره «مقدمة شوبان» في ثلاثة أعداد من الصحيفة الأدبية «نوفوي فريميا» (العصر الحديث) لم يدع سوفورين، رئيس التحرير، باعتباره صحفياً ذا خبرة، الفرصة تفوته، لإثارة اهتمام الجمهور. فكتب في تقديمه لها: «الكونت ل. ل. تولستوي - ابن كاتبنا الشهير، في قصته «مقدمة شوبان» يدعو لآراء مناقضة تماماً لآراء الكونت ليف تولستوي في «لحن كرويتزر». الأب ينظر هكذا، الابن ينظر بطريقة أخرى تماماً. جيلان، يناقض أحدهما الآخر في أهم قضية من قضايا الحياة وينكر أحدهما الآخر بصورة جذرية، دون أي تنازلات» («نوفوي فريميا» تاريخ 9 حزيران/ يونيو 1898).

لاحقاً، كتب ليف لفوفيتش أن قصة «مقدمة شوبان» كانت، من بين كل ما نشره، موضع الاهتمام الأكبر من جانب الجمهور والنقد. لكنه كان «نصراً مكلفاً».

لم تكن المشكلة في أنه لم يكن متفقاً مع آراء أبيه. كثيرون لم يكونوا متفقين مع آرائه. بل ومن الصعب القول من الذي كان متفقاً مع آرائه بشكل كامل باستثناء تشرتكوف. لكن ليف لفوفيتش حاول مجادلة أبيه على ساحة *النثر الأدبي الروائي*. وهذا كان خطأ كبيراً! فالضعف الروائي لـ «مقدمة شوبان» بالمقارنة مع «لحن كرويتزر» كان صارخاً، وواضحاً للعيان، بحيث منذ تلك اللحظة غدا تولستوي-الابن هدفاً لسهام النقد الروسي.

وقد سخر منه بورينين، أكثر النقاد موهبة، وأديب المحاكاة والتقليد الساخر. وفي سخريته من «مقدمة شوبان» وضع العبارة المقتبسة التالية:

لقد كتبت مُؤلَّفي الأول هذا...
كي أفتن به أوروبا يا سيدي...

وفي نقده الساخر ذاته يتحدث عن كاتبين روسيين «قريبين فيما بينهما، لكنهما بعيدان جداً من حيث الروح؛ أما من حيث نسبة الموهبة بينهما فتتمثل بنسبة «1000000 إلى 1». لكن الأكثر إساءة كان توقيع المقالة الساخرة: «تيغر تيغروفيتش (نمر نمروفيتش) الرضيع الصغير». ومنذ هذا الوقت وصم هذا اللقب إلى الأبد ابن تولستوي، وكان يؤذيه إلى أبعد الحدود.

مع ذلك، لم يكتف ليف لفوفيتش بإعادة إصدار هذه القصة الطويلة، بل جعلها عنواناً في مجموعات قصصه الأخرى («مقدمة شوبان» وقصص قصيرة. موسكو. 1900). وربما، إدراكاً منه، أن شهرة هذه القصة لا تعود إليه بل إلى أبيه، حاول في مقدمات طبعاته الجديدة تبرير ذلك:

«كتبت» مقدمة شوبان «قبل عدة سنوات، ومن واجبي أن أقول إنها كُتبت في البداية ليس كاعتراض على قصة «لحن كروتزر» مطلقاً، بل كمجرد تعبير عن أفكار كانت تشغلني بحماسة في ذلك الوقت».

لكن هذا كان تبريراً ضعيفاً. وكانت علامة سيئة أنه حاول تبرير ذلك عموماً. ذات يوم في رسالته إلى سوفورين عبّر ليف لفوفيتش عن فكرة غريبة جداً: وكأنه يأسف لأن قصة «لحن كرويتزر» قد كتبها أبوه بالذات «وليس شخصاً آخر ما». فعظمة أبيه كانت تعيقه عن مجادلته. حيث كان يسأل سوفورين: «هل من الضروري أن يفكر الابن بطريقة مماثلة لأبيه؟». إذن، كان على الأب أن لا يصبح كاتباً عظيماً كي يتمكن من مجادلته بهدوء؟

لقد وصلت أعداد مجلة «نوفوي فريميا» الأدبية إلى ياسنايا بوليانا في يوم احتفالي للأسرة. ففي 14 حزيران/ يونيو عام 1898 تم تعميد ليف الثالث – ليفوشكا الصغير. وقد شعر الزوجان ويسترلوند، القادمان من السويد، بالرعب من طقوس التعميد الروسية، عندما غطسوا الطفل الصغير من رأسه ثلاث مرات في الماء. وفي المساء نفسه، قرأت صوفيا أندرييفنا «مقدمة شوبان» وكتبت في يومياتها: «ليست لديه موهبة كبيرة، بل موهبة صغيرة، صادقة وساذجة...».

لم يخف الأب سخطه. «تحدث ليوفا عن قصته. أخبرته بصورة مؤلمة، أنه غير *حضاري* (المفضل لديه) ما فعله، هذا دون الحديث عن أن القصة

غبية وبلا موهبة. والآن سافر beaux parents حَمَواه الفظان وغير الحضاريين لكنهما الطيبان للغاية».

وهكذا، فإن «مقدمة شوبان» قد ترددت في ياسنايا بوليانا في جو عائلي مميز. إن محاولة ليف الشاب لبناء سعادته العائلية على خلفية «بؤس» أبيه؛ وولادة الابن الذي سموّه أيضاً ليف، وقدوم إرنست ويسترلوند، منقذ ليوفا، وكلمة الشكر التي كان على تولستوي أن يبديها له، وتعميد ليف -الحفيد... «كل هذا أنهى يوماً صغيراً جداً مع ليف نيقولايفتش»- كما تعترف صوفيا أندرييفنا في يومياتها.

غوركي

في 8 تشرين الأول/ أكتوبر عام 1900 زار ياسنايا بوليانا معبود المثقفين الروس الجديد مكسيم غوركي (ألكسي بِشكوف). وكان هذا لقاؤه الثاني مع تولستوي بعد لقائه الأول معه في كانون الثاني/ يناير من العام نفسه في موسكو، عندما خُدع تولستوي بالمظهر الخارجي لرجل نيجني نوفغورود الذي علّم نفسه بنفسه وبـ«لهجته» الشهيرة، وقرر أنه «رجل حقيقي من الشعب».

في هذه المرة لم يكن غوركي وحده، بل رافقه رئيس تحرير مجلة «جيزن» (الحياة) فلاديمير ألكسندروفيتش بوسي.

وكانت صوفيا أندرييفنا قد التقت ذات مرة بالشاب بِشكوف قبل تعارفه مع زوجها، عندما جاء سيراً على الأقدام إلى منزل تولستوي في خاموفنيكي من محطة السكة الحديدية غريازي - تساريتسينسكايا ليطلب من الكونت قطعة من الأرض والمال لأنصاره الشباب في الرأي. كان غوركي آنذاك طويل الشعر ويشبه كثيراً «الظلامي» («التولستوي»)، فلم يرق لزوجة تولستوي، وبعد أن قدمت له القهوة، أخرجته خارج المنزل، وقالت إن «كثيراً من العاطلين عن العمل» يفدون إليهم، وأن «روسيا، عموماً، تغص بالعاطلين عن العمل». وقد حفظ هذه الكلمات طيلة حياته.

لقد أدركت الآن أن الشخص الذي أمامها ليس «عاطلاً عن العمل» محتالاً، ولا «ظلامياً» بل شخص جاد، يجب أن يُحسب حسابه. وقامت هي

شخصياً بالتقاط صورة – هي الصورة الوحيدة التي يظهر فيها غوركي مع تولستوي. غوركي في معطف طويل، يستند إلى عكّازه، وتولستوي أخفى أصابعه في جيبي ثوبه التولستوي الطويل.

يكتب ليف لفوفيتش في مذكراته، أنه وجّه اللوم لوالدته على هذا التصرف، لكنها «لم تفهم أو لم ترغب بأن تفهم معنى لوْمي». وما معنى لومه؟ معنى لومه، أن أباه «كان يقف إلى جانب شخص غريب عنه من جميع النواحي، كما أنه لم يكن يحب كتاباته».

لم يكن تولستوي معجباً بغوركي – هذه حقيقة. ولكن من المضحك القول، إنه كان يغار من شهرته ككاتب، بيد أن هذه الشهرة كانت تثير حفيظة تولستوي. فقد أخذ يشعر أنه يفقد تأثيره على الشبيبة وأنها بحاجة إلى «قامات» أخرى أكثر راديكالية. لكن تولستوي لم ينكر قط موهبة غوركي. ولم يكن ليقول عن مؤلفاته، إنها «غبية وبلا موهبة». وقد قال هذا في وجه ابنه.

وفي مذكرات بوسي، التي نشرت في الحقبة السوفييتية، يظهر لقاء الكاتبين على نحو كأن تولستوي كاد أن يستعطف غوركي ويتملق له. «كان غوركي في ذلك اليوم في مزاج سيئ. لم يعجبه جَو ياسنايا بوليانا. وكان يشعر بهذا ليف نيقولايفتش، الذي بدأ يُعجب بغوركي أكثر فأكثر».

هذه مبالغة مفرطة. في ذلك اليوم زار تولستوي أشخاص مختلفون: دونايف مدير بنك موسكو التجاري، والكاتبة ليديا فيسيليتسكايا، وفاهان توتوميانتس عالم الاجتماع والاقتصاد، وغوركي، وبوسي، وغيرهم. وقد كتب في يومياته ما يلي: فيسيليتسكايا – «لطيفة جداً»، توتوميانتس «لطيف أيضاً»، بوسي وغوركي «أقل لطفاً».

لكن ليف لفوفيتش، وحتى إذا كان قد لام والدته آنذاك على الصورة، كان في البداية يقدر غوركي تقديراً عالياً. وعندما زار غوركي ياسنايا بوليانا مرة ثانية في 6 تشرين الأول/ أكتوبر عام 1902، وعلم ليف لفوفيتش بذلك، كتب لأمه مضطرباً: «لقد حضر لعندكم غوركي، كما يبدو، فلماذا لم تكتبي شيئاً عنه؟ هل قرأتِ مسرحيته (على الأغلب «في القاع» –*المؤلف*)؟ وهل أعجبتكِ».

في العام نفسه، كتب يخبرها من بطرسبورغ: «اليوم سأذهب لمشاهدة مسرحية «ضيقو الأفق البرجوازيون» لغوركي، التي سمحوا بعرضها أخيراً. وقال غوركي المسكين، إن سلوك الأكاديمية معه غير مهذب وغبي»[1].

وكتب لها أيضاً: «إذا ما رأيت تشيخوف وغوركي انقلي تحياتي لهما. أنا أحبهما كليهما...».

ولم يعرف هذا المعجب المسكين ماذا كتب غوركي لتشيخوف، عند عودته من ياسنايا بوليانا في تشرين الأول/ أكتوبر عام 1900: «لم يعجبني ليف لفوفيتش. إنه غبي ومتكبر. مذنّب صغير ليس له مسار معين، وهو أكثر تفاهة أمام نور تلك الشمس التي يدور من حولها».

دراما القرم

في أيلول/ سبتمبر عام 1901 نُقل تولستوي إلى شبه جزيرة القرم، إلى منزل الكونتيسة بانينا، الكبير والمريح في غاسبرا. في البداية كان يشعر بنفسه أنه في حالة جيدة... في الطريق إلى غاسبرا توقفوا في سيفاستوبول في فندق كيستا. زار تولستوي متحف الدفاع عن سيفاستوبول، ووقّع في سجل ضيوف الشرف. في غاسبرا قام بجولات على ظهر الخيل في آليز، وآلوبكا، وسيميز، وآي - تودور. وقد زاره تشيخوف وغوركي، وبالمونت الذين كانوا يستجمون في شبه جزيرة القرم. وجاء إلى القرم ابنتاه الحاملتان ماشا وتانيا مع زوجيهما، وجاء ابنه أندريه مع زوجته أولغا، الحامل أيضاً. وجاء ابنه سيريوجا لزيارة أبيه.

في ليلة 12 تشرين الأول/ نوفمبر أنجبت تاتياناً طفلاً آخر ميتاً. في بداية

1- في شهر شباط/ فبراير عام 1902 مُنح غوركي من أكاديمية العلوم لقب «عضو الأكاديمية الفخري» من فئة العبارة الرشيقة. ولكن في شهر آذار/ مارس نُشر خبر في «النشرة الحكومية» يقول إن التصويت يعتبر ملغياً. لقد أثار رفض منح غوركي لقب «عضو الأكاديمية الفخري» الغضب بسبب انتمائه السياسي. وتعبيراً عن احتجاجهما على هذا القرار، أعلن تشيخوف، وكورولنكو في الصحافة عن تخليهما عن لقب «عضوية الشرف» في الأكاديمية. لكن تولستوي، الذي يعتبر أيضاً عضو شرف في الأكاديمية، لم يفعل ذلك. -المؤلف.

شهر كانون الأول/ ديسمبر ورد خبر عن ولادة طفل سليم معافى لدى ابن ميشا ولينا. وفي كانون الثاني/ يناير عام 1902 أنجبت أولغا زوجة أندريه ابناً ميتاً. ولكن بحلول ذلك الوقت، انتقلت جميع الأحداث العائلية إلى الخط الثاني من الاهتمام. ففي شتاء عام 1902، كان تولستوي نفسه يحتضر من التهاب القصبات.

تكتب صوفيا أندرييفنا في يومياتها: «إن حبيبي ليفوشكا يحتضر... وقد أدركت أن حياتي لن تبقى في داخلي بدونه. هذا هو العام الأربعون الذي أعيشه معه. هو للجميع شخص مشهور، أما بالنسبة لي فهو كل وجودي وكينونتي، حياتانا سارتا الواحدة مع الأخرى، ويا إلهي! كم تراكم من الذنوب والندم... كل شيء قد انتهى، الماضي لن يعود. ساعدني، يا رب! كم من الحب والحنان أعطيته، ولكن كانت تضايقه نقاط ضعفي! اغفر لي، يا رب! سامحني، يا زوجي الحبيب، العزيز!».

منذ شهر كانون الأول/ ديسمبر عام 1901 شعر تولستوي بقرب موته. أصبح غير مبال بكل ما يحيط به. لكن زوجته فهمت هذا أولاً بطريقتها الخاصة: «حدث مع ليف نيقولايفتش بالضبط ما تنبأت به: عندما توقفت، بسبب هرمه، علاقته بزوجته كعلاقته بعشيقته (حدث هذا منذ فترة قريبة جداً)، ظهر مكانها ليس ما كنت أحلم عبثاً طيلة حياتي - صداقة هادئة لطيفة، بل ظهر فراغ كامل. صباحاً ومساء كان بارداً، يحييني ويودعني بقبلة مفتعلة؛ ينظر إلى الرعاية والعناية به كشيء مطلوب، ينزعج غالباً وينظر بلا مبالاة إلى الحياة المحيطة به، وشيء واحد يقلقه، ويهمه، ويعذبه: *الموت*، من الناحية المادية، وعمله، من الناحية الروحية.

هاتان الناحيتان اندمجتا عنده في كل واحد. في نهاية عام 1901، يكتب في يومياته عدة أفكار حول الموت.

«عندما يتدفق تيار الماء بانتظام، يبدو كأنه واقف. وهكذا يبدو الأمر مع حياة الإنسان والحياة عامة. ولكن عندما تدقق النظر، تلاحظ أن تيار الماء لا يتوقف، بل يتدفق، عندما يضعف وخاصة عندما يتحول إلى قطرات، وكذلك هي الحياة».

«أتمنى، حين سأموت، لو يسألوني: هل لا أزال أفهم الحياة كما كنت

أفهمها، على أنها اقتراب من الله، وزيادة في المحبة... إذا لم تكن عندي القوة للحديث، أي الإجابة بنعم، فسأغمض عيني، وإن كانت الإجابة لا، فسأرفعهما إلى الأعلى».

«كل إنسان مقيّد في وحدته ومحكوم عليه بالموت. <<عش بمفردك لسبب ما، برغبات لم تتحقق، ابذل جهدك ومُتْ!>> إن هذا فظيع! والخلاص الوحيد -هو إخراج «الأنا» من ذاتك، ومحبة الآخر. وعندها، بدلاً من الرهان الواحد، رهانان، وفرصة أكبر. والإنسان بصورة لا إرادية، في سعيه إلى هذا، يحب الناس. لكن الناس بشر، مصيرهم الموت، وإذا كان الحزن في حياة شخص أكثر من الفرح- فكذلك الأمر في حياة الآخرين. ولهذا فالوضع كله ميئوس منه. والعزاء الوحيد أن الموت جميل في العالم. كان من الممكن أن يكون الخلاص في محبة الخالد - محبة الله. وهل هي ممكنة؟».

تصل برقية من بطرسبورغ إلى صوفيا أندرييفنا من المطران أنطونيوس (فادكوفسكي) العضو القيادي في السينودس يرجوها فيه أن تقنع زوجها بالمصالحة مع الكنيسة الأرثوذكسية. يملي تولستوي في البداية على زوجته الرفض، ثم يقول لابنته تاتيانا بأن لا تجيب على الإطلاق على برقية أنطونيوس.

يفد إلى غاسبرا جميع أبنائه، كي يروه، وربما كي يودعوا أباهم. وبحسب ذكريات إيليا لفوفيتش، لم يحصل أي وداع. «عندما شعر بنفسه ضعيفاً، رغب بأن يودع الجميع، وأخذ يدعونا لعنده بالدور، واحداً إثر آخر، وقال لكل واحد وصيته.

كان ضعيفاً جداً لدرجة أنه كان يتكلم همساً، وبعد وداعه لأحدنا كان يرتاح بعض الوقت ويستجمع قواه.

عندما جاء دوري قال لي تقريباً ما يلي: «أنت ما زلت شاباً، ممتلئاً وغارقاً بالعواطف والشهوات. لهذا أنت لم تتمكن بعد من التفكير بالمسائل الرئيسة في الحياة. لكن سيأتي هذا الوقت، وأنا متأكد من ذلك. عندها لتعرف أنك ستجد الحقيقة في تعاليم الإنجيل. أنا أموت مطمئناً لأنني أعرف هذه التعاليم وأؤمن بها. فليساعدك الله على فهم هذا بأسرع وقت ممكن. وداعاً».

قبلت يده وغادرت الغرفة بهدوء.

عندما وجدت نفسي على الشرفة، هرعت مندفعاً إلى البرج الحجري المنعزل وهناك في الظلام، انفجرت بالبكاء كطفل...

عندما نظرت من حولي، رأيت أن بالقرب مني كان يجلس شخص ما على السلم، ويبكي أيضاً...».

كما وصل ليف لفوفيتش. ولكن قبل وصوله كتبت صوفيا أندريفنا في يومياتها كلمات غريبة: «صدرت عن الناشر ياسينسكي رواية ليوفا؛ أخشى قراءتها...».

إنها كانت رواية «البحث والمصالحة» التي نشرت طيلة عام 1902 في الأعداد من 1 إلى 12 من مجلة «يجيميسياتشني سوتشينيني» (المؤلفات الشهرية). وكان لدى الكاتب والصحفي الغزير الإنتاج، إيورونيم إيورونيموفيتش ياستينسكي سمعة سيئة في الأوساط الاجتماعية. حيث بدأ، كليبيرالي، متعاوناً مع مجلتي «فيستنك أوروبـا» (أخبار أوروبا) و«أتيشيستفينّي زابيسكي» (الكتابات الوطنية)، ثم برز في روح «محافظة»، وبعد الثورة قام بتحرير المنشورات الشيوعية. وكان اختياره بصفة ناشر اختياراً لمصلحة الفقراء. وقبل هذا، كان قد رفض نشر روايته كل من ستاسيوليفيتش («فيستنك أوروبا» -أخبار أوروبا)، وكورولنكو («روسكوي بوغاتستفو»- الثروة الروسية)، وحتى سوفورين الذي أحبه («نوفوي فريميا» - العصر الحديث).

كانت الرواية عبارة عن جدال متعدد الصفحات لليف لفوفيتش مع أبيه، كما أنها موقعة باسم أدبي جديد: «الكونت ليف تولستوي-الابن».

لم يسع ليف لفوفيتش إلى تأكيد علاقة بُنوَّته بموضوع الجدل. لقد أخذ الاسم الأدبي الجديد بدافع الضرورة - بعد أن أصبحت بعض مقالاته الموقعة باسم «ل. ل. تولستوي» تُقتبس ويعاد طباعتها من قبل دور النشر الريفية في المقاطعات على أنها مقالات الأب. وقد ألغى توقيع «الكونت ليف تولستوي-الابن» هذه المشكلة. لكنه خلق مشكلة أخرى أكثر صعوبة. فسواء أراد ذلك ليف لفوفيتش أم لم يرد، لكن روايته الأولى، مثلها مثل قصته «مقدمة شوبان»، استقبلها الجمهور على أنها استعراض *للخلافات*

العائلية داخل أسرة آل تولستوي. ونتج، أن الإنسان الذي يفتح للعالم كله طرقاً جديدة من الإيمان، لا يلقى دعماً داخل أسرته. فما هذا المعلم الذي يهرب منه أبناؤه؟

وتفاقم الوضع نتيجة حرمان تولستوي من الكنيسة، فانقسم المجتمع إلى معسكرين، متناقضين، لكنهما كلاهما كانا مسرورين من هذا الحرمان. المعسكر الأول (معظمهم من الشباب الراديكاليين) هنأ تولستوي بأنه قطع صلته نهائياً مع الكنيسة الرجعية وانضم إلى حركة التحرر. والمعسكر الآخر (أشخاص أرثوذكسيون ليسوا أقل راديكالية) ابتهجوا لأن «المسيح الدجال» في شخص تولستوي قد وُسم بعمل كنسي حازم.

وكان تولستوي قد أرسل رسالة في شهر آذار/ مارس عام 1901 إلى «القيصر وأعوانه»، عرض فيها الإصلاحات الاجتماعية، والسياسية، والكنسية الأكثر حسماً: القضاء على عدم مساواة الطبقات في الحقوق، إعادة التنظيم الكامل للمدارس والتعليم العالي، حظر العقوبة الجسدية، حرية الاجتماعات والمواعظ الدينية لجميع العقائد. هذه الرسالة لم تنشر بالطبع في روسيا، لكنها كانت تنتقل من يد إلى يد، وفي المنشورات الأجنبية.

وفي المقابل، حظرت الحكومة نشر أي تقارير وأخبار عن الحالة الصحية لتولستوي في القرم.

إن ظهور رواية «البحث والمصالحة» في هذا الجو العام المتوتر، لم يكن من الممكن اعتباره سوى «*طعنة في ظهر*» أبيه. وبعبارة معاصرة، أصبح شخصية «غير مرحب بها» لمحبي **تولستوي**. وبين هؤلاء المحبين، كان هناك شخصيات اجتماعية وأدبية مؤثرة. ففعلة ليف لفوفيتش هذه أثارت حفيظة تشيخوف وغوركي.

ففي نهاية عام 1902 أوقف غوركي عملياً الأوكسجين عن ليف لفوفيتش بضغطه بنفوذه على رئيس تحرير مجلة «مير بوجيي» (عالم الآلهة) فيودور دميتروفيتش باتيوشكوف، الذي أراد نشر رواية ليف لفوفيتش الجديدة «إيفان سافين». وقد كتب غوركي صراحة للمؤلف الغاضب: «حقيقة أنك وجدت من الممكن نشر روايتك في المجلة، حيث بخصوص رواية «البعث» لأبيك العظيم كتبوا الرجاسات (المقصود رواية «البحث والمصالحة») ومجلة

ياسينسكي -*المؤلف*)، قد غرست في نفسي للأبد موقفاً سلبياً منك، كإنسان. لقد قرأت روايتك، وأسمح لنفسي أن أنفي فيك وجود أي موهبة أدبية».

اعتبر ليف لفوفيتش تصرف غوركي بمنزلة «حقارة» وكتب لأمه عنه: «إنه ماكر وممثل». كما اشتكى لأبيه. «أستغرب أن يتصرف غوركي معي على هذا النحو...» («تجربة حياتي»).

في شهر آب/ أغسطس عام 1903 توجه ليف لفوفيتش إلى تشيخوف، طالباً منه أن يقرأ رواية أخرى له، أعدها لمجلة «روسكايا ميسل» (الفكر الروسي). أجاب تشيخوف برفض مهذب وفاتر. وفي شهر تشرين الأول/ أكتوبر من العام نفسه، عندما كان ليف لفوفيتش مسافراً عبر يالطا، زار تشيخوف الذي كان ينوي معه ذات مرة السفر إلى أمريكا. وبحسب الرسالة التي أرسلها تشيخوف إلى أولغا ليوناردوفنا كنيبر، كان اللقاء في البداية متوتراً للغاية: «كنت معه في البداية فاتراً، ثم أصبحتُ أكثر طيبة، وبدأت أتحدث معه بصدق؛ فتأثر للغاية...».

كان نشر رواية «البحث والمصالحة» غير مفيد للمؤلف من جميع النواحي. وكان ذكياً بما فيه الكفاية، كي يفهم هذا. ولو قرر هذا فإنه على الغالب كان مدفوعاً باعتبارين. الأول: رغبته الشديدة بأن يصبح كاتباً! والثاني: أنه لم يكن يرغب أن يأخذ في اعتباره أنه ابن ليف تولستوي. وأخيراً: لماذا لا نعترف، بأن ليف لفوفيتش كان يرى صادقاً أن أفكار أبيه ضارة لروسيا؟ وخاصة للشبيبة. فهو نفسه قد مر بهذه التجربة الأليمة.

في 12 شباط/ فبراير عام 1901 كتب لسوفورين بخصوص رواية «البحث والمصالحة»: «أتابع طرْق الأبواب، وأتابع الطلب كي يفتحوها أمامي. إنني أحمل العبء الذي قد يبدو للآخرين بلا قيمة، لكنه عزيز عليّ. ومن يقرع الأبواب، ستُفتح أمامه عاجلاً أم آجلاً. *أنا لا أتطلع لأكون مثل أبي. أريد أن أكون أنا كما أنا*».

للأسف، لم يحصل كما يريد. فالرواية كلها كانت تبوح بتبعيته لأبيه، وخاصة في المواضع التي كان يجادله.

بطل الرواية الرئيس كوليا غليبوف - تلميذ ثانوية نجح في امتحانات الصف الثامن ويذهب إلى عقار والديه. إنه فتى معقد، يمر في تجارب

أخلاقية. وكان قد قرأ مؤلفات تولستوي، وقد «أثّرت فيه بقوة، لدرجة أنه قرر ذات مساء ترك الثانوية والهروب إلى القرية، والعمل بنفسه مع الشعب، والعيش حياة مسيحي حقيقي. لكنه لم يفعل هذا. فقد أدرك أن هذا الفعل لن يكون فعلاً ذكياً ولا مفيداً، لا بالنسبة له ولا بالنسبة للآخرين».

يفد إلى عقار آل غليبوف «التولستَوي» إيفان إيفانوفيتش فورونين. والدة كوليا لا تحب «تشدقات» فورونين. وهي، عموماً، لا تحب «التولستَويين».

يحل ضيفاً على آل غليبوف الشاب بوريس سلافين، الذي يحب فاريا، شقيقة كوليا. بالأمس القريب، كان بوريس يمارس حياة فاسدة، متهتكة، وقد عدّل سلوكه الآن. بوريس لا يحب تولستوي-الفيلسوف، لكنه يحب تولستوي-الكاتب الروائي. مكتبة سُر مَن قرأ

ويصرّح سافين: «إنه (يقصد تولستوي-*المترجم*) يدلي بحقيقة واحدة، ويقفز إلى حقيقة أخرى، كان قد اعترف بها في وقت سابق. إنه غير متسق ومتناقض. إنه في بعض الأحيان قوي بشكل رهيب... لهذا فإن تولستوي-الروائي هو معلم أكثر مما هو تولستوي-المفكر».

ذهب كوليا مع فاريا إلى فورونين في القرية. فورونين-رسام، يرسم «الطبيعة» والناس البسطاء. والدته «العجوز فورونينا»، فرنسية من حيث الأصل. بعد عودتها من نزهتها، قالت «بصوت غير طبيعي» إنها رأت غرباء، جوّالين يذهبون إليهم. وتقول: «إنهم ظلاميون، داكنو البشرة». يصيح فورونين مستغرباً: «كيف يمكن تسميتهم ظلاميين، داكنين، يا عزيزتي! آه، هذا صحيح، إنهم أصدقاؤنا، قادمون مباشرة من ياسنايا بوليانا...».

أهم هؤلاء الظلاميين الداكنين - فاسيلي أندرييفيتش دريوغين وزوجته ماريا ستيبانوفنا بيليافسكايا (أي أنهما غير مكلّلين). وهما لا يروقان لكولا وفيرا، ولا يروقان لـ«العجوز فارونينا»، لكنهما محبوبان جداً من جانب فورونين وشقيقة والدته صوفيا ألكسندروفنا. وهكذا فإن «الظلاميين» يقسمون الناس، ويحدثون الارتباك والاضطراب في منازل الآخرين.

بطل الرواية الرئيس-هو بالطبع ليف لفوفيتش نفسه. وقد كرس عدة فصول لعمل غليبوف في مكافحة المجاعة بين الفلاحين، ولخدمته القصيرة في الجيش في «تسارسكوي سيلو» (القرية القيصرية)، وإعفائه من أداء

القسم ومن الخدمة العسكرية. ثم يبدأ الإرهاق العصبي، والسفر إلى الخارج والعلاج. بعد أن عالج أعصابه، وتخلص من «التولستَوية»، يبدأ نيقولاي بإدارة المزرعة في دولغوي. ويتطابق اسم هذه المزرعة تماماً مع اسم مزرعة الإقطاعي غوروخوف التي تبعد سبعة عشر كيلومتراً عن ياسنايا بوليانا. وإلى هنا بالذات نُقل منزل أسلاف تولستوي-الأب، بشكل مفكك، عندما باعه في شبابه وخسره أثناء لعبه في الورق. وبالطبع لا يعرف القارئ العادي هذا، فلماذا أراد ليف لفوفيتش أن يستقر بطله هناك بالذات، حيث في أثناء كتابة الرواية كان هناك منزل (بلا ملاّك) كان قد خسره أبوه يوماً ما.

تختلف إدارة غليبوف لمزرعة دولغوي اختلافاً جذرياً عما كان يجري في ياسنايا بوليانا. يعاقب غيلبوف الفلاحين بشدة، طارداً قطعانهم من مراعيه. وهو يعتبر هذا عادلاً. إنه لا يعتقد أنه يعيش في رفاهية. يفكر في نفسه باهتمام: «إلى أي شيء أحتاج؟ لا شيء مميز. أنا أشرب الشاي، والفلاحون يشربون الشاي. أكثر ما أحبه البطاطا والخيار، وهذه مفيدة لي – وهي متاحة للفلاحين. أما حقيقة أنهم يعملون عملاً جسدياً، فهم أكثر سعادة مني». لكنه خلال ذلك ينسى رحلته إلى المصيف الفرنسي.

قبل الزواج من الفتاة التي يحبها، يصوم نيقولاي ويتذكر رواية «آنّا كارينينا». «لقد تحدث مع الكاهن بصورة لا إرادية، تماماً تقريباً، كما تحدث ليفين في الرواية». وحديثه مع الكاهن هذا أنقذه بصورة نهائية من «التولستَوية».

تأتي إلى قرية دولغوي أولغا بيتشنيكوفا، الفتاة التي كان يحبها نيقولاي في وقت ما في موسكو. فيخبر زوجته بذلك: «هذا جرح مازال يؤلمني... وقد جاءت هذه المرأة من أجل تعكير صفو حياتنا». هتفت الزوجة، مكررة بالضبط سلوك كيتي عند قدوم آنّا كارينينا إلى ليفين (في رواية «آنا كارينينا» -*المترجم*): «كيف تجرؤ على القدوم إلى بيتي؟ هذه المرأة الشريرة، المقرفة؟! اطردها الآن! أتفهم، أنا أطالبك. الآن، الآن، اذهب واطردها، ليلاً ولترحلْ من هنا!».

حصل نيقولاي على مزرعة دولغوي نتيجة اقتسام ممتلكات الأب. وموقف البطل من الملكية بسيط للغاية. «من المستحيل عدم استخدام

الملكية الشخصية، لأن هذا يعني أنك لن تعيش». «إذا ما أعطيت 1000 هكتار للفلاحين، سأبقى تقريباً بدون دخل». عموماً، جميع أفكار غليبوف صحيحة، لكنها مبتذلة...

على سبيل المثال: «إن الإنكار الكامل لأشكال الدولة والدين لا يؤدي إلى الخير ولا إلى تحسينها». إذا كان هذا جدالاً مع الأب، فإنه على المستوى الضيق المحدود. وهل كان هذا الأمر يستحق بذل هذا الجهد وكتابة رواية كبيرة؟ هذه الرواية، التي تكرر فصولها الأخيرة بشكل كامل الجزء الأخير من رواية «آنّا كارينينا»، الذي يتحدث عن حياة ليفين في القرية، وعن آرائه في الحياة، وفي الشعب، وفي الدين. وكأن الابن هنا، يذكّر أباه بقناعاته السابقة التي ربّى عليها أبناءه *الكبار*، ومن ثم تخلى عنها. وكان هذا نوعاً من اللوم لأبيه. ولكن لماذا؟ ومن أجل ماذا؟

ويغدو مفهوماً، لماذا كانت صوفيا أندرييفنا «تخاف» قراءة هذه الرواية. ولكن في الواقع، كانت رواية «البحث والمصالحة» قد قُرئت في أسرة آل تولستوي قبل أن تطبع، على شكل مخطوطة. في 3 كانون الأول/ ديسمبر عام 1901 كتبت أولغا كنة تولستوي لأختها من غاسبرا: «البارحة مساءً، تأسف ليف نيقولايفتش وامتعض كثيراً من كتابة ليوفا، وانعدام موهبته... وقريباً في مجلة مكسيم بيلينسكي (وهو لقب إيورونيم ياسينسكي -*المؤلف*) ستنشر رواية ليوفا التي يصور فيها، كما أُعلن، «التولستَوية». يجب أن تكون تلك الرواية التي تحدث عنها ليوفا قبل عامين. وقد كان يريد أن يسميها «أقوال وأفعال» وأن يصور ليف نيقولايفتش ووالد دورا. إن هذا أمر بعيد جداً عن اللباقة وغبي جداً إذا كانت كذلك. إن ليوفا غريب جداً، ومثير للشفقة، عديم الحساسية، لكنه صادق ومؤثر أحياناً. قال لي ذات مرة، إن شهرته ستتجاوز شهرة أبيه. يا للغرابة!».

أثارت رواية «البحث والمصالحة» غضب تولستوي. وفي 6 تشرين الثاني/ نوفمبر 1901 كتب لأخيه الكبير سيرغي نيقولايفتش: «ليوفا – ابني يعلمني الخير والطيبة، على الرغم من الألم الذي سببه لي بكتاباته السخيفة، الخالية من الموهبة وغير اللائقة».

وقد أشار سوفورين لليف لفوفيتش إلى عدم لباقة سلوكه، أثناء قراءة

مخطوط روايته: «لماذا تتحدث باستمرار عن التولستَويين في روايتك؟ ينتج شيء ما غريب: ابن تولستوي يتحدث عن التولستَويين».

عند قدومه في 29 كانون الثاني/ يناير عام 1902 إلى غاسبرا، إلى أبيه المصاب بمرض عضال، قام ليف لفوفيتش بتصرف غير لائق على الإطلاق. وهو لا يتحدث عنه في مذكراته، لكن حقيقة أنه لم يورد أي ذكر لزيارته لشبه جزيرة القرم في ذكرياته تدل على الكثير.

وقد جاء في يوميات غولدنفيزر، من خلال أقوال الآخرين حقيقة، أن قدوم ليف لفوفيتش إلى غاسبرا وحديثه مع أبيه قد اختتما بفضيحة. «عندما دخل إلى ليف نيقولايفتش، قال له أبوه، إنه من الصعب عليه الكلام، وإن كل ما يفكر فيه ويشعر به قد كتبه في رسالته هذه، وسلّم الرسالة لابنه. قرأ ليف لفوفيتش الرسالة على الفور، في غرفة ليف نيقولايفتش، ثم خرج إلى الغرفة المجاورة وأمام أعين كل من كان يجلس فيها –بالمناسبة كانت الكونتيسة صوفيا أندرييفنا تولستايا– مزق رسالة الأب، أبيه الذي كان على فراش الموت، إلى قطع صغيرة، ورماها في سلة المهملات».

وسواء أحدث هذا أم لا، ولكن في 2 شباط/ فبراير غادر ليف لفوفيتش غاسبرا، مدركاً ذنبه على الغالب، ومزاج الأسرة غير الطيب تجاهه. وبعد وصوله إلى بطرسبورغ، كتب لأمه: «بودي أن أقول الكثير لكم جميعاً ولأبي، إذا كان قادراً على الاستماع إليّ. لقد شعرت بالألم الشديد –اقرئي له هذا– لأنني أزعجته بروايتي... قولي له، إنني أحبه، وأقبل يده، واطلبي منه أن يسامحني لأنني أزعجته. لقد فعلت ذلك عن غير قصد، رغبةً بأن أكون صادقاً مع نفسي. إنني لست غريباً أبداً عن أبي، لكنني فقط مختلف معه في العمر. أما في روحي فأنا أقرب إليه بكثير مما يظن. بالطبع، أنا قد أصبحت قبيحاً، مادياً، أسوأ مما كنت، لكنني ما زلت آمل بأن أصبح أفضل، إذا ما ساعدني الله».

وهكذا، مرة أخرى مزق الأسدان (ليف الكبير وليف الصغير) صوفيا أندرييفنا إلى أجزاء. بعد أن استلمت رسالة الندم والتوبة من ليوفا ردت عليها على الفور: «استلمت اليوم رسالتك المؤثرة التي تعلن فيها ندمك وتوبتك وحدثت أباك عن مضمونها، وسأسارع لأخبرك بما سيحصل. لكنه

اليوم ضعيف جداً، وكان يعاني طيلة الليل من بطنه ومعدته ولم يعرف طعم النوم. وكان يرد على كلماتي بالتمتمة والإغفاءة. إذا ما شعر بتحسن، سأقرأ له رسالتك وأسأله الجواب والصفح. لقد أصبح نحيفاً جداً، وأنا أرتجف عندما ألمس عظامه المتهالكة، وأرفعه، وأقلب جسده النحيف، المريض، الذي كان يوماً ماً قويّاً وضخماً... لا تحزن يا عزيزي ليوفا، وهو لا يكنّ لك الشر، صدّقني، إنه يدرك جيداً بقلبه الحساس أنك تحبه وأنك نادم لأنك سببت له الألم...».

في 10 شباط/ فبراير شعر تولستوي بتحسن، وأملى في دفتر ملاحظاته مسودة جوابه على رسالة ابنه: «آسف، لأنني قلت كلمة أزعجتك. لا يمكن للإنسان أن يكون غريباً عن الآخر، وخاصة عندما يكون مرتبطاً به بصلات القرابة مثلي أنا وأنت. ولا مجال لأي حديث بالطبع عن الصفح».

والعبارة الأخيرة تعني على الغالب، أن الأب لا يمكنه أن يغفر لابنه لأنه لا يشعر بذنبه. لكنها كانت عبارة فاترة للغاية!

بعد أن حصل على «الغفران»، شعر الابن بـ«السرور» وكتب له: «أبي الحبيب، البارحة لم أعبر في رسالتي إلى ماشا عن كل ما شعرت به عندما استلمت رسالتك. لقد أسرتني كثيراً وحمّستني. أنا لا أستحق حبك، ولكن إذا كان موجوداً حقاً نحوي، فأنا سعيد. وحقيقة أنني اضطربت وتحمست على هذا النحو عندما رأيت توقيعك من جديد، أقنعتني بمدى معزتك الكبيرة في نفسي...».

وفي 12 أيار/ مايو عند توجهه من بطرسبورغ إلى السويد مع زوجته، التي سوف تلد مولوداً آخر، كتب لأبيه في غاسبرا: «وداعاً، يا أبي العزيز. أعانقك وها أنا الآن وحيداً أبكي في غرفتي، وأشعر بشوق شديد إليك وأحبك حباً جماً».

بفضل رعاية أسرته اليقظة، تمكن جسم تولستوي من التغلب على الالتهاب الرئوي. ولكن في بداية أيار/ مايو عام 1902 ظهرت عنده حمى التيفوئيد. وأصبحت حياته من جديد معلقة على شعرة. ولسبب ما رفض تولستوي إظهار رسالة ابنه لصوفيا أندرييفنا. فشكّت في الأمر شيئاً، وكتبت لابنها ليوفا: «انطلاقاً مما كتبته لي، أنت عصبي وتنرفز كثيراً، وما الذي

ينقصك؟ تعيش كما تريد، زوجة رائعة حبيبة، طفل رائع. طلباتك من الحياة أكبر من إمكانية تلبيتها».

لقد كانت هذه حقيقة صادقة. مثلها مثل ما كتبته في يومياتها عن زوجها أثناء مرضه الثاني في القرم: «إن ليف نيقولايفتش، هو كاتب بادئ ذي بدء، طارح للأفكار، لكنه في الواقع وفي الحياة هو إنسان ضعيف، أضعف منا بكثير، نحن الناس البسطاء العاديين».

عثر على عدو

مع انتقاله إلى بطرسبورغ، ظهرت أمام ليف لفوفيتش كل الفرص كي يصبح أحد الناس - البشر السعداء. وليكن أنه ليس إنساناً عظيماً كأبيه، وليس الأكثر شهرة، ولكنه إنسان محترم.

ويكتب في «تجربة حياتي» عن السنوات الأولى من إقامته في بطرسبورغ: «كانوا يقبلون مقالاتي وقصصي ويدفعون لي مكافآت كبيرة جداً لقاءها. كنت أحب رؤيتها منشورة، وأحب الكتابة، عندما كان يبدو لي أنه كان لديّ ما أقوله».

كانت موهبته ظاهرة ككاتب للأطفال وكاتب اجتماعي. فكتاباه، وهما عبارة عن مجموعة من المقالات والخواطر والانطباعات عن المجاعة وعن السويد، لقيا استحساناً من جمهور القراء. فهما يحتويان على الكثير من الملاحظات الدقيقة، والأفكار الشيقة، وكُتبا، خلافاً للروايات، بأسلوب حي ومثير. ولهذا ربما كان من الممكن أن نغفر للمؤلف بعض تكلّفه، ولهجته التعليمية التي تكشفه عن أنه ابن أبيه... كما كان يدرك.

في «رسائله» السويدية التي نشرت، قبل أن تصدر كتاباً مستقلاً في عام 1900، طيلة عامين في صحيفة «سانت - بيتربورغسكيي فيدومستي» (أخبار سانت بطرسبورغ)، وإلى جانب إلقاء الأضواء على الحياة والفن السويدي والثقافة السويدية التي لا يعرف عنها الروس إلا القليل، ترد أفكار وتأملات دقيقة عن روسيا، قد لا تكون سارة جداً بالنسبة لنا، لكنها عموماً صحيحة من حيث المبدأ.

«أنا لا أعرف كيف بالنسبة لشخص آخر، لكنني شخصياً لا أستطيع قطعياً

أن أعيش في روسيا، وخاصة في مكان واحد، في قرية، عامين متتاليين، دون أن ينحف جسمي وتضعف طاقتي. ثمة شيء قدري قاتل في فضائنا الروسي، في كامل بنية حياتنا، بحيث إننا نهرم قبل الأوان، شيء ما يأكلنا، بحيث يضع تجاعيده المبكرة على الجبين والقسوة الباردة في قلوبنا».

كان هذا مثيراً للجدل في أسرة آل تولستوي. وقد كتبت صوفيا أندرييفنا لابنها: «حبيبي ليوفا، قرأت للتو في «بيتربورغسكيي فيدوموستي» رسائلك من السويد، وقد أعجبتني جداً. قرأناها جميعاً بصوت عال: سيريوجا، أبوك، أندريه وميشا، تانيا، ساشا، أولغا. وقالوا إنها مثيرة للاهتمام، لكنهم قالوا، من العبث أن تكتب أن الأشخاص الطيبين لا يمكنهم العيش في روسيا، وأنك غادرت روسيا لأنك طيب».

وقرأ تشيخوف كتاب ليف لفوفيتش عن السويد، ولم يقبل بكل شيء فيه. وقد بدت لتشيخوف أفكار المؤلف السلبية عن الكاتب السويدي أغسطس ستريندبيرغ، الذي اتهمه بـ «عدم الصدق» و«التهور» و«عدم التوازن» لإنكاره قداسة الزواج، وعارضه بالكاتبات السويديات، اللواتي يعتقدن أن «الزواج يمكنه ويجب أن يكون سعيداً» - بدت لتشيخوف شبيهة بكتاب ناديجدا لوخمانوفا: «سبب النزاع الأبدي بين الرجل والمرأة» (موسكو-1901) حيث اتهمت الرجال بـ «الفجور الأخلاقي»، ورأت في النساء «حاجة غريزية إلى الطهارة».

وبشكل أو بآخر، كان تشيخوف يتابع كتابات ليف لفوفيتش الصحفية. وكان موقفه إيجابياً بصورة عامة من مقالته-القصة «العالم أحمق» الموجهة ضد المشاعية الفلاحية. وكتب تشيخوف لسوفورين: «قرأت قصة «عالم أحمق» لليف لفوفيتش. بنية القصة سيئة، كان الأفضل له أن يكتب مقالة صريحة، لكنه يعالج الفكرة بصورة صحيحة وحماسية. أنا نفسي ضد المشاعية. المشاعية مفيدة عند التعامل مع الشدائد الخارجية، والغزوات الخارجية المتكررة، وكذلك عند التعامل مع الحيوانات البرية المتوحشة، أما الآن -حشد، مكبل بصورة مصطنعة، مثل حشد من المساجين... وبهذه المناسبة، إن إدماننا على الكحول على الصعيد الوطني والجهل العميق- هما من آثام المشاعية».

في الوقت نفسه، كان موقف ليف لفوفيتش المعادي للمشاعية معارضة

للمثل العليا لوالده الذي كان يرى، إثر غيرتسين، في المشاعية الفلاحية عناصر الاشتراكية الروحية.

قبل بداية الحرب الروسية–اليابانية، كان من الممكن تحديد موقف ليف لفوفيتش *بالموقف المحافظ المعتدل* من الاتجاه الغربي. كان نصيراً متحمساً للإصلاحات الاجتماعية–السياسية على الطريقة الأوروبية، مع مراعاة الخصائص الوطنية الروسية والموقف المحافظ على مؤسساتها الحكومية والدينية. ودون أن ينفي الملكية والأرثوذكسية، كان يعتقد أن الأولى والثانية بحاجة إلى تجديد. وفي هذا رأى الدور الريادي للنبلاء، وليس في التوبة أمام الناس، مثل أبيه.

«ثمة وجهة نظر لدينا، في روسيا، أن شعبنا جيد جداً، ومحب جداً للعمل، ووديع جداً، وليس علينا نحن السادة، أن نعلمه، بل علينا أن نتعلم منه... شعبنا – شعب رائع (ومن يجادل في هذا؟)، ومع ذلك، يجب أن لا ننسى نقائصه وظلاميته. نحن، السادة، – أناس سيئون، وهذا أيضاً لا شك فيه؛ ربما نحن أسوأ من الشعب في نواحٍ كثيرة. ولكن، مع ذلك، يمكننا تعليمه أكثر مما هو يعلمنا... ولا يمكننا فحسب، بل نفعل هذا باستمرار، ونحن ملزمون بفعله. والمصيبة عندما نبدأ بالإعجاب بالفلاح، ونتعلم منه، وهو يبدأ بتعليمنا. عندها يختفي معنى ومبررات حياتنا. نحن–طفيليات، وحياة العالم تنقلب رأساً على عقب» («السويد المعاصرة–في الرسائل والمقالات والصور»).

وهكذا، لم ينكر ليف لفوفيتش على الإطلاق أحقية أبيه الأخلاقية، الذي كان يعتبر النبلاء «طفيليات» في جسم الشعب. ولكن، بالاختلاف عنه، حاول إيجاد المبرر للنبلاء في دورهم «الحضاري» في روسيا. وفي هذا الموقف كان الكثير من المنطق. وكان هذا يعِد في المستقبل بالسلم الاجتماعي وليس بالحرب الأهلية. كان يستاء من أبيه ومن أسرته لأنهم كانوا ينظرون نظرة استعلاء إلى محاولاته وكتاباته الصحفية، وخاصة الأدبية. واليوم من المستحيل النظر دون ألم إلى كتب ليف لفوفيتش وإلى المجلات التي نشرت مقالاته في مكتبة تولستوي في ياسنايا بوليانا. فمعظمها غير مقطعة صفحات ملازمها أو مقطعة بصورة جزئية. ولم يجلّد أي كتاب من كتبه. ولا توجد أية علامة من علامات أبيه على كتبه.

هذا يدل على أن أفكار ليف لفوفيتش لم تكن تهم الأب. ربما هو لم يكن ينكر حقه في إبداء رأيه، لكن رأيه هذا *لم يكن مهماً له*. وهنا المفارقة الكبرى، فليف لفوفيتش بالذات هو أكثر من كان يحب أفكار أبيه، وكاد يضحي بحياته من أجلها، يتضح أنه أكثرهم غربة عن أبيه. وقد كتب تولستوي عن هذا صراحة ذات مرة لتشرتكوف: «ليوفا، بالمناسبة، هو بعيد جداً عني، ويكاد يكون أبعد من جميع أبنائي».

ويعترف في يومياته في 18 تشرين الثاني/ نوفمبر عام 1900: «سمعت أحاديث عن مؤلفات ليوفا وألقيت نظرة على كتابه ولا يمكنني التغلب على القرف والانزعاج».

ولكن كيف يمكن في هذه الحالة تفسير تلك العبارات عن ليوفا في اليوميات مثل: «لقد أحببته»، «أشعر بالرضا معه»، «أنا سعيد، لأنني أشعر بالرضا معه»، وما إلى ذلك؟

هذا يدل على أن جدال الابن مع الأب، مثله مثل جدال الأب مع الابن، كان أعمق مما كان يبدو ليس للغرباء فحسب، بل وحتى لأقرب المقرّبين. هذا لم يكن جدال حاملي رؤيتين مختلفتين. لقد كان شيئاً آخر... لم يتمكن الابن من التغلب في ذاته على تأثير أبيه وفي جدله العلني معه، كان يضغط على نفسه، ويبدي مزاجه، وشخصيته، ويثبت استقلالية «الأنا» عنده. لكنه في رسائله إلى أبيه، كان يعبر، بلا نهاية، عن حبه لأبيه، ويندم، ويعترف، ويتوب، ويذرف الدموع.

«أبي العزيز، الآن كنت جالساً وحدي وبكثير من الحب كنت أفكر فيك وأريد الآن أن أكتب لك. كنت أفكر، كم كنت تبحث في حياتك، عن صدقك ومعاناتك النفسية. كثيراً ما أشعر الآن بزيف حياتنا وأحياناً، ونتيجة لهذا الشعور أعاني من صعوبة كبيرة».

كُتبت هذه الرسالة في كانون الثاني/ يناير عام 1903. وكانت محاولة جديدة من ليف لفوفيتش لشرح موقفه لأبيه، وإثبات قربه النفسي منه على الرّغم من خلافاتهما الفكرية. لقد كان *جزءاً* من أبيه، وكان بينه وبين نفسه يدرك هذا. وكان الأب يدرك هذا جيداً. لكنه لم يكن يحب *جزأه* هذا.

في أوائل شهر آذار/ مارس من العام نفسه، قام ليف لفوفيتش بزيارة

قصيرة إلى ياسنايا بوليانا، تاركاً عائلته. لقد شعر بالحنين إلى ياسنايا بوليانا، وإلى أبيه وأمه. وكان يبدو أن كل شيء كان على ما يرام في هذه الزيارة... وقد كتب ليف لفوفيتش في يومياته: «لقد أصبحت روحياً أقرب إلى أبي، أقرب بكثير من جديد، المهم لأنني أنظر الآن إلى الحياة بطريقة مماثلة له». ونجد مثل هذه المشاعر في يوميات الأب: «وصل ليوفا البارحة. وأنا سعيد، لأنني أشعر بالرضا معه».

وقد كتب عن هذا لأخيه سيرغي نيقولايفتش في بيروغوفو: «البارحة جاء إلينا ليوفا. أوصل زوجته المريضة إلى السويد وعاد إلينا. إنه نباتي دقيق، يتقيد بالأمور الصحية، ينام في الشتاء والنافذة مفتوحة - وهو بصحة جيدة. والمهم أنه طيب الروح ولطيف للغاية، وأنا أشعر بالراحة والسعادة معه».

وفي عام 1914 نشر ليف لفوفيتش في مجلة «ستاليتسا إي أوسادبا» (العاصمة والحوزة) ذكرياته عن زيارته هذه لياسنايا بوليانا، وسماها «مقتطفات من اليوميات».

«وها أنا من جديد في ياسنايا بوليانا...

عند اقترابي من الحوزة القديمة، أخذ قلبي يخفق، كالعادة، بقوة أكبر، وكنت أشعر، أن هذا يحدث معي، وكان الخطوة الأولى لتجديد روحي وجسدي.

وجدت أبي في الصالة، جالساً خلف الطاولة بوجه نضر ومعافى للغاية.

- مرحبا يا عزيزي - قال لي، وتعانقنا، وأنا صافحت يده الرفيعة.

أنا لا أحب أحداً في الدنيا أكثر منه، وليس هناك من هو أقرب إليّ منه.

نحن -أنا وأبي- يفهم أحدنا الآخر من الكلمات، والإشارات الأولى، ويعزّ عليّ كثيراً أنني الآن معه من جديد، كما كنت يوماً ما، في فترة صداقتنا».

لا ينقص هذه الأحاسيس الشاعرية العاطفية إلا وجود أمه. وتظهر أمه في نهاية المقطع.

«بينما كنت أجلس عند أبي، أحضرت أمي صورها وأخذت تعرضها علينا. وبتأملي لوالديَّ-العجوزين، كنت أشعر بالفرح من رؤيتهما، مرحين، معافيين، مشغولين، يعملان معاً بود وصداقة أكثر من قبل».

كل شيء كان من الممكن أن يكون على ما يرام، لو لم يكتب ليف تولستوي في يومياته بعد يومين من قدوم ليوفا كلمات قاتلة لابنه: «للمرة الثانية في حياتي أصادف كراهية غير مستحقة، بدون سبب، من أشخاص يريدون فقط أن يحصلوا على الشهرة التي أتمتع بها. إنهم يبدؤون بحبي، ثم يريدون أن يكونوا من يحبونه، لكن من يحب *ليسوا* هم، ويعيقهم من أن يكونوا مثلي، ويبدؤون بكراهيتي. مينشيكوف، ليوفا. هذا هو دليل شر الشهرة...».

لن نتطرق هنا بالتفصيل إلى علاقة تولستوي بالكاتب الاجتماعي في مجلة «نوفوي فريميا» (العصر الحديث) والمفكر - المحافظ ميخائيل أوسيبوفيتش مينشيكوف. فهو مثل كثيرين غيره من كتّاب عصره، تجاوز إغراء «التولستَوية»، وكاد أن يؤلِّه تولستوي، ثم تجادل معه، ولكنه في أواخر أيامه كان معجباً بشخصيته الجبارة. فالأهم من ذلك، أن تولستوي، يرى أن ابنه يقف في صف واحد مع مينشيكوف. وعموماً، هو إنسان غريب عنه.

وفي مدونة أخرى سابقة، ينسب ابنه إلى *أعدائه* الذين يبغضونه، والذين عليه أن يحبهم على الطريقة المسيحية. ولكن دون أن ينسى أنهم *أعداء*، وليسوا أشخاصاً قريبين روحياً له.

«البارحة أدركت للمرة الأولى، وأدركت في ن. ن. NN ضبط النفس والبرودة، والمكر، ولماذا هو وكل من لا يشارك النظرة المسيحية إلى الحياة يكرهونني ويجب عليهم أن يكرهوني ويكرهوا ما أدعو إليه. إن من الصعب جداً فصل ما أدعو إليه عني. ومثل هذه المشاعر يكنها نحوي ن. ن. Nn، و ن. N، و ليوفا، و س ت. Cт (على الأغلب ميخائيل ألكسندروفيتش ستاخوفيتش -*المؤلف*). وكم من الصعب عليهم إخفاء ذلك، وكم يعانون من وضع قاس. *وقال* ستكونون مكروهين بسبب اسمي. ولا يمكن أن يكون الأمر خلاف ذلك. ومن الواجب معرفة هذا وعدم الضلال والانزعاج...».

لقد رفع الابن خلافه مع أبيه إلى حُكم الجمهور، رغم إدراكه عدم تكافؤه معه، ورغم أنه يبدو أحياناً مضحكاً. لقد كان هذا يشعره بالإهانة، لكنه كان يغذي من طموحه.

«في بطرسبورغ، في مركز الحركة الاجتماعية والأدبية آنذاك، قررت أن أتابع نشاطي كصحفي وكاتب، ورغم أنني كنت أعرف، أن هذا الطريق لن

يكون سهلاً علي، باعتبار أن أبي ليف تولستوي، وأنا أحمل الاسم نفسه. ومع ذلك، ومن خلال ميلي الطبيعي إلى التفكير الدائم والحاجة للتعبير عن أفكاري، لم أترك هذا المجال الذي اخترته... ولكن في روسيا آنذاك، كي «تُصبح كاتباً» وتُشكّل اسماً أدبياً معترفاً به، كان من المفروض التصرف بطريقة أخرى، غير الطريقة التي تصرفت بها. كان لا بد من الدعاية والإعلان والمراءاة، كانت هناك حاجة إلى شيء من التمثيل المعروف والتظاهر بالليبيرالية، والأهم، كان من اللازم الاحتجاج الدائم ضد الحكومة وسلطة الحكم المطلق».

في الأدبيات السياسية والاجتماعية لم يكن عند ليف لفوفيتش أشياء جديدة من حيث المبدأ. أما في مؤلفاته الأدبية، فنقولها بصراحة، لم يكن لديه موهبة متميزة.

لكنه كان صادقاً تماماً في كتاباته وتجاربه الإبداعية وكان أكثر صدقاً في رغبته بأن يكون كاتباً.

لكن على هذا الطريق كانت هناك عقبة واحدة لا يمكن تجاوزها.

وهي أبوه.

الفصل الثامن

المستشار السري

أرى من واجبي الأخلاقي أن أنقل إلى عناية جلالتكم أن خطراً يهدد حياتكم ويهدد أمن روسيا.

أضع تحت تصرفكم، يا صاحب الجلالة، حياتي كلها، وكامل قواي.

استدعوني!... وسأساعدكم!... ولن يعلم بهذا إلا الله.

- *من رسائل ل. ل. تولستوي إلى القيصر نيقولاي الثاني*

ضوء من الشرق

على الرغم من خلافاته مع والده، التي تفاقمت بسبب جداله العلني معه، عاش ليف لفوفيتش مع دورا بعد مغادرتهما ياسنايا بوليانا إلى بطرسبورغ، في بداية حياتهما المستقلة، فترة قصيرة من الهدوء والسعادة.

كانت دائرة تواصلهم الاجتماعية مقتصرة بصورة رئيسة، على أقارب أمه. كانت تزورهم شقيقة صوفيا أندرييفنا الصغيرة، تاتيانا أندرييفنا كوزمينسكايا مع أولادها، ومع زوجها – السيناتور (عضو مجلس الدوما)، ومع الكلب المدرب بودل الذي كان يسمح له بالجلوس على الطاولة المشتركة، وكذلك

شقيق والدته فياتشيسلاف أندرييفيتش بيرس. ومن جهة الأب كانت تزورهم أحياناً عمته الكونتيسة ألكسندرا أندرييفنا تولستايا.

في شهر تشرين الأول/ أكتوبر عام 1901، وعلى خشبة المسرح الجديد جرى العرض الأول لمسرحية ليف لفويتش «ليالي مجنونة...» التي مثّلت فيها الفنانة الشهيرة ليديا يافورسكايا، التي كانت ترأس المسرح مع زوجها -الأمير بارياتينسكي- الكاتب والمسرحي. وقد شارك في العرض الأول ليف لفوفيتش ودورا، في لباسهما الاحتفالي، حيث جلسا في اللوج مع بارياتينسكي واستقبلوا التصفيق والتهاني. وقد استُدعي مؤلف المسرحية إلى خشبة المسرح، وحيّاه الجمهور ورحب به بحرارة، كما يكتب ابنه بافل، «ربما احتراماً لأبيه ليف نيقولايفتش أكثر منه لمؤلف المسرحية». لكن دورا كانت سعيدة، ووصفت هذا الحدث في رسالة إلى السويد في ثماني صفحات.

لم تحقق المسرحية نجاحاً كبيراً في العاصمتين (عرضت أيضاً في موسكو في مسرح «أكواريوم»)، ولكن كانت المسارح الإقليمية تعرضها بكل سرور، منجذبة باسم المؤلف الكبير. وللأسف، مثلها مثل رواية «البحث والمصالحة»، صاحبتها شهرة فضائحية. ففيها جادل المؤلف من جديد أفكار أبيه، وأرغم بطله الذي خان زوجته، على الانتحار برمي نفسه تحت القطار. وهو بهذا كأنه بدّل جنس المنتحر في رواية أبيه «آنّا كارينينا».

من هذه المسرحية بدأ طريق ليف لفوفيتش ككاتب مسرحي. وقد كان مثمراً بما فيه الكفاية في هذا الجنس الأدبي: فخلال خمس سنوات كتب مجلدين من المسرحيات التي صدر منها المجلد الأول فقط (ل. ل. تولستوي. المؤلفات المسرحيات. سانت-بطرسبورغ. 1906، المجلد 1). واستمرت مسيرته المسرحية حتى الثورة عام 1917. وبعض مسرحياته -«الإخوة الإقطاعيون»، «الحق في الحب»، «الجندية»، «وطني»- ذات مواضيع سياسية - اجتماعية، عُرضت في مسرحي سوفورين وكورش بالعاصمة، وحققت نجاحاً متبايناً، وتعرضت لحظر الرقابة بسبب مضمونها الجارح والجريء للغاية.

في شهر آب/ أغسطس عام 1902 أنجبت دورا ابنها الثالث–نيكيتا. وقد أخذ ليف لفوفيتش، بحسب ذكرياته، بهذا الاسم، من «أجل عدم تكرار أسماء تولستوي في أحيان كثيرة». وبهذه المناسبة، لاحظ الجميع، أن نيكيتا كان شبيهاً بجده ليف برأسه الكبير وعينيه الرماديتين. ويرتبط بولادة نيكيتا «اكتشاف» ليف لفوفيتش العجيب، الذي يتحدث عنه بجدية كاملة في ذكرياته: «منذ ولادته قمت بملاحظة ممتعة، أقنعتني بأن الأولاد حينما يظهرون على الدنيا فليس بالضرورة أن يبكوا، كما كان يعتقد كانط. نيكيتا لم ينفصل بعد عن الحبل السري، عندما انحنيت إليه وقلت له بلهجة مهدئة أن كل شيء من حوله مناسب وعلى ما يرام وأن لا حاجة أبداً للبكاء. وقد فهمني تماماً، ولم يبك إلى أن ضربته القابلة على مؤخرته. وبهذه التجربة، حطمت نظرية كانط التي تؤكد أن الناس من الولادة يعبرون عن جوهر الحياة –أي المعاناة– بالبكاء...».

لقد انعكست غطرسة ليف لفوفيتش المؤثرة كلها في هذا «الاكتشاف»! إن من المعروف، أن القابلات يضربن الأطفال حديثي الولادة ليس من أجل التسلية، بل كي تنفتح الرئتان، وكي يبدأ الأطفال بالتنفس بصورة مستقلة. والصرخة الأولى هي دليل النَفَس الأول.

وفي المستقبل سيقوم بعدد غير قليل من هذه «الاكتشافات»، التي برأيه، دحضت الأنظمة الفلسفية ووجهات النظر المعتمدة في العالم. وبقي في هذا ابن أبيه.

ولد نيكيتا في السويد، في منزل آل ويسترلوند، لكنه تعمد بطقوس العقيدة الأرثوذكسية، من قبل كاهن روسي وشماس استدعيا من ستوكهولم. على أية حال، كان ليف لفوفيتش ينظر نظرة شكلية إلى طقوس التعميد، ومثله مثل أبيه، كان يقف منها موقفاً سلبياً بشكل عام. وقد كتب لأمه: «أنا سعيد أن كل هذا الاحتفال الوثني الغبي والمعيب، الذي لا يزال قائماً منذ عهد فلاديمير، والله وحده يعرف إلى متى سيستمر، قد انتهى. كان من الجميل رؤيته وسط البروتستانتيين».

كان الكاهن والشماس في ملابسهما الرسمية الكاملة، مع أدوات التبخير

والتدخين. لقد شاهد إرنست ونينا ويسترلوند مرتين في روسيا هذا الاحتفال المعارض للطبيعة، حسب وجهة نظرهما، عندما يحملون المولود ويدورون به ثلاث مرات حول جرن المعمودية المنار بالشموع، وفي كل مرة يغمرون رأسه بماء الجرن. ولا يحق لأم الطفل حضور تعميد ابنها. كانت الجدة نينا تحمل الطفل حول الجرن. بعد الانتهاء من طقوس التعميد، أمر ويسترلوند بتهوية الغرفة، ودعا الكاهن والشماس إلى المائدة. حيث شربا كأساً من شيري في صحة المولود، وشربا القهوة، ثم غادر الكاهن والشماس.

عندما عادت العائلة إلى روسيا في الخريف، بدأت مصائب جديدة. فقد كان يستشري في بطرسبورغ وباء الإنفلونزا، وبعد إصابتها به مرضت دورا بالتهاب الكليتين. وقد عين لها والدها الذي جاء من السويد دورة علاجية صارمة - الحمامات الساخنة، والكمادات الباردة، والنظام الغذائي الحليبي، لكن كل هذا لم يساعد. كان ليف لفوفيتش يرجع السبب في كل شيء إلى مناخ بطرسبورغ الرطب والبارد. لكن صيف عام 1903 الذي أمضته في السويد، لم يساعد دورا في استعادة صحتها. وبعد أن تشاور ويسترلوند مع بروفيسور في برلين نصحه بأن تتوجه المريضة إلى مصر.

كان الطريق إلى مصر يمر عبر شبه جزيرة القرم وأديسا، والطريق إلى القرم يمر عبر ياسنايا بوليانا. في نهاية شهر آب/ أغسطس اجتمعت أسرة تولستوي كلها للاحتفال بعيد ميلاد رب الأسرة الخامس والسبعين. وقد وصل ليف لفوفيتش قبل فترة في شهر تموز/ يوليو، وانتظر وصول دورا مع الأولاد.

بحلول هذه الفترة، لم يعد يروق لصوفيا أندرييفنا كثير من سلوكه ومزاجه. والأهم - أنه أصبح يغادر كثيراً دورا والأولاد. وقد كتبت في 12 تموز/ يوليو عام 1903 في يومياتها: «وهذا الابن لا يسرني. زوجته تعاني من التهاب الكليتين في السويد، وهو يخطط، ويريد الانتساب إلى كلية الطب، ويريد العيش في موسكو، وفيه شيء من القلق...».

في ذكرياته، لا يكتب ليف لفوفيتش عن رغبته في العودة إلى كلية الطب من جامعة موسكو، التي تركها في شهر أيلول/ سبتمبر عام 1890.

يبدو أن العمل الأدبي لم يجلب له الراتب اللائق. وهكذا، فالبند الثاني من مشروع بطرسبورغ -«تشكيل وضع مالي كافٍ لي وللأبناء»- لم يتحقق. وإذا ما صدقنا ذكريات ابنه بافل، ففي مصر كانت تعيش الأسرة ببحبوحة على حساب «الأموال التي ترسلها الجدة صونيا» لكنها لم تكن كافية. في كانون الأول/ ديسمبر عام 1903 كتبت صوفيا أندرييفنا إلى ابنها في حلوان: «سأرسل لك النقود في شهر شباط/ فبراير».

وعندما كانوا في مصر، بدأت الحرب الروسية-اليابانية. في شهر آب / أغسطس عام 1904 تطوع ابن تولستوي أندريه لفوفيتش مقاتلاً إلى جبهة الشرق الأقصى، وقد جُرح وحصل على وسام القديس غيورغيوس. وقد مس المزاج الوطني حتى تولستوي-الكبير السن، الذي أنكر بشدة كل الحروب.

ثمة دلائل هامة في مذكرات ماكوفيتسكي حول أن تولستوي، مع وقوفه ضد الحرب الروسية-اليابانية، فقد عانى الأمرين من هزيمة الجيش والأسطول الروسيين. وقال إنه كان من الواجب تفجير مرفأ أرتور وليس تسليمه لليابانيين. «طالما أنك قررت القتال، فضحِ بنفسك من أجل قضيتك».

وقد كتبت صوفيا أندرييفنا لابنها في مصر: «الحرب تزرع الرعب في قلوب الجميع، والأهم في المستقبل، لا شيء معروف وكل شيء رهيب. إن من الأهمية الكبيرة رفع الروح المعنوية والتعاطف مع القيصر. إنني شخصياً أشعر بالاشمئزاز من مكر هؤلاء اليابانيين الصفر الصغار وقسوتهم الذكية».

عندما عاد إلى روسيا في نيسان/ أبريل عام 1904، أراد ليف لفوفيتش أيضاً المشاركة في الحرب بصفة مراسل «نوفوي فريميا» (العصر الحديث). لقد أحدثت الحرب انطباعاً كبيراً فيه، وأيقظت المشاعر الوطنية التي تشكلت في مصر في تنبؤات غريبة.

وقد كتب لأهله: «لقد وُلدت خطة جديدة. أن أذهب إلى الحرب في شهري أيار/ مايو وحزيران/ يونيو مراسلاً حربياً... إذا لم تر بعينك ما يحدث هناك الآن، في الشرق، فلن تفهم أبداً معنى هذا، كما يجب. ومعناه كبير وهائل جداً لروسيا. مذهلة هذه الحماسة الشديدة من التبرعات للأسطول والوعي العام

بضرورة ذلك. من هنا يتضح لي أن هذا، فعلاً، ضروري، وفقط عندما نحن – روسيا ستصبح قوية في البحار وبما يحيط بها بحيث لن تتمكن أي دولة كبيرة أخرى من مجابهتها، وستجبرها على الخضوع للسلام، وعندها تتوقف الحروب. أما لكي تغطي روسيا الأرض كلها فنحتاج إلى سبعة أو ثمانية آلاف سنة إذا ما واصلنا النمو بسرعة، كما نمت منذ البداية نوفغورود أو حتى إمارة موسكو. ويلزمنا ألف سنة أخرى من أجل غزو القارة الآسيوية كلها، وخمسة آلاف من أجل الغزو والاندماج مع شعوب بقية قارات أمريكا وأفريقيا وأستراليا. وستصبح كتلة إنسانية واحدة جاهزة. هذا هو الطريق الخارجي لهيمنة روسيا. علاوة على ذلك، روسيا ستقدم طريقاً آخر إلى جانب الطريق الخارجي –وهو الطريق الروحي، الضروري في الآن نفسه إلى جانب الخارجي– وهو طرح المثال الأعلى. لكن أبي لن يوافق على هذا. **معليش** (هكذا وردت بالعربية)... أنا واثق أن روسيا مدعوة لتوحيد الإنسانية، وأرى، أنها تفعل هذا دائماً، وبكل طريقة ممكنة نتأسف جداً على اليابانيين، الذين يثيرون الشعور بالاشمئزاز مثل البعوض الذي شرب الدماء والذي لا بد من قتله...

الشعوب الصفراء، الصين، اليابان، كوريا – هي فقط خلفية صفراء، أساس، والشعوب البيضاء بقيادة روسيا مدعوة للعمل، وكما غطت روسيا نفسها بالتتار والأجانب الآخرين...

لن يفعل الأوروبيون هذا أبداً. بل على العكس، نحن من جديد نغطي ونذيب في أنفسنا جميع الأوروبيين: الألمان، والبولنديين، والجيران القريبين، وبدأنا الشيء نفسه مع الأكثر بعداً: مع الإنكليز، والفرنسيين، والإيطاليين. إنهم كلهم جميعاً خَدَمنا، وباعتنا، ومعلمو مدارسنا، الذين سيحل محلهم في المستقبل تلاميذهم...

كم كان بودي أن أتحدث مع أبي الآن عن كل ما ذكرته في رسالتي هنا».

للنظرة الأولى، تبدو الرسالة كأنها هذيان مجنون. في شهر نيسان/ أبريل حل في مصر حر شديد بحيث أن ليف لفوفيتش وزوجته حزما حقائبهما على عجل للعودة إلى روسيا، وقررا تمضية بقية الربيع في مناخ شبه جزيرة القرم الأكثر اعتدالاً. وقرر الأب والأم، أن ابنهما قد أصابته لفحة شمس.

«عزيزي ليوفا، حتى إنّ أباك استاء بعد أن قرأ رسالتك الطويلة حول أنه بعد بضعة آلاف من السنين ستسيطر روسيا على العالم كله. وقال أبوك: «ما هذا، كما لو أنه فقد عقله. كيف يمكن التفكير فيما سيحدث بعد سبع، ثمانية آلاف سنة!» يبدو أن خيالك قد نما كثيراً بسبب المرض والمناخ الحار».

لم يجادلهما ليف لفوفيتش. «أبي العزيز، أنا سعيد جداً أنك اعتبرت رسالتي إلى أمي عن مستقبل روسيا رسالة مجنونة. وهذا حكم عادل بحق، وأنا أشعر بالخجل من هذه الرسالة ومن المزاج السيئ الذي كنت أعيش فيه في الفترة الأخيرة. فالهيجان العقلي والجسدي المفرط بسبب الربيع هنا أدى إلى الحالة الذهنية. والحمد لله، يبدو أنني قد تعافيت من جديد، واستعدت السيطرة على نفسي».

ولكن لم يكن كل شيء بهذه البساطة...

«يجب البدء من البداية...».

في خريف عام 1903، عندما غادر ليف لفوفيتش مع دورا وبافل ونيكيتا إلى مصر، ودّعوا الأب بسلام وودية ومحبة. وفي الطريق، أرسل لأبيه من يالطا رسالة حزينة يعترف فيها بحبه، ويشكو من طبعه العصبي، غير الهادئ. وقد أجابه الأب برسالة هي أكبر رسالة حب خلال تاريخ مراسلاتهما:

«استلمت، عزيزي ليوفا، رسالتك، وأنت بنفسك تعرف كم كانت جميلة وسارة بالنسبة لي... يسرني أنني أراك الآن كلك بكاملك. ولا يوجد ركن واحد في روحك لم أره أو لم أتمكن من رؤيته. وهذا مفهوم، لأن في روحك يضيء ذلك النور الحقيقي، الذي يضيء حياة الناس. فليساعدك الرب على المحافظة على هذا النور وبقائه متقداً. أرى الآن بوضوح نقاط ضعفك، وهي لا تهيجني، كما كانت من قبل، بل ولا تحزنني، إنها تؤثر علي وتلامسني. إنني أشعر بالأسى من أجلك بسببها، لأنني أعرف أنك تحاربها وتعاني منها. لا تملّ، ولا تتألم، يا عزيزي، من عبء وضعك. التعريف الشعبي البسيط الرائع لأي مصيبة (دنيوية) يبدأ بزيارة الله. وهكذا امتحنك الله بمرض دورا. اقبل هذه الزيارة، فإن لم تستطع بامتنان وشكر، فاقبلها بخضوع واحترام على الأقل».

وكتب لأبيه غير مرة من مصر، واصفاً الحياة المحلية فيها، وساخطاً على كيفية تعامل المستعمرين - الإنكليز مع العرب («مثل الماشية»)، و«كيف يعيشون هم مستمتعين على طريقتهم الخاصة وعلى حساب الشعب العامل، ويلعبون الغولف، والبولو، والتنس». ويعترف بأنه «يحب كثيراً هذه الألعاب». وقال في رسالة أخرى، إنه اكتشف حقيقة: «المهم في الحياة ليس المظهر الخارجي، ليس الجسد، بل الداخل، النفس» وأن «الشر ينبعث من داخلنا» وهذه الحقيقة «أعمته». وهو كما في السابق لم يدخن، ولم يشرب الخمر، وسعى للإقلاع عن الحياة الجنسية، لكنه مع ذلك بقي «إنساناً غاضباً وبائسا». أما أنا الآن... «أتساءل ماذا تقول لي عن كل هذا، يا أبي العزيز».

بعد أن عاد إلى روسيا، بحثاً عن مكان جديد في الحياة، تبادل الرأي والمشورة مع والده. مثلاً: هل يذهب مراسلاً حربياً إلى الجبهة؟ لكن وجهة نظر الأب بهذا الخصوص معروفة منذ زمن. ولم يقل شيئاً جديداً، جواباً عن سؤال ابنه: «رأيي دائماً، وخاصة للعمل الروحي، أن الحركة، والحركة الانتقالية غير مفيدة... الفيلسوف كانط لم يغادر كينيغسبيرغ طيلة حياته، وترك إرثاً روحياً ضخماً».

ووافقه ليف لفوفيتش على ذلك. «لن أذهب إلى الحرب، رغم أنني آسف للغاية. لن أذهب لأنه غير معقول، وليس ضرورياً. علاوة على ذلك، من الأفضل البقاء مع العائلة، والقيام بما يمكن عمله بتواضع في المنزل».

وقد كتب أنه «فسد وانحط في مصر، واخشوشن من الناحية الروحية، وضعف جسدياً وعقلياً. ويجب أن أبدأ الكثير منذ البداية». ولكن في هذه الرسالة ذاتها ظهر الاعتراف، بأن ليف لفوفيتش، في الخامسة والثلاثين من عمره، لديه زوجة وطفلان، لديه اسم أدبي مهما كان - لم يعثر على مكانه في الحياة.

لم يستطع العيش بدون ياسنايا بوليانا!.

«وأسوأ ما في الأمر، أنني أجر دورا للعيش في ياسنايا بوليانا، رغم أنني لا أعرف كم هي مناسبة للآخرين، أما دورا فهي لا تحب ياسنايا بوليانا وتجرني إلى السويد... وهذا الصراع قاس جداً بالنسبة لي».

وكان قد كتب سابقاً عن رغبته بالعودة إلى ياسنايا بوليانا والعيش هناك، من هالمبيوبودا، عندما كانت زوجته شديدة المرض ولم تكن قادرة على التحرك إلا بعربة إسعاف. «أبي العزيز. لا يزال الوضع صعباً بالنسبة لي هنا، وما يزال يجذبني إلى ياسنايا بوليانا، حيث أشعر أنه مكاني. سأكون مسروراً إذا ما قادني الله إلى هناك، ولن أكون مزعجاً بالنسبة لك. وآمل أن حياتي في ياسنايا بوليانا لن تكون أيضاً بغيضة لإخوتي ولن تثير لديهم مشاعر سيئة نحوي. إذا ما عدت إلى ياسنايا، فلن أعود بتلك الأفكار والمثل العليا كما في السابق، بل بموقف آخر تماماً من الحياة. أعرف أنك تفهمني، ولذلك أكتب لك».

لقد كان مأزقاً رهيباً اقتاد ليف لفوفيتش نفسه إليه مرة أخرى، منومّاً تنويماً إيحائياً من قبل والده، ومن قبل ذلك المكان العجيب الذي خلقه والده -ياسنايا بوليانا- والذي ليس له مكان مشابه على الأرض.

وفي 16 حزيران/ يونيو من ألوبكا، حيث كانت تتعالج دورا من التهاب الكلى، يكتب إلى أبيه رسالة عاطفية مؤثرة، يمهد فيها التربة لعودته إلى ياسنايا بوليانا. وهذا بالنسبة له على جانب كبير من الأهمية! «أبي العزيز، بما أنني قد توجهت غير مرة إلى أصدقائك وأصدقائي برجاء ليرسلوا لي مقالتك عن الحرب، ولم يرسلوا أي شيء، لذلك أتوسل إليك أن «تأمرهم» بأن يفعلوا هذا بأسرع ما يمكن. أهتم بهذا ليس عبثاً. سأكون سعيداً جداً لو كتبت لي. اشتقت إليك وإلى الجميع، ولكن لم أجئ بعد لأنه لم يحن الوقت».

زوجته دورا مريضة. وهي بحاجة إلى مناخ القرم والاستحمام بالبحر. لكنه في رسالته إلى أهله من حلوان بمصر، يقترح أن تأتي أخته تاتيانا مع زوجها إلى القرم، ليتفرغ للسفر صحفياً إلى الجبهة. وعندما تخلى عن هذه الفكرة، اندفع إلى ياسنايا بوليانا ليبحث مع أبيه مسألة الحرب ومشاركة روسيا فيها. إنه واثق أن أباه سيفهمه، ويعرض بالتفصيل نظرته للأحداث.

ومثل أبيه، ما يزال يقف في المواقع المناهضة للحرب، ويدين الحرب. «لديك الرؤية الأوضح لكامل جنونها، باعتبارها نتيجة ضلال الإنسانية، وكل هذا مفهوم. وأسوأ ما في الأمر، أن الشعوب عندما تنظر إلى الحرب

اليابانية، لا تشعر بالاستياء منها -باستثناء القليل- ولا تسارع إلى وقف هذا الرعب، وإزالة عبء العسكرة، ونزع السلاح، بل على العكس، تقوم بصورة محمومة ببناء البوارج الجديدة، وتخصص المليارات الإضافية للنفقات الحربية، ساحبة إياها من الأرض وجالبة البؤس لشعوبها. وإذا ما استمرت هذه النظرة الوحشية الظلامية عند الناس وتطورت، فما الذي سيحدث؟...».

يبدو أنه متضامن مع أبيه، حتى قبل أن يقرأ مقالته «فكروا في الأمر!» يكتب ليف لفوفيتش: «إن كل ما هو أخلاقي، كل ما هو خير يمكن أن يختفي من وجه الأرض، وقد لا يتخلف قليلاً التقدم الروحي فحسب، بل ويتوقف نهائياً. وفي مثل هذه المذبحة لن يكون أحد الأقوى إلى الأبد. فاليوم ينتصر اليابانيون؛ وغداً-الروس؛ وبعد غد-البوريون (من الشعوب الأفريقية -*المترجم*)، ثم الإنكليز والأمريكان والألمان، ثم تبدأ من البداية، وهكذا بلا نهاية، إلى أن يعود الناس إلى رشدهم...».

وكأنه يشعر عن بعد بأفكار أبيه. فقد كتب تولستوي أيضاً الشيء نفسه:

«تفصل بين الناس عشرات الآلاف من الكيلومترات، بعضهم عن بعض، مئات الآلاف من هؤلاء الناس، البوذيون من ناحية، الذين يحرم القانون عندهم ليس قتل الإنسان فحسب، بل وقتل الحيوانات، والمسيحيون من ناحية أخرى، الذين يدينون بدين الأخوة والمحبة، مثلهم مثل الوحوش البرية، يبحث أحدهم عن الآخر من أجل أن يقتله، ويعذبه، ويشوهه بأكثر الطرق وحشية.

فما هذا؟ هل هذا في حلم أم في الواقع؟ هل يجري شيء ما، مما لا يجب أن يحدث، ولا يمكن أن يحدث - بودي أن أصدق أن هذا حلم، وأن أستيقظ منه.

ولكن، لا، إنه ليس حلماً، إنه الواقع المرعب».

كما تتطابق وجهتا نظرهما لعواقب الحرب الاقتصادية. «لا يمكن للناس المثقفين المتنورين أن لا يعرفوا أن ذرائع الحروب كانت دوماً سخيفة بحيث لا تستحق أن نضحي من أجلها ليس بحياة إنسان واحد فقط، بل وجزء من

مائة من الأموال التي تصرف على الحرب (لقد أُنفق على تحرير الزنوج من الأموال أكثر بكثير مما كان يلزم لشراء جميع زنوج الجنوب)...» («فكروا في الأمر!»).

قبل أن يقرأ مقالة والده، كان يعرف بالفعل توجهه الرئيسي. «إن الشر الذي يعاني منه الناس في عصرنا، ناتج عن أن غالبيتهم تعيش بدون الشيء الذي يقدم لهم التوجيه الرشيد للنشاط البشري، أي بدون الدين...» («فكروا في الأمر!»).

يكتب ليف لفوفيتش لأبيه: «أنت تعتقد أن الدين ينقذ من كل هذا، وأنت، بالطبع، على حق. ولكن، أليست هناك وسائل أقرب، في أشكال الحياة القائمة، للغرض نفسه؟ يبدو لي، لو أن سياسة الشعوب أصبحت أخلاقية، لو أن الدبلوماسيين لم يكونوا دبلوماسيين، بالمعنى الأعمى لهذه الكلمة، بل أصبحوا مسيحيين، ومعهم الحكومات أيضاً، لتمكنا بسهولة من تجنب الحروب. هل نتنازل لليابانيين، ونعطيهم ما يطلبونه. هل ننسحب من مرفأ بورت–آرتور. هل نطهّر منشوريا. لو أدركت الحكومة، أن مثل هذه الاحتلالات الخارجية لا تكون ثابتة طويلة العمر أبداً، وأنه لا يمكن تحقيق النصر إلا بالوسائل السلمية، وبالعمل والتجارة، لفعلت هذا بالتأكيد. لكنها تفكر بطريقة مغايرة. ومن هنا تأتي الحروب، والموت، والخراب، والمعاناة ومختلف أنواع الشرور».

كان الاختلاف الرئيس في وجهتي نظرهما شيئاً واحداً. كان الابن يعتقد أن المبادئ الأخلاقية السامية يمكن تطبيقها في *أشكال الحياة القائمة*. أما الأب –فلا يؤمن بذلك. كان يؤمن الابن بأن من الممكن «رعاية الشعب» بشكل صحيح، بمساعدة *مؤسسات الدولة القائمة* والمؤسسات الدينية والعامة التي يجب إصلاحها وليس تدميرها. أما الأب فلم يؤمن. إن كل ما أراد تحقيقه الابن– هو أن يفوضه الأب بحق أن يحمل نور حقيقة أبيه إلى *أشكال الحياة القائمة*. وأن يؤثر باسم ابن تولستوي ليس على المجتمع فحسب، وربما على القيصر نفسه. أوليس هذا ما كان يحلم أن يناقشه مع أبيه، عندما انطلق بكامل روحه إلى ياسنايا بوليانا؟

ليس بالمكان المناسب

لم يسجل ليف لفوفيتش يوميات دائمة، ولكن عندما وصل إلى ياسنايا بوليانا في شهر تموز/ يوليو عام 1904، بدأ يدوِّن بالتفصيل انطباعاته عن لقائه بأبيه. ربما لأنه في تلك الفترة كان يتقرر مصيره من جديد. هل سيبقى ويعيش في ياسنايا بوليانا أم لا؟

5 تموز/ يوليو: «بالأمس وصلت إلى هنا من القرم. صباحاً في الساعة السادسة استلقيت لأستريح بعد ليلتين في عربة القطار، ولكن لم أستطع النوم بسبب الاضطراب. في الساعة 8 نهضت من جديد، وذهبت إلى البركة للسباحة. وعند العودة من البركة إلى البيت، صادفت أبي في الممر. ركضت نحوه وتعانقنا. وأول ما قاله لي: «وأنا أركض وراءك وأبحث عنك». وأحاط بالبركة حيث كان يبحث عني. لقد تأثرت بتعبيره هذا عن حبه لي، وأظهر لي مدى علاقته الدافئة بي. وأخذ يسألني عن زوجتي، خوفاً من أن تكون علاقتي بها قد ساءت. والحمد لله، طمأنته بأن كل شيء على ما يرام».

ولكن بعد عشرة أيام، ظهرت في يومياته مدونة أخرى: «قاسية وصعبة الحياة هنا، بالنسبة للإنسان الذي يبحث عن الحقيقة. إن الحياة في ياسنايا بوليانا مترعة بالأكاذيب والشر، وعلى الرّغم من أن سيدها يدعو بصدق إلى المسيحية، فهو يعيش في وثنية مرعبة، وعلى الرّغم من أنه يدعو إلى البساطة والحرمان، فهو يعيش في رفاهية مرعبة وثراء. منزل ممتلئ بالخدم، الشره، الكسل، العطالة، الغرور. إن أشكال الحياة في ياسنايا بوليانا قاسية جداً، ولولا جوهره لكان منزل الفجور».

وبأية لهجة قاسية كُتبت! وكأن كاتبها رجل غريب دخل لأول مرة إلى ياسنايا بوليانا، ليتحقق من تصوره عن تولستوي العظيم ومدى مطابقته للواقع، وقد أصيب بخيبة أمل عميقة مما رآه. من حيث الجوهر، يكرر ليف لفوفيتش في يومياته، أكثر الشائعات انتشاراً عن ياسنايا بوليانا، حيث تدّعي أن تولستوي يعظ بالكلمات شيئاً، بينما في الواقع، يسبح في الثروة والرفاهية. وأين رأى هذا كله؟ ولماذا لم يره سابقاً عندما أنشأ «الواحة السويدية في الصحراء الروسية»؟ ومن يكتب هذا؟ الشخص الذي رفض

النزول في حلوان في بنسيون (نُزُل) بسيط واستأجر لأسرته غرفة فاخرة في فندق توفيق Tewfic Hotel، حيث كان يقيم الإنكليز، والذي اعتبروه في مصر من حيث مظهره الخارجي، ثرياً إنكليزياً، وهو الذي استأجر في شبه جزيرة القرم منزلاً ريفياً فاخراً بجوار قصر فورنتسوف.

لا يمكن تفسير هذا التغيير في مزاجه وأفكاره إلا بأنه لم يتمكن من العثور على لغة مشتركة مع أبيه. وهذا ما تؤكده المدونة التي سجلها في يومياته بعد أسبوع: «يجب تجنب ياسنايا التي لن تتغير نحو الأفضل، ما لم آتِ أنا بنفسي وأسكن فيها... لن أغير حياتي فيها. لكن تغيير حياتي في ياسنايا بوليانا القديمة مستحيل. ولهذا لا يمكن العيش هنا إلّا بطريقة جديدة، من جديد، وفي مكان جديد. وطالما أن هذا غير ممكن، يجب العيش على الجانب الآخر، رغم أن هذا صعب، رغم أن هذا محزن. ولكن إذا كان الله معي، في داخلي، فلست بحاجة لأحد غيره. كم هذا مسر وواضح. أنا مع الله في كل مكان، وكلما قل منعهم لي من التواجد معه، كان بالنسبة لي أسهل وأفضل وأكثر بهجة...».

يا له من بائس تعيس! حتى في إدانته لوالده، كان الابن يكرر أفكار أبيه حرفياً!

ولكن ما الذي حدث في ياسنايا بوليانا في تموز/ يوليو عام 1904؟ ما الذي غيّر مزاج ليف لفوفيتش على هذا النحو. لا يوجد أي دليل بهذا الخصوص. في هذا الوقت كانوا يستعدون في ياسنايا بوليانا لتوديع ابن أندريه المتوجه إلى الجبهة. وفي بيروغوفو كان يحتضر من مرض السرطان الأخ الأكبر لتولستوي سيرغي نيقولايفتش، وقد ذهب لعنده تولستوي مع الطبيب نيكيتين. وكالعادة، كان الكثير من الزوار. كان يجري العمل الروتيني في ياسنايا بوليانا، وكان يساعد الأب فيه أولاده وأقرباؤه...

إن الظرف الأخير على درجة كبيرة من الأهمية! فقد غاب ليف لفوفيتش عن ياسنايا بوليانا عاماً كاملاً، ووجد والده الآن بعد أن تعافى في القرم نشيطاً وممتلئاً بالطاقة. ومن جديد دارت حياة الأسرة كلها حوله، خاضعة لبرنامجه وجدوله. كان يستوعب الجميع من حوله، دون أن يبذل خلال ذلك أي

جهد، لأن هذا ما بدا للجميع شرعياً وعادلاً. باستثناء صوفيا أندرييفنا التي كانت تدمدم وتتذمر.

وقد كتبت لابنها بعد سفره إلى بطرسبورغ: «... لقد أصبح بابا غير مبال تجاه كل شيء بشكل مذهل. وهذا ما يسميه الناس حكمة الشيخوخة، لكنني لم أبلغها بعد. هو الآن بصحة جيدة جداً، نشيط، ذو حيوية وطاقة، يبتلع المنزل كله، الجميع يكتبون، يترجمون، يعملون على كتابه أقوال الحكماء: يجلس أبريكوسوف، يكتب، كولا، ماشا يكتبان؛ ساشا تعمل على جهاز ريمنجتون للنسخ، لينا تترجم، ليزانكا أبولونسكايا، ناتاشا - تعملان. أي قوة روحية جبارة تستعبد الجميع وترغم الجميع على العيش والعمل حسب إرادته! أنا أكاد أن أكون الوحيدة التي لا أحتمل هذا الظلم الذي أشعر به على نفسي منذ 42 عاماً، وقد شعرت بالإرهاق. ثم يبدو لي أن الأشد غرابة هذه اللامبالاة، وعدم المشاركة بكل ما يحدث عند الأقارب، وهذه الأنانية التي تبتلع كل شيء. وعلى الأغلب هو محق في هذا».

الحرب مع الأب

بعد عودته من جديد إلى بطرسبورغ، منذ خريف عام 1904 بدأت مرحلة جديدة في حياة ليف لفوفيتش، اعتبرها فيما بعد، بالسنوات الخمس «الأكثر توفيقاً» في حياته. وقد أراد من جديد التوجه إلى الجبهة مراسلاً حربياً لصحيفة «نوفوي فريميا» (العصر الجديد)، لكن سوفورين عارض هذا. فقد كان يدرك أن التقارير الحقيقية من مسرح العمليات الحربية تكاد تكون غير ضرورية لصحيفته شبه الرسمية. وربما أنه هو بذلك قد حرص على حياة تولستوي-الابن، الذي كان يعامله دوماً بتعاطف كبير، ولهذا اعترف له ليف في رسالة إليه: «أشعر نحوك أحياناً بحميمية أكثر مما أشعر نحو أبي...».

بعد أن قرر البقاء في بطرسبورغ، بدأ ليف لفوفيتش يعمل بنشاط بصفته صحفياً في «نوفوي فريميا»، حيث كان ينشر سلسلة من المقالات بعنوان «خواطر وحياة». ويعلن في المقال الأول منها، أنه من الضروري شن الحرب حتى النصر. كانت مثل هذه النزعة العسكرية المسعورة متوقعة

من أي شخص آخر، ولكن ليس من ابن تولستوي. لقد كانت هذه حملة حقيقية ضد أبيه.

وكان يعلن: «تُسمع أصوات عديدة، متشائمة ويائسة للغاية، أو أحياناً متعبة وذابلة في استجابتها للأحداث المعاصرة. ولكن كم هذه الأصوات تافهة وغير لائقة بالمقارنة مع الموقف الصامد، الهادئ، الحكيم للشعب الروسي من الحرب الحالية، مثلها مثل أي حرب...

إن الحرب الحالية في الشرق الأقصى - هي حرب عظيمة، لم تر مثلها روسيا منذ أيام بطرس. وهي تدور من أجل السيطرة على الساحل الشرقي من اليابسة الأوروبية-الآسيوية الكبيرة، مثلما دارت الحرب في أيام بطرس من أجل السيطرة على الساحل الغربي».

وبحسب هذا المنطق، كان من المفروض به أن يتغنى بانتصار بطرس الأكبر على السويديين. ولم يمنع ليف لفوفيتش نفسه عن ذاك. «كما في القتال مع السويديين، في البداية كانت لدينا نارفا[1]، ثم ظهرت بولتافا، التي قُتل السويدي تحتها، وكذلك الأمر في القتال مع اليابانيين، السويديين الآسيويين، الذين يعيشون على الجزر وفي موقعهم الجغرافي في نهاية اليابسة، شبيهين بإسكندينافيا، ستكون لدينا معهم في البداية، وقد جرت، حملات فاشلة، ولكن بعدها ستظهر حتما «بولتافا»[2]، التي سيموت الياباني تحتها!».

لقد غدا مفهوماً من المقال أن رسالة ليف لفوفيتش المشوشة من حلوان، التي تنبأ فيها بهيمنة روسيا على العالم، لم تكن جنون ساعة، بل كان قناعة ابن تولستوي. وقد عاد إليها مباشرة إثر فراقه لأبيه.

«يجب أن يكون المرء جباناً وقصير النظر بصورة غير عادية كي لا يرى النتيجة النهائية للحرب. يكفي المرء أن يلقي نظرة إلى الخارطة. يكفيه

1- نارفا: منطقة تقع على خليج فنلندا بين روسيا وإستونيا استولت عليها جيوش بطرس الأول عام 1703. -المترجم.

2- بولتافا: منطقة تقع في شرق أوكرانيا. استولت عليها جيوش بطرس الأول عام 1709. -المترجم.

النظر إلى روسيا وإلى مساحاتها، وقراها، وسهولها، وغاباتها، وبحيراتها، وجبالها، وإلى شعبها كي يقتنع بهذا. روسيا لا يمكن أن تُهزم. روسيا – هي البلاد الوحيدة في العالم بشعبها، وجغرافيتها، ومناخها، وقوتها الروحية والعقلية، ومزاجها، ومحبتها للسلام، وقدراتها، ورسالتها. إن مستقبل الأرض هو لروسيا على الرّغم من متاعبها المعاصرة».

وفي نهاية المقال، كرر ليف لفوفيتش الأفكار المقدسة ذاتها عن روسيا، التي عبر عنها في رسالته لوالديه من حلوان، والتي اعترف هو نفسه فيما بعد بأنها أفكار «مجنونة».

«في الشتاء الماضي قلت لأصدقائي الإنكليز في مصر: «كونوا على ثقة بأننا نحن وليس أنتم من سيحقق أمنيتكم بالسيطرة على العالم. ونحن سنقوم بهذا بشكل طبيعي، بقوة الأشياء والمصائر. إن الشعب الذي يحتل الشريط الشمالي من الكرة الأرضية من الصخور الفنلندية إلى اليابان المقدامة، أقوى من جميع شعوب الكرة الأرضية، وإذا كان لم ينضج بعد من أجل أن يظهر بوضوح تفوقه بعد، فإن لديه كل المعطيات للقيام بذلك. إنه يغطي جميع الشعوب المجاورة ويستوعبها في ذاته. لقد أخضع شبه جزيرة القرم، والقوقاز، وشرق روسيا، وسيبيريا، وأقاليم الضواحي الغربية، والآن روسيا هناك في كل مكان ولن يكون هناك شيء آخر. التتار بدأوا يتحادثون فيما بينهم باللغة الروسية، وسيتكرر الشيء نفسه في كل مكان. ونحن سنطردكم أنتم الإنكليز من هنا، من مصر، ومن الهند. لم أشك في هذا قط». لقد سخر أصدقائي الإنكليز وضحكوا بصوت عال ومتعجرف من خطاباتي الحمقاء. لكنني أؤمن بها وسأؤمن بها حتى القبر. روسيا – لا يمكن أن تقهر».

متى كان صادقاً؟ متى كان في عقل سليم؟ عندما كتب مقالات وخواطر عن السويد، فارضاً بصورة مباشرة نمط الحياة السويدي، وشاتماً الامتدادات والمساحات الروسية التي تستنزف القوى وتؤدي إلى الاكتئاب؟ أم عندما مدح المناخ الروسي والجغرافيا الروسية وقوة روسيا الروحية والعقلية؟ أم عندما ركض أمام والده، قائلاً إنه يجب تسليم مرفأ بورت آرتور ومنشوريا لليابانيين؟ أم عندما دعا إلى «بولتافا» جديدة؟

هل كان لهذه المنعطفات ذات المئة والثمانين درجة أي نقاط ارتكاز أو محاور؟ أم إنها كانت مجرد رميات فوضوية؟ كان في ياسنايا بوليانا يبدي امتعاضه من ثراء أسرته ورفاهيتها، وهي التي تعيش في منزل أسياد غير كبير، بدون إنارة كهربائية وخزانة تدفئة، أما في بطرسبورغ فكان يعيش مع زوجته دورا في منزل ضخم. وقد تذكر ابنه بافل: «كانت الحياة الاجتماعية تزدهر بلون رهيب، كما يحدث عادة في ظل الحرب، وقد يبدو أن والديّ أمضيا أمسيتهما البارحة في البيت على سبيل الاستثناء». وقد كتبت دورا لوالديها في السويد: «ابنتكما دورا سعيدة... إنني أستمتع بالحياة... أشعر بالكثير من المرح!!!».

لقد اتسعت دائرة معارفه... وأصبح من بينهم الأمير تروبتسكي وأسرته، الأمير غوليتسين وعائلته، الجنرال ألميدينغين، الفنان الرسام ريبين، والنحات غينتسبورغ. والأخيران كانا معجبين بوالده وضيفين دائمين في ياسنايا بوليانا. فهل كان يدرك، أي انطباع تركه مقاله فيهما، وفي روسيا عامة، وفي العالم كله؟

لقد كتب ميخائيل مينشيكوف في صحيفة «نوفوي فريميا»: «ها كم العقيدة السياسية التي ستُحدث في الخارج ضجة ربما لا تقل عن الضجة التي أحدثتها الرسالة المعروفة للكونت العجوز ليف تولستوي عن الحرب الحالية. وسوف يُدهش الأجانب بادئ ذي بدء، أنه من الأسرة الروسية نفسها، ومن تحت أشجار الزيزفون القديمة نفسها في ياسنايا بوليانا، تنطلق قناعتان متناقضتان قطبياً، كلاهما متطرفتان للدرجة الأخيرة. الأب ينفي أي حرب، أي قومية، أي دولة، أي روح قتالية في الشعب الروسي. أما الابن فعلى قناعة بانتصارات الشعب الروسي، ليس على هذا العدو الطارئ الحالي فقط، بل على جميع الشعوب الصديقة حتى التي لا توجد حروب معها أيضاً. الأب يعتبر حتى الدفاع عن الحياة خطيئة جسيمة، والابن ينادي بالهجوم وفي المستقبل سوف نسود على العالم».

لقد أُصيب تولستوي بصدمة عميقة من مقال ابنه! قد لا يكون الابن مسؤولاً عن أبيه، لكن الأب يجب أن يكون مسؤولاً عن ابنه. فما هو الثمن الحقيقي لخطاباته المناهضة للحرب إذا كان قد أنشأ في أسرته ذاته شاباً بهذه النزعة العسكرية؟

إن استسلام مدينة بورت-آرتور، والهزيمة بالقرب من موكدين، وكارثة تسوسيما - قد أرغمت الحكومة الروسية على التفكير في عقد معاهدة سلام. وفي شهر شباط/ فبراير عام 1905 سلم رئيس الـوزراء سيرغي يوليفيتش فيتي رسالة للقيصر، ألح فيها على إنهاء الأعمال القتالية في الشرق الأقصى. وقد سادت المشاعر المناهضة للحرب في المجتمع أيضاً. لكن الوضع كان ضبابياً. وكانت تتسرب معلومات تفيد بأن الجيش الياباني نفسه ليس لديه من الذخيرة والمواد الغذائية وأن اليابان قريبة من الانهزام. وكان يتمسك بوجهة النظر هذه ليف لفوفيتش ناسباً إياها إلى «أشخاص مختصين ذوي صلاحية». وتابع كتابة المقالات في «نوفوي فريميا» في الدفاع عن الحرب، بحيث إن الناشر لم يكن يجد الوقت الكافي لنشرها. وكان يسأل سوفورين: «ألا يمكنك أن تخصص لي يوماً محدداً أو يومين في الأسبوع لمقالاتي؟».

لقد أثارت هذه المقالات أصداء عديدة متباينة، من الساخرة حتى المتحمسة. في بداية عام 1905 أصبح ليف لفوفيتش «من أبرز الشخصيات الملحوظة في الصحافة الوطنية» كما تكتب فاليريا أبروسيموفا. وهي أيضاً صاحبة الفكرة القائلة بأن «النشاط الصحفي والأدبي - الاجتماعي لليف لفوفيتش تولستوي في العامين 1904-1905 كان إلى حد ما شكلاً من أشكال الاحتجاج على اغتراب أبيه الواضح، وطريقة مميزة لاجتذاب اهتمام عبقري ياسنايا بوليانا، عن طريق صحافة العاصمة، إلى أفكاره...».

نعم، كان للعامل الأسري دور كبير في هذه القصة. ومرة أخرى، برزت صوفيا أندرييفنا في مركز هذه التناقضات. في 23 آذار/ مارس عام 1905 كتبت لابنها: «نشعر أنا وأبوك بكثير من الحزن بالطبع، لأن ابننا مخالف لنا إلى هذه الدرجة في آرائه حول الحرب مثلك. ولكن وبصرف النظر عن أن هذا أمر محزن، تردني شائعات من جميع الجهات تزعم كأن الأم أوحت لليف لفوفيتش بمثل هذه الأفكار، وأن الأم التي لا تتفق مع ليف نيقولايفتش، تدعو إلى الحرب. بما أن هذا ظلم وغير صحيح، فإنني أود إشهار الحقيقة ونشر *نظرتي* إلى الحرب للعالم كله».

لكن صوفيا أندرييفنا كانت شديدة الحرص والتأني في مسألة النشر في

الصحافة. وقبل هذا كانت قد لجأت مرتين إلى النشر في الصحافة: في عام 1892 عندما نشرت في الصحافة رسالة مع نداء ودعوة للتبرع لمصلحة الجياع، وفي عام 1901 عندما كتبت رسالة مفتوحة إلى المطران بخصوص «حرمان» زوجها من الكنيسة. وكلتا الحالتين كانتا استثنائيتين.

وإذا كانت قد أرسلت في شهر آذار/ مارس عام 1905 رسالة مفتوحة إلى تشرتكوف في إنكلترا دفاعاً عن السلام، فهذا يعني أن هذا كان مبدئياً بالنسبة لها. ولكن ما هو المبدئي؟ أن تعبر عن رأيها ضد الحرب *عموماً*؟ أم أن تظهر للعالم كله أن موقفها يتطابق مع موقف زوجها وليس موقف ابنها؟ وبحسب شهادة ماكوفيتسكي، فالخيار الأول تم تصوره على شكل جدال مع ابنها. وقد ثنتها بناتها عنه. وعندها كتبت ضد الحرب *بشكل عام*.

«ياسنايا بوليانا

18 آذار/ مارس عام 1905

الصديق العزيز (dear friend)!

لمعرفتنا بأنك تعيش في الخارج، وتتفاعل بقلبك مع المعاناة التي نعيشها في روسيا، لا يسعني إلا أن أخبرك عن مشاعري وخاصة بخصوص الحرب، وكل ما يسبب الألم في قلبي.

من المحزن أنه لا توجد في روسيا وحدة في الآراء والمشاعر، بل على العكس، هناك اختلاف كامل في الآراء. وأكثر ما يزعجني مقالات في صحف لا أتعاطف معها مثل «نوفوي فريميا» و«موسكوفسكيي فيدوموستي» وغيرهما، وهي مقالات تصرخ وتدعو إلى استمرار الحرب وعدم الرغبة بعقد معاهدة سلام.

ودون الخوض في أي اعتبارات سياسية، رغم أنني على قناعة بأن استمرار الحرب ليس عديم الفائدة فحسب، بل سيؤدي أيضاً إلى المزيد من الأضرار والمزيد من الفوضى من الجماهير المتمردة، التي أيقظت فيهم الحرب ازدراء الأرواح البشرية، وشهوة الدم الوحشية غير الخاضعة للمساءلة - إنني ببساطة لا يمكنني فهم الناس الذين يجرؤون على الاستمرار بالدعوة للحرب!

أحقاً لا يوجد لدى الناس ما يكفي من المحبة البسيطة المباشرة للإنسانية، ولفهم الخير - ولمجرد أن يتصوروا كيف يعاني ضحايا الحرب الأبرياء، وأسرهم التي غادروها والتي تعاني من العذاب اليائس الذي تعاني منه روسيا كلها.

يتصور بعضهم أنه من المفترض أن يكون الشعب حكيماً وأن ينظر بهدوء إلى الحرب والسلام. وهذا ليس عدلاً ولا صحيحاً. أنا أعيش في القرية، وقد ودعت بنفسي ابني إلى الحرب. ورأيت عمليات الوداع هذه وعانيت منها والألم يعتصر قلبي - لكنني لم أر شيئاً آخر في أي مكان سوى البكاء والحزن، وإنكار ذلك العمل الذي أرسلوا إليه الناس، باستثناء حالات نادرة من شبيبة أبناء المثقفين وليس من الشعب.

لا يمكن للسلام أن يكون عاراً، كما يخشى كثيرون ذلك. إن الحرب التي خسرناها هي كارثة وليست عاراً. فالأمة البربرية روحياً، غير المسيحية، كاليابانيين، كان من المفروض أن تنتصر، لأن مبدأ الوطنية مغروس بقوة فيها، وهذا المبدأ يتعارض مع المبدأ المسيحي الداعي إلى محبة القريب، الذي بالتالي ينفي الحرب. فهم لم ينضجوا بعد إلى هذه المرحلة، أما الروس فيسيرون عليه.

وأخيراً، أي عار يمكن أن يكون أكبر من تعذيب الناس وإرغامهم وإجبارهم على ارتكاب أسوأ جريمة يمكن تصورها وهي حرمان الناس من الحياة بأقسى وأقذر وأعقد الطرق التي اخترعتها المدنية التي أسيء استخدامها؟

وأي قسوة هناك أشد وأكبر من ترك مئات الألوف من الأطفال وكبار السن بدون آباء أو أبناء، جائعين، عراة، يكادون أن يموتوا من البؤس؛ وإرغام مئات الآلاف من الزوجات والآباء والأطفال الباكين الذين يكادون أن يفارقوا الحياة من الكارثة، وترك الحقول دون زراعة، وإجبار الأجيال القادمة على تسديد ديون كبيرة للدولة.

فلتسقط جميع تلك الأراضي التي يستحوذون عليها بهذه الطرق القاسية المجنونة، وكي يزدهر من بقي حياً، ويمجد الناس حكامهم...

الكونتيسة صوفيا تولستايا».

نشرت الرسالة في صحيفة «التايمز» «Times» الإنكليزية أولاً، ثم نُشرت في فرنسا وألمانيا. في هذه المرة، كان يجب أن يشعر بالطعنة في نفسه ليف لفوفيتش. فسمعة الأب التي عمل الابن على زعزعتها، كانت بالنسبة لصوفيا أندرييفنا أهم من سمعة ابنها ومشاعره. ولشعورها أمامه ببعض الذنب، كتبت له بصدد رسالة «التايمز»: «لا تخش شيئاً، لن أتجادل معك، علاقاتنا قائمة على تربة أخرى، أما وجهات النظر السياسية والدينية والأخلاقية فهي لا تقوم على قاعدة العلاقات بين الأم والابن».

وقد اعترف لأمه في شهر أيار/ مايو بأنه يشعر بالعداء تجاه أبيه ليس عن قناعة بعدائه بقدر *استيائه* وغضبه منه: «أنا أحب أبي كثيراً، عندما لا أفكر بأنه لا يحبني. ولكن عندما أرى وأحس بأنه لا يهتم بي ولا يسأل عني، يغدو هو غريباً بالنسبة لي».

ليس في مكانه المناسب

تكتب صوفيا أندرييفنا في يومياتها، في نهاية عام 1904: «لقد هرم كثيراً ليف نيقولايفتش في هذا العام. فقد اجتاز خطوة أخرى. لكنه هرم وكبر بصورة جيدة. يبدو أن الحياة الروحية هي المسيطرة عنده، رغم أنه يحب الركوب، ويحب الأكل الطيب، وشرب كأس من النبيذ الذي أرسلته له جمعية سانت رفائيل للخمور بمناسبة عيد ميلاده؛ يحب اللعب بورق اللعب، وبالشطرنج، ولكن بالتأكيد جسده يعيش حياة منفصلة، أما روحه فلا تشاركه في الحياة الأرضية، وتبقى في مكان ما أعلى، مستقلة عن الجسد.

هذا الموقف التجاوزي للماديات يؤثر على علاقاته بذويه وأهله. تكتب صوفيا أندرييفنا: «لا أحد يعرفه ولا أحد يفهمه، أنا أعرف أفضل من الآخرين جوهر شخصيته وعقله. ولكن مهما كتبت، لا يصدقونني. إن ليف نيقولايفتش هو رجل كبير العقل والموهبة، رجل ذو خيال وحس رفيع، وحساسية غير عادية. لكنه رجل بدون قلب وطيبة حقيقية. إن طيبته *مبدئية وليست مباشرة*».

ويمكن قول العكس عن ليف لفوفيتش. فقد كان بالذات إنساناً طيباً وعاطفياً، لكنه من حيث العقل والموهبة كان متخلفاً عن أبيه بآلاف المرات. بيد أن هذا بحد ذاته ليس مخيفاً. لقد كان عيبه الرئيس أنه لم يكن لديه ما يكفي من الحساسية لفهم الحياة المحيطة، والأهم لفهم ذاته. أولاً، سيطرت عليه الأمزجة المقدسة. تكتب فاليريا أبراسيموفا: «منذ بداية الحرب الروسية – اليابانية، نضجت في وعي ليف لفوفيتش بصورة تدريجية فكرة مفادها أنه مقدّر عليه أن يصبح أحد منقذي الوطن». وثانياً، كان دائماً يقوم بتصرفات وأعمال لا تتفق مع إمكاناته الخاصة ومع ظروف حياة أهله والقريبين منه.

في خريف عام 1904 قرر أن يصبح بائعاً للكتب. فقد أراد أن يفتح مكتبة في الطابق الأرضي من منزله باسم «صفقة جيدة». وبالمناسبة، ساعدته أرملة دوستويفسكي في تنظيم مستودع المكتبة على شارع باسيينايا. وقد كتبت شقيقته تاتيانا، التي قدمت إلى بطرسبورغ في هذه الفترة، في يومياتها: «كان مشغولاً بمخزن الكتب الذي ينوي افتتاحه من أجل إعطاء فرصة للشخص الراغب بالحصول على كتاب أخلاقي، كي يعرف أين يستطيع شراءه». لكنها تشير أيضاً إلى: «أنه كتب مقالتين في صحيفة «نوفوي فريميا» متسمتين بالروح الوطنية، ولم أقرأهما، لعدم رغبتي بالإساءة إلى علاقتي به».

إنه يتصرف بعدم اتساق. فأثناء تردي علاقاته مع أبيه، ينوي بيع كتبه، باللجوء إلى مساعدة أمه. لكن صوفيا أندرييفنا، في حينها، *لم تنتزع* الحق ببيع كتب أبيه إلا بعد ذرف الدموع وإثارة الفضائح. وهي نفسها تبيع كتب تولستوي ضد قناعاته. والآن يقترح عليها ابنها أن تتنازل له عن حق الأولوية في هذه التجارة، دون أن يشعر بمدى عدم لباقة هذا الطلب ليس تجاه أبيه فحسب، بل تجاه أمه أيضاً. وتعيده أمه من جديد إلى مكانه...

«عزيزي ليوفا، وصلتني رسالتك مع طلبك بعدم إعطاء الكتب لمستودع ستاسيوليفيتش. أنا شخصياً قلت لك من قبل إنني لست موافقة على هذا، لأنني أرى أنه من الأنسب للعمل الذي أقوم به، أن أعطي لستاسيوليفيتش –وهي شركة معروفة وواسعة الانتشار– على عمولة الكتاب. وهي تسدد الأموال بشكل صحيح ووفير، لهذا لا أملك سبباً أو ذريعة لأرفض إرسال الكتب لهم. عموماً، كان بودي، طالما أن مسألة النشر لا تزال بحوزتي، أن

أبقى حرة كما أنا حتى الآن، ولا أرتبط بقضية غامضة، غير واضحة، معك مثلاً، عندها يمكنني أن أرتبك، وأن أُسيء لا قدر الله إلى علاقتك.

أنت تضع ن. ب. مكارنكو (رئيس مستودع في خاموفنيكي -*المؤلف*) في ظروف صعبة، بإعطائه أوامر بعدم إعطاء الكتب لهذا أو لذاك. وهو على أية حال، لن يطيع أحداً سواي، وهذا ما طلبته منه وفي المستقبل هو وحده، كما أظن، سيكون العادل. على سبيل المثال، أنت تكتب بعدم إرسال الكتب إلى مستودع كارباسنيكوف. ليس لديه مستودع، بل لديه عدة مخازن لبيع الكتب. إنه فعلاً يجري حسماً قدره 5% على كتبنا: وماذا يهمني؟ وهو أيضاً تنازل عن 5% من أسعار القواميس، وكل الشكر له.

عموماً، أنت تمارس هذه المسألة بكثير من الحدة والعجلة والحركة الزائدة، دون أن تستوعب الظروف المختلفة. لهذا، أرجوك، لا تدخلني في قضاياك أكثر مما أراه ممكناً. إذا ما سار عملك بشكل جيد، واكتسبت شركتك الثقة والشهرة، فمن الطبيعي أن يأخذوا من عندك الكتب أكثر من عند غيرك. ولماذا «*صفقة جيدة*»؟ بدأ الكثير يضحكون من هذه اليافطة، وهذا شيء مؤسف، أليس من الأفضل تغييرها؟».

لقد أثار أول مشروع تجاري لليف لفوفيتش، نوى فيه بصدق الجمع بين المهام الأخلاقية والتنويرية، رفضاً حاداً من جانب صوفيا أندرييفنا. ومن جديد وجد نفسه بين أبيه وأمه شخصاً ثالثاً زائداً ضمن منظومة معقدة وهشة من المشاحنات والتسويات الوالدية.

لم تنجح مسألة فتح مخزن الكتب. عندها قرر تأسيس صحيفته الخاصة.

لم يكن يناسبه تماماً دور الكاتب الاجتماعي الصحفي الرائد، كما في صحيفة «نوفوي فريميا»، لا سيما أنه من حيث الشهرة في الصحيفة، كان أقل شهرة من أسماك القرش الكبار مثل روزانوف ومينشيكوف. حتى إن سوفورين كان يبدو له ليس ذلك الشخص الذي يستطيع إنقاذ روسيا.

وقد كتب في «تجربة حياتي»: «لم يكن ألكسي سيرغييفيتش (سوفورين -*المترجم*) ذلك الشخص المثقف والمتطور بما فيه الكفاية من أجل إدراك متطلبات عصره. كان محافظاً ورجعياً، رجل أعمال بسيطاً، ورجلاً روسياً

ثرياً ماكراً، ولم يكن يعرف أكثر من الآخرين ما تحتاجه روسيا. وكانت صحيفته تساير الحكومة في خطواتها، لهذا من الطبيعي أنها كانت تجلب الضرر أكثر من النفع».

وعندما يتوفى سوفورين في 24 آب/ أغسطس عام 1912 في تسارسكوي سيلو (القرية القيصرية)، يكرس له ليف لفوفيتش خطبة تأبينية مؤثرة، يقول فيها: «لم يكن يكذب، كان يقول الحقيقة مباشرة وببساطة، عندما كان يؤمن بها. كان يفهم روسيا ويشعر بها...».

على أي حال، كان رجلاً في مكانه المناسب. كان من غير الممكن تعداد جميع وظائفه وأدواره: كاتب، كاتب مسرحي، كاتب اجتماعي، ناقد مسرحي، ناشر صحف وكتب، شخصية اجتماعية وسياسية. على معرفة قريبة بتولستوي ودوستويفسكي، نصير تشيخوف وحاميه، رب عمل روزانوف، ومينشيكوف وليف لفوفيتش. قطب من أقطاب الصحافة، مالِك لمحلات وأكشاك في جميع أنحاء روسيا، مؤسس لمسرح خاص به، واسع المعرفة بالكتب، ببليوغرافي... واضع أول الكتب المرجعية ذات المستوى الأوروبي: «موسكو كلها»، «بطرسبورغ كلها»، «روسيا كلها»...

أما ذلك الشخص الذي كتب عنه تشيخوف عبارته الشهيرة حول ضرورة أن يخرج «من نفسه قطرة من العبودية» فكان يقصد شخصاً آخر غير سوفورين. لقد كان تشيخوف صريحاً معه أكثر من أي شخص آخر. وهو الناشر الوحيد الذي كان يمكن أن يكتب له تشيخوف: «أود بشغف أن أتحادث معك. نفسي تغلي. لا أريد أحداً سواك، لأنه معك فقط يمكن الحديث».

دعا لينين صحيفة «نوفوي فريميا (العصر الحديث)» بأنها «نموذج للصحف المأجورة». وبرأي قائد الثورة فقد أصبحت «وكالة العصر الحديث» «تعبيراً يماثل مفاهيم التراجع إلى الوراء، والارتداد، والتملق». وقد وجهت التهمة لسوفورين بأنه يتلقى الدعم من الحكومة الروسية ومن هيئة الأركان الفرنسية في الآن نفسه. وقالوا عنه إنه يملك في جيبه أربعة ملايين روبل، وثلاثة منازل، ويستغل الكتّاب الفقراء. وقد كتب في يومياته: «... لم أكن أستغل أحداً، ولم أضغط على أحد، بل على العكس، كنت

أفعل كل ما يفعله معلم جيد تجاه العاملين عنده وموظفيه... تقدم الصحيفة ما يصل إلى ستمائة ألف في السنة، وليس لدي شيء سوى الديون، أي لا يوجد عندي مال. ثمة مؤسسة كبيرة جبارة، تصل أعدادها اليومية إلى المليون، وأنا حتى الآن لا أعرف أي ترفيه، وأية متعة، سوى العمل الشاق. لم أكن مقتصداً ولا موفراً في المال، ولم أنظر إلى المال نظرة شيء يستحق الاهتمام».

قبل أن يبدأ سوفورين بـ «استغلال» تشيخوف، أسكنه في منزله، وجعله بمنزلة فرد من أفراد عائلته. وكان طيلة حياته يهتم به كأنه ابنه. وعندما مات تشيخوف في ألمانيا، كتب روزانوف: «أذكر سوفورين عند استقباله لنعش تشيخوف في بطرسبورغ: كان يركض بعكازه (كان يسير بسرعة كبيرة)، يشتم باستمرار الطرق السيئة، وسوء قَطر العربات الحديدية. عندما كنت أنظر إلى وجهه وأسمع كلماته المتقطعة، بدا لي كأنني رأيت أباً نقلوا له جثة ابنه الصغير أو جثة شاب واعد، توفي قبل الأوان... وكان فقط ينتظر وينتظر... ويريد،... ويريد النعش!».

ولد سوفورين في أسرة فلاح حكومي فقير في قرية كورشيفو من إقليم بوبروف في مقاطعة فورونيج. كان أبوه أمياً. والكتاب الوحيد في منزلهم كان الإنجيل مترجماً إلى اللغة الروسية من قبل جمعية الكتاب المقدس. وهاكم مثالاً حياً على مصير الإنسان في الإمبراطورية الروسية: فبفضل خدمته العسكرية الشريفة ارتقى والد سوفورين في الخدمة العسكرية إلى رتبة نقيب -ركن، ما أعطاه حق وراثة النبالة. تخرج أبناؤه من فيلق ميخائيلوف للطلاب العسكريين في فورونيج، وعين أحد أبنائه طالباً داخلياً لدى أكبر مَلاّك للأرض في فورونيج، الذي تبرع لهذا الفيلق بمليون روبل. بعد أن درس ست سنوات في هذا الفيلق، انتسب سوفورين في عام 1851 إلى صفوف الفوج النبيل، الذي تحول فيما بعد إلى مدرسة كونستانتينوفسكي الحربية. ثم انتقل إلى الصحافة والأدب، وإلى النشر، وأصبح ما هو عليه- من كبار رجال الصحافة والنشر، ومحبوب المسرحيين، وحامي الكتّاب.

وباعتباره روسياً عريقاً، كان سوفورين يحب أوروبا، ويسعى لإنجاز كل ما يعمله على أعلى مستوى أوروبي. فقد كان يصدر كتباً فاخرة باهظة

الثمن، وكتباً غالية، وكتباً رخيصة جداً. وكل هذا فيما بعد، وكل ما كانت تعيد نشره دار النشر الحكومية «غوس إزدات»، كان سوفورين قد أصدره من قبل. وقد أسس أول شبكة عامة في روسيا لنشر الكتاب: ولم يكتف بافتتاح المكتبات ومخازن الكتب في جميع أنحاء البلاد، بل اتفق مع إدارة السكك الحديدية الروسية فعُرضت كتبه وأكشاكه في أقصى محطات السكك الحديدية النائية.

إذا ما عزم على تأسيس صحيفته الخاصة، كان ليف لفوفيتش يفكر حقاً بمنافسة سوفورين، وبالتالي كان محكوماً عليه بالفشل. فهذا «الرجل الذكي الماكر» كان يفهم في هذه المسألة أكثر بكثير من ابن الكونت. لكن ليف لفوفيتش كان يعتقد أن روسيا يمكن أن يحكمها «فقط عمالقة الروح والعقل». وسوفورين، برأيه، لم يكن من بينهم.

وبالمقابل كان عملاق الروح هو، والد ليف لفوفيتش. وكان هو أول من لجأ إليه من أجل الدعم، عندما «فكّرت بإصدار صحيفتي الوطنية الخاصة، نظراً لأنه لا الصحيفة المحافظة، ولا الصحيفة الليبيرالية الروسية آنذاك لم تعد ترضي أفضل المجتمع الروسي...».

ولكن، بادئ ذي بدء، كانت هناك حاجة للمال.

فقد نشر نداءً لتأسيس صحيفة على شكل «جمعية مساهمة» في «نوفوي فريميا». وتدفقت رسائل الدعم في البداية كالنهر. وقد تذكر ليف لفوفيتش: «كتب مئات من الناس الراغبين بالدخول كمساهمين في الصحيفة، منهم أناس عاديون، ووزراء سابقون، وشخصيات اجتماعية بارزة».

ووفقاً لعمليات البحث الأرشيفية التي أجرتها فاليريا أبراسيموفا، فبحلول شهر حزيران/ يونيو عام 1905 جمع أسهماً بمبلغ خمسة وأربعين ألفاً وستمائة وسبعة وأربعين روبلاً. أما المبلغ المطلوب فكان خمسين ألفاً. أي أن المال اللازم قد تم جمعه عملياً. ولكن فجأة توجه ليف لفوفيتش في 31 آب/ أغسطس ببيان إلى المساهمين يعلن فيه التخلي عن مسؤولية إصدار صحيفة. وخلال ذلك فإن الأموال المرسلة لإصدار الصحيفة يمكنه أن يصرفها لتأسيس مكتبات عامة شعبية. فما الذي حدث؟

وأوضح ذلك بقوله، إن «المساهمين في الصحيفة المزمع تأسيسها لم يدعموني بالشكل الكافي. وعندما سعيت بجدية لطلب مساعدة الحكومة، تراجعت الحكومة ولم تف بوعدها الذي قطعته لي بتقديم المطبعة الحكومية لطباعة الصحيفة». وكان هذا يعني عملياً، أنه لم ينتج سوفورين جديد من ليف لفوفيتش. فاللعب في سوق الصحافة يتطلب مكراً، ولم يكن ابن تولستوي يتمتع بهذه الصفة. كما أن الأب لم يقدم للابن أي مساعدة في هذه البداية. وبالذات في هذه الفترة، لم يعد تولستوي يقرأ الصحف، وقارن نفسه خلال ذلك بمن يقلع عن التدخين. وعندما قدم في شهر آذار/ مارس عام 1905 إلى ياسنايا بوليانا الصحفي رومانوف، أحد العاملين المحتملين في الصحيفة المزمع افتتاحها، تحدث تولستوي عن الصحيفة بصورة سلبية، وأطلق على الصحف اسم «الدعارة».

مع ذلك، وعد تولستوي بكتابة «أمنية» للعدد الأول. ولكن من المستبعد أن هذه «الأمنية» كانت ستطمئن الابن. كان من المفترض أن تُسمى الصحيفة «روسكي نارود» (الشعب الروسي). وكما أوضح رومانوف، «يجب أن تكون الصحيفة أولاً، روسية نقية، سلافية، توحد الروس، والكادر العامل فيها روسياً. وثانياً، يجب أن تقوم على المبادئ المسيحية» (تسجيل ماكوفيتسكي). كان هذا المزيج في عيني تولستوي أسرة رقطاء. فقد كان موقفه سلبياً للغاية من محاولات دمج العقيدة المسيحية مع العاطفة الوطنية، وهذا ما كتب عنه في مقالته «المسيحية والنزعة الوطنية».

لقد كانت النزعة الوطنية أو القومية (لم يميز تولستوي بين هذين المفهومين) في عينيه مرتبة وثنية أدنى من الأخلاق الاجتماعية. إنها عاطفة أنانية مثلها مثل الحب الأسري. والمسيحية فوق هذا كله.

وأخيراً كان تولستوي يقف موقفاً سلبياً من العمل الصحفي من حيث المبدأ. أما مقالات ابنه فقد وصفها على النحو التالي: «إنها تصلح كأوراق لتعبئة البضاعة، ومع ذلك يجب أن يكون المرء حذراً. يجب على المرء أن يفكر قبل أن يكتب. أما أن يكتب لكسب الرزق فهذه دعارة. ماذا يكتب ابني؟ إذا ما اعترضت على كتاباته، فيجب تحديد كل كلمة».

لقاء مع القيصر

مشهورة كلمات سوفورين التي وردت في يومياته: «لدينا قيصران: نيقولاي الثاني وليف تولستوي. أي منهما الأقوى؟ لا يمكن لنيقولاي الثاني أن يفعل أي شيء لتولستوي، ولا يمكنه أن يهز عرشه، في حين أن تولستوي سيهز عرش نيقولاي وسلالته بلا شك».

لقد كانت هذه حقيقة. ولكن لماذا لم يلتق *القيصران*، وجهاً لوجه؟ ليس للحديث عمّن هو الأقوى بل كيف عليهما مساعدة روسيا، الواقعة في كارثة. مع ذلك، فقد حصل هذا اللقاء في كانون الثاني/ يناير عام 1905. التقى القيصر بليف تولستوي-الابن. لقد كان هذا حدثاً هاماً بالمعنى الرمزي. فمهما اختلف الابن مع أبيه حول الموقف من الحرب، كانت لديهما قيم مشتركة. فكلاهما كان يحب روسيا والشعب الروسي، الذي أنقذاه معاً من المجاعة في أوائل التسعينيات. وكلاهما كانا معارضين للثورة.

لقد سبق الاجتماع مع القيصر رسالتان أرسلهما ليف لفوفيتش إليه. من غير اللائق الحديث عن الرسالة الأولى لأنها كانت تحتوي ليس على طلب ابن الوطن، بل على طلب كاتب مسرحي مجروح، لم تسمح الرقابة بعرض مسرحيته «وراء كواليس الحرب» على خشبة مسرح ألكسندريسكي. وكتب ليف لفوفيتش أنه «سيكون سعيداً» لو قرأ القيصر شخصياً مسرحيته، وأمر بعرضها في مسرح بطرسبورغ الرئيس.

أما رسالة ليف لفوفيتش الثانية، التي كتبها في 14 يناير/ كانون الثاني عام 1905، فكانت مطالبة جادة بالاجتماع الشخصي معه. ومن الأهمية بمكان، أن هذه الرسالة قبل أن يرسلها للقيصر، أظهرها لأبيه مسبقاً. فوافق تولستوي على مضمونها.

في هذا الوقت بدأت الثورة الروسية، التي سبقها يوم 9 كانون الثاني/ يناير – الأحد الدامي. وقد شهد ابن تولستوي نفسه هذا الحدث، «رأيت الكاهن غابون السريع، ذا العينين السوداوين، الذي كان يحرض الحشد في شارع نيفسكي». وكاد يسقط بالرصاص مع اثنين من الأولاد توجه معهما للتزلج على الضفة: صرخوا على الحشد الكبير كي لا يستدير ويتوجه إلى قصر الشتاء.

لقد كُتبت الرسالة إثر الأحداث الساخنة وعشية أحداث أكثر سخونة وتوتراً...

«أعتبر من واجبي أن أبلغكم يا صاحب الجلالة، أن حياتكم وأمن روسيا معرضان لخطر كبير. بعد الأحداث الدموية لهذه الأيام التقيت وتحادثت مع مئات من الأشخاص المختلفين وخرجت بانطباع محبط يائس جديد عن الحالة المزاجية السائدة في المجتمع وبين أفراد الشعب كافة».

وقد رأى كاتب الرسالة المخرج في الدعوة إلى الانعقاد العاجل للمجلس النيابي (زيمستفو)، على الرغم من الأحكام العرفية. «كان من الواجب عقد اجتماعات المجلس خلال هذا الربيع. وكان يمكن للمنتخبين من مجالس القرى، والمدن، والفئات والجمعيات المختلفة أن يفدوا إلى بطرسبورغ، وكان هذا سيحيي ليس الجمود السائد في الفترة الأخيرة في حياة العاصمة، الذي تنمو فيه نوايا وأغراض سرية سيئة، فحسب، بل سيحيي أيضاً الحياة الداخلية لروسيا كلها، ويبعث الأمل، ويقمع الاضطرابات، ويمكن أن يؤثر تأثيراً منشطاً ومفيداً على الجيش الروسي هناك في الشرق الأقصى، استجابة للاندفاع العام للشعب، ما يمكن أن يعطي النصر المنشود على العدو في أسرع وقت».

لم تكن فكرة افتتاح اجتماعات مؤتمر نواب زيمستفو فكرته وحده فقط. فقد عرضها في 12 كانون الثاني/ يناير رؤساء تحرير صحف بطرسبورغ على وزير الداخلية بيوتر دميتروفيتش سفياتوبولك-ميرسكي عند استقباله لهم، وقد زاره ابن تولستوي في 14 كانون الثاني/ يناير وحدثه عن الأمزجة السائدة بين الناس وفي المجتمع. وعموماً، كانت فكرة عقد مؤتمر نواب زيمستفو قريبة من سفياتوبولك-ميرسكي الذي علق عليه الليبراليون آمالهم بعد قدومه إلى منصب وزير الداخلية في شهر آب/ أغسطس عام 1904 إثر مقتل بليفي. وجرى الحديث عن بداية «عصر الثقة» وعن «ربيع الحياة الروسية». وكان سفياتوبولك-ميرسكي قد طلب من القيصر نيقولاي الثاني في تشرين الثاني/ نوفمبر عام 1904 افتتاح جلسات مجالس نواب الزيمستفو. لكن طلبه قوبل بالرفض. وعقد مؤتمر كـ «اجتماع خاص لقادة الأرياف».

كما طالب رؤساء التحرير أثناء استقبال الوزير لهم «بمنح الصحافة حرية كاملة في نقل الوقائع والأخبار وأحداث الحياة العامة ومناقشتها». وهذا

الاقتراح الثاني لم يرد في رسالة ليف لفوفيتش إلى القيصر، لكنه وقف بصورة غير مباشرة ضد حرية الكلمة، وكذلك ضد القمع. «لا شيء سوى مثل هذا *الإجراء الحكومي الناضج* (افتتاح جلسات نواب الزيمستفو -*المؤلف*)، العملي البحت، يمكنه أن يساعد روسيا الآن. ولا أية حرية جديدة، ولا أية وعود جديدة، ولا أي عمليات قمع».

وفي الرسالة التالية للقيصر، التي كتبها في كانون الأول/ ديسمبر عام 1905 دعا ليف لفوفيتش القيصر مباشرة إلى تشديد الرقابة: «يجب حظر أي مظهر من مظاهر التطلعات الثورية، والقضاء عليها في المهد، *واجتثاثها من جذورها* بعشبتها المريضة. ويجب على القضاء أن يعاقب الصحافة على الفور، وأن يعاقب كل ما يعارض الخير العام والمصلحة العامة، وكل شر ما وهو الذي لا يمكنه أن يصبح مشروعاً أبداً، لا يجب أبداً التسامح معه».

نشير هنا، أن هذه الرسالة كُتبت بعد البيان الشهير حول منح حرية التعبير.

بالمناسبة، انتسب ليف لفوفيتش إلى حزب «اتحاد 17 تشرين الأول/ أكتوبر»، الذي انبثق عن الموجة السياسية لهذا البيان. وأراد الترشح منه إلى الدوما (البرلمان). ولكن هنا، كما في حالة تأسيسه لصحيفة مستقلة، أصابته خيبة أمل مفاجئة، وغادر صفوف هذا الحزب.

ومع ذلك، وحتى في هذا الاستخفاف بحرية الكلمة، بل وحتى الموقف السلبي منها، لم يكن الابن على خلاف كبير مع أبيه. فحرية الكلمة لم تكن بالنسبة لليف تولستوي قيمة أساسية قاعدية. وعلى أية حال، لا توجد أية إشارة إليها في رسالته إلى «القيصر ومساعديه» التي يصر فيها تولستوي على حريات أخرى:

حرية تنقل الفلاحين، حرية فتح المدارس الخاصة، وحرية التديّن.

وبحسب قناعة تولستوي، الذي كان هو نفسه يعاني من الرقابة، فإن *كلمة الله ستجد بنفسها طريقها الخاص*.

وعموماً، لم يكن هذا الشيء الرئيس في رسالة ليف لفوفيتش الثانية. الشيء الرئيس كان هذا:

«لقد حان الوقت، يا صاحب الجلالة، عندما لم يعد من الممكن حكم روسيا كما كانت تحكم من قبل. فالقيصر بحاجة إلى مساعدين، مساعدين

حقيقيين، يدركون ويشعرون بحاجات الشعب الملحة. - لقد حان الوقت لوجود وسيط بين القيصر ورعاياه».

كأن الحديث كان يدور حول جلسة نواب الزيمستفو. ولكن في نهاية الجملة الأخيرة، يحل الجمع فجأة محل المفرد. ومثل هذا التحول اللفظي الكلامي يحدث أيضاً في رسالة ليف لفوفيتش الثالثة المكتوبة بعد لقائه مع القيصر. في بداية الرسالة يذكر مجموعة من الأشخاص الذين يمكنهم، حسب وجهة نظره، «التجمع» حول القيصر ودراسة مسألة عقد مجلس نواب الزيمستفو دراسة كاملة نهائيةً. وهذه المجموعة هي: دميتري نيقولايفتش شيبوف، أحد منظمي حزب «اتحاد 17 أكتوبر» لاحقاً؛ الأمير بوريس ألكسندروفيتش فاسيلشيكوف؛ الأمير بافل دكيتروفيتش دولغوروكوف، أحد مؤسسي «اتحاد التحرير»؛ الأمير ميخائيل فلاديميروفيتش غوليتشين؛ الفيلسوف سيرغي نيقولايفتش تروبيتسكي؛ أحد زعماء نواب الزيمستفو يوري ألكسندروفيتش نوفوسيلوف؛ الأمير إسبر إسبيروفيتش أختومسكي، صديق نيقولاي الثاني منذ الطفولة؛ المؤرخ فاسيلي أوسيبوفيتش كليوتشيفسكي وغيرهم.

ولكن مع اقتراب الرسالة من نهايتها يتحول التركيز فجأة على شخص واحد: «يا صاحب الجلالة، بعد لقائي معكم، فكرت في نفسي: <<لو كان من الممكن أن أكون مفيداً، لو أن الإمبراطور استدعاني، لرميت كل شيء - جميع أعمالي، مصالحي، أسرتي وذهبت لأخدمه، من أجل خيره المرتبط ارتباطاً وثيقاً بخير روسيا...>>».

وأخيراً في الرسالة المكتوبة في أيلول/ سبتمبر عام 1912، يتوسل ليف لفوفيتش إلى القيصر *ليستدعيه وحده* بمنزلة مستشار: «استدعوني! سأساعدكم! ولن يعلم بهذا سوى الله وحده».

وبحسب مذكرات ابنه بافل، وبعد لقاء أبيه مع القيصر، أخذت دورا على سبيل المزاح تسمي زوجها «المستشار السري». ولكن على ما يبدو، هذا لم يكن مزاحاً بالنسبة لليف لفوفيتش. ففي فترة زمنية كان يعلل نفسه بالحلم: بأن يصبح حامل النصر الجديد للقيصر الجديد. لكنه ليس حامل النصر ذاك

الذي «جمد روسيا»، حسب تعبير كونستانتين ليونتيف، بل حامل النصر ذاك الذي «يمد عليها أجنحة البوم»، حسب قول بلوك. لقد كان ليف لفوفيتش يرى نفسه في دور المصلح. وليس مصلح النظام السياسي فحسب، بل ومصلح الكنيسة الروسية، وهذا ما كتب عنه صراحة للقيصر في رسالة أيلول/ سبتمبر عام 1912: «عندما تكون أنت وحدك، يا صاحب الجلالة، قادراً على وضع حد ومواجهة هذا الشر الكبير -تكاسل وخمول الشعب الروسي (قصد الأعياد الأرثوذكسية الكثيرة جداً -*المؤلف*)- فبكلمة واحدة منك يمكنك تخليص روسيا من هذه التبعية العبودية للحياة الشعبية والعامة والحكومية لسلطة الكنيسة، من النير الذي يقيد روسيا؟!... *أعد بناء الكنيسة، يا صاحب الجلالة، بيد قوية!*».

ومن الطريف في الأمر، أن ليف لفوفيتش في رسالته لعام 1905، وفي توسله بأن يصبح مستشاراً سرياً (كان من المستحيل تقييمها بشكل آخر)، وعد «بترك أسرته». فماذا يعني بذلك؟ لو كانت هذه مجرد عبارة شخصية بلاغية كلامية، لأعطت انطباعاً عن المستشار المحتمل بانعدام حساسية مقصود في شخصيته لصاحب الجلالة. فقد كان نيقولاي الثاني معروفاً عنه بأنه رب أسرة نموذجي بل ومثالي. وكان الجميع يعرف سبب تأثير غريغوري راسبوتين عليه، محبوب الإمبراطورة وولي العهد. ولكن هنا يبرز سؤال بشكل ملح: عن أية أسرة كان يتحدث؟ عن زوجته دورا وأبنائه؟ أم عن أسرة أبيه التي ينتسب إليها ليف لفوفيتش؟ وهذا لم يكن سؤالاً خاملاً، كما قد يبدو. فلو أصبح بالفعل فجأة، ليف تولستوي-الابن مستشاراً سرياً للقيصر، لكان مضطراً لإعادة النظر في العلاقات مع ذاك الذي كان يهز دعائم العرش القيصري، حسب تعبير سوفورين.

على الأرجح، لم يكن الأب يعرف إلى أي مدى وصل ابنه في علاقاته مع القيصر. لكنه أيد رسالة القيصر حول عقد مجلس نواب الزيمستفو، حيث كان قد قرأها قبل أن يرسلها ابنه للقيصر. بيد أن لهجة هذه الموافقة كانت موضع شك كبير.

«عزيزي ليوفا، أمك في موسكو، وقد استلمت رسالتك مع رسالتك إلى القيصر. الرسالة جيدة. لكن البابا أكثر حكمة ولباقة منا: فقد سأل مسبقاً: هل

يرغب القيصر بالإصغاء إلى نصيحته؟ بالطبع، عقد مجلس نواب الزيمستفو يكاد يكون هو الحل الأكثر حكمة، ولكن من الصعب توقعها من حكمتهم».

والمقصود بـ «البابا» بابا روما، بيوس العاشر، الذي كان قد انتخب منذ فترة قصيرة لهذا المنصب الرفيع، والذي أرسل للقيصر الروسي اثنين من حرسه للسؤال: ألا يستطيع أن يساعده بالنصيحة في هذه الفترة العصيبة؟ لقد أعجب تولستوي بلطافة هذا التصرف. وفي 18 كانون الثاني/ يناير عام 1905، أثناء مناقشة هذه المسألة بين المقربين في ياسنايا بوليانا، لاحظ قائلاً: «-هذا ما عليك أن تتعلمه- عليك أن تسأل أولاً، لا أن ترسل مباشرة رسائل وتبعث معها نصائحك».

وكأن تولستوي نسي أن أول حركة سياسية له كانت رسالته إلى القيصر ألكسندر الثالث *التي نصح فيها* القيصر بعدم إعدام الإرهابيين – قتلة والده المكلل. بينما في عام 1905، وحيث كان الوضع متأزماً: حيث كان يتوقف الطريق الذي ستسير عليه روسيا على هذا القرار أو ذاك للقيصر الشاب. ولم يسأل تولستوي من خلال شخص عادي ما: هل يرغب الإمبراطور بالاستماع إلى نصيحته؟ بل على العكس، من خلال ستراخوف ومن خلال عمته-فريلينا، سعى إلى أن تصل الرسالة إلى القيصر على الرّغم من معارضة بوبيدونوستسيف. وبالطريقة نفسها تصرف عندما كتب في التسعينيات للقيصر نيقولاي الثاني عن اضطهاد «الدوخوبوريين». عموماً، رسائل تولستوي للقياصرة، سواء منها المغلقة أو المعلنة للجمهور، لم تكن ظاهرة نادرة. وهو قبلها لم يجر أية «استخبارات»: هل يرغب القياصرة بالإصغاء إليه، إلى ليف تولستوي؟فلمَ اتخذ من اندفاعة ابنه موقفاً ساخراً إلى حد ما؟

كان لهذا سببان. الأول – أنه لم يكن يثق بمجلس نواب الزيمستفو. كان تولستوي يعتقد أن المجلس ضروري لنيقولاي نفسه، بادئ ذي بدء، من أجل المحافظة على الحكم، ومتابعة الحرب، وتوقيع معاهدة سلام، مستنداً إلى دعم ممثلي فئات السكان الواسعة. بيد أنه لم يكن يؤمن لا بنمط الحكم البرلماني، ولا بالدستور، حتى إنه اعتبرهما ضارّين، يشتتان الانتباه عن الموضوع الرئيس.

وقد قال تولستوي في حلقة المقربين منه: «الدستور سوف يعني صرف الانتباه عن قضية الأرض، وعن تطوير الذات نحو الكمال. نحن الروس سعداء، لأننا نرى بوضوح سوء الحكومة وعدم صلاحيتها».

أما السبب الثاني فهو أنه لم يكن يثق بابنه كمستشار قيصري. ومن هنا تأتي سخريته الظاهرة: فمن هو ابنه ليوفا كي ينصح القيصر، إذا كان بابا روما نفسه لم يجرؤ على القيام بذلك بصورة مباشرة!

بعد لقاء ليف لفوفيتش والقيصر نيقولاي الثاني، كتب تولستوي في يومياته: «لقد كان ليوفا عند القيصر، وأنا مسرور بهذا. ومن الغريب القول إن هذا قد حررني *نهائياً* من الرغبة في التأثير على القيصر».

إن تولستوي قد «نفض يديه». كأنه أعطى الحق لاثنين ليسا على درجة عالية من الذكاء، لكنهما متكبران، وهما القيصر وليوفا، لمعالجة وحل المسائل الميئوس منها. وبقي هو نفسه خلال ذلك على قمة روحية بعيدة المنال. لم تكن المسائل السياسية تهم تولستوي كثيراً. كانت تهمه، مثله مثل جميع الفلاحين الروس، مسألة الأرض، وكفيلسوف كان يهتم بالكمال الأخلاقي. عندما جاء إليه في كانون الثاني / يناير 1905 الحِرَفي والشخصية الاجتماعية ألكسندر غنريخوفيتش شتانغي، الذي كانت لديه خطة لعقد مؤتمر لمجلس نواب الزيمستفو، أرسله إلى ليف لفوفيتش قائلاً لهما في الوداع: «أرجو لكما التأثير على الناس الطيبين». أما عن المجلس فقد قال عنه عبارة واحدة: «مجلس نواب الزيمستفو ضروري للقيصر. وهذا شأنه». ورد على سؤال شتانغي، كيف يمكن العيش في الزمن الصعب بالنسبة لروسيا، قال تولستوي: «هكذا نعيش».

وفي العام نفسه، غاب نهائياً عن الساحة السياسية عدوه الأيديولوجي الرئيس في القصر كونستانتين بتروفيتش بوبيدونوستسيف. وقد اعتبر المرسوم الصادر في 17 تشرين الأول/ أكتوبر بمنزلة إهانة شخصية له، وغادر جميع مناصبه: المدعي العام للسينودوس، عضو مجلس الوزراء، وزير وعضو مجلس النواب، مع احتفاظه بعضويته الاسمية في مجلس الدولة. وقد توفي بعد عامين. ولكن قبلها تمكن من إظهار تأثيره على

الإمبراطور الأخير. فعندما طلب الأمير سفياتوبولك - ميرسكي من القيصر نيقولاي عدم دعوة بوبيدونوستيف للاجتماع الحكومي في كانون الأول/ ديسمبر عام 1904، حيث نوقشت على وجه التحديد، مسألة إدخال الممثلين المنتخبين إلى مجلس الدولة، تصرف القيصر بالعكس تماماً. فقد دعاه بمذكرة خاصة: «لقد تشوشنا. ساعدنا للتخلص من هذه الفوضى».

لقد أغلق خطاب بوبيدونوستسيف، الذي ذكّر فيه القيصر أن سلطته ممنوحة من الله، ولا يحق له أن يحد منها، إلى الأبد هذا الموضوع السياسي. وبعد أن عاد سفياتوبولك - ميرسكي من اجتماع مجلس الوزراء، أعلن لموظفيه: «لقد انهار كل شيء... سوف نبني السجون...».

وبحسب بعض المعلومات، فإن لقاء القيصر مع تولستوي الصغير قد قام بترتيبه سفياتوبولك - ميرسكي، آملاً التأثير على القيصر باسم الزائر الكبير. ولكن، وبحسب ذكريات ليف لفوفيتش، فقد استقبله القيصر بلا مبالاة:

«التقت بي دزينة من البوابين في قاعة المدخل، ومن بينهم زنجي قيصري. في قاعة الانتظار الصغيرة لم أنتظر أكثر من عشر دقائق، وها هو المساعد المناوب الكونت غرابي يفتح لي باب مكتب نيقولاي الثاني. غرفة صغيرة، مفروشة بصورة متواضعة، طاولة عليها أوراق، رفّان، ثلاثة أرائك - هذا هو الفرش كله».

تحدث ليف لفوفيتش مباشرة عن مجلس نواب الزيمستفو، محاولاً إقناع القيصر بأنه يلزمنا «هذا الشكل من البرلمان الروسي».

- «نعم -قاطعني القيصر- وأنا أيضاً أريد برلماناً، ولكن بروح روسية بالذات».

«وأكد على هذه الكلمات، رغم أن الجملة كلها قيلت بلهجة، وكأن القيصر تنازل للتو أمام الرأي العام، لكنه لم ير هو نفسه ضرورة ذلك. لم يكن هناك موقف جاد تجاه هذا الموضوع، الذي كانت تدرك أهميته البلاد كلها».

أعرب ليف لفوفيتش عن أمله بأن يشكل الفلاحون الأغلبية في المجلس.

قال القيصر: «إنني أفكر في الفلاحين، بادئ ذي بدء. إنهم همي الأساسي».

ثم أخرج القيصر علبة سجائر وأشعل سيجارة. وسألني:

- هل تدخن؟

- لا يا صاحب الجلالة. لقد تركت التدخين. في الوقت الحالي، أتبع نمط حياة صحياً للغاية. أنام والنوافذ مفتوحة، حتى في الشتاء، أتزلج على الجليد، أستخدم الحمامات الباردة. العقل السليم في الجسم...».

«واللحوم؟ -سألني القيصر- والدك - نباتي؟» - أجبته: «نعم، والدي نباتي، وأنا جربت أربع سنوات ثم عدت لأكل اللحوم».

- «اللحوم ضرورية لي -قال القيصر- وبدونها أضعف. إنها ضرورية لصحتي». يبدو أن هذه المسألة كانت تهم القيصر.

كان الحديث فاتراً بطيئاً. وفجأة، شخص ما أحدث ضجة خلف الباب، وتغير وجه القيصر! «أشرق وجهه، والأهم لمعت عيناه، ونهض، لكنه لم يقل لي شيئاً، فأدركت أن الوريث، ولي العهد، ركض نحو أبيه... المقابلة انتهت...».

في 27 كانون الثاني/ يناير كتب نيقولاي الثاني في يومياته: «ذهبت في نزهة قبل الإفطار. وفي الساعة 21,2 استقبلت الكونت ليف تولستوي-الابن».

عدا ذلك، لا يعرف أي شيء عن أفكاره بهذا الخصوص.

فيما بعد، كتب ليف لفوفيتش مراراً للقيصر رسائل سياسية ورسائل شخصية بحتة. كان يحاول إقناعه بمواصلة الحرب الروسية-اليابانية حتى النهاية الظافرة، وبطرد فيتي وراسبوتين، ومنع استقلالية المدارس الابتدائية والمتوسطة والثانوية، والقيام بإصلاح الكنيسة الأرثوذكسية. وعلى العكس من ذلك، لم ينصحه بالتورط في الحرب الروسية-الألمانية: «ليحمنا الله من السير على وجهة النظر المبتذلة في عصرنا - الدفاع عن إخوتنا».

لكن الفكرة الرئيسة لهذه الرسائل هي: «اطلبني لعندك، يا صاحب الجلالة!».

خلال ستة أشهر قبل تنازل نيقولاي في جو الخيانة العامة لحاشيته، كان يتوسل: «يا صاحب الجلالة الإمبراطور، أسعى إليكم وأبذل قصارى جهدي لخدمتكم. بالكاد أكبح نفسي عن الذهاب إليك في المقر العام، من أجل الوصول إليك بطريقة ما، كي أجثو على ركبتيّ أمامك، وأتوسل إليك أن تتركني في رعايتك، بصفة أدنى خادم لك».

هذا في حين أنه لم يكن ملكياً ثابتاً على الإطلاق من حيث قناعاته. لقد تخلى نهائياً عن حزب «اتحاد الشعب الروسي»، عندما حاول اجتذابه إلى صفوفه. لقد كان هنا شيء آخر... ربما كان البحث عن أب ثان؟ ذلك الأب الذي لا يضغط عليه بنفوذه الكبير وسمعته الكبيرة، بل يطيعه، يطيع رأي ليف لفوفيتش؟ ذلك أن القيصر نيقولاي الثاني كان أكبر من ابن تولستوي بعام واحد.

ومع ذلك، كل هذا لم يكن له أي معنى.

فموقف القيصر نيقولاي من عائلة تولستوي تم التعبير عنه بشكل شامل في القرار المتخذ بتاريخ 20 كانون الأول/ ديسمبر عام 1911، عندما توجهت إليه صوفيا أندرييفنا ومن ثم ليف لفوفيتش بطلب شراء ياسنايا بوليانا وجعلها ملكية للدولة لتنظيم متحف تولستوي فيها: «*أرى شراء الحكومة لعقار الكونت تولستوي غير مقبول. من المسموح فقط لمجلس الوزراء مناقشة مسألة حجم الراتب التقاعدي الذي يمكن تخصيصه للأرملة*».

مكتبة
t.me/soramnqraa

الفصل التاسع

تمثال نصفي للأب

قمت بنحت تمثال نصفي كبير لأبي،
ليس أسوأ من أعمال الفنانين غي وريبين،
لكنني كسرته اليوم، لأن الطين السيئ قد جف
وتشقق...

• من رسائل ليف لفوفيتش لوالديه

تولستوي ضد

في شهر آذار/ مارس عام 1900، أجرت ابنة تولستوي تاتيانا لفوفنا، التي أصبحتَ كنيتها آنذاك بعد زواجها سوخوتينا، عملية جراحية ثانية للتجويف الجبهي - فقد كانت تعاني من التهاب الجيوب الأنفية المزمن. بالنسبة لمستوى الطب في ذلك العصر، مثل هذه العملية لم تكن سهلة؛ وقد أجرت العملية الأولى في فيينا وليس في روسيا. أما الثانية فأجراها لها في موسكو البروفيسور فون شتاين.

كان الوالدان قلقين بشأن تاتيانا ينتظران نهاية العملية في العيادة. لم تحتمل الانتظار والقلق، الابنة الصغرى ساشا، فركضت إلى غرفة العمليات. وفي ذكرياتها وصفت اللحظة التي دعا فيها الأطباء أباها لرؤية تاتيانا.

«كان يجلس أبي إلى جانب غرفة العمليات وينتظر. فجأة فُتح الباب، وبأكمام مطوية ورداء أبيض جاء الطبيب فون شتاين:

– ليف نيقولايفتش، هل تود مشاهدة العملية الجراحية.

كانت ترقد على منضدة التشريح تاتيانا المخدرة بالكلوروفورم، وبـدون وعي، وهي شاحبة كأنها الموت. كان جلد الجبين مقلوباً، والجمجمة مثقوبة، والوجه مغطى بالدم. شحب أبي وترنّح وكاد أن يسقط. فأمسكوه من يديه».

في المساء تحدثت صوفيا أندرييفنا عن هذا في المنزل وهي ساخطة. لا يصح التصرف هكذا مع ليف نيقولايفتش! ورغم أنه ضابط ميداني سابق، رأى الكثير من المعاناة في مدينة سيفاستوبول المحاصرة، حتى إنه وصف في أحد مقالاته عن سيفاستوبول، كيف يستأصلون أطراف الجنود ويجرون عمليات بتر الأطراف في غرف عمليات ميدانية سريعة (سيفاستوبول –في شهر كانون الأول/ ديسمبر)– لكنه لم يستطع تحمل رؤية ابنته المغطاة بالدماء. كما أنه كان قد تقدم في العمر أيضاً.

في أواخر سنوات حياته، يغدو إدراك تولستوي لكل شيء مادي، جسدي، مسطح مَرَضياً مؤلماً للغاية. فأية آلام جسدية، وأي شكل لممارسة العنف يسبب له الألم. وهذه تصل أحياناً إلى درجة السخرية. إنه يطلق سراح الفئران التي سقطت في المصيدة، بل يرتجف من مرأى سحق الجرذ بكعب القدم، حتى إنه يعاني من الذبابة التي وقعت في مصيدة النافذة وماتت فيها. يمكن تفسير هذا جزئياً بعقيدته ورؤيته للعالم، مثل عقيدته النباتية: لا يصح أكل اللحوم، لأنه لا يصح قتل الكائنات الحية! ولكن، يصعب هنا قول ما هو الأول: – العقل أم الشعور المباشر بالألم عند رؤية آلام الآخرين؟ على كل حال، هو لم يصبح نباتياً، إلا بعد أن زار مسلخ تولا، ورأى كيف ينتزعون الذيول في البداية من الثيران والبقر بصدمة مؤلمة قوية، من أجل ذبحها بالسكين وهي بتأثير الصدمة (مقالة «المرحلة الأولى»).

وهو خلال ذلك، لا يشعر أبداً بالخوف أو الاشمئزاز من الموت، موته أو موت القريبين، بل ينتظره، ويفرح بقدومه، كأعظم لحظة جليلة في *الحياة*، عندما تنكشف حتى النهاية الماهية الروحية للشخصية.

ولو أن الطبيب فون شتاين دعا تولستوي لمشاهدة نتيجة عملية غير موفقة

من وجهة نظر طبية، والتي بمحصلة العملية الفاشلة قد تموت تاتيانا، لما فقد وعيه أبداً. بل لكان هناك اهتمام فضولي شديد، وفرح.

في بداية أيلول/ سبتمبر عام 1906، أجرت صوفيا أندرييفنا عملية جراحية صعبة وخطيرة في إزالة كيس صديدي. وقد اضطروا لإجراء العملية في ياسنايا بوليانا، لأن الوقت كان متأخراً لنقل المريضة إلى تولا. هكذا قرر البروفيسور المعروف فلاديمير فيودوروفيتش سنيغيريف، الذي استُدعي ببرقية، ووصل إلى ياسنايا بوليانا مع مساعديه، كما استدعى من باب الاحتياط من بطرسبورغ، البروفيسور نيقولاي نيقولايفيتش فينومينوف، الذي وصل، بالمناسبة، بعد إنجاز العملية...

كان سنيغيريف طبيباً جراحاً نسائياً، ذا خبرة كبيرة، لكن إجراء عملية *لزوجة تولستوي*، وفي ظروف غير مناسبة، كان يعني بالطبع الإقدام على مخاطرة وتحمل مسؤولية كبيرة! ولهذا كان يسأل تولستوي حرفياً عدة مرات: ألا يعطي الموافقة على إجراء العملية؟ وقد أذهلت استجابة تولستوي الطبيب بصورة غير سارة: فقد رفض أولاً، ثم «نفض يديه»، تاركاً حل المسألة لزوجته نفسها وأبنائها. وعموماً، يلاحظ في ذكريات سنيغيريف حول هذا الموضوع، المنشورة في عام 1909، أي خلال حياة تولستوي، غضب مكبوت على رب الأسرة والكاتب، أمام عبقريته التي كان البروفيسور ينحني أمامها. (في تردده باتخاذ القرار بإجراء العملية كان الطبيب يفكر، بكيف ستؤثر نتيجة العملية على «حياة ليف نيقولايفتش وعمله»).

لقد وضع البروفيسور تولستوي في الزاوية بسؤاله المباشر: هل يوافق على إجراء عملية جراحية خطيرة لزوجته، التي قد تموت بنتيجتها، ولكن بدونها ستموت بلا شك؟ كما أنها ستموت بآلام رهيبة.

كان تولستوي في البداية ضد العملية. فهو لسبب ما أكد لنفسه بأن صوفيا أندرييفنا ستموت لا محالة. وبحسب أقوال ساشا، كان «يبكي ليس من الحزن بل من الفرح».

لقد كان مندهشاً من تصرفات زوجته بانتظار الموت. وقد تذكرت ساشا: «بصبر كبير ووداعة شديدة كانت أمي تتحمل المرض. وكلما اشتدت الآلام

والمعاناة البدنية أصبحت أكثر نعومة وإشراقاً، لم تكن تشكو ولم تتذمر قط من المصير والقدر، ولم تطلب شيئاً من الجميع، واكتفت بشكر الجميع، وكانت تقول للجميع كلمات حنونة. وعندما شعرت باقتراب الموت، استسلمت، وابتعد عنها كل شيء دنيوي وآني وعبثي».

وبحسب قناعة تولستوي، هذه الحالة الروحية الرائعة للزوجة قد اجتمع من أجل تدميرها الأطباء الذين جاؤوا ووصل عددهم إلى ثمانية أطباء.

ويكتب تولستوي في يومياته بكراهية: «المنزل مليء بالدكاترة. هذا صعب: بدلاً من التفاني والإخلاص لمشيئة الله والمزاج الديني المهيب -يسيطر المزاج التافه، المتمرد، الأناني». وخلال ذلك يشعر نحو زوجته بـ «شفقة خاصة»، لأنها في هذه الدقائق «معقولة وصادقة وطيبة ولطيفة». «كيف يهدّئ الموت! كنت أفكر: أوَليس من الواضح أنها تكشف عن ذاتها بالنسبة لي، وبالنسبة لنفسها؛ عندما يموت المرء يكشف عن ذاته بالكامل أمام نفسه أيضاً- «هذا إذن!» – ونحن أيضاً، الباقون، لا يمكننا بعد أن نرى ما كُشف للشخص الذي يموت. وسينكشف بالنسبة لنا فيما بعد. في الوقت المناسب...

حاول أن يشرح للبروفيسور سنيغيريف: «أنا ضد التدخل الذي يخرق، برأيي، عظمة ومهابة فعل الموت العظيم».

يشعر سنيغيريف بسخط مشروع. فرغم ثقته بضرورة العملية، لكنه يدرك أنه في حال النتيجة السيئة غير المتوقعة فإن المسؤولية بكاملها ستقع عليه. سوف يقولون بل ويكتبون: «لقد ذبح» زوجة تولستوي، رغم إرادة زوجها. وبصرف النظر عن الجانب المعنوي الأخلاقي من المسألة، فإنها ستعني نهاية شهرته الطبية كطبيب.

وفي هذا الوقت، كانت صوفيا أندرييفنا تعاني الأمرين من خراج بدأ حديثاً. وكانوا يحقنونها باستمرار بالمورفين. وتستدعي الكاهن، لكنها عندما وصل كانت في حالة فقدان الوعي. فيما بعد، وحسب شهادة موكوفيتسكي، يبدأ الحنين إلى الموت. وموقف تولستوي ليس «مع» وليس «ضد». يقول لسنيغيريف: «سأبتعد... وسيجتمع الأولاد، سيأتي الابن الأكبر سيرغي

لفوفيتش... وليقرروا هم كيفية التصرف... ولكن من الضروري بالطبع، أن نسأل صوفيا أندرييفنا».

في هذه الأثناء، أصبح المنزل مزدحماً بالناس. وقد تذكرت ساشا، التي أصبحت ربة البيت أثناء مرض أمها: «قدِم تقريباً جميع أفراد العائلة، وكما يحدث دائماً، عندما يجتمع كثير من الشباب والناس الأقوياء، والعاطلين عن العمل، وبصرف النظر عن الإزعاج والحزن، فقد ملأوا البيت على الفور بالضجيج، والصخب والفوضى، كانوا يتحدثون، ويشربون ويأكلون بلا نهاية. أما البروفيسور سنيغيريف، الذي كان يعاني من السمنة، وذو القلب الطيب، والصوت المرتفع، فهو كان يتطلب الكثير من الاهتمام... كان لا بد من تأمين الأسرّة والمفارش لتأمين منامة الجميع، ولا بد من إطعامهم، وإعطاء الأوامر من أجل ذبح الدجاج والديوك الرومية، وإرسال شخص للحصول من تولا على الأدوية، والنبيذ، والسمك (كان يجلس على المائدة أكثر من 20 شخصاً)، وإرسال العربات لاستقبال من يأتي إلى المحطة من المدينة...».

بالقرب من سرير المريضة –ثمة مناوبة مستمرة في ورديات، وليس لدى تولستوي ما يفعله هناك. بيد أنه كان يأتي إلى زوجته ويقترب من سريرها من وقت لآخر. يكتب ماكوفيتسكي: «في الساعة 10.30 دخل ليف نيقولايفتش، وقف عند الباب، ثم اصطدم بالطبيب س. م. بوليلوف، وتحادث معه، وكأنه لا يجرؤ على الدخول إلى مملكة الأطباء– إلى غرفة المريضة. ثم دخل بخطوات هادئة وجلس على المقعد الخشبي الصغير، بعيداً عن السرير، بين الباب والسرير. سألت صوفيا أندرييفنا: «من هذا؟» أجاب ليف نيقولايفتش: «ومن كنت تظنين؟ – واقترب منها. قالت صوفيا أندرييفنا: «أنت لم تنم حتى الآن؟ كم الساعة؟» اشتكت وطلبت ماءً. قدم ليف نيقولايفتش لها الماء، وقبّلها، وقال: «نامي»، وخرج بهدوء. ثم جاء مرة ثانية في منتصف الليل على رؤوس أصابع رجليه».

وقد تذكر ابنه إيليا: «أما أثناء العملية، فقد ذهب إلى غابة تشابيج، وهناك كان يمشي وحده ويصلي».

وقبل أن يخرج من غرفة المريضة قال: «إذا كانت العملية ناجحة، فاقرعوا الجرس لي مرتين، وإذا لم تكن ناجحة... فلا، الأفضل أن لا تقرعوا الجرس أبداً، سآتي بنفسي...».

كانت العملية تسير بنجاح. لكن الخيط المعوي الذي خِيط به الجرح كان فاسداً. وكان الطبيب البروفيسور طيلة فترة العملية يوبخ مُورِّد الخيوط: «يا لك من ألماني قميء! يا ابن الكلبة! ألماني ملعون!...».

عرضوا على تولستوي الورم المستأصل من زوجته بحجم رأس طفل. وقد تذكر سنيغيريف: «كان تولستوي شاحباً وكئيباً، رغم تظاهره بالهدوء واللامبالاة. وبعد أن ألقى نظرة إلى الكيس المستأصل قال بصوت هادئ ومتزن: «بالطبع؟ هذا ما قمتم باستئصاله؟»».

ولكن عندما رأى زوجته، وقد زال عنها أثر المخدر، أصيب بالرعب وخرج من غرفتها ساخطاً».

قال تولستوي: «لا يُسمح للإنسان أن يموت بسلام! امرأة ترقد ببطن مشقوق، مقيدة بالسرير، بدون وسادة... تئنّ أكثر ممّا قبل العملية. إن هذا نوع من التعذيب!».

عندما تحسنت حالة صوفيا أندرييفنا، شعر تولستوي بالفرح بشكل ملحوظ، لكنه مع ذلك كان يشعر بأنه قد خُدع من جانب أحد ما.

يكتب تولستوي في يومياته: «أمر محزن للغاية، أشعر بالأسى نحوها. معاناة وآلام كبيرة، وبلا فائدة تقريباً».

ودع تولستوي الطبيب سنيغيريف بجفاء.

وقد تذكر البروفيسور وداعه مع تولستوي في مكتبه: «كان قليل الكلام، كان جالساً طيلة الوقت، عابس الوجه، وعندما بدأت توديعه لم يكلّف نفسه حتى عناء الوقوف، بل استدار قليلاً ومد لي يده، وتمتم بعبارة من باب المجاملة. لقد تركت هذه المحادثة وتعامله معي انطباعاً حزيناً في نفسي. كان يبدو كأنه غير راض عن شيء ما، لكنني لم أستطع العثور على سبب عدم الرضا هذا لا في أفعالي ولا في سلوك الأطباء المساعدين، ولا في حالة المريضة. وبعد أن ناقشت كل شيء، نسبت حالته الكئيبة هذه إلى تعبه وإرهاقه».

الموت الجميل

يمكن تفسير وداع تولستوي غير اللائق لسنيغيريف الذي أنقذ زوجته من الموت، ومنحها ثلاث عشرة سنة أخرى من الحياة بحالة غريبة إلى حد كبير. لم يكن تولستوي يريد، بالطبع، موت زوجته. ومثل هذه الفرضية عدا أنها بشعة، فهي مخالفة للواقع. فيوميات تولستوي، ومذكرات ابنته ساشا تثبتان أنه كان *فرحاً* بشفاء زوجته صوفيا أندرييفنا. فأولاً، هو فعلاً كان يحبها ويقدرها وكان متعلقاً بها بأربعين عاماً من الحياة المشتركة معها. وثانياً، فإن تعافي صوفيا أندرييفنا كان يعني أن حياة ياسنايا بوليانا ستعود إلى طبيعتها المألوفة، وهذا بالنسبة لتولستوي، بنمط حياته العقلاني والمنهجي، بل وحتى بالنظر إلى عمره، كان في غاية الضرورة. وعلى الرغم من قول ساشا، إن «أباها كان يتذكر بتأثر، كيف كانت أمي تحتمل بصورة رائعة الآلام، وكيف كانت حنونة، ولطيفة مع الجميع»، لكن هذا لا يعني أنه لم يفرح ولم يكن سعيداً بشفائها وإنقاذها.

القضية كانت في شيء آخر. لقد شعر تولستوي بنفسه مجروحاً من *الناحية الروحية*. كان يعدّ نفسه من أجل استقبال وفاة زوجته باعتباره «كشفاً» عن كينونتها الداخلية، وبدلاً من هذا حصل من سنيغيريف على كيس صديدي من الورم والقيح بحجم رأس طفل. بدا تولستوي هادئاً عند رؤية هذا الكيس، لكنه في الواقع، كان يعاني من صدمة روحية قوية للغاية. لأن هذا *الورم المرضي* كان السبب الحقيقي لآلام زوجته.

كم هذا بسيط...

لقد شعر تولستوي بنفسه خاسراً، وشعر بسنيغيريف منتصراً فائزاً. على الأرجح، سنيغيريف أدرك هذا من خلال نبرة ذكرياته ودقتها. ولهذا لم يكن بإمكان تولستوي التعبير دون زيف عن شكره الحار للطبيب لإنقاذه حياة زوجته. وكان وداعه معه يذكّر إلى حد كبير بلقائه الأول مع الطبيب ويسترلوند. أجل، فالطبيب السويدي أنقذ حياة ابنه من الموت. وكان ليوفا في تلك اللحظة سعيداً. لكن هذا في عيني تولستوي كان يعني مجرد انتصار مؤقت للمادة على الروح. ولم يكن له أي قيمة روحية بالنسبة له. وكل هذا

كان في عيني تولستوي دلالة على الطبيعة الحيوانية للإنسان، التي هو، مع اقترابه من الموت، يشعر برفض متزايد لها. لقد كان يدرك أنه سيضطر هو نفسه للتخلي عن *هذا*، وأن *هذا كله* سيوضع في نعشه، *وماذا* سيبقى بعد ذلك؟ هذا ما كان يقلقه! هذا ما كان يفكر فيه دون انقطاع!

وهذا ما يفسر المقطع التالي من ذكريات ساشا: «استأنفت أمي أعمالها: كانت تعزف على البيانو بمفردها ومع ناتاشا سوخوتينا بأربع أيدٍ، وكانت تخيط، وتمارس أعمال المنزل، وأحياناً تسافر إلى موسكو. واجتذبتها الأمور المادية من جديد. وبدأت من جديد اهتماماتها ومخاوفها بخصوص المزرعة، ودار النشر، وهذا كان ينعكس بشكل قاس على حياة أبي».

ومن سوء طالع الأسرة، أنه بعد مضي شهرين على العملية الناجحة لصوفيا أندرييفنا، وما يرتبط بها من خيبة أمل تولستوي، توفيت فجأة ابنته الحبيبة المفضلة ماشا بشكل غير متوقع بسبب التهاب الرئتين. وكان موتها مفاجئاً وسريعاً مع العجز المطلق للأطباء، وكان موتها يشبه إلى حد كبير موت أخيها فانشكا، بحيث كانت تخطر بصورة عفوية فكرة مفادها: أَوَلم تقدم ماشا هذا الموت هدية لأبيها؟ على أية حال، كانت صوفيا أندرييفنا التي تؤمن بالخرافات، تعتقد بجد، أنها «بعودتها إلى الحياة بعد العملية»، «قد أخذت حياة ماشا» (من رسالة ليديا فسيليتسكايا).

في أحد أيام تشرين الثاني/ نوفمبر الباردة، ذهبت ماشا وزوجها نيقولاي أبولنسكي، وأخوها أندريه وصديقة الأسرة يوليا إيغومنوفا في نزهة. وقد تأخرت مع زوجها في ياسنايا بوليانا بسبب رسالة غريبة مغفلة مجهولة المرسل، وصلت من ضيعتهما بيروغوفو، حيث جاء فيها أن الفلاحين ينوون قتل نيقولاي. لقد كان هذا تحذيراً خطيراً، نظراً لأنه في هذه الفترة كانت تجري في روسيا على نطاق واسع عمليات سطو واسعة النطاق، وإحراق للممتلكات، نتيجة للثورة الروسية الأولى. عندما عادا إلى منزلهما، كانت ريح باردة قوية تعصف، فتعرضت ماشا لبرد شديد. وبحلول المساء ارتفعت حرارتها كثيراً، تم استدعاء الدكتور أفاناسيف من تولا. ثم استدعي الطبيب شوروفسكي من موسكو. وذهبت جميع جهود الطبيبين عبثاً.

احترقت ماشا وذابت خلال أيام قليلة. وقد تذكرت ساشا: «لم تكن قادرة على الكلام، كانت تئنّ بصوت ضعيف كصوت طفل. كانت حمرة خديها النحيفين تحترق، ولضعفها لم تستطع أن تستدير، غالباً كان جسمها كله يؤلمها. عندما وضعوا لها الكمادات كانوا يرفعونها إلى أعلى أو يديرونها من جانب إلى جانب آخر، وكان وجهها يتجعد بألم، والأنين يزداد قوة. أمسكتُ بها ذات مرة بصورة غير مناسبة، وسببت لها الألم، فصرختْ ونظرت إليّ بتأنيب. وخلال فترة طويلة، كنت أتذكر صراخها، ولم أعد أسمح لنفسي بالقيام بحركة غير مناسبة...».

كان الجو العام لهذا الحدث يختلف كثيراً عما جرى في ياسنايا بوليانا قبل شهرين. عدد الأطباء كان قليلاً... لم تصدر الضجة أو الضوضاء من أحد من الأقارب أو الأهل... لم يُسأل تولستوي عن أي شيء... يكتب إيليا لفوفيتش في ذكرياته أن «موتها لم يصب أحداً بالذهول أو الدهشة على نحو خاص». ووردت عبارة قصيرة في يوميات تاتيانا لفوفنا: «ماتت الأخت ماشا بسبب التهاب الرئتين». لم ير أحد في هذا الموت شيئاً فظيعاً. في حين أنها ماتت امرأة شابة في الخامسة والثلاثين من عمرها، تزوجت في وقت متأخر، ولم تجد الوقت الكافي لتذوق طعم السعادة العائلية الحقيقية.

ولسبب ما، كانوا يقارنون موت هذه المرأة بموت أخيها فانشكا في السابعة من عمره. وقد كتبت ساشا: «عندما كنت أنظر إليها، كنت أتذكر فانشكا الذي كانت تشبهه الآن بصورة خاصة. فالمرض العاصف العنيف، الذي لا يرحم، هو الذي اختطفها، وكان واضحاً أنه لا جدوى من مقاومته. كان وجه ماشا مهيباً وغريباً، جسدها وحده بقي معنا، أما روحها فقد حلقت بعيداً. وكذلك حدث عندما كان فانشكا يحتضر، كان يبدو لي أنه يعرف ما لا يمكننا معرفته والوصول إليه».

تسعة أيام كان الجميع ينتظرون موتها، واضعين يداً فوق يد، بلا حول ولا قوة. وعندما تعرّقت المريضة أخيراً، هرعت ساشا إلى الطبيب وقالت: «دكتور! دكتور! إنها تتعرق! فهز الطبيب يده علامة اليأس -العرق، ليس ذلك العرق- ودون أن يرفع رأسه تابع شخيره».

وكتبت صوفيا أندريفنا لأختها: «لم تتمكن أية تدابير من إضعاف المرض... كانت في حالة هذيان، ونادراً ما كانت تصحو لتقول شيئاً ما لطيفاً لأحد منّا؛ كانت مستكينة، وديعة... في يوم موتها أخذت تبكي فجأة، وعانقت زوجها، لكنها لم تقل شيئاً. في وقت لاحق فقط، نطقت بصعوبة «أنا أموت». في المساء أصبح تنفس ماشا أقل تواتراً وأصعب، وكانت ترفع يديها، وقد أجلسوها. لا يمكن أبداً نسيان مشهدها المؤثر ذاك: حنت برأسها على الجانب، وأغلقت عينيها، وكان تعبير وجهها ناعماً، لطيفاً، مستكيناً، رشيقاً، روحياً وخارجياً... وكان أبوها يمسك بيدها».

لقد جاء وصف موت ابنته في يوميات تولستوي بمنزلة متابعة لوصف موت زوجته الذي لم يحدث، بسبب تدخل الأطباء. «الآن، الساعة الواحدة ليلاً، توفيت ماشا. إنها قضية غريبة. لم أشعر لا بالرعب، ولا بالخوف، ولا بوعي حدوث شيء ما استثنائي، ولا حتى بالشفقة أو الحزن... نعم إنه حدث في مجال الجسد وبالتالي غير مبال. كنت أنظر باستمرار إليها، كيف كانت تحتضر: كانت هادئة بشكل مدهش. كانت بالنسبة لي كائناً منكشفاً أمام انكشافي. لقد تابعت عملية انكشافها، وكانت سارّة بالنسبة لي. لكن هذا الانكشاف في المجال المتاح لي (الحياة) قد توقف، أي لم أعد أرى ذلك الانكشاف؛ لكن ما انكشف، أي «أين؟ متى؟» – هذان السؤالان يتعلقان بعملية الانكشاف هنا، ولا يمكن نسبتهما إلى الحياة الحقيقية، الخالية من أبعاد الزمان والمكان».

وحسب شهادة ماكوفيتسكي، قبل عشر دقائق من موتها قبّل تولستوي يد ابنته.

عندما كان يحتضر في أستابوفو، كان يناديها. يكتب سيرغي لفوفيتش، الذي كان يجلس إلى جانب سرير أبيه عشية وفاته: «في هذا الوقت كنت أسترق السمع بصورة لا إرادية، كيف أن أبي كان يدرك أنه يحتضر. كان مستلقياً بعينين مغلقتين، ونادراً ما كان ينطق ببعض الكلمات التي تشغل أفكاره، مثل كيف أنه عمل الكثير، عندما كان بصحة جيدة، عندما كان يفكر بشيء يقلقه. وقال: «عمل سيئ، عملك سيئ...» ثم قال: «رائع. رائع». ثم فجأة فتح عينيه، ونظر إلى الأعلى، وقال بصوت عال: «ماشا! ماشا!» كانت حبات العرق تنزلق على ظهري. وأدركت أنه تذكر وفاة أختي ماشا».

ولكنه، حسب ذكريات ساشا وإيليا لم يرافق جثمان ابنته في جنازتها إلا حتى مدخل الحوزة، حتى الأعمدة الحجرية للسور، وحسب شهادة صوفيا أندرييفنا، حتى نهاية القرية. وقد تذكر إيليا لفوفيتش: «عند الأعمدة الحجرية أوقفنا، ودّع ابنته الفقيدة، واتجه إلى الطريق نحو المنزل. ألقيت نظرة إليه من الوراء: كان يمشي على الثلج الرطب بقوة، مشية رجل متقدم في السن، ملوياً بشكل حاد الجوارب في قدميه، ولم يلتفت إلى الوراء قط».

لم يحضر

لم يحضر ليف لفوفيتش إلى ياسنايا بوليانا، لا عندما أجريت العملية لأمه، ولا عندما مرضت ثم توفيت شقيقته ماشا. ولدى وداعها، من باب الحيطة، لأولادها المجتمعين في المزرعة، اضطرت صوفيا أندرييفنا إلى توديع ابنها الحبيب في رسالة. ولكن كان من المستحيل توجيه اللوم له بهذا الخصوص. فقد كان ليف لفوفيتش في هذه الفترة في السويد، حيث كانت زوجته دورا بانتظار ولادة مولودها السادس. وفي 22 تشرين الأول/ أكتوبر ولدت في مدينة إنشيبينغ ابنتهما الأولى نينا.

لكن غيابه أثناء وفاة ماشا وجنازتها يصعب فهمه أكثر. فقد وصل ليف لفوفيتش إلى ياسنايا بوليانا في 17 تشرين الثاني/ نوفمبر عام 1906، وغادرها في 20 من الشهر ذاته، متوجهاً إلى بطرسبورغ. ولكن في 20 تشرين الثاني/ نوفمبر بالذات تكتب صوفيا أندرييفنا في «اليوميات»: «ماشا في حالة سيئة للغاية؛ حرارتها في المساء بلغت 40,8 درجة. أشعر بالشفقة عليها، وبالخوف والرهبة. البيت هادئ وحزين...».

توفيت ماشا في 27 تشرين الثاني/ نوفمبر.

كانت تربط بين ماشا وليف لفوفيتش صداقة طفولية وثيقة قريبة للغاية. فقد كانت ماشا أصغر منه بعامين تماماً. وبعامين تماماً كانت ماريا نيقولايفنا أصغر من شقيقها ليف نيقولايفتش (تولستوي-الأب -*المترجم*). بعد ولادة ابنة ماشا في عام 1830 سرعان ما توفيت والدتهما، واسمها أيضاً ماريا نيقولايفنا. أما صوفيا أندرييفنا فبعد ولادتها لماشا كادت تموت من حمّى

النفاس. لقد كان هذا تعاقب تطابقات عشوائية، مثلها مثل أن الأسدين (ليف الأب - وليف الابن) في طفولتهما الباكرة، كانا مضطرين للعب وتقاسم الأسرار الأولى مع الأخوة الصغار وليس مع الأخوة الأكبر سناً. وهذا ما حدث. فالأخوة الكبار كانوا «كباراً «big ones» أما الصغار مع أختيهما ماشا فقد كانوا «صغاراً «little ones».

حصل ليف لفوفيتش في طفولته على قسط من حنان الأم أكبر بكثير من ماريا لفوفنا. بعد مرضها المتصل بولادة ابنتها، وأول خلاف جاد مع زوجها بسبب نصيحة الأطباء بعدم إنجاب المزيد من الأولاد، لم تدلّع صوفيا أندرييفنا ابنتها ماريا بالكثير من اللطف والحنان، خلافاً لليوفا. وقد تذكرت ساشا: «كانت تحدثني كيف نشأت مع ليوفا، والفارق بينهما سنتان، وكيف أن أمي كانت تبدي كل تعلقها واهتمامها وحنانها له وحده، أما ماشا النحيفة، القبيحة، فكانت تشعر بنفسها وحيدة مهانة. وقد تركت انطباعاً كبيراً في نفسي قصة أختي حول كيف أجبرت أمي، ماشا وليوفا، على خياطة كيس، ووعدت بأن تدفع مقابل كل كيس عشرة كوبيكات. لم يكن لديهما نقود، والعشرة كوبيكات بدت لهما ثروة كبيرة. بذلت ماشا قصارى جهدها، وخاطت كيسها بعناية وبصورة جيدة. أما ليوفا فخاط كيسه بلامبالاة. فأعطت ماما عشرة كوبيكات لليوفا، ولم تعط شيئاً لماشا. بكت ماشا، لكنها خشيت تذكير أمها بها».

لماذا ترك أخته المريضة؟ ما هي الأمور العاجلة التي كانت لديه في بطرسبورغ؟ لماذا زار والديه لمدة ثلاثة أيام؟ ربما سيجد الأجوبة عن هذه الأسئلة كاتب السيرة الذاتية المقبل لليف لفوفيتش. ولكن منذ فترة من الزمن ليف لفوفيتش، الابن الأكثر اهتماماً وحساسية بين إخوته، لا يتواجد إلى جانب أهله في اللحظات القاسية من حياتهم. إنه يتمزق بين ياسنايا بوليانا وبطرسبورغ والسويد. في بطرسبورغ لديه حياة اجتماعية غنية. وكل صيف تذهب دورا مع الأولاد إلى مزرعة والديها وعلى ليف لفوفيتش أن يكون معهم في السويد. وتتراجع العائلة الأولى على مضض إلى المرتبة الثانية.

لكنه خلال ذلك، كان ينجذب بصورة لا تقاوم إلى ياسنايا بوليانا! في عام 1906 يأتي إلى ياسنايا بوليانا ثلاث مرات: في الربيع – وحده، ثم صيفاً مع دورا والأولاد، وأخيراً في الخريف... وتميزت كل زيارة من هذه الزيارات بالعلاقات المتوترة مع الأب. لا يصح القول إنهما عدوان، لكنهما ليسا على علاقة جيدة فيما بينهما. كلاهما يشعر بهذا، ولهذا فإن علاقاتهما كانت خرقاء، متوترة.

يظهر في سلوك ليف لفوفيتش عنصر رديء ما من النزعة *الاستعراضية*. وعلى سبيل المثال، عندما كان في ياسنايا بوليانا في صيف عام 1906، نهض ليف لفوفيتش مع أخيه أندريه من على مائدة الطعام بصورة استعراضية، وخرجا، عندما كان الأب يقرأ بصوت عال رسالة فلاح شاب من مقاطعة بولتافا. كانا مزعوجين من احترام تولستوي للفلاحين وميله إليهم في الوقت الذي كان فيه الفلاحون يحرقون وينهبون ممتلكات أصحاب الأراضي. وقد كان ليف وخاصة أندريه يؤيدان بحزم قمع تمرد الفلاحين وعمليات الإعدام. وفي نهاية الأمر، على هذه الخلفية تحدث مشادتهما مع والدهما. يكتب تولستوي في شهر تموز/ يوليو عام 1906 لابنته ماريا في بيروغوفو:

«وصلت إلى درجة أنني خرجت عن طوري قبل يومين، نتيجة حديث مع أندريه وليف اللذين كانا يثبتان لي، أن عقوبة الإعدام أمر جيد... قلت لهما إنهما لا يحترمانني، ولا يحبانني وخرجت من الغرفة، وصفَقت الباب بعنف، ولم أستطع العودة إلى رشدي طيلة يومين. والآن، بفضل صلاة فرنسيس الأسيزي ويوحنا: «من لا يحب أخاه لا يعرف الله» عدت إلى رشدي وقررت أن أقول لهما إنني أعتبر نفسي مذنباً جداً (وأنا مذنب، لأن عمري 80 عاماً وعمر كل منهما 30 عاماً) وأرجو أن تسامحاني. وقد غادرنا أندريه ليلاً إلى مكان ما، لذلك لم أستطع إخباره، أما ليف فقد التقيت به وقلت له إنني مذنب تجاهه، وأرجوه أن يسامحني. فلم يجبني بكلمة واحدة وذهب لقراءة الصحيفة والحديث بمرح، معتبراً كلماتي أمراً مسلماً به. كان صعباً. وكلما كان أصعب كان أحسن...».

أندريه لفوفيتش - رجل عسكري، وملكي عن قناعة، يتصرف أحياناً بوقاحة كبيرة. يمكنه أن يقول للغرباء، لو لم يكن تولستوي أبي، لـ «علقت مشنقته». ليف لفوفيتش لم يكن يسمح لنفسه بهذا قط بالطبع... لكنه دوماً يستعرض أمام والده استقلاليته. وعلى سبيل المثال، يصف ماكوفيتسكي المشهد التالي: «بعد الغداء لعبنا التنس في الحديقة، ولعب ليف نيقولايفتش قليلاً. كان ليف لفوفيتش يرسل له الكرة إلى تلك الأماكن بشكل منخفض، بحيث لم يستطع ليف نيقولايفتش ردها، رغم رغبته الشديدة! وهنا كانت تتجلى شخصية ليف لفوفيتش. لهذا سرعان ما غادر ليف نيقولايفتش الملعب». يصعب القول، أي سلوك كان أكثر إساءة للأب. كان الأب يعامل أندريه بمحبة ودفء أكثر من ليف. فالطابع «العسكري الفظ» لأندريه كان بالنسبة له أقل سوءاً من أساليب ليف «التكتيكية» اللبقة.

وفي اليوم المتوقع فيه وصول ليف لفوفيتش في شهر تشرين الثاني/ نوفمبر عام 1906 يشعر الأب باضطراب نفسي شديد. ويكتب في اليوميات: «اليوم سيصل ليوفا. سوف أعمل على نفسي وأكتب النتائج. أنا خائف. أنا الآن بحالة سيئة». وبعد رحيل ابنه يكتب بارتياح: «مع ليوفا كان الحال جيداً، وليس فقط بدون شر، بل مع ولادة الحب والشفقة». وهذا أمر مذهل! *يولد* الحب لدى الأب في الثامنة والسبعين من عمره نحو ابنه البالغ من العمر سبعة وثلاثين عاماً.

وأكثر ما يغضبه ويخرجه عن طوره غطرسة أبنائه وعجرفتهم. ويكتب في يومياته: «يا لها من قرحة، ثقتهم المشتركة الزائدة بأنفسهم! وكم يفقدون الكثير بسببها».

لكن ليف لفوفيتش كان قد وضع قاعدة لنفسه، ليس مناقشة أبيه في جو عائلي، دون إخراج الغسيل الوسخ خارج المنزل فحسب، بل مجابهته بصراحة في الصحافة أيضاً. ففي كانون الثاني/ يناير عام 1907 تظهر في صحيفة «صوت موسكو - غولوس موسكفي» مقالته: «رفض أم تطوير الذات؟».

بالمعنى الدقيق للكلمة، هذه كانت وشاية بأبيه.

والواقع، أن «الوشاية» بتولستوي قد جاءت متأخرة للغاية. ولم يعد لها أي معنى. فجميع آرائه كانت معروفة جيداً ونوقشت في الصحافة. لكن هذه لم تكن «مناقشة في الصحافة». لقد كانت صوت الابن.

كتب الابن في مقالته، أن مؤلفات تولستوي «لا تعبِّر عن الآراء الحقيقية لمؤلفها». ربما يكون أبي، في أعماق نفسه، يؤيد «السلطة الأرضية» لكنه «يخفي قناعته هذه». أي بعبارة بسيطة، إنه يرائي، ينافق لسبب ما. لماذا تذكر ليف لفوفيتش رسالة تورغينيف الشهيرة، عشية وفاته، التي فيها «يرجوه تورغينيف العودة إلى العمل الأدبي الروائي وترك الوعظ الديني – الاجتماعي. أولم ينس عندنا لفترة من الوقت، أن تورغينيف كان على حق تماماً؟». وأخيراً، تم توجيه الاتهام الرئيس للأب. إن تولستوي هو المسؤول عن الثورة الروسية!

كتب ابن تولستوي: «... كان لمواعظ ليف نيقولايفتش السلبية تأثير ضار في روسيا. وقد انتشر هذا التأثير على الحياة الروسية كلها، وتغلغل إلى جميع الزوايا والمجالات وأصاب الجماهير بعدواه. إلى الجيش، إلى المحاكم، إلى الحياة الشعبية، إلى العلم، إلى جدران المؤسسات التعليمية، إلى الآلة الحكومية ذاتها، تغلغل إلى كل مكان، حاملاً معه بذور الشك وهز بهذا الشك دعائم بناء الدولة كله».

هنا ليس المكان المناسب لمناقشة هذه المشكلة. أما عن حقيقة أن الأدب الروسي، بـ «واقعيته النقدية» وموقفه السلبي من نظام الدولة والنظام العام في روسيا، مسؤول عن الثورة فقد كتب عنها كثيرون، وخاصة بعد كارثة عام 1917. وقد عبر عن هذا بأوضح شكل نيقولاي أندرييفيتش بردياييف في كتابه الشهير: «أرواح الثورة الروسية».

وقد كتب عن تولستوي: «حقاً أن أهمية تولستوي بالنسبة للثورة الروسية لا تقل عن أهمية روسو للثورة الفرنسية. صحيح أن العنف وسفك الدماء كانا سيرعبان تولستوي، الذي كان يتصور تحقيق أفكاره بطرق أخرى. لكن روسو أيضاً أصيب بالرعب من أفعال روبسبير ومن الإرهاب الثوري. غير أن روسو يتحمل المسؤولية عن الثورة الفرنسية أيضاً، تماماً كما يتحمل

تولستوي المسؤولية عن الثورة الروسية. حتى إنني أعتقد أن عقيدة تولستوي كانت أكثر تدميراً من عقيدة روسو. فتولستوي هو الذي جعل من المستحيل أخلاقياً وجود روسيا العظمى».

وقد قارن ليف لفوفيتش مقالات والده «الضارة» بتأثير روسو الضار: «كما كان روسو محضِّراً للثورة الفرنسية، كذلك كان تولستوي مُشعلاً للثورة الروسية».

جميع هذه الاتهامات الموجهة لتولستوي كانت تتردد مراراً خلال حياته. فقد كانت تغص بها الصحافة المحافظة والكنسية. حتى إن القس يوحنا كرونشتادسكي دعا تولستوي في عام 1903 بالشيطان المتجسد ووعده بأقسى عذاب الجحيم. وعلى هذه الخلفية يبدو مقال ليف لفوفيتش فاتراً للغاية. لكن هذا لم يكن أي شخص، بل كان ابن تولستوي. وهذا ما أكسب مقالته وزناً آخر تماماً، وكان على المؤلف أن يدرك ذلك.

لا يصح القول إنه لم يكن يدرك هذا. ولكن، ضع نفسك مكانه. ماذا عليه أن يفعل إذا كان فعلاً غير موافق على تعاليم والده ويعتبر تأثيرها ضاراً بروسيا؟ لكنه خلال ذلك، هو إلى الأبد «موسوم» بأصله واسمه. على الأغلب، بعد نشر المقال بفترة وجيزة، ذهب إلى أبيه ليشرح موقفه.

«أبي العزيز، أخبرتني أنت وتشرتكوف أنه لا يمكنكما أن تتعاملا ليس بحب بل ولا بتسامح مع الشخص الذي لا يشارككما أراءكما. أنا لا أفهم هذا، وأتابع محبتكما أنتما الاثنين.

أنا أحبك مباشرة وصراحة باعتبارك والدي بالدم -وليس كمربٍ- أحبك كإنسان، وككاتب، لكنني أعتقد وسأبقى أعتقد أنه من الضروري قول الحقيقة حول آرائك لأنها كبيرة الأهمية، كي ألتزم الصمت حيالها. أنا أعرف أنني بهذا ألحق الضرر بنفسي، من حيث الشهرة وحب مجتمعنا، أنا أعرف أنهم «يؤنبونني» في كل مكان من حولي، حسب تعبير إيليا، الذي أراد أن يبدأ «تأنيبي»، ثم أجل هذه المسألة إلى مرة أخرى. أنا أعرف أنه من وجهة نظر الأبناء، كان يجدر بي عدم الحديث عن أبي، لكنك بالنسبة لي لست أباً فحسب، بل أنت إنسان وكاتب أثّر ويؤثر على روسيا، وبما أن

روسيا هي أغلى شيء لدي، أرى من الضروري بادئ ذي بدء إضعاف تأثيرك لأنه ضار...

المهم أنني لا أدينك، ولست أنا من لا يحبك، بل على العكس، مع تقدم الوقت سوف أحبك أكثر – بل إن جزءاً فقط معروفاً من أفكارك وتأثيره على الناس، أنا أعتبره سيئاً، ضاراً، مفسداً للناس...

يمكن توجيه اللوم لي على ما أكتبه ضدك، وفي الوقت نفسه على استخدامي للتركة التي تركتها لنا وعلى بيعي وتجارتي بكتبك...

أشعر مثلك تماماً بالألم، إنني اضطررت إلى التصرف على هذا النحو. وهذا بالطبع، غير مريح لكل من يعرفنا. لكن هذا كان لا بد من فعله، برأيي، حتى إنني لا أعتبر نفسي مسؤولاً عن هذا. كان لا بد من تبديد الضباب، وفتح الخرّاج حتى النهاية...

ابنك ل. ل. تولستوي الذي يحبك بحرارة».

في هذه الرسالة تسترعي الانتباه العبارات التالية: *تبديد الضباب وفتح الخرّاج*. فعن أي ضباب وأي خرّاج كان يتحدث؟ من المستبعد أنه كان يقصد قناعات أبيه، المعروفة في روسيا كلها وفي العالم. كان المقصود خرّاجاً في روح ليف لفوفيتش نفسه. إنه لم يرغب بالاعتراف، بأنه إلى جانب الحب انغرست فيه كراهية نحو أبيه، ولا يستطيع فعل شيء معها. وكان منذ عام 1905 قد كتب عن أبيه في يومياته:

«إنه لن يكتب أبداً عن نفسه الحقيقة كلها. إنها فظيعة... وأبي كاذب مخادع في الأساس. يا إلهي، كم هو أناني. إنه يصالح الجميع. وضع الأم والأخوات في الغرف الرطبة من المنزل، وهو يشغل المنزل كله، لكنه لا يرى أنانيته. وهو فظيع في هذا. ما هو الجيد فيه؟ عقل فضولي محب للمعرفة، عقل أصيل، رغم أنه محدود في بعض الجوانب. صراع قوي رهيب مع نقائصه وعيوبه وموهبة أدبية روائية. هذا كل شيء. لكنه ليس طيباً، وليس مخلصاً بشكل كامل، هو مخادع وكاذب جزئياً، رجل متعطش للسلطة بلا حدود – وهكذا سيموت».

ويسجل ليف لفوفيتش في يومياته: «إنه شخص رهيب».

يقول المثل الروسي «لا يمكن إخفاء المخرز في الكيس». كانت كراهية ليف لفوفيتش المتزايدة لأبيه تتراءى في مقالاته وكتاباته الصحفية. وفي بداية عام 1907 نفسه، وفي دار نشره التابعة لمكتبته «صفقة رابحة» أصدر ليف لفوفيتش «مذكرة الجندي الروسي» التي يذكّر عنوانها صراحة بعمل أبيه «مذكرة الجندي» التي كتبها في غاسبرا عام 1901. لم يرد اسم الأب إطلاقاً في مذكرة الابن. لكن النص كله كان غاصاً بالدبابيس الموجهة له. «في هذا المقال، أريد من ناحيتي أن أترك للجندي الروسي مذكرة، كما فعل الآخرون...»، «لهذا فإن لقب جندي ليس «مخزياً» ولا «كُفراً»، كما يعلّم آخرون...»، «الآخرون سوف يكلمونه، فيحرجونه...».

وما هي النتيجة؟ بيعت «المذكرة...» ونفدت من المكتبات، ظناً من الناس أنها مكتوبة من قبل ليف تولستوي-الأب. لم يلاحظ الناس بكل بساطة اسم المؤلف وهو *ليف لفوفيتش* تولستوي. وافقت لجنة التعليم في الجيش الروسي على إعادة نشر هذا الكتيّب، بشرط أن يقوم المؤلف «بتغيير عنوانه، نظراً لأن ثمة كتّيباً بنفس العنوان للكونت ليف تولستوي ذا اتجاه ضار للغاية». ووافق على ذلك، وبدل العنوان إلى «رسالة الجندي الروسي».

بعد أن تلقى الرسالة «التوضيحية» من ابنه، ولمعرفته بمقالته في «صوت موسكو» و«مذكرة الجندي الروسي»، ربما أدرك تولستوي، أن علاقته بليوفا قد اكتسبت طابعاً ميئوساً منه...

وقد ذكر في يومياته: «البارحة وصلت رسالة من ابني ليوفا، قاسية للغاية. قرأت بدايتها فقط ورميتها. كان من الممكن أن أجيبه بكلمات من الفضة، لكنني بعد أن هدأت، فضلت الكلمات الذهبية...».

بعبارة أخرى، كتب لابنه رسالة جوابية. ولكن لم يقرر إرسالها. فالصمت – من ذهب. لكنه حافظ على الرسالة، ولهذا نحن نعرف مضمونها.

«بدأت قراءة رسالتك، وبعد أن قرأت ما زعمته بأننا نؤكد، تشرتكوف وأنا، لا يمكننا أن نحب الناس الذين لا يتفقون مع آرائنا، توقفت عن قراءة بقية الرسالة وسوف أفعل الشيء نفسه مع رسائلك الأخرى.

ليوفا، أرجوك بحرارة، *أن تدعني براحة وهدوء*...».

تصالحا

يبدو أن ليف لفوفيتش نفسه، بدأ يدرك أن عداءه لأبيه قد قطع شوطاً بعيداً. ولم يجلب له تلك النتيجة الاجتماعية التي كان يتوقعها، وجعله، بصراحة، أضحوكة في نظر الجمهور. ومن المستبعد جداً أن تكون قد راقت له ردود الفعل على مقالاته مثل التي نشرتها «أخبار البورصة» «بيرجيفيي فيدوميستي»: «لدى ليف تولستوي، الكاتب العظيم للأرض الروسية ابن، وهو أيضاً كاتب، واسمه أيضاً ليف، لكنه ليس عظيماً أبداً... المسافة بين تولستوي-الأب وتولستوي-الابن - مسافة كبيرة جداً...».

لكن المشكلة الرئيسة لم تكن في هذا الأمر. فبدون ياسنايا بوليانا، بدون التواصل مع والديه، مع أخواته وإخوته كان يشعر بالقلق. فحتى الآن لم ينجح في بناء عشه.

في رسالته إلى أمه التي أرسلها من بطرسبورغ بتاريخ 7 آذار/ مارس عام 1908 كان يشتكي: «يدعونني إلى كل مكان وكل مناسبة، وبما أنه من غير الممكن الرفض، ألبي الدعوات، وهكذا دائماً في عجلة من أمري، ويمضي الوقت. ولكن لديكم شمس، وثلج، وطبيعة، أما هنا فلا يوجد منها أي شيء، ولا مكان للاستراحة والاستجمام. أشعر بنفسي في حالة سيئة نفسياً وجسدياً. لقد هرمت وأصبحت عجوزاً وشائباً وأمارس حياة غبية وضارة».

لقد دفعت شكاوى الابن المتكررة من قلقه صوفيا أندرييفنا إلى الرد عليه: «صديقي العزيز ليوفا، لقد كتبت لك ليس من قبيل الملامة أبداً، أن ما يخيفني هو عدم استقرارك وعصبيتك. بل فقط من باب عنايتي كأم بكم جميعاً؛ بودي أن تكونوا جميعاً بحال جيدة، وأن تكونوا راضين وقانعين بما يرسله لكم القدر.

لم أنزعج كثيراً من شكاياتك بخصوص أن *ليوفا البائس المسكين ليس لديه مكان للإقامة صيفاً*. حيث إنه يوجد في ياسنايا بوليانا جناح رائع وطبيعة وحيث توجد في السويد أسرة لطيفة ومضيافة وكريمة يسعدها دوماً وصولك ووجودك معهم - فهذا ليس بالمأساوي.

أما *أن الحياة تقسمكم إلى قسمين* - فهذا صعب، وأنا أوافقك الرأي

تماماً، ولكن ثمة أوضاعاً أسوأ؛ ولنحمد ربنا على ما هو متوفر لدينا. أنت نفسك تعيش بشكل جيد، وفعّال، وهادف، وهذا يجب أن يرضيك. لا يُعطى أي شيء بدون عمل وإشكالات...».

في النصف الأول من شهر نيسان / أبريل عام 1908 ليف لفوفيتش موجود في ياسنايا بوليانا. وقدومه إلى والديه بصورة متكررة وحيداً، بدون أسرته، لم يعد يدهش أحداً. في هذه المرة تصالح ليف لفوفيتش مع أبيه. ولأول مرة لاحظ ليف لفوفيتش، أن صوفيا أندرييفنا، ولسبب معروف، قد لاحظت قبل ذلك بكثير. لقد تغير تولستوي. أصبح بعيداً تماماً عن العواطف الأرضية ويرغب بشيء واحد فقط: ألاّ يتشاجر مع أحد، وأن يعيش مع الجميع في حب ووئام.

في ياسنايا بوليانا، كتب ليف لفوفيتش «ملاحظات حول أبي»، أشار فيها، بالمناسبة، إلى أن تولستوي «ضعفت ذاكرته»: «إنه ينسى أسماء الكنية لمعارفه، ويخلط بين أسماء الكتّاب. البارحة في حديثه معي ومع أختي تانيا خلط بين العالِمين إبسون وبرغسون، ثم تذكر فيما بعد وميّز فيما بينهما. لقد نسي اسم كنية إيردلي، زوج ابنة عمنا، الذي كان يحل ضيفاً لفترة طويلة علينا في ياسنايا بوليانا. لم يتذكر مباشرة موباسان عندما تحدثنا عن صدور سيرة حياته».

المشكلة كانت فعلاً خطيرة للغاية. فقد بدأت لدى تولستوي إغماءات وانهيارات في الذاكرة. وقد حدث أنه لم يستطع التعرف على أولاده وأحفاده، واختلط عليه الأمر بين صوت ابنه ليف وصوت أخيه ميتيا، الذي كان قد توفي قبل نصف قرن، ثم تساءل بصورة جدية: «حقيقة، كان هنا أخي ميتينكا؟» وعندما كان يجلس إلى مائدة الطعام، كان الجميع يلاحظون برعب، أنه يجهد كثيراً لتذكر من يجلس معه، ولا يتعرف على الجميع».

يكتب ليف لفوفيتش: «وبالمقابل ازداد الإحساس لدى أبي إلى حد كبير بمصالح واهتمامات الناس جميعاً عامة. إنه يخشى أن يزعج أي شخص، إنه لا يدين أي شخص على الإطلاق، إنه يهتم بجوانب حياة الناس الآخرين، الذين لم يمسّوه سابقاً قط، وكأنهم كانوا غير موجودين بالنسبة له. كان يسألني

على سبيل المثل، عن وضعي المادي، وعن منزلي، وعن مخزن بيع الكتب، وعن مداخيلي. وهذا للمرة الأولى منذ أن عشت بمفردي بصورة مستقلة».

وما إن غادر ليف لفوفيتش، كتب له أبوه رسالة، بدا بعدها كأن جميع جوانب سوء التفاهم بينهما قد زالت مرة واحدة وإلى الأبد.

«اليوم بطوله يبدو لي أنني أسمع صوتك، وعندما أتذكر أنك غادرت، أشعر بالحزن، ولكن بسرور، وبحب حزين... عند وداعي معك، لم يكن بإمكاننا أن نقول شيئاً أفضل من تلك الدموع الغبية التي خنقت كلماتنا، والتي ظهرت الآن في عينيّ، عندما تذكرتك. نعم، عزيزي ليوفا، لقد أُعطينا سعادة كبيرة – أن نحب بعضنا، وخاصة بعد أن حرمنا أنفسنا بأنفسنا منه. أقبّلك، أقبّل دورا، والأولاد... ل. ت.».

منعطف القدر

في عام 1908، وقع حدث في سيرة ليف لفوفيتش، بدل حياته بصورة جذرية وملأها بمعنى جديد. لقد اكتشف في نفسه موهبة النحّات، بصورة مفاجئة للجميع ولنفسه.

لقد كانت حادثة عرضية. في كل صيف تقريباً، كان يمضيه مع أسرته في المزرعة السويدية كان يشعر بالملل. ربما كان السويديون هم الناس الأكثر صواباً على الأرض، ولكن كانت رجاحة عقولهم تسبب له الأسى. وقد كتب في ذكرياته: «لقد كانت أسرة زوجتي قليلة التطور وقليلة الثقافة وخاصة بالمعنى الأدبي، وكان ينقصني المناخ الروحي والعقلي الذي ألفته في ياسنايا بوليانا». وبهذا الصدد ظهرت عنده ذات يوم القصيدة التالية:

أنا وحيد دوماً، والنافذة مفتوحة،
والريح تضج خلف النافذة،
أشعر بالحزن على ما عشته،
وفي نفسي الحزن يوجعني.
كيف *أعيش*؟ قولي لي أيتها الريح الجنوبية.
كيف *أفكر*؟ يا عنان السماء!

قل لي، في ساعة الفراغ هذه
وأنت أيها الحرش القديم الصاخب.
لا جواب، أشجار البلوط تطنّ،
والصنوبر، والتنوب يخشخشان بإبرهما.
لا جواب – وفي النفس سمّ،
وسلاسل الأسير تصلصل.

وفي هذه الحالة من الملل والحنين إلى الوطن «بدأتُ ذات صباح جميل، بدلاً من الكتابة، أشكّل وأنحت من الطين كل ما كان يخطر ببالي». فقد وضع الطين الأزرق في حفرة، ومن أجل تسلية الأطفال نحت لهم دمية. وقد اجتذبه كثيراً هذا العمل، لدرجة أنه نحت جندياً روسياً، ونحت بوشكين في شبابه، ونحت تمثالاً نصفياً لابن أخي زوجته بالحجم الطبيعي. وفي خريف 1908 نحت تمثالاً نصفياً لأبيه لكنه اضطر إلى كسره بسبب الطين السيّئ.

كان هناك سبب لإنشاء التمثال النصفي. ففي 28 آب/ أغسطس عام 1908 أكمل تولستوي الأب عامه الثمانين. وقد احُتفل بهذه الذكرى السنوية في ياسنايا بوليانا بتواضع، وضمن أفراد العائلة، وتم التخلي عن الاحتفالات العامة بسبب مرض المحتفى به –تولستوي– الذي كان ضعيفاً فعلاً لدرجة أنه أمضى الاحتفال على كرسي متحرك. ولم يحضر ليف لفوفيتش الاحتفال. كانت دورا تنتظر ولادتها التالية قريباً. وفي 5 أيلول/ سبتمبر ولدت في السويد ابنتهما الثانية التي سمّوها صونيا تكريماً لجدتها الروسية.

وعندما عاد إلى بطرسبورغ، تابع ليف لفوفيتش العمل في النحت. لم تُعِق دورا هوايته، وذلك أولاً لأنها كانت تحب زوجها بحرارة، وثانياً لأنها استسلمت مع حقيقة أنه دوماً مشغول في البحث عن نفسه. وفي صيف عام 1909 اتخذ ليف لفوفيتش قراراً بتأجير شقته في بطرسبورغ لمدة عامين والسفر إلى باريس من أجل دراسة النحت وفق الأصول.

أخذ يتردد على أكاديمية خاصة للفنون في باريس تقع على بولفار راسباي Boulevard Raspail، ثم انتقل بعد ذلك إلى ما يعرف بأكاديمية

جوليان للنحت، حيث يقدمون للطلاب مجاناً موديلات للنحت، ومرة في الأسبوع كان يقدم أساتذة مدرسة الفنون الجميلة لهم الاستشارات. كانت دورا والأولاد في السويد، أما هو فقد استأجر غرفة في الطابق الخامس من فندق مقابل حديقة لوكسمبورغ ويدفع مقابلها يومياً 3 فرنكات (حوالي 100 روبل). الحياة في باريس غالية، ومع ذلك سرعان ما انتقلت الأسرة كلها إلى باريس. وابتدأت مرحلة جديدة في حياتهم...

وانطلاقاً من ذكريات ابنه بافل، استأجروا في باريس شقة في حي مونبارناس، ولم يكونوا يعيشون برفاهية، ولكن ليس بفقر أيضاً. كان الأولاد يتعلمون في المدرسة الروسية. وعندما كانت دورا تلبّس أبناءها الخمسة: بافل، نيكيتا، بيتر، نينا، صونيا الملابس من أحدث صيحات الموضة الباريسية، وتخرج معهم للنزهة في المدينة، كان المارّة يلتفتون نحوهم ويقولون: «أوه، هذه الأسرة تمتلك الكثير من المال!».

وكان يدخل في عداد الحلقة الروسية التي يتواصل معها ليف لفوفيتش في باريس: النحّات باولو تروبتسكوي وعالم الفيزيولوجيا الشهير إيليا إيليتش ميتشنيكوف، الذي عاش في باريس منذ عام 1897 وفيها توفي عام 1916. كان ميتشنيكوف يعمل في معهد لويس باستور، وكان على معرفة بالنحات أوغوست رودين، الذي كان معبود ليف لفوفيتش. وميتشنيكوف هو الذي رتب اللقاء بين ابن تولستوي ورودين. وقد نظر رودين بإيجابية إلى أعماله، وكان يتابعه، ويقدم له نصائح ثمينة، حتى إنه نصحه بمغادرة الأكاديمية واستئجار ورشة نحت خاصة به، وهذا ما أقدم عليه ليف لفوفيتش في نهاية الأمر.

لقد عاش عامين في حالة إن لم تكن سعيدة، فمن الشعور بأنه وجد أخيراً طريقه في الحياة.

فرنسا «الجميلة».

ولكن، حتى في هذه الفترة، أقدم ليف لفوفيتش على فعلة، إن لم تحطم نهائياً حياته العائلية، فقد قوضتها من الأساس، وبما لا يمكن إصلاحها.

ومن جديد، لا يسع المرء ألا ينتبه إلى «التقاربات الغريبة» بين الأب وابنه. لقد حدث الخلاف الجدي الأول بين ليف نيقولايفتش وصوفيا أندرييفنا في عام 1871، عندما ولدت الابنة ماريا وأصبح في الأسرة خمسة أطفال - ثلاثة صبيان وفتاتان. في تلك الأثناء بالذات كانت الأسرة على حافة الطلاق بعد حوالي عشر سنوات من الحياة السعيدة. في عام 1909، وبعد أن عاش مع دورا ثلاثة عشر عاماً، وأنجب منها خمسة أطفال (ما عدا المتوفى ليف) ثلاثة صبيان وفتاتان، قرر ليف لفوفيتش الطلاق...

لقد كان هذا شبيهاً بالجنون المفاجئ!

في أكاديمية جوليان كان يدرس الرجال والنساء أيضاً، وهذا ما شكل خطوة هامة بالنسبة لفرنسا نحو تحرير المرأة. ذات يوم، كان ليف لفوفيتش ذاهباً إلى الورشة فرأى الفتاة التي «أحبها فيما بعد أكثر من نفسه، وأكثر من أسرته، وأكثر من الحياة». كانت في الثامنة عشرة من عمرها، وكان اسمها جيزيل بونو-فاريليا.

كانت ابنة المهندس، المبادر إلى بناء قناة بنما، وابنة أخي رئيس تحرير صحيفة «Le Matin» لوماتان الباريسية. كانت تنحت بوجه شاحب وجدي قناع بيتهوفن. كان شعرها كثيفاً وداكناً، ويداها جميلتين، وكتفاها مستديرين مرتفعين. كانت الفتاة ترتدي تنورة رمادية منقوشة بمربعات وبلوزة من الحرير الأبيض وكانتا تتناسبان بشكل رائع مع قامتها الجميلة المعتدلة الطول. التفتت إليه، والتقى لأول مرة نظرتها الذكية الصارمة. وفي زاوية الورشة كانت تجلس سيدة كبيرة السن مع عمل يدوي - أم المادموازيل جيزيل.

في كتابه «تجربة حياتي»، يكتب ليف لفوفيتش بأنه كان حباً من النظرة الأولى، طعنه في الصميم، لأنه رأى تلك المرأة التي كان يبحث عنها طيلة حياته. وقد سيطر عليه في آن واحد شعور بالقلق والإثـارة، والسعادة، والخوف. وعندما عرّفاهما أخيرها، أحدهما على الآخر، بدآ يمارسان عملهما جالسين جنباً إلى جنب. ولمس بكتفه كتفها...

ويكتب أيضاً في ذكرياته، «إنها كانت وحدها الزوجة الحقيقية المرسلة لي من السماء». كما أحبته جيزيل أيضاً. وعندما زارا معاً رودين، أطلق عليها

النحات العظيم على الفور لقب «فرنسا»، ورأى فيها تجسيداً مرئياً للوطن. لم يخف ليف لفوفيتش عن جيزيل أنه متزوج، لكنها تعاملت مع هذا الأمر كباريسية حقيقية، قائلة إن عليه بكل بساطة أن يطلّق دورا.

بيد أنه لم يخبرها بالشيء الرئيسي. ففي هذه الفترة، عندما اندلع الحب بينه وبين جيزيل، كانت دورا حاملاً. وكان من غير المعقول أن يهجر زوجته في مثل هذا الوضع، كان أهون عليه أن يرمي بنفسه في نهر السين. وفي غضون ذلك، لم تلاحظ زوجته شيئاً، وفي شقتهم الباريسية كانت تجري «حياة عائلية سليمة».

«انقسمت حياتي في باريس وأصبحت عذاباً لا ينتهي. كنت أشعر بنفسي مذنباً بلا حدود تجاه أسرتي وزوجتي، ومجرماً خفياً أمامها، لكن حبي كان صادقاً لدرجة أنه لم يخطر في ذهني قط محاربته... ففيه كانت سعادتي وحدها...».

وأخيراً، عندما أصبحنا أنا وزوجتي وحيدين في الغرفة، حدثتها عن جيزيل وأعلنت طلاقي منها. لم تعرف دورا المسكينة في البداية، كيف تتعامل مع هذه «القسوة الوحشية». «لاذت المسكينة بالصمت بضع ثوان، ثم فجأة، هجمت عليّ كالوحش، محاولة مثل القطة أن تخرمش وجهي. أمسكت بها من يديها، وخرجت من الغرفة، وأغلقت الباب من خلفي. لكنها ركضت ورائي، وضغطت بقوة كبيرة على الباب، بحيث إنه خرج مع القفل من المفصلات. وهجمت على وجهي من جديد، محاولة الإمساك بي من حنجرتي. حاولت تهدئتها دون جدوى، فقد كانت خارجة عن طورها».

في 8 كانون الأول/ ديسمبر كتب لأمه:

«أمي العزيزة، يحزنني أن أبلغكم، أن دورا أنجبت قبل الأوان بالأمس صبياً ضعيفاً، عاش عدة ساعات فقط، خرج من بطن أمه بقدميه أولاً، وكان بأطراف ضعيفة منحنية. ما هو السبب؟ الأسباب كلها. الأولاد قبله على التوالي، وباريس، وعدم رغبة دورا بإنجاب المزيد من الأولاد. والحمد لله، صمدت دورا أمام هذا كله، وهي ترقد الآن، وبصحة ممتازة. أنا، كما في السابق، أمارس النحت، وأبدأ بإدراك أنني بحاجة إلى ما لا يقل عن

عشر سنوات، كي أصبح كبيراً في هذا المجال. أقف ساعات طويلة أمام أعمال رودين، التي لا أعرف أسمى منها وأروع. منذ فترة قصيرة حصلت في أكاديميتي على المرتبة الأولى لرسم تخطيطي لنقش بارز حول موضوع «*الحرب*»... أحب باريس والفرنسيين وأشعر أنني أعيش هنا بشكل أقوى مني في بيتي».

لم ينجح في مسعاه

لم يخبر ليف لفوفيتش أمه بما حدث في الواقع في باريس. فقد كان يدرك، أنه من غير المتوقع أن تتعاطف معه في هذه الحالة.

في هذه الأثناء، قام والدا جيزيل بتنظيم مراقبة حوله، واكتشفا حقيقة أسرته. وعند لقائها الأخير به، قالت له جيزيل، إن الرجل المحترم لا يهوى فتاة ويلاحقها عندما تكون زوجته حاملاً. وغادرت الأكاديمية، ومنذ تلك الأثناء لم يرها على الإطلاق، على الرّغم من أنه، كما يكتب، حاول البحث عنها في حشد باريس حتى بعد مرور سنوات.

في عام 1909 جاء ليف لفوفيتش إلى ياسنايا بوليانا صيفاً، وحده، بدون أسرته، وحاول تشكيل تمثال نصفي لوالده «من الطبيعة». لكن التمثال النصفي لم ينجح.

منذ صيف عام 1908 يحاول تشرتكوف الذي عاد من هجرته في إنكلترا، الاستقرار مع عائلته بالقرب من ياسنايا بوليانا. كان تولستوي سعيداً بلا حدود، أما صوفيا أندرييفنا فبالعكس، ليست غير سعيدة فحسب، بل أصبحت على حافة الجنون. فهي تغار على زوجها من «صديقه الروحي» وتشك، بحق، كما تأكد ذلك، في أنه يتلاعب بالرجل العجوز ويجهّز معه وصية سرية على تركته الأدبية، ناوياً حرمان صوفيا أندرييفنا من جميع الحقوق في طباعة مؤلفات زوجها بعد وفاته.

وفي آذار عام 1909، وبأمر من ستوليبين، يتم إبعاد تشرتكوف خارج حدود مقاطعة تولا، لأن سلطات تولا رفعت تقارير عديدة إلى بطرسبورغ مفادها أن ثمة دعاية جامحة مناهضة للحكومة تجري في مقاطعة تولا على

خلفية الحركة «التولستَوية». يحق لتشرتكوف أن يعيش حيثما كان في روسيا... باستثناء مقاطعة تولا التي يعيش فيها تولستوي. وبالنتيجة، ومن أجل اللقاء بـ«صديقه الروحي»، يُقدِم تولستوي على عملية تآمر حقيقية. يذهب في البداية في 8 حزيران/يونيو مع صوفيا أندرييفنا وسكرتيره نيقولاي نيقولايفتش غوسيف، والدكتور ماكوفيتسكي إلى مزرعة ابنته تاتيانا لفوفنا في كوتشيتي، التي تبعد ثلاثة كيلومترات فقط عن الحدود مع مقاطعة أرلوف. وهناك على الحدود، في أرض أرلوف، يلتقي في قرية سوفوروف مع تشرتكوف في 30 حزيران/ يونيو. أما اللقاء الثاني فيحدث في اليوم التالي. وكلا اللقاءين يجريان سراً دون معرفة صوفيا أندرييفنا. ومن غير المعروف موضوع حديثهما. وفي 18 أيلول/ سبتمبر وفي حوزة كريكشينو، في ضواحي موسكو، حيث يقيم تشرتكوف، يوقع تولستوي *الوصية السرية الأولى*[1] ضد زوجته وأولاده...

عندما غادر الأب والأم إلى كوتشيتي، بقي ليف لفوفيتش في ياسنايا بوليانا. لقد دعي للذهاب إلى كوتشيتي لكنه رفض لسبب ما. في ذلك الصيف لم يكن بينه وبين أبيه عداوة خاصة. كان الأب مستعداً لمواصلة الجلسات في كوتشيتي. بيد أن الابن قرر انتظار عودته. وكانت تتأجل عودته، ربما بسبب اللقاء المقبل مع تشرتكوف. وعندها في 25 حزيران/ يونيو سحق ليف تمثال أبيه النصفي وحوله إلى قطعة من الطين بلا شكل، وغادر ياسنايا بوليانا. ولكن لم يكن واضحاً، هل كانت هذه دلالة على انزعاجه من والده أم دلالة فشل فني إبداعي. على الأغلب هذا وذاك. ولن يتمكن من نحت تمثال لأبيه إلا بعد وفاته. وسيكون تولستوي *غير الطيب، أي كما يراه هو*...

1- تم الحديث بالتفصيل عن تاريخ وصية تولستوي السرية في كتابَي: ب. س. ميلاخ «رحيل وموت ليف تولستوي» - موسكو -لينينغراد-1960؛ بافل باسينسكي «ليف تولستوي: الهروب من الجنة». موسكو-1914.

الفصل العاشر
حرب الإخوة

أخيراً، أقترب من تابوت البلوط، وأنظر إلى الرجـل الميت الصغير الغريب... ولا أصـدق أن هـذه البقايـا الصغيـرة التافهـة كانت أبي.

• ل. ل. تولستوي «تجربة حياتي».

ابن الأم

من غير المعروف حتى الآن، الدور الذي لعبه ليف لفوفيتش في النزاع العائلي في صيف وخريف عام 1910، ذلك النزاع الذي اختتم بهروب الأب من ياسنايا بوليانا وموته في أستابوفو. ما هو معروف، أنه عند ذهابه إلى والديه في ذلك الصيف، *لم* يكن ليف لفوفيتش يعرف شيئاً عن الوصية السرية التي تم توقيعها في كريكشينو، في خريف عام 1909، من خلف ظهر صوفيا أندرييفنا التي كانت في المكان نفسه. كانت لديه فكرة سيئة عن التوزيع الحقيقي للقوى في هذا النزاع، ولم يعرف حتى جميع الأفراد المشاركين فيه. كان يدرك، أنه في أي نزاع بين أبيه وأمه ستكون ساشا إلى جانب الأب. لكنه لم يكن يعرف أن ساشا كانت مرتبطة في مؤامرة مباشرة مع تشرتكوف و«فريقه» ضد أمها وإخوتها، أي ضده هو أيضاً، ليف لفوفيتش. وبعد أن اندس في هذا النزاع، تصرف ليف لفوفيتش «بصورة عمياء»، وهذا يفسر سلوكه إلى حد كبير.

هل كان مطلعاً على هذا النزاع عشية وصوله؟ تعتقد فاليريا أبراسيموفا: «على الأغلب، أحد إخوته أطلع ل. ل. تولستوي على الوضع الصعب في الأسرة، الناتج عن نوبات الهستيريا عند صوفيا أندرييفنا تولستايا». وفي 29 حزيران/ يونيو عام 1909 وصلت برقيته من بطرسبورغ إلى ياسنايا بوليانا: «أرسلوا برقية إلى فندق الشمال في بطرسبورغ عن صحة أمي أرسلوا عربة إلى محطة ياسينكي على القطار السريع يوم الجمعة». ولكن الوضع النفسي غير الطبيعي لصوفيا أندرييفنا كان معروفاً منذ فترة طويلة، منذ موت فانشكا في عام 1895. ولكن، هل كان الابن يعرف أن نوبات الهستيريا ناتجة عن شجار الأم مع الأب بسبب تشرتكوف؟

في كتابه «تجربة حياتي»، يؤكد ليف لفوفيتش أنه عشية قدومه لم يكن يعلم أي شيء. «لكن ما وجدته هناك أغرقني في حيرة كبيرة وحزن شديد...».

في 2 تموز/ يوليو تكتب صوفيا أندرييفنا في يومياتها: «بحلول وقت الغداء، وصل ابني ليوفا، مفعماً بالحيوية والبهجة. كان يشعر بالسرور لعودته إلى روسيا، إلى ياسنايا بوليانا، ورؤيتنا». ويبدو أن قدوم ابنها كان بالنسبة لها مفاجأة. وهذا يدل على أنها لم تستدعِه بنفسها هي إلى ياسنايا بوليانا. وكان من غير الممكن أن تقوم بذلك شقيقته ساشا. ناهيك عن أن هذا لا يمكن أن يقدم عليه الأب بأي شكل من الأشكال، وهو الذي كتب عنه بعد يوم من وصوله في يومياته: «وصل ليوفا. بسط صغير، ومقام بلا نهاية». على الأرجح، قام بهذا أحد الإخوة أو أخته تاتيانا. فقد كانا مشغولين بمشاغلهما الخاصة ولم يشاركا بصورة مباشرة في نزاعات والديهما. وفي النتيجة كان هناك بين الأب والأم ساشا وليوفا. لكن هذا كان أسوأ الخيارات الممكنة، لأن ساشا كانت في ذلك الوقت نصيرة مؤيدة لأبيها ومعارضة لأمها، أما أخوها فكان معارضاً عن قناعة لأفكار أبيه ومشاركاً بقلبه وروحه لموقف أمه. ولهذا أُضيف إلى نزاع الوالدين «حرب الأخوة».

من المحتمل أن صوفيا أندرييفنا أخبرت ابنها على الفور بحديثها مع تشرتكوف الذي جرى عشية قدوم ليوفا. وفي عام 1910 سُمح لتشرتكوف بالإقامة في مقاطعة تولا مع أمه وزوجته وابنه. فسرعان ما شرع ببناء منزل حجري كبير مناسب في تلياتينكي القريبة من ياسنايا بوليانا. وأعلن تشرتكوف

لزوجة تولستوي، أنه منذ الآن يعد «كاهنه الروحي»، وعلى صوفيا أندرييفنا أن تقبل بهذا. كما قال أيضاً، إنه إذا ما كان يريد «توسيخ» أسرة تولستوي لفعل ذلك منذ زمن، لأن جميع يوميات تولستوي منذ عام 1900 محفوظة عنده، وإذا لم يفعل هذا فهو أفضل دليل على محبته لتولستوي. لقد أصبح التواصل بين تشرتكوف وزوجة تولستوي منذ لحظة معينة بلا معنى، مثله في ذلك مثل أحاديثها مع زوجها. فوعي صوفيا أندرييفنا المريض لم يكن يستجيب لمعاني الجمل بل لبعض الكلمات فقط، وفي هذا السياق لفتت انتباهها كلمة «توسيخ». كان تشرتكوف يهدف من ورائها «توسيخها» هي وأسرتها – وهذا ما فهمته! على أية حال، لم تكن بعيدة عن الحقيقة.

لم يقدّر ليف لفوفيتش حق التقدير على الفور مأساوية الوضع بكامله. ففي 4 تموز/ يوليو كان لا يزال ينظر إلى أبيه كنموذج ممكن لمنحوتة جديدة. وقد كتبت صوفيا أندرييفنا: «قال ليوفا اليوم، إنه وجد بالصدفة بالأمس على وجه ليف نيقولايفتش تعبيراً رائعاً لإنسان من عالم آخر، بحيث أُصيب بالذهول، وأراد تثبيت هذا التعبير في منحوتته». لكن الابن في ذكرياته المتقدمة، فسر هذا «التعبير الرائع» بطريقة أخرى: «أبي فقد الذاكرة»، عقلياً وروحياً. دماغه لم يعد يعمل بصورة طبيعية، دورته الدموية أصبحت صعبة، وفي بعض الأحيان كان يناضل بكامل قواه ضد أمراضه، من أجل إطالة عمره بطريقة أو بأخرى».

كما قرر أيضاً، أن والده، كالطفل، يقع تحت سلطة تشرتكوف الكاملة. «كان طيلة حياته، يخضع بسهولة للتأثيرات، ولم يكن لديه حس نقدي، أما الآن، فهو عجوز مريض، تراجع إلى مرحلة الطفولة، وفقد ذاكرته كما يعترف هو نفسه في يومياته، فقد خضع نهائياً لتشرتكوف...».

دار حديث قاس بين ليف لفوفيتش وتشرتكوف. ونظر الرفيقان والصديقان السابقان أحدهما إلى الآخر كعدوين.

«في 6 تموز / يوليو، استدعيته إلى غرفتي، وقلت له بما أن حضوره في منزلنا يسبب الألم للوالدين، فإنني أرجوه أن يتوقف عن زياراته. كان في البداية مندهشاً، ولم يعرف كيف يعترض. لكنه فيما بعد غضب فجأة وأخذ يخاطبني بوقاحة.

- أنت وحدك ستكون الخاسر! - قال لي صارخاً بابتسامة شريرة.

طلبت منه بهدوء مرة ثانية التوقف عن القدوم إلى بيتنا.

- حسناً، ولكن أنت نفسك ستكون الخاسر - كرر وهو يضحك بغباء...

عندها غضبت غضباً شديداً منه، وهذا نادراً ما يحدث. وأخذت أصرخ وكنت مستعداً لدفعه بالقوة خارج الغرفة وخارج المنزل.

- أنت أبله! -صرخت عليه- يعرف الجميع أنك أحمق وأبله! اتركني في هذه اللحظة بالذات!».

في اليوم التالي اعتذر ليف لفوفيتش من تشرتكوف وطلب منه أن يتحدث ويتصالح مع أمه صوفيا أندرييفنا. في البداية، كان يرى دوره في منزل الوالدين كصانع سلام. ومع شفقته بلا نهاية على أمه، كان يدرك أن أباه ليس مسروراً بضغطها وهجومها. كانت صوفيا أندرييفنا تطالب بصورة قطعية بتسليمها يوميات ليف نيقولايفتش الأخيرة، لكن هذا المطلب كان المطلب الوحيد الذي رفض ليف نيقولايفتش الموافقة عليه، شاكاً بأن اليوميات إذا ما مرت عبر يديها فستتعرض لـ «رقابة» خطيرة. وكانت صوفيا أندرييفنا، من ناحيتها، تشك في أنه توجد في يوميات زوجها الوصية أو معلومات عنها.

«في تلك الأيام، عندما كانت هذه القذارة كلها تحدث من حولي، كنت أعيش في ياسنايا بوليانا وكنت أنحت تمثالاً نصفياً لأمي، دون أن أرغب في التعمق بما يجري ودون أن أفهم جيداً ذلك اللغز الذي كان يحيط بحياة والدي...».

وبالتزامن مع عمله على التمثال النصفي لأمه، عاد للعمل من جديد على تمثال أبيه. وفشل من جديد! أما التمثال النصفي للأم فقد جاء ناجحاً. وقد أثنى عليه الأب، ولا يزال محفوظاً في ياسنايا بوليانا.

في 9 تموز/ يوليو توجه ليف لفوفيتش مع أبيه في نزهة على ظهور الخيل. كانت صوفيا أندرييفنا قلقة: كانت تقترب سحابة سوداء، ولم يأخذا معهما معاطف خارجية! وعندما غادرا، هبت عاصفة رعدية، وبقيت صوفيا أندرييفنا ساعة ونصف الساعة تهرع في حالة قلق على شرفة المنزل. في هذا الوقت كان الأب مع ابنه ينتظران توقف المطر على شرفة الحراسة

القديمة والفارغة للغابة. لم يكن لديهما ما يتحدثان عنه. «كان أبي القلق، البائس، يقف إلى جانبي، كتفاً إلى كتف، دون أن ينطق بكلمة واحدة، متجنباً نظرتي إليه. ودون انتظار انتهاء المطر، صعد على ظهر حصانه وذهب خبباً إلى المنزل».

تكتب صوفيا أندرييفنا: «عادا مبللين بالمطر. أردت مساعدة ليف نيقولايفتش على فرك ظهره وصدره وقدميه ورجليه بالكحول. لكنه رفض مساعدتي بغضب...».

وبعد يوم، في ليلة 11 تموز/ يوليو حدثت الفضيحة بين الأب والابن. سكان المنزل يصفون هذا الحديث بطرق مختلفة. وقد سُجل أيضاً في يوميات تولستوي، وفي مذكرتين من مذكرات ليف لفوفيتش على الفور. بيد أننا لا نملك صورة دقيقة لما حدث.

قبل هذا، في أثناء السباحة في ياسنايا بوليانا فقد تشرتكوف ساعته الثمينة. فعبأ ليف نيقولايفتش سكان المنزل كله وشباب القرية للبحث عنها، ما أغضب زوجته بصورة رهيبة. وفي 10 تموز/ يوليو صرخت عليه بعنف شديد، حتى إن ليف لفوفيتش أخذ يهدئ أمه: «اخجلي، يا أماه، لديك أحفاد!». وفي الليل جاءت إلى زوجها لتتابع استياءها من تعلقه بتشرتكوف وتطالبه بإعطائها اليوميات. يكتب تولستوي في مذكرته: «لقد رفضت طلبها بهدوء». استلقت صوفيا أندرييفنا في ثوب خفيف على ألواح الشرفة أمام باب غرفته، ثم ذهبت إلى الحديقة وجلست على الطريق عند الجادة.

بحثوا عنها طويلاً وعثروا عليها بمساعدة الكلب ماركيز. حاول ماكوفيتسكي وليف لفوفيتش ونيقولاي غي إقناعها بالعودة إلى المنزل، لكنها رفضت وطلبت بأن يأتي زوجها. وعندها توجه ليف لفوفيتش إلى غرفة أبيه.

يكتب تولستوي في اليوم التالي في يومياته: «ليلة مروعة. حتى الساعة الرابعة ليلاً. والأسوأ كان ليف لفوفيتش. كان يوبخني ويقرّعني كصبي صغير...» وبحسب ذكريات غولدنفيزر (المُسجّلة حسب الشائعات)، فقد دعا الابن أباه «قميئاً». لكن ليف لفوفيتش كان ينفي هذا قطعياً.

يكتب ليف لفوفيتش في «الحقيقة عن أبي»: «كانت أمي مستلقية على الأرض، دافنة وجهها في جذع شجرة زيزفون قديمة. بدأنا نرفعها. لكنها كانت تسقط من جديد على الأرض وترفض النهوض.

– لقد طردني –اشتكت بصورة هستيرية– لن أذهب... لا يمكنني الذهاب حتى يأتي. عندها أشفقت عليها، وركضت إلى أبي إلى الأعلى في غرفته.

– ماذا حدث؟ – سأل بقلق.

– إنها لا تريد القدوم –قلت– تقول، إنك طردتها.

– آه، آه، يا إلهي! –صاح أبي– لا! لا! هذا أمر لا يطاق!

– اذهب إليها –قلت له– من دونك لن تأتي.

– لا، لا –كرر الأب خارجاً عن طوره من اليأس– لن أذهب.

عندها قلت له بصوت عال وبانزعاج: – أنسيت أنك زوجها... عليك أنت تسوية كل هذا.

نظر إليّ بدهشة وارتباك

وذهب إلى الحديقة بصمت».

يؤكد ليف لفوفيتش في كتابه «تجربة حياتي»: «لم أصرخ في وجهه قط في حياتي». ولكن هنا، وبعد أن قرأ بالفعل يوميات أبيه، يسترعي انتباهه، أنه بعد هذا الحادث، يدعوه أبوه لأول مرة «ليف لفوفيتش» وليس «ليوفا» ولا «ليف». اختتم الشجار الليلي بين ليف نيقولايفتش وصوفيا أندرييفنا بصلح مؤقت. أمضى الاثنان الليل كله معاً في غرفتها. تكتب صوفيا أندرييفنا:

«عندما طلع الفجر، كنا لا نزال جالسين في غرفة نومي، أحدنا مقابل الآخر، ولم نكن نعرف ماذا نقول. متى حدث ذلك من قبل؟ كنت أود الخروج ثانية، والاستلقاء مرة أخرى تحت شجرة البلوط في الحديقة؛ فربما يكون هذا أسهل مما في غرفتي. أخيراً أمسكت بيد ليف نيقولايفتش وطلبت منه الاستلقاء، وذهبنا إلى غرفة نومه. عدت إلى غرفتي، لكنني شعرت بالميل من جديد نحوه، وذهبت إلى غرفته.

استلقى متدثراً باللحاف الذي عملته لأجله بنقش يوناني، هرماً حزيناً،

ووجهه إلى الجدار، واستيقظتْ في نفسي شفقة مجنونة وحنان شديد نحوه، وطلبتُ منه أن يسامحني، قبّلت كفهُ المحبوبة الأليفة الحبيب - وذاب الجليد. وبكينا نحن الاثنين من جديد، ورأيت أنا أخيراً حبه لي وشعرت به».

ويكتب تولستوي في «يوميات لي وحدي»: «يمكنني أن أحبها بصدق حقاً، وهذا ما لا أستطيعه تجاه ليوفا».

حقيقة أن ليف لفوفيتش انحاز بالكامل إلى أمه، تميزه بصورة إيجابية. وهل كان بإمكانه، وهو ليفوشكا، الابن المفضل لديها، أن يفعل خلاف ذلك؟ وإلا لكانت خيانة صريحة من جانبه! علاوة على ذلك، وحتى لو أنه لم يكن يدرك كل شيء في نزاع ياسنايا بوليانا، لكنه كان يشعر، أن أمه في صيف عام 1910 كانت وحيدة تماماً. فليس تشرتكوف وساشا وحدهما، بل تقريباً جميع سكان المنزل وضيوفه الدائمين -ضاربة الآلة الكاتبة وصديقة ساشا بربارة فيوكريتوفا، الدكتور دوشان ماكوفيتسكي، الموسيقي ألكسندر غولدنفيزر وغيرهم- كلهم أدانوا صوفيا أندرييفنا لـ«اضطهاد» زوجها بل واعتبروا حالتها النفسية غير الطبيعية «تمثيلاً» و«تظاهراً». لم يكن من الممكن أن لا يشعر أن من خلف ظهر أمه تُحاك «مؤامرة» ضدها. وكان غاضباً بالطبع من موقف أبيه من هذا، فهو لم يتخذ أي إجراء لحماية زوجته.

فيما بعد كتبت ساشا أن شقيقها هذا «كان يصب الزيت فوق النار، موجهاً بصورة لا إرادية، أمه ضد أبيه... لم يكن يخفي ليوفا أنه لا يحب أباه، وأنه في بعض الأحيان يشعر بالكراهية نحوه!».

ربما كان الأمر كذلك. ولكن في مذكرات ويوميات شهود عيان تلك الأحداث لم تسجل أي حالة تثبت أن ليف لفوفيتش وجه أمه بصورة مكشوفة ضد أبيه. ولا وجود لأي شيء من هذا في يوميات صوفيا أندرييفنا. يمكن القول إنه كان يغذي نار العداء بين أمه وتشرتكوف. على سبيل المثال، نقل لأمه عبارة تشرتكوف: «أية امرأة هذه التي تقوم طيلة حياتها بقتل زوجها». هذه العبارة التي قالها تشرتكوف بحضور ليف لفوفيتش على الدرج، بعد حديثه مع صوفيا أندرييفنا، لم تكن مخصصة للنقل إلى صوفيا أندرييفنا

نفسها. وقد تصرف ليف لفوفيتش في هذا الشأن بطريقة غير صحيحة، مثيراً من جديد في أمه الكراهية نحو «الصديق الروحي».

وقد كتبت في يومياتها: «إنه هو نفسه الذي أدخل إلى منزلنا النتانة، التي نكاد أن نختنق جميعاً منها، وخلافاً للحق والعدالة ورأي الدنيا كلها التي اعترفت بحبي واهتمامي بحياة زوجي، يتهمني هذا السيد *بقتله*. إنه يبكي ويعصِّب، لأنني فتحت عينيَّ على مآربه، لقد أدركت رياءه، ويريد الانتقام مني. لكنني لا أخشاه».

ومَن كان يتصرف تصرفاً سليماً من سكان ياسنايا بوليانا آنذاك؟ تعترف ساشا في ذكرياتها، أنها هي بالذات، كانت تؤلِّب مراراً أباها ضد أمها. وعلى سبيل المثال، عندما رفعت الأم من مكتب الأب صور ابنتها وتشرتكوف، ووضعت مكانها صورتها الشخصية، استاءت ساشا من أن الأب لم يعترض على هذا. وصرخت: «أنت من أجل أمي التي تسبب لك كثيراً من الشرور، قد ضحيت بصديقك، بابنتك. فلست أنا من علق صورتي في غرفتك، بل أنت علقتها، والآن لا تجرؤ على استعادتها من جديد!...

هز أبي رأسه وقال لي:

– أنت تقلدينها – وخرج...».

ما عدا الأبناء!

كان يشعر تولستوي، بالتأكيد، أنه بتوقيعه للوصية التي لم تشمل صوفيا أندرييفنا، قد ارتكب بحقها عملاً ظالماً. ولكن، أولاً، جرى إقناعه بأن ائتمان زوجة «مجنونة» على تركة روحية يعني تعريض هذه التركة لخطر جسيم. وليس من قبيل الصدفة، أن النص النهائي المُحقق والمكمّل لهذه الوصية وقعه تولستوي في الغابة بالقرب من قرية غرومانت في اليوم التالي بعد أن زار طبيب الأمراض العقلية غريغوري إيفانوفيتش روسوليمو ياسنايا بوليانا وشخّص لزوجة تولستوي مرضها: «انتكاس بنيوي مزدوج: بارانويا وهستيريا مع غلبة الأول». ورغم أن تولستوي، من خلال مدونته في اليوميات («روسوليمو غبي علمياً، وميئوس منه») لم يقنعه هذا التشخيص

بشيء خاص ما، لكنه وقع الوصية في اليوم التالي. ثانياً (وهذا الأهم!) كان يعتقد تولستوي أن ابنتيه الاثنتين، ساشا وتاتيانا، المسجلتين في الوصية، كوريثتين شرعيتين (الثانية تصبح وريثة شرعية في حال الموت المفاجئ للأولى) لن تسيئا إلى أمهما بعد موته. وكان يرى أن النساء سيتفقن، مدركاً أن نزاع ساشا مع أمها سيخبو وينطفئ، عاجلاً أم آجلاً بعد وفاته. فالمكوِّن الرئيس في هذا النزاع لم يكن الحساب التجاري، ولا حتى المثل العليا، بل الغيرة النسائية العادية. لكن الأم ستتفق مع ابنتها. إن لم يكن الآن فبعد موته. عند اختفاء السبب الحي للغيرة...

لكنه لم ير *أبناءه* في هذا السيناريو بأي شكل من الأشكال! كان يعتقد أنهم بالذات ليس لهم أية حقوق من تركته الروحية!

تظهر هنا مفارقة سيكولوجية. فبشعوره بالذنب تجاه زوجته، بذل تولستوي جهده للتعامل معها بحذر وحب، متنازلاً أمامها في كل شيء. وفي النهاية، وافق على أن يأخذ من تشرتكوف اليوميات ويحفظها في خزنة بنك تولا - كي تهدأ صوفيا أندرييفنا ولو قليلاً. وعندما افترق معها مؤقتاً بعد مكوثهما الأخير في مزرعة ابنته تاتيانا، كتب في يومياته، أنه يشعر بالحزن وبصعوبة بدون زوجته. وفي الوقت نفسه، كل ما يوجد في ليف لفوفيتش كان يذكّره بأمه، ويخرجه عن طوره! وفي انعكاسه كانت صوفيا أندرييفنا أيضاً غير مريحة!

تكتب صوفيا أندرييفنا في يومياتها: «إن ليوفا ينحت منحوتة لي، وأنا أشعر بالراحة والهدوء بقربه، إنه يفهمني دوماً، ويحبني، ويشفق عليّ...».

يتحدث الأب عن ابنه بحضور الغرباء: «يا له من رهيب، ماذا يفعل، ماذا يفعل! علي الاعتراف أنني أشعر بالخجل من أن أقول هذا، ولكن لو أنه سافر لشعرت بكثير من الراحة!».

ويشكو إلى ماكوفيتسكي: «كم هو شبيه من الناحية السيكولوجية بصوفيا أندرييفنا!».

في 6 تموز/ يوليو أرادت أن تغرق نفسها في نهر فورونكا. وكتبت في يومياتها: «ليوفا (ابني) يعاملني بلطف وبشكل مؤثر؛ جاء إلى النهر لرؤيتي، وأنا بأية حال...».

تولستوي يكتب: «ليوفا أكثر من غريب».

صوفيا أندرييفنا تكتب: «أشعر بالأسف كثيراً على ابني ليوفا. إنه اليوم حزين جداً ومهموم».

تولستوي يكتب: «هناك صراع مستمر في نفسي حول ليوفا: هل أسامحه أم أرد بقسوة وبكلمة سامة؟».

ومع ذلك، كان يشعر أحياناً «بخطيئته بحق ليف» *وكان يقنع نفسه* من جديد بأنه «يجب أن يحب» ابنه. وقد حاول التحدث معه... «تحدثت مع ليف. بلا فائدة».

إنه يقنع ساشا بأن لا تعادي أمها، وتتصالح معها، وأن تكون معها أكثر لطفاً. ولكن بمجرد أن يندفع الابن للدفاع عن أمه، يغلي الغضب في نفس تولستوي!

في اليوم التالي بعد المشاجرة الأخيرة مع صوفيا أندرييفنا، يكتب ملاحظة لساشا: «كرمى لله، لا تلومي أمك وكوني معها طيبة ووديعة».

ولكن عندما يدخل الابن إلى غرفة أمه من أجل تهدئتها، يخرج تولستوي عن طوره ويفقد السيطرة على أعصابه:

«هذا فقط ما كان ينقصني، أن يبدأ ليف لفوفيتش بتوبيخي!».

«البارحة كان لدي حديث مع ليف، وهو اليوم شرح لي أنني أنا المذنب... يجب أن ألوذ بالصمت، وأحاول أن لا أكنّ نحوه مشاعر سيئة...».

لكن الصمت – أسوأ! «أشعر أن بيني وبين ليوفا مسافة لا يمكن التغلب عليها. وسأقول له، سأحاول من باب المحبة، الحقيقة كلها son fair».

لكنه لا يقول شيئاً... يلوذ بالصمت...

ويفهم الابن هذا على طريقته الخاصة. فهو يعتقد أن صمت الأب –علامة صادقة على أحقيته هو– ليف لفوفيتش. وبالفعل يصب الزيت على نار النزاع. وعندما ينظر تولستوي إلى زوجته فهو لا يراها وحدها فقط، بل يرى ابنها أيضاً الذي يشبه أمه كثيراً، حسب رأيه! إنه الابن الغبي، المغرور، المنشغل ببهرجة الحياة، وليس بما يقلق الأب في هذه الفترة –الله والخلود. إنه يتطلع ويطمح بامتلاك تركته الروحية– ولكن، ما هو المبرر؟ وماذا قدم

له أبناؤه؟ كانوا يأخذون، ويأخذون منه ويأخذون! اسمه، حوزته، مزرعته، أمواله، وهم الغارقون إلى الأبد في الديون، وكانت صوفيا أندرييفنا تقرضهم! زيادة على ذلك، هذا الابن يريد أن يعلِّمه...

ما إن وجد نفسه في المنزل، حتى بدأ يستخدم عدسة أخرى للنظر إلى أبيه. إنه ليس ذلك الرجل العظيم الذي تدور من حوله حياة ياسنايا بوليانا كلها كما تدور حول الشمس، بل هو زوج *لزوجته وأب لأبنائه*. ومن وجهة النظر هذه، فإن تولستوي بالفعل قد «خرج من عقله». وأصبح مجرد شخصية مسرحية ما من المسرحيات. وهو مستعد تماماً لأن يعطي كل شيء للمغامر تشرتكوف صاحب الصوت الجميل، الذي تسلل إلى منزلهم، ويريد حرمان أهله وأبنائه من حقوقهم الشرعية.

يتذكر ليف لفوفيتش: «بناء على نصيحة صديقه، حلق لحيته فأصبحت قصيرة، لا تناسبه أبداً. وفي الصباح كان يمشي في أرجاء الغرفة عارياً والنافذة مفتوحة. وكان يوحي له تشرتكوف، أنه لا يزال عجوزاً نشيطاً، ونظراً لمغادرته زوجته فسوف يعيش طويلاً...».

ويتابع ليف لفوفيتش قائلاً: «أنا لا أدين أبي، لا يمكن إدانة الشخص الذي لا يتعرف على أسرته والذي يعيش في ضباب عقلي كامل. كان يتصرف كالطفل. أما تشرتكوف فلا أدينه فحسب، بل ألعن ذكراه واسمه إلى أبد الآبدين...».

اثنان من الأسرة، كان بإمكانهما حل هذا النزاع. أكبر الأبناء – سيرغي، الابن الأكبر وتاتيانا، الابنة الكبرى. كانت الأم تعاملهما باحترام. كانت صوفيا أندرييفنا تخشى تاتيانا وتهدأ عادة أثناء وجودها. لكنهما لم يفعلا شيئاً، فقد كانا مشغولين بمشاكلهما الشخصية. كانا يحضران إلى ياسنايا بوليانا من وقت لآخر، ولا يمكثان طويلاً، عندما بلغ النزاع ذروة الغليان واحتاج إلى «مجلس تحكيمي». وصل سيرغي إلى ياسنايا بوليانا إثر قدوم ليف لفوفيتش، وحاول الحديث مع أخيه. لكن الحديث بينهما كان بلا طائل. كان ليف يصرخ: «علينا أن نعالج الأب وليس الأم، فهو الذي خرج عن عقله». وقال له: «إنها أُمّنا». فأجابه سيرغي: «أنت تنسى، أنه أبونا!».

المصيبة، أن الأب، في ذلك الوقت، لم يكن يشعر نحو سيرغي بمودة خاصة. يكتب تولستوي في يوميات هذا الصيف: «ثمة شعور لدي غير طيب نحو سريوجا لا أحاربه (الشعور وليس سريوجا) بما يكفي. وبالمقابل ثمة شعور جيد جداً نحو صونيا». ومن جديد، حجته تجاه ابنه الأكبر تتلخص في الشيء ذاته الذي لا يحب بسببه ليف لفوفيتش: «نفس الشعور عند سريوجا... ثقة بالنفس مفرطة لا تطاق».

وأخيراً يحدث الأسوأ. في آخر تموز/ يوليو يحضر أندريه لفوفيتش إلى ياسنايا بوليانا. كان أندريه، وهو الابن الرابع في الأسرة، الذي حضر، في هذه المرة، باستدعاء من أمه معارضاً لأبيه أكثر بكثير من بقية إخوته.

فور وصوله، قرر مع ليف، مَن مِن الأخوين سوف يسأل أخته وأباه عن وجود وصية سرية. وقد أصبح الجميع في ياسنايا بوليانا يعرف بوجود مثل هذه الوصية، والخدم وحدهم لم يخمنوا بوجودها. فقد أصبح شبح الوصية كابوساً لمنزل ياسنايا بوليانا. ولم يستطع سكانه النظر بأعينهم، أحدهم إلى الآخر.

يؤكد غولدنفيزر أن ليف وأندريه وصلا إلى حد المشاجرة تقريباً بسبب حق الأولوية في الحديث مع أختهما. وبعد فترة قصيرة من التحضير وافقت ساشا على الحديث مع ليوفا. وكانت هذه لحظة رهيبة بالنسبة لها عندما لم تستطع الكذب ولم تستطع قول الحقيقة، وقد وصفتها في ذكرياتها.

«قال أندريه:

- اذهبي إلى ليوفا، وأنا سأتحدث إليك فيما بعد.

ذهبتُ إلى ليوفا.

- أترين -بدأ ليوفا الحديث- سمعتْ ماما أن بولغاكوف يتحدث عن وثيقة ما، وقررتْ أنها الوصية، فشعرت من جديد بكثير من القلق. قولي، هل هناك وصية لدى أبينا؟ ولم يكد ينهي جملته حتى دخل أندريه، وقد عذباني طويلاً بسؤالهما، ألا يوجد لدى أبينا أية وصية؟

قلت، بالنسبة لي لا يمكنني تصور أن نفكر بموت أبينا وبوصيته، وهو ما يزال على قيد الحياة، ولهذا أرفض الجواب.

- أنت فقط قولي: هل هناك وصية أم لا - كانا يحاولان تعذيبي والحصول على جواب.

وقد عذباني طويلاً، ولم يسمحا لي بالخروج. وأخيراً أعلنتُ بشكل حاسم: إنني لن أتحدث ولا أريد أن أتحدث عن هذا بعد الآن».

والحقيقة، أن ساشا كذبت. فهي لم تفكر بموت أبيها فحسب، لكنها حضّرت مع تشرتكوف الوصية، المكتوبة باسمها، ولكن بفضل الورقة المرفقة بالوصية، وضعت تركة تولستوي الأدبية كلها تحت تصرف تشرتكوف. لكن إعلام إخوتها بذلك كان يعني إصدار الحكم عليها في الأسرة! وما كان من الممكن أن يغفروه لأبيهم لن يغفروه لها! والحقيقة، حول مشكلة هذه الوصية لم يطَل الصلب الأب، بل طال ابنته الصغرى.

بعد هذا الحديث، ركضت ساشا إلى أبيها لتحذِّره من أن السر قد انكشف تقريباً. وانطلق إلى غرفة الأب أندريه أيضاً.

«- أبي، أريد أن أتحدث معك.

- تحدّث، قل ما تريد.

- بودي الحديث من دون ساشا.

- لا، فلتبق ساشا، ليست لدي أسرار أخفيها عنها.

- كما ترى، يا أبي، عندنا في الأسرة مشاكل مختلفة، وأمي قلقة، وكان بودنا أن نسألك، هل لديك وصية ما؟

- لا أعتبر نفسي ملزماً بالإجابة عن سؤالك.

- آ آ آه! إذن، أنت لا تريد الإجابة؟

- لا أريد!».

على الدرج صرخ أندريه مخاطباً ساشا:

«- لماذا كنت واقفة هناك أمام أبيك المجنون!».

لكن الأسوأ كان حديث ساشا مع أمها:

- ساشا، هل كذبت يوماً ما؟

- أحاول ألاّ أكذب.

- قولي لي: هل هناك وصية لدى أبيك أم لا؟

– اليوم أجبت ابنيْك اللذين لاحقاني بالسؤال نفسه، وسأجيبك بالمثل: لا يمكنني ولا أريد أن أتحدث عن موت أبي، وأبي لا يزال على قيد الحياة. أعتبر هذا وحشياً وفظيعاً!

– آه، كم أنت غبية! المسألة لا تتعلق بالمال على الإطلاق، بل في أن ليف نيقولايفتش حرمني من ثقته. أنا أحبه، وأشعر بالألم لأنني لا أعرف شيئاً...

– غير صحيح! لو كنت تحبينه لما سألتِ أبداً عن أوامره بعد الموت، وسببت له هذا الألم النفسي، بل لكنت خضعت بهدوء لإرادته!».

لقد كانت هذه حجة ضعيفة. فصوفيا أندرييفنا وليف وأندريه لم يعتقدوا أنهم لم يخضعوا لإرادة تولستوي. كانوا يعتقدون أنهم لا يخضعون لإرادة تشرتكوف. لكن تشرتكوف كان صديقه ومساعده الذي عمل الكثير بموضوعية، كي يحافظ على التراث الروحي لمعلمه بكامله ويصل إلى الأجيال اللاحقة. لقد كان متعصباً، لكنه لم يكن نذلاً. لم يكن يرحم أسرة تولستوي، لأنه لم ير في هؤلاء الناس *أسرته الحقيقية* التي نسب نفسه و«التولستويين» إليها.

هذا النزاع كان من غير الممكن حله إلا باتفاق ودي بين صوفيا أندرييفنا وتشرتكوف (وهذا ما أصر عليه ليف لفوفيتش في البداية). فقد كان تولستوي يشعر بأنه مدين لهذين الشخصين مدى الحياة. وكان الاختيار بينهما، بالنسبة له، مؤلماً للغاية. أما تدخل الابنين في هذا النزاع فكان من غير الممكن أن يجلب أي شيء جيد. فكلاهما، باعتبارهما معارضين أيديولوجيين لأبيهما، كانا يضمران السيطرة على إرثه، الأمر الذي كان يزعجه ويغضبه. وبوقوفهما إلى جانب أمهما، زادا من سوء وضعها. فبوجودهما، كان الابنان يذكّران تولستوي في أيدي من ستكون تركته وتراثه... إذا تخلى عن الوصية.

في 29 تموز/ يوليو بدأ تولستوي يدوّن «يوميات لي وحدي» بصورة سرية. وفي مدونته الأولى يصدر حكماً ليس على أبنائه فحسب، بل وعلى صوفيا أندرييفنا: «الآن، يجب كتابة شيء واحد: إذا ما كانت شكوك بعض أصدقائي عادلة، فقد بدأت الآن محاولة الوصول إلى الهدف بالملاطفة. فها هي تقبل يدي منذ عدة أيام، وهذا ما لم يحدث قط من قبل، ومن دون مشاهد

ويأس. سامحني يا رب، سامحوني أيها الناس الطيبون، إذا كنت مخطئاً. فمن السهل عليّ أن أخطئ في الجانب الطيب المحِب. يمكنني أن أحبها بصدق، وهذا ما لا أستطيعه بالنسبة لليف. أما أندريه فهو واحد من هؤلاء الذين يصعب الاعتقاد بوجود روح الله فيهم (غير أنها موجودة فيه، تذكّر). سأسعى أن لا أنزعج وأن أحافظ على موقفي، والمهم هو الصمت. لا يصح حرمان ملايين الناس مما هو، ربما، ضروري لنفوسهم. أكرر «ربما». ولكن حتى إذا كان هناك احتمال ضئيل جداً، مما كتبته ضروري لنفوس الناس وأرواحهم، فلا يصح أبداً حرمانهم من هذا الغذاء الروحي، كي يستغرق أندريه في الشراب والعربدة، وليف في التشويه و... حسناً، الله معهما...».

الثالث زائد

كم من المرات، وجد ليف لفوفيتش نفسه، بين أبيه وأمه، زائداً، لا لزوم له... فجميع أفكار صوفيا أندرييفنا كانت عن ليف نيقولايفتش فقط، وعن وضعها الذي ستكون عليه كأرملة تولستوي العظيم بعد موته. في هذه الهموم والمخاوف كان الابن يبتعد بالطبع إلى الخط الثاني. بالطبع، في جدالها مع زوجها حول الميراث كانت تفكر أيضاً بأبنائها الذين كانوا يعانون في تلك الفترة صعوبات مالية. وليف لفوفيتش على سبيل المثال، كان مديناً دوماً لأمه، وغالب الأحيان كان لا يستطيع تسديد ديونه إلا بعد فترة طويلة.

بعد وفاة ليف نيقولايفتش ستكتب صوفيا أندرييفنا بغضب في 31 أيار/ مايو عام 1914 في يومياتها: «خبر محزن جداً من الأولاد أنهم بدأوا يمارسون القمار. تقول دورا، إن ليوفا خسر حوالي خمسين ألفاً. مسكينة دورا، حامل، ترعى زوجها وأسرتها! ليف نيقولايفتش محق ألف مرة عندما وزع ثروته على الفلاحين وليس على أبنائه. فلو أعطاها لأبنائه لصرفوها على أية حال على لعب الورق والمقامرة. إنه شيء مقرف، ومحزن، ومؤسف! وماذا سوف يحدث بعد موتي».

ولكن عندما كان تولستوي على قيد الحياة، كانت تفكر بطريقة أخرى. وفكرة أن تشرتكوف، وليس أبناءها، سوف يتصرف بتركة تولستوي، كانت

تسيء إليها. وبالطبع، كان موقفها منحازاً بالكامل إلى جانب أبنائها. ولكن كان يعذبها أكثر، أنه بسبب الوصية المكتوبة بصورة غير عادلة، تغدو زائدة، لا لزوم لها، وهي التي قدمت حوالي خمسين سنة من عمرها لزوجها.

في مذكرات ألكسندر غولدنفيزر، التي تحوي الكثير من الملاحظات الكاوية، والدقيقة أيضاً حول سلوك أسرة تولستوي في العام الأخير من حياة تولستوي، ثمة مشهد قد يبدو قليل الأهمية، لكنه مميز جداً...

تجلس أسرة تولستوي مع ضيوفها مساء على المائدة لتناول الشاي. «عندما جلس هو (تولستوي -*المؤلف*) إلى المائدة، نهضت صوفيا أندرييفنا من مكانها في الطرف الآخر من الطاولة وجلست إلى جانبه. لم يكن ثمة مكان فارغ، فجلست على الزاوية بين ليف لفوفيتش وليف نيقولايفتش. فنهض ليف لفوفيتش.

قالت له صوفيا أندرييفنا:

- ليوفا، إلى أين؟ بابا سيزيح قليلاً.

بقي ليف نيقولايفتش جالساً مكانه ولم يتحرك».

ثمة لعبة «الشخص الزائد»، عندما يركض الأطفال حول مجموعة من الكراسي، وعند سماع الأمر يجلسون فوراً على الكراسي، ودائماً ثمة كرسي ناقص. فمن في هذه المرة لم يجد له كرسياً؟ الابن؟ الزوجة؟

أخيراً يقوم ليف لفوفيتش بسلوك قد يكون طيباً، بل عاقلاً من وجهة نظر الأسرة العادية. لكن هذا السلوك يثير أيضاً غضب الأب...

في نهاية شهر آب/ أغسطس، عندما كان تولستوي وصوفيا أندرييفنا في كوتشيتي عند ابنتهما تاتيانا (وُجهت الدعوة إلى ليف لفوفيتش أيضاً، الذي كان ينحت تمثالاً نصفياً لأبيه، لكنه رفض، وقرر أن ينحته من خلال ذاكرته)، يتذكر الابن مشروعه المرغوب: الانتقال إلى ياسنايا بوليانا. ويكتب لأمه رسالة:

«ماذا لو أُعطيتما ياسنايا بوليانا للأبناء، وأنتما على قيد الحياة؟ لتقاسمناها جميعاً خلال حياة والدينا العجوزين. ولبدأ الآن كل منا العمل على قطعته. ولبنى كثيرون - أولهم أنا، وأندريوشا، وربما، تانيا، ساشا، سريوجا!

ولأصبحت الحياة غنية وجيدة. ولتخلصتما من العمل في المزرعة. واحتفظتما بالعدد الضروري اللازم لكما من الناس، والأبقار، والخيول. ولكان باستطاعتكما تقليص الترف المجنون كله. ولأعطيناكما بشكل أو بآخر كل ما هو ضروري للعزبة. يمكننا إعطاؤكما العزبة مدى الحياة أو إلى الأبد. كم سيكون ممتعاً وجيداً للجميع! إذا ما شيعتِ أبي وواريته الثرى وأنت على قيد الحياة، تجعلين من العزبة متحفاً له، وإذا لم تشيعيه وبقي على قيد الحياة، فسيبقى في منزله...

اعرضي هذه الرسالة على أبي واطلبي منه قراءتها. ماذا سيقول؟

أنا واثق من أنه سيروقه لسبب واحد هو أنه سيكون في وضع أكثر متعة. وهذا أهم من قصة تشرتكوف. فالمسألة هنا تهمّنا جميعاً وتهمّ عائلاتنا...».

وكان يقصد بـ «قصة تشرتكوف» الوصية -وقد أدرك الجميع هذا، حتى رغم عدم معرفتهم إن كانت هناك وصية أم لا. كما كان يعني بهذا غيرة صوفيا أندرييفنا من «الصديق الروحي» لزوجها الذي اتضح أنه أكثر قرباً له من زوجته. وكأن ليف لفوفيتش يحاول تحويل الاهتمام من هذه «القصة» إلى ياسنايا بوليانا، التي بدا أن الجميع قد نسوها. فبعد وفاة فانشكا أصبحت مزرعة ياسنايا بوليانا ملكية مشتركة بالتساوي لجميع الأبناء- إذن الحديث لم يكن حول الجانب القانوني من المسألة. وعلاوة على ذلك، يقترح إشراك ساشا وتانيا في «ملكية» المزرعة، والإقامة فيها جميعهم. إنه، كالأم المحبة الحنونة، يحلم بجمع جميع الأولاد في سلة واحدة. وسيكون الجميع بخير! وستحصل الأم على ما يلزمها من «العمال والأبقار»، أما الأب فيساعدونه بالتخلص من «البذخ الجنوني» (يكرر حرفياً كلمات أبيه) يا للجمال!

لكن والدته لم ترد على رسالته. وعلى أية حال، رسالتها مجهولة. أما تولستوي فقد كتب في يومياته: «رسالة من ليوفا – سيئة للغاية. ساعدني يا رب...».

ماذا تعني «ساعدني يا رب»؟ ساعدني على الصمود على الأقل خلال فترة الوجود *المؤقت* لليوفا في ياسنايا بوليانا!

وفي بداية شهر آب/ أغسطس يكتب تولستوي: «الأمر صعب للغاية. لا

يمكنني احتمال ليف لفوفيتش. وهو يريد الاستقرار هنا. يا له من امتحان!»
وفي اليوم نفسه يقول لساشا:

«نعم، نعم، تبين أن ليف يريد الاستقرار هنا، وهو عبء ثقيل جداً، ولكن علي الاستعداد لتحمله كما يجب. وجوده ثقيل عليّ صراحة، ولكن علي أن أستعد وأشد عزيمتي».

في نهاية الأمر، أدرك ليف لفوفيتش بنفسه، أن وجوده في ياسنايا بوليانا غير مرغوب فيه. وبدأ يجمع حقائبه للسفر إلى باريس، من أجل متابعة دراسة النحت. لكن ظرفاً مهماً طارئاً أعاق سفره. كان ليف لفوفيتش خاضعاً للمحاكمة بسبب أنه قبل عدة سنوات كان قد نشر في دار نشره «صفقة جيدة» (دوبروي ديلو) بعض منشورات أبيه المحظورة، بما فيها «تدمير جهنم وتجديدها»؟ - وهو المقال الذي اعتُبر مثيراً للفتنة من وجهة النظر الأرثوذكسية، والذي كانت تكرهه كثيراً -بهذه المناسبة- صوفيا أندرييفنا. كانت جلسة المحكمة تتأجل لأسباب غير معروفة. وهكذا، أصبح ليف لفوفيتش «سجيناً» قسرياً في ياسنايا بوليانا. وأخيراً، سُمح له بالسفر إلى الخارج. وفي 16 أيلول/ سبتمبر سافر ليف لفوفيتش إلى باريس.

ولم ير بعدها أباه حياً...

«في اليوم الأخير الذي رأيته على قيد الحياة، قال لي فجأة، بصوت مذنب:

- بما أنه كانت لدي مثل هذه الشهرة والمجد، فهذا يعني إنني قلت كثيراً من الهراء والأشياء الغبية...

في اللحظات المضيئة المشرقة، عندما كان طيباً وديعاً حقاً، لم يكن بوسعي أن لا أحبه. ولكن لم يكن باستطاعتي أن أحبه بسبب ظلمه لأمي وبسبب غروره بادئ ذي بدء. وهذا لم يكن من الذكاء ولا من العدل» («تجربة حياتي»).

إن هذه الكلمات تحوي الكثير من الظلم بحق أبيه. وخاصة فيما يتعلق بـ «الغرور». فالشخص المغرور لا يندم على مجده وشهرته. إنه يستمتع بهما. وهما يشكلان المحرك الرئيس لإبداعه. إن من السخافة بمكان أن نقول هذا عن تولستوي. بعد مرور عام على وفاته، تكتب ابنته تاتيانا عن أبيها، كلمات من ذهب في يومياتها:

«قرأت كتاب غوسيف. في إحدى رسائله إلى غوسيف، يكتب أبي: «أنت أفضل مني». هذه العبارة قادتني إلى الأفكار التالية: إن السبب الوحيد الذي جعل كتب أبي وآراءه وحياته تغدو فوق المستوى العام وتجذب إليها اهتمام العالم كله هو أنه كان يدرك بصدق وإخلاص الحياة كلها، ويناضل بكل قواه ضد شهواته وعيوبه ونقاط ضعفه. لقد منحته موهبته الكبيرة وعبقريته شهرة أدبية هو جدير بها وسط ما يعرف بـ«المجتمع المثقف»، ولكن حقيقة أن أي فلاح من المناطق البعيدة، كان يعرفه، وكان باستطاعته اللجوء إليه من أجل التعاطف في قضايا العقيدة والإيمان، وتطوير الذات، والشكوك، وما إلى ذلك - فهذا كان مديناً لحقيقة أنه لم يسمح لأي خطيئة ولأي ضعف في نفسه إلا وأدانه وسعى لمكافحته. ربما طبيعته لم تكن أفضل من كثيرين، بل كانت أسوأ من كثيرين. لكنه لم يسمح لنفسه قط طيلة حياته أن يقول عن الأسود أبيض، والأبيض أسود أو رمادي.

إن تشبيه تولستوي البارع لبسط الكسر بصفات الإنسان الموجودة ومقام الكسر برأيه عن نفسه هو أعمق بكثير مما قد يبدو.

كان لدى أبي بسط بلا نهاية ومقام صغير، ولهذا فقد كانت قيمته كبيرة».

من المحتمل، أن كراهية الأب لابنه كان يمكن تفسيرها بالذات بأن طبيعة ليف لفوفيتش الأخلاقية والعقلية كانت قائمة على الاتجاه المعاكس تماماً. وربما، كان هو أفضل وأطيب من والده. ومما لاشك فيه، أن تولستوي كان يتعذب حقاً لأنه لا يستطيع أن يحب ابنه الثالث، علاوة على اسمه، فيما كان يشعر بعاطفة أشد دفئاً نحو أولاده الآخرين. وقد اعترف غير مرة في يومياته، أنه يحب أكثر من الجميع ابنه أندريه-الابن الأكثر خلاعة والأكثر معارضة لآرائه. ولكنه في ليف الثاني - كان تولستوي يرى ليس صورته المعوجة، بل صورته *المقلوبة*. كان يرى نفسه، كيف كان يمكن أن يصبح. وهذا كان يعذبه أكثر من أي شيء آخر.

في شهر تموز/ يوليو عام 1910 كتب تولستوي في يومياته: «لقد أدركت خطيئتي تجاه ليف: كان علي أن لا أهينه بل أحبه... علي فقط أن أحمد الله على لطف العقاب الذي أتحمله بسبب جميع ذنوب شبابي، وخطيئتي

الكبرى- عدم طهارتي الجنسية عند زواجي وارتباطي بفتاة طاهرة. فأنا بحق، فاسق داعر. علي فقط أن أحمده على لطفه في العقاب».

لكن من المستبعد أن هذه التوبة كان من الممكن أن تشكل عزاء لليف لفوفيتش.

الخاتمة

انهيار الشخصية

توفرت لدى ليف لفوفيتش، بعد وفاة والده، الفرصة لإعادة النظر بعلاقته به من جديد، واستخلاص بعض النتائج والعبر، وبخاصة عن نفسه بادئ ذي بدء، وبدء حياة جديدة، بدون الضربات السابقة. حتى إن الظروف تهيأت لذلك: فقد كان لا يزال شاباً في مقتبل العمر، وأحرز تقدماً في النحت، ولديه دورا – زوجة رائعة، تهتم به وترعاه، وخمسة أبناء.

بعد مضي سنوات عديدة، في عام 1932 كتبت أخته الصغرى ألكسندر لفوفنا لأختها الكبرى تاتيانا لفوفنا سوخوتينا – تولستايا: «نحن، أبناء تولستوي، كان علينا، طيلة حياتنا، أن ننتبه، وأن نتذكر، أننا كنا نحصل على ما لا نستحقه. كنا نظن دائماً أننا حصلنا على القليل جداً».

لسوء الحظ، لم يكن ليف لفوفيتش يدرك حقيقة أن كونه ابن تولستوي – هي مسؤولية كبيرة وصليب عليه أن يحمله، أو كان يدرك هذا جيداً، لكنه لم يرغب بالتسليم بهذه الحقيقة. وفي المحصلة، تحولت حياته كلها إلى «قصة نفس ضائعة»، كما لاحظت بصورة صائبة الباحثة أبروسيموفا.

بعد وفاة والده، عاش ليف لفوفيتش خمسة وثلاثين عاماً أخرى – القسم الأكبر من حياته الواعية. ولكن لا يصح القول إن هذه السنوات كانت زينة في سيرته الذاتية.

يكتب ليف لفوفيتش في ذكرياته، أنه بعد «الجنازة الحزينة» لأبيه، توجه على الفور إلى باريس «وبجشع أكبر اندفع إلى عمله، دون أية رغبة بالتفكير

بأي شيء، ورؤية أي شخص، وعدم الحلم بأي شيء آخر». للأسف، لم يكن هذا واقع الحال.

في 12 تشرين الثاني/ نوفمبر غادر ياسنايا بوليانا فعلاً وتوجه إلى بطرسبورغ. بعد انقضاء أسبوع على دفن تولستوي، ظهرت في صحيفة «نوفوي فريميا» رسالة ليف لفوفيتش بعنوان: «من الجاني». وجاء فيها: «أعتبر من واجبي أن أُعلن على الملأ ما يلي. يمكنني أن أظهر للعالم كله، والوثائق في يدي، أن الجاني المباشر والوحيد للمأساة الروحية القاسية، التي أدت إلى النهاية الحزينة لأبي ومعاناته وآلامه اللاإنسانية، ليس شخصاً آخر سوى ف.غ. تشرتكوف...».

في هذه الرسالة، ألقى ليف لفوفيتش اللوم كله على تشرتكوف وحده، مؤكداً أنه «اختطف منّا تولستوي». ولم يرد في الرسالة أي ذكر لاسم شقيقته ساشا، التي كان قد تحدث معها طويلاً قبل مغادرته لياسنايا بوليانا، رغم صعوبة الافتراض بأنه لم يكن يعرف حتى تلك الفترة شيئاً عن وصية الأب، التي تنص شكلياً على نقل تركة الأب الأدبية كلها لساشا وحدها.

ولكن في اليوم نفسه، عندما نُشرت الرسالة، نشرت محكمة منطقة تولا رسمياً وصية تولستوي. ومع ذلك، ففي رسالته الثانية المنشورة في «نوفوي فريميا»، لم يذكر ليف لفوفيتش أيضاً اسم أخته، ملقياً المسؤولية كلها على تشرتكوف. «إنني أتهم تشرتكوف بجرّه والدي إلى صراع داخلي قاس، وفي إخفاء الوصية عن أقرب الناس إليه، في حين الموصي نفسه (تولستوي) يريد إعلامهم بعزمه، مما دفع بالوالد إلى آلام نفسية رهيبة، وإلى وفاة سابقة لأوانها».

لا يمكننا القول إن هذا كان غير صحيح. وعلاوة على ذلك، فالأخ بعدم ذكره لاسم أخته، تصرف تصرفاً نبيلاً بالنسبة لها.

ولكن أين كان يكمن المغزى من هاتين الرسالتين اللتين سببتا فضيحة حقيقية في الصحافة؟ التشهير بتشرتكوف وبالتالي إحباط جهوده المقبلة لإصدار المؤلفات الكاملة لتولستوي؟ إثبات أنه كان عدواً وليس صديقاً لتولستوي؟

بيد أن الجميع كان يدرك أن الأمر أشد صعوبة من ذلك بكثير. وليس من قبيل الصدفة، أن ليف لفوفيتش لم يلق الدعم علناً وفي الصحافة من أي من إخوته وأقاربه، حتى إن أخاه إيليا لفوفيتش تحدى وجهة نظره في صحيفة «الكلمة الروسية – روسكوي سلوفو». وفي الصحيفة ذاتها عارضت ساشا أيضاً أخاها.

إن ليف لفوفيتش، بإظهاره نشاطاً عاماً محموماً، و«تشهيره وجعجعته»، وبدلاً من أن يسعى للمصالحة بين أبناء تولستوي وساشا، وصوفيا أندرييفنا، وتشرتكوف، الضرورية جداً للعمل على تركة والده، فقد أعلن الحرب.

ولكن على من؟ من أجل تحدي الوصية، كان لا بد من مقاضاة ساشا. وكان ليف لفوفيتش في فترة من الزمن، قريباً من هذه الفكرة، لكنه تخلى عنها فيما بعد. وقد كتب لأمه في 19 تشرين الثاني/ نوفمبر: «بالطبع، لن أرفع دعوى قضائية، رغم أنني باستطاعتي أن أربحها...».

إنه لم يكن بعيداً عن الحقيقة. فلا السلطات، ولا الرأي العام، المتمثل في كتّاب تلك الفترة، لم يكونوا متعاطفين مع تشرتكوف ولا مؤيدين له. ولكن ليربح القضية، عليه أن يربحها ليس منه بل من شقيقته الصغرى، المحبوبة، الابنة المفضلة عند أبيها في آخر سنوات حياته.

والواقع، أن صوفيا أندرييفنا ربحت إحدى هذه القضايا، عندما تحدت في مجلس الشيوخ حق ابنتها في جزء من مخطوطات زوجها ليف نيقولايفتش التي كانت الزوجة تعتبرها من ممتلكاتها والمحفوظة في متحف روميانتسيف والمتحف التاريخي.

مع ذلك، كان لدى ليف لفوفيتش ما يكفي من العقل السليم كي لا يرفع دعوى قضائية على أخته. فقد كان هذا يمكن أن يعني، إضافة إلى أشياء أخرى، إثبات أن تولستوي قبل خروجه من ياسنايا بوليانا، كان في حالة من خرف الشيخوخة، ولم يكن مسؤولاً عن أفكاره وتصرفاته.

ولكن ما مدى صدق شفقته وأسفه على أبيه، في اتهامه تشرتكوف وحده بموته المبكر؟

في رسالته إلى أمه التي كتبها من باريس في 23 كانون الأول/ ديسمبر عام 1910، كان يكتب عنه بكثير من الفظاظة:

«يقول شوبنهاور: هناك ثلاث مراحل للأخلاق:

1) الأنانية.

2) الشفقة.

3) الزهد.

للأسف، أبي لم ينزل في حياته من الخطوة الأولى. أما الثانية فلم يصل إليها حتى في نهاية حياته. فعلام مذهبه كله وعقيدته كلها؟».

في إحدى مسوداته التذكارية عن أبيه، وعندما كان يتذكره كيف كان في نهاية حياته، كتب عنه ابنه كلمات فظيعة للغاية: «سأقول شيئاً آخر فظيعاً. لقد كان حسوداً. كان يحسدني، في سنواتي، وفي رحلاتي، وربما كان يحسد لأنني نحتُّ تمثال أمي ولم أنحت تمثاله في الصيف الأخير...».

وبسبب مثل هذا الموقف من الابن تجاه أبيه، هل ثمة داع لأن نستغرب، أن تولستوي في اختياره النفسي والروحي بينه وبين تشرتكوف، كان يختار دوماً تشرتكوف، المخلص له والوفي في كل شيء.

كان يبدو، أن تُهدِّئ وفاة والده ليف لفوفيتش، كما هو متوقع، وكما حدث مع صوفيا أندرييفنا في أواخر سنوات عمرها. فبعد الإجراءات القضائية مع ساشا، تصالحت مع الجميع، وسلمت جميع المخطوطات لابنتها وكرّست السنوات التسع الأخيرة من عمرها لتأسيس متحف ليف تولستوي في ياسنايا بوليانا...

أما ليف لفوفيتش فجرى كل شيء عنده بشكل أكثر تعقيداً وصعوبة. وللمفارقة، لم يخلصه موت أبيه لا من تبعيته العميقة له، ولا من الغيرة، ولا من الكراهية.

ومع ذلك، كان يستمر في حبه لأبيه! لكنه كان حباً مَرَضياً أليماً...

في ربيع عام 1911 توجه إلى أمريكا لإلقاء محاضرات. إنه لم يستطع أن يفهم، أنه دعي لإلقاء المحاضرات بصفته ابن تولستوي. وأخبر أمه في رسالته من أمريكا: «هنا كل شيء ممتع للغاية، ويحملونني على الراحات. تصلني الدعوات من كل مكان وكل يوم، إلى النوادي، والجمعيات، والمنازل الخاصة. ألقي خُطبي باللغة الإنكليزية، أجلس في قاعات الشرف». لكنه يقول في الرسالة ذاتها: «لا أتحدث عن أبي إلا قليلاً». ويقول هنا: «أهديت

المتحف هنا تمثالاً نصفياً لأبي من البرونز. فتقبلوه بجزيل الشكر. وبعت منحوتة أخرى لرأس أبي إلى مخزن البرونز، وهو الأفضل في أمريكا. آمل أنه سيغطي مصاريف الرحلة، وربما أكسب بعض المال للأسرة».

في رسالته إلى أمه التي كتبها قبل رحلته، قال مؤكداً أنه يسافر إلى أمريكا «للبحث عن فرصة لكسب المال». وإلى هناك نوى شقيقه إيليا التوجه بهدف... بيع ياسنايا بوليانا للأمريكيين. لم يكن المقصود بيع العزبة مع المنزل، بل الأرض وحدها. ولكن حتى هذه المحاولات من جانب ابني تولستوي، إيليا وأندريه، تسببت بكثير من الحزن لوالدتهما، وبفضيحة في الصحافة. فقد أثار عزم ابني تولستوي على بيع أرض ياسنايا بوليانا للأجانب سخطاً عميقاً في المجتمع الروسي، تجلى في الكثير من المقالات والرسائل إلى هيئات تحرير الصحف. ومما شرّف ليف لفوفيتش، أنه لم يشارك في هذه العملية المزمعة، وقد دعاها في رسالته لأمه بأنها «وهم».

لكن موقفه الخاص في هذه المسألة البالغة الحساسية لا يرجع إلى اهتمامه بأن تصبح ياسنايا بوليانا نصباً تذكارياً وطنياً لأبيه. فهذا ما كانت تحلم به صوفيا أندرييفنا وليس ابنه. فما أثار الحزن لدى أمه (كتبت في يومياتها في كانون الثاني/ يناير عام 1911: «تجمهر مساء الأولاد إيليا، أندريه وميشا وتوسلوا مني مبلغ 1500 روبل لسفر إيليا إلى أمريكا من أجل بيع ياسنايا بوليانا، وهذا بالنسبة لي، محزن ومقرف ومثير للاشمئزاز. أنا أرغب أن تبقى ياسنايا بوليانا في أيدٍ روسية وفي أيدي عامة الشعب.») لم يرق لابنها ليف لأسباب أخرى. إنه لم يفكر بالنصب التذكاري، بل بخسارة ملكية العائلة. فحتى آخر أيامه لم يستطع مسامحة أبيه لأن ياسنايا بوليانا لم تبق موطناً لحياة آل تولستوي، وله، ليف لفوفيتش، بالدرجة الأولى. وحتى بعد مضي سنوات عديدة، بعد الثورة والحرب الأهلية، عندما أصبحت ياسنايا بوليانا بصورة نهائية، في عهد السلطة السوفييتية، متحفاً – عزبة لليف نيقولايفتش تولستوي، رفض المسكين ليف لفوفيتش الاعتراف بها، في قلبه، بهذه الصفة، وتعذب كثيراً لفقدانه «عش العائلة». وكتب لابنه نيكيتا في عام 1931، يعلمه باستلامه رسالة من روسيا من أخيه الأكبر سيرغي لفوفيتش تولستوي:

«اليوم رسالة جميلة وصلتني من ياسنايا بوليانا من عمك سريوجا. يكتب أن هناك صيفاً مشمساً رائعاً. وهو يلعب وحده في «القاعة» القديمة، ولم يبق من الناس القدامى أحد إلا هو والخادم إيليا فاسيليفيتش. «مرعبة، كما في المقبرة»... هكذا Voila!! وهذا كله فعله جدك وأبي، بدلاً من أن نستمتع كلنا الآن في ياسنايا بوليانا.

لم يتغير أي شيء نحو الأفضل.

كل شيء نحو الأسوأ. الرعاع يبقون رعاعاً، ويجب إمساكهم بقبضة اليد. وهاهم يتوجهون إلى قبر تولستوي العظيم وينحنون احتراماً، دون أن يدركوا أنه لم يجلب لروسيا ولهم إلا الشر بعقله المحدود، وغروره، وكبريائه المسيحية».

لقد تميز بمثل هذا الموقف من تولستوي بعد موته، واحد من أبنائه فقط – وهو ليف لفوفيتش.

لكن، بإدانته لوالده على أنانيته وكبريائه وغروره، كان على ليف لفوفيتش أن يكون نموذجاً للحياة الأخلاقية. وعلى الأقل، أن يعارض النهاية التراجيدية لحياة أمه وأبيه الأسرية بحياته الأسرية السعيدة. لكنّ هذا لم يحصل...

بعد وفاة الأب، بنظرته الصارمة والمُدينة أحياناً لابنه، انحدرت حياة ليف لفوفيتش بشدة إلى الهاوية.

وحدث له ما حدث لأبيه في شبابه، وأصبح مدمناً على القمار. ولكن إذا ما كان هذا الإدمان لدى الأب مجرد هواية لفترة قصيرة، فقد ابتلي الابن بهذا الداء طيلة حياته.

من غير المعروف، من الذي جلب ليف لفوفيتش إلى وكر القمار في شتاء عام 1912. إنه يكتب عن «مثقف» لم يذكر اسمه، دعاه إلى دار للقمار تحت يافطة «جمعية أدبية فنية»، حيث «كان يلعب ويتناول طعام العشاء مجموعة من الكتّاب والفنانين السيئين». ومنذ تلك اللحظة، كان يمضي في لعب القمار أياماً كاملة بل وليالي أحياناً. ولم يستطع مقاومة شغف القمار. وهنا أيضاً، كان المسؤول عن انحداره، حسب رأيه، ليس هو بل أباه. وكذلك جده من جهة والدته – ألكسندر ميخائيلوفيتش إيسلينييف، لاعب القمار الشهير

في عصره، الذي كان يربح ويخسر في يوم واحد مزارع وثروات. لقد كان ابن تولستوي يفسر ولعه بالقمار باستعداده الوراثي.

وكذلك بأن «الحياة الروسية كلها انحدرت إلى الحضيض». فقد كانت تقترب الحرب الروسية – الألمانية.

لعبت بداية الحرب دوراً قدرياً حاسماً في حياة ليف لفوفيتش. لقد أوقفت الحرب لفترة غير طويلة ولعه بالقمار... وكادت أن تدمر أسرته.

كان صيف عام 1914 الصيف الأخير الذي أمضاه ليف لفوفيتش في ياسنايا بوليانا مع زوجته وأولاده. وعندما اتضح أن الحرب مع ألمانيا أمر لا مفر منه، «قررت دورا أولاً، بصورة أكيدة لا رجوع عنها، وفورية، نقل الأولاد إلى السويد». فهددها ليف لفوفيتش بإنذار نهائي: إذا ما ذهبت زوجته مع الأولاد إلى السويد، فهو سيذهب إلى الحرب، إلى الجبهة، غالباً بصفة عامل في الصليب الأحمر.

ويكتب في ذكرياته: «لقد أثار قلقي خطر الانفصال عن الأسرة، وفي الوقت نفسه استيقظ في داخلي فجأة إنسان جديد، لم أكن أعرفه بعد جيداً في ذاتي–استيقظ الإنسان الروسي». وفي الواقع، كانت هذه الفورة الثانية للروح الوطنية في نفسه. أما الأولى فكانت في بداية الحرب الروسية–اليابانية.

يصعب تصور، ما الذي حدث له لو سافر مع عائلته إلى السويد. كان والد دورا، الدكتور ويسترلوند، متعاطفاً أثناء الحرب مع الألمان. وكانت دورا تعبد أباها حبّاً. ورغم أنها «كانت تحاول أن تكون محايدة بالنسبة لروسيا»، كما يكتب ابنها بافل، «فقد كان من الصعب جداً بالنسبة لها أن تدخل في نزاع مع أبيها الذي تحبه حباً جماً». وعموماً، خلال فترة حياتهم المشتركة في روسيا، يبدو أن ليف لفوفيتش لم ينجح في غرس عاطفة الوطنية الروسية في أسرته. وعلى سبيل المثال، كانت دورا قارئة شغوفة، وكانت تقرأ الكثير من الكتب مع أولادها. ولكن من المميز في ذكريات ابنها بافل، أن قائمة الكتب التي كانت تقرأها مع أولادها، لم تحوِ اسم أي كاتب روسي. حتى كتب ليف تولستوي لم تكن ضمن القائمة. وعندما ولدت دورا في عام 1915 الابنة الرابعة، طلب ليف لفوفيتش، برقياً، تسميتها بـ «ناتاشا» تيمناً ببطلة «الحرب

والسلام». لكن دورا سمتها باسم سويدي هو «دوريثيا» وهو يقابل بالروسية اسم «داريا».

أولاده بافل، نيكيتا، بطرس، خلال وجودهم في روسيا، درسوا فترة من الوقت في مدرسة تينيشيفسكي التجارية. وكانت مؤسسة تعليمية متميزة للأسر الثرية. وفي الوقت نفسه كان يدرس معهم أوليغ فاسيليفيتش فولكوف (كان أبوه مدير إدارة المصانع الروسية - البلطيقية) وفلاديمير فلاديميروفيتش نابوكوف (كان أبوه سياسياً مشهوراً، وأحد زعماء حزب الكاديت) اللذان أصبحا من الكتّاب الروس المعروفين.

ولكن إلى أي حد ربطت دورا مستقبل أولادها بروسيا؟ إنه من الصعب الحكم على هذا. ولكن، مما لا شك فيه أن موت ابنها البكر في ياسنايا بوليانا قد بقي مثل حجر ثقيل ضاغط على نفسها. وفي ياسنايا بوليانا ولد ابنها الثاني - بافل أيضاً لكن ولادته كانت قبل وفاة ليفوشكا ابنها البكر. ولم تلد بعدهما أحداً من أولادها السبعة في روسيا، بل في السويد حصراً، وتحت إشراف ويسترلوند. وبعد ذلك، وعندما أصيب زوجها بمرض عدوى القمار بشكل شديد وخطير للغاية، بحيث كانت دورا مضطرة لإرغامه على تسجيل منزلهم في شارع تافريشسكي باسمها، تغير موقفها، كما يبدو، من روسيا بشكل كامل. وعلى أية حال، كانت تقول لابنها الأكبر بافل إن «أغنى وأنبل وأجمل فتاة في روسيا لا تستحق يد ابنها...».

وعلى أية حال، فإن العاطفة الوطنية، التي توقدت في بداية الحرب عند ليف لفوفيتش، لم تستمر طويلاً أيضاً. في 6 آب/ أغسطس عام 1914 ذهب إلى وارسو بصفة مندوب مفوض للصليب الأحمر. لكنه عاد في منتصف أيلول/ سبتمبر إلى بتروغراد (بطرسبورغ)، مذهولاً مما رآه ليس في الجبهة، بل في المؤخرة.

في وارسو كان يستقبل القطارات المحملة بالجرحى، ويؤمن لهم المستشفيات، ويسافر في مهمات إلى المدن والقلاع البولونية الأخرى. ولم يكن الجرحى يقتصرون على الروس، بل كان بينهم ألمان وهنغاريون ونمساويون.

«... ليلاً أتجول حول أحد أكبر مستشفياتنا العسكرية، حيث أنزلنا ألف جريح في قاعات معهد نسائي سابق. كثيرون منهم يئنّون، ويشتكون، ويطلبون العون، بيد أن واحداً منهم كان يشتم ويصرخ بكلمات بذيئة بأعلى صوته. كانوا قد بتروا ساقه، وعندما صحا واستعاد وعيه، أخذ يصرخ: «أعطوني سكيناً – سأذبح نفسي! أعطوني سكيناً سأذبح نفسي!»».

وها هو ذا «مستشفى مخصص للجرحى الألمان ذوي الإصابات الخطيرة. لا يوجد فيه أي طبيب، يوجد فقط مسعف واحد لعدة مئات من الجرحى. في غرفة صغيرة منفصلة تضم حوالي ثمانية من الجرحى الخطرين الميئوس من شفائهم، يموت عدة أشخاص دون أي مساعدة طبية. أحدهم بطنه مفتوح بالكامل، ولم يقدم له أحد أي عون».

إن صور الحياة العسكرية التي يصفها ليف لفوفيتش في رسائله إلى أهله، وفي ذكرياته، وكذلك في العديد من الخواطر والقصص، تذكّرنا بخواطر أبيه في سيفاستوبول. ولكن يشعر القارئ باستمرار أنها حرب *أخرى*. إنها ليست حرباً، بل مفرمة للذبح! ولم تستطع نفسه الصمود أمام هذه المشاهد...

بعد هزيمة جيش الجنرال سمسونوف، وموت سمسونوف نفسه، عندما حاصرت القوات الألمانية، بقيادة الجنرال غندنبورغ، خمس فرق عسكرية روسية وقضت عليها، قرر ليف لفوفيتش أن «روسيا قد خسرت الحرب بالفعل، ولا معنى أبداً للاستمرار فيها».

مع ذلك، كان يؤكد، وقبل الذهاب إلى الجبهة، «عندما صرح لي بسذاجة وزير الحرب الذي أعرفه شخصياً سوخوملينوف، «أننا سوف نحارب بمعونة القيصر والصلاة» شعر ليف لفوفيتش «بالرعب العميق مما كان ينتظرنا». بطريقة أو بأخرى، لكن ميول ليف لفوفيتش العسكرية تحولت إلى ميول سلمية، وتزعزعت عاطفته الوطنية. ويكتب ليف لفوفيتش في ذكرياته: «لم يكن الذنب ذنب الجنرال سمسونوف في أنه هُزم، ولا يعود الفضل إلى غندبورغ – بل كان الذنب يكمن في تخلف روسيا، وفي مجتمعها الفاسد وشعبها المتوحش، وفي تقاليدها الدينية المتخلفة، والأهم في عدم نضجها السياسي...».

ومع ذلك، لم يكن يفارقه الألم على وطنه. وفي بتروغراد رأى أنه بدأت هناك مشاكل تتعلق بالمواد الغذائية والمضاربة واستغلال احتياطي الحبوب. وفي مقالته «الخبز، الخبز!» (نوفوي فريميا، 1915، 11 شباط/ فبراير)، حاول إقناع الحكومة بوقف تصدير الحبوب للخارج: «في الأيام الأخيرة ثمة تذمر كبير في أوساط المجتمع وفي الشعب، بخصوص أن حبوبنا، عن طريق فنلندا والسويد، تذهب إلى ألمانيا، وتذهب بكميات هائلة لم تكن تذهب قط بمثلها سابقاً في وقت السلم».

يؤكد ليف لفوفيتش في ذكرياته، أنه كان في عام 1916 في موغيليوف، حيث كان مقر الإمبراطور صاحب الجلالة، بيد أن الإمبراطور لم يستقبله بسبب ضيق الوقت، لكنه طلب منه تسليمه مذكرة. وقد ذكرت ذلك صوفيا أندرييفنا في «اليوميات» بتاريخ 5 أيلول/ سبتمبر عام 1916: «كتب ليوفا مذكرة للقيصر ويريد أن يذهب لتسليمها». وقد تم الاحتفاظ بمسودة هذه المذكرة، وهي بعنوان «حول الأسعار الثابتة، واحتكار تجارة الحبوب وإنشاء دائرة خاصة للمواد الغذائية». حتى إنه في سنوات متأخرة، كتب للسويديين مقالة عن لقائه بالقيصر في موغيليوف، وهذا ما يتعارض مع ذكرياته الشخصية. ولكن، وفقاً لأبحاث فاليريا أبروسيموفا، لا توجد أية وثيقة من وثائق القيصر نيقولاي الثاني وحاشيته المقربة، ترد فيها معلومات عن لقاء ليف لفوفيتش بالقيصر في موغيليوف، ولا يوجد أي ذكر لمذكرته أيضاً. وعلى الغالب، حصل هذا اللقاء في خياله في فترة متأخرة، أما المذكرة فلم تصل إلى القيصر... لقد كانت رسالة ليف لفوفيتش الأخيرة لنيقولاي الثانية قد كُتبت في نهاية تموز/ يوليو عام 1916، وأرسلت من ياسنايا بوليانا. لقد كانت رسالة يائسة توسل فيها ابن تولستوي القيصر لأن يأخذه للخدمة عنده، ولو بصفة «أدنى خادم». وقد وضع القيصر على هذه الرسالة إشارة 0/ 0 بقلم رصاص أزرق، ما يعني أنه «قرأها».

لقد قرأها، لكنه لم يردّ عليها...

عملياً، كانت هذه نهاية طموح ليف لفوفيتش الاجتماعي – السياسي. وعموماً، أموره لم تكن تسير على ما يرام. كانت تظهر مقالاته وقصصه

وقصائده في مختلف الصحف، ولكن يمكن القول بصورة مؤكدة، أن مصيره الأدبي لم يحقق النجاح المطلوب. هذا في حين أنه كان باستمراره في القمار، قد غرق إلى النهاية في الديون، قبل مغادرته إلى الجبهة. كما تبدل موقف دورا منه، فقد بدأت تدرك أن زوجها اعتباراً من الآن لم يعد يشكل ركيزة ودعامة للأسرة بل خطراً عليها.

وهو بدوره، تغير موقفه من دورا. «منذ ذلك اليوم الذي غادرتني مع الأطفال، شعرت نحوها بصورة لا إرادية بالبرودة في وحدتي، وشعرت بنفسي بصورة لا إرادية حراً، كما لم أكن في السابق قط، رغم أنني لم أكن أبحث عن هذه الحرية. وأخذ يبدو لي أن علاقتي بالأسرة انقطعت، ربما إلى الأبد. فإذا ما تركتني زوجتي وتركت روسيا في تلك الظروف، على الرّغم من مناشداتي لها بعدم المغادرة، وإذا لم تفهم تلك المشاعر التي أيقظتها الحرب في نفسي، فإنها في عيني لم تعد تلك الزوجة كما يجب أن تكون فحسب، بل جعلت مشاعري نحوها تصاب بالبرودة الكاملة أيضاً».

هذا ما يستخلص من ذكرياته. أما في الواقع، فقد كان كل شيء أكثر تعقيداً، ولم يكن ما يشرّف قط ليف لفوفيتش. فالواقع، أن دورا عادت مع الأولاد إلى بتروغراد من السويد في تشرين الأول/ أكتوبر عام 1914، وعلاوة على ذلك عادت ومعها ابنتها حديثة الولادة تانشكا. أما ليف لفوفيتش... وقبل ذهابه إلى الجبهة، وفي محاولته لكبت معاناته بخصوص سفر زوجته إلى السويد باللعب بالقمار، أغرق نفسه في الديون ورهن في البنك الأوراق المالية الثمينة للأسرة.

وكانت تعيش أسرته بصورة رئيسة من فوائد هذه الأوراق المرهونة.

وقد اعترف في رسالة يائسة إلى والدته بتاريخ 21 أيلول/ سبتمبر عام 1914، أنه «ارتكب حقارة كبيرة» بحق دورا، وتوسل إليها بأن ترسل له سبعة آلاف روبل من أجل فك رهن الأوراق المالية وتسديد ديونه الخاصة. وقد أسرع بطلب هذا قبل وصول دورا، وإلا لن يكون باستطاعته النظر في عيني زوجته من شدة الخجل.

ومهما كانت تحب ابنها، تمردت الأم في هذه المرة! وفي رسالة لم تصل

إلينا، ومن خلال رده عليها، اتهمت الأم ابنها بالكذب، ورفضت تسليمه المال شخصياً.

«أنت مخطئة يا أمي العزيزة، وعبثاً تتهمينني بالكذب. أنا تقريباً، لا أكذب أبداً، وعليك لا يمكنني أبداً أن أكذب. إن ما كتبته لك هو الحقيقة كلها. لن ألعب القمار بعد الآن أبداً... وأوراقي مرهونة *هنا* كلها في البنك التجاري. ولدي أوراق الرهن العقاري. إذا ما أعطيتِ المال لأندريوشا يمكنه أن يفك رهن الأوراق ويستلمها أيضاً باليد، إذا ما وصل الأمر إلى هذه الدرجة بحيث لا يمكنك الوثوق بي. الأوراق مرهونة على مبلغ 5000 روبل. وديوني الخاصة 2000 روبل. منها ألف روبل يجب تسديده فوراً، وهذا أيضاً يمكن أن يقوم به أندريوشا، إذا لم تعد لديك ثقة بي».

وهذا ما فعلته صوفيا أندرييفنا. فقد حولت لابنها ألف روبل، وسلمت بقية المبلغ لأخيه الأصغر أندريوشا. وقد شكر ليف لفوفيتش في رسالة أمه ووعدها بأن لا يتكرر أبداً مثل هذا الموقف بعد الآن.

لكن هذا لم يكن صحيحاً...

ففي صيف عام 1915، حل ضيفاً مع أسرته على والد زوجته في هالمبيوبودا، أي أن صلته بأسرة زوجته لم تكن قد انقطعت بعد. «حللت ضيفاً لفترة غير طويلة وللمرة الأخيرة في صيف عام 1915 في هالمبيوبودا. لكنني لا أذكر شيئاً عن هذه الفترة، لأنني كنت أعيش بصورة متوترة حياتي الروسية الشخصية واهتماماتي».

هكذا ورد في ذكرياته. أما في الواقع، فقد أمضى الصيف كله في السويد، ورسائله الخمس إلى أمه تدل على أنه إذا ما كان يشعر بالحنين، فإنه لم يشعر قط بالمعاناة. علاقته مع حميه كانت جيدة. كانت دورا حاملاً من جديد. السباحة، جمع الفطر، قراءة الصحف الروسية، الأحاديث المسائية مع أولاده الكبار. لم يكن هناك، كما يبدو، ما ينذر بكارثة عائلية.

في 10 أيلول/ سبتمبر عام 1915 عاد مع ابنيه الكبيرين، بافل ونيكيتا، إلى بتروغراد. كان بافل قد قُبل بالفعل على نفقة الدولة في مدرسة الحقوق الإمبراطورية، كما تم قبول نيكيتا فيها. وقد تم تحقيق هذا كأعلى منحة، بعد أن أرسل ليف لفوفيتش ثلاث رسائل إلى القيصر.

ولكن عندما وصلت في نهاية عام 1915 دورا مع بقية الأطفال، بمن فيهم داشا حديثة الولادة، اتخذ ليف لفوفيتش قراراً بترك الأسرة.

فما هو سبب هذا القرار؟ فقد كان من المستحيل تفسيره بـ «خيانة» دورا بعد عودتها. على الأغلب كان السبب ولع ابن تولستوي البائس بالقمار، الذي لم يستطع التخلص منه، على الرّغم من جميع الأَيمان الغليظة التي أقسمها لوالدته... وتكتب صوفيا أندرييفنا في «يومياتها» في 22 كانون الأول/ ديسمبر عام 1915: «وصل ابني ليوفا في الصباح الباكر. هو نفسه ينتقد نفسه للعبه بالقمار وللحياة الفوضوية. لكن هذا لا يجعل حياته أسهل! كم كان فيه من الإرهاصات والمواهب الجيدة!».

وعن الشيء نفسه تكتب أخته تاتيانا في يومياتها في بداية عام 1916: «ترك ليوفا عائلته. ويقول إنه تركها نهائياً. وأن دورا، حسب قوله، أصبحت غريبة عنه. وهي المسكينة تحبه... وكما يقول، فإن كل شخص في النادي أقرب إليه منها».

وفي الوقت نفسه، فإن وصول ليوفا والحياة المشتركة معه في ياسنايا بوليانا أصبحا حدثاً ساراً لصوفيا أندرييفنا. فقد كان الوحيد من أبنائها الذي يزين وحدتها. وتكتب في شهر آذار/ مارس عام 1916: «إنه لأمر محزن، أن تصاب حياة ليوفا الأسرية بالخلل والاضطراب، أما بالنسبة لي شخصياً فالحياة معه أسهل وأكثر متعة من الحياة وحيدة...».

لقد عاش مع والدته قرابة عام في ياسنايا بوليانا. وقد أعلمت صوفيا أندرييفنا أقاربها: «الحياة معه ممتعة جداً. لديه طبع رائع، كان يلعب كثيراً، ويقرأ كثيراً بصوت عال، ويكتب، ويتنزه على ظهر الحصان ديلير».

ديلير – هو حصان ليف نيقولايفتش المفضل المحبوب، الذي كانت حياته أطول من حياة صاحبه. في ياسنايا بوليانا اتجه ليف لفوفيتش من جديد إلى عقيدة والده، واكتشف فيها أوجهاً وآفاق جديدة، وفي الوقت نفسه آخذاً في اعتباره الهدف العملي: إنه يستعد لجولة حول العالم لقراءة محاضرات حول أبيه ليف تولستوي.

للأسف، مع استقراره في ياسنايا بوليانا. لم يكن يعزف على البيانو فقط.

«كنت أسافر من وقت لآخر من ياسنايا إلى موسكو وإلى تولا، ويا لشدة خجلي، استسلمت غير مرة لشغفي – لمقامرتي، التي كان يبدو لي أنني لا أستطيع العيش من دونها. كنت بحاجة إلى مثل هذه الإثارة القوية من وقت لآخر، كي لا أفكر في حياتي...».

بحلول ذلك الوقت، كان قد أدرك، أن حياته تنحدر إلى الحضيض. وفي لحظات الإشراق والصحوة بدأ يستوعب أن الذنب لم يكن ذنب أبيه، وأنه بموت أبيه بالذات فقد الركائز الأخلاقية في حياته. وقد كتب لأخته تاتيانا: «تانيا، أنا أموت. البارحة كنت أفكر بأبي. لو كان أبي على قيد الحياة لكنت إنساناً آخر. فوجوده وحده كان يرغمني على العيش بشكل أفضل. إن موته وكل ما جاء بعده قد قادني إلى الهلاك. اليوم ليلاً، رأيته بوضوح أمامي وأنا في شبه نوم ثقيل. كان وجهه جميلاً، صارماً، جاداً ينظر إليّ بثبات. وأنا أنظر إليه بفارغ الصبر، بانتظار نصيحة أو كلمة. وفجأة، صرخت له يائساً: «بابا، بابا، بابا!» عندها أدار رأسه جانباً، وارتفع في الظلام، واختفى».

وفي خريف عام 1916، وعند عودته من تولا، حيث كان يلعب الورق في فندق «بطرسبورغ»، دخل إلى قاعة منزل ياسنايا بوليانا، ورأى على المائدة فتاة شاحبة، شعرها أسود، وعيناها كبيرتان كعيني النسر، طويلة القامة ممشوقة القد. لقد كانت الفرنسية مادلين غرو، مربية أبناء أخيه ميخائيل. وقد جذبته إليها بجمالها وبساطتها بطريقة مختلفة عن الفرنسية جيزيل التي جذبته يوماً ما بذكائها وجديتها. في اليوم التالي، تنزه معها في الحقول مع أبناء أخيه، وكان يشعر، أنهما «بصورة لا إرادية وطبيعية منجذبان جسدياً أحدهما للآخر». وفي مساء اليوم نفسه، جلس في غرفة مادلين حتى وقت متأخر من الليل. «وقد تحدثنا إلى ما لا نهاية، عن كل شيء، عن روعة رحلة، لو سافرا معاً إلى مكان بعيد جداً، إلى الهند مثلاً أو إلى الصين، واختفيا، وابتعدا طويلاً عن أهوال روسيا وأوروبا».

وقد اقترح عليها، على سبيل المزاح، وشبه جاد، أن تكون سكرتيرته، أثناء جولته القادمة حول العالم، والسفر عبر سيبيريا إلى اليابان، ومن ثم إلى الصين، والهند، وأمريكا.

في 11 تشرين الثاني/ نوفمبر عام 1916 غادر ليف لفوفيتش ياسنايا متوجهاً إلى موسكو، ومنها إلى فلاديفوستوك. وعند وداعه، قالت صوفيا أندرييفنا بحزن، أنهما لن ير أحدهما الآخر بعد الآن. ولم يخطئ قلب الأم: فابنها لم يعد بعد ذلك إلى منزله وموطنه...

في فلاديفوستوك كان ينتظر مادلين، التي تأخرت في موسكو بسبب عدم وجود جواز سفر. لكن هذه المرأة الفرنسية هيأت له مفاجأة: فهي لم تحضر وحدها بل مع عشيقها، الطالب الذي كان ينوي الزواج منها. ولماذا جرّته معها عبر البلاد كلها - بقي هذا السؤال لغزاً. لكن ليف لفوفيتش وضع لها شرطاً: إما أن تسافر معه إلى اليابان بصفة سكرتيرة، أو تعود إلى موسكو. واختارت مادلين السفر معه.

يصف بالتفصيل في ذكرياته «رحلته حول العالم» التي توجه إليها بعد أن أعد مسبقاً محاضرتين: «حياة ليف نيقولايفتش تولستوي وتعاليمه» و«قضايا السلام العالمي». ويذكر بصورة عرضية، أنه قبل مغادرته موسكو، كان قد ربح، وبعد ذلك خسر أموالاً كثيرة. وقد أمضى مع مادلين في اليابان شهرين. وكان هناك يسود تقديس تولستوي، حتى إنه كانت تصدر مجلة خاصة، مكرسة له. وقد حققت محاضرات ليف لفوفيتش نجاحاً بيد أن أجورها كانت ضئيلة. وأملاً بكسب المال في أمريكا، توجه إلى سان فرانسيسكو. وفي الطريق عبر هاواي، علم بتنازل الإمبراطور نيقولاي عن العرش.

توقف للاستراحة في هونولولو. ورسخت هذه الاستراحة في ذاكرته لأنه استنار هناك بـ «حقيقة» جديدة: من أجل أن يعيش الإنسان أطول فترة ممكنة، بل وربما كي يصبح خالداً، عليه أن يتحرك باستمرار نحو الشرق، للقاء الشمس المشرقة، بسرعة دوران الأرض. هذه الفكرة المجنونة، من وجهة نظر علمية، لم تفارقه حتى نهاية حياته. وسيكرس لها ثلث كتابه «تجربة حياتي»، ويدعوها «لونغارنو «Lungarno» (وهو اسم ضفة نهر آرنو في فلورنسا -*المؤلف*)، وسيبقى واثقاً حتى نهاية أيامه بأنه أسعد البشرية.

«هذه النظرية - هي أعظم اكتشاف تحقق على سطح الأرض. وقد ابتسم ساخرين منه المعاصرون لي، ومن بينهم رجال العلم، قائلين إنه ليس هناك

أي فرق في الحركة إلى الغرب أو إلى الشرق، لكنني على قناعة عميقة بالتأثير المفيد للحركة إلى الشرق، بحيث لا يمكن لأي شيء أن يزعزع ثقتي بذلك. حتى إنني أعتقد أنها ستفتح للناس الطريق إلى الخلود الجسدي».

في سان فرانسيسكو كان بانتظاره استقبال غير ودي. طرح عليه موظف الجوازات سؤالاً: هل مادلين زوجته؟

«أجبته، لا، وأنها كانت سكرتيرتي.

– فلماذا قلت في هونولولو إنها زوجتك؟

– هي طلبت مني فجأة أن أجيب هكذا، ولم أرغب برفض طلبها.

– هل تعيش معها، كما تعيش مع زوجتك؟

– لا. هي سكرتيرتي فقط...

– هل يمكنك أن تقسم بأنك لم تقم معها علاقة جنسية؟

– أنا لا أقسم أبداً».

أما في الواقع، فهو لم يرغب أن يكذب. لم تكن مادلين زوجته، ولا سكرتيرته، بل كانت عشيقته. لكن الكذب كان مقرفاً مقززاً في طبيعة آل تولستوي. هل تذكّر ليف لفوفيتش في تلك اللحظة، كيف حاصر هو وأخوه أندريه في صيف عام 1910 أختهما ساشا وأباهما، بالطريقة نفسها، وحاولا منهما معرفة حقيقة الوصية، وكيف تلوّيا تحت ضغطهما.

ولكن من المستبعد جداً أنه فكر بذلك آنذاك.

إن الخاصية المميزة البائسة، وربما السعيدة في شخصية ليف لفوفيتش، والتي تسمح له بأن يشعر بنفسه بأنه في الذروة، حتى في أقسى مراحل حياته، كانت ثقته بأن جميع مصائبه ومشاكله ناتجة عن الظروف، وليس عنه شخصياً.

«المسؤول هو المهندس المعماري».

في سان فرانسيسكو التقى بشقيقه إيليا لفوفيتش، الذي وصل إليها قبله، تاركاً عائلته الكثيرة الأولاد، وناوياً الزواج من ناديجدا كليمنتيفنا كاتولسكايا. وقد عانت زوجته الأولى صوفيا نيقولايفنا الأمرّين من فراق زوجها لها، ولم تعط موافقتها على الطلاق إلا في عام 1921. كان إيليا

لفوفيتش يلقي محاضرات عن أبيه في مسرح فودوفيل المحلي، في الفواصل بين الكوميديين والمطربين، وكان يكسب دخلاً جيداً من هذا. وهنا التقى ليف لفوفيتش بالنحّات باولو تروبتسكي، صديق عائلة تولستوي، التي أبدع مجموعة كاملة من الصور المنحوتة لليف نيقولايفتش تولستوي، ومن بينها منحوتته الشهيرة «تولستوي على ظهر الجواد». وكان في أمريكا، كما يكتب ليف لفوفيتش، ينحت صورة عائلية جماعية لأحد ملوك إمبراطورية السكر في أمريكا.

كانت سان فرانسيسكو مدينة نابضة بالحياة من الناحية الثقافية، وبدأ ليف لفوفيتش يرسم خططاً بعيدة المدى: فقد وضع سلسلة جديدة من المحاضرات، وأراد إصدار مجلة خاصة به، وفي رسالته إلى أمه، طلب منها أن ترسل له مؤلفاته الروسية، ناوياً إصدارها في أمريكا... لكن مادلين استلمت رسالة من أمها التي كانت مريضة جداً، وقررت العودة إلى فرنسا. ولم يستطع ليف لفوفيتش إرسالها وحدها. فـ«سكرتيرته» بحلول ذلك الوقت أصبحت «حاملاً». ولسبب ما توجها إلى فرنسا عن طريق كندا، واجتازا قبلها القارة الأمريكية كلها. وبالاختلاف عن سان فرانسيسكو، لم ترق شيكاغو ولا نيويورك لابن تولستوي. ففي نيويورك لم تحقق محاضرته عن السلام العالمي النجاح المرجو، فقد كان لدى الأمريكيين نظرتهم الخاصة للحرب وللثورة الروسية. وكان ليف لفوفيتش، المزعوج يكتب عن الأمريكيين:

«إن هذا الشعب وقح، منحط القيمة، قليل التحضر روحياً وأخلاقياً بغالبيته لدرجة يشعر المرء بمدى الإهانة التي تلحق بالإنسان».

في الطريق من فانكوفر إلى يوكوهاما تعرضت سفينتهما لعاصفة. وقد تذكر ليف لفوفيتش: «شعرتْ مادلين فجأة بألم حاد في أسفل بطنها – وسرعان ما غطى سريرها تيار كامل من الدم الكثيف. وفي هذا البحر من الدماء رفعتُ على راحة كفي جثة صغيرة زرقاء لجنين صغير متكوِّن برأس كبير، بحجم الطائر، وعرضته على مادلين. ثم اقتربت من طاقة السفينة ورميته في البحر...» (تجربة حياتي).

في يوكوهاما نقلوا مادلين من السفينة على نقّالة. بعد إسقاط الجنين رفضت مادلين العيش مع ليف لفوفيتش كعشيقة، خوفاً من أن تحمل من جديد، وهذا، كما يكتب «كان يؤثر عليه تأثيراً سيئاً من جميع النواحي». عموماً، شخصية مادلين ليست واضحة كل الوضوح. ويبدو أنها لم تكن في عجلة من أمرها إلى أمها المريضة في فرنسا. وبعد أن أبحرت مع ليف لفوفيتش من اليابان إلى سيلان على ظهر باخرة محلية، توجها إلى الهند، وزارا جايبور، وأودايبور، وبيناريس، وبومباي، وتمتعا لفترة طويلة بمناظرها الخلابة الجاذبة الغريبة. في بومباي علما أن النقل البحري مع أوروبا متوقف منها. وقد خطرت في ذهن ليف لفوفيتش لفترة من الوقت أن يبقى هنا في بومباي بشكل دائم، وأن يرتزق بصناعة التماثيل. لكن مادلين كانت تسعى إلى فرنسا، فاضطرا للسفر إلى سنغافورة، ومنها بطريق البحر إلى مرسيليا.

كانت الرحلة محفوفة بالمخاطر. فالحرب كانت تدور رحاها، وكانت الغواصات الألمانية تطارد سفينتهما الفرنسية. «كنا نمر من أمام السفن الغارقة فعلاً، التي كانت صواريها معلقة فوق الماء». وذات مرة، بسبب الهجوم الأكيد للغواصات لم تنقذهما سوى العاصفة.

في مارسيليا انفصل عن مادلين. «كان هذا الفراق قاسياً بالنسبة لي، رغم أنني كما هو الحال دائماً في كل شيء، نظرت إليه نظرة فلسفية، غير راغب بأن أحوّله إلى معاناة... إن نثر الحياة أقوى من قصائد الشعر...».

وهنا تنتهي ذكريات ليف لفوفيتش. أما الكتاب الثالث من «تجربة حياتي» فهو مكرس للتأملات الفلسفية. حيث نتعرف على مصيره اللاحق من أبحاث أبراسيموفا، ومن ذكريات ابنه بافل، ومن رسائل ويوميات تاتيانا لفوفنا...

عن حياته في فرنسا في عامي 1917-1918 لا يُعرف أي شيء تقريباً. في ربيع عام 1917 غادرت زوجته دورا مع أبنائها الثمانية روسيا بشكل نهائي وانتقلت إلى السويد. وبحسب ذكريات ابنه بافل، التقى ليف لفوفيتش بدورا في ستوكهولم، بيد أن هذا اللقاء كان شبه سري، بصورة خفية عن الأبناء. ولم تعترف بهذا اللقاء إلا لابنها الأكبر بافل. وقالت لابنها: «لقد بدا، كعادته مثيراً للشفقة، حليق الذقن تماماً كالأمريكي». بيد أنه بعد ذلك مباشرة وصل

ليف لفوفيتش إلى هالمبيوبودا، لكنه نزل في فندق أوبسالا. وقد سألت عنه ابنته الصغيرة تانيا: «إن أبانا هو كونت أليس كذلك؟». غير أنه لم يبد مثيراً للشفقة لابنه بافل: «لم يكن مظهر أبي سيئاً، كما قالت أمي، وكان أنيقاً جداً».

في شهر حزيران/ يونيو عام 1918 يعود ليف لفوفيتش فجأة إلى بتروغراد. لقد كانت هذه الخطوة، من وجهة نظر العقل السليم، خطوة انتحارية! ففي روسيا البلشفية سرعان ما أصبح ممنوعاً عليه مغادرة روسيا. ومن باب الاطلاع، من أجل حصول الشاعر ألكسندر بلوك، المريض مرضاً مميتاً، على موافقة للسفر إلى مصحة في فنلندا، احتاج إلى جهود جبارة من جانب غوركي ولوناتشارسكي (أديب، ووزير التعليم آنذاك -*المترجم*)، واتخذ القرار بالسماح للشاعر بالسفر في اجتماع اللجنة المركزية للحزب وبمشاركة لينين، وخلال الاجتماع تم رفض الموافقة على سفر زوجته لوبوف دميتريفنا مندلييفنا، ما جعل سفر الشاعر مستحيلاً. لقد كان عام 1918 من أشد مراحل الحياة في بتروغراد رعباً وهولاً، حيث كان الناس يأكلون جثث الخيول، وحيث وقف غوركي نفسه ضد البلاشفة وضد لينين في صحيفة «نوفايا جيزن – الحياة الجديدة»، التي أُغلقت في تموز/ يوليو عام 1918. فعلام كان يعتمد ليف لفوفيتش؟

في ذكريات ابنه بافل، تعطى رواية غريبة لا تُصدق عن سبب قدوم أبيه إلى روسيا. وكأنه كان عليه أن يحصل من مخبأ أحد منازل بتروغراد على طوق ثمين من اللؤلؤ، كان قد وعده الكونت ستروغانوف مقابل الحصول عليه بمكافأة سخية. وفي الوقت نفسه، كانت دورا تأمل ببيع منزلهم في شارع تافريشسكي لـ «عمانويل نوبل أو لشخص آخر».

إذا كان الأمر كذلك حقيقة، فإن ليف لفوفيتش، بتوجهه إلى بتروغراد البلشفية، قد تورط في مغامرة خطيرة قاتلة، ميئوس منها.

ولمعرفة مدى خطورة قدومه إلى روسيا، يمكن الحكم من خلال أنه في 20 أيلول/ سبتمبر أُعدم قرب بحيرة فالداي، وأمام أعين أسرته بمن فيهم أولاده الصغار، الصحفي البارز في صحيفة «نوفوي فريميا» ميخائيل أوسيبوفيتش منشيكوف. وفي 5 شباط/ فبراير عام 1919 مات من الجوع

والمرض كاتب دائم آخر في صحيفة «نوفوي فريميا» - هو الفيلسوف والكاتب فاسيلي فاسيليفيتش روزانوف. وكان ليف لفوفيتش أيضاً من كتّاب هذه الصحيفة. ويمكن القول بكل ثقة إنه لولا كنية أبيه، لكان ينتظره بالتأكيد المصير نفسه.

بيد أن صوفيا أندرييفنا تكتب في يومياتها في 8 حزيران/ يونيو (حسب التقويم الغريغوري القديم): «تلقيت برقية سارة من ليوفا بتاريخ 7/ 20 حزيران/ يونيو من بتروغراد». برقية سارة - بالنسبة لصوفيا أندرييفنا، لأنها لم تكن تصدق أن ابنها على قيد الحياة. وفي 6 تموز/ يوليو استلمت منه رسالة: «أمي العزيزة... كان بودي جداً أن آتي أليكم، لكنني أخاف أن لا أعود، ولدي أمور مهمة، شخصية، ولا يمكن وقفها... إنني أسعى للحصول على جواز سفر، ولكن لن أسافر قبل 10-14 يوماً... مرعب جداً أننا لن نتمكن من رؤية أحدنا الآخر، ولا يمكننا عمل أي شيء. فالمصير أقوى من أي شيء آخر، وهذا المصير داخل الإنسان، يقوده ويحركه... وهو موجود خارجه أيضاً، وهو لا يمكنه أن يرسلني إلى ياسنايا بدلاً من السويد».

هذا يعني أنه لم ينو البقاء طويلاً في روسيا. لكن المصير «من الخارج» تصرف بطريقة أخرى. في 18 تموز/ يوليو يكتب لأمه: «أمي العزيزة، خططي انهارت، وعليّ البقاء في روسيا. سآتي قريباً إلى ياسنايا، حيث سوف أحاول أن لا أشكل عبئاً عليك. لا يسمحون لي بالسفر إلى السويد، ولا إلى أي بلد في الخارج».

لقد تم تأميم منازل «البرجوازيين»، لذلك لم يعد يحق له لا بيع منزله في شارع تافريشسكي، ولا حتى الإقامة فيه. نزل فترة قصيرة في شقة المسؤول من البلاشفة عن منزله، ثم استأجر شقة. كان يبدو أن لديه بعض المال، لكنه كان خلال ذلك يتضور جوعاً، ويبيع ما لديه ليأكل بثمنه، ومن ثم كان مضطراً للجوء إلى أمه طلباً للمساعدة: «إذا ما كان هناك من سيأتي من عندكم إلى هنا، أرسلي لي معه شيئاً من المؤونة...».

إن أمه التي كانت تواجه هي نفسها، صعوبات في المواد الغذائية، والتي

بقي من عمرها ما يزيد قليلاً على العام، ساعدت ابنها من جديد. وقد كتب لها في 22 آب/ أغسطس: «أمي العزيزة، استلمت الآن طردك الرائع بما يحتويه من أشياء جميلة. أعانقك، أشكرك جزيل الشكر، أقبلك، وأهنئك بيوم عيد ميلادك الذي كان البارحة، والأهم، أتمنى لك أن تعيشي طويلاً وبصحة جيدة، وأن نلتقي ويرى أحدنا الآخر ونعيش معاً. لقد ذهلت من الوفرة التي بعثت بها إلي في الطرد. الآن على الأقل لن أموت من الجوع، بل سأطعم آخرين».

ما إن فتح الطرد، حتى التهم ثلاث بيضات، ورغيفاً من الخبز، وصحناً من العسل. وهو الذي كان يطعم الفلاحين الجائعين. لقد قُطع عليه الطريق إلى السويد من جانبين: فالبلاشفة منعوا الخروج خارج روسيا، والسويديون منعوا دخول اللاجئين الروس... ووجد ليف لفوفيتش نفسه محاصراً. وفي هذه الظروف يرتكب عملاً لا يمكن تفسيره إلا بأعجوبة!

في ظروف الحصار الإعلامي من جانب البلاشفة، وحيث كان قد تم حظر جميع صحف ومجلات ما قبل الثورة في بتروغراد، بدأ ليف لفوفيتش بإصدار صحيفة «فيستوشكا – الخبر». عاشت هذه الصحيفة أسبوعين، صدر خلالها عشرة أعداد. لقد كانت صحيفة إنسانية النزعة في روح تعاليم تولستوي. وكتبت فاليريا أبراسيموفا: «على صفحات هذه الجريدة الصغيرة، وعلى ورق أصفر رديء، التقى ليف تولستوي الأب وليف تولستوي الابن من جديد، بعد انقطاع طويل، واستعاد أحدهما الآخر بصورة حقيقية».

في 27 آب/ أغسطس عام 1918، وفي روسيا البلشفية، توجه ليف لفوفيتش إلى القرّاء عشية الذكرى التسعين لميلاد ليف تولستوي بالعبارات التالية: «الدين–أساس الحياة»؛ «طهارة الحياة–شرط السعادة الضروري»؛ «لا ترتكبوا أي شيء يتعارض مع ضميركم المسيحي»؛ «ملكوت السماء يُؤخذ بالجهد...».

خنقت السلطة «فيستوشكا – الخبر» بصورة غير مباشرة. فقد حظروا على ليف لفوفيتش نشر قسم الأخبار في الصحيفة. وكان القراء يشترون الصحيفة من أجل هذا القسم، وليس من أجل مُثل ليف تولستوي العليا

وأفكاره. فانخفض عدد نسخها بصورة حادة، واضطر ليف لفوفيتش إلى إغلاقها. مع ذلك، فإن التاريخ القصير لصحيفة «فيستوشكا» مدهش، ولافت للنظر، فابن تولستوي، الذي كان يطمح منذ أن كان طالباً بإصدار صحيفته الخاصة، والذي حاول عدة مرات تحقيق هذا الحلم في روسيا قبل الثورة، وفي الخارج، قام لأول مرة في حياته بدور الناشر، وهذا كان في روسيا «الحمراء»! إن طُرق الرب غامضة...

في أيلول/ سبتمبر عام 1918 سمحت السلطات السويدية، بصورة مفاجئة، لليف لفوفيتش بالقدوم إلى السويد لمدة يومين للقاء أسرته. وكذلك بصورة مفاجئة فتحت النرويج حدودها. ولأسباب غير معروفة أيضاً، حصل على موافقة على المغادرة من السلطات السوفييتية. لقد حدثت المعجزة مرة أخرى!

في 24 أيلول/ سبتمبر غادر ليف لفوفيتش روسيا على ظهر الباخرة إلى الأبد، متوجهاً إلى النرويج، دون أن يرى والدته. كانت تنتظره حياة غامضة غير معروفة في أوروبا. فبماذا كان يشعر آنذاك؟ تتبادر إلى الذهن قصيدة غيورغي إيفانوف:

وهل قلت، يوماً ما، لروسيا وداعاً
(ليلاً عند لقاء نجم القطب)
لم ألتفت إلى الوراء، ولم أرسم علامة الصليب.
ولم ألاحظ كيف وجدت نفسي
في هذه اللجة الأوروبية العمياء.

في هذه «اللجة الأوروبية العمياء» التي تحولت فجأة أوروبا، بالنسبة للمهاجر ليف لفوفيتش الذي كان يمدحها سابقاً (فقد عارض مثلها العليا وقيمها بآراء والده، داخلاً معه في خلافات دائمة) كان عليه أن يعيش عقدين من الزمان إلى أن قرر أبناؤه الكبار نقل أبيهم العجوز المريض إلى السويد. وقد أصبح هذان العقدان المرحلة الأشد بؤساً في حياته.

لا يعرف إلا القليل عما حدث له في السنوات الأولى من وصوله إلى

أوروبا. ويبدو أن أسرته السويدية لم تسمح بقدوم ليف لفوفيتش. ربما بقيت دورا مستمرة في حب زوجها السيّئ السلوك، لكن آل سيلمر- عائلة شقيقتها الكبرى التي كان لها تأثير قوي على دورا، كانت ضده بشدة. فقد كان سلوك الكونت الروسي في أعين الاسكندنافيين الحكماء تجاه عائلته الكبيرة العدد، لا يغتفر. وبعبارة دقيقة، كانوا على حق...

يكتب ابنه بافل: «في هذه المرة، ودّعه الوالدان مستشهدين بكلمات بايرون: «وداعاً، وإذا كان إلى الأبد، فليكن وداعاً إلى الأبد»».

بالإضافة إلى ذلك، كانت الطبيعة العاطفية لليف لفوفيتش تبحث عن مغامرات حب جديدة. في عام 1918، أثناء وجوده في باريس بعد انفصاله عن دورا، تعرّف على ماريانا نيقولايفنا سولسكايا، ابنة المستشار الفعلي نيقولاي مارتينوفيتش سولسكي والغجرية الشهيرة أولغا بتروفنا بانكوفا، الشهيرة باسمها المسرحي ليودكا. وفي 9 آب/ أغسطس عام 1921 ولد عندهما ابن غير شرعي إيفان (جان). طلّق ليف لفوفيتش دورا بصورة نهائية، وتزوج من سولسكايا وسجل جان باسمه. وهكذا ظهر الكونت تولستوي الجديد.

كان مصير هذا الكونت بائساً، محبطاً، وشكل ذنباً فادحاً على ضمير أبيه. من الصعب القول، بم كان يفكر ابن تولستوي عندما تزوج من امرأة غير متعلمة، وببساطة غجرية أميّة. ربما كان يتذكر فعلة عمه، شقيق والده الأكبر - سيرغي نيقولايفتش تولستوي الذي عاش حياته مع الغجرية ماريا ميخائيلوفنا شيشكينا التي اشتراها من معسكر الغجر، وعاش معها في زواج غير شرعي بعد ولادة أبناء غير شرعيين. لكن سيرغي نيقولايفتش لم يكن ملاّكاً فقيراً، أما ليف لفوفيتش فقد أصبح بعد انفصاله عن أسرته الأولى في وضع المتسول. ولم يكن أحد في أوروبا ليهتم بمواهبه في النحت، ناهيك عن الأدب. فقد كانت تجلب له ذكرياته عن والده، التي كان ينشرها في صحف المهجر الروسية وفي الصحف الفرنسية أرباحاً قليلة نادرة.

بصعوبة بالغة تمكن في خريف عام 1921 من الحصول على وظيفة عامل بريد على السكة الحديدية في ألمانيا، لكن هذا العمل كان شاقاً ومرهقاً

لدرجة أنه سرعان ما تركه وعاد إلى باريس. لم تنجح حياته مع سولسكايا لأسباب مفهومة - فقد كانا من عالمين مختلفين. وهجر ليف لفوفيتش عائلته الثانية، تاركاً ابنه إيفان لإرادة القدر.

تقبلت ماريا سولسكايا هذا الانفصال بألم شديد. وكانت تكتب لليف لفوفيتش رسائل يائسة، ممتلئة بالأخطاء اللغوية والهجائية، متوسلة إليه أن يقدم لها ولابنها إيفان شيئاً من المساعدة. ولعملها ممرضة في مدينة نيس لم يكن باستطاعتها تخصيص وقت كاف لتربية ابنها. وقد رعته وربته عملياً جدته أولغا بتروفنا سولسكايا من أداء الأغاني الغجرية الرومانسية («الكُمَيتان»، «المتسولة»، «وهل أنساك» وغيرها) التي كانت تفقد عقول محبي الأغاني الغجرية قبل الثورة.

كتب ليف لفوفيتش لزوجته السابقة:

«لا يمكنني بعد الآن تحمل إهاناتك وفضائحك، والعيش على أموالك، وعدم قطع علاقتي بك نهائياً...».

«سأرحل بصورة نهائية. أرجوك، لا تبحثي عني ولا تحاولي إعادتي. لن يتغير أي شيء، وستكون هناك مشاهد لا لزوم لها فقط...».

بعد رحيل ليف لفوفيتش مباشرة، بدأت ماريا سيلسكايا تبحث عن الحماية لدى أخته الكبرى تاتيانا لفوفنا، التي كانت لا تزال تعيش في روسيا السوفييتية. وأرسلت رسالتين لها، اشتكت فيهما من لامبالاة شقيقها القاسية بمصير ابنها فانيا (إيفان -*المترجم*) وعرضت عليها «مشروعها» للعودة معه إلى روسيا تحت حماية آل تولستوي المقيمين هناك. بيد أن الأرض نفسها كانت تحترق في روسيا تحت آل تولستوي. وبقضية «المركز التكتيكي» اعتقلت مرتين ألكسندرا لفوفنا (ساشا) وأمضت أكثر من عام في معسكر الاعتقال. وفي عام 1928 كانت مضطرة لمغادرة روسيا. وفي عام 1925غادرت تاتيانا لفوفنا سوخوتينا-تولستايا نفسها مع ابنتها تانيا البالغة من العمر عشرين عاماً إلى الخارج.

لقد أصبح إيفان تولستوي، الذي نشأ بدون إشراف أبيه، لصاً صغيراً. وقد اعتقلته الشرطة، وقدمته للمحاكمة، على الرّغم من عدم بلوغه سن

الرشد. وأخذت تصيح الصحف الأوروبية بأن حفيد تولستوي العظيم يسرق الأشياء والمجوهرات من على شواطئ نيس. ولم يفعل ليف لفوفيتش أي شيء من أجل إنقاذ ابنه. بيد أنه في رسالته إلى ابنه نيكيتا في السويد بحث بصورة جدية مسألة إرسال إيفان إلى روسيا، من أجل إدخاله إلى إصلاحية مكارنكو للأطفال. وكتب له: «ربما لا يزال من الممكن جعله رجلاً. إنه ذكي ومثير للشفقة».

في حين أن شقيقة ليف لفوفيتش الكبرى تاتيانا لفوفنا شاركت بشكل أكبر في مصير إيفان.

ففي 23 أيلول/ سبتمبر عام 1937 كتبت لأخيها سيرغي في روسيا: «ثمة خبر مسيء في عائلتنا: لا أعرف هل كتبت الصحف في الاتحاد السوفييتي، ولكن هنا أوروبا كلها تنفخ في الأبواق بأن ابن تولستوي أصبح لصاً! إنه ابن ليوفا من زوجته الثانية. بعد أن طلّق دورا، تزوج من امرأة كنيتها سولسكايا، وأمها غجرية. وقد أنجبا طفلاً اسمه إيفان وأهملاه وقذفا به إلى مصير مجهول، وهو منذ سن العاشرة تعلم السرقة على «البلاج». وقد أُدخل مدرسة إصلاحية، لكنه هرب وعاد إلى السرقة. وعمره الآن 17 عاماً، وتم القبض عليه من جديد. وقد اهتمت بأمره الجالية الروسية في باريس، ويريدون تسجيله في مدرسة مهنية ما والاهتمام به. وسنشارك أنا وتانيا (ابنتها -*المؤلف*) في النفقات.

كم من المرات تحمرّ وجوهنا من الخجل بسبب ليوفا! وهل هذه المرة الأخيرة!».

عن مصير إيفان تولستوي، كمفاجأة مثيرة، كانت الصحف في الاتحاد السوفييتي تكتب مع التركيز على حالة المهاجرين الروس ككل. في تشرين الثاني/ نوفمبر عام 1937 نشرت صحيفة «كمسمولسكايا برافدا» زاوية انتقادية بعنوان «اعترافات شاب».

لم تأت المساعدة للشاب من والده، بل أتت من الشتات الروسي. وقد أكد الكاتب الروسي المهاجر إيفان ناجيفين في مذكراته، أنه هو كان صاحب المبادرة لمساعدته. وبشكل أو بآخر، تم تسليم إيفان للسلطات

الفرنسية تحت حماية اللجنة المركزية لتوفير التعليم العالي للشباب الروسي في الخارج، التي كان يرأسها الصحفي والناقد الاجتماعي ميخائيل ميخائيلوفيتش فيودوروف. وقد جمع المهاجرون الروس في فرنسا وأمريكا بالاشتراكات ستة آلاف فرنك. وتخرج حفيد تولستوي من المدرسة الفرنسية للراديو والكهرباء وتم قبوله متطوعاً في الأسطول الحربي الفرنسي. ولا يعرف مصيره اللاحق، ولكن على الأرجح، استشهد في الحرب العالمية الثانية. كما لا يعرف أي شيء عن مصير سولسكايا...

وتكتب فاليريا أبراسيموفا، أنه «خلال فترة المناقشة العامة لوضع حفيد تولستوي، لم يتذكر أحد والده...».

كانت حياة ليف لفوفيتش في المهجر صفحة قاسية وحزينة من سيرته الذاتية.

بعد طلاقه من سولسكايا، يحاول ليف لفوفيتش من جديد العودة إلى زوجته الأولى دورا ويصله الجواب بالرفض. في آخر كانون الثاني/ يناير عام 1924 توفي الدكتور إرنست ويسترلوند. وقد دُفن بصورة احتفالية كبطل وطني في السويد. وكانت احتفالات دفنه شبيهة إلى حد ما بدفن تولستوي. وكان أحد أكاليل الزهور على قبره من الناس البسطاء، العاملين في المزرعة، مع عبارة «شكراً لك يا دكتور». وأثناء وداعه جاء إلى التابوت آلاف من الناس. ولكن كانت هناك اختلافات أساسية بينهما أيضاً. فقد أقيم قداس لأرنست ويسترلوند في الكنيسة المحلية، وكان تابوته مغطى بالعلم الوطني السويدي.

في أيار/ مايو عام 1933، ونتيجة لحادث مؤسف (اندفع الحصان وانقلبت العربة) توفيت دورا فيودوروفنا تولستايا في هالمبيوبودا. لم تكمل الخامسة والخمسين من عمرها. وبعد الكسر الذي أصاب عمودها الفقري أمضت عاماً وهي مشلولة. لم يزر ليف لفوفيتش زوجته المريضة ولم يحضر جنازتها. يصعب الحكم - هل كان السبب عدم توفر المال لديه للسفر، أو أنه كان من المستحيل بالنسبة له النظر في أعين أقارب زوجته السابقة.

ولكن بحلول هذه الفترة، اكتسب تفكك شخصيته وأوضاعه طابعاً مزمناً وميئوساً منه.

وقد أصبح في الواقع، عالة على ابنه نيكيتا وأخته الكبرى تاتيانا. ولولاهما، لمات جوعاً، دون أدنى شك. في رسائله إلى ابنه نيكيتا، الذي شغل وظيفة علمية وتعليمية رفيعة، ولحسن حظ أبيه لم ينس أباه البائس، كان يعترف أحياناً بأنه لم يبق في جيبه سوى عدة قروش، وأنه لا يمكنه السماح لنفسه بتناول قهوة الصباح. ولا يتوفر لديه أحياناً ورق مناسب لكتابة الرسائل. وأثناء انتقاله في باريس من فندق لآخر، كان يترك حوائجه في صندوق مع كتبه ومخطوطاته كرهن على تسديد ثمن الإقامة. إن رحلتيه إلى أمريكا (1925–1926 و1928) لم تقدما له أية مساعدة. كما أن مشروعه لإنشاء نصب تذكاري لتولستوي في باريس لم يلق الدعم الكافي.

في حالات اليأس، كان يتوجه إلى الإخوة – الكتّاب. في عام 1927 يكتب رسالة من نيويورك إلى غوركي، بعد أن قرأ باللغة الإنكليزية مقالته عن أبيه. «كنت أسير الآن في الجادة الخامسة، وتذكرت رسالتك إليّ حول أنك لا تحبني. أنا أيضاً لم أكن أحبك، أما الآن فقد زال هذا نهائياً، وبالعكس، بعد كتابك شعرت بالقرب منك. سأكون سعيداً لو أنك أنت أيضاً توقفت عن عدم محبتي. لقد كنت على حق، عندما لم تكن تحبني، والآن أصبحت أفضل بكثير، بعد معاناتي من أعباء الحياة الجسيمة...

عدوك السابق – صديقك الجديد ل. تولستوي الصغير».

ويكتب في الرسالة نفسها: «أتعرف، إنني أغدو وأفعل مثل والدي».

لم يرد غوركي على هذه الرسالة...

يمكننا الحكم على موقف الكتّاب السوفييت من ليف لفوفيتش مما كتبه عنه فيكتور شكلوفسكي في سيرة تولستوي الشهيرة ضمن سلسلة «ЖЗЛ» (حياة الناس الرائعين): «... من الناحية الرسمية كان ينتسب إلى الفن، وباعتباره كاتباً سيئاً، ونحّاتاً سيئاً، كان يحترق حسداً من أبيه، وفي يومياته كان يقطع سرده ليكتب عن مدى كراهيته لأبيه».

كان هذا صحيحاً، بصورة جزئية... لكنه كان شديد الفتور والقسوة...

ومع ذلك، وحتى كبار الكتاب الروس في المهجر لم يشفقوا على ابن تولستوي. ففي قسم الوثائق من متحف ليف نيقولايفتش تولستوي تُحفظ

ورقة مكتوبة بخط يد الكاتب إيفان بونين تعود إلى عام 1934، وهي على الأغلب كُتبت نتيجة طلب ليف لفوفيتش منه المساعدة. كُتب النص على ورقة رسمية تحمل علامة فندق ماجستيك Hotel Magestic في ساحة الإتوال l'Etoile بباريس: «عزيزي ليف لفوفيتش، قيل لي إنك بحاجة للمساعدة: «في اتحاد الصحفيين والكتاب. أرجو...» وإلخ. أتمنى لك كل خير. إيفان بونين». وفي ذلك الوقت كان بونين قد فاز بجائز نوبل للآداب. دون كلمة عزاء واحدة، ودون كلمة دعم واحدة.

والطريف في الأمر، أن ليف لفوفيتش كان يفكر في وقت ما بالحصول على جائزة نوبل. ففي عام 1938 كتب لابنه نيكيتا في السويد: «من فضلك... لا تنس في الخريف أن تستعلم لي بصورة جيدة عن: 1) إلى أين تُرسل الأعمال والمؤلفات للحصول على جائزة نوبل (العنوان الدقيق) و2) من يوصي «بالمرشحين للفوز» وأين...».

إلى ماذا كان يطمح؟ إلى الحصول على الجائزة التي كان يتصارع في ذلك الوقت من أجلها عمالقة الأدب مثل بونين، وغوركي، وميريجكوفسكي!

عن موقف أوساط الكتاب الروس المهاجرين من ليف لفوفيتش، يمكننا الحكم، على سبيل المثال، من خلال ذكريات الكاتب الروسي ورجل الأعمال فلاديمير بيمينوفيتش كريموف، الذي كان يقيم في الفيلا الخاصة به في ضواحي باريس (وهو يعد نموذجاً أولياً لبارامون كورزوخين في مسرحية بولغاكوف «الهروب»). التقى كريموف بليف لفوفيتش في باريس في نادي القمار «Cercle Osmann»:

«جلس إلى طاولتنا شخص آخر، ولم أتعرّف عليه على الفور أنه ليف لفوفيتش، لأنه تغير كثيراً خلال هذه السنوات. كنا نتحدث عن شيء ما، وكان لدى ليف لفوفيتش تحت الطاولة إضبارة كبيرة، وبنهاية طعام الغداء، فتحها وأخذ يعرض صوراً مختلفة رسمها لأبيه بمائة فرنك لكل صورة. وقال: «انتبهوا إلى عينيْ والدي، إنهما بليدتان وغبيتان... إنه لأمر مدهش، أنه لم يدرك أحد، أن أبي، على الرّغم من كونه كاتباً موهوباً، كان في الوقت نفسه رجلاً غبياً».

لم يجبه أحد بكلمة واحدة، ولم يشتر أحد أي صورة، وعندما غادر ليف لفوفيتش كان الجميع ساخطين».

كان من الممكن اعتبار ذكريات كريموف اختلاقاً ورسما كاريكاتورياً حاقداً، ولكن للأسف كان هذا، على الأرجح مقالاً صادقاً. فقد حول البؤس والتشرد والعجز عن ترتيب أمور حياته في الخارج، لأسباب خارجية وداخلية، ابن تولستوي إلى كائن كاريكاتوري حي. فاليأس العميق، المترافق مع أوهام العظمة والحسد، وحتى كراهيته لوالده الذي يبدو أنه لا يزال يعتبره المذنب الرئيس في جميع مصائبه - كل هذا قد دمّره من الداخل، وجعل منه أحياناً أضحوكة حقيقية في أعين الناس.

وكانت أخته تاتيانا تعاني من هذا أكثر من الجميع. فقد كانت تعيش في روما، وبفضل زواج ابنتها الموفق كانت في وضع مادي مريح. لكن عائلة ألبرتيني الغنية (أسرة زوج ابنتها -*المترجم*) لم تكن تعتبر أن من واجبها الإنفاق على أخيها أيضاً، ولاسيما أنه مدمن على القمار، ويخسر الأموال التي كان يرسلها له ابنه وأخته. وقد دفعت له عدة مرات نفقات رحلاته إلى إيطاليا، حيث كان يستجم نفسياً، متمتعاً بشمس إيطاليا ونبيذها. لقد كانت طيلة حياتها بمنزلة «مربية أطفال» له، وأنقذته ذات مرة في باريس من الاكتئاب، وكانت الآن مضطرة لأخذه ورعايته. لكن تاتيانا في رسالتها إلى أقاربها وإخوتها لم تخف مشاعرها المريرة تجاه أخيها. والمسألة لم تكن في افتقاره إلى المال المرتبط بإدمانه على القمار. فقد كان السبب الرئيس لمعاناة الأخت كراهية أخيها المستمرة تجاه أبيه...

في أيار/ مايو عام 1931 كتبت إلى أخيها سيرغي لفوفيتش تولستوي تخبره: «أنت تكتب عن ليوفا: إنه «صليبي»، عبئي الثقيل، وأعترف، أنني كثيراً ما أكون معه حادة، وقاسية. إنه شخص عجيب: ومما لا شك فيه، أنه مجنون وغير طبيعي، وبالطبع، أشفق كثيراً عليه. وهو الذي تمكن من تشويه حياته بأسوأ صورة ممكنة، يريد دوماً أن يعلّم الجميع، وبثقة، بأنه يعرف كل شيء أكثر من الجميع. لكن أقسى شيء عنده بالنسبة لي - موقفه من أبينا. إنه لا يدع أية فرصة تفوت دون أن يقول لي ما يصعب علي سماعه ويزعجني. وللأسف يكتب عن أبينا، والمؤسف أكثر، أن هناك من ينشر له كتاباته. إنه

يعيش في باريس في فندق صغير. ويلعب باستمرار في نادي القمار. كان يأتي لعندي عندما كان بحاجة إلى المال. أما الآن فيكتب أنه يريد القدوم إلى روما، وأنه قد حان الوقت أخيراً كي يعيش بهدوء ووفرة مادية، دون أن يدرك أن هذا سيكون مكلفاً لغيره من المال والجهد. لكنني أشفق عليه وقلت له، أن يأتي».

كانت المفارقة في حياة ليف لفوفيتش في المهجر تكمن في أنه بمعارضته لأبيه، كان يكسب المال باسمه، وكان هذا المصدر الوحيد لدخله. ولكن، ربما هذا ما أجج كراهيته لأبيه. كان يعتبر نفسه، حقاً، بأنه أشد ذكاء وأفضل رؤية من أبيه، الذي كان العالم كله يعترف به إنساناً عظيماً، دون أن يلاحظ خلال ذلك «عبقرية» ليف لفوفيتش. وقد رأى في هذا ظلم القدر.

أما عن «بصيرته» و«رؤيته» فيمكن الحكم عليهما من أنه خلال زيارته إيطاليا في أوائل الثلاثينيات، عشِق «العبقري موسيليني» وصنع له تمثالاً نصفياً. وكتب عن الحرب الوشيكة بأن روسيا ستربحها، وسيُقضى على الولايات المتحدة. وما شابه ذلك، وإلخ.

في تأملاته ومجادلاته في مقالاته وكتبه الكاملة غير المنشورة حول السلام العالمي نتيجة اتحاد جميع الدول في دولة واحدة، حاول في نهاية الثلاثينيات كسب المال عن طريق المتاجرة بالسلاح. ومع أنه كان يعيش عالة على أسرتين، شقيقته وابنه، وخسارته في القمار لمئات الفرنكات التي يرسلونها له لتأمين ثيابه وطعامه، كان يعلّم البشرية جمعاء أصول الحياة ولم ير في ذلك أي تناقض. علاوة على ذلك، كان يعتقد، أنه يعد استمراراً لأبيه، ولكن على مستوى أرفع.

في 6 أيار/ مايو عام 1936 كتبت تاتيانا لفوفنا لشقيقها سيرغي لفوفيتش: «غادرنا منذ فترة قصيرة ليوفا التعيس. جاهل، عديم اللباقة، أناني شديد التمركز حول ذاته. يعتبر نفسه عبقرياً ليس أدنى من أبيه. يكره أباه. يقول، إنه «أنا أشعر بالخجل من أبي «I am ashamed of my father». أردت أن أقول له إن أكثر الأسماء عاراً التي مرت عبر تاريخ البشرية كلها – كان اسم الابن الثاني لنوح (المقصود حام –*المؤلف*)، الذي لم يكن يحترم

أباه. وإن تسمية شخص بهذا الاسم تعادل صفعة على خده. لكنه لن يفهم على أي حال».

مع ذلك، بقي ليف لفوفيتش محط إعجاب النساء. ومن وقت لآخر، كان ينسج قصص حب جديدة، كانت شقيقته تاتيانا تخبر أخاه سيرغي بها:

«تخيّل، ليوفا وقع في قصة حب مع أمريكية بكامل فصولها. عجوز، أصلع، بدون أسنان، متسول، ولا يستسلم أبداً...».

«يكتب لي، إنه كان على وشك الزواج من فتاة إيطالية عمرها عشرون عاماً. كان يفكر بأن يلد منها طفلين إيطاليين، ثم غير رأيه وهرب».

«جاء ليوفا: حاولت العثور له على عمل، وجمعته مع سيدات كن يردن نحت تمثال نصفي لصبي. بيد أنه كان يتفوه بالكثير من السخافات، مثل «quoi que-miex-je recois des lettres d'amour أستلم الآن رسائل غرامية أكثر من أي وقت مضى» - وفجأة وجدن أمامهن عجوزاً بأحاديث عربيد باريسي. لا يمكن فعل أي شيء معه... إنه شخص غير طبيعي...».

وتكتب أخيراً: «إنه مهووس بالمسألة الجنسية».

في أواخر الثلاثينيات فكر أبناء ليف لفوفيتش بنقل أبيهم إلى السويد بصورة نهائية. وقد كان هذا أكثر أماناً من إرسال المال له الذي كان يخسره في القمار. وفي شهر تشرين الثاني/ نوفمبر عام 1938 وصل إلى مدينة سيملسبيرغ، إلى منزل ابنه بطرس... وقد نشأت علاقات جيدة بينه وبين أسرة ابنه، وبدأ العودة إلى العمل الأدبي وحاول التفكير على الطريقة السويدية. وقد أخبرت تاتيانا لفوفنا بفرح أخاها سيرغي لفوفيتش في موسكو: «سافر ليوفا إلى السويد» إلى الأبد»، كما يكتب. ولكن لا يمكن الوثوق مما سيفعله غداً. بيد أنني أشعر بالطمأنينة نحوه عندما يكون في السويد. فأبناؤه هناك لا يمكن أن يتركوه جائعاً، كما حدث له في باريس في أحيان كثيرة».

وبعد أن حل ضيفاً عند بطرس، ذهب إلى مزرعة هالمبيوبودا التي كان يملكها ابنه الأكبر بافل. لكن القدر عاقبه بصورة سيئة هنا. فقد حدث معه الخلاف ذاته الذي حدث بينه وبين أبيه في صيف عام 1910، بل وقبل ذلك. إنه الصراع بين الأب والابن...

ومن جديد، حدث كل هذا بسبب بستان التفاح. كان في فترة ما قد علّم أباه كيفية إدارة بستان التفاح، وهذا ما أغضب الأب. فقال الآن لابنه، إن «ألف هكتار من التفاح سيصيبه العفن». لكن الابن لم يتحمل ملاحظة الأب الذي دمر عائلتهم. وفي رسالته إلى نيكيتا يكتب ليف لفوفيتش بكثير من الضغينة ضد بافل: «لقد أخذ باولا (بافل) من أجداده أسوأ الصفات. غبي، متهور، ظالم، وقح... لقد جحظت عيناه، وكنت أنتظر أن يضربني. ولكن اقتصر الأمر على لمسه لكتفي... كان يريد أن يثبت أن ما أملكه في هالمبيوبودا كان من أمه ومنه، وليس مني... لا، لا - كفاني قرباً من الذين يكرهونني. إنه يكرهني».

وفي رسالته التالية إلى نيكيتا، يشتكي: «كاد أن يقتلني هذا الأبله والمجرم. سأبقى بعيداً، بعيداً عنه. إنه يكرهني، ولا أريد السماح له حتى بالاقتراب من قبري... القدر سيعاقبه بشدة...».

بعد المشاجرة مع بافل، قرر أولاده أنه من الأفضل للأب أن يعيش مستقلاً عنهم، مع إتاحة الفرصة له لزيارة أبنائه وأحفاده. عاش فترة من الزمن في مدينة لاندسكرونا، ثم حل ضيفاً على ابنه بطرس، وبعد أن تصالح مع بافل عاش في هالمبيوبودا. وفي عام 1943 ينتقل إلى مدينة هلسينبورغ في جنوب السويد... وكان هذا ملاذه الأخير.

يمكننا الحكم على السنوات الأخيرة من حياة ليف لفوفيتش من خلال رسائله لنيكيتا، وكذلك من «يومياته» التي سجلها خلال أعوام 1943-1945.

كانت الحرب مستعرة في أوروبا... وفي 22 حزيران/ يونيو دخلت القوات الفاشية أراضي الاتحاد السوفييتي. بعد خمسة أيام من هذا الحدث، يكتب ليف لفوفيتش لابنه من سيميلسبيرغ: «لا أفعل أي شيء. لا يمكنني الشروع بأي شيء وأكتفي بالقراءة. في بداية شهر آب/ أغسطس قد يكون لدي عمل تمثالين نصفيين لطفلين. غالباً سأبقى هنا في شهر تموز/ يوليو. لم أتحدث بعد حتى الآن مع أصحاب الشقة. شعرت بكثير من الألم، عندما نسوني في يوم ميلادي الثاني والسبعين. كان من المفروض أن تذكّرهم الطباخة التي صنعت لي فطيرة!؟ هذا الحديث يبقى بيننا. أنت تفهم الآن أفضل، مدى صعوبة العيش عند الأبناء».

عن بداية الحرب التي دخل فيها وطنه، يكتب ليف لفوفيتش بدم بارد: «الشعب الروسي مسكين، والجندي الألماني مسكين! لكن قانون الحياة الأخلاقي لا يرحم ويعاقب الجميع وكل فرد استحق هذا العقاب... وأنا أولهم...».

حتى إنه لا يشعر بعبثية هذه المقارنة: هو وحده مع الشعب الروسي كله!

الحرب تدور على قدم وساق، ويولد أطفال عند أبنائه، إنهم أحفاده. وكأنه لا يلاحظ هذا، ويبقى متقوقعاً حول ذاته... تترك «يومياته» في نفس القارئ شعوراً بالمرارة...

عام 1943

1 كانون الثاني/ يناير. «تركت التدخين. الأبناء والأحفاد».

4-5 كانون الثاني/ يناير. «رشح. زكام. ضعف. نافذة مغلقة».

7 كانون الثاني/ يناير. «أدخن ورق التبغ المفروم».

25-27 كانون الثاني/ يناير. «فكرة الانتحار».

8 شباط/ فبراير. «ليلة عند إليزابيت».

2 آذار/ مارس. «أقلعت عن التدخين بثبات».

نهاية أيار/ مايو. «أفكار حول الرواية».

24 تموز / يوليو. «كلب. فودكا. بحيرة».

31 كانون الأول/ ديسمبر. «وحيد».

عام 1944

1 كانون الثاني/ يناير. «عدم شرب الكحوليات، ما عدا النبيذ. القليل من القهوة. عدم شوي لحم الخنزير... يا إلهي، أنا معك باستمرار. يا إلهي، امنحني القوة لأخدمك».

8 كانون الثاني/ يناير. «يا إلهي، أنا معك دوماً وفي كل مكان».

12 كانون الثاني/ يناير. «يا إلهي، أنا معك. التعب».

3 شباط / فبراير. «القرادة. الفودكا. المطر. الترام».

12 شباط/ فبراير. «لا تقرأ الصحف. لا تستمع إلى المذياع. لا تشرب الفودكا».

25–26 شباط/ فبراير. «القرادة. الشمس. الأعصاب».

5 نيسان/ أبريل. «اشتريت لفافة تبغ».

14نيسان/ أبريل. «أن تكون قوياً».

23 نيسان/ أبريل. «أن تكون قوياً».

29 نيسان/ أبريل. «أن تكون قوياً».

17 تموز/ يوليو. «رسمت بالألوان. سبِحت. دخّنت. المال؟».

9 أيلول/ سبتمبر. «الحلفاء في ألمانيا؟».

عام 1945.

6 كانون الثاني/ يناير. «أشعر بالتعب. أبحث عن مواضيع للمقالات. أتصرف بشكل بشع».

8 كانون الثاني/ يناير. «عليّ أن أصحو!!!».

20 كانون الثاني/ يناير. «اللعبة؟».

9 أيار/ مايو. «نهاية الحرب. أربع أقداح من النبيذ. الفودكا. لفافتا تبغ».

24 تموز/ يوليو. «أن تكون قوياً».

26 تموز/ يوليو. «أن تكون قوياً جداً لما بقي من أيامك».

30 تموز/ يوليو. «القوة في ذاتي».

مدونات مسجلة قبل فترة قصيرة من الموت.

«لا ترغب»

«لا تَدين»

«لا تحلم»

«أن تحب الله وحده».

«لا تتحدث كثيراً»
«لا تفرط في النوم»
«تأمّل»
«صلّ»
«لا تخف من الجديد»
«لا تقتل الوقت»
«لا تدخّن»
«لا تشرب الفودكا»
«لا تخف من النبيذ»
«لا تدع عواطفك تخرج عن الطاعة».

في الصفحات الأخيرة–رسومات: وجوه نسائية جميلة، مركبان شراعيان وباخرة... شهوتان رافقتاه طيلة حياته: النساء وحب الرحلات.

في 18 تشرين الأول/ أكتوبر عام 1945 توفي ليف لفوفيتش في مدينة هيلسينبورغ نتيجة صدمة، ودفن في مقبرة كنيستها المحلية.

كان قد كتب في شهر أيار/ مايو عام 1926 لابنه الحبيب نيكيتا: «من كان يمكنه أن ينجبني، بشكل مختلف عما وُلدت».

مكتبة
t.me/soramnqraa

قائمة المصادر

تتضمن القائمة أهم المصادر والمواد المستخدمة في كتابة الكتاب. وتقسم القائمة إلى أربعة أقسام. القسم الأول والثاني: يتضمنان نصوص ليف نيقولايفتش تولستوي وما كُتب عنه. القسم الثالث: يتضمن نصوص ليف لفوفيتش تولستوي. القسم الرابع: مطبوعات فاليريا نيقولايفنا أبراسيموفا، كبيرة المختصين في حياة ليف لفوفيتش تولستوي وإبداعه، والتي لم يكن هذا الكتاب ليرى النور بدون بحوثها الأرشيفية.

–I–

Толстой Л. Н. Полное собрание сочинений (юби – лейное издание): в 90 т. М., 1928–1958.

Толстой Л. Н. Переписка с русскими писателя – ми: в 2 т. М., 1978.

Л. Н. Толстой и А. А. Толстая. Переписка (1857 – 1903). М., 2011.

Переписка Л. Н. Толстого с сестрой и братьями. М., 1990

Бирюков. И. П. Биография Л. Н. Толстого: в 4 т. М., 2000.

Гусев Н. Н. Летопись жизни и творчества Л. Н. Толстого. М. – Л., 1936.

Гусев. Н. Н. Лев Николаевич Толстой. Материалы к биографии. 1828–1855; 1855–1869; 1870–1881;

1881–1885. М., 1954–1970.
Опульская Л. Д. Лев Николаевич Толстой. Мате –
риалы к биографии. 1886–1892; 1892–1899. М.,
. 1998–1979 –
Лев Толстой и его современники. Энциклопе –
дия. М., 2008.
Толстая С. А. Письма к Л. Н. Толстому. М. – Л.,
1936.
Толстая С. А. Дневники: в 2 т. М., 1978.
Толстая С. А. Моя жизнь: в 2 т. М., 2011.

-II-

Белоголовый Н. А. Воспоминания и статьи. М., 1897.
Булгаков В. Ф. Л. Н. Толстой в последний год его
жизни: Дневник секретаря Л. Н. Толстого. М., 1957.
Булгаков В. Ф. Как прожита жизнь. Воспомина –
ния последнего секретаря Л. Н. Толстого. М., 2012.
Величкина В. М. В голодный год с Львом Тол –
стым. М. – Л., 1928.
Гольденвейзер А. Б. Вблизи Толстого. М., 2002.
Гусев Н. Н. Два года с Л. Н. Толстым. М., 1973.
Жиркевич А. В. Встречи с Толстым. Дневники
и письма. Тула, 2009.
Кузминская Т. А. Моя жизнь дома и в Ясной По –
ляне. М., 1986.
Л. Н. Толстой: pro et contra. СПб, 2000.
Л. Н. Толстой в воспоминаниях современников:
в 2 т. М., 1978.

Л. Н. Толстой и его близкие. М., 1986.
Лев Толстой и голод. Н. – Новгород, 1911.
Маковицкий Д. П. У Толстого. 1904–1910. Ясно – полянские записки Д. П. Маковицкого// Литера – турное наследство. Т. 90: в 4 кн. М., 1979.
Микулич В. (Веселитская Л. И.) Встречи с писа – телями. Л., 1929.
Муратов. М. В. Л. Н. Толстой и В. Г. Чертков по их переписке. М., 1934.
Сухотина – Толстая Т. Л. Воспоминания. М., 1980.
Сухотина – Толстая Т. Л. Дневник. М., 1987.
Толстая А. Л. Дочь. М., 2000.
Толстая А. Л. Отец: в 2 т. М., 2001.
Толстой И. В., Светана – Толстая С. В. Пути и судьбы. Из семейной хроники. М., 2000.
Толстой И. Л. Мои воспоминания. М., 1969.
Толстой С. Л. Мать и дед Л. Н. Толстого. М., 1928.
Толстой С. Л. Очерки былого. Тула, 1975.
Толстой С. М. Дети Толстого. Тула, 1994.
Уход и смерть Льва Толстого. Корреспонден – ции. Статьи. Очерки. СПб, 2010.

-III-

Толстой. Л. Л. Опыт моей жизни. Переписка Л. Н. и Л. Л. Толстых. М., 2014.
Толстой. Л. Л. Опыт моей жизни. – «Окно». Ли – тературный журнал, 2011–2013, №№ 8 (11) – 12 (15). Подготовка текста, публикация и комментарий

Валерии Абросимовой.
Толстой Л. Л. В Ясной Поляне. Правда об отце и его жизни. Прага, 1923.
Толстой Л. Л. Яша Полянов. Воспоминания для детей из детства. М., 1899.
Толстой Л. Л. «Прелюдия Шопена» и другие рас – сказы. М., 1900.
Толстой Л. Л. Современная Швеция в пись – мах – очерках и иллюстрациях. М., 1900.
Толстой Л. Л. В голодные года. М., 1900.
Толстой Л. Л. Против общины. Три статьи. М., 1900
Толстой Л. Л. Памятка русского солдата. СПб, 1907.
Толстой Л. Л. Любовь. Рассказ. – «Книжки Неде – ли», журнал, 1891, № 3.
Толстой Л. Л. Монте – Кристо. Рассказ. – «Род – ник», журнал, 1891, № 4.
Толстой Л. Л. Поиски и примирения. Роман в 4 – х частях. – «Ежемесячные сочинения», журнал, 1902, №№ 1–12
Толстой Л. Л. Отрывок из моего дневника 1903 года. – «Столица и усадьба», журнал, 1914, № 4.
Письма Л. Л. Толстого к Лескову. – «Литератур – ное наследство», т. 101, кн. 2. М., 2000.
Толстой Л. Л. Письма к отцу и матери. – РО ГМТ.
Толстой Л. Л. Ежедневник (1943–1945). – РО ГМТ.

-IV-

Отец и сын. По страницам дневниковых записей

и мемуаров Л. Л. Толстого. Подготовка текстов, пу –
бликация и комментарии В. Н. Абросимовой
и С. Р. Зориной. – Лица. Биографический альманах.
М. – СПб, 1994.
Абросимова В. Н. Л. Л. Толстой и М. Горький (по
архивным документам). – «Вестник Московского
университета». Серия 9. Филология, 1995, № 2.
«... Время идет интереснейшее...» (Письма
Л. Л. Толстого к Николаю II). Публикация В. Н. Абро –
симовой и С. Р. Зориной. – Ежегодник рукописно –
го отдела Пушкинского дома на 1992 год. СПб, 1996.
Абросимова В. Н. Сын великого Толстого, война
и Америка (по архивным материалам). – Toronto
Slavic Quarterly. Academic Electronic Journal in Slavic
Studies, 2008, № 24.
Абросимова В. Н. Зигзаги судьбы Льва Толсто –
го – младшего (по архивным материалам). – Toronto
Slavic Quarterly. Academic Electronic Journal in Slavic
Studies, 2008, № 26.
Абросимова В. Н. «Вероятно, уеду в «Подариж».
опять осенью...» (Париж и Франция в судьбе
Л. Л. Толстого). – Лев Толстой и Сибирь. Выпуск
третий. Кемерово, 2012.
Абросимова В. Н. Хронологическая таблица
жизни и творчества Льва Львовича Толстого. –
«Окно». Литературный журнал, 2013, № 12 (15).

الفهرس

احذرْ! إنه تولستوي! 9

الفصل الأول: ياشا بوليانوف 13

الفصل الثاني: الصبي المرهف 43

الفصل الثالث: ينقطع الحبل عندما يصبح رفيعاً.............. 85

الفصل الرابع: في سنوات الجوع 129

الفصل الخامس: «أريد أن أعيش!»........................185

الفصل السادس: روسيا هي المرض........................233

الفصل السابع: تيغر تيغروفيتش (نمر نمروفيتش) 281

الفصل الثامن: المستشار السري........................321

الفصل التاسع: تمثال نصفي للأب........................359

الفصل العاشر: حرب الإخوة........................387

الخاتمة: انهيار الشخصية........................407

قائمة المصادر........................443

يكتب بولغاكوف في ذكرياته: «ابتعدنا عن الباب حزانى، وأمي بادئ ذي بدء، التي لم تفرح بالإقامة في موسكو بالفندق، والأهم أنها كانت خائفة ومضطربة من المرض الرهيب، الذي أهملت علاجه، وكان تأجيل القرار بإجراء العملية الجراحية كل يوم إضافي يكاد يرقى إلى الحكم بالموت».

وعندها قرر بولغاكوف اللجوء، طلباً للمساعدة، إلى صوفيا أندرييفنا تولستايا، التي كان يعتبرها «أمه الثانية». فأمام عيني سكرتير تولستوي الأخير حدث النزاع العائلي القاسي الرهيب الذي سبق هروب تولستوي من ياسنايا بوليانا. وقد عاش في منزل ياسنايا بوليانا بعد وفاة الكاتب أيضاً، من كانون الأول / ديسمبر عام 1912 إلى شهر آب/ أغسطس عام 1916، حيث كان يمارس وصف وتنظيم مكتبة ليف تولستوي الشخصية. وفي هذه الفترة أصبح قريباً جداً من صوفيا أندرييفنا التي ارتبط معها بعلاقات البنوّة. فعندما سكن بولغاكوف لأول مرة في ياسنايا بوليانا في كانون الثاني/ يناير عام 1910، قبل فترة قصيرة من هروب تولستوي وموته، لم يكن قد أكمل عامه الرابع والعشرين. وكان أبناء صوفيا أندرييفنا وليف نيقولايفتش الحقيقيون سيرغي، إيليا، ليف، أندريه، ميخائيل يقيمون منفصلين عن أسرتهم، في عقاراتهم، وفي موسكو، وبطرسبورغ، وخارج روسيا، ولا يحضرون إلى ياسنايا بوليانا إلّا في زيارات قصيرة مع زوجاتهم وأولادهم.

وهكذا حصل أن «بولغاشا» (بولغاكوف)، الحسّاس دوماً والمتعاطف دائماً مع صوفيا أندرييفنا أصبح بمنزلة ابنها.

كان البروفيسور سنيغيريف قريباً من أسرة تولستوي. ففي خريف عام 1906، وفي منزلها بياسنايا بوليانا، وعلى مسؤوليته الخاصة، أجرى لصوفيا أندرييفنا عملية جراحية عاجلة ومعقدة باستئصال كيس صديدي لم يكن يقدم عليها أي جراح عادي في تلك الظروف. وقد أنقذ بذلك حياة زوجة الكاتب. أرسل بولغاكوف برقية لصوفيا أندرييفنا كي تخاطب سنيغيريف بشأن والدته. يقول بولغاكوف: «في اليوم التالي، وصلني جواب ببرقية من صوفيا أندرييفنا الغالية، أن رغبتي قد تم تنفيذها».

telegram @soramnqraa